

تاريخ ليبيا الاقتصادي

١٩١٤ - ١٩٢٦

مسعود ضاهر

دكتور في التاريخ

p31B.

Ali Rbaul Hosh

A

956.9203

D129t

تاريخ لبنان
الاقتصادي
١٩١٤ - ١٩٢٦

مسعود ضاهر

دكتور في التاريخ

دار الفارابي - بيروت

الاقــداد

الى الذين ناضلوا ضد الانتداب ومن
اجل الاستقلال
الى موحي نضال الكادحين على ارض
لبنان
والعاملين على ضرب الطائفية والانعزالية
والتفرقة العنصرية .

مسعود ضاهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبعة أولى

تشرين اول - ١٩٧٤

صفحة

* الباب الاول : من لبنان الصغير الى لبنان الكبير .

١٧

١٩

١٩

٢٤

٢٥

٢٨

٣١

٣١

٣٣

٣٨

٤٢

٤٥

٤٥

٤٧

٥١

٥٣

٥٣

٥٥

٥٧

٥٨

٦٠

□ الفصل الاول : سياسة الوفاق الاستعماري في الشرق الاوسط

وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان

★ القطب الشرقي لمحور السياسة الاستعمارية الفرنسية

★ التفتيش عن دعم داخلي للمخططات الفرنسية

★ موقف اللبنانيين ايام الحرب العالمية الاولى

★ بروز الصراع مجددا بين حلفاء الامس الفرنسيين والانكليز

★ موجبات الاتفاق الفرنسي - الانكليزي لعام ١٩١٩

اولا : الخطر الاميركي

ثانيا : خطر المد الوطني المدعوم من الثورة السوفياتية

★ ميسلون او معركة المصير المحتوم

★ دولة لبنان الكبير في الميزان

□ الفصل الثاني : من المتصرفية الى لبنان المعاصر، توازن من نوع جديد

★ لبنان المتصرفية

★ نظام المتصرفية في الميزان

★ دولة لبنان الكبير

★ مجتمعان لبنانيان لا مجتمع واحد

أ : في توزيع الملكية الزراعية

ب : في توزيع السكان والطوائف

★ بعض الايضاحات

★ الفرنسيون حققوا التوازن الطائفي في لبنان

★ دولة طائفية ام طبقية ؟

□ الفصل الثالث : صك الانتداب في التطبيق العملي

- ٦٣ صك الانتداب
٦٣ سياسة التجزئة الاستعمارية
٦٥ أجهزة الإدارة الفرنسية في سوريا ولبنان
٦٦ أ : المفوض السامي
٦٦ ب : السكرتير العام
٦٩ ج : دوائر المفوضية العليا
٧٠ د : مندوبون ومستشارون
٧٢ الإدارة اللبنانية بين الموظفين الفرنسيين والعناصر الوطنية
٧٥ النفقات الباهظة للإدارة العسكرية
٨٠ بعض أساليب الإدارة العسكرية الفرنسية في سوريا ولبنان
٨٣ سياسة التمييز العنصري في الأجور بين عمال وموظفي الإدارة الواحدة
٨٥ ضياع أراضٍ لبنانية في الحولة
٨٧ فشل الإدارة العسكرية في سوريا ولبنان

* الباب الثاني : بيروت تحجب لبنان وجميع دويلات الانتداب الفرنسي

- ٩١ □ الفصل الأول : تجارة بيروت قلب الانتداب النابض
٩٣ تجارة بيروت قبيل الحرب العالمية الأولى
٩٣ مرفأ بيروت في نهاية الحرب
٩٤ ازدهار الحركة التجارية في مرفأ بيروت
٩٥ الاختلال الكبير في الميزان التجاري
٩٧ مرفأ بيروت يحجب باقي المرافئ اللبنانية والسورية
٩٩ أ : مرفأ طرابلس
٩٩ ب : مرفأ صور وصيدا واللاذقية والاسكندرون
١٠١ نماذج من أنواع السلع المستوردة والمصدرة ١٩٢٣ - ١٩٢٤
١٠٢ ربط الزراعة المحلية بالسوق العالمية
١٠٣ تجارة الترانزيت وإعادة التصدير
١٠٥ السياسة الجمركية للانتداب الفرنسي
١٠٦ أ : المعاهدات التجارية
١٠٦ ب : الرسوم الجمركية
١٠٨ لماذا فرضت الولايات المتحدة سياسة « الباب المفتوح »
١٠٩ في صكوك الانتداب ؟
١١١ هيمنة الرساميل والشركات الفرنسية
١١٢ تغيير جذري في مواقع الدول المصدرة إلى مرفأ بيروت

- ١١٤ ★ ضرب الاقتصاد اللبناني لصالح القطاع التجاري
١١٥ ★ نشوء بورجوازية تجارية بيروتية « أممية » السمسرة والوساطة
□ الفصل الثاني : ربط الاقتصاد اللبناني بعجلة الفرنك الفرنسي
١١٩ والشركات الفرنسية في بيروت
١١٩ الحرب العالمية الأولى تغير الموازين المالية السابقة
١٢١ ★ الفوضى المالية في سوريا ولبنان
١٢٤ ★ التكاليف على الذهب المدخر في سوريا ولبنان
١٢٦ ★ سياسة الانتداب في الحقل المالي
١٢٩ ★ المؤسسات المالية والمصارف الفرنسية في بيروت
١٣١ أ : بنك سوريا ولبنان الكبير
١٣٣ ب : المؤسسات المالية الفرنسية الأخرى
١٣٥ ★ المكانة الأولى للشركات والمؤسسات المالية الفرنسية
١٣٨ ★ أسس دولة رأسمالية في لبنان المعاصر
١٣٩ ★ بعض الملاحظات

□ الفصل الثالث : ولادة قطاع جديد : الاصطياف في جوار بيروت

- ١٤٣ ★ بيروت قاعدة بحرية للملاحة الدولية
١٤٣ ★ الخطوط الحديدية تربط بيروت بالداخل
١٤٤ ★ النقل بالسيارات يختصر المسافات
١٤٥ ★ الازدياد الهائل في عدد السيارات
١٤٦ ★ أثر المواصلات في نمو قطاع الاصطياف
١٤٩ ★ دور بيروت في امتصاص خيرات الاصطياف
١٥١ ★ الهجرة اللبنانية تدعم قطاع الاصطياف وتنميه
١٥٢ ★ الاصطياف قطاع وافر الأرباح
١٥٥ ★ بعض الاستنتاجات
١٥٦

□ الفصل الرابع : التعليم الخاص يهيمن على التعليم الرسمي

- ١٥٩ ★ التعليم في سوريا وجبل لبنان حتى الحرب العالمية الأولى
١٥٩ أ : التعليم العالي
١٥٩ ب : التعليم الثانوي والابتدائي
١٦١ ★ « معاداة الاكليروس ليست سلعة قابلة للتصدير » إلى لبنان
١٦٥ ★ التنافس الحاد بين جامعة القديس يوسف والجامعة الأميركية
١٦٨ أ : في مجال الطب والصيدلة
١٦٩ ب : تدريس الحقوق في لبنان حكر على اليسوعية
١٧١

- ج : في الهندسة وطب الاسنان وباقي المجالات
د : آفاق تطور الجامعتين
★ التعليم الثانوي في ظل الفرنسيين
★ التعليم الابتدائي أيام الانتداب
★ معركة العلمانية نصر آخر للسوريين
★ النتائج الاجتماعية لهيمنة التعليم الخاص في لبنان
★ بعض الاستنتاجات

✳ الباب الثالث : الارياف اللبنانية في مطلع عهد الانتداب

□ الفصل الاول : سياسة الانتداب تدعم مركز كبار الاقطاعيين في الريف اللبناني

- ★ النظام العقاري التركي المطبق في لبنان
★ الملكية العقارية في لبنان حتى الحرب العالمية الاولى
أ : الجبل
ب : في المناطق اللبنانية الاخرى
★ الحرب العالمية الاولى تؤزم وضع الفلاحين في الجبل
★ مراسيم الانتداب تعطي الواقع السيء صفة حقوقية
أ - توسيع ملكية الدولة
ب : المساحة والتحديد يشبان قانونيا النهب السابق
ج : حق الشفعة يرسخ الملكية العقارية الكبيرة غير المجزأة
د : السخرة ترتدي طابعا قانونيا
★ استمرار الوجود الاقطاعي والسيطرة الاقطاعية في الريف اللبناني
★ البنك الزراعي يدعم كبار الاقطاعيين والضرائب ترهق الفلاحين
★ النتائج الاجتماعية لسياسة الانتداب في الريف اللبناني
أ : ترسيخ الملكية العقارية الكبيرة
ب : اعطاء الاقطاعيين السلطة التنفيذية المطلقة في مقاطعاتهم
ج : دور نظام المغارسة في ابراز الملكية العقارية الصغيرة في الارياف اللبنانية
د : بداية ظهور البروليتاريا الزراعية
هـ : بين الملكيات الكبيرة جدا والمتناهية في الصغر
★ استمرار تمايز جبل لبنان عن سائر الارياف اللبنانية
★ بعض سمات الريف اللبناني في نهاية المرحلة الانتدابية الاولى

□ الفصل الثاني : ملامح من الحياة الاجتماعية اللبنانية

١ - المسكن اللبناني :

- ★ التجمعات السكنية
★ دلالة البيت اللبناني في الريف
★ مسكن فقراء الريف والمدينة
★ مسكن الفلاح المتوسط والعامل المسور
★ مسكن تجار المدن واعيان الريف

٢ - العائلة اللبنانية :

- ★ بنية العائلة اللبنانية
★ الزواج المبكر
★ الزواج من بنت العم
★ كثرة الاولاد
★ الاسرة اللبنانية بين العائلية والزواج الحر
★ ابرز سمات الزواج في لبنان
أ : الوجه الطبقي
ب : الوجه الاقليمي
ج : الوجه الديني الطائفي
★ الفتاة اللبنانية ضحية الشرع والتربية والتقاليد
★ استقلال للرجل والمرأة لا استقلال الرجل للمرأة
★ تعليم الفتاة واثره على تطور الحركة النسائية في لبنان

٣ - نظام العمل في الريف اللبناني :

- ★ المحاصصة او المزارعة
أ : نظام المزارعة
ب : نظام الشركة الحموية
ج : نظام الشركة الحلبية
د : نظام الخمس
★ نظام الالتزام الدائم او العمل القسري مدى الحياة
★ الالتزام السنوي
★ الاجير السنوي
★ الاجير الموسمي
★ الاجير الشهري
★ الاجير اليومي

٢٤٧	★ أدوات الزراعة والري
٢٤٨	★ لمصلحة من اختلاف المكايل والمقاييس والاوزان ؟
٢٥١	★ سمسار المدينة يشارك أيضا في نهب الفلاحين
٢٥١	★ سوء نظام التفضية
٢٥٣	★ سوء العناية الصحية
٢٥٤	★ بعض الملاحظات
٢٥٧	✳ الباب الرابع : الحركة السياسية في لبنان : من الحكم العسكري المباشر الى الديمقراطية الشكلية (١٩١٨ - ١٩٢٦)
٢٥٩	□ الفصل الاول : بين الرفض المطلق والتبعية الكاملة للانتداب (١٩٢٠ - ١٩٢٤)
٢٥٩	★ تيار القومية العربية العلمانية
٢٦١	★ أضواء على مواقف اللبنانيين من الاتحاد والانفصال والانتداب (١٩١٨ - ١٩٢٠)
٢٦١	١ : في الداخل
٢٦٦	ب : في الخارج
٢٦٦	(١) حزب سوريا الفتاة
٢٦٧	(٢) الحزب الوطني العربي
٢٦٨	(٣) الجمعيات السياسية في المهجر الاميركي
٢٦٨	(٤) في مصر
٢٧٠	★ غورو يحسم الموقف لصالح دعاة الانفصال ومؤيدي الانتداب
٢٧٢	★ النضال ضد الانتداب يوحد بين الوطنيين من جميع الطوائف
٢٧٣	★ الحركة السياسية في لبنان (١٩٢٠ - ١٩٢٤)
٢٧٣	اولا : الموالون للانتداب
٢٧٣	(١) التيار الطائفي الرفض لعروبة لبنان
٢٧٥	(٢) في النقابات
٢٧٥	١ : بين عمال الصناعات والمدن
٢٧٨	ب : بين العاملين في الزراعة والارياض
٢٧٩	(٣) ولادة التيار الشعبي
٢٨٠	ثانيا : المعارضون للانتداب
٢٨٠	(١) في الخارج
٢٨٣	(٢) في الداخل
٢٨٤	(٣) النضالات المطالبة المشتتة

٢٨٧	□ الفصل الثاني : مرحلة النضال الديمقراطي العام وولادة الدستور والجمهورية في لبنان (١٩٢٤ - ١٩٢٦)
٢٨٧	★ جذور الفكر الاشتراكي العلمي في لبنان
٢٩١	★ الحياة السياسية عند أرمن سوريا ولبنان
٢٩١	(١) الهجرة الارمنية الى لبنان وسوريا
٢٩٣	(٢) الاحزاب السياسية الارمنية
٢٩٤	(٣) شبيبة سبارتاك الارمنية رافد اشتراكي آخر ضد الانتداب
٢٩٧	★ دور ساراي في تفتيت الجبهة الموالية للانتداب .
٢٩٩	★ النضال الديمقراطي ضد الانتداب
٢٩٩	(١) الحزب الشيوعي يقود بالسر خطى حزب الشعب اللبناني
٣٠٢	(٢) حزب الشعب اللبناني مرحلة هامة للنضال المطلي
٣٠٤	(٣) مهرجان الكريستال يرسخ دور حزب الشعب اللبناني في قيادة المعارضة
٣٠٧	(٤) حزب الشعب اللبناني يتجه نحو تجذير المطالب الاجتماعية
٣٠٩	(٥) وجهاً لوجه امام السلطة الانتدابية وضرب الحزب الشيوعي
٣١٣	★ دستور ١٩٢٦ وعلان الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب
٣١٦	★ بعض الاستنتاجات
٣١٩	خاتمة
٣٢٣	مكتبة البحث
٣٢٥	مراجع باللغة العربية
٣٢٩	جرائد ومجلات باللغة العربية
٣٣١	وردت أسماؤها في الكتاب
٣٤٥	مراجع باللغة الاجنبية
٣٥٥	فهرس الاعلام
	فهرس الاماكن

توطئة

« لم يكتب التاريخ الا بشكل سرد قصصي . وانا كلي رغبة لكتابة تاريخ العادات والتقاليد الاجتماعية ، لكتابة تاريخ العلوم والقوانين والاعراف . في كل ما قرأت ، لم أر الا تواريخ الملوك ، وما أريد هو تاريخ الناس ، كل الناس » .

تلك كانت صيحة فولتير عام ١٧٧٤ ، والتي ما تزال تحمل الكثير من الصواب حول كتابة تاريخ لبنان ، تاريخ اللبنانيين ، كل اللبنانيين . فالتاريخ علم قادر على استخدام واستكشاف قوانين التطور الاجتماعي . ومهمة المؤرخ الرئيسية في الوقت الحاضر باتت في دراسة وكشف قوانين الانتاج وقوانين تطور القوى المنتجة ، وعلاقات الانتاج . بمعنى آخر تاريخ قوانين التطور الاقتصادي والاجتماعي ، تاريخ منتجي الخيرات المادية لا تاريخ الملوك والقادة والطوائف ، تاريخ الناس ، كل الناس . هؤلاء الذين صنعوا تاريخهم بأنفسهم ، لا وفق ارادات فوقيّة او اقوال وتصريحات بل نتيجة الوضع الاقتصادي والاجتماعي السائد آنذاك ومدى استفادة الفرنسيين من هذا الوضع وثماره لصالح رساميلهم ومصالحهم المتغلطة في سوريا ولبنان حتى « النخاع الشوكي » قبيل الحرب العالمية الاولى .

ان معرفة تاريخ لبنان المعاصر وتطور المجتمع اللبناني هي معرفة ممكنة استنادا الى القوانين الموضوعية لتطور هذا المجتمع ، وذلك وفق دراسة علمية تاريخية لا وفق تكديس احتمالات وفرضيات ومذكرات السياسة ورجال الدين اللبنانيين . فهذه المذكرات بطبيعتها تتناول حياة فرد واحد ، غير معزول اجتماعيا عن البيئة التي عاش فيها . والمذكرات لا تقدم في احسن الاحوال ، الا سلوك هذا الفرد الاجتماعي تجاه محيطه والتأثير المتبادل بينهما . اي ان تلك المذكرات توضح شخصية الفرد عن طريق حوارهِ مع نفسه ومع الآخرين ، عن طريق علاقته الاجتماعية بالآخرين ، عن طريق انعكاس البيئة الاجتماعية على شخصيته وتكوينه السياسي والفكري والاجتماعي . فلا قيمة للمذكرات الا اذا وضعت في اطارها الاجتماعي التاريخي ، اي في انسجامها مع القوانين العامة لتطور المجتمع اللبناني وليس بايراد بعض الاعمال الفردية « البطولية » . من هنا نقول بأن استنادنا الى مذكرات الزعماء اللبنانيين ، دينيين ومسيحيين ،

لم تكن الا في الحالات التي لم نستطع فيها الحصول على دراسات علمية ووثائق تاريخية بسبب العرف الاستعماري الفرنسي القاضي بعدم الافراج عن الوثائق الا بعد مرور خمسين عاما على أحداثها . فالارشيف الفرنسي كان مقلدا في وجه هذه الدراسة التي اعتمدت بأغلبية مراجعها على الدراسات الجامعية ورسائل الدكتوراه والكتب العلمية الرصينة مع الاستناد ايضا الى تقارير ادارة الانتداب الفرنسي المرسلة الى عصبة الامم سنويا ، ومجموعات المراسيم والقوانين الصادرة عن تلك الادارة في سوريا ولبنان ، والتي جاءت وفيرة في الكتاب .

بيد ان هذه الدراسات والكتب والمجموعات كانت تتناقض احيانا بفعل تناقض آراء واضعائها وتناقض سياسة الانتداب بالذات وتبدلها المستمر وتهمل العديد من جوانب دراسة المجتمع اللبناني . لذا سارعنا الى الاستعانة بالعديد من الاحياء اللبنانيين ، وعلى مختلف المستويات ، من رؤساء وزارات سابقين ووزراء ونواب وتجار وحقوقيين وضباط وصناعيين وتقنيين وعمال وفلاحين ، وكانت شهادات هؤلاء بحق اصدق الحقائق التاريخية التي وردت في هذا الكتاب والتي اعتمدنا فيها على ما اتفق عليه اجماع شهود العيان لا على مجرد ذكريات فردية غير ثابتة تاريخيا . فالى جميع من استشهدنا بأقوالهم ودراساتهم نتقدم بالشكر العميق .

هذا الكتاب جديد في منهجيته وتحليله واستنتاجاته حول تاريخ لبنان المعاصر . فهو يستند اساسا الى منهج التاريخ الاجتماعي القائل بأن الحدث الاجتماعي ليس معزولا عن البيئة التي أنتجته ، وان الاحداث الاجتماعية المفككة لا تكون تاريخا بقدر ما تكون نماذج تاريخية معينة خاضعة زمانيا ومكانيا للتراكم التاريخي الكمي والنوعي . فالحدث الاجتماعي يستمد وجوده من علاقة اجتماعية ثابتة ومحددة في الزمان والمكان ، وتنتفي استقلالته عن الاطار العام لتلك العلاقة الاجتماعية التاريخية . بمعنى ان الحدث الاجتماعي ليس هدفا تاريخيا يسعى اليه المؤرخ لذاته ، وليس حقيقة تاريخية مطلقة ، فالحقيقة التاريخية الفردية المطلقة لا وجود لها في التاريخ الاجتماعي ، بل هنالك قوانين موضوعية تتحقق في الزمن التاريخي وتتراكم بفضل نشاط الناس وقدراتهم ككائنات واعية . فليس ثمة هدف داخلي ، لا في التاريخ ولا في الحدث التاريخي ، حركه منذ البداية ولا زال يحركه ، بل سير التاريخ عملية مشروطة لها اسبابها وقوانينها ونتائجها . وهذه الاسباب والقوانين والنتائج موجودة في النشاط الانساني وحده الذي يحدد الاهداف التي يضعها الناس نصب اعينهم ويحدد معها كذلك امكانية تحقيقها، ضمن التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية لتطور هذا المجتمع بالذات .

هل يعني هذا ان هنالك قوانين تاريخية « جاهزة » استعنا بها فطبقتها على المجتمع اللبناني باسم « نظرية التاريخ الاجتماعي » ؟ في الواقع ، نحن لا نؤمن بوجود مثل هذه القوالب الجامدة اطلاقا ، الا ان تكوين المؤرخ الثقافي ذو اثر هام في دراسته وتحليله واستنتاجاته . فلا وجود لمؤرخ دون ثقافة تاريخية . هذه الثقافة التاريخية بالذات هي المنطلق النظري والاساسي لتحديد عمل المؤرخ وكتابته للتاريخ . فنحن لم ننطلق من افكار مسبقة و « قوانين جاهزة » نحاول ايجاد الدعم والاستشهادات لها في تاريخ لبنان المعاصر ، بل كان جهدنا منصبا على تحليل جميع المعطيات والحقائق

التاريخية المتوافرة لدينا بكثرة لاستنتاج تلك القوانين الخاصة بتطور المجتمع اللبناني . وبالتالي ، كان انطلاقنا من الحقائق التاريخية التي هي نتاج تاريخي لنشاط اللبنانيين انفسهم وذلك لاستنباش القوانين التاريخية لتطور المجتمع اللبناني وفهمه ورسم آفاق تطوره بحيث تناولنا الفترة التي درسناها كسبب للفترة التي سبقتها وكسبب للفترة التي لحقت بها . فكان هدفي اذا ، كمؤرخ اجتماعي يدرس تاريخ لبنان ، تحليل الماضي واعطاء صورة عن المستقبل في الوقت نفسه . وصورة المستقبل هذه ، لا تعني استشفاف الغيب او التنجيم ، بل ابراز التناقضات الطبقية التي بدأت تظهر وتنمو في الماضي ، والتي ستشتد وتقوى في المستقبل القريب ، لتلعب دور القوى الصدمية الاساسية كمحرك رئيسي للصراع . وبدون هذا البعد المستقبلي يفقد التاريخ الاجتماعي دوره كمحلل لصراع الطبقات وعلم شامل لباقي العلوم الاجتماعية والانسانية لينزوي في احدى زواياها كواحد منها ، وينتفي وجوده كعلم انساني يشمل باقي العلوم .

وبسبب قصر الفترة الزمنية التي يتناولها هذا الكتاب ، لم يكن بالامكان اعطاء استنتاجات وافية حول تطور لبنان في عهد الانتداب بأكمله ، فالدراسة التالية : « المجتمع اللبناني من الجمهورية الى الاستقلال » والتي ما زالت قيد الاعداد ، ستبرز بوضوح قوانين ذلك التطور التاريخي للبنان بين الحربين العالميتين . لذا يقتضي التنويه ان الاستنتاجات هنا لا تنسحب بالضرورة على كامل عهد الانتداب بل يقتصر العديد منها على السمات البارزة للمجتمع اللبناني منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى اعلان الجمهورية في ظل الفرنسيين . وآمل ان يكون هذا الكتاب لبنة صالحة في مدمك دراسة تاريخنا المعاصر على أسس أكثر موضوعية وشمولا .

وأخيرا لا بد من اسداء الشكر سلفا لكل من سيساهم في نقد منهجية وافكار واستنتاجات هذا الكتاب . فبالنقد البناء المدعوم بالوثائق التاريخية الدقيقة، وبالبعد عن الانفعالية والسطحية في التحليل ، نستطيع الكشف عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع اللبناني المعاصر ، وكتابة تاريخ اللبنانيين ، كل اللبنانيين .

مسعود ضاهر

بيروت في ٢ ايار ١٩٧٤

□ الفصل الأول □ سياسة الوفاق الاستعماري في الشرق الأوسط وفرض الامتداد على سوريا ولبنان

القطب الشرقي لمحو السياسة الاستعمارية الفرنسية

منذ مطلع القرن التاسع عشر ، بدأ الاستعمار الأوروبي بالسيطرة المباشرة على بعض ولايات السلطنة العثمانية أو الرجل المريض ، كما كانوا يسمونها ، وذلك باختيارهم نقاطا استراتيجية على البحر الأبيض المتوسط لتكون فيما بعد منطلقا لتوسيعهم الشامل داخل السلطنة بعد أن عبث نظام الامتيازات الأجنبية المعمول به في معظم أرجاء الدولة العثمانية وولاياتها الطريق أمام هذا التوسع . « فقد تأكد تفوق أوروبا في هذا القرن وظهر إلى الوجود - كما يقول مكسيم رودنسون - عن طريق السيطرة الاستعمارية المباشرة » (١) .

وبالرغم من أن فرنسا استطاعت بسط سيطرتها على الجزائر وتونس في نهاية ذلك القرن ، فإنها بقيت دون موطئ قدم لها في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، في حين كانت بريطانيا تسيطر على الطرق التجارية الكبرى التي تحتاج إليها في اتصالاتها مع الهند ، وتحتل مباشرة أجزاء من سواحل اليمن وتسيطر فعليا على مصر والسودان ومناطق واسعة من الخليج العربي .

« ففي مطلع القرن العشرين لم تكن الامبراطورية العثمانية قد ماتت بعد ، بل كانت مريضة فقط . وكنتم معشر الاستعماريين الفرنسيين والانكليز تدعونها بالرجل المريض ، لكنكم اتفقتم على تقاسم اراضيها منذ زمن بعيد » (٢) .

وكان لجبل لبنان وضع مميز ازاء الامبراطورية العثمانية منذ اعلان نظام المتصرفية . كما كان للفرنسيين معرفة واسعة وشاملة عن هذا الوضع المتميز ، فهم الذين شاركوا في خلقه منذ أواسط القرن التاسع عشر . « لقد استفاد المستعمرون الأوروبيون ، وبشكل خاص الفرنسيون والانكليز منهم ، من موقع جبل لبنان الاستراتيجي لاثارة الخلافات الطائفية هناك ، ولممارسة تأثير سياسي ، عن هذا

Maxime Rodinson « Marxisme et monde Musulman » — P. 344.

Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 8.

(١)

(٢)

الطريق ، على الباب العالي نفسه « (٣) .

لذا كان لجبل لبنان دور بارز ضمن الخطوط العريضة للاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية والانكليزية ، تلك الخطوط التي تميزت بوضوح منذ عام ١٨٦٠ . فرنسا تبحث عن مركز استراتيجي لها في شرق المتوسط ، بينما تقاوم بريطانيا باصرار للحيلولة دون بروز مرتقب لقوة عسكرية فرنسية في هذه المنطقة وتستخدم كل نفوذها وقواها العسكرية للوقوف في وجه اية قوة فرنسية تحاول البقاء فيها . وضمن هذا الاطار يمكن تفسير افشال حملة نابليون الثالث عام ١٨٦٠ . اما متصرفية جبل لبنان ، التي انشئت مباشرة على اعقاب تلك الحملة ، فلم تعتمد على الحماية الفرنسية الوحيدة الجانب ، بل على حامية اوروبية جماعية شكلت الفرنسية منها جزءا هاما ولا شك .

فالاطماع الفرنسية كانت متجهة نحو سوريا وجبل لبنان لما يشكلان من اهمية حيوية بالنسبة لمستقبل المصالح الفرنسية في البحر المتوسط . وقد صرح جورج ليغ ، وهو وزير سابق للبحرية الفرنسية ، بأن « محور السياسة الفرنسية قائم في البحر المتوسط » . و اضاف « ان احد قطبي هذا المحور قائم في المغرب أي في تونس ومراكش ، والآخر في المشرق عبر سوريا ولبنان ، اللذين يشكلان احد الميادين المفضلة للنشاط الفرنسي ، نظرا لمصالحنا الاقتصادية ، ولنفوذنا المعنوي فيها » (٤) .

غير ان حدة النزاع مع بريطانيا التي سارعت الى توسيع تبادلها التجاري مع المتصرفية بحيث بقيت تحافظ على المرتبة الاولى في حجم مبادلاتها التجارية حتى عام ١٩٢٦ ، اي بعد فرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان فيما بعد بست سنوات . هذا النزاع الشديد النابع من استراتيجية كلا الدولتين التي تكلمنا عنها ، دفع فرنسا الى زيادة رؤوس اموالها العامة ، لا في جبل لبنان وسوريا فحسب ، بل في الامبراطورية العثمانية برمتها . ففي حين كانت العلاقات الاقتصادية بين فرنسا وجبل لبنان قوية ، وحيدة الجانب ، تقتصر آنذاك على تجارة الحرير ، فان التنظيمات العثمانية (٥) سمحت باجتذاب رؤوس الاموال الاوروبية ، وبخاصة

(٣) Dominique Chevalier « La Société du Mont-Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe » — P. 287.
V. aussi : Toufic Touna « Les Paysans et les Institutions Féodales chez les Druzes et les Maronites du XVIIe siècle jusqu'au 1914 » — P. 297.

(٤) Joseph Achkar « L'évolution politique de la Syrie et du Grand-Liban — Thèse — P. 31.

(٥) تلك التنظيمات التي صدرت ١٨٢٩ و ١٨٥٦ و ١٨٧٤ و ابرزها تنظيمات ١٨٥٦ التي جاء فيها « اقرار امتيازات الطوائف غير الاسلامية (المادة الاولى) والسماح لها بالحرية في ممارسة شعائرها الدينية وبناء معابدها بشروط يتوافر فيها التسامح (المادة الثانية) واعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف (المادة الثالثة) وحق الدخول الى الوظائف والاستفادة من الخدمات التعليمية لجميع الرعايا (الرابعة) وانشاء محاكم مختلطة مع ابقاء على المحاكم الطائفية لغير المسلمين (السابعة) ومنع تلزيم الضرائب (الثامنة) وتنظيم ميزانية الدولة (التاسعة) واشراك رؤساء الجبايات والطوائف في مناقشات المجلس العالي المتعلق بشؤونهم (العاشرة) والوعد باجراء اصلاحات شاملة في المجالات المالية والمواصلات والمصارف والزراعة والتجارة (الحادية عشرة) .

←

الفرنسية منها الى داخل السلطنة بعد ان منحتها الدولة التركية ضمانات اكيدة وكافية ووضعت تحت تصرفها جميع الموارد الرئيسية للسلطنة التي افلست ماليا بسبب القروض (٦) الواسعة والمتكررة منذ اواسط القرن التاسع عشر . وبمعكس جبل لبنان وسوريا ، كانت السلطنة العثمانية تشكل مجموعة اقتصادية شديدة التنوع ووافرة الارباح . لذا سترتفع فيها حصة الرساميل الفرنسية ارتفاعا هائلا في مطلع القرن العشرين .

ففي عام ١٩٠٥ ، كانت بريطانيا العظمى تمتلك في الامبراطورية العثمانية اكثر من ٢٠٠ مليون فرنك ، وتأتي بعدها المانيا والنمسا - هنغاريا على مستوى واحد بمبلغ مئة مليون فرنك ثم ايطاليا بسبعين مليون ، اما حصة فرنسا فلم تتجاوز الخمسين مليون فرنك .

هذا الوضع سينقلب برمته عشية الحرب العالمية الاولى حيث توزعت حصص الرساميل في الدين العمومي العثماني وفي الشركات الخاصة العاملة في السلطنة العثمانية على الشكل التالي :

الدين العام	الشركات الخاصة	
٦٠٤٣ ٪	٥٠٠٥٨ ٪	لفرنسا
١٤٠١٩ ٪	١٤٠٣٦ ٪	لانكلترا
٢١٠٣١ ٪	٣٥٠٠٦ ٪	لامانيا (٧)

لقد اصبحت رؤوس الاموال الفرنسية في الامبراطورية العثمانية تمثل لوحدها اكثر من ثلاثة مليارات من الفرنكات الذهبية وبالضبط ٣ مليارات و ٢٨٥ مليون و ٢٧٣ ألفا و ٣٧٧ فرنكا ذهبيا اي ما يعادل نسبة ٥٩٠٠١ ٪ (٨) من الدين الخارجي العام الثابت و ٨١٠٨٣ ٪ من الدين الداخلي او المتحرك . واصبحت جميع شركات المناجم العاملة آنذاك في السلطنة العثمانية ذات رؤوس اموال فرنسية كما اضحى لفرنسا نسبة ٨٨٠٦٥ ٪ من اسهم شركات المياه و ٦٧٠٩٧ ٪ من اسهم شركات المرافق والارصفة ، و ٤٦٠٩ ٪ في رؤوس الاموال العاملة في السكك الحديدية ، و ٣٧٠٧٧ ٪ من رساميل المصارف ، و ٦٢٠٨٢ ٪ من اسهم باقي المشاريع الاخرى (٩) .

لقد اتخذ التغلغل الاقتصادي الفرنسي في تركيا طابع الفوز المالي . فمشاريع

→ راجع كتاب عبد العزيز عوض « الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ — ١٩١٤ » ص ١٩ وما يليها .

(٦) للتفصيل راجع الكتاب الهام :

Jean Ducruet : « Les Capitaux Européens au Proche-Orient » — P.P. 102 et suivantes.

(٧) L'Asie Française — No. 175 — Juillet 1919 — P.P. 181 et s.

(٨) Maurice Desjardins « Le Problème Syrien du Point de Vue Economique » — P. 28.

(٩) L'Asie Française — No. 175 — P. 182.

البناء الخاصة والعامة ، وتجهيز وتوسيع المرافق ، وشق طرق المواصلات ، ومد الخطوط الحديدية ، والمشاريع البلدية الكبرى كالإنارة والهاتف والتلغراف ، والنقل العام وغيرها كانت تخص ، كليا أو جزئيا ، شركات فرنسية بالإضافة الى ادارة الدين العمومي العثماني وادارة حصر التبغ والتبناك ، وادارة حصر الملح التي كانت بأغلبية رساميلها الساحقة للفرنسيين .

ويشير اتيان فلانندان الى « ان فرنسا كانت تحتل المرتبة المالية الاولى في السلطنة العثمانية قبل حرب ١٩١٤ . كما كانت تحتل المرتبة الاولى كذلك في مشاريع الاشغال العامة المنفذة والمنوطة بالتلزم ، والمرتبة الاولى ايضا في أهمية مؤسساتها الطبية والتعليمية ، وكذلك بالنسبة لمجموع السكان المطالبين بحمايتهم وعونها » . ثم يضيف « فلو جمعت المصالح المادية والمعنوية لانكلترا وايطاليا والمانيا وروسيا والولايات المتحدة الاميركية كلها في الامبراطورية العثمانية في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى مباشرة ، لما بلغت جميعها حاصلا يمكن مقارنته بمجموع مصالح فرنسا لوحدها ، والتي كانت تمتلك منفردة هناك ٦٠٪ من مجموع الدين العمومي العثماني » (١٠) .

اما النائب كاستيلاني فيؤكد في تقريره لمجلس النواب الفرنسي بصدد مناقشة معاهدة السلام المبرمة في لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ ان « من أصل الدين العثماني البالغ ١٦٠ مليون ليرة تركية ذهبية ، اي ما يعادل ٣ مليارات و ٧٠٥ مليون فرنك ذهبي ، كان اكثر من ٦٠٪ منها يعود مباشرة الى دائنين فرنسيين » (١١) .

هذا الهدف الذي وضعته فرنسا نصب عينها بالسيطرة التامة على الشرايين الحيوية لاقتصاد الامبراطورية العثمانية بدا واضحا في تخوف سفير فرنسا في القسطنطينية الذي كتب عام ١٩١٣ الى حكومته يقول : « انني اعتقد ، ويشاركني كثيرون هنا هذا الاعتقاد ، ان الامبراطورية العثمانية قد انتهت ، سواء في آسيا او في أوروبا . ولكن ، اليس من مصلحتنا نحن ان نطيل في امد احتضارها حتى لا تقتسم تركتها على عكس ما نصبو اليه ؟ فالهم الآن هو توفير القروض للحكومة التركية التي لا بد وان تمنحنا امتيازات خاصة وضمانات جديدة مقابل دعمنا لها وتضحياتنا في سبيلها » (١٢) .

ان موجة تغفل الرساميل الفرنسية في أرجاء السلطنة العثمانية قد انعكست بشكل واضح على سوريا وجبل لبنان المتصرفية . فقدّر مجموع الرساميل الفرنسية الموظفة فيهما ، قبيل الحرب العالمية الاولى بأكثر من مئتي (١٣) مليون فرنك فرنسي سيطرت على سكك الحديد ومرفأ بيروت وشركات الكهرباء والمياه وفروع البنك الامبراطوري العثماني . وتوجهت تلك المبادلات التجارية من سوريا (١٤) وجبل لبنان

(١٠) Correspondance d'Orient — No. 261 du 15 Mai 1921 — P. 397 « La Politique Française en Orient ».

(١١) L'Asie Française — Documents — Supplément du No. 225 — Septembre-October 1924.

(١٢) Cité par Najib Sadaka : « La question Syrienne pendant la Guerre » Thèse — P. 7.

(١٣) Thèse — op. cit. p. 8 et Maxime Nicolas « Questions Monétaires en Syrie » — P. 21.

(١٤) Antoine Khair « Le Moutaçarrafat du Mont-Liban » — P. 24.

الى فرنسا خاصة في مجالات الحرير والجلود الخام والمذبوغة والحبوب والحيوانات الحية وغيرها . ولكن ، هل كان يوسع فرنسا ايقاف احتضار الامبراطورية العثمانية ؟ فان كانت غير قادرة على ذلك ، فلا أقل من العمل على الا يتم اقتسام أراضيها على حساب مصالح فرنسا ، كما يوصي سفيرها في الاستانة . وان كان لا بد من تجزئة الامبراطورية العثمانية ، فان السيد ريمون بوانكاريه يحذر ، قبل سفره بعام واحد ، أي منذ ١٩١٢ ، قائلا : « ان لنا في لبنان وسوريا مصالح تقليدية ، ونحن عازمون على فرض احترام الجميع لها » (١٥) .

وقد علقت جريدة « الشعب » التي كانت تصدر في الباروك على هذا التهديد الفرنسي تحت عنوان « هل تحتل فرنسا سوريا ؟ وهل يشمل الاحتلال لبنان ؟ » وجاء في تعليق صحيفة « الشعب » : « فالدولة الفرنسية ، وهي المشهورة باحترام الحقوق ، والتي ما كانت في يوم من الايام الانصيرة للانسانية ، لا يعقل ان تقدم على هذا الاحتلال . اما في لبنان ، فلا نعتقد ان لبنانيا واحدا يسهل عنده احتلال فرنسا للبنان » (١٦) .

لقد أدرك الكثير من اللبنانيين والسوريين آنذاك أطماع فرنسا الاستعمارية في المنطقة . فهي لا تسيطر على اية رقعة في شرقي البحر الابيض المتوسط ولن يكون بإمكانها ترك بريطانيا طليقة اليدين في هذه المنطقة التي كشفت عن ثروة نفطية هائلة في إيران والموصل .

اما روبر دو كيه ، المندوب السامي بالوكالة ورجل الرساميل الفرنسية القوي في امانة سر الادارة المنتدبة في بيروت لاحقا ، فكان أكثر وضوحا من بوانكاريه في رسم الدور المتوجب على فرنسا القيام به في سوريا ولبنان . فقد كتب عام ١٩١٥ . يقول : « اننا لا نعلم كيف ستسوى الامور بالنسبة لاراضي الامبراطورية العثمانية في نهاية هذه الحرب التي اشتركت فيها الامبراطورية بهذا الشكل الجنوبي والاحمق ، لكننا واثقون من شيء واحد على الاقل ، لانه لا يتوقف الا على مشيئتنا نحن بالذات ، وهو ان نظاما أصليحا سيمنح لسوريا تحت اشرافنا ، سواء أبقى في هذه البلاد اثر للسلطة العثمانية ام لم يبق ، ولن يتم فيها (سوريا) اي مشروع بعد الآن الا بعد موافقتنا المسبقة عليه » (١٧) .

وارسل جان كوانييه ، رئيس غرفة التجارة في مدينة ليون خطابا هاما في السابع من حزيران ١٩١٥ ، باسمه وباسم رجال الاعمال الليونيين ، الى وزير الخارجية الفرنسية دلكاسيه قال فيه : « اننا لا نتصور ان الحرب الحالية ستعطي نتائج بارزة في الشرق الاوسط ، سوى تلك التي تعزز مكاسبنا ومستقبل مصالحنا الموجودة هناك الآن . . . ان سوريا (لبنان من ضمنها) لمن أبرز المنتجين للحرير ،

(١٥) Charles Ayyoub « Les Mandats Orientaux » — Thèse — P. 11, et Sadaka — op. cit. p. 17.

(١٦) جريدة الشعب عدد ٥ كانون الاول ١٩١٢ — من كتاب المنفى لرشيد نخله — نشر وتقديم امين نخله — ص ١٢٢ .

(١٧) Robert de Caix « L'Asie Française » — No. 161 — Janvier-Mars 1915 — P. 28.

وهذا يعني انها ستتبع سوقنا الليونية الواسعة حتما» (١٨) .

ليس من الواضح اذاً ان مصر سوريا وجبل لبنان قد رسم قبل مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ بوقت طويل ؟ ألم يكن من الواضح ان جميع الاعمال الدبلوماسية لحكومات باريس المتعاقبة منذ ١٩١٢ ، كانت تصب في الاتجاه الرامي الى ربط سوريا وجبل لبنان نهائيا بالسيطرة الفرنسية المباشرة بعد ان قام الراسمال الفرنسي بربط هذين البلدين بتبعية واسعة قبل الحرب بالذات ؟ وباعتراف الفرنسيين انفسهم « فان النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان ، قبل ١٩١٤ ، كان متفلفلا حتى النخاع الشوكي » (١٩) .

التفتيش عن دعم داخلي للمخططات الفرنسية

لقد ادركت فرنسا ، ولا شك ، ان نهاية السلطنة العثمانية باتت وشيكة . وكان لا بد من ايجاد دعم داخلي لتوظيفاتها المالية والاقتصادية في سوريا ولبنان . وانقلب اصدقاء فرنسا ، بين ليلة وضحاها ، الى تعداد مساوئ المتصرفية بعد ان كانوا يتفزلون بهذا النظام ويرددون « هنيئاً لمن له مرقد عزرة في جبل لبنان » . وقام مجلس بلدية زحلة بوجه مذكرة في عام ١٩١٣ باسم جميع مجالس بلديات جبل لبنان ، الى المتصرف اوهانس باشا تحت عنوان « البقاع للبنانيين » جاء فيها : « ان لبنان الحالي هو سلسلة من الجبال تتناثر فيها قرى صغيرة ، أما اللبنانيون ، فقد هاجر منهم ثلاثمائة ألف الى اميركا وغيرها ، واذا لم تتكرم الدول الكبرى ، وفرنسا بشكل خاص ، ان تعيد الى الجبل حدوده الطبيعية ، فسيجد شعبنا نفسه محكوما عليه اما بالزوال واما بسلوك طريق المنفى » . وتنتهي المذكرة ، البالغ عدد صفحاتها ١٨ صفحة ، بهذه العبارة « ان فرنسا ، ذلك الجندي المرسل من الله ومن اوروبا ، مدعوة بفخار الى مساعدة جبل لبنان المسكين » (٢٠) .

وفي نفس العام ، جرى التحضير في مدينة بيروت لاضراب شامل دعت اليه جمعية بيروت الاصلاحية في ١٢ آذار ١٩١٣ وكانت لجنيتها التنفيذية مؤلفة من نخله تويني ، يوسف الهاني ، بترو طراد ، ايوب ثابت ، رزق الله ارقش و خليل زبنيه (٢١) . وقام أعضاء الجمعية ومؤيدوها يطالبون بضم بيروت الى جبل لبنان المتصرفية ، في الوقت الذي كانت فيه مركزا لولاية تخضع مباشرة للباب العالي ، ويدعون الى توسيع حدود لبنان المتصرفية نحو البحر والسهول الداخلية .

وقام مهاجرون لبنانيون ، خاصة من الذين تربوا في المدارس اليسوعية وقيمون في فرنسا ، يعملون في الوقت نفسه من أجل توسيع جبل لبنان مع ضمان فرنسا لهذا التوسيع . « الى جانب مبدأ استقلالنا ، يقول خير الله خير الله ، نطالب بكامل

Cité par D. Chevallier « Lyon et la Syrie en 1919 » — Revue Historique (١٨)
— No. 224 — P. 306.
René de Gontaut-Biron « Comment la France s'est installée en Syrie ? »
— P. 5.

(١٩) « البقاع للبنانيين » ص ٩ — ١٠ ، مذكرة تقدم بها مجلس بلدية زحلة في عام ١٩١٣ نيابة عن جميع المجالس البلدية في جبل لبنان المتصرفية .

(٢٠) Najib Dahdah « L'évolution historique du Liban » — P. 138.

أراضينا ضمن حدودها الطبيعية . اننا نطالب بهذه الارض التي كانت لنا بالملكية الدائمة العريقة ، اننا نطالب بهذه الاراضي كاملة غير منقوصة » (٢٢) .

ولعب الوجود التبشيري الفرنسي (٢٣) في جبل لبنان بشكل خاص ، حيث يتمركز العدد الاكبر من افراد الهيئة التعليمية التي كانت غالبيتها من المبشرين الفرنسيين ، وكذلك جامعة القديس يوسف بيروت ، دورا أساسيا في الدعوة لتوسيع حدود لبنان المتصرفية ولطلب ضمان فرنسا للوطن المسيحي المنوي اقامته . فحتى عام ١٩١٤ كانت فرنسا تؤمن السيطرة على ٥٠٪ من المدارس والطلاب في سوريا ولبنان . وقد ساعد وجود المبشرين الفرنسيين كثيرا على ازدياد النفوذ الفرنسي بشكل هائل . لذا جاء هذا التأيد للحماية الفرنسية في الداخل والخارج ، مضافا الى نفوذ المصالح الاقتصادية الفرنسية في الداخل والخارج ، ليشكل مصلحة مشتركة بين اصحاب الرساميل الفرنسية ودعاة توسيع الجبل اللبناني نحو ما أسموه بالحدود التاريخية للبنان . صحيح ان توسيع جبل لبنان نحو تلك الحدود « التاريخية » يشمل بيروت وطرابلس وسهل البقاع وعكار ومرجعيون وصيدا وصور ووادي التيم ، سيشكل الحلقة الاولى في المخطط الفرنسي الرامي الى السيطرة الكاملة على سوريا ، غير ان هذا التوسيع ، كان في الواقع ضرورة حيوية لسكان الجبل ، بعد ان اثبت تكوين المتصرفية انه لم يعد قابلا للحياة ، وان حربا محلية او عالمية ، كما كان يلوح في الافق ، ستكون بالغة الضرر على سكان المتصرفية .

ومن الملاحظ ان دعاة « استقلال لبنان ضمن حدوده الطبيعية » كانوا مجموعات متفاوتة في الوعي لاهداف ذلك الاستقلال ويقاب عليهم طابع الطائفية المسيحية الماروني داخليا ، وطابع الارتباط الفرنسي خارجيا ، وطابع التربية على ايدي المدارس اليسوعية ثقافيا . لكن اثرهم بقي ضئيلا قبل الحرب العالمية الاولى ولن يبرز بقوة الا بعد انتصار الحلفاء على تركيا .

موقف اللبنانيين ايام الحرب العالمية الاولى

ما ان دخلت تركيا الحرب عام ١٩١٥ حتى اضطرت كافة البعثات الفرنسية والحليفة الى مغادرة سوريا ولبنان ، فاحتلت ابنيته وأغلقت جميع المدارس الخاصة تقريبا ، وأعلنت تركيا الفاء استقلال جبل لبنان وانهاء نظام الامتيازات (٢٤) بالنسبة لجميع الدول فيه .

وجاء جمال باشا ، القائد العام للجيش التركي في المنطقة ، يعمل على القضاء ، وبصورة منتظمة ، على القسم الاكبر من المثقفين الوطنيين في البلاد ، من دعاة

(٢٢) من محاضرة القيت في باريس في ٢٨ ايار ١٩١٥ .

K. Khairallah « La question du Liban » — P. 44.
(٢٣) Pierre Lyauty « Le Liban moderne » — P. 41, et Pierre Renouvin « La crise européenne et la première guerre mondiale » — P. 21.
(٢٤) Haut Commissariat « La Syrie et le Liban en 1922 » — P. 88, et Edmond Rabbath « La formation historique du Liban politique et constitutionnel » — P. 251.

الوحدة مع سوريا او الانفصال عنها على السواء ، وذلك عن طريق النفي والسجن والشنق . يضاف الى هذا ان الحركة التجارية ببيروت انخفضت انخفاضا هائلا بسبب الحصار البحري المفروض على مرفئها والذي شاركت فيه بريطانيا بالذات ، مما ادى الى ارتفاع جنوني في الاسعار والى نفاد المواد الغذائية من الاسواق .

ان اساليب جمال باشا الوحشية ، والمجاعة والابوة المنتشرة في كافة المناطق اللبنانية بسبب الحرب والجوع ، في نفس الوقت الذي كان الجراد يعيث فسادا في المناطق اللبنانية الى جانب الطاعون والملاريا ، ادت جميعا الى فقدان جبل لبنان المتصرفية لأكثر من ثلث سكانه . ففي تقرير للدكتور جوزف زبادا عن تلك الفترة يقول : « يمكن للمرء ان يصيب كبد الحقيقة في تقديره لعدد ضحايا المجاعة في لبنان بأكثر من مئتي الف انسان . ففي البترون مثلا ، والتي كانت تضم خمسة آلاف نسمة ، لم يبق منهم في نهاية عام ١٩١٦ سوى الفين . وسكان قرية مار نعمة الذين كانوا يبلغون ٢٠٠ نسمة لم يبق منهم سوى ٦ اشخاص . وكان في عديلي ٢٠٠٠ فلم يبق منهم سوى ١٥٠ نسمة ، ومن أصل ١٦٠ شخصا في روضة لم يبق سوى ٣٠ ، ومن ٣٠٠٠ مقيم في عيرين بقي ٥٠٠ فقط ، ومن ٣٠٠ نسمة في الذوق بقي ٧ اشخاص فقط ، وقد اختفى سكان نهر الذهب عن بكرة أبيهم بعد ان باعوا جرس كنيسةهم » (٢٥) .

لقد دفعت أعمال جمال باشا جميع الوطنيين من دعاة الوحدة والانفصال الى المطالبة بالفداء النير العثماني ، وراحوا يطالبون متحدين بالاستقلال التام لسوريا مع اعطاء جبل لبنان استقلاله الذاتي القديم . وانسجمت أهداف الوحدويين مع احلام الشريف حسين الذي تبنى مطالبهم باستقلال سوريا في ظل ملكه .

وكانت لعلاقة الشريف حسين وأبنائه وكثير من دعاة الوحدة الوثيقي الاتصال بالانكليز ما وضع هؤلاء جميعا في موقف حرج للغاية نتيجة التقلبات المستمرة في السياسة البريطانية آنذاك . فقد اعترفت لهم علانية في بادئ الامر بمملكة عربية مستقلة يرئسها الملك حسين ، ثم تنكرت لوعودها بعد الحرب ، وضففت على الامر فيصل للاتفاق مع كليمنصو وقبول الانتداب الفرنسي ، وقبول وعد بلفور ، واصدار اتفاقية مع وايزمن الصهيوني وغيرها .

صحيح ان دعاة الوحدة السورية في لبنان وجدوا في الدعوة الى توسيع الجبل نحو المناطق المنتجة للحبوب توسيعا لرقعة النفوذ الفرنسي ، غير ان ارتباطهم بالسياسة البريطانية ساعد رجال الحملة الفرنسية ودعاة الانفصال على تصويرهم امام جماهير السكان بأنهم مجرد عملاء او تابعين للانكليز . وسرعان ما بدأت حركة تمايز سياسي واضحة داخل دعاة الوحدة مع سوريا اذ قام الجناح الاكثر تقدما (٢٦)

Cité par R. de Gontaut-Biron « Comment la France... » — P. 88, et Chikri Ghanem « L'opinion syrienne à l'étranger pendant la guerre », Documents du comité central syrien — P. 10.

وقد قدرت مجلة « آسيا الفرنسية » عدد موتى الجوع في جبل لبنان بـ ١٢٠٠ الف . ملحق العدد ١٩٩١ — شباط ١٩٢٢ — ص ٦ .

(٢٦) من أبرز دعاة هذا التيار ندره مطران صاحب كتاب « La Syrie de demain » — الصادر عام ١٩٢٢ .

منهم بتبيان المخاطر التي تنجم عن الارتباط بقوة امبريالية ، فرنسية كانت ام انكليزية ، ودعا الى وجوب تحرير سوريا ولبنان من نير اية قوة اجنبية والعمل للاستقلال التام عن تركيا واوروبا .

كما طالبوا بدولة اتحادية عربية مع رفض تجزئة سوريا الى ما يسمى بدويلات مستقلة على اساس طائفي ، واصبح هذا الجناح الوحدوي بالغ القوة طيلة الفترة التي تلت الحرب مباشرة ، وقد تزعمه الامير زيد ، شقيق الامير فيصل .

وبالمقابل ، فان النفوذ الفرنسي ضعف كثيرا ، ان لم تقل زال بدخول الجيش التركي ، طيلة فترة الحرب ، يوم كان كل تعاطف مع فرنسا يعاقب عليه بالشنق او بالنفي ، ويوم هجر لبنان جميع أولئك الذين كان يطلق عليهم لقب « اصدقاء فرنسا » (٢٧) الى خارج لبنان ، خاصة الى فرنسا ومصر وبقوا هناك حتى وضعت الحرب أوزارها فبدأ قسم كبير منهم يعود الى لبنان بمساعدة الفرنسيين بالذات .

لذا اقتضت الدعوة الى توسيع جبل لبنان نحو حدوده التاريخية على بعض المهاجرين اللبنانيين في مصر واميركا وفرنسا دون ان يتجاهلوا مطلب الوحدة السورية على أساس مساعدة فرنسا لهذا الاتحاد . حتى في باريس بالذات ، حيث كان دعاة هذا التيار يتمتعون بالحرية التامة في التعبير عن مطالبهم ، قامت اللجنة المركزية السورية في ١٩١٨ باعلان برنامجها على أساس النقاط التالية :

أ - اقامة الوحدة السورية ، نواة الانبعاث العربي الشامل .

ب - اقامة نظام اتحادي في سوريا .

ج - طلب المساعدة الفرنسية (٢٨) .

→ ١٩١٦ والامير شبيب ارسلان ، والامام رشيد رضا ، والاديب امين الريحاني . وقد التقى دعاة هذا التيار جميعا على رفض الوصاية الفرنسية او الانكليزية كما عبر عن ذلك الامام رشيد رضا « اما انا فاقول لكم ان الدولتين الحليتين (بريطانيا وفرنسا) قد اتفقتا على قسمة بلادكم فيما بينهما لاستعبادكم باستعمارها » — المنار — المجلد ٢٢ الجزء ٦ — ص ٤٥٦ .

وقد وجد البعض منهم ان لا خطر من الاتراك بل من الاجانب ، ففي المقال السابق نفسه وهو بعنوان « الفرق بين الترك والافرنج عند العرب » يضيف رشيد رضا قائلا : ان الترك ضعفاء وجاهلون مثلنا فلا يستطيعوا ان يستعبدونا اذا نحن تنبهنا لحقوقنا . اما انكلترا وفرنسا فهما اقوى منا في كل شيء فلا نستطيع ان نتخلص من عقابهما اذا هما استولتا علينا — هم اقوى منا في العلم ، هم اقوى منا في المال ، هم اقوى منا في السياسة ، هم اقوى منا في الحرب » المنار — المصدر السابق ص ٤٥٦ .

(٢٧) « لما ينس الانسيون من التفاهم مع الشريف حسين على مصر سوريا ، انشأوا في مصر وفي اواخر ١٩١٧ هيئة باسم « جمعية الدفاع عن حقوق سوريا ولبنان » ، ولوا رئاستها عبدالله صفي باشا ، وهو لبناني متمصر ، لنشر الدعاية لفرنسا بين السوريين واللبنانيين . وكان مما اقترحه انشاء دولة مستقلة للبنان ، تحت حماية فرنسا على ان توسع حدودها لتشمل طرابلس وصيدا وصور وسهل البقاع » .

امين سعيد — « اسرار الثورة العربية الكبرى » ص ١٩١ والمنار — المجلد ٢١ — الجزء الرابع — مقالة المسألة السورية والاحزاب ص ٥٠٣ .

(٢٨) Le Comité Central Syrien « Documents » op. cit. p. 24. من البرنامج الذي ادلى به السكرتير العام لهذه اللجنة ، الدكتور جورج سبنة ، في باريس في ٧ آذار ١٩١٨ .

بروز الصراع مجددا بين حلفاء الامس الفرنسيين والانكليز

« ان انتصار الحلفاء لم يكن انتصارا لشركائهم العرب ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان مهيبا لهم ان ينتقلوا من سيطرة محتل الى سيطرة آخر اسوا منه » (٢٩) .

فلم تجلب نهاية الحرب العالمية الاولى ، ولا دخول القوات الحليفة الى سوريا ولبنان ، ولا نشوء عصبة الامم في جنيف ، أي نصر حقيقي لسكان هذين البلدين ولا للشعوب العربية عامة . وتميزت السنة الاولى لما بعد الحرب بالوجود الفرنسي العسكري الضئيل في سوريا ولبنان . فقد كانت المفزة الفرنسية لا يتجاوز رجالها ألفي جندي ، أنشئت بموجب قرار وزاري فرنسي بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩١٧ ووضع تحت امرة الكولونيل دو بياپاب De Piéapape ، وكانت معدة في الاساس لتأمين الحراسة على الاماكن المقدسة والمؤسسات الفرنسية فقط (٣٠) . في حين كانت بريطانيا العظمى تمول بشكل او بآخر عام ١٩١٨ عددا كبيرا من الزعماء المحليين عند دخول الحملة الانكليزية - فرنسية الى المنطقة ، وكان لها ١٧٥ كتيبة (٣١) عسكرية منظمة في الشرق الادنى . فهل كانت القوة الفرنسية العسكرية قادرة على تثبيت الحصص التي نالتها بموجب اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦ ؟

عامل جديد نشأ ابان الحرب العظمى ، هو اندلاع ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا سنة ١٩١٧ ، تلك الثورة التي وضعت الامبرياليين ، الفرنسية والانكليزية ، منفردتين في مواجهة اطماعهما لاقتسام تركية الرجل المريض بعد ان أعلنت تلك الثورة رفضها لكامل المخططات الاستعمارية التي ابرمتها روسيا القيصرية وابرزها اتفاقية سايكس - بيكو - سazonوف (٣٢) . هذا الوضع الناشئ كان لصالح الامبريالية البريطانية في المنطقة حيث تفوق على قريبتها الفرنسية بالسلاح والرجال والحلفاء المحليين والمصالح الاقتصادية والمخططات الاستعمارية . لذا حاولت بريطانيا استغلال هذا الوضع المستجد الى اقصى حدود الاستغلال بقصد اجبار فرنسا على تنازلات هامة لمصلحتها . فراحت تتحدث عن بطلان الاتفاقيات المعقودة بين الحلفاء اثناء الحرب وتنصّب نفسها وريثة وحيدة لحصة روسيا القيصرية التي كانت مخصصة لها بموجب

(٢٩) امين الريحاني - مجلة البقعة - السنة الاولى - العدد ٥ و ٦ - كانون اول وكانون الثاني ١٩٣٠ ص ١٥ .

(٣٠) — Jean Pichon « Le partage du Proche-Orient » — P. 142.

(٣١) — Correspondance d'Orient « La politique britannique dans le Proche-Orient » — No. 267-268 du 15-30 Août 1921 — P. 590.

وقد قدرت هذه المجلة عدد الدين كانت تمولهم بريطانيا لامراض شتى في المنطقة انداك بسبع مئة ألف رجل .

(٣٢) سميت الاتفاقية بهذا الاسم او الاتفاقية الانكليزية - الفرنسية - الروسية المعقودة في ٢٦ نيسان ١٩١٦ . راجع نص هذه الاتفاقية في كتاب جورج انطونيوس « بقعة العرب » - الطبعة الثانية - ص ٥٧٨ - ٥٨٢ .

اتفاقية سايكس - بيكو . وقام مارك سايكس ، صاحب الاتفاقية الشهيرة ، يصرح داخل باريس بالذات ، في ٢٣ كانون الاول ١٩١٧ ، أي بعد قيام السلطة الثورية في موسكو بنحو خمسين يوما فقط ، بقوله : « ان عالم ما قبل الحرب قد مات ، ولكن عالم ما بعد الحرب لم يولد بعد » (٣٣) . وقد وضع هذا التصريح فرنسا في شك وحذر حيال الخطط السرية لانكلترا في المنطقة بعد ان ازداد دعمها المباشر للامير فيصل وتشجيعه علانية في « مشاريعه الاستقلالية » . وقام اللورد كيرزون ، وهو من ابرز رجال السياسة البريطانية آنذاك ، يعلن ببالح الاسف ، من على منصة مجلس العموم البريطاني بلندن عن « تسرع » بريطانيا في توقيع اتفاقية سايكس - بيكو قبل ان تستجلي الامور جيدا ، ويختصر خطابه بالقول « لو كان يتعين علينا عقد اتفاقيات ١٩١٦ من جديد لما عقدناها » (٣٤) . واعتبر الاتفاق مجحفا بمصالح بريطانيا ويعطي فرنسا مناطق كان أجرى بها ان تكون من نصيب بريطانيا نظرا لعلاقتها الاقتصادية والسياسية الوثيقة معها .

وفي هذا الاتجاه بالذات قام الجنرال اللنبي ، القائد العام للقوات الحليفة في المنطقة ، يصدر القرارات المالية الهامة التي حصرت امتياز النقد الرسمي المتداول بالنقود الذهبية لمختلف الدول من جهة ، والنقود الغضبية الانكليزية والمصرية والهندية والتركية ، وكذلك بالعملة الورقية المصرية ، مع استبعاد الفرنك الفرنسي الورقي من التداول واجبار فرنسا على ابدال عملة جنودها بالذات بالعملات المعترف بها . كما حدد بقرارات لاحقة الضرائب والالتزامات ورواتب الموظفين بالنقد المصري . فكانت خسارة فرنسا من جراء ذلك كبيرة جدا ، وقد ردت لعام ١٩١٩ وحده بحوالي ١٢٨ مليون فرنك (٣٥) .

وتحدثت جريدة « الديلي تيلغراف » ، الواسعة الانتشار آنذاك ، صراحة في عددها الصادر في الرابع من ايلول ١٩١٩ تقول « نحن - اي الانكليز - نعتبر انفسنا مرتبطين بفصل بقدر ارتباطنا بالفرنسيين ان لم يكن اكثر » (٣٦) . وتحدثت بوضوح عن اقامة حكومة وطنية في سوريا ، يرئسها زعيم عربي ، وان مثل هذه الحكومة أصبحت امرا هاما بالنسبة لبريطانيا ، ويجري البحث فيها حاليا ويخطط لها باشراف الوزراء المفوضين الانكليز بالذات .

ويؤكد السيد ديدز ، المستشار البريطاني لشؤون الشرق الاوسط ذلك فيقول : « ان مفاوضاتنا مع جماعة الشريف حسين تدور فعلا حول انشاء مملكة عربية دينية زمنية ، وهذا هو ما يريده الحسين . اما انا شخصا - وأظن ان معظمنا يرى رأيي في هذا الامر - فأرى ان هذا الامر ليس واقعا اذ انه يستحيل جمع كلمة جميع العرب في سوريا والعراق واليمن وغيرها من البلدان العربية الاخرى على الاعتراف

(٣٣) اللجنة المركزية السورية - وثائق حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ - المصدر السابق صفحة ٤ .
(٣٤) — Cité par Maurice Desjardins « Le problème syrien au point de vue économique » thèse — P. 106.

(٣٥) سعيد حمادة - النظام النقدي والمصرفي في سوريا - ص ٥٣ .
(٣٦) اورد هذا الاستشهاد جوزف اشقر في اطروحته المذكورة سابقا ص ١٢٢ .

بحاكم زمني واحد ...» (٢٧) (١)

فهل كانت بريطانيا «جادة» في تحقيق مشاريعها العربية؟ وهل كانت مستعدة لرؤية مملكة عربية كبيرة، أو دولة قوية تبرز الى الوجود بصيغة وحدوية عربية على طريق الهند؟ ألم تقائل بضراوة، ومنذ زمن بعيد، ضد بروز مثل هذه الدولة العربية على هذا المفرق الهام من مفارق التجارة العالمية وطريق المصالح البريطانية؟ وهل كان جنرالها اللبني جادا في خطابه الذي ألقاه في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨، عندما توجه الى الشعبين اللبناني والسوري بقوله «أن الحملة الفرنسية - الانكليزية لا هدف لها سوى التحرير التام والنهائي للشعوب ظلت زمنا طويلا تتحمل الاضطهاد من قبل الاتراك، واقامة حكومة وطنية وادارة محلية تستمدان سلطتهما فقط من التمثيل الحر لشعبي المنطقة؟» (٢٨).

والسؤال الاهم، ذاك الذي تعرف فرنسا سلفاً الجواب عنه، وهو: هل انقلبت بريطانيا بين ليلة وضحاها الى محرر للشعوب العربية، وداع لوحدها، أم ان لها دوافع سياسية واقتصادية اخرى؟

في الواقع، ان المناورات البريطانية لم تكن تخفى على كليمنصو او على غيره من الساسة الفرنسيين في ذلك العهد. بل ادركوا بوضوح ان جل ما تريده بريطانيا هو تنازلات جديدة في الموصل، وان دعمها للوحدويين السوريين لم يكن الا من قبيل الضغط على فرنسا ليس الا. وكان الفرنسيون يحاولون المساومة لابدال تنازلات مشتركة مع الانكليز، فاذا كان لا بد من التنازل لهم عن الموصل، فعلى الانكليز ان يتنازلوا بالمقابل عن سوريا ويكفوا عن مساعدة الامير فيصل. وهكذا تولدت مصلحة مشتركة لاتفاق وقع بين بريطانيا وفرنسا في الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ وسمي باتفاق لويد جورج - كليمنصو (٢٩) والذي جرى على اساسه تقسيم الانتدابات في مؤتمر سان ريمو بالذات. وقد لخص دوريو هذا الاتفاق بالعبارة التالية: «قالت انكلترا لفرنسا: اطلقي يدي في الموصل، فاطلق يدك في سوريا».

ان ما يلفت النظر فعلا ان الاتفاق جاء في اوج النهوض الجماهيري العربي ضد سياسة الفرنسيين. وكان لعملاء بريطانيا وموظفيها يد طولى في عرقلة المصالح الفرنسية عرقلة تامة في شتى انحاء سوريا، وما لبث موقف انكلترا ان تغير تغيرا جذريا بين ليلة وضحاها بعد ذلك الاتفاق. وأرسل الامير فيصل برقية للويس جورج يعلمه فيها ان الجيوش البريطانية تمزق الاعلام العربية (٤٠) في كافة الاماكن وانها تنسحب لصالح القوات الفرنسية. وقامت فرنسا بارسال ابرز رجالها العسكريين، الجنرال غورو، مندوبا عاما للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا. وقد ودعه كليمنصو شخصيا بهذه العبارة «ستكون الجندي البطل الذي سيبنى لفرنسا

(٢٧) زين نور الدين زين «الصراع الدولي في الشرق الاوسط»، ص ٦٨.

(٢٨) من جورج انطونيوس «يقظة العرب» ص ٥٩٠ - ٥٩١.

(٢٩) دوريو «المصدر السابق» ص ١٥.

(٤٠) من مذكرة وجهها فيصل الى لويد جورج في ٢٣ ايلول ١٩١٩ - من سليمان موسى «الثورة العربية الكبرى» - وثائق واسانيد ص ١٤٢.

«موطناً في الشرق» (٤١). وعلقت جريدة «التان» Le Temps الفرنسية على هذا التعيين بقولها: «ان تعيين منتصر الارغون في مثل هذا المنصب كان يمكن تفسيره بمثابة امتهان لكرامته ومكانته العسكرية لولا دلالة هذا التعيين على نية الحكومة الفرنسية بالالتفات بالشريط الساحلي الضيق حيث تنحصر قوات الجمهورية الفرنسية الان» (٤٢).

فهل أقر الانكليز للفرنسيين باحتلال سوريا وتخلوا عن مساعدتهم للامير فيصل؟ كل الدلائل بدأت تشير الى هذا الواقع الجديد. وقد أوضح بوانكاريه ذلك لاحقاً في رده على عضو مجلس الشيوخ الفرنسي فيكتور بيرار بقوله: «... لا يمكنني السكوت على تأكيد السيد بيرار من ان احتلالنا لسوريا سيخلق لنا حتما متاعب مع بريطانيا. فليس في هذا التأكيد اي نصيب من الصحة. فالانكليز قد تخلوا لنا عن سوريا منذ عام ١٩١٢ ...» (٤٣).

موجبات الاتفاق الفرنسي - الانكليزي لعام ١٩١٩

لقد برز الاتفاق الفرنكو - انكليزي لعام ١٩١٩ مفاجأة غير سارة للوحدويين السوريين من جهة، وللأميركيين وأصدقائهم المحليين من جهة ثانية، ودعّم مركز الفرنسيين في سوريا ولبنان، مقابل تدعيم مركز الانكليز في فلسطين والعراق ومصر. ولعل ابرز موجبات هذا الاتفاق تدور على جبهتين:

اولا - الخطر الاميركي: لقد كانت خسائر حرب ١٩١٤ باهظة التكاليف على فرنسا وبريطانيا (٤٤). ومنذ شهر آذار ١٩١٩ هبطت اسعار الليرة الانكليزية (السترلينية) اكثر من الخمس بالنسبة للدولار وهبط سعر الفرنك الفرنسي الى النصف. في حين ان الحرب نفسها اتاحت لانتاج الولايات المتحدة الاميركية الكبير والمنظم ان يتخطى انتاج اوروبا بشكل هائل. وانقلبت الولايات المتحدة من مدينة لاوروبا بالامس القريب الى دائرة لها وغدت بعد الحرب خزاناً لرؤوس الاموال. وكان نتيجة استقرار الدولار، ان أصبح العملة الدولية الاولى وغدت الولايات المتحدة اغنى بلدان العالم على الاطلاق (٤٥). واضطرت بريطانيا وفرنسا الى الاقتراض منها باستمرار. وكان للنقاط الاربع عشرة التي نادى بها الرئيس ويلسون، وأبرزها

(٤١) — Cité par E. Rabbath «Unité syrienne» — P. 395.

(٤٢) عدد ١٧ تشرين اول ١٩١٩.

(٤٣) — Le temps du 2 juillet 1922.

(٤٤) «قدرت اضرار حرب ١٩١٤ بما يقارب ٢٠٠ مليار دولار» — بدر الدين السباعي — «اضواء على الرأسمال الاجنبي» ص ٧٨ «وقدرت اضرار فرنسا وحدها بخمسة مليارات دولار مع ١٤٥ مليون قتيل ونحو ٤٤٥ مليون جريح ومشوه، مقابل ٨ مليارات من الدولارات خسرتها انكلترا ومستعمراتها ومليون من القتلى و ٢٤٥ مليون من الجرحى» — ابراهيم الاسود «تنوير الاذهان» الجزء الثالث ص ٤٨ — وجريدة صوت العمال — العدد الرابع الصادر في ٨ ايار ١٩٣٠.

(٤٥) — Maurice Beaumont «La faillite de la paix 1919-1939» — P. 295.

بحاكم زمني واحد ...» (٣٧) (١)

فهل كانت بريطانيا «جادة» في تحقيق مشاريعها العربية؟ وهل كانت مستعدة لرؤية مملكة عربية كبيرة، أو دولة قوية تبرز إلى الوجود بصيغة وحدوية عربية على طريق الهند؟ ألم تقايل بضراوة، ومنذ زمن بعيد، ضد بروز مثل هذه الدولة العربية على هذا المفرق الهام من مفارق التجارة العالمية وطريق المصالح البريطانية؟ وهل كان جنرالها اللبني جادا في خطابه الذي ألقاه في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨، عندما توجه إلى الشعبين اللبناني والسوري بقوله «ان الحملة الفرنسية - الانكليزية لا هدف لها سوى التحرير التام والنهائي لشعوب ظلت زمنا طويلا تتحمل الاضطهاد من قبل الاتراك، واقامة حكومة وطنية وادارة محلية تستمدان سلطتهما فقط من التمثيل الحر لشعبي المنطقة؟» (٣٨).

والسؤال الاهم، ذلك الذي تعرف فرنسا سلفا الجواب عنه، وهو: هل انقلبت بريطانيا بين ليلة وضحاها إلى محرر للشعوب العربية، وداع لوحدها، أم ان لها دوافع سياسية واقتصادية أخرى؟

في الواقع، ان المناورات البريطانية لم تكن تخفى على كليمنصو أو على غيره من الساسة الفرنسيين في ذلك العهد. بل ادركوا بوضوح ان جل ما تريده بريطانيا هو تنازلات جديدة في الموصل، وان دعمها للوحدويين السوريين لم يكن الا من قبيل الضغط على فرنسا ليس الا. وكان الفرنسيون يحاولون المساومة لابدال تنازلات مشتركة مع الانكليز، فاذا كان لا بد من التنازل لهم عن الموصل، فعلى الانكليز ان يتنازلوا بالمقابل عن سوريا ويكفوا عن مساعدة الامير فيصل. وهكذا تولدت مصلحة مشتركة لاتفاق وقّع بين بريطانيا وفرنسا في الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ وسمي باتفاق لويد جورج - كليمنصو (٣٩) والذي جرى على اساسه تقسيم الانتدابات في مؤتمر سان ريمو بالذات. وقد لخص دوريو هذا الاتفاق بالعبارة التالية: «قالت انكلترا لفرنسا: اطلقني يدي في الموصل، فاطلق يدك في سوريا».

ان ما يلفت النظر فعلا ان الاتفاق جاء في اوج النهوض الجماهيري العربي ضد سياسة الفرنسيين. وكان لعملاء بريطانيا وموظفيها يد طويلة في عرقلة المصالح الفرنسية عرقلة تامة في شتى انحاء سوريا، وما لبث موقف انكلترا ان تغير تغيرا جذريا بين ليلة وضحاها بعد ذلك الاتفاق. وأرسل الامير فيصل برقية للويد جورج يعلمه فيها ان الجيوش البريطانية تمزق الاعلام العربية (٤٠) في كافة الاماكن وانها تنسحب لصالح القوات الفرنسية. وقامت فرنسا بارسال ابرز رجالها العسكريين، الجنرال غورو، مندوبا عاما للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا. وقد ودعه كليمنصو شخصا بهذه العبارة «ستكون الجندي البطل الذي سيبني لفرنسا

(٣٧) زين نور الدين زين «الصراع الدولي في الشرق الاوسط»، ص ٦٨.

(٣٨) من جورج انطونيوس «يقظة العرب» ص ٥٩٠ - ٥٩١.

(٣٩) دوريو «المصدر السابق» ص ١٥.

(٤٠) من مذكرة وجهها فيصل إلى لويد جورج في ٢٣ ايلول ١٩١٩ - من سليمان موسى «الثورة العربية الكبرى» - وثائق واسانيد ص ١٤٢.

«موطنا في الشرق» (٤١). وعلقت جريدة «الشان Le Temps» الفرنسية على هذا التعيين بقولها: «ان تعيين منتصر الارغون في مثل هذا المنصب كان يمكن تفسيره بمثابة امتهان لكرامته ومكانته العسكرية لولا دلالة هذا التعيين على نية الحكومة الفرنسية بألا تقنع بالشريط الساحلي الضيق حيث تنحصر قوات الجمهورية الفرنسية الان» (٤٢).

فهل أقر الانكليز للفرنسيين باحتلال سوريا وتخلوا عن مساعدتهم للامير فيصل؟ كل الدلائل بدأت تشير إلى هذا الواقع الجديد. وقد أوضح بوانكاريه ذلك لاحقا في رده على عضو مجلس الشيوخ الفرنسي فيكتور بيرار بقوله: «... لا يمكنني السكوت على تأكيد السيد بيرار من ان احتلالنا لسوريا سيخلق لنا حتما متاعب مع بريطانيا. فليس في هذا التأكيد اي نصيب من الصحة. فالانكليز قد تخلوا لنا عن سوريا منذ عام ١٩١٢ ...» (٤٣).

موجبات الاتفاق الفرنسي - الانكليزي لعام ١٩١٩

لقد برز الاتفاق الفرنكو - انكليزي لعام ١٩١٩ مفاجأة غير سارة للوحدويين السوريين من جهة، وللأميركيين وأصدقائهم المحليين من جهة ثانية، ودعم مركز الفرنسيين في سوريا ولبنان، مقابل تقديم مركز الانكليز في فلسطين والعراق ومصر. ولعل أبرز موجبات هذا الاتفاق تدور على جبهتين:

أولا - الخطر الأميركي: لقد كانت خسائر حرب ١٩١٤ باهظة التكاليف على فرنسا وبريطانيا (٤٤). ومنذ شهر آذار ١٩١٩ هبطت اسعار الليرة الانكليزية (السترلينية). أكثر من الخمس بالنسبة للدولار وهبط سعر الفرنك الفرنسي إلى النصف. في حين ان الحرب نفسها اتاحت لانتاج الولايات المتحدة الأميركية الكبير والمنظم ان يتخطى انتاج أوروبا بشكل هائل. وانتقلت الولايات المتحدة من مدينة لاوروبا بالامس القريب إلى دائرة لها وغدت بعد الحرب خزانا لرؤوس الاموال. وكان نتيجة استقرار الدولار، ان أصبح العملة الدولية الاولى وغدت الولايات المتحدة أغنى بلدان العالم على الاطلاق (٤٥). واضطرت بريطانيا وفرنسا إلى الاقتراض منها باستمرار. وكان للنقاط الأربع عشرة التي نادى بها الرئيس ويلسون، وأبرزها

(٤١) Cité par E. Rabbath «Unité syrienne» - P. 395.

(٤٢) عدد ١٧ تشرين اول ١٩١٩.

(٤٣) Le temps du 2 juillet 1922.

(٤٤) «قدرت اضرار حرب ١٩١٤ بما يقارب ٢٠٠ مليار دولار» - بدر الدين السباعي - «اضواء على الراسمال الاجنبي» ص ٧٨ «وقدرت اضرار فرنسا وحدها بخمسة مليارات دولار مع ١٥٠ مليون قتيل ونحو ٤٤٥ مليون جريح ومشوه»، مقابل ٨ مليارات من الدولارات خسرتها انكلترا ومستعمراتها ومليون من القتلى و ٢٤٥ مليون من الجرحى». ابراهيم الاسود «تؤجير الاذهان ..» الجزء الثالث ص ٤٨ - وجريدة صوت العمال - العدد الرابع الصادر في ٨ ايار ١٩٣٠.

(٤٥) Maurice Beaumont «La faillite de la paix 1919-1939» - P. 295.

حق الشعوب في تقرير مصيرها ، صدى واسع في اوساط الشعوب المقهورة التي بدأت تنادي بمساعدة اميركا بالدرجة الاولى . وأشرف الرئيس ويلسون شخصيا على صياغة بنود ميثاق عصبة الامم بالتفصيل مع وزير خارجية بريطانيا بلفور (٤٦) . وكان الرئيس ويلسون يصرّ دوماً على حق كل شعب ، باختيار السلطة التي تساعد له للوصول الى الاستقلال طبقاً للبند ٢٢ من ميثاق عصبة الامم المبرم في ١٨ حزيران ١٩١٩ (٤٧) ، اي قبل ثلاثة اشهر تقريبا من توقيع الاتفاق الفرنسي - الانكليزي .

اما في الداخل ، فقد تجنّد اصداق الولايات المتحدة في المنطقة للدعوة الى الحماية والانتداب اميركي ، وألفوا جمعية باسم « جمعية سوريا الوطنية الجديدة » التي كانت تجد في الولايات المتحدة الاميركية جميع الشروط المطلوبة من أجل تنفيذ الانتداب على سوريا ولبنان . وتشر رئيس هذه الجمعية ، ابراهيم ميري الرحباني ، كتابا بعنوان « يا اميركا خلّصي الشرق الادنى » (٤٨) .

وفي هذا الاتجاه كان الحزب الوطني اللبناني في مصر ينادي بالوحدة السورية . ومساعدة اميركا وحمايتها لهذه الوحدة . « ووجد دعاة هذا الحزب ان الانفصال اللبناني عن سوريا معناه البؤس وقت السلم والموت زمن الحرب ، وان طالب الحماية الاميركية يوافق عليه الجميع » (٤٩) .

فهل كانت الولايات المتحدة تسعى لأن تصبح بلدا منتدبا على هذه المنطقة ؟ هل أصبحت خطرا جديا على مصالح الانكليز والفرنسيين في الشرق الاوسط ؟

الكثير من الدلائل التاريخية تؤكد ان حكومة واشنطن لم تكف عن العمل من أجل هذا الهدف . وقد أثبت ألبير ميبو في كتابه « الانتدابات الدولية » (٥٠) الصادر في باريس ١٩٢٤ ان « عين اميركيين متجهة منذ وقت طويل نحو الشرق الادنى . فرأسماليوهم كانوا يرون فيه أعمالا زافرة الارباح ، ومبشروهم ، الفائقو النشاط ، وجدوا هناك رسالة دينية وانسانية عليهم تأديتها فيه . وبفعل هذا التأثير المزدوج طلبت صحف الحزبين الرئيسيين ، الجمهوري والديمقراطي ، ان تعنى اميركا بمصر الشرق الادنى بما في ذلك منطقة المضائق » (٥١) . وحجة تلك الصحف ان اميركا لم تدخل في حرب مع الامبراطورية العثمانية ، لذا فهي مؤهلة اكثر من أية دولة أخرى للوصول الى هذا الهدف اي الانتداب دون ان تجرح الشعور الوطني لاية قومية من قوميات المنطقة او لاية طائفة من طوائفها » (٥٢) .

(٤٦) ج - بيشون - « تقسيم الشرق الاوسط » - المصدر السابق - ص ١٣٦ .
(٤٧) حسب منطوق هذه المادة « يجب ان تؤخذ رغبات هذه الشعوب (سوريا وفلسطين والعراق ولبنان) بعين الاعتبار عند اختيار الدولة المنتدبة » .

(٤٨) الحقيقة - (جريدة) - العدد ١٠٤٣ الصادر في ٢٧ شباط ١٩١٩ .
(٤٩) الحقيقة - السنة الحادية عشرة - العدد ١١٣٥ الصادر في ٧ تموز ١٩١٩ .
(٥٠) A Millot « Les mandats internationaux » - P. 22.

(٥١) الفرنديل واليوسفور التابعان لتركيا .
(٥٢) - ميبو - المصدر السابق - ص ٢٣ - وقد أيد هذا القول محمد جميل بيهيم ، عضو المؤتمر السوري الذي انتخب الامير فيصل ملكا على الاتحاد السوري . وقد مثل السيد بيهيم مدينة بيروت في ذلك المؤتمر . (مقابلة خاصة) .

ويؤيد زين زين هذه الفكرة بقوله : « ... ويبدو ان الرئيس ويلسون كان يفكر بمشروع انشاء اتحاد كونفدرالي للدول العربية بحماية الولايات المتحدة » (٥٣) .

ويضيف زين : « وفي هذه الاثناء رفع « قسم الاستخبارات » لوفد الولايات المتحدة الاميركية لمؤتمر الصلح في باريس توصية بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩١٩ الى الرئيس ويلسون والى المفوضين المطلقى الصلاحية للدول الاخرى فيها : اولا - انشاء دولة سوريا ، ثانيا - ان يطبق على هذه الدولة السورية نظام الانتداب ، ثالثا - ينبغي الا توضع عراقيل من شأنها ان تحول دون ادماج هذه الدولة السورية المقترحة في اتحاد عربي كونفدرالي اذا تبين ان هناك ميلا في البلاد نحو هذا الحل » (٥٤) .

لذا سارع ويلسون الى ارسال لجنة اميركية ، بعد ان تمتعت بريطانيا وفرنسا عن الاشتراك فيها ، والتي دعيت بلجنة كينغ - كراين من أجل استفتاء السكان حول صفة المنتدب وجنسيته . اما في الواقع ، فان الرئيس ويلسون قد أرسل لجنة كينغ - كراين لتشجيع القوميين العرب على مقاومة الاطماع الفرنسية والانكليزية » (٥٥) .

وفي هذا الاتجاه ايضا جاءت رحلة الدكتور هيوارد بلس Bliss ، رئيس الكلية السورية (الجامعة الاميركية لاحقا) في بيروت آنذاك ، الذي استدعي الى باريس « للاستشارة » . ففي ١٣ شباط ١٩١٩ ، استمع مجلس العشرة الى الدكتور بلس الذي طالب بارسال لجنة تحقيق « تتعرف على رغبات السكان السوريين » (٥٦) .

ونصت مذكرة الدكتور بلس على ان السوريين ، ومن ضمنهم اللبنانيين ، يطالبون بالاستقلال التام ، لكنهم يريدون في الوقت الحاضر حماية دولة منتدبة : « ان سوريا بلد صغير ، ولكن القضية السورية تنطوي على مبدأ صريح ، وهو امر يمس شرف الولايات المتحدة وحلفائها ... ان البلاد ينبغي الا تسلم الى سيطرة اية دولة اخرى قبل استشارة سكانها وقبل الاطلاع على رغباتهم » (٥٧) . وفي هذا القول انسجام تام مع قول الرئيس ويلسون « ليس هناك من قانون يسمح بنقل شعب من سلطة الى اخرى كما لو كان سلعة تباع وتشترى » (٥٨) .

وقد فضلت فرنسا وانكلترا ، لتفادي فشل محقق ، ان تمتنع عن الانضمام الى لجنة كينغ - كراين للتحقيق . غير ان التقرير البالغ الاهمية الذي قدمته هذه اللجنة عند عودتها دفن عمدا في ادراج عصبة الامم . وجاء في الاستفتاء الذي قامت به اللجنة ان سوريا تريد الاستقلال المطلق دون اي انتداب او وصاية . ويضيف التقرير : « اما فيما يتعلق باختيار المنتدب ، فاذا كان لا بد من فرض الانتداب على سوريا ، فان اغلبيه السكان فيها ستكون الى جانب انتداب اميركي . اما في جبل لبنان ، فان

(٥٣) زين الدين زين « الصراع الدولي في الشرق الاوسط » ص ٩٩ .
(٥٤) زين نور الدين زين المصدر السابق - ص ١٠٢ .
(٥٥) Henri Grimal « La décolonisation 1919-1963 » - P. 17.
(٥٦) سليمان موسى « الحركة العربية » ... ص ٤٧٢ .
(٥٧) زين زين - « الصراع الدولي » ص ١٠٦ .
(٥٨) من رسالة للرئيس ويلسون وجهها الى مجلس الشيوخ اميركي في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٧ .

الغلبية هناك تؤيد الانتداب الفرنسي عليه» (٥٩) .

ان الولايات المتحدة لم تتمكن فعليا من فرض انتدابها المباشر على الحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، لذا لم تعترف بالانتداب الا بعد اربع سنوات من اقراره في سان ريمو بعد ان ضمنّت سياسة الباب المفتوح امام تجارتها وذلك بمنع احتكار اية دولة منتدبة من السيطرة على الاراضي التي لم يسبق ان كانت مستعمرة من قبل . ونظرا لمركز الولايات المتحدة في التجارة الدولية آنذاك ، ولما بين ايديها من الرساميل والاقتصاد المنظم ، فقد كان في مقدورها اجبار فرنسا وبريطانيا على اعادة توزيع الحقوق النفطية بحيث حصلت على حصة واسعة من الاراضي والمصالح التي كان الرأسمالان الفرنسي والبريطاني ينيان الاحتفاظ به . فقد حصلت الولايات المتحدة على حصة كبيرة من بترول الموصل بلغت رسميا ٢٣،٧٥٪ للشركات الاميركية . واشترى اتحاد الشرق الادنى الممثل لشركات بترول بان اميركان وستاندرد نيويورك وستاندرد نيوجرزي ٢٥٪ من اسهم شركة البترول التركية (٦٠) .

ونذكر ايضا ان سياسة الباب المفتوح في التجارة ضمنها رسميا صك الانتداب الخاص بسوريا ولبنان في المادة ١١ . « وبضغط من الولايات المتحدة - يقول جان بيشون - انضمت شيئا فشيئا جميع الحكومات المتحالفة الى تأييد وعد بلفور . ولم يكن الامير فيصل مستبعدا عن هذا التأييد . فبعد توقيع اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ ، عاد الجنرال اللنبي فذكر فيصل بأنه سيقمع بالقوة اية محاولة معادية للصهيونية» (٦١) . يضاف الى ذلك ايضا الاتفاق الفرنسي-الاميركي الذي عقد في ٤ نيسان ١٩٢٤ حيث جاء في مادته الخامسة : « ان الرعايا الاميركيين ستكون لهم حرية انشاء وادارة مؤسسات ثقافية ودينية على الاراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي . ولهم الحق كذلك في استقبال الطلاب فيها وتعليمهم باللغة الانكليزية دون اية مضايقات » . وقد علّقت مجلة « آسيا الفرنسية » الواسعة الاطلاع على ذلك الاتفاق بقولها : « ان حكومة واشنطن كانت ، وهي توقع اتفاق الرابع من نيسان ١٩٢٤ ، مدفوعة بأهمية دور البعثات التبشيرية الاميركية في هذه البلاد ، خاصة في لبنان الكبير » (٦٢) .

فمقابل فشل الاميركيين في الحصول على الانتداب على سوريا ولبنان ، سارعوا الى تحقيق العديد من المكاسب . كما اشترطوا في بيانهم الصادر في ٩ آب ١٩٢١ على ضرورة تعديل نص صك الانتداب من فئة « أ » بحيث يعترف رسميا ببعض الضمانات

(٥٩) شكيب ارسلان - من مقدمة كتاب الدكتور انمون رباط

« L'évolution politique de la Syrie sous Mandat » — P. 3.

وقد اصر الاستاذ جواد بولس - في مقابلة خاصة معه - على القول ان مسيحيي لبنان بمجموعهم قد طالبوا بالانتداب الفرنسي . ونرى ان هذا القول مبالغ فيه كثيرا حتى ولو كان المتصور هنا الموارنة وليس جميع الطوائف المسيحية . اما الكاتب الفرنسي Bouron فيقول « ان ٩٠٪ من سكان الجبل اللبناني وبعض سكان السواحل قد طالبوا بالانتداب الفرنسي » .

راجع ايضا « العهد المخضرم في سوريا ولبنان » لحمد جميل بيهيم - ص ٨٦ .

(٦٠) بدر الدين السباعي « اضاء على الرأسمال الاجنبي في سوريا » ص ٦٥ .

— Jean Pichon « Le partage du Proche-Orient » — P. 174.

— L'Asie Française — No. 221 — Mai 1924 — P. 274.

(٦٢)

لسكان البلاد المحليين وبحرية التجارة العالمية وبوجوب معاملة الولايات المتحدة كعضو كامل الحقوق من اعضاء عصبة الامم من حيث علاقاتها التجارية مع الدول الواقعة تحت الانتداب» (٦٣) .

لقد كان اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ تقرير مصر بالنسبة لفرنسا وانكلترا بعد ان أصبح الاميركيون منافسا خطيرا لمصالحهما في هذه المنطقة . لذا عبّر الاتفاق بوضوح تام عن رغبة الفرنسيين والانكليز بتفادي بروز الاميركيين ، الاقوياء جدا في جميع المجالات بعد الحرب ، في منطقة الشرق الادنى بحيث تتهدد بعنف مصالح ومخططات الاستعمار القديم .

ثانيا - خطر المد الوطني المدعوم من الثورة السوفياتية : ان موقف ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا منذ ١٩١٧ ابرز حليفا قويا جديدا للحركات الوطنية داخل البلدان التي تسيطر عليها القوى الاستعمارية . وقد جاء فضح اتفاقية سايكس - بيكو (٦٤) منذ الايام الاولى لاستلام السلطة السوفياتية للحكم ليضع قادة الحركة الوطنية في الاقطار العربية على بيّنة من المخططات الاستعمارية التي تحيها كل من بريطانيا وفرنسا للسيطرة على اجزاء السلطنة العثمانية في شرقي المتوسط .

وقد أربع لينين الاستعمار الاوروبي باعلانه نداء موجها الى جميع الشغيلة في الشرق بعد اقل من شهر على استلام السوفيات لحكم موسكو ، شدد فيه على مساندة الثورة السوفياتية اللامشروطة لجميع الحركات التحررية في الشرق (٦٥) . وجاء في النداء :

« يا شعوب الشرق ! من فرس وترك وعرب وهنود ! ان غزاة اوروبا الجشعين قد تاجروا بأوطانكم وحرمانكم وأملاككم ودمائكم ! ان اللصوص الذين اضرمو نار الحرب يريدون تقسيم اوطانكم . ليست روسيا وحكومتها الثورية اللتان يريدان استعبادكم ، انهم طغاة الاستعمار الاوروبي الجشعون ، الذين يقودون الحرب الحاضرة ليتقاسموا بلدانكم فيما بينهم ، هؤلاء الذين جعلوا من اوطانكم المسلوية ، المهانة مستعمرات لهم ! عليكم ان تكونوا انتم اسيا بلادكم ! عليكم انتم ان تشيدوا اسس حياتكم كما تشاؤون ، ولكم حقكم في ذلك لأن مصركم هو بين ايديكم » .

التوقيع : لينين (٦٦)

ان الحقائق التاريخية تؤيد ما ذهب اليه مكسيم رودنسون من « ان الثورة الروسية لعام ١٩١٧ ، كان لها الاثر الاهم على مجرى الاحداث في المناطق المحكومة من قبل الامبريالية » ، اذ قدمت نموذجا لحركة شعب متخلف يناضل ضد دول الغرب

(٦٣) — Victor Kûri « L'évolution du Mandat A » Thèse — P. 81.

(٦٤) نشرت جريدتا الافستيا والبرافدا السوفياتيتان نصوص هذه الوثائق السرية بكاملها في مديهما الصادرين في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٧ . راجع زين زين . « الصراع الدولي » ص ٢١٣ .

(٦٥) صدر النداء في ٣ كانون الاول ١٩١٧ .

(٦٦) لوتسكي « ثورة اكسوبر والبلاد العربية » مجلة الطريق البيروتية - السنة السادسة - العدد

المعاصر - تشرين الاول ١٩٤٧ - ص ٨٣ .

الرأسمالية والامبريالية . وقد بينت تلك الثورة بوضوح تام ان نهاية الامبريالية قد أصبحت وشيكة » (١٧) .

ان مجرى الاحداث قد اتخذ مسارا جديدا بعد الحرب العالمية الاولى وقيام الثورة السوفياتية الكبرى ، اذ « ان حقا للضعفاء والمهانين والمفهورين قد انتصب بعنف في وجه سيطرة المستبدين ، وأضحى البلاشفة يرون بأعينهم كيف قام الاولوف من المفهورين في كل مكان يحذون حذوهم ويتشبهون بهم » (١٨) .

كما « ان حق المفهورين الذين انتفضوا يطالبون بحريتهم وجد حلفاء له ، رسميين الى حد كبير ، في النظام المنبثق عن ثورة اكتوبر وفي الطبقات العمالية داخل البلدان الرأسمالية » (١٩) . فقد سارعت روسيا السوفياتية الى عقد تحالف (٢٠) وثيق مع الحركة التحريرية التركية التي قادها مصطفى كمال . وفشلت حروب فرنسا الاستعمارية ضد قوات التحرير في كيكيا . ولعب العون السوفياتي دورا حاسما في ذلك الانتصار مما زاد في تعميق الدعوة بين صفوف قادة حركات التحرر الوطني للارتباط الوثيق بهذه الثورة الفتية والتخطيط معها لضرب القوى الاستعمارية .

وجوابا على رسالة مصطفى كمال الى روسيا السوفياتية يعرب فيها عن رغبته في توثيق علاقاته بها ، رد وزير الخارجية السوفياتي تشيشيرن يقول : « ان حكومة السوفيات تمد يد الصداقة الى كافة شعوب العالم مخلصا لمبادئها التي تعترف لكل امة بحق تقرير مصيرها بنفسها » (٢١) .

لقد برز خطر جديد في وجه الاطماع الفرنسية والانكليزية في المنطقة ولا يقل عن الخطر الاميركي السابق بل يزيده اهمية ، فهو خطر من نوع جديد . فالسوفيات لا يرمون الى الحلول محل اي منهما ، كما يود الاميركيون ، لكنهم يرون في حركة شعوب المنطقة التحررية حليفا استراتيجيا لهم ، وبالتالي فقد ابدوا استعدادهم المطلق لتأييدهم في ثوراتهم ضد الفرنسيين والانكليز ، وغدا وضع فرنسا وبريطانيا صعبا جدا في سوريا والعراق وفلسطين ومصر . وجاءت هزيمة فرنسا امام قوات مصطفى كمال لتزيد من قناعة الزعماء الوطنيين من العرب بضرورة تعميق الصلات مع الثورة السوفياتية . وقام سعد زغلول ، زعيم حزب الوفد المصري ، الذي قاد ثورة ١٩١٩ ، يشن حملة عنيفة ضد الانكليز ويطالب باستقلال مصر التام كحق من

(١٧) — Maxime Rodinson « Marxisme et Monde Musulman » — P. 348.

(١٨) — J. Berque « L'Orient second » — P. 21.

(١٩) — J. Berque: ibid. — P. 21.

(٢٠) — معاهدتنا تار Kars وموسكو — انظر م. رودنسون المصدر السابق ص ٣٤٩ وما بعدها . كان مصطفى كمال يقول « اننا اصديقاء مع روسيا لانها اول من اعترفت بحقوقنا القومية واعتبرتها . وبهذه

الشروط ستكون تركيا لروسيا صديقة وفيه الى الابد ، كما هي اليوم » .

جريدة « المعرض » البيروتية — السنة الاولى — العدد ٤٩ الصادر في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ — الصفحة الرابعة .

(٢١) — جريدة « الحقيقة » البيروتية — السنة الثانية عشرة — العدد ١٣٢٣ الصادر في ٨ تموز ١٩٢٠ — الصفحة الاولى .

حقوق تقرير المصير الذي تنادي به عصبة الامم ، في حين كانت « الطليعة الوفدية » (٢٢) ، او شباب حزب الوفد ، تجري اتصالاتها المستمرة مع لينين . وقام ابراهيم هنانو (٢٣) ، وهو من أبرز الزعماء الوطنيين في سوريا آنذاك ، بتبادل الرسائل مع لينين ، بينما كان العراق وفلسطين يتمخضان بثورتين وطنيتين كبيرتين ضد بريطانيا (٢٤) .

صحيح ان جبل لبنان كان بعيدا عن مثل تلك الاتصالات ، وكان يرسل الوفود المتتالية (٢٥) الى مؤتمر السلام بباريس للمطالبة « بلبنان متحرر من كل قيد او عبودية ، لبنان حر المصير ، لبنان الموسع نحو حدوده الطبيعية » (٢٦) غير ان قطاعا واسعا من سكان لبنان كان لا يزال منضمنا آنذاك الى السلطة الوطنية في دمشق ، ويؤثر فيه دعاة الوحدة مع سوريا وضد كل تدخل اجنبي . كما ان انصار الانتداب الفرنسي لم يكونوا وحيدون على الساحة اللبنانية فهناك من يدعو الى استقلال لبنان التام مع مساعدة دولة اجنبية دون تحديد لهوية تلك الدولة . ويفضل دعاة هذا التيار حماية جماعية كالتي كانت زمن المتصرفية شرط ان يرأس الجبل حاكم وطني من اهاليه (٢٧) . وفي جميع الاحوال ، فان جبل لبنان لم يكن بمقدوره ان ينعزل

(٢٢) اكد لي عبد المنعم الغزالي ، سكرتير التحرير المساعد لمجلة الطليعة المصرية ، ان محمد مندور ، احد القادة البارزين في قيادة الطليعة الوفدية ، هو الذي اجرى الاتصالات باسم الوفد مع لينين منذ ١٩١٨ . (مقابلة شخصية) .

(٢٣) — عايش الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك الزعيم ابراهيم هنانو في ساعاته الاخيرة . ويقول الاستاذ يزبك ان هنانو قد اكد له وجود تلك الرسائل المتبادلة مع لينين والتي ما زالت مفقودة حتى اليوم وقد اورد الاستاذ يزبك ايضا ان هنانو اوما له ، وهو على فراش الموت ، على مكان الرسائل في علبة بسكويت كبيرة على ظهر الخزانة في منزله . لكن مصير تلك الرسائل لا يزال مجهولا .

مجلة البلاغ البيروتية — العدد ١٧ الصادر في اول ايار ١٩٧٢ ص ٢٧ — ٢٨ . راجع ايضا يوسف يزبك « حكاية اول نوار » ص ٩٥ — ٩٧ .

(٢٤) علقت صحيفة « المورنغ بوست » اللندنية في عددها الصادر في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٠ على الوضع في العراق وفلسطين تقول « لم يحدث قط ان تولت السلطة ادارة بغية الى هذا الحد في اي بلد من البلدان ، فحتى البهائم كانت ستثور عليها حتما » .

Cité par E. Jung « La révolte arabe » T. 2 — P. 134.

(٢٥) ثلاثة وفود رئسها على التوالي داود ميمون ، البطريك الياس الحويك ، والمونسنيور عبد الله خوري .

(٢٦) « استقلال لبنان وتوسيعه نحو حدوده التاريخية وطلب العون من فرنسا » . خير الله خير الله . « Les régions arabes libérées » ص ٧٥ .

ان تلك التصريحات تستند محتواها من « مشروع لبنان » الذي تقدم به مجلس ادارة جبل لبنان منذ ١٩١٩ .

راجع بنود هذا المشروع في مجلة « المقتطف » السنة ٥٤ — الجزء الاول — كانون الثاني ١٩١٩ ص ٩٧ .

(٢٧) في لقاء مع الجنرال غورو شدد البطريك الحويك « ان فرنسا بنفسها سنة ١٨٦٥ كانت تريد ان تحقق لنا الاستقلال التام والحكومة الوطنية البحتة وعلى رأسها حاكم وطني لبناني » .

جريدة لسان الحال — العدد ٨٤٩٤ الصادر في ١٠ كانون الاول ١٩٢١ .

وكتب البير ميبو منذ ١٩٢٤ يقول « ان الطوائف اللبنانية ، رغم مشاحناتها وروح الاستسلام

عن مؤثرات ثورة وطنية شاملة ، في حال حدوثها في تلك الظروف ، وتشمل سوريا وفلسطين والعراق بالإضافة الى مصر .

ان ثورة عربية تمتد الى تلك الاقطار برمتها ، لم تكن حلما من الاحلام ، بل حقيقة تاريخية حدثت بالفعل بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ دون ان ترتفع الى مستوى التنسيق الاستراتيجي فيها بينها ، لذا استطاع التحالف الفرنكو - انكليزي المفقود في ١٥ ايلول ١٩١٩ ان يستفرد تلك الثورات ويقضي عليها تباعا بعد ان وحد جبهته الهجومية .

ميسلون او معركة المصير المحتوم

لقد وضع اتفاق الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ الحركة الوحدوية السورية وجها لوجه امام فرق الجيش الفرنسي التي كانت تنتشر من قبل في المناطق الساحلية فقط . صحيح ان الاتفاق الفرنسي - التركي (٧٨) في ذلك الحين كان يعني فشل التدخل الاستعماري لفرنسا في كيليكا ، غير ان الاتفاق بالذات اتاح للجنرال غورو سحب فرق عديدة الى ميدان المعركة المرتقبة مع سوريا .

وبالمقابل ، احدث هذا الاتفاق الفرنكو - انكليزي هياجا صاخبا في سوريا والمناطق اللبنانية خارج الجبل وتوسعت الدعوة الى الاستقلال والوحدة مع سوريا وبلغ الحماس ضد الفرنسيين اقصى مداه بعدما تجمع الوحدويون حول اللجنة الوطنية للدفاع عن الامة التي ترأسها الامير زيد (٧٩) ، الذي ناب عن فيصل الموجود في باريس ، في تسيير مقاليد الحكم . واعلنت العناصر الوحدوية في سوريا ولبنان جهارا انها ترفض اي اتفاق ، من اي نوع كان ، مع دولة اجنبية وارفع الشعار الوحيد « الاستقلال المطلق دون وصاية او انتداب » . وقد علقت مجلة « آسيا الفرنسية » على برنامج دعاة الوحدة هؤلاء فكتبت تقول « اذا كانت فكرة الوحدة تظهر في رأس برنامج المثقفين العرب فلأن نشاطهم اذ ذاك كان منصبا على نزع نير السيطرة البريطانية والفرنسية والايطالية في الشرقين الادنى والوسط » (٨٠) .

وجاء مؤتمر دمشق ، في ٧ اذار ١٩٢٠ ، تعبيرا عن قمة هذا المد الوحدوي العارم اذ تجمع فيه الوحدويون من كافة المناطق السورية واللبنانية والفلسطينية والعراقية لمبايعة الامير فيصل ملكا على هذا الاتحاد العام . واعترف المؤتمر بمركز متميز لجبل لبنان ، اذ اعلن المؤتمر بوضوح تام « على ان تراعى امانى اللبنانيين

→

والقدرية لديها - وهي الصفات المشتركة لدى جميع الشرقيين - كانت تطمح كلها الى الحكم الذاتي، ان لم نقل الاستقلال التام » .

(٧٨) وقع الاتفاق مصطفى كمال والجنرال غورو في ٥ تموز ١٩٢٠ - راجع عن هذه الحرب كتاب ادمون رباط « التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري » ص ٢٩٢ وما يليها .

(٧٩) « اعلن الامير زيد التجديد الاجباري في ٢٢ كانون الاول ١٩١٩ . وكان يدعو الى الاستقلال المطلق دون وصاية او انتداب . وقد تجمع حوله طلاب الوحدة الذين كانوا المحركين الفعليين للمؤتمر السوري المنعقد في ٢ تموز ١٩١٩ » . نشر هنا الى ان المقطع مأخوذ بحرفية من :

Haut Commissariat « La Syrie et le Liban en 1921 », Conférence du L. C. Goudot - P. 79.

— F.T. « L'Asie Française » — No. 277 — Février 1930 — P. 64.

(٨٠)

في ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجنبي » (٨١) . وتعهد الامير فيصل ، ملك سوريا الجديد ، سرا للفرنسيين « بالقضاء على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الفرنسي » (٨٢) .

ان محاولة ضرب العصابات الوطنية على ايدي قوات فيصل العربية ، كان نصرا كبيرا للسياسة الفرنسية التي كانت ترمي الى ضرب العناصر الوطنية بعضها ببعض . غير انه من المفالة القول ان فرنسا كانت عاجزة عن القضاء على تلك العصابات ، بل ان القوات الفرنسية كانت تخطط سلفا لاستغلال اعمال طائفية استفزازية فكانت تتباطأ عمدا عن نجدة القرى المسيحية التي تتعرض للسلب والتخريب .

ان افضل تفسير لاسباب ذلك التباطؤ المتعمد من جانب الفرنسيين قول امين الريحاني في هذا الصدد « السر هو ان المستعمرين الفرنسيين كانوا يريدون ان تتسع اعمال الاعتداء على المسيحيين ، ليتخذوا من ذلك حجة للقيام بعملية « دفاع » واسعة تشمل جميع الاراضي السورية . وقد كان ذلك ، وكانت ميسلون ، حصاد سياسة « حماية الاقليات » وثمرة تقاسم النفوذ بين « المدافعين » عن حق العرب في الحرية والاستقلال » (٨٣) !!

ان اعلان فيصل ملكا على سوريا قد ادى الى هلع في صفوف دعاة الانفصال اللبناني عن سوريا وتوسيع حدود الجبل ، لكن انعكاسه كان اشد تأثيرا في صفوف الفرنسيين وحتى البريطانيين الذين ، على حد تعبير الجنرال اندريا - وجدوا « ان فيصلا قد تجاوز الاتفاق المرسوم معه » (٨٤) .

لذا سارع الفرنسيون والبريطانيون ، بعد خمسة واربعين يوما بالضبط من مؤتمر دمشق ، الى عقد مؤتمر سان ريمو في ايطاليا ، الذي اقر الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، والانكليزي على فلسطين والعراق ، بعد تغطية جماعية من عصبة الامم .

ورافق عقد هذا المؤتمر اتفاق فرنسي انكليزي حول النفط في سان ريمو بالذات في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ وطبقا لهذا الاتفاق « تعهدت الحكومة البريطانية بأن تخصص للحكومة الفرنسية ، او لمن تعينهم فرنسا ، حصة مقدارها ٢٥٪ وبسعر السوق ، من الانتاج الصافي للزيت الخام الذي يمكن لحكومة صاحب الجلالة ان تحصل عليه من حقول النفط العراقية لقاء تنازل فرنسا عن حصتها في الموصل » (٨٥) . لقد منحت عصبة الامم فرنسا وبريطانيا الانتداب كما لو كان الامر قد حدث بطريق الصدفة او بناء على رغبة السكان بينما كان في الواقع تأكيدا للسياسة الوفاقية بين

(٨١) ساطع الحمصي - يوم ميسلون - ص ٢٧٣ . وثيقة .

(٨٢) محمد كرد علي - خطط الشام - الجزء الثالث - ص ١٧٢ .

(٨٣) امين الريحاني - ملوك العرب - الجزء الثاني - ص ٢٤٨ .

(٨٤) — Général Andréa « La révolte druze » — P. 18.

(٨٥) — Correspondance d'Orient « Documents » — No. 302 — Février 1923 — P. 79-80.

هاتين الدولتين المبررتين في مؤتمر سان ريمو ، وجاء الانتداب عمليا استمرارا للاتفاقيات المعقودة اثناء الحرب وبعدها ، فكانت اتفاقات ١٩١٦ و ١٩١٩ اساسا لاسناد الانتدابات في عام ١٩٢٠ (٨٦) .

فالانتداب ، كما اقره مؤتمر سان ريمو في ايطاليا ، لا يختلف بشيء عن اللاحق والضم والحماية ، وكلها اشكال لمحتوى الاستعمار القديم المتجدد (٨٧) . هذا الانتداب ، لم يختلف عن سابقه ، لا بالطريقة التي انتهجتها السلطات المنتدبة ولا بالشكل الذي اسندته به عصبة الامم . زيادة على ذلك ، خرقت تلك العصبة نظامها الداخلي ، خاصة المادة الثانية والعشرين منه القاضية بوجوب استشارة البلد المنتدب عن جنسية الدولة المنتدبة ، كل ذلك حرصا منها على صيانة مصالح فرنسا وبريطانيا . اما على الصعيد الداخلي في سوريا ولبنان ، فهل كان بمقدور الوحدويين مواجهة قرارات مؤتمر سان ريمو ورفض الانتداب الفرنسي المفروض عليهما ؟ بمعنى آخر ، هل كان فيصّل جادا في تحديه للفرنسيين والصمود في وجه مخططاتهم حتى النهاية ؟ أم ان فيصلا كان قد ارغم على عقد المؤتمر بضغط من الوحدويين دعاء الاستقلال التام ؟

وتجيب المنار على هذه الاسئلة بقولها : « جاء الامير فيصل سوريا من فرنسا في ٢٣ ربيع الآخر ١٣٣٨ ، ١٤ يناير ١٩٢٠ ، وهو يعتقد انه باتفاقه مع كليمنصو على قبول الوصاية الفرنسية مع تخفيف شروطها قد قدم الى سوريا اجل خدمة ولكنه لم يستطع ان يقنع حزبه الخاص بذلك . وحاول ان يؤلف حزبا من المحافظين يستعين به على ذلك . وكان ذلك حزب عبد الرحمن بك اليوسف ، الفرنسي النزعة ، الذي سمي بالحزب الوطني ، لكنه لم يستطع مساعدته ولا الاستعانة به ، بعد ان تعرف اليه وتكرّر لحزبه . وظل سلطان الحزب الاول (الاستقلال) عليه اقوى من سلطانه على الحزب على ما اوقع فيه من الشقاق . فالحزب هو الذي منعه من العودة الى اوربا وحمله على قبول اعلان استقلال سوريا ، وجعله ملكا عليها ، وأرضاه بجعل ملكها ارثا على ذريته وبجعل الراية الحجازية راية لسورية مع زيادة نجم ابيض في الزاوية الحمراء التي هي رمز علم شرفاء مكة فيها وجعل القواعد التي بنى عليها المؤتمر السوري اعلان الاستقلال قائمة على اساس الاعتراف بأنه حارب الترك من قبل والده مع جيوش الحلفاء لاجل تحرير البلاد العربية وتحقيق استقلالها الذي كان ينشده احرارها » (٨٨) .

لقد تزايدت القوات الفرنسية بسرعة مذهلة بعد اتفاق ايلول ١٩١٩ اذ ارتفع عدد تلك القوات الى ١٣ الفا في تشرين الاول من هذا العام وقفز الى ٧٠ الفا في تشرين الاول من عام ١٩٢٠ (٨٩) .

(٨٦) — Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 9. — Voir aussi pour l'accord San Remo — E. Rabbath « La Formation historique du Liban » — P. 289.
(٨٧) — Jacques Couland « Mouvement syndical du Liban » — P. 17, et Paul Pic « Syrie et Palestine sous Mandat » — P. 1.
(٨٨) المنار — المجلد ٢٢ الجزء السادس الصادر في ايلول ١٩٢١ — مقالة « حال الشريف فيصل في سوريا » ص ٤٦٤ وما يليها .
(٨٩) — V. de Saint Point « La vérité sur la Syrie » — P. 95, et E. Jung « La Révolte arabe » — P. 121-122, et E. Rabbath « L'évolution politique » — P. 107.

ان المعركة بين القوات الفرنسية والوحدويين كانت حتمية وكان انذار غورو (٩٠) في ١٤ تموز ١٩٢٠ ، ذروة التأزم في تلك المرحلة . فالفرنسيون يريدون فرض الانتداب على سوريا ، وعلى الحركة الوحدوية ان تدفع الثمن . ورغم تدخل تجار وبرجوازيي دمشق الذين لوّحوا بأن المقاومة ضرب من الجنون وبالتالي « يجب الوضوح لقرارات مؤتمر السلام » ، ادرك الوطنيون ان لا بد من اللجوء الى السلاح كوسيلة وحيدة للدفاع عن حق الامة . ووقف الملك فيصل الى جانب التجار ودعاه الاستسلام للفرنسيين (٩١) وأقر بتسريح الجيش العربي السوري فسهل بعمله هذا احتلال الجيش الفرنسي لدمشق بعد دحر القوات الوطنية في ميسلون وبدأت بذلك فعليا بداية مرحلة جديدة في تاريخ سوريا ولبنان .

« لقد كشف يوم ميسلون — عن وجه الدول الاستعمارية على حقيقته . ففيه أحس العرب بخيبة الامل بانقراض اول دولة عربية حديثة تأسست في الشام عقب الحرب العالمية الاولى ، وفيه بدأ عهد الاحتلال الفرنسي لسورية وأخذ الفرنسيون ينفذون خططهم الاستعمارية التي كانت تستهدف تقسيم البلاد السورية وتجزئتها الى دويلات منفصلة » (٩٢) .

واعترف الفرنسيون انفسهم « بأن سورية أصبحت فرنسية بقوة السلاح » (٩٣) . ان موقعة ميسلون قلبت آمال الوحدويين راسا على عقب ، وغدا الاستقلال التام وهما من الاوهام . ووجد الوطنيون الوحدويون في سوريا ولبنان ان آمالهم الزاهية تبخرت ، فانقلبوا الى معارضة عنيفة دامية مما جعل تلك الحركة الوحدوية تتخذ ، منذ نشأتها ، طابع مناهضة الانتداب الفرنسي (٩٤) ، وتبقى في هذه المسار حتى جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان .

ان موجة من الاغتيالات السياسية انفجرت في سوريا ضد القادة الفرنسيين والزعماء المحليين المتعاطفين معهم ، وانتشرت عصابات الثوار (٩٥) في جميع المناطق اللبنانية التي ضمت الى الجبل بعد فترة وجيزة من هزيمة الوحدويين في ميسلون ، فقتل رئيس الوزارة السورية ، صديق الفرنسيين ، علاء الدين الدروبي في درعا عام ١٩٢١ . وفي ١٢ نيسان ١٩٢٢ ، قتل وزير داخلية لبنان الكبير ، اسعد بك في دمشق . كما وقعت محاولة لاغتيال المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو في القنيطرة في ٢٢ حزيران ١٩٢١ ... الخ.

(٩٠) — راجع بنود الانذار الخمسة في ساطع الحصري — يوم ميسلون ص ١١٨ .
(٩١) — لقد قيم روبر دو كيه ، رجل الانتداب الفرنسي الاول في ادارة بيروت ، الملك فيصل كما يلي « كان صديقا لفرنسا ، لكن المتطرفين كانوا يتجاوزونه باستمرار » .
R. de Caix « Histoire des Colonies Françaises » T. III — P. 502.
(٩٢) — نور الدين حاطوم « المراحل التاريخية للقومية العربية » ص ٣١ — ٣٢ .
(٩٣) — L. Aurent: Correspondance d'Orient — No. 206 — Janvier 1919 — P. 91.
(٩٤) — R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 46.
(٩٥) ابرز تلك العصابات عصبة ادهم خنجر ، وعصابة محمود بزي وعصابة صادق حمزه . راجع في هذا المجال الدراسة الجيدة التي قام بها الطالب منذر جابر في عام ١٩٧٣ في كلية التربية — الجامعة اللبنانية ، بعنوان « مؤتمر الحجير وآثاره » .

دولة لبنان الكبير في الميزان (١٦)

في أول أيلول ١٩٢٠ ، أعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير . وغدا هذا اليوم عيداً قومياً رسمياً ، وظل كذلك حتى الغي في عام ١٩٥٤ . فأصبح هذا اليوم في نظر دعاة الانفصال عن سوريا ، عيداً وطنياً أشرق فيه ، للمرة الأولى ، فجر استقلال واضح وأكيد .

أما في نظر الوجوديين ، فكان يعني تقطيعاً اصطناعياً لأوصال سوريا ، تقطيعاً لا يستند إلا على مشيئة الأجنبي المستعمر . فالفرنسيون سادة الموقف ، قد ضموا أراضٍ سورية غنية تقطنها أغلبية إسلامية إلى جبل المتصرفية . لكن ذاك الضم أو اللاحق لم يسبقه أي استفتاء شعبي أو أي شكل من أشكال الاستشارة التي نادت بها عصبة الأمم . لذا ، اعتبر الوجوديون في المناطق الملحقة بالجبل اللبناني ، أن لبنان الكبير ، بالشكل الذي أعلن فيه ، ما هو إلا « قاعدة عسكرية ضد بريطانيا وضد العرب » ، هو قلعة متقدمة للنفوذ الفرنسي في الشرق الأوسط » (٩٧) .

في عام ١٩٢٠ ، برز في لبنان تياران سياسيان كادا أن يكونا متساويين (٩٨) : تيار مرحب بالانتداب ويدعو للتعامل معه ، وهو التيار الواسع الانتشار بين صفوف المسيحيين عامة والموارنة خاصة ، وتيار معارض للانتداب ويستمر في دعوته إلى الوحدة مع سوريا المستقلة ، وهو التيار الغالب في صفوف المسلمين . واتخذ الانقسام وجهاً طائفياً ولا شك . فقد قاطع المسلمون المجلس التمثيلي للبنان الكبير في ١٩٢٢ وفي مناسبات أخرى .

فهل كان لبنان الكبير « حاجزاً في مواجهة تيار العروبة الجارف والخطر الإسلامي المزعوم » كما يقول بوبلان ؟ وأن الانتداب بالذات فرض للحيلولة دون وقوع افطع حرب دينية ؟ (٩٩) .

بمعنى آخر هل كان الفرنسيون يخططون للبنان خارج الاتحاد السوري العام في جميع نشاطاته السياسية والاقتصادية والثقافية والإدارية والعسكرية وغيرها ؟ في الواقع أن لبنان الكبير ، وبيروت بالذات ستصبح المركز الأساسي لإدارة الانتداب ، لا في دولة لبنان الكبير فحسب ، بل وفي باقي الدويلات السورية .

ويؤكد الجنرال غورو في خطاب إعلان دولة لبنان الكبير بالذات : « أنني لا أذكر هنا ، ضمن دول الاتحاد العام ، لبنان الذي ينبغي أن تجعله تقاليده الخاصة يتطور بمعزل عنها وبمشاركة اقتصادية فقط مع الاتحاد الكونفدرالي السوري ، إلى اليوم الذي يقرر فيه بنفسه الانضمام إلى هذا الاتحاد » (١٠٠) .

« فعلى أعقاب الوحدة التقليدية لأراضي الإمبراطورية العثمانية ، أقيمت (٩٦) راجع الفصل الخامس حول توسيع لبنان من المتصرفية إلى لبنان الكبير الذي ورد في هذا الكتاب . (٩٧) — Robert de Caix: Cité par E. Rabbath: « L'évolution politique... » — P. 267 .

(٩٨) — جوزيف إشر — المصدر السابق ص ١١٦ . (٩٩) — Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 220 .

(١٠٠) — غورو — الخطاب — البرنامج في دمشق ، في ٢٠ حزيران ١٩٢١ .

فسيفساء من الدول المقطعة عشوائياً في زمن ميزته الأولى التعلق بالقومية ، لكن السيطرة فيه كانت لما نزل للقوى الإمبريالية » (١٠١) . صحيح أن الفرنسيين أقاموا دولة لبنانية كنوع من التفسير الإقليمي لولاء الموارنة التقليدي لفرنسا (١٠٢) ، لكن « لنقل صراحة : لا يمكن أن يكون لبنان وطناً مسيحياً ولا وطناً إسلامياً ... لا يمكن أن يكون وطناً لأي دين من الأديان ، أو مذهب من المذاهب ... لا يصح أن يكون لبنان إلا وطناً لجميع اللبنانيين على السواء » (١٠٣) .

فهل أرادت فرنسا تأييد طائفة ضد أخرى أم السيطرة على جميع الطوائف اللبنانية ؟ هل أرادت حماية الموارنة باغراقهم في لبنان الكبير حيث ستتعاقل نسبة المسلمين والمسيحيين تقريبا ، أم أرادت حماية مصالح الرأسماليين الفرنسيين المتمركزة في المنطقة ؟ « كنتم — أي الحكام الفرنسيون — تريدون باباً على طريق الهند ، وكنتم تريدون قاعدة عسكرية وبحرية في شرق المتوسط ، وأخيراً كنتم تريدون أن تحموا ، في سوريا ، مصالح الرأسماليين الفرنسيين المسيطرة هناك » (١٠٤) .

لقد وجد دعاة الانفصال عن سوريا وإعلان دولة لبنان الموسعة نحو « حدوده التاريخية » آنذاك حليفاً أساسياً في الجيش الفرنسي المربط في سوريا ولبنان ، وتلاقت أهدافهم مع أطماع الفرنسيين الساعين إلى بسط سيطرتهم على سوريا بكاملها . « فالفرنسيون كانوا وحدهم يعرفون ما يريدون — يقول أمين الريحاني ... هم يريدون لبنان كبيراً لا صغيراً لأنهم يريدونه لأنفسهم . أجل ، مهما تطورت أحواله وتعددت وتلونت مطالبه وآماله ، فهو منذ البدء لم يزل مطمح أنظار الفرنسيين ، يريدونه قيد سياستهم الخارجية ليعززوا به مركزهم البحري في هذه الزاوية المباركة من البحر المتوسط » (١٠٥) .

حتى دعاة الاستقلال اللبناني ، الذين غرّتهم كثرة الأقوال حول ديمقراطية الانتداب والعون والمساعدة والتدريب ... من جانب الفرنسيين ، سيدركون بعد قليل أن الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان لم يكن خطوة على طريق الاستقلال الذي يتوقون إليه بل سيتحتم عليهم الانخراط في النضال الوطني ضد هذا الانتداب الذي فرض عليهم شكلاً حديثاً من أشكال الاستعمار المباشر .

(١٠١) — Jacques Berque « Mouvement Syndical » — Préface — P. 7 .

(١٠٢) — J. Berque : Ibid — P. 7 .

(١٠٣) — عمر ناخوري « أمة لبنان » — الطريق — المجلد الثاني — الجزء ١٤ — آب ١٩٤٣ — ص ١ .

(١٠٤) — Doriot — op. cit. p. 10 .

(١٠٥) — أمين الريحاني . « فيصل الأول » . طبعة ١٩٣٤ — ص ٩ .

□ الفصل الثاني □
من المتصرفية إلى لبنان
□ المعاصر □
توازن من نوع جديد

لبنان المتصرفية

« بعد اربعماية وثلاث سنوات (١٥١٦ - ١٩١٩) . يقول الدكتور ادمون نعيم، اخلى المستعمر التركي زمام الحكم في لبنان لسلطة الانتداب بعد ان شهد حماية جماعية من الدول الاوروبية لنظام المتصرفية الذي اقيم فيه. تلك كانت فترة احتلال، غير مباشر دون شك، لكنه احتلال لا يقل اهمية عما سبقه » (١) .

فلبنان المتصرفية، او « لبنان الصغير » (٢) كان يشتمل على محافظة جبل لبنان الحالية مضافا اليها الاقضية الحالية ايضا لبشري وزغرتا والكوره والبترون في الشمال، وقضاء جزين في الجنوب، وقضاء زحلة في البقاع . اما الهرمل فقد كان تابعا لقضاء البترون، وبلدة شمسطار اتبعت بقضاء كسروان . وقد قسم جبل المتصرفية الى ٧ اقضيه تضم . ٤ مديرية باستثناء مديرية دير القمر المستقلة، وتشتمل المتصرفية على ٩٥٦ (٣) قرية تتوزع على الاقضيه السبع ١ - قضاء جزين وفيه مديريتان : اقليم التفاح، ومديرية جبل الريحان . ٢ - قضاء الشوف وفيه ١٢ مديرية : الشوفين، اقليم الخروب، العرقوب الاعلى، العرقوب الشمالي، العرقوب الجنوبي، المناصف، الجرد الشمالي، الجرد الجنوبي، الغرب الاعلى، الغرب الشمالي، الغرب الاقصى، والشحار . ٣ - قضاء المتن وفيه ٥ مديريات : المتن الاعلى، بسكنتا، الشوير، القاطع، والساحل . ٤ - قضاء زحلة وهو اصغر اقضيه المتصرفية ولا يقسم الى مديريات . ٥ - قضاء كسروان وفيه ٩ مديريات :

(١) — E. Naïm: « Le Moutaçarrafat du Mont-Liban » Préface — P. 5.
(٢) للتوسع في المتصرفية او لبنان الصغير راجع — Antoine A. Khair « op. cit. » — P. 16.
واسد رستم « لبنان في عهد المتصرفية » ولحد خاطر « عهد المتصرفين في لبنان » وسليم هني « يوميات لبناني في ايام المتصرفية » .
(٣) اسماعيل حفي : « لبنان مباحث علمية واجتماعية » باشراف د. مواد امراء اسناني — الجزء الاول — ص ٥٢ .

جبل السفلى ، جبيل العليا ، المنيطرة ، جرد جبيل ، الفتوح ، غوسطا ، جونية ، الزوق ، وجر د كسروان . ٦ - اما قضاء البترون فيضم ايضا ٩ مديريات : البترون ، السفلى ، البترون الوسطى ، البترون العليا او تنورين ، قنات ، حصرون ، بشري ، اهدن ، الزاوية ، والهمل . ٧ - و اخيرا قضاء الكورة وفيه ثلاث مديريات : الكورة الشمالية ، الكورة الوسطى ، القويطع . ٨ - يضاف الى هذه الاقضية السبع مديرية دير القمر المستقلة (٤) .

وكانت حدود المتصرفية تنحصر من الشمال بمحافظة طرابلس التابعة لولاية بيروت آنذاك ، ومن الجنوب بقضاء صيدا التابع لها ايضا ، ومن الغرب بمدينة بيروت والبحر الابيض المتوسط ، ومن الشرق بقضائي بعلبك والبقاع التابعين لولاية دمشق (٥) .

ومن الصعب تفسير كيفية ادخال مديرية الهمل في متصرفية جبل لبنان ذات الطابع المسيحي باعتراف واضعي نظام هذه المتصرفية بالذات ، في حين كانت هذه المديرية التي اعتبرت مستقلة اداريا وجزءا من قضاء البترون ، شيعية بالاعلبية الساحقة من سكانها . ان هذا الادخال يصعب تفسيره دون اخذ الثروة الحرجية لمنطقة الهمل بعين الاعتبار والتي قطع جزء كبير منها في عهد المتصرفية ذلك . ويدل على غنى المنطقة بالاحراج المساحة المتبقية فيها حتى عام ١٩٣١ والتي قدرت بحوالي ٤٥ الف هكتار في منطقتي بعلبك الهمل مقابل ٧٥ الف هكتار في اكروم و ٣ آلاف في الضنية القريبتان منها ، في حين لم تتجاوز مساحة الاحراج في صور في تلك الفترة ٦ آلاف هكتار وفي الشوف ٥ آلاف وفي قادش ٥ آلاف ايضا (٦) ، في حين قدرت مساحة الاحراج في لبنان لعام ١٩٢٠ بحوالي ١٠٠ الف هكتار (٧) ، اي بخسارة ٣٠ الف هكتار من الثروة الحرجية في لبنان ، خلال عشر سنوات فقط .

وقد قدرت مساحة المتصرفية بحوالي ٤٥٠٠ كلم^٢ او ٤٥ الف هكتار . اما نسبة الطول والعرض فقد اختلفت من ١٣٠ كلم طول الى ١٤٥ كلم ومن ٣١ كلم عرض او متوسط عرض الى ٢٥ كلم حتى ان جورج سمنه يقدر مساحة المتصرفية بحوالي ٥٦٠٠ (٨) كلم^٢ .

وتقوم بجوار المتصرفية ولاية بيروت التي تمتد على ٣٠٥٠٠ (٩) كلم^٢ وتبسط سلطانها على اراض في الشمال والجنوب تتجاوز حدود لبنان الحالي ويتبعها محافظة طرابلس واقضية صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والضنية . اما البقاع

(٤) حتي - المصدر السابق - ص ٥٠ - ٥٢ .

(٥) حتي - المصدر السابق - ص ٥٠ - و Georges Samné « La Syrie » - P. 265.

(٦) Saïd Himady « Economic Organisation of Syria » - P. 40.

(٧) V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » - P. 156.

(٨) Voir G. Samné « op. cit. » - P. 265 et « Correspondance d'Orient » No. 138. Juin 1914 - P. 530 et Toufic Touna « Les institutions féodales... » - P. 610 et Huvelin « Que vaut la Syrie ? » - P. 8.

اما « دوسان بوان تفرغ المساحة الى ٦٥٠٠ كيلو متر مربع للبنان المتصرفية عام ١٨٦٤ » . V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » - P. 155.

(٩) محمد رفيق ومحمد بهجت « ولاية بيروت » ص ١٧ .

والجانب الغربي من سلسلة لبنان الشرقية فيولفان جزءا من قضاء بعلبك ويتبعان آنذاك ولاية دمشق . وهكذا كانت ولاية بيروت تتجاوز مساحتها سبعة اضعاف متصرفية جبل لبنان تقريبا وتشتمل على سهول زراعية خصبة ومدن عامرة ومرافئ هامة مستثمرة او قابلة للاستثمار . في حين كانت المتصرفية تتكون من مجموعة كبيرة من القرى الزراعية او القائمة على الانتاج الحرفي . وتنعدم فيها المدن بحيث لا تصح عليها هذه التسمية ولا تستطيع الإتصال بالخارج الا عن طريق مرافئ المدن الساحلية اللبنانية التي تسيطر عليها الحكومة التركية مباشرة ، اي بيروت وطرابلس وصيدا . اما مرفأ جونية ، ذو الموقع الجغرافي الممتاز ، فلم تعتمد ادارة المتصرفية ولا الدول الحامية لها على توسيعه واصلاحه بل كانت تعتمد اساسا على ميناء بيروت . اقتصاديا ، كان الحرير والتبغ اكثر السلع انتشارا في جبل المتصرفية . وكانت مراكز التصنيع تقوم في بكفيا وجونية وأنفه والحدث وفرن الشباك والخنشاره ، والشويز وزحلة ، والدامور ووادي شحرور وانطلياس وبيت شباب وغيرها . وبلغ تعداد معامل الحرير ٢٣٠ معملا تضم ٨٢٤٨ (١٠) حوضا .

نظام المتصرفية في الميزان

ما يميز الارض الزراعية في جبل لبنان عن سائر المناطق ان هذه الارض بالذات هي من صنع مجهود الانسان بعد ان كانت صخورا وعرة المسالك . والشريط الضيق من الاراضي الخصبة كان يتحدد على الساحل ما بين جونية والدامور وما بين جبة بشري - الزاوية - الكورة ، وفي قضائي الشوف وجزين بالجنوب وعلى الجانب الشرقي من الهمل وفي جوار مدينة زحلة .

ولم تتجاوز مساحة الارض المزروعة في المتصرفية ، في عام ١٩١٥ ، نسبة تزيد على ٣٦٨٪ (١١) من مساحة تبلغ ٤٥٠ الف هكتار تحتوي عنصرا بشريا يتجاوز ٤٠٠ الف نسمة ، في حين قدرت مساحة المناطق التي طالب اللبنانيون بضمها الى الجبل والتي الحقت عام ١٩٢٠ بحوالي ٥٥٠ الف هكتار يتراوح عدد سكانها بين ٣٥٠ و ٤٠٠ (١٢) الف نسمة يتمركز القسم الاكبر منهم في بيروت وطرابلس وصيدا . وعلى مقربة من جبل المتصرفية الذي يصعب استصلاح اراضيها تنبطح سهول خصبة وغنية وسهلة الاستصلاح في البقاع وعكار ومرجعيون .

وحسب احصائيات هوفلان ، كانت ولاية بيروت تضم اراض زراعية خصبة . وقد قدرت الاراضي المزروعة منها عام ١٩١٩ بحوالي ٢٩٧٠٤٦٠ هكتار على مساحة كلية قدرها ٢٤٨٦١٠٨٠٠ (١٣) هكتار اي ما يعادل ٩٪ من المساحة العامة تقريبا ،

(١٠) ابراهيم الاسود « تنوير الازهان .. » الجزء الرابع ص ٢٤١ - راجع ايضا مجلة « الحارث » عدد حزيران ١٩٢٣ ص ٥٦ و عدد نيسان ١٩٢٥ ص ٧٥٠ .

(١١) Huvelin « Que vaut la Syrie ? » - P. 14.

(١٢) Huvelin Ibid. P. 14 et V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » P. 155.

(١٣) Huvelin Ibid P. 8.

بينما كانت الارض القابلة للزراعة تبلغ ٣٥٠ ألف هكتار اي ١٢٪ تقريبا في حين لا يزيد عدد السكان فيها على ٢٥٠ ألف نسمة يتمركز ١٣٦ (١٤) ألفا منهم في مدينة بيروت بالذات .

كان الواقع الاقتصادي الزراعي دافعا قويا للدعاة توسيع المتصرفية « نحو حدود لبنان التاريخية والطبيعية » كما كانوا يسمونها . فالمشكلة الزراعية اخذت تتسم بالعنف والحدة : خاصة في سنوات الجفاف وبسبب الامراض الزراعية التي اصاب المحاصيل بصورة دائمة ، خاصة مرض « الفيلوكسيرا » الذي هاجم كروم العنب منذ ١٨٩٠ محدثا فيها اضرارا بالغة وكان يتكرر سنويا . اضيف الى ذلك وفرة الاملاك الموقوفة للكنيسة المارونية في المتصرفية والتي بدأت تبور مع ازدياد الهجرة الى الخارج ، مما زاد في تفاقم الوضع الزراعي بجبل لبنان .

لقد طرحت القضية الزراعية نفسها بحدة قبيل الحرب العالمية الاولى . ما العمل لاطعام سكان الجبل ذي الارض الصخرية غير القابلة للاستصلاح آنذاك في حال حدوث حرب محلية او عالمية ؟ كيف يمكن انقاذ سكان الجبل من الموت جوعا اذا كان الفلاح الجبلي يعيش في ضيق مستمر (١٥) ايام الهدوء والسكينة ؟ حتى في سنوات المحاصيل الوفيرة ، لم يجتن الفلاح فيها الا ما يعيله لمدة اربعة اشهر من السنة (١٦) فقط . . . « فالتصرفية لا تنتج الا الحرير والتبغ . وموسم الزيتون فيها لا يكفي سوى للاستهلاك المحلي » (١٧) .

اما الحرف في المتصرفية فكانت واسعة الانتشار خلال تلك الفترة وقد عمل فيها قطاع سكاني واسع بلغ حوالي ١٤٪ من عدد السكان . وبرز الحرف في المتصرفية كانت صناعة النسيج وصناعة الحرير والديما والأغباني وغزل الحرير ، والآنية الفخارية وصناعة السكاكين ، وصناعة صب الاجراس ، والنجارة ، وصناعة الكحول ، وصناعة التبغ وغيرها .

وبسبب انتشار الهجرة على نطاق واسع في الجبل ، كانت اليد العاملة من النساء والاولاد هي الغالبة في هذا المجال نظرا للأجر الضئيل الذي كان يعطى للمرأة العاملة . وكانت الاغلبية الساحقة من العمال والعمالات تعيش في امية شبه مطلقة . غير انه يمكن القول ان وضع الحرفيين كان افضل بكثير من وضع اخوانهم الفلاحين في الجبل سيما وان عددا من الحرف كان في موقع قوي للغاية بسبب احتكار الصنعة او « سر المهنة » في اسر مخصصة في فروع معينة : كصناعة الاجراس في بيت شباب ، وصناعة الخناجر والسكاكين في جزين وغيرها . فقد تخصصت بعض الأسر في نشاط حرفي معين راحت تمارسه لمنطقتها بكاملها ان لم تقل للمتصرفية بأسرها وحتى للمناطق المجاورة لها . . . بيد ان ما يجب ملاحظته هنا ان حرفيي

- (١٤) — G. Samné « La Syrie » — P. 260.
(١٥) — Elie Sifa « L'émigration libanaise » — P. 163.
(١٦) — Henry Guys « Esquisse de l'état politique et commercial de la Syrie » P. 264.
(١٧) — Henry Guys Ibid — P. 266.

المتصرفية لم يفقدوا بالضرورة كل علاقة لهم بالارض (١٨) وبالأعمال الزراعية . وهذا ما يفسر ان الضائقة الزراعية كانت تصيب مباشرة اولئك الحرفيين وعيالهم وتدفعهم ايضا للتفتيش عن حلول لازمتهم المستعصية في الجبل .

ان سكان جبل لبنان هم الذين حكموا بأنفسهم على متصرفيتهم في مذكرة قدموها ، عام ١٩١٣ ، الى المتصرف اوهانس باشا ، وجاء فيها : « ان تركيا ، رغبة منها في سجن الشعب اللبناني ضمن حيز ضيق من الصخور ، واجباره على طلب الانضمام الى ولاية بيروت متنازلا بذلك عن جميع امتيازاته ، قامت بحرمان الجبل من منفذ الى البحر والى السهول الداخلية . . . » (١٩) وازافت المذكرة تقول : « ها نحن اليوم ، تحت ضغط الجوع والفقر ، نغادر جبلنا الحبيب ، الذي اصبح قاحلا لا اخضرار فيه . . . » (٢٠)

لا ريب ان اصابع الفرنسيين كانت وراء هذه المذكرة التي رافقت تهديد الوزير الفرنسي ريمون بوانكاريه في عام ١٩١٢ والذي جاء فيه « ان لنا في سورية ولبنان مصالح تقليدية ، ونحن مصممون على فرض احترامها » ، غير ان مطلب توسيع الجبل ، الذي كان يعني في نظر الوجوديين من اللبنانيين والسوريين توسيعا لنفوذ فرنسا ، جاء يعبر عن ضرورة حيائية لسكان الجبل من اجل البقاء فيه من جهة ، والاستمرار على قيد الحياة اذا ما حدثت حرب او ازمة اقتصادية . وجاءت الهجرة ، التي باركتها تركيا والدول الاجنبية ، تزيد الوضع سوءا . فقد عبرت مذكرة مجلس بلدية زحلة عن ذلك بالقول : « ان شعبنا سيري نفسه محكوما عليه بأحد امرين ، اما الانقراض ، واما سلوك طريق الهجرة (٢١) . فالضيق الاقتصادي قد بلغ ، قبيل الحرب ، اقصى مداه ، اذ غدت الهجرة جماعية في اوساط الشباب الذين غادروا الجبل تاركين آباءهم وامهاتهم وزوجاتهم واولادهم ، وجميع هؤلاء لا يستطيعون العمل تقريبا . » هذه الحالة من الفقر التي عاشها سكان الجبل دفعت العديد من شبيبة لبنان للهجرة نحو جميع بقاع الدنيا ، والى الاميركيتين بوجه خاص (٢٢) .

ان القول بأن المتصرفية كانت « عهد قلة وبسط » كما يشير لحد خاطر في كتابه « عهد المتصرفين في لبنان » لا يعبر فعلا عن واقع اللبنانيين آنذاك مهما حاول تغليف تلك الحقبة الصعبة من حياتهم بعبارات انشائية منمقة كقوله « عادوا الى فطرتهم الاصيلية ، وتناسوا ما حرّمهم اياه نظامهم الجديد من حقوق وحدود ، واقبلوا في الغالب على الاخلاص الى الراحة والحياة البسيطة القانعة بما تيسر . . . » (٢٣) فهل كان بمقدور شعب يفوق تعدادده ٤٠٠ ألف نسمة العيش على رقعة مزروعة

- (١٨) — P. 40. Jacques Couland « Mouvement syndical du Liban... »
(١٩) مذكرة تقدم بها مجلس بلدية زحلة تحت عنوان « البقاع اللبنانيين » موقعة من جميع مجالس البلديات بالجبل — ص ١٠ .
(٢٠) المذكرة السابقة ص ١٦ .
(٢١) المذكرة السابقة — ص ١٦ .
(٢٢) — A. Khair « Le Moutaarrifat du Mont-Liban » — P. 18.
(٢٣) لحد خاطر — عهد المتصرفين في لبنان — مقدمة ص ٥ .

من الارض لا تتعدى نسبتها ٣٨٪ في ذلك الجبل القاحل والذي قال عنه لحدخاطر بالذات انه حصر « ضمن نطاق ضيق هو عبارة عن جبال صخرية جرداء » (٢٤) ؟ حتى استغلال كل شبر منه لم يكن يكفي حاجة الجبليين سوى لاربعة اشهر فقط في ظروف السلم كما اشار سابقا هنري غيز .

نضيف الى ذلك ان تزايد السكان في المتصرفية تعدى بكثير نسبة الاراضي الجديدة المستصلحة التي دخلت في مجال الانتاج الزراعي بفضل الجهود المضنية لفلاحي الجبل . وقد تعمق الضيق الاقتصادي اكثر فأكثر مع الهجرة الجماعية قبيل الحرب العالمية الاولى . ويقدر عدد اللبنانيين الذين هاجروا بين اعوام ١٩١٠-١٩١٤ بحوالي « ربع سكان لبنان » (٢٥) . اما مجلة وسائل الشرق ، فقدرت اللبنانيين المنتشرين في الولايات المتحدة واميركا الجنوبية ومصر فقط حتى عام ١٩١٤ بحوالي ٢٥٠ (٢٦) الف نسمة اي اكثر من نصف سكان الجبل تقريبا . صحيح ان هذا الرقم الاخير قد يكون مبالغا فيه غير ان من الثابت والاكد ان عدد المهاجرين قد تجاوز ربع سكان الجبل حتى بداية الحرب العظمى . تلك الحرب التي ستودي بحياة الثلث المتبقي من سكان جبل المتصرفية خلال اعوام ١٩١٥ - ١٩١٨ بسبب المجاعة والاعدام والنفي والمظالم التركية والجراد .

ربع سكان لبنان هاجروا قبل الحرب ، وثلث الباقي لا قوا حتفهم اثناءها . تلك كانت حصيلة « البجوحة والرخاء » اللذين عمّا لبنان ايام المتصرفية و « هنيئا لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان » . باعتراف اشد المتحمسين لنظام المتصرفية ، فان جبل لبنان « قد اعطي ما بين المدن البحرية (اللبنانية) من سواحل ، ولكنه منع من ان يقيم فيها موانئ ينفذ منها الى العالم الخارجي ، الا في عهد اوهانس باشا ولكن لم يفسح له الوقت لاستخدامها للتصدير والاستيراد ، اللذين بدونها لا يتسنى لاي بلاد ان تعيش في بجموحة » ، متمتع باستقلال ، وبحياة حرة كريمة » (٢٧) . اما عن استقلال جبل لبنان عن الدولة العثمانية وعن سوريا فهل كان ذلك الاستقلال قائما اقتصاديا وسياسيا ام مجرد مظهر شكلي ليس الا ؟ (٢٨) .

حرمان من الموانئ والتصدير والاستيراد ، حرمان من المدن الكبرى ، حرمان من الاراضي الزراعية الخصبة ، حرمان من سواعد النشيطين من شبابه المهاجر ، تلك باختصار أبرز سمات المتصرفية في لبنان التي حصرت اللبنانيين « ضمن نطاق ضيق من الجبال الصخرية الجرداء » .

(٢٤) لحد خاطر — المصدر السابق — ص ٢٥ .

— B. Aboussouan « Le problème syrien » — P. 29. (٢٥)

— Correspondance d'Orient » No. 138 — Juin 1914 — P. 534. (٢٦)

(٢٧) لحد خاطر — المصدر السابق — ص ٢٥ .

(٢٨) ينفي فيليب كروسيه هذا الاستقلال حين يقول « لبنان لم يكن مستقلا » لا عن القسطنطينية ولا عن سوريا ، وهذه النقطة هي الاهم . فلبنان كان يتشارك وسوريا المصالح والقوانين بالاضافة الى الاصل الواحد واللغة الواحدة لسكان البلدين .

— Ph. Crousset « La Constitution Libanaise du 23 Mai 1926 » Thèse — P. 18.

دولة لبنان الكبير (٢٩)

اعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير بعد ان ضم الى متصرفية جبل لبنان السابقة مناطق بيروت وطرابلس وصيدا وصور ومرجعيون وراشيا وحاصبيا وبعبك ، وسهول البقاع وعكار والبقية في شمالي سهل عكار . كما اعلن غورو ايضا حل ولاية بيروت القديمة وجميع تقسيماتها الادارية وانهى بالمقابل متصرفية جبل لبنان بعد ان ازال العثمانيون استقلالها الذاتي منذ دخولهم الحرب ، وحلت بذلك جميع هيئاتها الادارية وتقسيماتها السابقة .

لقد اصدر الجنرال عدة قرارات متتالية ابرزت دولة لبنان الى الوجود وكان أهمها على التوالي : قرار رقم ٢٩٩ الصادر في الثالث من آب ١٩٢٠ والقاضي بفصل اقصية حاصبيا ، راشيا ، المعلقة ، وبعبك وضمها الى جبل لبنان المستقل . والقرار ٣٢٠ الصادر في ٣١ آب ١٩٢٠ الذي حل ولاية بيروت وتقسيماتها السابقة . والقرار ٣٢١ الصادر في نفس التاريخ الذي قضى بحل متصرفية جبل لبنان المستقل وجميع تقسيماتها .

ودولة لبنان الكبير تحددت بالقرار رقم ٣١٨ الصادر في ٣١ آب ايضا كما يلي : من الشمال مصب النهر الكبير على خط يلزم مجرى هذا النهر صعودا على علو بلدة جسر القمر حتى التقاء النهر الكبير مع رافد وادي خالد . ومن الشرق خط القمم الفاصل بين وادي خالد ونهر العاصي والمار بقرى : مصرعه — حاربعنا — فيسان ، على علو قرى بريفا ومترية . اما في الجنوب فحدود فلسطين التي ستحدد لاحقا باتفاقات دولية . ومن الغرب ، البحر الابيض المتوسط .

وعلى اثر تلك القرارات اعلن الجنرال غورو ولادة هذه الدولة الجديدة في الاول من ايلول ١٩٢٠ من مركزه في قصر الصنوبر في بيروت بحضور البطريرك الماروني ومفتي الطائفة السنية والعديد من رجال الدين والموظفين والمناصرين ، وبلغت مساحة الدولة الجديدة ١٢ الف كلم^٢ تقريبا (٣٠) قبل خسارة منطقة الحولة التي قلصت مساحة لبنان الحالي الى ١٠٤٠٠ كلم^٢ .

اما الوحدة الادارية للتقسيم الاداري الجديد فقد بقيت السنجق (٣١) مقسما الى اقصية وتقسم الاقصية بدورها الى مديريات . وقد انشأ القرار ٣٣٦ ، الصادر في اول ايلول ١٩٢٠ ايضا ، اربعة سناجق مقسمة الى ١٢ قضاء . اما السناجق الاربعة فكانت :

(٢٩) — Pour ce paragraphe, voir les arrêtés cités et E. Rabbath « Formation historique » — PP. 351-259 et Longrigg « Syria and Lebanon under french mandate » — P. 123 et s.

راجع ايضا : مسعود ضاهر « الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي » رسالة جامعية — صفحات ٧٤ — ٧٧ .

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 156.

(٣٠) وفي الواقع فان هذا الرقم مبالغ فيه كذلك الرقم الذي اعطاه ريمون اوزو اي ١١ الف كلم مربع وليست لدينا احصائيات دقيقة عن المساحة التي اغتصبها الصهاينة من اراضي الحولة اللبنانية .

— Voir Raymond O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 94. (٣١)

— Raymond O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 69.

١ - سنجد لبنان الشمالي ومركزه زغرتا ويشتمل على اقصية عكار وزغرتا والبثرون .

٢ - سنجد لبنان الجنوبي ، مركزه صور ويشتمل على اقصية صور وصيدا وحاصبيا .

٣ - سنجد البقاع ، مركزه زحلة ويضم سهل البقاع واقصية راشيا والمعلقة وبعلبك ومديرية الهرمل .

٤ - سنجد جبل لبنان ، مركزه بعبدا ، ويضم اقصية كسروان والمتن والشوف . اما مديرية دير القمر فقد بقيت ذات استقلال اداري .

اصبحت بيروت العاصمة الجديدة للدولة اللبنانية . هذا الامتياز الجديد لبيروت لم يكن في الواقع سوى تثبيت للوضع الذي نشأ عن أزمة المتصرفية بالذات . فبيروت كانت المركز التجاري الكبير لمقاطعة بحرية طويلة منذ أواسط القرن التاسع عشر (٢٢) . وكان لها امتياز الجمع بين المرفأ والخطوط الحديدية ، أي المواصلات الرئيسية في ذلك القرن . فقد سيطرت على السوق السورية ومارست عليها تأثيرا كبيرا (٢٣) ، فقد قيل في بيروت آنذاك انها تحجب لبنان ولبنان يحجب سوريا (٢٤) . يضاف الى ذلك ايضا ان سكان المتصرفية ، الذين كانوا يفادرون حدودها تفتيشا عن الرزق وجمع الثروة ، بدأوا يتمركزون في بيروت بالذات ومنها يتابعون سفرهم نحو الخارج . ومارس الكثير ممن استقروا فيها اعمال الوساطة التجارية للشركات الاجنبية او الوظائف والاستخدام والتعليم . لذلك اغتنت بيروت بسرعة فائقة بروافد سكانية نازحة من الجبل وباقي المناطق واستقروا فيها حيث كانت تتمركز المصالح التجارية الغربية الواسعة . وارتفع تعداد سكانها من ٦ آلاف نسمة في بداية القرن التاسع عشر الى ٨٠ ألف عام ١٨٦٥ (٢٥) الى ١٣٦ ألف عام ١٩٠٨ .

واستمر هذا التقسيم الاداري حتى عام ١٩٢٥ عندما اصدر حاكم لبنان الكبير ، ليون كايلا ، القرار رقم ٣٠٦٠ المؤرخ في ٩ نيسان والذي ألغى السناجق والنواحي والاقضية القديمة وقسم لبنان الكبير الى ١١ مقاطعة ومديرية دير القمر المستقلة (٢٦) ، في حين ابقى على السنجد القديم بوصفه الدائرة الانتخابية التي كان يجري على أساسها اختيار مجلس تمثيلي موزع على الطوائف الكبيرة ، بعضه منتخب والبعض الآخر يعين تعيينا . واختفت بعد ذلك تسمية المتصرفية وغدت المقاطعة هي الدائرة الادارية الاساسية التي يجري تقسيمها الى مديريات . وقد خفض عدد تلك المديريات من ٥٢ مديرية الى ٣٥ فقط . اما المقاطعات فكانت بيروت وصيدا وصور ومرجعيون والمتن والشوف وكسروان وطرابلس والبثرون وزحلة وبعلبك بالإضافة الى مديرية دير القمر .

— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » — P. 291.

— M. Nicolas « Questions monétaires en Syrie » — P. 24.

— La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 216.

— D. Chevallier — op. cit. — P. 292.

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 159.

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

(٢٥)

(٢٦)

اغتنمت متصرفية جبل لبنان ، منذ ١٩٢٠ ، بأراض زراعية خصبة كانت تتبع سابقا ولاية دمشق ، خاصة منطقتي البقاع ومرجعيون بالإضافة الى تلك التي كانت تتبع ولاية بيروت كسهلي عكار والبقية . « فأقام الفرنسيون — يقول جاك بيرك — دولة لبنانية كتفسير اقليمي لتبعية الموارد التقليدية لفرنسا » (٢٧) . . . فقد ضمت الى جبل لبنان المتصرفية مدينة طرابلس وسهل البقاع رغم احتجاج سكانها الداعمين الى الوحدة مع سوريا . وكان رد الفرنسيين ان عاملوا تلك المناطق كمواطنين من الدرجة الثانية « فالضرائب هناك اكثر ارتفاعا عن الضرائب في جبل لبنان ، وادارة حصر التبغ تختلف امتيازاتها ايضا فيها ، كذلك تفرض الرسوم الضريبية على المواد الغذائية الاولى كالمالح والسكر وغيرهما . فبقيت المناطق المضمومة في موقع وسط بين سوريا ولبنان » اذ انتزعت من الاولى دون ان تعتبر فعليا مناطق لبنانية اصيلة (٢٨) .

مجتمعان لبنانيان لا مجتمع واحد

١ - في توزيع الملكية الزراعية :

عرف جبل لبنان ، ومنذ عهد طويل ، نظام الملكية العقارية الصغيرة ، كحق من حقوق التملك في الجبل اذ كانت الارض المزروعة فيه ثمرة جهد انساني شاق وطويل . وكان على الفلاح الجبلي ان يستغل كل شبر من أرضه في صراعه مع البقاء . اما في المناطق الجبلية « فكان الفلاح يعامل من قبل سيده الاقطاعي كعبد من عبيد القرون الوسطى » (٢٩) .

فاذا كانت الاراضي المزروعة في الجبل من صنع الانسان بالذات ، كانت المساحات الشاسعة في المناطق المحقة على العكس من ذلك ، من صنع الطبيعة ، نالها اقطاعيون بهبات سلطانية او انتزعوها بالقوة من الفلاحين ومن بعضهم البعض . وحتى اليوم لا تزال بعض القرى في عكار والبقاع ملكا كليا لأفراد من عائلات معينة ، كما يشاركون في ملكية قرى اخرى . وفي عام ١٩٢٠ كانت عائلة المرعب تملك في سهل عكار قرى بكاملها واخرى بالمشاركة كقرى تل حيا وكفرملكي والحوشب والكويخات والحيصا ودارين والمسعودية وغيرها . وكان عبود عبد الرزاق المرعبي يملك اكثر من ١٧ (٤٠) قرية في عكار والبقية وداخل سوريا . وقد زاد في انتشار ذلك الشكل من الملكية الواسعة في المناطق المحقة ان الكثير من تلك الاراضي كان ملكا مشاعيا لعائلات كبيرة او صغيرة ، وكان الورثة المشتركون في ملكيتها نادرا ما يلجأون الى القسمة فيما بينهم رسميا بل الى اقتسامات حبية مؤقتة لا قيمة لها قانونيا . ولعل

— Jacques Berque « Le Mouvement Syndical du Liban ». Préface — p. 8. (٢٧)

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 25. (٢٨)

— Jean Luquet — « op. cit. » — P. 158. (٢٩)

— Jean Donon « Le régime foncier en Syrie et au Liban ». L'Asie Française. No. 224. Juillet-Août — P. 27. (٤٠)

السبب في ذلك تهريبهم من دفع رسوم الانتقال وتكاليف التسجيل الجديدة الى الخزينة .

ففلاح الجبل كان مالكا صغيرا يعمل غالبا على أرضه او يستأجر قطعة أرض لحسابه الخاص ، في حين كانت الملكية الكبيرة ، والكبيرة جدا هي الشكل الغالب في المناطق الملحقه بالجبل آنذاك . فخارج اسوار ملكية الكنيسة المارونية ، كان فلاحو الجبل مالكين لأرض يقيمون عليها ويحرقونها بأيديهم ، في حين كان معظم مالكي المساحات الشاسعة في المناطق الاخرى من لبنان ، من الاقطاعيين الذين يسكنون المدينة ولا يأمنون أملكهم الا في مواسم الحصاد بينما تتم عملية استغلال الاراضي عن طريق استغلال الفلاحين المرابعين والمحاصصين طبقا لنظام عبودي رهيب .

اما نسبة الاراضي الجبلية الى الاراضي السهلية فكانت مرتفعة جدا في الجبل والمناطق المضمومة اليه ، لكنها تتميز كثيرا بين الجبل والمناطق الاخرى . فمن أصل ١٠٤٠٠ كلم^٢ ، مساحة لبنان الحالية ، هناك ٩ آلاف كلم^٢ من المناطق الجبلية ، والباقي أي ١٤٠ الف هكتار أراض سهلية تتوزع كالآتي (٤١) :

٨٠٠٠٠ هكتارا	في سهل البقاع
٢٥٠٠٠ هكتارا	في سهل عكار ومنطقة نهر البارد
٢٠٠٠٠ هكتارا	في السهل الساحلي بين صور وبيروت
١٠٠٠٠ هكتارا	في منطقة طرابلس
٥٠٠٠٠ هكتارا	في منطقة الكورة

اما مساحة الاراضي المروية منها فكانت على الشكل التالي (٤٢) :

٢٠٠٠٠ هكتارا	في سهل البقاع
١٠٠٠٠ هكتارا	في المنطقتين الوسطى والجنوبية الملحقتين بالجبل
٤٠٠٠ هكتارا	في سهل عكار
٨٠٠ هكتارا	في سهل طرابلس
٣٠٠ هكتارا	في سهل صور

وذلك مقابل ٢٠٠٠ هكتارا فقط مروية في جميع انحاء جبل لبنان .

يتبين من ذلك ان معظم الاراضي الصالحة للزراعة والمروية كانت تتمركز في المناطق التي ألحقت في جبل لبنان المتصرفية ، كذلك بالنسبة لمساحة الاراضي الصالحة للزراعة . اما اراضي الجبل فصخرية ووعرة وغير مروية وقليل منها قابل للاستصلاح الزراعي . أضف الى ذلك ان شكل الملكية في الجبل كان يعتمد على الفلاح الصغير الحر وعلى الملكية الصغيرة ، تقابلها الملكية الكبيرة جدا في المناطق الملحقه والفلاح - العبد الموهون لسيدته الاقطاعي وللأرض التي يعمل عليها .

(٤١) — M. Sarrage «La nécessité d'une réforme agraire en Syrie». Thèse — P. 123.
(٤٢) — M. Sarrage — Ibid — P. 124.

(٤٣) حتى الان لا تتجاوز مساحة الاراضي المزروعة في لبنان حوالي ٢٠٪ من مساحة لبنان العامة و ٨٪ مساحة الغابات فيه - راجع :

— J. Dresch « Le Moyen-Orient arabe » T. II — P. 380.
— E. de Vaumas « La répartition de la population au Liban » — P. 14.

ب - في توزيع السكان والطوائف :

تميز جبل لبنان المتصرفية بكثافة سكانية شديدة يعكس المناطق الملحقه والتي ، خارج مدن بيروت وطرابلس وصيدا ، كانت كثافتها السكانية ضئيلة جدا . أضف الى ذلك ان توزيع سكان الجبل طائفا في عام ١٩١٩ ، كان يعتمد بشكل خاص على الموارنة ، وبشكل عام على المسيحيين وأعداد قليلة من الدروز دون سواهم . فقد قدر سكان الجبل في ذلك العام بحوالي ٤١٤٠٨٠٠ نسمة موزعي كالآتي (٤٣) :

٢٤٢٠٣٠٨	من الموارنة	٤٧٠٢٩٠	من الدروز
٥٢٠٣٥٦	من الارثوذكس	٢٣٠٤١٣	من الشيعة
٣١٠٩٣٦	من الكاثوليك	١٤٠٥٢٩	من السنة
٢٠٨١٥	من البروتستانت		

يضاف اليهم ٨٦ يهوديا و ٦٧ من الاقليات .

اما المناطق التي ألحقت بالمتصرفية عام ١٩٢٠ فكانت الاغلبية الساحقة من سكانها من الطوائف الاسلامية عامة ، ومن السنة والشيعة بشكل خاص . ففي بيروت ، قدر تعداد السكان عام ١٩٢١ بحوالي ٩١٠٤٩٨ (٤٤) مقيما ، منهم ٧٧٠٢٩٢ لبنانيا ، و ١٤٠٢٠٦ اجنبيا ، يضاف اليهم ٢٠٩٣٤ لبنانيا مهاجرا من سكان بيروت ويدفعون الضرائب . فيصبح سكان العاصمة الجديدة ٩٤٠٤٣٢ شخصا . ويتوزع اللبنانيون المقيمون طائفا كما يلي : ٣٢٠٨٤٤ من السنة و ١٧٠٥٧٣ من الموارنة ، و ١٢٠٤٢٢ من الارثوذكس ، و ٤٠٢٢٥ من الكاثوليك ، و ٣٢٧٣ من الشيعة ، و ١٥١٤ من الدروز و ٥٣٣ من البروتستانت ، و ٤٩٠٦ من الاقليات .

اما مقاطعة صيدا التي كانت تضم ١٣٧ (٤٥) قرية فقد بلغ تعداد سكانها آنذاك ٣٢٠٢٥٤ (٤٦) مقيما و ١٨٠ اجنبيا . وتوزع سكانها طائفا كما يلي : ٢١٠١٦٠ من الشيعة ، و ٦٠٥٣٣ من السنة ، و ٢٦٩٨ من الموارنة ، و ١١٩٩ من الكاثوليك ، و ٢٠١ من الارثوذكس ، و ٢٩ من الدروز ، و ٦٤ من البروتستانت ، و ٣٧ من الاقليات . وضمت مقاطعة صور ١٠٤٢١٤ (٤٧) شخصا مقيما دون ذكر للأجانب او لدافعي الضرائب من اللبنانيين المهاجرين . وقد توزعوا طائفا كما يلي : ٣٤٠٦٩٤ من الشيعة ، و ٣٦٠٦٣ من الكاثوليك ، و ٢٦٤٣٢ من الموارنة ، و ٧٣٥ من السنة ، و ١٣٧ من الارثوذكس ، و ١١ من الدروز ، و ٩٦ من البروتستانت ، و ٤٦ من الاقليات .

وتوزع سكان مقاطعة مرجعيون البالغ عددهم ١١٠٠٢٨ (٤٨) شخصا على الطوائف التالية : ٣٠٣٣٧ من الشيعة ، و ٢٥٣٦ من الارثوذكس ، و ٢٢٨٣ من السنة ،

(٤٣) — Halim Fayyad « The effects of the sectarianism in the lebanese administration » — P. 19.

(٤٤) — Haut-Commissariat « Recensement officiel de 1921 ». Bulletin hebdomadaire officiel du H. C. No. 11 de 12 Mars 1922 — P. 78-79.

(٤٥) — H. C. Recensement de 1921.

(٤٦) — H. C. Recensement de 1921.

(٤٧) — H. C. Ibid.

(٤٨) — H. C. Ibid.

و ١٤٠١٥ من الكاثوليك ، و ٩٧٠ من الموارنة ، و ٥٤٥ من البروتستانت ، و ١٤١ من الدروز ، و ١٩٨ من الاقليات .

اما سكان مقاطعة حاصبيا البالغ عددهم ٤٩٩٠٣٥٩ (٤٩) شخصا عام ١٩٢١ فقد توزعوا طائفا كالاتي : ٣٦٣٩٢ من السنة ، و ٣٤٠١٢ من الدروز ، و ١٩١٠ من الارثوذكس ، و ٥١١ من الموارنة ، و ٢٧٠ من الكاثوليك ، و ٢٣٣ من البروتستانت ، و ٣١ من الشيعة .

وتوزع سكان مقاطعة البقاع الغربي ، وعددهم ٣٩٦٧٤ (٥٠) شخصا على الطوائف التالية : ١١٦٩٧٩ من السنة ، ١٠٧٠٦ من الكاثوليك ، ٧٥٣٥ من الموارنة ، و ٥٣١٦ من الارثوذكس ، و ٣٤٠٠١ من الشيعة ، و ٣٨٢ من البروتستانت ، و ٢٣٩ من الدروز ، و ٥٧٠ من الاقليات .

كذلك توزع (٥١) ٣١٧٧١ لبنانيا في مقاطعة بعلبك على الطوائف كما يلي : ١٩٥٣٤ من الشيعة ، ٤٦٢٢٦ من الكاثوليك ، ٣٥٥٦ من السنة ، ٣٤٠١٨ من الموارنة ، ٩٩١ من الارثوذكس ، ٢٢ من البروتستانت ، ٨ دروز ، و ٢٢ اقلية .

اما سكان مقاطعة راشيا فكان عددهم ١٢٤٨٠٨ (٥٢) توزعوا كما يلي : ٤٥٩٠ من الدروز ، ٤٦٠٧١ من الارثوذكس ، ٣٤٠٨٧ من السنة ، ٤٠٦ من الموارنة ، ٣٥٩ من الكاثوليك ، ١٩ من البروتستانت ، ١٧ من الشيعة ، و ٩ من الاقليات .

وتوزع سكان مقاطعة الهرمل ، وهم ٨٠٧٩٥ (٥٣) على الوجه التالي : ٨٠١٢٤ من الشيعة ، ٤١٤ من الموارنة ، ٢٢٧ من السنة ، ٢٥ من الكاثوليك ، و ٥ من الدروز .

في حين توزع سكان مقاطعة عكار ، وهم ٣٤٧٣٢ (٥٤) نسمة ، على الطوائف اللبنانية كما يلي :

١٦٨٣٠ من السنة ، ٩٥٧٦ من الارثوذكس ، ٥٨٤٧ من الموارنة ، ٤٣٥ من الكاثوليك ، ٢٩٣ من البروتستانت ، ٢ من الدروز ، و ٧٤٠ من الاقليات .

اخيرا ، توزع (٥٥) ٣٤٥١٢ نسمة وهم سكان طرابلس ، على الطوائف اللبنانية على الوجه التالي :

٢٤٧٣٨ من السنة ، ٤٦٠٦ من الارثوذكس ، ١٦٨٧ من الموارنة ، ١٧١ من الكاثوليك ، ١٤٨ من البروتستانت ، ٣ من الشيعة ، ١ من الدروز ، و ٧٠٤ من الاقليات .

— H. C. Ibid.

(٤٩)

— H. C. Ibid.

(٥٠)

— H. C. Ibid.

(٥١)

— H. C. Ibid.

(٥٢)

— H. C. Ibid.

(٥٣)

— H. C. Ibid.

(٥٤)

— H. C. Ibid.

(٥٥)

بعض الايضاحات

قبل ان تنتقل الى المعطيات التي توفرت لدينا من خلال هذا الاحصاء الرسمي لعام ١٩٢١ لا بد من بعض الملاحظات :

١ - لا يجوز اعتبار هذا الاحصاء كما لو كان الحقيقة بعينها ، انما لم نستطع الحصول على احصاء اكثر دقة بالنسبة للفترة التي ندرس وهو احصاء اعلن الفرنسيون ارقامه دون دقة علمية لأسباب طائفية معروفة .

٢ - لم تجر عملية احصاء جميع المهاجرين اللبنانيين الذين كانوا يدفعون ضرائب في جميع المناطق بل سيكتفي الاحصاء بايراد اعدادهم فقط فيما بعد ويركز على الجانب المسيحي دون سواه .

٣ - المقاطعات والتسميات القديمة لم تتحدد بشكل دقيق وثابت كما هي عليه اليوم بالنسبة للتوزيع الجغرافي والقرى التابعة لكل مقاطعة .

٤ - يؤخذ من بعض الارقام ان الاحصاء جرى بشكل عشوائي كأن يقدر عدد الدروز في مدينة طرابلس مثلا بفرد واحد وبخمس دروز في مقاطعة الهرمل وبأثنين منهم في مقاطعة عكار وبثلاثة من الشيعة في طرابلس ... الخ . وباعتقادنا ، انه صادف مرور هؤلاء اثناء اجراء الاحصاء في تلك المدينة او المقاطعة فسجلوهم من سكانها او وضعوا هذه الارقام بشكل اعتباطي .

وبالرغم من ذلك ، فسنحاول اثبات نوع من التوازن الجديد على صعيد الطوائف اللبنانية في الدولة التي اقامها الفرنسيون عام ١٩٢٠ في لبنان . هذا التوازن سيضرب الاختلال الكبير ، والطائفة الكبيرة المسيطرة بالنسبة لسكان المتصرفية . ومع التنويه سلفا الى ان الحقيقة التاريخية تفرض رفع اعداد الطوائف الاسلامية وصولا الى الواقع الفعلي ، فان ارقام الفرنسيين بالذات ، بالرغم من تحيزها ، تعطي صورة عن الواقع الجديد .

فاذا اعتمدنا ارقام احصاء ١٩٢١ الفرنسي الرسمي تبين لنا ان سكان المناطق الملحقة كانوا يبلغون ٣٢٠٧١٨ (٥٦) نسمة يتوزعون على الطوائف التالية :

١٠٦٢١٣ من السنة ، ٨٥٤٠٤٩ من الشيعة ، ٤٣٤٠٩١ من الموارنة ، ٤٠٧٢٠ من الارثوذكس ، ٢٥٩٩٤ من الكاثوليك ، ٩٥٥٢ من الدروز ، ٢٤٢١ من البروتستانت ، و ٧٦٧٨ من الاقليات . بحيث أصبحت النسبة الجديدة ٨١٤ (٥٠) من الطوائف الاسلامية ، مقابل ١١٢٢٢٦ من الطوائف المسيحية ، يضاف اليهم جميعا ٧٦١٨ من الاقليات . وقد قدر الفرنسيون سكان لبنان الكبير لعام ١٩٢١ بحوالي ٧١٠٥٦٢ نسمة منهم ٥٧٩٧٧٩ (٥٧) مقيما و ١٣٠٧٨٤ مهاجرا يضاف اليهم ٢٠٢٥٠ اجنبيا تتمركز اكثرية الساحة (١٤٢٠٦) في بيروت . ومن أصل ١٣٠٧٨٤ مهاجرا

(٥٦)

— H. C. Recensement de 1921.

أما ف. دوسان بوان فتخضع عدد المسلمين الى ٢٩٢٤٠٥ مقابل ٤٠٣٣٥٩ لجميع الطوائف المسيحية .

— « La vérité sur la Syrie » — P. 157.

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » tableau P. 95. (٥٧)

لبنانيا ، فان ٨١٠٢٤٣ منهم لم يدفعوا ضرائب ، كشرط فرضته ادارة الانتداب للاعتراف بلبنانيتهم ، لكن كونهم من المسيحيين بأغلبية ساحقة ، اعتبروا لبنانيين تجاوزا لشرط الانتداب بالذات .

وبموجب التقسيمات الادارية الجديدة فان سكان جبل لبنان البالغ عددهم ٢٥٩٠٠٦٠ مقيما ، بعد ان ابتلعت المجاعة والهجرة والحرب قسما كبيرا منهم ، وبعد ان اضيفت مدينة زحلة في احصاء ١٩٢١ الى البقاع ، توزعوا كالآتي :

٢٥٤١٨ في زغرتا ، ٣٤٠٧٣٩ في الكورة - البترون ، ٨٢٠٠٤٥ في المتن ، ٦٠٠١٨٢ في الشوف ، ٤١٠٠٠٤ في كسروان ، و ١٥٠٨٩٣ في جزين . و اضاف الاحصاء ٢٩٠٣١١ مهاجرا لبنانيا من الجبل يدفعون ضرائب . وانقسم سكان الجبل البالغ تعدادهم اذ ذاك ٢٨٨٠٣٧١ بين مقيم ومهاجر ، على الوجه التالي : ١٥٦٠٩٠ من الموارنة ، ٤٠٠٦٨٩ من الارثوذكس ، ١٦٠٤٦٨ من الكاثوليك ، ١٠٧٩٤ من البروتستانت ، مقابل ٣٤٠١٨١ من الدروز ، ١٩٠٨٩٨ من الشيعة ، ١٨٠٥٧٣ من السنة و ٧٥٨ من طوائف مسيحية متفرقة .

يبين هذا الاحصاء ان مسيحيي جبل لبنان ، بتقدير الفرنسيين انفسهم ، اصبحوا بعد الحرب ٢١٥٠٤٧١ مقابل ٧٢٠٦٥٢ من المسلمين . بيد ان عدد الموارنة ، باعتراف الفرنسيين ايضا ، سينخفض في لبنان من ١٩٩٠١٨١ الى ١٧٥٠٦٣١ مقيما اي بفارق ٢٣٠٥٥٠ مهاجرا . اما عدد السنة فيبلغ ١٢٤٠٧٨٦ يقيم منهم في لبنان ١٢١٠٩٦٢ شخصا اي بفارق ٢٠٨٢٤ مهاجرا . ويبلغ عدد الشيعة ١٠٤٠٩٤٧ يقيم منهم ١٠٣٠٠٧٥ بفارق ١٠٨٧٢ مهاجرا ، في حين يبلغ عدد الارثوذكس ٨١٠٤٠٩ يقيم منهم ٧٨٠٤٠٧ مقابل ٣٦٠٠٢ مهاجرا ، كذلك بالنسبة للدروز البالغ عددهم ٤٣٠٦٣٣ يوجد منهم ٣٠٣٣٤ مهاجرا والباقي ٤٠٠٢٩٩ مقيما في لبنان . وبالنسبة للكاثوليك البالغ عددهم ٤٢٠٤٦٢ نسمة منهم ٣٠٧٩٤ مهاجرا و ٣٩٠٧٦٨ مقيما . يضاف الى ذلك ان ٤٧٦ مهاجرا بروتستانتيا مقابل ٣٠٧٣٩ مقيما يشكلون عدد البروتستانت في لبنان البالغ ٤٢١٥ نسمة .

الفرنسيون حققوا التوازن الطائفي في لبنان

وهكذا يتبين لنا ان نسبة المقيمين من الطوائف المسيحية تنخفض ، حسب الاحصاء الرسمي ، من ٣٢٧٠٢٦٧ (٥٨) نسمة الى ٢٩٧٠٥٤٥ مقيما في حين لا تنخفض نسبة المسلمين الا من ٢٧٣٠٣٦٦ الى ٢٦٥٠٣٣٦ مقيما يضاف الى الجميع ٨٠٤٣٦ من الاقليات .

فالاختلال الهائل الذي كان سائدا في المتصرفية وحتى عام ١٩١٩ حيث بلغ مجموع المسيحيين ٣٢٩٠٤٢٧ (٥٩) من جميع الطوائف مقابل ٨٥٠٢٣٢ من الطوائف الاسلامية و ١٥٣ من الاقليات ، قد تغير تماما في دولة لبنان الكبير . فقد أصبح

— H. C. Recensement officiel de 1921.

(٥٨)

— H. Fayyad « op. cit. » — P. 19.

(٥٩)

الوجود المسيحي الفعلي يتمثل من جميع الطوائف المسيحية بنسبة ٢٩٧٠٥٤٥ نسمة مقابل ٢٦٥٠٣٣٦ مسلما مقيما في لبنان الكبير . اضاف الى ذلك ان الهجرة التي شملت اعدادا كبيرة من الموارنة بشكل خاص ، جاءت لتضييق الشقة بين اعداد المسيحيين والمسلمين في لبنان . ففي حين قدر سكان لبنان الكبير عام ١٩٢١ بحوالي ٧١٠٠٥٦٢ نسمة بين مقيم ومهاجر ، لم تتعد نسبة المهاجرين منهم ١٣٠٠٢٤٨ . اما في عام ١٩٢٥ فقد ارتفع عدد سكان لبنان ، المقيمين منهم والمهاجرين بحوالي ٧٥٦٠٣١٠ نسمة اي بزيادة حوالي ٤٦ الفا فقط في حين قدر عدد المهاجرين بحوالي ٢٥٨٠٢٤٨ نسمة في ذلك العام اي بزيادة بلغت الضعفين تقريبا لعام ١٩٢١ . وبقيت الاغلبية الساحقة من المهاجرين تنحصر بالموارنة والارثوذكس بشكل خاص . الهجرة الارمنية وحدها ، والتي تمرکز قسم هام منها في لبنان آنذاك ستلعب دورا بارزا في ترجيح الكفة العددية دوما لصالح المسيحيين اذ قدرت اعدادهم عام ١٩٢٢ بحوالي ٢٠٣٢٠٨٥٩ (٦٠) أرمنيا . وهكذا توزع سكان لبنان عام ١٩٢٥ بنسبة ٥٩٨٠٠٦٢ مقيما و ٢٥٨٠٢٤٨ مهاجرا . وتوزع المقيمون على الشكل التالي :

١٧٨٠٢٥٧ من الموارنة ، و ١٠٠١٧٣٧ من الشيعة ، و ١٢٢٠٦٧٨ من السنة ، و ٦٩٠٥٣٩ من الارثوذكس ، و ٤٠٠٤١٤ من الكاثوليك ، و ٣٨٠٩٤٠ من الدروز ، و ٣٠٩٨٦ من البروتستانت ، و ٩٠٠٦٥٢ من الاقليات يضاف اليهم ٣٢٠٨٥٩ أرمنيا .

فباستثناء هؤلاء الارمن الذين اعطاهم الفرنسيون الجنسية اللبنانية ، انخفضت نسبة المسيحيين المقيمين من ٣٢٩٠٤٢٧ في عام ١٩١٩ الى ٢٩٧٠٥٤٥ في عام ١٩٢١ الى ٢٩٢٠٢٧٨ عام ١٩٢٥ حسب الاحصائيات الرسمية بالذات ، في حين ارتفعت نسبة المسلمين من المتصرفية الى لبنان الكبير من ٨٥٠٢٣٢ عام ١٩١٩ الى ٢٦٥٠٣٣٦ عام ١٩٢١ وبقيت النسبة ذاتها تقريبا عام ١٩٢٥ بحوالي ٢٦٣٠٥٥٥ (٦١) مقيما .

لقد تحققت رغبة الفرنسيين في ايجاد توازن طائفي في لبنان بدل الوطن المسيحي الذي شكلته المتصرفية بحماية دولية . فالفرنسيون لم يخططوا قط لمصالح طائفة مسيحية في لبنان بل لمصالحهم هم بالذات . فهم لم يسعوا الى ايجاد اقلية مسيحية مقابل اقلية اسلامية بقدر ما سعوا الى ايجاد دولة متوازنة طائفية تصلح منطلقا لرساميلهم نحو الداخل الاسلامي . وقد عبّر الجنرال غورو بوضوح عن هذه الفكرة منذ عام ١٩٢١ حين قال : « يهمني ان تخف حدة المنافسات الطائفية شيئا فشيئا لئلا يؤدي استمرارها الى اضعاف لبنان الكبير » (٦٢) .

وقد عبّر الشيخ رشيد رضا عن هذه الحقيقة عندما قال : « ان دول اوروبا ، وان بنت سياستها القديمة في الشرق الأدنى على دعوى حماية المسيحيين وانصافهم او انقاذهم من سلطة المسلمين ، فهي تتخذ الدين وسيلة الى مصالحها ولا تبالي بما يعارضها وان نسف الدين وأهله في اليم نسفا » (٦٣) .

(٦٠) — E. Gédéon « L'indicateur syrien de 1925 » — P. 115-116 et L. Jalabert « La Syrie et le Liban : réussite française ? » — P. 110.

(٦١) — Voir: H. C. « Recensement de 1921 » et H. Fayyad « op. cit. » — P. 19 et Pierre Rondot « Les institutions politiques du Liban » — P. 28-29.

(٦٢) — Gouraud « Foire-exposition de Beyrouth de 1921 » — P. 19.

SMUTS

(٦٣) المنار — المجلد ٢٢ الجزء ١٠ — مقالة « الدين والقوة والمصلحة في سياسة اوروبا » ص ٧٨٢ .

دولة طائفية أم طبقية ؟

في عام ١٩٢٠ تحققت دولة لبنانية ذات توازن اقليمي وسكاني وطائفي . فاذا قدرت مساحة جبل لبنان المتصرفية بحوالى ٤٥٠٠ كلم^٢ زيدت هذه المساحة الى ١٠٤٠٠ كلم^٢ عام ١٩٢٠ اي بنسبة حوالى ١٣٠٪ ، فان سكان الدولة الجديدة قد ازداد عددهم من ٢٥٩٤٠٦٠ مقيما في جبل لبنان عام ١٩١٤ الى ٥٧٩٠٧٧٨ مقيما في عام ١٩٢١ اي بنفس النسبة تقريبا . غير ان الاغلبية المطلقة للمسيحيين الموارنة في جبل لبنان قد تم تجاوزها فأضحى الموارنة اكثرية نسبية فقط ونشأت دولة ذات توازن طائفي مقصود اقامها الفرنسيون وفق مخططاتهم في المنطقة .

وعلى ركايز القلعة الصخرية التي كونتها متصرفية جبل لبنان والتي لم تضم سوى قرى صغيرة ومتوسطة دونما مدن هامة ، ودونما مرافئ ناشطة ، ودونما سهول خصبة ، ودونما اراض زراعية مروية او قابلة للاستصلاح ، اقيمت دولة جديدة ضمت مدنا كبيرة ومرافئ نشيطة ، وسهولا فسيحة خصبة . تلك كانت دولة لبنان الكبير .

ان عام ١٩٢٠ شهد ولادة كيان لبناني بالغ التوازن اقليميا وطائفيا واقتصاديا ومدينيا . هذا الكيان الجديد ، بعكس نظام المتصرفية ، كان قابلا للبقاء والاستمرار . وفي هذا العام ، لم يعد تاريخ لبنان مجرد تاريخ جبل لبنان دون سواه ، اي تاريخ لبنان الصغير ، بل اضحى تاريخ كل لبنان ، تاريخ لبنان الكبير . هذا العام سيقضي على ما اسموه بالصراع بين الدروز والموارنة الذي دمج تاريخ لبنان منذ زمن بعيد ليبدأ تاريخ لبنان على اسس جديدة شهدت ولادة صراع من نوع جديد مع حزب الشعب اللبناني عام ١٩٢٤ الذي نادى بالغاء الطائفية فكان اول صوت ارتفع ضدها كحركة سياسية في لبنان . هذا الصوت سيجد صده مع رياض الصلح في جلسة ٧ كانون الاول ١٩٤٣ الذي وصف الطائفية بأنها « وصمة عار على جبين لبنان يجب ازلتها » .

في عام ١٩٢٠ انتقل عهد الطوائف اللبنانية الى مرحلة بناء النظام الطائفي اللبناني باسم لبنان الكبير ، على اسس عصرية وحديثة . فحمل هذا النظام في تكوينه بالذات عوامل اتيهارة والقضاء عليه . فدولة لبنان الكبير لم تكن دولة طائفية بل دولة لبنانية على اسس رأسمالية حديثة . دولة دمج الفرنسيون فيها جميع الطوائف بتوازن جديد وحدود جديدة . وبالرغم من الرفض المطلق للطوائف الاسلامية الذي عبرت فيه عن عدم اعترافها بهذه الدولة « المعزولة » عن العرب و « المرتبطة » بالغرب ، فقد ادرك رأسماليو لبنان ، مسيحيين كانوا ام مسلمين ، ان الفرنسيين لم يسعوا الى كيان مسيحي بل كيان لجميع الطوائف يصلح كمنطلق لرأسميلهم نحو الداخل .

اما تجار بيروت ، والعديد منهم من المسلمين ، وزعماء الارياف اللبنانية المسلمون ، دخلوا طوعا في اطار السياسة الفرنسية هذه وجنوا ثروات مالية وعقارية هائلة بفضل تعاونهم معها بحيث اتضح للوطنيين اللبنانيين من جميع الطوائف ، ان لبنان الكبير ليس دولة طائفية ولن يكون كذلك ، وان النضال ضد هذا الكيان الذي

ساهم الفرنسيون في ولادته ، ليس نضالا طائفيا بل وطنيا . فالفرنسيون ، وان فشلوا في دمج لبنان بسوريا ، نجحوا في ضرب وجه لبنان الطائفي المسيحي الذي كان زعماء الدين الموارنة يصرون على اظهار لبنان به .

لقد تغير هذا الوجه المسيحي للبنان في عام ١٩٢٠ عما كان عليه ايام المتصرفية . فلبنان الكبير ، كدولة جديدة ذات وجه متعدد الطوائف ، كان خطوة اولى على طريق ضرب الوجه الطائفي الوحيد الجانب للبنان والذي انتهى مع الميثاق الوطني الى صيغة تفاهم بين الطوائف اللبنانية لم تلبث ان اظهرت عقم الصيغ الطائفية المطروحة .

ان أزمة النظام الطائفي اللبناني بدأت تشتد وتقوى منذ ولادة لبنان الكبير بالذات . هذه الازمة ما زالت حتى اليوم تحاول ان تخفي الصراع الحقيقي في لبنان ، والذي هو صراع اجتماعي طبقي بالذات . ان تكوين لبنان التاريخي المتعدد الطوائف ، ونظام المتصرفية ، وسلطة الانتداب الفرنسي ، ساعدت جميعا على اظهار الصراع في لبنان بمظهر الصراع الطائفي في محاولة لطمس الصراع الاجتماعي وطمس الصراع الوطني ضد الانتداب الفرنسي . غير ان محاولة تستير الصراع الاجتماعي في لبنان بوجه درزي - ماروني ، او مسيحي - اسلامي ، او ماروني - سني منذ ولادة المتصرفية حتى الميثاق الوطني والتي استطاعت فعلا تحوير الصراع الاجتماعي لفترة طويلة من تاريخ لبنان الى صراع ذي مظهر طائفي لم تستطع القضاء على الصراع الاجتماعي بل بالعكس من ذلك كانت جذوره تمتد عميقا في المجتمع اللبناني مع احزاب سياسية تظهر الصراع الحقيقي الطبقي وتؤيد العلمانية كخطوة اولى على طريق ازالة الطائفية . ان الوعي الاجتماعي ذا الوجه الطبقي الذي ولد في اواخر ١٩٢٤ كان ايدانا بأن الشعب اللبناني لن يخدع طويلا بطبيعة النظام اللبناني الطبقية فالنظام الطائفي الذي ولد مع ولادة دولة لبنان الكبير ليس تعبيرا عن مصالح طوائف لبنانية ، وليس بمقدوره ان يكون تعبيرا عن مصالح طائفة واحدة من الطوائف اللبنانية بل هو تعبير عن مصالح الفئات الرأسمالية العليا التي تتعاطى التجارة الوسيطة خاصة في بيروت ، وعن مصالح كبار الاقطاعيين في الريف اللبناني . ان تلك الفئات العليا من الرأسمالية اللبنانية الوسيطة وكبار الاقطاعيين اللبنانيين كانوا دعامة ذلك النظام اللبناني على الصعيد الداخلي . وان هؤلاء واولئك ليسوا من طائفة واحدة ولا يربطهم رابط ديني ، بل تربطهم مصالحهم الطبقة الواحدة البالغة الانسجام آنذاك مع مصلحة الانتداب الفرنسي المواليين له . ان توسيع لبنان من المتصرفية الى لبنان الكبير كان بداية النظام الطائفي في لبنان كيان سياسي ، لكنه كان في الوقت نفسه بداية ظهور الصراع الحقيقي في لبنان بوجهه الطبقي الواضح . ومع ازدياد تبلور هذا الصراع الطبقي ، كانت تزداد عزلة دعاة الطائفية وتزداد معها صعوبة انقاذ نظامهم الطائفي بالذات حتى باتت الطائفية في الوقت الحاضر أعجز من ان تخفي ذلك الصراع الطبقي وأعجز من ان تستمر في قيادة الكيان السياسي في لبنان وتخليصه من أزمارته الحادة كآزمات لنظام طبقي رأسمالي واضح لا كنظام طائفي وحيد الجانب او متعدد الوجوه الطائفية .

□ الفصل الثالث □ صك الانتداب في التطبيق العملي

صك الانتداب

عندما آن انعقاد مؤتمر الصلح في باريس ، تقدم الجنرال سموتس Smuts ،
البريطاني الجنسية والمسؤول العسكري عنها في جنوب افريقيا ، باقتراح خاص أسماه
« عصابة الأمم : اقتراح عملي » لاقى استحسانا من قبل المؤتمرين فضمنوا بعض بنوده
البالغة احدى وعشرين بندا في صكوك الانتدابات التي قسمت الى ثلاث درجات :
درجة (أ) للمناطق الأكثر استعدادا للحكم الذاتي وتشمل ما تبقى من ممتلكات الدولة
العثمانية ، ودرجة (ب) وتشمل بعض المستعمرات الألمانية في افريقيا كالكاميرون
وتوغولند وافريقيا الشرقية الألمانية وافريقيا الغربية وجزيرة سموا . ودرجة (ج)
وتشمل باقي الممتلكات الألمانية كجزيرة نوزو ، والجزر الألمانية في المحيط الهادئ (١) .

وتأخرت صكوك الانتدابات من الدرجة (أ) عن الصدور نظرا لتدخل الولايات
المتحدة الأمريكية (٢) ولم يوضع صك الانتداب على سوريا ولبنان الا في ٢٤ تموز ١٩٢٢
وطبق رسميا في ٢٩ ايلول ١٩٢٣ (٣) . ولعل أبرز مواد هذا الصك ان « تضع الدولة
المنتدبة نظاما أساسيا لسوريا ولبنان خلال ثلاث سنوات تبتدىء من تاريخ الشروع
في تطبيق هذا الانتداب . وبعد هذا النظام الأساسي بالاتفاق مع السلطات الوطنية
وينظر فيه بعين الاعتبار الى حقوق الاهلين في الاراضي المذكورة والى مصالحهم
وأمانهم وينص فيه على اتخاذ التدابير التي من شأنها ان تسهل لسوريا ولبنان
سبيل النمو والتقدم كدولتين مستقلتين ... » (المادة الاولى) . و « ... يحق للدولة
المنتدبة في كل حين ان تستخدم الموانئ والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات

(١) مجيد خدوري — « نظام الانتداب : تحليل ونقد » ص ٨ — ٩ .

(٢) مجيد خدوري — « نظام الانتداب : تحليل ونقد » ص ١٠ .

(٣) — Voir Jean Luquet « Le Mandat A et l'Organisation du Mandat français en
Syrie et au Liban » . Chapitre I, et Charles Ayyoub « op. cit. » — P. 10-11,
et Stoyanovsky « La théorie de Mandats internationaux » — chap. II : Man-
dat A.

في سوريا ولبنان ... » (المادة الثانية) (٤) .

و ... » ان علاقات سوريا ولبنان الخارجية وتسليم أوراق الموافقة على اعتماد قناصل الدول الأجنبية تكون كلها من اختصاص الدولة المنتدبة دون سواها » (المادة الثالثة) و ... » ان الدولة المنتدبة تضمن صيانة سوريا ولبنان من خسارة أراضيها كلها او بعضها ومن تأجيرها كلها او بعضها ومن بسط اية مراقبة من قبل دولة اجنبية اخرى » (المادة الرابعة) و ... » تنشئ الدولة المنتدبة في سوريا ولبنان نظاما قضائيا يصون حقوق الاجانب والوطنيين صيانة تامة ... » (المادة السادسة) و « تضمن الدولة المنتدبة حرية القيام بجميع الشعائر الدينية . ولا يجوز ان يقع شيء من التمييز وانتفاء المساواة بين سكان سوريا ولبنان بسبب اختلاف الجنس او الدين او اللغة ... وتقوم الدولة المنتدبة بتنمية التعليم العام باللغات الوطنية المستعملة في اراضي سوريا ولبنان » (المادة الثامنة) و « لا يجوز منح امتياز تكون له صفة احتكار عام ... على ان هذا الشرط لا يحول دون حق للدولة المنتدبة في انشاء احتكارات تنحصر في مسائل الرسوم والضرائب ... » (المادة الحادية عشرة) و ... » ان اللغتين الفرنسية والعربية تعتبران رسميتين في سوريا ولبنان ... » (المادة السادسة عشرة) (٥) .

واذا ما طرحنا السؤال التالي : ماذا اعطى صك الانتداب للدولة المنتدبة وللدولة الواقعة تحت الانتداب ؟ لتبين لنا صدق ما ورد في القاموس الدبلوماسي : « رجح نظريا ان السيادة هي للشعب الواقع تحت الانتداب ولكنها سيادة مؤجلة التنفيذ الى امد غير مسمى ، على ان ممارستها عائدة قانونا وفعلا الى الدولة المنتدبة طوال مدة انتدابها » (٦) . اما حقيقة الانتداب فقد اوضحها وزير راديكالي فرنسي للمؤرخ اميل خوري بقوله : « ان كلمة الانتداب لا تفيد شيئا مما تظن ، وما هي الا اصطلاح سياسي حديث توافقت عليه الدول المنتصرة في وقت معين ولسبب معين . ان لبنان بلد وضعه النصر في ايدينا ، ولنا ان نطبق فيه الاساليب التي تؤمن له العدل والراحة . ونحن ادرى من سوانا بما هو العدل وما هي الراحة ... » (٧) .

ويعلق الملك فيصل الاول ، ملك سوريا ، على كلمة الانتداب قائلا : « ان كلمة الاستعمار كانت اصبحت ممقوتة في نظر الشعوب الغالبة والمغلوبة على السواء . ومن اجل التوفيق بين الاعتراف الاسمي بحقوق البلدان المسلوخة عن تركيا وتنفيذ مبادئ الفتح ، ابتدع اسلوب جديد سمي بالانتداب ، ليسر من جهة حق الفتح ، ويؤمل من جهة اخرى للمغلوب بامكانية الحصول على استقلاله » (٨) وللأمير شكري أرسلان رأي في هذا المجال اذ يقول « ان من بين جميع البدع التي استجدت بعد

(٤) — E. Rabbath « La formation historique du Liban... » PP. 333-335; voir aussi V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 41-47.

(٥) نشر صك الانتداب في العدد ١٧٠٦ من الجريدة الرسمية لدولة لبنان الكبير تاريخ ١٩٢٣/١١/١٩ .

(٦) بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول ص ١١٢ .

(٧) عن بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول ص ٨ — مقدمة .

(٨) من خطبة له نشرت في جريدة « العالم العربي » العدد ٢٢٢١ تاريخ ١٩٢١/٩/٦ — عن خدوري

— مصدر سابق — ص ٢٠ .

الحرب العالمية الاولى ، لم تظهر بدعة مخادعة كتلك التي ادت الى قيام نظام الانتداب ... » (٩)

فالانتداب كما فرض على سوريا ولبنان في مؤتمر سان ريمو لم يكن في الواقع سوى النتيجة الحتمية للوجود العسكري الفرنسي الذي انسحبت لصالحه القوات البريطانية التي كانت ترابط في المنطقة . وهكذا لم تحمل نهاية الحرب العالمية الاولى نتائج ايجابية لسوريا ولبنان ، بل انتقلت من حكم تركي او حماية جماعية اوروبية الى انتداب فرنسي . وجاءت صيغة الانتداب من الفئة « ألف » وكأنها وضعت خصيصا للمناطق العربية التي كانت تابعة لتركيا قبل الحرب ، استنادا الى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ، والتي نصت « ان بعض القوميات التي كانت تخضع في الماضي الى الامبراطورية العثمانية (سوريا وفلسطين والعراق ولبنان) قد بلغت درجة من التطور يمكن الاعتراف بها مؤقتا كقوميات مستقلة شرط ان يقوم الحكم فيها على توجيهات ومساندة سلطة منتدبة ، الى اليوم الذي تصبح فيه قادرة على حكم نفسها بنفسها » .

سياسة التجزئة الاستعمارية

على اثر التبادل في مواقع القوات الانكليزية والفرنسية في المنطقة بعد اتفاق ايلول ١٩١٩ ، عين الجنرال غورو مفوضا ساميا عاما للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا ، وبدأ تجميع القوات الفرنسية في الساحل استعدادا لضرب الحركة الوطنية في سوريا . وارتفع عدد الجنود الفرنسيين في سوريا ولبنان الى ١٣ الفا في تشرين الاول ١٩١٩ بعد ان كان ألفين فقط في تشرين الاول ١٩١٨ حتى اتفاق ايلول ١٩١٩ . ثم ارتفع العدد الى ٣٢ الفا في كانون الثاني ١٩٢٠ و ٥٠ الفا في ايار ١٩٢٠ ثم ٦١ الفا في تموز ١٩٢٠ و ٧٠ الفا في تشرين الاول ١٩٢٠ وتناقص الى ٦٦ الفا في تموز ١٩٢١ (١٠) .

ان تلك القوات استطاعت بسهولة القضاء على الحكم العربي في دمشق ، غير ان الملك فيصل المخلوع منها ، سرعان ما تلقفه عرش بغداد حتى وفاته . فليس الامر صدفة على ما نعتقد ، بل نتيجة اتفاق فرنسي - انكليزي مسبق على مصير الملك المخلوع . اما ميسلون ، في نظر الوطنيين فكانت تجزئة سوريا الى دويلات ، وبداية مرحلة جديدة من تاريخ سوريا ولبنان . اذ حتى ذلك التاريخ ، كانت سوريا لا تزال تحت ادارة عربية في دمشق ويتبعها مباشرة جميع المناطق اللبنانية خارج متصرفية جبل لبنان .

وبفضل فترة المد الجماهيري الوطني التي قاد زمامها الامير زيد في غياب

(٩) — Edmond Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous Mandat ». Pré-face — P. 1.

(١٠) — E. Jung « La révolte arabe » — P. 121-122. et V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 95.

فصل، تمتعت سوريا والمناطق اللبنانية ببعض الحريات الديمقراطية (١١). وقامت بانتخاب ممثليها الى المؤتمر السوري العام واعلنت الحكومة الوطنية التجنيد الاجباري ووضعت قواعد مكتوبة لاعلان دستور سياسي يعترف بالنظام البرلماني وقيام مجلس شعبي ينتخب بالاقتراع العام على اساس نائب واحد لكل ٤٠ الفا من الاغلبية العرقية للسكان ونائب واحد لكل ثلاثين الفا من الاقليات القومية.

لقد جزئت سوريا بعد معركة ميسلون الى دويلات سميت بالدول ذات الحكم الذاتي تحت الانتداب الفرنسي، وهذه الدويلات كانت تشكيلة فسيفسائية من البلاد المقسمة اعتباريا (١٢) على الطريقة الاستعمارية التقليدية. فظهرت الى الوجود تباعا، بعد اعلان دولة لبنان الكبير، دويلات دمشق وحلب وبلاد العلويين ودويلة جبل الدروز. واعتبر تقسيم سوريا ثم تجميعها احدى السمات المميزة لتلك المرحلة الانتدابية الاولى من ١٩٢٠ - ١٩٢٦ بعد ان اتخذت الادارة الفرنسية، فور دخولها الى سوريا ولبنان، الصيغة العسكرية الواضحة.

« لقد عرفت سوريا خلال السنوات الست الاولى من حكم الانتداب، جميع المقامرات الاقليمية، فقد قسمت الى دويلات، ثم جمعت في اتحاد، ثم اعيد تجزئة بعض اوصالها مرة اخرى » (١٣)، كل ذلك وفق آخر ما توصل اليه التكتيك الاستعماري الفرنسي في المغرب العربي وافريقيا والهند الصينية وغيرها.

اجهزة الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان

١ - المفوض السامي

كان اول مفوض سام لفرنسا في سوريا ولبنان هو فرنسوا جورج بيكو، القنصل الفرنسي العام السابق في بيروت والقاهرة الذي عين مساعدا للجنرال للنبي، القائد العام للقوات الحليفة في المنطقة. وكان صاحب الاتفاقية المشهورة، يتلقى مباشرة اوامر حكومته، لكنه بقي فعليا تابعا لنفوذ القائد العام لجيوش الاحتلال المتحالفة. واستمر هذا الوضع حتى اتفاق الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ الذي نص على حلول الجيش الفرنسي محل القوات البريطانية في سوريا ولبنان، وقامت الحكومة الفرنسية بتعيين الجنرال غورو مفوضا ساميا عنها بدل بيكو وأضحى المفوض السامي تابعا مباشرة لحكومة الجمهورية الفرنسية وحدها وبات مسؤولا

(١١) « في تلك الحقبة التاريخية، كانت دمشق تشبه مدينة حررت من نير بفضل ثورة ديمقراطية حرة. ففي كل مكان كانت تقوم الاجتماعات الجماهيرية واللقاءات والاندية ». دوريو - مصدر سابق - ص ١٣.

(١٢) « كان تقسيم سوريا مصطنعا الى ابعاد الحدود، وكان قائما على مشيئة الاجنبي دون سواء ». — Mounir Ajalani « La Constitution de la Syrie » — P. 4.

— « اما تجزئة سوريا فتستكون ضربة قاضية على حياة البلاد » المقنسي - جريدة الحقيقة البيروتية - السنة ١١ - العدد ١٠٧٤ - الصادر في ١٤ نيسان ١٩١٩.

(١٣) — La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 196.

مامها فقط عن اعماله.

كانت صلاحيات المفوض السامي مطلقة ويمركز بين يديه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية التي تعترف بها النصوص الرسمية لصك الانتداب بالذات (١٤). فهو يمثل الجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان ويتبع وزارتها الخارجية ويمارس جميع صلاحياتها في هذين البلدين ويعتبر الوسيط الوحيد للحكومات المحلية في علاقاتها مع القناصل الاجانب.

وبفضل سلطات واسعة غير مقيدة، اصبح المفوض السامي السيد غير المنازع في البلاد (١٥) وكان دوره سياسيا وعسكريا في آن معا. فالمعاهدات، والاتفاقات السياسية والاقليمية والجمركية، والادارة العامة للبلاد، والعلاقات الخارجية، والمفاوضات مع الآخرين، وتقرير السياسة الداخلية والمشاركة، والدستورية، وتلك المتعلقة بالتعليم والهجرة والاقتصاد العام، ومنح الامتيازات للشركات والبنوك، الاجنبية منها والمحلية، والكثير ايضا من الصلاحيات، كان يتولاها المفوض السامي الفرنسي بنفسه، حتى القضاء، الذي كان محظورا على الحاكم الفرنسي العام في المستعمرات التابعة لفرنسا، اعتبر من الصلاحيات التي يمارسها المفوض السامي في سوريا ولبنان. فالمفوض السامي اذا لم تكن له روادع في ادارته بل هو الذي يقرر شخصيا توجه السياسة الفرنسية في المنطقة حسب مصالح حكومته، وذلك بموجب الصلاحيات غير المشروطة التي منحت له. وبرأي الدكتور ادمون رباط « انه لم تكن هناك سياسة واضحة لفرنسا المنتدبة في سوريا ولبنان يتمشى عليها المندوب السامي، بل بالعكس من ذلك، فالمندوب السامي في الواقع هو الذي ينفذ سياسة تخدم مصلحة فرنسا المنتدبة » (١٦). وهذا ما يفسر بوضوح كيف كانت تتقلب اشكال السياسة الفرنسية احيانا عند تبديل مفوض سام جديد دون تغيير جدي في العمق (١٧).

(١٤) راجع المرسوم الفرنسي الصادر في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ الذي اعتبر النظام الاساسي في هذا المجال المتعلق بصلاحيات المفوض السامي الفرنسي، خاصة البنود الاول والثاني منه.

— Cité par J. Luquet « Le Mandat A et l'organisation du Mandat français en Syrie et au Liban » — P. 79; voir aussi: E. Rabbath « formation historique... » — P. 336.

(١٥) يقول الدكتور ادمون رباط ان هنالك تشابها مدهشا بين المفوض السامي والسكرتير العام في المستعمرات — ولتبيان هذا التشابه ينبغي الرجوع الى المادة الثامنة من مرسوم ٢٠ تشرين الاول عام ١٩١١ المتعلق بالهند الصينية.

— L'évolution politique de la Syrie sous mandat — P. 95.

(١٦) مقابلة شخصية. ويؤيد جوزف اشقر هذا الرأي في كتابه « التطور السياسي لسوريا ولبنان الكبير » ص ٥٧. اما هنري غريمال فيرى « ان خطأ الفرنسيين هو انهم لم يعدوا سياسة واضحة من اجل النجاح في المهمة التي كانوا يضعونها نصب اعينهم ».

— H. Grimal « La décolonisation... » — P. 24.

(١٧) هناك امثلة عديدة تؤيد هذا القول. واذا اخذنا نموذجا منها ما قاله اسكندر رياشي مثلا من مجيء الجنرال ساراي حيث تقرأ « ما كاد الجنرال ساراي يصل الى البلد حتى انقلب كل شيء الى عكسه. فبعد ان كنا نرى السرايات تضيق بالكهنة وصنائع الكهنة واهل الدين، صرنا نرى بها فلا نرى فيها ثوبا اسودا واحدا... »

رياشي: « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ٢٤.

وتجدر الإشارة الى ان المفوض السامي احتفظ لنفسه بحق ادراج الاعتمادات المخصصة للمصاريف الملزمة في الموازنة وذلك بموجب قرار في حال رفض المجلس التمثيلي اعتمادها ، كما بقيت جميع الاعمال التشريعية التي يصدرها حاكم لبنان ويقرها المجلس التمثيلي لا تعتبر نافذة ما لم يصدقها المفوض السامي (١٨) . حتى الموازنة ذاتها لا تعتبر نافذة ما لم يقر تنفيذها المفوض السامي . وفي حال عدم اجتماع المجلس التمثيلي اعطي المفوض السامي حق وضع الموازنة . لقد كان هذا المفوض السامي بالفعل الحاكم الوحيد والمطلق للصلاحيات في سوريا ولبنان ، اما وجود مجالس تمثيلية او تشريعية فيهما فلم يكن لها في التطبيق العملي اية صلاحيات حقيقية .

ب : السكرتير العام

لم يكن المندوب السامي وحيدا في ادارته ، بل كان يساعده سكرتير عام للمفوضية العليا ، يحل محله اثناء غيابه ، او في حال عدم تمكنه من مزاولة اعماله . صحيح ان السكرتير العام لم يشاطره رسميا الصلاحيات المعلقة له من باريس ، لكنه ، في التطبيق ، مفوض بالتوقيع عن المندوب السامي على الرسائل الموجهة من والى وزير الخارجية الفرنسية (١٩) .

فالسكرتير العام كان ، من الناحية العملية ، المدير الفعلي لاعمال المفوضية العليا ولجميع اجهزة الانتداب ، وهي اعمال يديرها السكرتير العام ويشرف عليها بعد الرجوع الى رأي المفوض السامي ، الذي كان رجلا عسكريا في معظم الاحيان ، وغير مختص في الشؤون الادارية ، والذي كان يخوله في الغالب جميع الصلاحيات التي منحتها اياها حكومة باريس .

ويكفي ان نذكر في هذا المجال ، ان روبر دو كيه R. de Caix ، مؤسس ومدير مجلة « آسيا الفرنسية » التي اقترحت ، منذ عام ١٩١٥ ، احتلال فرنسا لسوريا ولبنان ، قد شغل منصب السكرتير العام والمندوب السامي بالوكالة طيلة الفترة الانتدابية الاولى . ان روبر دو كيه هذا ، قد عين في منصب السكرتاريا العامة ، في نفس الوقت الذي عين فيه الجنرال غورو . وكان دو كيه بالفعل ، الرجل القوي للراسمال الفرنسي في بيروت .

يقول الشيخ بشاره خليل الخوري في مذكراته « لقد عاون الجنرال غورو في الشؤون السياسية والاقتصادية والادارية المسيو روبر دو كيه . وصارت لهذا الاخير الكلمة المسموعة والرأي السائد في جميع القضايا » ثم يضيف « لكن دو كيه اضاع فضله كمنظم مصلح ، بشدة اثاره المصالح الفرنسية في بلاد المشرق على المصلحة اللبنانية . فوطد نفوذ شركاتها ذات الامتياز ورسخ اقدامها ووسع سيطرتها وجعل من البنك العثماني القديم مصرف سوريا ولبنان وحوّله اصدار النقدين السوري واللبناني . ولا تزال آثار دو كيه متصلة الى يومنا هذا في بعض الشؤون

(١٨) انطوان عارج : « لبنان ، السلطات العامة » - ص ٢٧ - ٢٨ .

— E. Rabbath « formation historique... » — P. 336.

(١٩)

العمرائية والاستعمارية التي تجعل منها مزيجا يعود علينا ببعض الفائدة وعلى الفرنسيين بحصة الاسد فيها . . . » (٢٠) .

كان المفوض السامي وسكرتيره العام اقوى شخصيتين فرنسييتين في الجهاز التنفيذي في ادارة بيروت ، وقد حكما سوريا ولبنان بصلاحيات مطلقة توازي صلاحيات الحاكم الفرنسي العام في الجزائر او تونس او المغرب او الهند الصينية ان لم تقل تتجاوزها في مجال السيطرة على القضاء الذي كان خارج صلاحيات الحاكم العام هناك .

ج : دوائر المفوضية العليا

احيط المندوب السامي وسكرتيره العام بدوائر المفوضية العليا العديدة وابرزها : مكتب مستشار الدراسات القانونية ، وقسم القضايا ، والمستشار المالي ، والتفتيش العام للجمارك ، ومكاتب البريد والبرق ، والمستشار العام للمعارف ، ولعلم الآثار والفنون الجميلة ، وللشؤون الاقتصادية والزراعية ، وللغاية الصحية والاسعاف العام ، ومكتب الخدمات القنصلية ، ومكتب حماية الملكية التجارية والصناعية والفنية والادبية والموسيقية ، ومكتب مراقبة دوائر الشرطة المحلية (٢١) وغيرها .

وشكل هؤلاء المستشارون نواة السلطة التنفيذية الحقيقية لادارة لبنان الكبير . وقد عين مستشارون ، عسكريون في الغالب ، الى جانب كل محافظ او مدير او قائمقام . وكانت لهم صلاحيات التنفيذ في شتى المجالات . كذلك كانت لديهم صلاحية عزل قاض وتعيين آخر مكانه ، كما يحلو لهم — على حد تعبير الوزير الأسبق للعدل الاستاذ فؤاد خوري في مذكراته (٢٢) . ولم تكن المفوضية العليا تتدخل قط ضد مشيئتهم . ورغم الجنسية الفرنسية التي يتمتع بها حاكم لبنان الكبير ، فقد وضع الى جانبه مستشار فني من قبل المفوضية العليا ايضا . وتفسيرا لسبب اختيار هذا الحاكم من التابعة الفرنسية يقول السكرتير العام لادارة الانتداب ، روبر دو كيه ، انه « كان من المستحسن الاحتفاظ بحاكم فرنسي في لبنان حيث لا تزال الانقسامات الطائفية قوية جدا » (٢٣) (!!!) . ولم تكن قرارات حاكم لبنان الكبير قابلة للتنفيذ الا بعد توقيع المستشار الفني ، مندوب المفوض السامي في حاكمية لبنان . وظل هذا الحاكم فرنسي الجنسية وفرنسية الرقابة عليه ايضا حتى اعلان الجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦ حيث زال شرط الجنسية وبقي شرط الرقابة فرنسي الطابع واستمر التعيين او الانتخاب لهذا الحاكم رهنا بأوامر المفوض السامي .

(٢٠) حقائق لبنانية — الجزء الاول — ص ١٢١ — ١٢٢ .

— E. Rabbath « formation... » — P. 337 et 350.

(٢١) راجع مرسوم ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ الصادر في باريس وقرار ١٤ شباط ١٩٢٥ الصادر في بيروت .

(٢٢) « سوانح خمسين » — ص ١١٨ .

(٢٣) — C.P.M. « Documents » — Sessions du 23 octobre à 6 novembre 1924 — P. 100.

اما المستشارون العسكريون الذين وضعوا الى جانب المحافظين والقائمقامين والمدراء فقد استقدموا في الغالب من الادارة المراكشية وكانوا مشبعين بأساليب الحكم الاستعماري فيها . وكان يزيد في فداحة جهلهم المسبق للأعمال الادارية ، تصريحاتهم الاستغرافية الوقحة التي كانت تسيء الى السوريين واللبنانيين وتحقرهم في معظم الاحيان . وباعتراف وزير الخارجية الفرنسية ورئيس جمهوريتها ، ريمون بوانكاريه ، نقرأ في تصريحه التالي لمجلة « العالمين » ما يلي « .. يقال ان بعض الوزراء قد طاب لهم ان يرسلوا الى سوريا موظفين من حثالة المجتمع الفرنسي، وان الشرق قد اصبح الجنة الموعودة لعناصر لم يتح لها حظ النجاح في بلدها الاصلي . هناك استثناءات ، ولله الحمد . كما ان الموظفين ، من جميع الرتب ، هم اكثر عددا مما ينبغي ، وقد تم اختيارهم بصورة سيئة للغاية » (٢٤) .

ومن مذكرات فرنسوا خوري ، ترجمان متصرفية جبل لبنان سابقا والذي عايش الانتداب من الداخل ، ننقل هذا المقطع البالغ الدلالة « جاء غورو وادخل معه الى البلاد ضباطا من المستعمرات اشبعوا بروح الفطرسية والاستبداد ، وقد ظنوا ان اللبنانيين لا يختلفون عقلا واستعدادا عن سكان الهند الصينية وافريقيا ، فأرادوا ان يعاملوهم المعاملة نفسها التي اعتادوها في تلك الاصقاع غير حاسبين للكرامة حسبا ، كأنهم بين عبيد لا يحق ان تكون لهم سلطة او امتياز او ارادة حرة .. » (٢٥) .
والرئيس الدائم للانتدابات يصرح بالقول « هناك عدد من الشكاوى المرسلة من ضباط اجانب وقناصل ومبشرين يعلنون فيها عن وجود موظفين يمارسون التجارة والمضاربة بشكل مفضوح في سوريا ولبنان وانهم اساءوا استخدام السلطات الموكله اليهم ، مستغلين الحكم العسكري المفروض على بعض المناطق اشبع استغلال » (٢٦) .

« لقد افطمت فرنسا في تركيز الادارة في يدها وفي تعيين الفرنسيين في شتى الدوائر .. » (٢٧) . ولا عجب في ذلك فالاسلوب الاستعماري واحد وان تظهر بأشكال وتسميات مختلفة .

د : مندوبون ومستشارون

خارج المفوضية العليا برزت فئتان من الموظفين الفرنسيين : الاولى هي فئة المندوبين ، وهي جهاز الانتداب الذي يمثل المفوضية العليا في المناطق ، ويرتبط بها مباشرة . وكان موظفو هذه الفئة يتقاضون رواتبهم باديء الامر من اموال الخزانة الفرنسية ، بموجب الميزانية الخاصة لممارسة الانتداب . وكان ممثل الانتداب او المفوض السامي هو الذي يعين لهم صلاحياتهم ، ووظائفهم ، ومسؤولياتهم . اما

(٢٤) — Raymond Poincaré — Revue des Deux Mondes — 5 Avril 1921.

(٢٥) فرنسوا خوري « ذكريات فرنسوا خوري » ص ٧٧ .

(٢٦) — Rappard — C.P.M. « Procès-verbaux » 8ème Session — Février-Mars 1926.

(٢٧) بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول — ص ١١١ .

الفئة الثانية فهي فئة المستشارين في ادارة الانتداب . وهي تضم موظفين فرنسيين معينين كمستشارين فنيين ، او اداريين تقنيين ، او موظفين مراقبين ، الى جانب الموظفين المحليين لا بل على رؤوسهم ، على حد تعبير صديق فرنسا القديم ، عبدالله صفير باشا (٢٨) . وكان موظفو هذه الفئة يتبعون ، من الناحية القانونية ، ادارة الدويلات المحلية . وكانت تلك الدويلات تقوم بأعباء رواتبهم وتدفع لهم مخصصاتهم وتنقلاتهم وتعويضاتهم الباهظة دون ان يكون لها الحق في اختيارهم الذي تقوم به المفوضية العليا بناء على استشارة المندوبين وتوصيتهم .

وكان اختصاص المندوبين عاما ، يساعدتهم في عملهم ضباط او موظفون ، وعدد من الفنيين الفرنسيين المعينين لدى الادارات المحلية لمختلف المصالح العامة (٢٩) . وكان دور هؤلاء المندوبين ، وكذلك المستشارين الفرنسيين ، قانونيا ، مساعدة رؤساء المصالح المحليين بأرائهم وخبرتهم الادارية . لذا كان من الضروري ان تعرض عليهم كافة القرارات التي يتخذها هؤلاء ، والتي لا يمكن ان تصبح قابلة للتنفيذ ، الا بعد تأشيرهم عليها بالموافقة . وكان عدد هؤلاء المندوبين والمستشارين يقدر عام ١٩٢١ بحوالي ٣١٦ موظفا فرنسيا ، يرتبط ٩٠ منهم بالمفوضية العليا مباشرة وتدفع الدولة الفرنسية اجورهم وتعويضاتهم . وكان منهم ١١٧ موظفا برتبة مستشار فني تدفع الحكومات المحلية نفقاتهم . اما الباقي ، وعددهم ١٠٩ موظفين فكانوا يتقاضون رواتبهم وتعويضاتهم من مصالح مشتركة بين الدويلات والميزانية العامة لبعض المصالح المستقلة كالجارك والبريد والمصالح العقارية والامن العام والسكك الحديدية ، والشركات ذات الامتيازات ، ومصالح الآثار ، والمصلحة الصحية ، وغيرها (٣٠) .

وكان عدد هؤلاء المندوبين والمستشارين في ارتفاع مستمر حتى بلغ عام ١٩٢٤ ، وباعتراف الفرنسيين بالذات ، ٣٥٢ (٣١) مندوبا ومستشارا تتركز ١٠٨ منهم في دوائر المفوضية العليا ، و ١٠٢ في الدوائر المشتركة للدويلات الخاضعة للانتداب الفرنسي و ١٤٢ في الوظائف الحساسة لتلك الدويلات .

ان دوائر المفوضية العليا والمندوبين والمستشارين ، بالشكل الذي تنظمت به ، أصبحت تشكل ادارة فورية ودولة ضمن دولة ، وذلك عن طريق امتدادات المفوضية العليا والمندوبين والمستشارين عبر الدويلات السورية ودولة لبنان الكبير حتى ان بعض المندوبين والمستشارين قد مارسوا نوعا من الاستقلالية الذاتية في مناطقهم دون اللجوء الى قرارات المفوضية العليا والمندوب السامي . ففي عهد الجنرال غورو ،

(٢٨) — Abdallah Sfeir « Le Mandat français et les traditions françaises en Syrie et au Liban » — P. 65.

(٢٩) راجع مسعود ضاهر — الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي — دبلوم دراسات عليا في كلية الاداب والعلوم الانسانية — الجامعة اللبنانية ايلول ١٩٧٠ — ص ٨١ — وما بعدها .

(٣٠) — H. C. « Rapport pour l'année 1922 » — P. 46-47.

(٣١) — R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 70.

وقد علق احد اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي على هذه الازمات بالقول « يوجد في سوريا ولبنان الكبير ، عام ١٩٢١ ، اكثر من ٥٠٠ موظف لممارسة انتداب لا يتطلب اكثر من ٢٠ او ٣٠ موظفا .

— Bompard — Sénat-Débats-Séance du 6 Avril 1921.

المنسوب السامي العام ، وروبير دو كيه ، السكرتير العام ، وتراپو ، حاكم لبنان الكبير ، بدأت دولة السكرتارية . وكانت السكرتارية تضم مستشارين ومستشارين للمستشارين (٣٢) . لقد ظهر واضحا منذ الايام الاولى للانتداب ، ان فرنسا ، بدارتها العسكرية ومستشاريها ، كانت تهدف الى تحقيق احتلال دائم ، وحكم مباشر ، وسياسة مخالفة لجميع التعهدات التي ارتبطت بها سابقا .

الادارة اللبنانية بين الموظفين الفرنسيين والعناصر الوطنية :

منذ مجيء الحكام الفرنسيين المتدينين لادارة سوريا ولبنان ، ما فتئوا يرددون على مسامع اللبنانيين ، وفي جميع المناسبات ، انهم ما جاءوا الا لارشادهم وعونهم وان عصبة الامم قد اقرت في مادتها الثانية والعشرين ان اهالي بعض البلدان الذين كانوا تابعين للسلطنة العثمانية (والمقصود هنا سوريا ولبنان) ، قد بلغوا درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف مؤقتا بكونهم شعب مستقل شرط ان يكون لهم منتدب يعينهم ويرشدهم في ادارتهم الى ان يصبحوا قادرين على ادارة شؤونهم بأنفسهم . وان الفرنسيين ، ما قبلوا الانتداب ، الا في سبيل الوصول بسوريا ولبنان الى هذه الغاية وان سياسة فرنسا في هذه البلاد ستكون تعزيز جانب التمدن والرقي والحرية . « ففرنسا هي التي حررت اميركا وهي التي دوّخ علمها الامصار الاوروبية داعيا الشعوب الى الحرية » (٣٣) . فغاية الفرنسيين اذا ، كما صورها المنسوب السامي بـ « ان تستفيد هذه البلاد من مشقات الاختبار التي جزاها والاعتاب التي تكبدناها لادراك الحرية » (٣٤)

ويوجز روبر دو كيه ، منذ ١٩١٩ ، ما ستكون عليه السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان بقوله :

« علينا فقط ان نقدم هيئة اركان المستشارين المصغرة ، والمراقبين الاداريين ، والقضاة ، وضباط الجندرية ، والفنيين الضروريين لتدريب مواطنين شديدي الذكاء وسريعي الاستيعاب » ثم يصف الادارة اللبنانية والسورية بالشلل في ايام العثمانيين ، عندما كانتا تدفعان سنويا اكثر من ثمانين مليونا من الفرنكات كضرائب ، في حين ان اقل من نصفها فقط كانت تصرف داخل البلاد (٣٥) .

ويؤكد كليمنصو في رسالته للبطريرك الحويك بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩١٩ « ان رغبة اللبنانيين في الاحتفاظ بحكومة ذاتية وبنظام وطني مستقل يتفق تمام

(٣٢) اسكندر الرياشي — رؤساء لبنان كما عرفتهم — ص ١٢ .
(٣٣) — F. Georges Picot — Discours à Tripoli — P. 2

ويضيف بيكو فيقول « ان قال لكم الحسود والنمام اننا نسعى لاقامة الفرنسيين في الوظائف ، اجيبوه ان في فرنسا من المراكز الشاغرة والدمار الواجب تربيته ، ما يكفي ان يشغل الفرنسيين ذلك عدا عما نعرفه في هذه لبلاد من نخبة من الرجال الرجال النشيطين المستعدين لتسيير وطنهم في المسالك الجديدة » — المصدر السابق — ص ٣ .

(٣٤) بيكو — المصدر السابق — ص ٣ .
(٣٥) — Voir aussi Van Rens « Les mandats internationaux... » — P. 106.
— Cité par Georges Samné — La Syrie — P. 583.

الاتفاق مع التقاليد الحرة لفرنسا » (٣٦) .

وفي خطاب له في باريس بتاريخ ١٩ ايار ١٩٢٤ امام الجمعية الوطنية للعلوم الاجتماعية والسياسية ، يحدد المفوض السامي ، الجنرال ويفان ، السياسة التي يجب على فرنسا اتباعها فيقول : « هناك مسلكان علينا ان نتجنبهما : بحرية تامة غير مقيمة نترك سوريا ولبنان لفوضى سياسية عارمة في جميع المجالات ، وباعتماد السلطة المركزية الشديدة نحجب عن تلك الشعوب التي انتدبنا من اجل ايصالها الى الحكم الذاتي الطريق الصحيح لذلك الحكم المستقل في المستقبل » (٣٧) .

وبالرغم من وجود العدد الهائل من تصريحات المسؤولين الفرنسيين في هذا المجال ، نكتفي بهذا القدر منها لنستنتج بوضوح ان هؤلاء المسؤولين قد ركزوا جميع اقوالهم حول نقطة واحدة : اخفاء سياستهم الاستعمارية النوي تطبيقها في سوريا ولبنان باسم الانتداب ، والتذرع بأن مبادئ الحكم العامة ستكون تلك التي نصت عليها شرعة حقوق الانسان والتي اخذت بها دساتير الدول العصرية بحيث اوهموا الكثير من السكان ان الانتداب مرحلة انتقالية قصيرة سرعان ما توصل اللبنانيين الى الاستقلال التام وحكم انفسهم بأنفسهم .

فهل جاء الفرنسيون الى سوريا ولبنان كمساعدين ومستشارين؟ وهل وجودهم فيهما سيقصر — كما يقول بوانكاريه — « على بضعة قطعات عسكرية لحفظ الامن وعدد من القيم بدرجات عالية للاشراف على الادارة ، هذا كل شيء بالنسبة للانتداب الذي سنمارسه » (٣٨) ؟

وهل جاءت تصريحات الفرنسيين مطابقة لافعالهم في سوريا ولبنان أم ان السنوات القليلة التي تلت ميلسول كانت كافية لاقناع الكثير من اللبنانيين المتعاونين مع ادارة الانتداب والمؤمنين به كمرحلة انتقالية للاستقلال بضرورة التخلي عن هذا الايمان والعمل على ازالة الانتداب بكل الوسائل الممكنة للوصول فعلا الى الاستقلال الحقيقي المنشود .

في الواقع العملي ، وبمعزل عن عشرات التصريحات الفرنسية ، فان معظم العناصر السورية واللبنانية وضعت خارج الادارة في بلديهما ، تارة بحجة « نقصان الكفاءة » لوضع هؤلاء الوطنيين في « مناصب حساسة » ، وطورا بأن « العناصر الممتازة كانت لا تزال خارج حدود بلادها ، ولما تصل بعد » (٣٩) والنخ .

باسم قانون الاحتلال ، قام الفرنسيون بتوزيع ضباطهم وموظفيهم ومندوبيهم ومستشاريهم على جميع المناصب الرئيسية في الدولة من حكام سناجق او متصرفيات الى قائمقامين ومدراء ومستشارين مطلقي الصلاحيات الى ضباط مندوبين عن الادارة المركزية العليا تم تعيينهم كضباط اتصال او ارتباط مع الموظفين

(٣٦) — Cité par N. Dahdah « Evolution historique du Liban » — P. 244.
(٣٧) — R. de Ferriet « L'application d'un mandat » — P. 63.
(٣٨) — D'après A. Sfeir « Le mandat français... » — P. 64.
(٣٩) — R. de Ferriet « L'application » — P. 27.

المحليين واصبحت الادارة فرنسية بمعظم عناصرها وبكامل اعضائها القياديين (٤٠) .
لذلك وجه الكثير من اللبنانيين ، والذين كانوا حتى ذلك الحين من المؤمنين
بفرنسا الحرية والاساوة ، او فرنسا الثورة ، الانتقاد لتلك الادارة
التي غلب عليها الطابع العسكري . وتساءلوا لماذا لم يعين رئيس لبناني لدولة لبنان
الكبير ، على غرار ما جرى في سوريا على الاقل ؟ ولماذا هذا العدد الكبير جدا من
المستشارين الفرنسيين ؟ ولماذا تدفع الدولة اللبنانية نفقات باهظة كرواتب لهؤلاء
المستشارين ؟ ولماذا لا يختار قادة الانتداب سوى العناصر السيئة من اللبنانيين ؟
ولماذا اقيمت عناصر سياسية كثيرة ومتخصصة خارج لبنان ، ولم يسمح لها بالدخول
اليه (٤١) ؟ تلك الاسئلة والكثير غيرها ستصبح منطلقا رئيسيا لمعارضة لا تلبث ان
تنمو وتشتد . لقد وعد اللبنانيون بالانتداب الموصل الى الاستقلال والحكم الذاتي ،
فاذا بهم امام ادارة عسكرية تعمل لاحتلال دائم . وسرعان ما بدأت حركة المعارضة
تنمو وتشتد في صفوف اللبنانيين وتطالب الفرنسيين بإلحاح بضرورة تنفيذ الوعود
التي اقدقوها عليهم اثناء الحرب وبعدها ، وبافساح المجال امام اللبنانيين للتدرب على
ادارة حكم بلادهم بالفعل لا بالقول ؛ مغلفين حركتهم تلك بعبارات منمقة حول فرنسا
الحرية والاساوة والعدالة والصديقة الوفية والام الحنون للبنان واللبنانيين .

وبقي ظهور الفرنسيين في كل زاوية من زوايا الحكومة والادارة العامة أمرا
مألوفاً . فالدولة خاضعة للمندوب السامي وسكرتيره العام والحاكم العام وجميعهم
من الفرنسيين ، كما ان المصالح العامة كانت برئاسة فرنسيين وتحت مراقبتهم . ولو
اقتصرت وجود الفرنسيين على مناصب معينة لكان الامر ، كما يقول الدكتور ادمون
رباط ، لكن وجود الفرنسيين في المصالح العامة لم يمنع وجود مندوبين فرنسيين
تابعين للمندوب السامي الى جانبهم ايضا ، وبقيت صلاحيات بعض الاداريين اللبنانيين
المحليين مجرد صلاحيات استشارية بسيطة (٤٢) . فهل راعت فرنسا المنتدبة الشرط
الاساسي للانتداب وهو اشراك العناصر المحلية في الادارة لتعويدها والسير بها نحو
الاستقلال الذاتي ؟ وهذا ما كان يتطلب وجود لبنانيين وسوريين في تلك الادارات
لانه من غير الممكن ان تصبح الادارة فرنسية تماما بأجهزتها التنفيذية اذا كانت الدولة
المنتدبة تريد فعلا تدريب السكان المحليين على الحكم الذاتي . ان الموظفين اللبنانيين
والسوريين ، الذين اعتبروا موظفين من الدرجة الثانوية ، فقدوا كل روح للمبادرة
وكل امكانية للتدريب على اسس الادارة الحديثة . ان اشد المنادين سابقا بالانتداب
الفرنسي على لبنان لم يستطع كتمان نغمته على مثل تلك الادارة فيقول عبد الله
صغير : « حاكم فرنسي ، واداريون فرنسيون ، وعلم فرنسي يرتفع بكل ثقة كما لو

(٤٠) — Berger-Levrault « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le Mandat Français » — P. 41.

(٤١) — R. de Ferriat — op. cit. — P. 64 et Dr Eyyoub Tabet « L'Etat du Liban et le Mandat français » — PP. 2 et 3.

ويتعد المؤلفان ان بعض الموظفين كانوا يتقاضون ما بين ستين الفا وثمانين الفا من
الفرنكات سنويا ، على حساب الخزينة اللبنانية .

(٤٢) ادمون رباط — محاضرات في القانون الدستوري اللبناني — ص ٧٦ .

كان شعارا وطنيا لبنانيا ، ونفتش بعد ذلك عن الاستقلال ؟ ماذا اعطانا الفرنسيون
من هذا الاستقلال ؟ فحتى في الوقت الذي تفتت عبيرتهم عن الاتيان بسكرتير عام
لبناني ، فان هذا « الموظف » لم تكن له اية صلاحية ، ويفقد كل شيء حيال الحاكم
الفرنسي (٤٣) . « فبدلا من ان يرتفع الفرنسيون فوق حزبياتنا الضيقة ، نزلوا
في مضمارها ، ولم يحالفهم التوفيق ، وظلت الادارة تتخبط في ذبول الخيبة » (٤٤) .

النفقات الباهظة للادارة العسكرية

تألفت القوى الفرنسية في المشرق من قناسة شمالي افريقيا وبعض فرق من
المستعمرات الفرنسية . ثم سارعت فرنسا الى تشكيل فرق عسكرية من السكان
المحليين . وكان تنظيم تلك القوات جميعا يتم طبقا للقوانين والأنظمة المعمول بها في
الجيش الفرنسي وفي المستعمرات الخاضعة لفرنسا . وبلغ عدد القوات اللبنانية
والسورية المساعدة في عام ١٩٢٤ ما مجموعه ٦٢٠٥ افراد منهم ٢٠٥ ضباط و ٦٠٠٠
جندي . ويتوزع الضباط على الوجه الآتي : ١٥٧ ضابطا فرنسيا او من مستعمرات
فرنسا و ٤٨ ضابطا محليا من سوريا ولبنان . ويتوزع الجنود بين ٦٤٦ من فرنسا
ومستعمراتها والباقي من سوريا ولبنان . وتتوزع هذه القوى المحلية الى ست كتائب
وأربع سرايا وفرقتي هجانة (ميهاريس) وفرقة هندسة (٤٥) . ونشير هنا الى ان
الجنرال غورو كان اول من حاول انشاء فرق محلية على اساس طائفي . فقد عمد
بالقرار رقم ١٣٤ الصادر في ١٣ نيسان ١٩٢٠ — أي قبل معركة ميسلون بفترة
وجيزة — الى تشكيل فيلق سماه بالفيلق الدرزي (٤٦) . وبعد انتصار الفرنسيين في
ميسلون ، سارع غورو الى الغاء هذا الفيلق بالقرار ٣١٣ الصادر في ٢٧ آب ١٩٢٠ .

وفي عام ١٩٢٥ ، انشئت في سوريا ولبنان قوات لحفظ الامن سميت بالقوات
التابعة وذلك خصيصا لمجابهة تطورات الثورة السورية الكبرى . وقد تشكلت تلك
القوات من الفقراء الأرمن والجاليات الشركسية . وفي هذا دلالة واضحة على نوع
السياسة العسكرية الفرنسية التي كان يلجأ لها المفوضون السامون اثناء الثورات
الوطنية ، وذلك بدفع بعض القوميات العنصرية او الطوائف الدينية الى الاقتتال فيما
بينها . وبلغ تعداد القوات المساعدة حوالي ٧ آلاف رجل يتراأسهم ٧٠ ضابطا من

(٤٣) — A. Sfeir « Le mandat français » — P. 49-50.

(٤٤) ويؤكد الدكتور عبد الله اليافي ، رئيس وزراء أيام الانتداب « ان مستشارا فرنسيا كان له
من السلطة التنفيذية في ذلك الحين اضعاف ما كان لرئيس وزراء لبناني » . مقابلة شخصية .

(٤٥) بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول — ص ١١٤ .

(٤٦) التقرير السنوي لعام ١٩٢٥ — ص ٤٨ .

(٤٦) يقول بشاره الخوري في مذكراته ان الجنرال غورو ألف حرسا وطنيا لمواكبته على الخيول العربية
في نقله في اسواق مدينة بيروت « وقد فرض ان يكون جميع افراد الحرس من جبل الدروز »
— حقائق لبنانية — الجزء الاول — ص ٩٩ .

فرنسا ومستعمراتها في عام ١٩٢٧ (٤٧) بينما كانت القوات التابعة في انخفاض مستمر اثر القضاء على الثورة السورية وانحصر تعدادها بحوالي ٢٢ فصيلا صغيرا منها .

لقد وضعت جميع الفرق العسكرية الفرنسية ، والفرق المساعدة والتابعة المحلية ، تحت امرة المندوب السامي الفرنسي مباشرة ، باعتباره القائد العام للقوى الفرنسية في الشرق ، والمسؤول المباشر عن تحركات تلك القوى العسكرية واعمالها . وتضاف الى تلك القوى الاساسية ايضا فرق الضابطة اللبانية التي نظمتها دولة لبنان الكبير والدويلات السورية منذ عام ١٩٢٠ (٤٨) والتي اشرف على قيادتها وتدريبها وتسليحها قادة فرنسيون . وفي عام ١٩٢٣ بلغ تعداد تلك القوات ٤٧ ضابطا و ١٣٨٥ جنديا ، واطلق عليها اسم القناصة اللبنانية (٤٩) . وارتفع تعدادها عام ١٩٢٨ الى ٥٠ ضابطا و ٦١٧ خيالا و ٧٠٥ من المشاة (٥٠) .

اول ملاحظة تجدر الاشارة اليها في هذا المجال ان المرحلة الاولى من الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان قد اتسمت بالصيغة العسكرية الصرف مما جعل الادارة فيها باهظة النفقات والتكاليف التي كانت جميعها ، باديء الامر ، على حساب ميزانية وزارة الحرب الفرنسية ، والتي كانت تتحمل منفردة ، وحتى عام ١٩٢٤ ، كامل نفقات القوات العسكرية والقوى التابعة لها في داخل فرنسا وخارجها مما ارهق الخزانة الفرنسية . وارتفعت العديد من اصوات السياسيين في باريس تطالب بضرورة تحميل الدويلات الخاضعة للانتداب اعباء كبيرة من نفقات الجيوش المحلية والفرق الفرنسية بحجة ان هذه الفرق جاءت «لحماية هذه الدويلات من كل اعتداء» . وقد توزعت النفقات التي تحملتها فرنسا في سوريا ولبنان قبل الثورة

السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ، وذلك حسب تقرير الكونت دو فيلس De Fels على الوجه التالي (٥١)

— R. O'Zoux « Etats du Levant » — P. 214.

(٤٧)

(٤٨) تشكلت فرق الضابطة اللبانية بموجب القرار ٣٥٧ تاريخ ٢٠ ايلول ١٩٢٠ . وجاء في المادة الاولى من هذا القرار الذي اصدره الجنرال غورو « ان فرق الضابطة الوطنية في اراضي لبنان الكبير واراضي العلويين وسنجد الاسكندرون هي مستقلة عن بعضها البعض » . عن النشرة الرسمية في المفوضية العليا ١٩٢٠ - ١٩٢١ - القسم الثاني - ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤٩) انشأها الجنرال ويفان بموجب القرار ٦٨٢٤ تاريخ ٢٣ آذار ١٩٢٣ - راجع الجريدة الرسمية - العدد ١٦٤٧ تاريخ ١٩٢٣/٣/٢٧ للتفصيل في هذا المجال راجع مسعود ضاهر - الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي - ص ١٥٤ - ١٦٩ .

والتقرير السنوي لعام ١٩٢٤ - ص ١٦ .

— R. O'Zoux « Etats du Levant » — P. 213.

(٥٠)

— Comte de Fels — Revue de Paris — Article « Le Mandat Syrien » — du 1er Novembre 1926 — P. 182.

(٥١)

— Voir aussi Dariot « La Syrie aux Syriens » — P. 19.

التكاليف بملايين الفرنكات الفرنسية	العام
١١٨	١٩١٩
٥٦٠	١٩٢٠
٧٤٨	١٩٢١
٣٦٣	١٩٢٢
٢١٨	١٩٢٣
٢١٠	١٩٢٤
٣٧٨	١٩٢٥

اي ان المبالغ التي صرفت خلال سبعة اعوام بلغت مليارين و ٥٩٥ مليون فرنك ثم ارتفع الرقم الى ٤ مليارات فرنك بعد اندلاع الثورة السورية . يضاف الى ذلك ان النفقات للادارة المدنية قد قدرت خلال اعوام ١٩١٩ حتى ١٩٢٣ بحوالي ٣٦٥ مليون فرنك فرنسي موزعة ابتداء من عام ١٩١٩ كالآتي : ٥٠ مليون فرنك ثم ١٨٥ ، ١٢٠ ، ٥٠ ، ١٠ ملايين من الفرنكات الفرنسية (٥٢) .

اما موريس ديجاردان فيذكر ارقاما قريبة من الاولى ومطابقة لها في النفقات المدنية ومكملة لسنوات ما بعد ١٩٢٣ . وتتوزع ارقام النفقات حسب احصائيات ديجاردان هذا كما يلي : (٥٣)

النفقات بملايين الفرنكات		العام
الادارة المدنية	الادارة العسكرية	
٥٠	٧٨	١٩١٩
١٨٥	٥٦٤	١٩٢٠
١٢٠	٧٤٠	١٩٢١
٥٠	٤٠٠	١٩٢٢
١٠	٢١٨	١٩٢٣
٩	٢١١	١٩٢٤
٨	١٩٥	١٩٢٥
٨	٣٨٥	١٩٢٦
٤٤٠	٢٠٧٩١	المجموع

(٥٢) — الكونت دوفيلس — المصدر السابق ص ١٨٢ — راجع ايضا .

— E. Jung « La Révolte Arabe » — P. 137.

اما V. de Saint-Point فترفع الرقم الى ١٢ مليار فرنك فرنسي خلال ستة اعوام فقط وتقول بان الرقم قد قدم الى البرلمان الفرنسي بالذات في عام ١٩٢٨ .

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 4.

اما بوكاتوفسكي ، مقرر اللجنة المالية في مجلس النواب الفرنسي فيرى « ان فرنسا صرفت في سوريا ولبنان حتى عام ١٩٢٤ مليارين و ٤٣١ مليون فرنك » .

— Chambre des Députés — Session de 13 Juin 1924.

(٥٣) — Maurice Desjardins « Le problème syrien au point de vue économique » — P. 155. Voir aussi E. Jung « La Révolte Arabe » — P. 137.

اي ما يعادل ٣ مليارات و ٢٣١ مليوناً من الفرنكات الفرنسية للادارتين المدنية والعسكرية في سوريا ولبنان . وفي اعتقادنا ان ارقام ديجاردان هي دون الحقيقة في تقدير النفقات الفرنسية، المدنية منها والعسكرية ، خاصة لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . فالجيش الفرنسي ، الذي انقص تعداده تدريجياً بأعداد كبيرة بعد معركة ميسلون ، والذي بلغ عدد أفرادها في سوريا ولبنان ١٣٠٧٢٥ جندياً و ٦٧٢ ضابطاً فقط ، قبيل قصف مدينة دمشق ، عاد فعززه الفرنسيون بأعداد كبيرة جداً اثر الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) بحيث ارتفع تعداده الى ٣٠ ألفاً من الجنود والضباط ، يضاف اليهم رجال القوات اللبنانية والسورية ، المساعدة والثابتة ، والتي وصلت عام ١٩٢٥ الى ٦٧٠٠ (٥٤) ضابطاً وجندياً .

اما عدد القتلى من الجنود الفرنسيين وجنود المستعمرات خلال اعوام ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ فقد قدرت بحوالي ٦٩٦٠ (٥٥) قتيلاً . وهو عدد ضخم جداً نظراً للدعاية الفرنسية التي سبقت ورافقت اعلان الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، والسهولة المنتظرة لتطبيق ذلك الانتداب . وكانت النفقات الباهظة والعدد الكبير للقتلى دافعا قويا لاستنكار السياسة الفرنسية بالذات ضد الاساليب البشعة التي تطبقها الادارة الفرنسية في هذين البلدين . مما حمل ريمون بوانكاريه على انتقاد هذه الادارة ومهاجمتها في تصريح له لمجلة « العالمين » الواسعة الانتشار فقال : « على جميع المخلصين منا ، والذين يطمنون صادقين بقاء النفوذ الفرنسي ، لا في لبنان الكبير وحده ، بل في سوريا برمتها ، ان يبذلوا كل ما في وسعهم للحيلولة دون استمرار هذه الاساليب الادارية السيئة التي تسحق ميزانيتنا وتقلق الراي العام الفرنسي ، وتثبط من عزيمته فرنسا في اولى مساعيها السياسية في الشرق » (٥٦) .

اما زعيم الكتلة الشيوعية الفرنسية في البرلمان آنذاك ، دوريو (٥٧) ، فكان اكثر حدة في هجومه على السياسة الفرنسية المتبعة في سوريا ولبنان . وقد اتهم صراحة تواطؤ رجال المصارف ورجال النفط انهم هم بالذات وراء المجازر التي ترتكب في هذين

(٥٤) الكونت دونيلس — المصدر السابق ص ١٨٢ — وجونغ « الثورة العربية » — ص ١٢٧ .
(٥٥) دوريو « سوريا للسوريين » ص ١٩ . واضاف يقول « ٦٩٦٠ قتيلاً منذ ١٩٢٠ ايها المجرمون ، لقد تخلصتم من ٦٩٦٠ انساناً كان بإمكانكم تفادي القضاء عليهم لو لم تشدكم الى هناك مصالح

بعض رجال المصارف بينكم » — ص ١٩ .
(٥٦) بعض رجال المصارف بينكم « — Jan- — Raymond Poincaré « Déclaration à la Revue des Deux Mondes » — P. 215. — vier 1921

(٥٧) لا بد من الاشارة في هذا المجال الى ان دوريو قد انقلب ضد سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي في اواخر الثلاثينات وانشأ تنظيمها فاشياً في الحرب العالمية الثانية وتعاون مباشرة مع جيش الاحتلال النازي في فرنسا . ثم قام بتشكيل فرقة عسكرية تطوعت للحرب ضد الاتحاد السوفياتي . وكانت نهاية دوريو على ايدي اعضاء في الحزب الشيوعي الفرنسي بالذات . ومهما كان من امر دوريو ، فبهيمن ان تؤكد هنا على ان خطابه التاريخي هذا كان باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي . وقد لعب هذا الحزب دوراً هاماً في فضح السياسة الاستعمارية في سوريا ولبنان وازر الحركة الوطنية العربية ودعم نضال الثورة في السريف المراكشي التي قادها عبد الكريم الخطابي ، وشكل لجان الدفاع عن المضطهدين السياسيين العرب في سجون الاستعمار الفرنسي ، وارسل المحامين للدفاع عن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني التي اعتقلت في اوائل ١٩٢٦ .

البلدين باسم الشعب الفرنسي . وقد فضح تلك السياسة في خطاب عنيف في البرلمان الفرنسي وزعته جريدة « الاومانيتيه » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الفرنسي على عشرة آلاف نسخة بين جماهير الشعب الفرنسي . وقد جاء في خطابه ذلك : « نحن في سوريا ، ايها السادة ، للدفاع عن اربع او خمس مجموعات مالية فرنسية فقط . واننا نتساءل ان كان دم شبابنا وعمالنا وفلاحينا لا يهرق دفاعاً عن مصالح رجال النفط منكم . ان عمال وفلاحينا فرنسا يقفون دوماً ، وبجزم ، الى جانب الاستقلال الكامل لسوريا ولبنان وجميع الشعوب التي ادخلتموها تحت استعماركم » (٥٨)

الملاحظة الثانية في هذا الباب ، ان دولة لبنان الكبير ، والدويلات السورية ذات الحكم الذاتي ، كانت لا تشارك مباشرة في الفترة الاولى في نفقات الادارة العسكرية . وعندما انشئت القوات الاضافية المحلية او الميليشيا ، بدأ اشتراك تلك الدويلات منذ ١٩٢٣ بأرقام ضئيلة جداً اذا ما قورنت بالنفقات الضخمة التي اوردناها سابقاً . ويقدر ديجاردان ان تلك الدويلات ولبنان الكبير ، لم يشاركوا سوى بثلاثة ملايين فرنك من تلك النفقات في كل من عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ وبمبلغ ٧٠٣٣٧٠٦٩٠ مليوناً عام ١٩٢٥ . اما في عام ١٩٢٦ فقد قدر اشتراك تلك الدويلات بحوالي ٨٠٥٩٧٠٤٤٠ (٥٩) مليوناً من الفرنكات ، في حين ان النفقات للقوات الخاصة في سوريا ولبنان لوحدها قد قدرت خلال عام ١٩٢٦ فقط بمبلغ ٤٠ مليون فرنك فرنسي ، وكان على الخزنة الفرنسية ان تتحمل باقي تلك النفقات ، لجنودها ، وجنود مستعمراتها ، والجنود المحليين التابعين لها ايضاً . لذلك سارعت الادارة الفرنسية ، لتلافي النقمة التي انفجرت في وجهها داخل فرنسا بالذات ، الى تحميل دولة لبنان الكبير ودويلات سوريا مبلغ ٩٥ (٦٠) مليون فرنك عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ كنفقات احتلال . فضلاً عن ذلك ، فقد جعلت نفقات القوات التابعة والدرك والشرطة على عاتق كل دولة تابعة لها دون ان تحسب تلك النفقات مسبقاً في الميزانية العامة للبنان الكبير او الدويلات السورية . اما ريمون اوزو O'Zoux فيقدر تكاليف فرنسا في هذا المجال بحوالي ٢٣٣ مليوناً لعام ١٩٢٦ مقابل ١٠ ملايين فرنك دفعتها الدويلات المحلية وبحوالي ٢٨٩ مليوناً لعام ١٩٢٧ مقابل ٩٣ مليوناً على عاتق سوريا ولبنان (٦١) . ومهما كان من امر اختلاف هذه التقديرات فمما لا شك فيه ان ادارة الانتداب بدأت تميل الى تحميل الدويلات المحلية أجزاء كبيرة من نفقات تلك الادارة العسكرية الباهظة .

ملاحظة أساسية في هذا المجال ، هل يصح القول ان ميزانية الحكومة الفرنسية ، وتعبير أدق ، ميزانية وزارة الحرب فيها ، هي التي كانت تتحمل كامل نفقات الادارة العسكرية في سوريا ولبنان ؟ في الواقع ان مثل هذا القول مجانب للحقيقة . فمن

(٥٨) دوريو — سوريا للسوريين — ص ٢٨ .

(٥٩) ديجاردان — المصدر السابق — ص ١٥٥ — وجونغ « الثورة العربية » — ص ١٢٧ .
وقد اعطى الدكتور ادمون رباط ارقاماً مماثلة اذ قدر مشاركة تلك الدويلات على التوالي بثلاثة ملايين فرنك عن عام ١٩٢٤ وبمبلغ ٧٦٥ مليون عام ١٩٢٥ وبمشرة ملايين عام ١٩٢٦ .

— Rabbath — « L'évolution politique de la Syrie » — P. 28.

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 53.

— O'Zoux « Etats du Levant » — P. 215.

المؤكد ان تلك الميزانية قد تحملت نفقات باهظة من جراء مساوئ تلك الادارة ، غير ان عائدات الجمارك في هذين البلدين ، والتي أنيطت ادارتها مباشرة بالمندوب السامي الفرنسي دون غيره ، قد خصصت لسد نفقات جيش المشرق من جهة ، ولسد حصص سوريا ولبنان من الدين العمومي العثماني من جهة اخرى . واذا لاحظنا ان الإيرادات الجمركية قد قدرت خلال الاعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٧ بحوالي ٦٢٤٠٦٩ مليوناً من الفرنكات موزعة كالتالي (١٢) :

العام	الواردات بملايين الفرنكات
١٩٢٤	١٠٠
١٩٢٥	١٢٠
١٩٢٦	١٨٢
١٩٢٧	٢٢٢٠٦٩

لتبين لنا ان هذه الواردات كانت تسد جانباً كبيراً من النفقات العسكرية للادارة الفرنسية في سوريا ولبنان .

بعض اساليب الادارة العسكرية الفرنسية في سوريا ولبنان

لقد سيطر القادة العسكريون الفرنسيون على ادارة هذين البلدين طيلة الفترة الانتدابية الاولى التي سبقت اعلان الجمهورية في لبنان ، ثم في سوريا في ظل الانتداب . وحتى تعيين الكونت هنري دو جوفنيل ، كمفوض سام لفرنسا في هذه المنطقة اثر اندلاع الثورة السورية الكبرى وقصف مدينة دمشق بالمدفعية والطائرات بأمر من الجنرال ساراي ، تعاقب على حكم ادارة بيروت ثلاثة قادة فرنسيين اولهم الجنرال غورو ثم الجنرال ويفان فالجنرال ساراي الذي عينه في منصبه هذا الكارتل اليساري المتحد الذي حكم فرنسا بعد انتخابات ايار ١٩٢٤ . وكان المندوب السامي العسكري يعتبر في الوقت ذاته قائداً عاماً لجيش المشرق الفرنسي . على ان تعيين اول مدني في منصب المندوب السامي بعد هؤلاء العسكريين الثلاثة ، قد اتاح اسناد قيادة القوات العسكرية الى ضابط فرنسي ، هو الجنرال غاملان ، الذي تمتع طيلة حكم هنري دو جوفنيل بمنصب القائد الاعلى لقوات المشرق .

لقد كانت اساليب هؤلاء القادة الثلاثة متشابهة تماماً طيلة الفترات التي امضوها

(١٢) — Omar Djabry « La Syrie sous le régime du Mandat » — P. 134.

ونضيف ايضاً ان العائدات الجمركية لسنة ١٩٢٢ قدرت بحوالي ٦٢٠٧ مليون فرنك من ميزانية لبنان الكبير البالغة ٧٤٠١ مليوناً لهذا العام ، وان ايراد الجمارك يعتمد كلياً على مرفأ بيروت بشكل خاص .

من التقرير السنوي لعام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ — ص ٤٧ .
— Voir aussi H. C. « La Syrie et le Liban, 1919-1927 » — P. 66.

في سوريا ولبنان . فعلى اثر انتصاره في ميسلون ، فرض الجنرال غورو على دمشق وحدها غرامة حرية بلغت ، بعد التخفيض ، ٩٩٠٠٠٠ ديناراً ذهبياً . وذلك في ١٦ آب ١٩٢٠ (١٣) .

وفي ٢٢ حزيران ١٩٢١ ، جرت محاولة في القنيطرة لاغتيال الجنرال غورو حيث لقي الضابط المرافق له ، الكابتن مورنه Mornet ، مصرعه . ولمعاقبة « الجناة » أمر الجنرال غورو بعمليات انتقامية واسعة النطاق ، اذاع في نهايتها البلاغ العسكري التالي :

« ان فواحي جباله الخشب ، وجنفة ، وترنك ، ومهجر ، وشيخان ، التي آوت مجرمي القنيطرة وضلعت بذلك في الجريمة ، قد دمرت بأمر من الجنرال غورو ، المندوب السامي » (١٤) . وجرت أعمال مماثلة في الشوف حيث أحرقت قرية « مزرعة الشوف » . وهناك بعض الحوادث المسجلة في البرلمان الفرنسي والتي هي وثائق ثابتة تعود تواريخها لفترة حكم الجنرال ويفان ، وبوجه التخصيص لحكم الكابتن كلوبيه Carbillet (١٩٢٣ - ١٩٢٥) الذي عاصر ويفان ثم ساراي في ادارة الانتداب في بيروت والذي كانت أعماله اللاأخلاقية دافعا هاما من دوافع ثورة الجبل ضد الحكم الفرنسي وامتداد الثورة الى باقي أنحاء سوريا وبعض المناطق اللبنانية . نورد من تلك الحوادث الوثائقية بعض الامثلة . « أجبر رجل على النوم خلال عدة اسابيع لأنه لم يؤد التحية للعريف بونشيل . رجل آخر ضرب ضرباً مبرحاً لأنه رفض اخلاء غرفته الوحيدة لبعض أفراد الجيش وظل شهراً كاملاً طريح الفراش وهدمت غرفته . لقد فرض الضابط موريل ، وهو الساعد الايمن لكارييه حاكم الجبل ، عشر ليرات ذهبية على مدينة السويداء . والسبب في ذلك ان هوته قد غادرت المنزل دون ان تعود اليه . مثل آخر ان ضابطاً فرنسياً وجد ديكاً له ميتاً ففرض على مركز القضاء مبلغ خمسين ليرة ذهبية . حادثة اخرى رويت عن الضابط موريل الذي سجن رجلاً من الجبل في قبو طيلة خمسة ايام دون طعام في الوقت الذي كان يجبره فيه على تناول ماء قدر وذلك بقصد انتزاع شهادة زور منه » (١٥) الخ

ومن المفيد ان ننوه هنا ان النقد المحلي الذهبي كان قد استبدل في سوريا ولبنان بالفرنك الفرنسي الورق ، وبالرغم من ذلك كانت تلك العقوبات تفرض بالليرات الذهبية مما كان يضطر النساء الى بيع حلاهن ومجوهراتهن لانقاذ عموم سكان البلدة . وقد لعبت هذه العقوبات دوراً بارزاً في تفريغ المناطق السورية واللبنانية من آخر مدخراتها الذهبية .

(١٣) جريدة الحقيقة البيروتية — السنة الثالثة عشرة — العدد ١٢٣٤ — في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٠ .
(١٤) — André Berthon — Chambre des Députés — Documents — Séance du 21 octobre 1921.

(١٥) — André Berthon — Chambre des Députés — Documents — Séance du 20 décembre 1925.

للاستزادة من الاطلاع على مساوئ الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان راجع كتاب هنا خباز « فرنسا وسوريا ، خطيئات الموظفين الفرنسيين » — مطبعة المتكطف والقلم — القاهرة ١٩٢٩ . كذلك منير الرئيس « الكتاب الذهبي » ص ١٥٣ .

من وجه العدالة ، أو ان أحد الأشقياء قد مر بتلك القرية ، كانت تفرض غرامات تتراوح بين ١٠٠ ليرة ذهبية و ١٥٠٠ (٦١) ليرة ذهبية . ويكفي هنا ان نذكر ما قاله السيد اوهري في مناقشات البرلمان الفرنسي عام ١٩٢٥ : « يؤخذ من المرسوم الخاص بمنح المداينة التذكارية لسوريا وكيليكيا ، انه لم يقع في عام ١٩٢٢ أقل من ٣٥ عملية حربية . وفي عام ١٩٢٣ جرت ٤٧ عملية او معركة عسكرية . وفي عام ١٩٢٤ اضطر الجنرال ويقان الى القيام بعمليات عسكرية مستمرة طيلة هذا العام (٦٧) معنى هذا ان تلك العمليات العسكرية كانت توجد دوما « متمردين جددا » و « فارين من وجه العدالة » يتكاثرون باستمرار . بمعنى آخر ان العقوبات الشديدة كانت تزداد بكثرة على القرى التي « تأوي » أولئك الفارين « او يمرون بقربها » .

لقد أوصى اندريه بارتون مجلس النواب الفرنسي قائلا : « انني اطلبكم بالا تستبقوا في سوريا ولبنان رجالا عسكريين لأن أساليبهم هي أساليب حرب . . . لقد أطلقوا طوابير الاحتلال والقمع . . . لقد أحرقوا قرى بكاملها واعتبروا وجهاء قرى عديدة مسؤولين عن أعمال لم يرتكبوها . . . لقد فرضوا غرامات باهظة جدا على عدد كبير من القرى . . . ان هذه الأساليب ، كما ترون ، ليست مدعية فخر واعتزاز لنا على الإطلاق . . . » (٦٨)

على ان تعيين السيد هنري دو جوفنيل كمفوض سبام مدني لفرنسا في سوريا ولبنان ، لم يغير من نمط الأساليب الانتدابية فيهما . فقد أوضح السيد دو جوفنيل ، فور وصوله الى بيروت ، الخطة التي سيتمشى عليها في ادارة الانتداب ، وذلك اثناء العرض العسكري الذي جرى في كانون الاول ١٩٢٥ في بيروت بمناسبة تسليم الجنرال غاملان صليب الحرب وقيادة الجيش الفرنسي في الشرق . يقول دو جوفنيل « لكم كنا نفضل السلام على الانتصار ! غير اننا الآن نرغم على انتزاع الانتصار العسكري بالهجوم والنهب والتقتيل . لذلك ، فأنا أشدد على ضرورة متابعتكم لهذه الأساليب الى اليوم الذي تؤمن فيه سلامة الأشخاص والممتلكات » (٦٩) . تلك هي توصيات المندوب السامي « المدني » للجنود المحتلين في سوريا ولبنان . وبعد كل هذا ، يصف الكتاب الفرنسيون أساليب الحكم التركي في سوريا ولبنان بأنها كانت أساليب وحشية ، فهل كانت أساليب ادارة الانتداب الفرنسي بأقل ما نعتوا به ادارة تركيا في هذين البلدين ؟ « لقد تغيرت أسماء الجنرالات الفرنسيين خلال المرحلة الانتدابية لكن طريقتهم البربرية لم تتغير » (٧٠) .

(٦١) — A. Berthon — Journal officiel des Députés — No. 14 — Février 1925 — P. 463.
(٦٧) — M. Uhry « Chambre des Députés — Débats — Séance du 19 décembre 1925.
(٦٨) — A. Berthon — Op. Cit. — P. 463.
(٦٩) — Doriot — Chambre des Députés — Débats — Séance du 20 décembre 1925.
(٧٠) — V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 27.

سياسة التمييز العنصري في الاجور بين عمال وموظفي الادارة الواحدة

نص البند الاول من صك الانتداب على سوريا ولبنان صراحة على ان من واجب السلطة ان تعد نظاما أساسيا لاشراك الوطنيين في ادارة بلادهم ، وذلك خلال موعد أقصاه ثلاث سنوات من بدء تطبيق الانتداب على هذين البلدين . غير ان الادارة العسكرية كانت تعمل لاحتلال طويل الأمد . فلم يظهر في الادارة اللبنانية سوى بعض كبار الموظفين من خريجي كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف ، وبعض القضاة والمحامين ، وعدد كبير من صفار الموظفين والحجاب . ولا شك ان تلامذة اليسوعيين قصد أشبعوا بعض حاجات الادارة الانتدابية الى كوادر الموظفين . ويؤكد اسكندر رياشي : « ان تسعين بالمائة من السكرتيرية تلامذة الجزويت والعاذاريين ومدارس القريز . وقد ساعد الرهبان الفرنسيون هؤلاء في توظيفهم في مكاتب الحكام والمستشارين عندما كانوا - اي الرهبان - أصحاب الكلمة النافذة عند مواطنيهم المحتلين . . . » (٧١)

اما التنظيم الاداري على مستوى صفار الموظفين هؤلاء ، الذين شملتهم « عناية » الانتداب والجزويت ، فقد حمل في طياته اسلوا استعماري واضحا . فعلى الصعيد العسكري ، كانت التعويضات السكنية والعائلية لا تمنح الا لافراد القوى العسكرية الفرنسية دون سواهم . اما الضباط اللبنانيون فكانوا يوضعون تحت امرة من هم اقل منهم رتبة من الفرنسيين ، واستمر الوضع حتى عام ١٩٢٣ . وكان على المقدم اللبناني ان يؤدي التحية العسكرية للملازم الفرنسي الادنى منه رتبة . واذا لم يفعل ذلك ، كان يتعرض للاهانة امام جنوده بالذات . وهذا ما اثار احتجاجا شديدا في صفوف اللبنانيين مما دفع المجلس اللبناني العتيد الى اقتراح تمييز الضباط الفرنسيين باللباس عن زملائه من اللبنانيين (٧٢) .

اما القرار ١٢٣٣ الصادر في ٦ شباط ١٩٢٢ فكان اسوأ من سابقه بكثير ، وحمل تمييزا عنصريا واضحا بين العمال الذين يؤدون العمل نفسه . فقد اعتبرت اجور الميكانيكيين والعمال وسائقي السيارات على النحو التالي :

راتب المستخدمين الفرنسيين	راتب المستخدمين اللبنانيين والسوريين
الدرجة الاولى ٥٠٠ فرنك فرنسي شهريا	٣٠٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الثانية ٥٥٠ فرنك فرنسي شهريا	٣٥٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الثالثة ٦٠٠ فرنك فرنسي شهريا	٤٠٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الرابعة ٩٠٠ فرنك فرنسي شهريا	٧٠٠ فرنك فرنسي شهريا (٧٣)

اختلاف ايضا في أجر ساعات العمل الاضافية . فكان الميكانيكيون والعمال

(٧١) اسكندر رياشي « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ١٥ .
(٧٢) راجع القرار رقم ١٩٦٠ الصادر في ١٩٢٣/٥/٢٥ . واقتراح النائب عبد الله ابو خاسطر المنشور في الجريدة الرسمية للبنان الكبير - ملحق بالعدد ١٧٠٨ الصادر في ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٣ .
(٧٣) — Haut-Commissariat — « Recueils des Actes administratifs », volume 3 — P. 38.

الفرنسيون يتقاضون خمس فرنكات فرنسية عن كل ساعة عمل مقابل ثلاثة فرنكات فقط للميكانيكي اللبناني (٧٤) . وأجر العمل الليلي يختلف أيضا بين العامل الفرنسي والعامل اللبناني أو السوري فكان العامل الفرنسي يتقاضى رسماً مرة ونصف المرة أكثر من أجر العامل اللبناني أو السوري . كذلك اختلفت الأجور اليومية لسائقي السيارات الرسمية فكان الفرنسي يتقاضى خمسة فرنكات يومياً عن عمل يتقاضى عنه اللبناني أو السوري ثلاثة فرنكات فقط .

وطبقاً للقرار رقم ١٢٦٧ الصادر في ٢٠ شباط ١٩٢٢ تحددت أجور الموظفين في المرافق السورية ولبنان الكبير . فكان القبطان يتقاضى ستة آلاف قرش سوري - لبناني شهرياً في مرفأ بيروت مقابل ألفي قرش لمثله في مرفأ صور وطرابلس وألفي ومئة قرش لمثله في مرفأ اللاذقية وألف وسبعماية قرش في مرفأ الإسكندرون . أما الموظف الذي يقوم بأعباء ضابط مرفأ في جونية فكان يتقاضى ألفاً وسبعماية قرش لبناني - سوري شهرياً مقابل أربعماية قرش لزميله في جبيل أو البترون . وفي حين الكاتب في مرفأ بيروت معاشاً شهرياً قدره ١٢٠٠ قرشاً ، كان مثله في طرابلس يتقاضى ألف قرش فقط . والبحار الذي كان يبلغ أجره الشهري ألف قرش شهرياً ، لم يكن مثله في مرفأ طرابلس يتألف أكثر من خمسماية قرش شهرياً فقط (٧٥) الخ .

وفي فترة حكم الجنرال ساراي كان معاش مندوب المفوضية العليا في بيروت لدى الحكومة اللبنانية يبلغ ٣٦ ألف فرنك سنوياً في حين ارتفع في دولة سوريا إلى ٥٠ ألف فرنك مقابل ٢٠ ألفاً في دولة العلويين لنفس المنصب (٧٦) .

إن أية قوانين تحدد الأجور وسلم الرواتب حسب مقاييس واضحة ، لم يكن لها وجود فعلي في تلك الفترة الانتدابية الأولى . بل كانت المعاشات والتعويضات تقوم أساساً حسب رغبة المندوبين والمستشارين الفرنسيين وتوصياتهم . فلم يكن هناك أجر متساوٍ لعمل متساوٍ بل كان الفرق كبيراً بين أجور العمال الفرنسيين من جهة ، وأجور العمال السوريين واللبنانيين من جهة أخرى . ليس هذا فحسب ، بل كان الفرق كبيراً أيضاً بين عاملين فرنسيين يعمل أحدهما في بيروت والآخر خارجها ، إذا قاما بالعمل نفسه . كذلك كانت الحال بالنسبة للتعويضات الأخرى المترتبة عن الأعمال الإضافية أو الليلية (٧٧) .

(٧٤) راجع البنود ١٣ و ١٤ و ١٥ من القرار ١٢٣٣ .
(٧٥) للتوسع في أجور وتعويضات الموظفين والعسكريين ، الفرنسيين أو اللبنانيين والسوريين ، راجع : مسعود ضاهر - « الإدارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي » دبلوم دراسات عليا - ص ١٤٧ - ١٥١ و ١٦٦ - ١٦٧ .

(٧٦) الحارس في السنة الثانية - العدد ١٣ - ١٤ الصادر في ١٥ آذار ١٩٢٥ - ص ٦٥٩ .
(٧٧) يعترف السيد جميل أبو خاطر ، أحد أكثر الموالين صراحة لإدارة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان ، في أطروحته التي تقدم بها لجامعة باريس ١٩٢٤ عن وضع الأجانب في هذين البلدين فيقول : « إن وضع الأجانب لا زال يتميز كثيراً عن وضع السوريين واللبنانيين لكنه أبعد من أن يذكر بالتفاوت الذي كان سائداً في الماضي » .
J. Abou Khater « La condition des étrangers en Syrie et au Liban » - Thèse - P. 157.

فلاستخدام المزدوج لموظفين فرنسيين ولبنانيين أو سوريين داخل الإدارة الانتدابية لم يخف في الواقع تفضيل الموظفين الفرنسيين وتشجيع التمييز العنصري بين عمال يؤمنون بعمل واحد . تلك كانت سياسة فرنسا المنتدبة في سوريا ولبنان الكبير في هذه الفترة العسكرية الأولى من انتدابها .

إن أشد الموالين لسياسة الانتداب الفرنسي في هذين البلدين ، لم يستطع إخفاء هذه الحقيقة المرة . أما « رقابة » عصبة الأمم فكانت رقابة شكلية ، إذ لم يكن بوسع اللبنانيين استماع شكواهم إليها إلا عن طريق التسلسل الإداري أي مروراً بالمفوض السامي الفرنسي بالذات الذي « سجن لبنان الكبير وسوريا في زنايات ضيقة تولى شخصياً حراستها ، حراسة مشددة » (٧٨) ، على حد تعبير دوريو .

ضياع أراض لبنانية في الحولة

« نحن لم نلت إلى الشرق لا لضم أراض لبنان أو مقاطعات ولا لفرض حمايتنا عليه بل لتطبيق اتفاقية فرساي التي ألقتها عصبة الأمم على عاتقنا » وقبول الانتداب لا يفرض أية تنازلات فيما يتعلق بسيادة لبنان التامة ووحدة أراضيه (٧٩) .

في الواقع ، لم يلق هذا التصريح الذي أدلى به بواتكاريه إلى « مجلة العالمين » أدناً صاغية من الجنرال وغان وإدارته في بيروت . فوعده المحافظة على حدود البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي لم ينفذ عملياً بل اقتطعت أراض لبنانية من سهل الحولة وضمت إلى الانتداب البريطاني على فلسطين كما سيقطع لواء الإسكندرون ويضم إلى تركيا بمباركة الانتداب الفرنسي بالذات .

ومنطقة الحولة ، كانت تتبع بأغلبية أراضيها آنذاك لقائمقامية مرجعيون حتى عام ١٩٢٣ . وهذا السهل ، أو « جورة الذهب » كما يسميه أهالي تلك المنطقة ، عبارة عن أراض زراعية خصبة لكن المياه والمستنقعات كانت تغطي الجزء الأكبر منها . وكان آل سلام يملكون قسماً هاماً من تلك المنطقة حتى بعد حلول الانتداب البريطاني عليها بزمان طويل . وتبلغ مساحة سهل الحولة ٢٥٠ ألف دونم منها مئة ألف دونم أراض جبلية كانت تمتلكها إدارتنا الانتداب الفرنسي والبريطاني على أساس أنها أملاك عامة أو « دومين » . أما مساحة البحيرة فتقدر بحوالي ٥٠ ألف دونم (٨٠) . والقسم الباقي ، أي مئة ألف دونم تقريباً كانت من الأراضي الخصبة الوافرة الإنتاج .

وبموجب اتفاق ٢٣ حزيران ١٩٢٣ ، الذي دعي باتفاق « حسن الجوار » والذي تمينت بموجبه الحدود بين فلسطين ، من ناحية ، وسوريا ولبنان الكبير ، من ناحية

(٧٨) — Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 11.

(٧٩) — Raymond Poincaré — Déclaration à la Revue des Deux Mondes — Cité par Najib Dahdah « Evolution historique du Liban » — P. 245.

ونقرأ كذلك « أن انتدابنا على سوريا ولبنان لم يعطنا الحق في تغيير الحدود الجغرافية لشعب حر ، والتنازل عن أراض هي ملك له وحده » .

— Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 49.

(٨٠) الإحصائيات مأخوذة عن كتاب سلام الراسي « لتلا يضع » ص ٦١ و ٦٢ .

أخرى . وقد تنازلت فرنسا المنتدبة بموجب هذا الاتفاق عما يقارب كامل المنطقة اللبنانية من الحولة لصالح الانتداب البريطاني في فلسطين ، وبالتالي لصالح الحركة الصهيونية الناشطة هناك ، وذلك منذ مطلع ١٩٢٤ مقابل منح شركة فرنسية امتياز التحفيف لمناطق المستنقعات (٨١) . وقد أحرز دعاء الوطن القومي اليهودي مكسبا كبيرا لهم بدعم مباشر من الانتداب الفرنسي - انكليزي وانتقلت سبع عشرة قرية وأراضي لبنانية خصبة بين ليلة وضحاها ، فانبعث بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية . تلك القرى هي : المطلة ، النخيلة ، الصالحية ، الناعمة ، الخالصة ، الزوية ، المنصورة ، الدوق فوقاني ، الدوق التحتاني ، خان الدوير ، الدوارة ، الخصاص ، العباسية ، دفته ، الزازة ، هونين ، آبل القمح (٨٢) .

ويقول الضابط نعمان أبو شقرا ، الذي عاش تلك الفترة الانتدابية الأولى وكان مسؤولا عن الأمن في منطقة مرجعيون والحولة ، إلى جانب ضابط فرنسي ، بأن هذه المناطق والقرى كانت لبنانية بكاملها . وقد حملت تلك القرى الجنسية اللبنانية في الإحصاء العام لسنة ١٩٢١ (٨٣) . وأضاف يقول بأن الدولة الفرنسية المنتدبة ، والتي مثل هو بالذات سلطتها العسكرية في الحولة آنذاك ، كانت تجبي الضرائب سنويا من تلك المناطق .

وقد أعطاني الملازم أبو شقرا أسماء المخاير لتلك القرى قبل ترحيلهم عنها وهو لا زال يذكرهم جيدا ومنهم : كامل حسين اليوسف مختار الخالصة ، وخلف اليوسف مختار الدوق فوقاني ، وإسماعيل أبو خروب مختار الناعمة ، وكامل المحمد مختار الزازة ، ومحمود العازوز مختار الدوارة ، وجويد الحاج شحادة مختار القصاص ، وحسين بو عيد مختار المنصورة ، وعبدالله إبراهيم مختار آبل القمح ، وسعيد فرنسيس مختار دفنا (٨٤) . وفي هذا دلالة واضحة على صدق روايته خاصة وأن رجال الدرك كانوا يأتون لياليهم عند المخاير .

ويعطينا الأستاذ سلام الراسي في كتابه «لثلا تضييع» أرقاما ملموسة عن سندات «الظابو» أو الملكية آنذاك للبنانيين الذين ما زالوا يمتلكون أراض لهم في فلسطين المحتلة حتى الآن . وهذه الأرقام التي أوردها تتحدث فقط عن منطقة الحولة . والأستاذ راسي هو من سكان مرجعيون ، ويقول بأنه جمع معلوماته من أصحاب العلاقة بالذات . واستنادا إلى أرقام «لثلا تضييع» نعطي فكرة واضحة عن مساحة الأراضي اللبنانية التي فقدت بموجب اتفاقية حسن الجوار منذ ١٩٢٤ وهي موزعة كما يلي (٨٥) :

(٨١) نعمان أبو شقرا - مقابلة شخصية .

(٨٢) سلام الراسي - المصدر السابق ص ٦٢ .

(٨٣) يضيف الملازم أبو شقرا إلى القرى السابقة أسماء قرى جرى إحصاؤها هذا العام ومنها قرى : شوكه ، واقرت ، وجانوته ، ومسولة ، ودحرجة ، ومالكه ، وجردية ، وكفر برعم . وقام أهالي كفر برعم واقرت مؤخرا بمظاهرات صاخبة ضد السلطة الصهيونية في محاولة للرجوع إلى أراضيهم التي أجلوا عنها بالقوة .

(٨٤) نعمان أبو شقرا - مقابلة شخصية .

(٨٥) سلام الراسي - المصدر السابق - ص ٦٥ .

المساحة بالدونم القرية التي ينتسب إليها المالك

لـسـكـان مرجعيون	١٤٠٢٢١
لـسـكـان كفر كلا	٢٠٠٠٧
لـسـكـان دير ميماس	١٠٠٨٧
لـسـكـان حاصبيا	٤٠٤٤١
لـسـكـان القليعة	٢١٠
لـسـكـان الطيبة	٤١٩
لـسـكـان قرى متفرقة	٢٠٠

أن تلك القرى قد دمرت بكاملها وأقيمت على أراضيها مستوطنات صهيونية . أما سكانها فاستمروا يحملون جنسية «فيد الدرس» حتى عام النكبة ١٩٤٨ عندما اعتبروا لاجئين فلسطينيين كغيرهم ممن طردوا من داخل الأرض المحتلة ولم يحصل على الجنسية اللبنانية سوى سكان قرى هونين وآبل القمح .

فشل الإدارة العسكرية في سوريا ولبنان

لقد أثارت تلك الإدارة العسكرية لجنرالات الانتداب الفرنسي الثلاثة في سوريا ولبنان ، تقمة شعبية (٨٦) وحركة مطلبية واسعة سرعان ما انفجرت في معظم المناطق السورية واللبنانية اثر اندلاع الثورة السورية الكبرى من جبل الدروز ، حين كانت المظاهرات الجماهيرية ومهرجان الكريستال في بيروت تعبران عن تشديد النضال ضد سياسة الانتداب العسكرية . وكانت الإدارة العامة والتفقات الطارئة والأمن تمتص أكثر من ٧٠٪ من ميزانية لبنان الكبير و ٦٤٪ من ميزانية دولة دمشق و ٣٨٪ من ميزانية دولة العلويين وذلك باعتراف الفرنسيين بالذات . في حين لم تتجاوز نسبة المنافع العامة (قضاء ، وأسعاف وتعليم) والزراعة والأشغال أكثر من ٣٠٪ في لبنان الكبير و ٣٦٪ في دولة دمشق و ٦٢٪ في دولة العلويين . وذلك حسب إحصاء ١٩٢٧ بالذات (٨٧) .

ووفق تقديرات غونتور بيرون ، توزعت نسب ميزانيات لبنان الكبير ودولة سوريا ودولة العلويين لعام ١٩٢٧ كالآتي :

(٨٦) تؤكد د. «دوتان بوان» أن سياسة الجنرالات الثلاثة قد أدت إلى تجميع السوريين واللبنانيين ضد فرنسا .

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 36.

— René de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 36.

(٨٧) أما ريمون أوزو فيعطي ٢٠٪ من الموازنة لقوى الأمن يضاف إليها ٤٪ للبوليس و ٤٪ للداخلية و ٤٪ للإدارة المركزية مقابل ٢٪ فقط للزراعة و ٣٪ للصحة والإسعاف العام و ٨٪ للقضاء . وتدفع دول سوريا ولبنان ١٠٪ من ميزانيتها أيضا للدين العمومي العثماني .

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 155.

نوع النفقات | دولة لبنان الكبير | دولة سوريا | دولة العلويين

(أ) الإدارة العامة	% ٤٨٠٣٨	% ٢٥٠٤٥	% ٢٢٠٧
(ب) الأمن	% ١٦٠٠٥	% ٣١٠٣	% ١٣٠٧
(ج) منافع عامة			
(قضاء - صحة)			
(واسعاف - تعليم)	% ٩٠١٥	% ١٨٠٤٨	% ٢٠
(د) خدمات اقتصادية			
(زراعة - اشغال)			
(- بريد و برق)	% ٢١	% ١٥٠٧	% ٤١٠١٥
(هـ) نفقات طارئة	% ٥٠٤٢	% ٩	% ٢٠٤٥

فهل كان للرساميل الفرنسية والحكومة ياريسن مصلحة حيوية في ابقاء هذا الشكل من الادارة العسكرية ؟ ألم يكن لتلك الرساميل التي سيطرت على نطاق واسع على جميع المجالات الحيوية في البلدين مصلحة في تدشين مرحلة جديدة تنضج ثمارها وتزداد غلالتها دونما حروب باهظة التكاليف ومعيقة لتطور الحركة التجارية نحو الداخل ؟

ان سوريا ولبنان بلدان مكملان لفرنسا اقتصاديا (٨٨) ، على حد قول هنري دو جوفنيل ، « مانج » الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ ، وهو يضيف في كلمته الختامية التي القاها في « الجمعية الزراعية الاقليمية » لمنطقة كوريز الفرنسية التي كان يمثلها في مجلس الشيوخ : « اذا كانت صناعتنا لا تزال غير مستقرة حتى الآن ، فلأننا نفتقر الى المواد الاولية لصناعات النسيج خاصة ، ان صناعتنا هذه ستجد لها في سوريا (ولبنان) لا الصوف والحريز وحدهما ، بل الارض الخصبة التي من شأنها ان تصبح لارض القطن الفرنسي » (٨٩) .

هذا التوجه للسياسة الانتدابية الفرنسية والذي لا يبعد كثيرا عن توجهات بعض جوانب ادارتها في الجزائر وتونس ومراكش وباقي مستعمراتها ، كان واضحا في خطاب المندوب السامي المدني ، الكونت دو جوفنيل بالذات ، بعد ثلاثة اشهر فقط من اعلان الدستور والجمهورية في لبنان .

في نهاية الثلث الاول من عام ١٩٢٦ كانت فرنسا تحتل المركز الاول في حجم وقيمة مبادلاتها التجارية مع سوريا ولبنان (٩٠) . وكانت الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ ايدانبا واضحا بان الادارة العسكرية الفرنسية فشلت فشلا ذريعا ، وبالتالي فان عهد الجنرالات الثلاثة او « عهد التجارب الفردية » (٩١) قد انتهى واضحت

(٨٨) — Cité par Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 133.

(٨٩) — Beauplan — Op. Cit. — P. 133.

(٩٠) راجع الفصل الخامس المتعلق بتجارة لبنان الكبير وازدهار مرفأ بيروت .

(٩١) — Haut-Commissariat « Rapport sur l'année 1925 » — P. 25.

حكومة باريس تدرك الاسلوب الواجب عليها اتباعه بعد الآن . لقد أجبرت فرنسا على « تزويد سوريا ولبنان بدساتير وأنظمة عامة من شأنها ان تؤمن مستقبلا مديدا لشعوب هذين البلدين دون حروب أهلية او دينية » (٩٢) . فهل كانت فرنسا المنتدبة تبحث عن مستقبل جديد لشعوب سوريا ولبنان أم لانتدابها عليهما . صحيح ان تلك الدساتير والانظمة العامة كانت ضرورة ملحة لشعوب هذين البلدين ونتيجة طبيعية للثورة السورية ، لكن اجبار فرنسا على تقليف وجه ادارتها العسكرية بثوب مدني دستوري كان مكسبا هاما للحركة الوطنية بعد ان أبرزت الثورة السورية الكبرى الانتداب الفرنسي على حقيقته الاستعمارية البشعة وأبانت عجز الارهاب عن قمع ثورة الشعب المطالب بالاستقلال .

الباب الثاني
بيروت تحجب لبنان وجميع
دويلات الانداب الفرنسي

تجارة بيروت قبيل الحرب العالمية الاولى

لعب الحصار البحري دورا بارزا في ضرب حركة مرفأ بيروت فأغلق نسبيا في وجه المواصلات البحرية التي كانت شديدة الانتعاش قبيل الحرب . ومنذ تشرين الاول ١٩١٦ ، تمركزت حركة التصدير والاستيراد في بيروت بأيدي الشركات الألمانية (١) دون سواها على حساب المصالح الانكلو - فرنسية في المنطقة . وسبب ذلك الحصار ارتفاعا جنونيا في أسعار معظم السلع . فقد ارتفع الاسعار في نهاية ١٩١٦ بحوالي ٣٠٪ (٢) حتى بلغ ٥٠٠٪ (٣) .

وكانت بريطانيا لا تزال في طليعة المصدرين الى مرفأ بيروت قبل الحرب وذلك بفضل وفرة منسوجاتها القطنية خاصة المصدرة الى سوريا ولبنان ، والتي تراوحت قيمتها بين ٧٠ - ٨٠ مليونا من الفرنكات (٤) ، وكانت تحتل المركز الاول في التصدير الى هذا المرفأ طيلة الفترة التي سبقت الحرب مباشرة وظلت محتفظة بهذا المركز حتى عام ١٩٢٦ .

وفي حين اقتصرت مصادر الاستيراد لمرفأ بيروت على الدول الأوروبية بشكل عام ، وبريطانيا وفرنسا على الأخص ، فإن صادرات هذا المرفأ وجدت مجالا راجيا لها في تركيا ومصر ، وشملت تلك الصادرات القمح والشعير من جهة ، وإعادة تصدير المنسوجات الحريرية والقطنية من جهة أخرى .

ومقابل احتكار بريطانيا للقطنيات ، كانت فرنسا تحتكر توريد المنسوجات الحريرية الى بيروت دون منافس جدي في هذا المجال ، نظرا لكون السلع الفرنسية كانت تعتبر الأكثر اناقة وجمالا .

— A. Mandelstam « Le sort de l'Empire Ottoman » — P. 147. (١)

— A. Mandelstam — Ibid — P. 145. (٢)

— A. Yammine « Quatre ans de misère 1914-1918 » — P. 54. (٣)

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 33. (٤)

وكان مرفأ بيروت خلال تلك الفترة الموزع الرئيسي للسلع الأجنبية في سوريا ، فكان المصدر الأساسي لأسواق دمشق من جهة ، وإلى حد كبير لأسواق حلب من جهة أخرى . يُبَيَّن أن قيمة الصادرات لم تصل إلى نصف قيمة الواردات في هذا المرفأ طيلة فترة ما قبل الحرب (٥) .

مرفأ بيروت في نهاية الحرب

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وإعلان الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، سارعت المفوضية العليا إلى دعم شركة مرفأ بيروت بقرض بلغت قيمته ١٠٠،٢٧٦،٧١٠ فرنكا فرنسيا ذهباً لجرف الرمال التي تكدست في المرفأ وأعداده لاستقبال السفن . وشركة المرفأ هي الشركة العثمانية للمرفأ التي تأسست عام ١٨٨٣ برأسمال فرنسي قدره ٥ ملايين فرنك سرعان ما ارتفع إلى ١١ مليوناً عام ١٩١١ (٧) . ولتمويه جنسية هذه الشركة ، كان امتيازها باسم يوسف المطران وشركاه ، وهو لبناني . وكان يديرها البنك الامبراطوري العثماني ، الذي أسهم بالقسط الأكبر من رأسمالها ، إلى جانب الشركة العثمانية لخط حديد بيروت - دمشق ، والكوتنوار الباريسي للتسليف ، وبنك باريس والبلدان المنخفضة ، وشركة النقل البحري الفرنسية (٨) . ولم تكتسب هذه الشركة جنسيتها الفرنسية علانية إلا في ٢٠ أيار ١٩٢٦ .

لقد هدفت المفوضية العليا إعادة الحياة التجارية بأسرع وقت ممكن . وإعادة تلك الحياة ، بنظر الفرنسيين ، لا تعني سوى تنشيط التجارة في مرفأ بيروت ، الطريق الطبيعي الموصل للسلع الفرنسية نحو الداخل ، وللمواد الخام نحو فرنسا ، ذلك أن بيروت كانت قد أضحت ، منذ القرن التاسع عشر «مدينة الكوتنوارات التجارية» ، وكوتنوارات الكومبرادور والمرايين ، وأسس فيها أول فرع للبنك العثماني في سوريا منذ السنوات الخمسين لهذا القرن (٩) .

وكانت إدارة الانتداب تبذل كل المساعي ، لسيطرة الرأسمال الفرنسي على كافة المجالات الاقتصادية في سوريا ولبنان . وهذا ما أشار إليه بوضوح جاك دومونيكو حيث يقول : « أن تجارة بلادنا (فرنسا) ، هي في مركز يؤهلها للهيمنة على هذه الأسواق ، لأن الرأسمال الفرنسي يلعب الدور الأساسي في تطوير سوريا ولبنان » (١٠) .

وهذا ما يفسر دعوة المفوضية العليا الفرنسية ، فور تمركزها في بيروت ، إلى إنشاء معرض للمنتوجات الفرنسية فيها لا يزال مكانه يحمل اسم المعرض حتى اليوم .

- (٥) — Haut-Commissariat « Foire-exposition de Beyrouth en 1921 » — P. 156.
(٦) — M. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 126.
(٧) — Société du Port de Beyrouth — « Documents » — P. 20.
(٨) — Ibid — P. 84 et J. Ducruet « Les capitaux européens... » — P. 240-243.
(٩) — السباعي « أضواء » ص ١٩
(١٠) — J. de Monicault « Le port de Beyrouth » — P. 100.

وقد دشن هذا المعرض في ٣٠ نيسان ١٩٢١ (١١) أي بعد أقل من ثمانية أشهر من إعلان دولة لبنان الكبير . وقد حضر المعرض لوسيان ديور Lucien Dior شخصياً بصفته وزيراً للتجارة الفرنسية وممثلاً شخصياً لأرستيد بريان Aristide Briand رئيس الوزارة . في باريس ، وبحضور الجنرال غورو وأعضاء اللجان المحلية لغرف التجارة في مدن حلب ودمشق وطرابلس واللاذقية وصيدا وبيروت .

أما أبرز الشركات الفرنسية التي ساهمت في عرض منتجاتها في ذلك المعرض فهي : أنوس Anos للخياطة والمنسوجات ، وبالك Bac للمصنوعات المعدنية الخفيفة ، وبرتران - تاكيه Bertrand-Taquet للأغذية والجفافات ، وكارييه Carrière للمنتوجات الباريسية والعطور ، وكاسار Cassard للأثاث والمفروشات ، وشانيه Chanée للتحف والمفروشات ، وكولنج Collange للأدوات الهندسية والتصوير ، ولوجون Le Jeune للفخار والمشروبات ، وشنييدر Schneider للآلات الزراعية ، وترونتان Troncin للعقاقير الطبية (١٢) وغيرها .

أن سوق - معرض بيروت لعام ١٩٢١ ساهمت في عرض منتجات أكثر من ألف مؤسسة فرنسية شملت جميع فروع الصناعة هناك وتم إبرام صفقات تجارية أثناء العرض بأكثر من عشرين مليون فرنك فرنسي (١٣) . وقد اختصر أحد المسؤولين Gilly - فائدة هذا المعرض بقوله : « بفضل هذا المعرض تعرفنا على حاجات هذه البلاد بصورة أفضل ، ونحن قادرون على إشباعها تماماً » (١٤) . وكما يدخل الثقة إلى نفوس تلك الشركات الفرنسية ، قام الجنرال غورو بإصدار سلسلة من القرارات أبرزها القرار رقم ٨٦٥ الصادر في ٢٧ أيار سنة ١٩٢١ والقاضي بحماية ماركات الصناعة الفرنسية من المضاربة ، كما ألغى نظام الامتيازات السابق وأنشأ محكمة تجارية لجميع قضاياها من الفرنسيين .

ازدهار الحركة التجارية في مرفأ بيروت

سجلت الأرقام الخاصة بحركة هذا المرفأ ازدهاراً ملحوظاً خلال سنوات ١٩١٩ - ١٩٢٢ . بيد أن تلك الأرقام بقيت أبعد بكثير عن أرقام ما قبل الحرب وبشكل خاص ١٩١٣ .

وقد بلغ الوزن الإجمالي للبضائع الواردة إلى مرفأ بيروت في عام ١٩٢٢ أربعة أضعاف ما كان عليه عام ١٩١٩ . وكانت جميع الواردات تنحصر تقريباً بالبلدان الأوروبية . ففي عام ١٩١٩ (١٥) ، كانت بلجيكا تصدر ٨٧٪ من الحديد التجاري والقضبان والصفائح إلى مرفأ بيروت ، و ٧٠٪ من حديد الصلب الخام ، و ٦٠٪ من

- (١١) — H. C. « Foire-exposition de Beyrouth » — P. 26.
(١٢) — Ibid — P. 26-27.
(١٣) — Gilly « La Syrie et le Liban en 1921 » — P. 186.
(١٤) — Ibid — P. 187.
(١٥) — Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 32.

الانابيب ، و ٥٠٪ من التثك ، و ٤٠٪ من اسلاك الشبهان ، و ٣٠٪ من التوتيا .
اما بريطانيا فكانت تهيمن على ٩٥٪ من واردات مرفأ بيروت من القصدير ،
و ٧٠٪ من محركات البخار ، و ٨٠٪ من النحاس والصفائح ، و ٦٠٪ من المصنوعات
الحديدية المحفوظة ضد الصدأ ، و ٥٠٪ من التثك والشبهان المرقق ، و ٢٦٪ من
الفولاذ المصنوع بشكل قضبان ، و ٢٥٪ من الحديد المصنوع . في حين سيطرت المانيا
على ٨٠٪ من واردات المرفأ من ماكنات الخياطة والنسيج ، و ٥٥٪ من التوتيا ،
و ٥٠٪ من الفولاذ على شكل قضبان وخردوات صغيرة ، و ٤٠٪ من الحديد
المصنوع ، و ٢٠٪ من المحركات .

وكانت فرنسا اقل الدول الأوروبية الصناعية توريدا الى مرفأ بيروت في هذا
العام ، إذ احتلت ٥٥٪ من نسبة الرصاص الوارد الى المرفأ و ٥٠٪ من المواد المنسوجة
والملايس الجاهزة ، واليورسلين ، والمنتجات الكيماوية ، والورق ، والمصنوعات
الزجاجية ، و ٢٣٪ من قضبان الفولاذ ، و ٢٠٪ من حديد الصب المصنوع . اما
الولايات المتحدة الاميركية فكانت حصتها ٨٠٪ من الدراجات الواردة الى المرفأ ،
وكذلك السيارات القليلة جدا ، بالإضافة الى ٣٠٪ من الحديد المطية ضد الصدأ ،
و ٢٠٪ من ماكنات الخياطة والنسيج . وبالإجمال كان حجم واردات الولايات المتحدة
الى مرفأ بيروت ضئيلا بالنسبة الى باقي الدول الصناعية الأوروبية . وبالنظر الى قدرة
الولايات المتحدة التجارية آنذاك .

لقد احتلت بريطانيا المركز الاول للتصدير الى مرفأ بيروت عام ١٩١٩ بفضل
القطنيات خاصة إذ بلغ الحجم الإجمالي لاستيراد مرفأ بيروت هذا العام حوالي
١.٥٦١ طنا من المنتجات القطنية بلغت قيمتها ٢٥٠ مليون فرنك ، كان لبريطانيا
منها ٥٠٪ مقابل ٣٥٪ لاطاليا ، و ٥٪ فقط لفرنسا ، و ١٠٪ لباقي البلدان .
اما قيمة واردات بريطانيا لمرفأ بيروت فقدت عام ١٩١٩ بحوالي ضعفي
ونصف قيمة واردات فرنسا بنسبة ٩٦ مليونا من الفرنكات الفرنسية لصالح فرنسا
مقابل ٢٥٠ مليونا لصالح الانكليز (١٧) .

اما من حيث عدد البواخر التي رست في المرفأ خلال ١٩١٩ ، فقد قدر بحوالي
٢٧ باخرة منها ٦٨ فرنسية (١٨) . لكن تعداد السفن سيتبدل بسرعة خلال ١٩٢٠
اذ سيرتفع العدد الى ٤٧٢ باخرة دخلت المرفأ خلال هذا العام منها ٩٧ فرنسية و ١٢٥
انكليزية و ١٢١ ايطالية . بيد ان السفن الفرنسية ، الاقل عددا من مثيلاتها الانكليزية ،
قد أفرغت على ساحل بيروت ما زنته ٢٢٤٠٢٠٩ طنا مقابل ١٢١٠٨٢٠ طنا (١٩)
أفرقتها السفن الانكليزية البالغ عددها ١٢٥ .

وفي حين ازدادت أعداد البواخر الداخلة الى مرفأ بيروت بنسبة ثلاث مرات ما
بين ١٩١٩ - ١٩٢٢ فان أعداد السفن الشراعية فيه ستحافظ على مستوى واحد

— Huvelin « op. cit. » — P. 32.

— L'Asie Française — Février 1923 — P. 42.

— J. de Monicault « Le port de Beyrouth » — P. 44.

— Gilly « L'évolution économique et commerciale de la Syrie » — P. 187.

(١٦)

(١٧)

(١٨)

(١٩)

تقريبا من ٢٥.٥٦ سفينة شراعية عام ١٩١٩ الى ٢٣٠٠ عام ١٩٢٠ الى ٢٠٠٣٠ عام
١٩٢٢ (٢٠) .

اما عام ١٩٢١ ، فقد شهد توسعا هائلا في عدد البواخر التي دخلت مرفأ
بيروت ، اذ ارتفع ذلك العدد من ٤٧٢ باخرة الى ٧٢٦ منها ١٨٩ فرنسية و ١٩٣
انكليزية و ١٦٦ ايطالية ليعود يرتفع الى ٧٤٢ باخرة خلال عام ١٩٢٢ منها ٢٥٤
باخرة فرنسية اي بنسبة ٣٤٠٢٪ مقابل ١٢٥ انكليزية بنسبة ١٨٠٢٪ و ١٤٣ ايطالية
أي ١٩٠٢٪ بالإضافة الى ٦٩ باخرة المانية ، و ٢٦ يونانية و ٢٢ هولندية و ٢٠
بلجيكية و ١٨ اميركية و ١١ سورية و ٩ مصرية و ٩ رومانية و ٧ روسية و ١٨
من بلدان متفرقة (٢١) .

وهكذا بدا واضحا ان الفرنسيين كانوا يسيرون بسرعة نحو احتلال المركز الاول
في حجم المبادلات التجارية لمرفأ بيروت اذ زادت حصتهم بنسبة ٢٨٪ عام ١٩١٩
وبنسبة ٣٠٪ عام ١٩٢١ في حين بدأت ارقام الانكليز التجارية تنحدر بسرعة في
هذا المرفأ ، وهذا ما جعل المسؤول الفرنسي عن التجارة في دويلات الانتداب يصرح
عام ١٩٢١ قائلا « سنصل بسهولة الى المرتبة التجارية الاولى في سوريا ولبنان » (٢٢) .
لقد استطاع مرفأ بيروت ان يركز الطاقة الاقتصادية للبنان والداخل السوري ،
وسجلت حركته التجارية ارتفاعا هائلا في السنوات الاربع الاولى بعد الحرب . وفي
عام ١٩٢٢ ، استعاد مرفأ بيروت مكلته السابقة لعام ١٩١٣ بزيادة بلغت ١٩٪ (٢٣)
عن عام ١٩١٩ ، وارتفعت صادرات هذا المرفأ من ٢٦٥ مليون فرنك عام ١٩١٩ الى
٥٦٥ مليون عام ١٩٢٠ ، الى ٦ ملايين عام ١٩٢٢ بحجم إجمالي قدر عام ١٩١٣ بحوالي
٩٦٩٧٧ طنا (٢٤) الى ٩٦٢٦٥ طنا صدرها المرفأ عام ١٩٢١ . فقد عادت حركة المرفأ
خلال عامين الى النهوض السريع وقاربت ارقام فترة الازدهار ما قبل الحرب وبدا
مرفأ بيروت يبدن عصرا ذهبيا منذ ١٩٢١ في حجم التصدير والاستيراد .

الاختلال الكبير في الميزان التجاري

قدرت الواردات الى مرفأ بيروت خلال عام ١٩١٩ وحده بحوالي ٣٤٨٠٥٧٤ طنا
لم تتعد حصة فرنسا منها ١١٢٠٩٢٢ طنا ، مقابل ٧٢١٠٢٧٧ طنا لعام ١٩٢٠ ، بلغت
حصة فرنسا منها ٢٥٨٠٥٩١ طنا ، وارتفعت تلك الواردات الى ١٠٠٥٤٠٩٧ طنا عام
١٩٢١ ، بلغت حصة فرنسا منها ٣٤١٠٩١٠ طنا مقابل ٢٦١٠٥٠٧ طنا لاطاليا
و ٢٢٩٠٣٣٢ طنا لبريطانيا ، ثم ارتفعت الى ١٠٢٨٦٤٤٠ طنا لعام ١٩٢٢ (٢٥) .

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44.

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44.

— Gilly « La Syrie et le Liban en 1921 » — P. 187.

— J. de Monicault « Op. Cit. » P. 51.

— Achard « Notes sur la Syrie... » — P. 112.

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44 et l'Asie Française — No. 208. — Janvier-Février 1923 — P. 42-43 et Maxime Nicolas « Questions monétaires en Syrie » — P. 74.

(٢٠)

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

(٢٥)

بيد ان هذه الواردات الى مرفأ بيروت لم تكن تخص تجارة لبنان وحده بل توزعت على دويلات المنطقة الداخلية السورية والعراق . اما الارقام الخاصة بلبنان فلم تتجاوز عام ١٩١٩ حوالي ٦٠ ألف طن من المبادلات عام ١٩١٩ منها ٤٢,٢٧٧ طنا من الواردات ، أعيد تصدير ١٦,٤٧٣ طنا منها اي بنسبة ٤٠٪ تقريبا ، مقابل ألفي طنا من الصادرات المحلية خلال نفس العام . اما في عام ١٩٢٠ فقد استورد مرفأ بيروت حوالي ٨٥ ألف طنا ، أعيد تصدير ١٧,٢٢٢ طنا منها ، اي ما يقارب ٢٠٪ من الواردات مقابل ٦٤,٤٧٣ (٢٦) طنا من الصادرات المحلية .

ويشير « أشار » عن عام ١٩١٩ في محاضرة له القيت في معرض بيروت عام ١٩٢١ عن نسبة الصادرات والواردات فيقول : « لو أجرينا تمييزا أوليا للسلع المستوردة من سوريا ولبنان ، وصنفناها الى سلع من إنتاج محلي وسلع مستوردة ومعدة لإعادة التصدير ، لتبين لنا ان نسبة الأولى تتراوح بين ٤٤ و ٥٢٪ من الوزن الكلي للصادرات مقابل ٤٨ و ٥٦٪ للسلع المعدة لإعادة التصدير » (٢٧) .

يتبين لنا من ذلك ان نسبة الصادرات من الإنتاج المحلي كانت على التوالي : ألفا طن لعام ١٩١٩ مقابل ٤٢ ألفا من الواردات ، ثم ٦ آلاف طن مقابل ٨٥ لعام ١٩٢٠ ، ثم ١٤ ألفا مقابل ١١٦ ألفا من الواردات لعام ١٩٢٢ . اي بنسب ١ الى ٢١ و ١ الى ١٤ و ٨ الى ١٠ تقريبا . واذا ترجمنا هذه النسب الى ارقام تبين لنا ان قيمة الصادرات والسلع المعاد تصديرها لم تتجاوز ٦٥ مليوناً من الفرنكات لعام ١٩٢٢ مقابل ٤٧٩ مليوناً (٢٨) قيمة الواردات للبنان وجميع الدويلات السورية . ومن الصعوبة إيجاد ارقام خاصة بكل من هذه الدويلات التي كانت تعتمد جميعا على مرفأ بيروت في التصدير والاستيراد .

ان الاحصائيات لجبل لبنان قبل الحرب تشير الى ان جبل المصرفية كان يشتري سنويا ضعف ما كان يبيع اي بنسبة ١ الى ٢ (٢٩) . الا ان عائدات أموال اللبنانيين الموظفة في الخارج والمبالغ التي كان يرسلها المهاجرون اللبنانيون ، في الاميركيتين خاصة ، والتي كانت تقدر بحوالي ٣٠ مليون فرنك (٣٠) سنويا ، كانت تساعد على اعتدال الميزان التجاري .

اما بعد الحرب ، فلم تستمر نسبة العجز ١ الى ٢ بين الصادرات والواردات بل ارتفعت الى اكثر من ذلك بكثير لتستقر على ١ الى ٨ عام ١٩٢٢ (٣١) ، مما يشكل عجزا خطيرا في ميزان المدفوعات ، سيستمر طيلة الفترة اللاحقة . وقد نبه المسؤول التجاري الفرنسي بصدق الى هذا العجز منذ ١٩٢١ حين قال : « ان تجارة سوريا

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44-45.

— Achard « La Syrie pays d'agriculture » — Foire-exposition de Beyrouth — Op. Cit. — P. 156.

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 45.

— Achard « Op. Cit. » — P. 156.

— Huvelin « Que vaut la Syrie » — P. 41.

(٣١) يعطي جورج حنا رقم ١ الى ٥ نسبة الصادرات الى الواردات وهو رقم تقديري فقط « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٨٠ .

ولبنان تسير نحو الكارثة » (٣٢) .

ولعل الجدول التالي يوضح مداخيل ومصاريف الدولة اللبنانية بشكل بارز وحصلتها من الحركة التجارية لمرفأ بيروت عام ١٩٢٠ (٣٣) :

مداخيل بملايين الفرنكات مصاريف بملايين الفرنكات

تصدير وإعادة تصدير	استيراد
٦٠	١٥٥
١٢	—
—	١٥٦٥٠
١٠	—
٣٠	—
١١٢	١٧٠٦٥٠

اي بعجز يبلغ ٥٧٦٥ مليون فرنك خلال عام واحد بعد اضافة مداخيل الاصطيف والاموال المرسلة من المهاجرين الى ذوبهم . لقد بدأ الفرنسيون مرحلة افلاس الخزانة اللبنانية منذ البداية بتشجيع القطاعات الاقتصادية غير المنتجة لصالح سوقهم الاستهلاكية الواسعة ، مما يفسر ازدهار التجارة في بيروت فقط على حساب خراب الزراعة والحرف المحلية .

مرفأ بيروت يحجب باقي المرافئ اللبنانية والسورية

١ : مرفأ طرابلس

لقد سيطر مرفأ بيروت منذ بداية الانتداب — حسب الخطة التي رسمها له الفرنسيون — على حركة التجارة البحرية في سوريا ولبنان الكبير ، في حين وضعت مرافئ طرابلس وصيدا وصور واللاذقية والاسكندرون في حالة شلل تام وتبعية مطلقة لهذا المرفأ .

فلاسباب مختلفة ، سياسية بصفة خاصة بفعل النشاط المتزايد للحركة الحدودية مع سوريا في مدينة طرابلس ورفض سكانها الاندماج بلبنان الكبير طيلة تلك الفترة ، لم تسمح فرنسا جديا الى تحسين مرفأ طرابلس بالرغم من توفر جميع الشروط الضرورية لازدهاره . وكانت حجم المبادلات في هذا المرفأ قد ارتفعت من ١٤ مليون فرنك عام ١٩٠٥ الى ٣٠ مليوناً عام ١٩١٢ (٣٤) ، وبرغم هذه المظاهر

— Gilly « Op. Cit. » — P. 30.

— M. Nicolas « Questions monétaires... » — P. 75.

(٣٣) احصائيات تقريبية اعتمدها لاعطاء صورة فقط عن الغجز الناتج في الميزان التجاري اللبناني والذي لم تستطع الضرائب والاصطيف واموال المهاجرين ان تسد من نسبته المرتفعة جدا .

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 45.

(٣٤)

المشجعة جدا - يقول السيد هوفلان - فاني لا اثق بمستقبل مرفأ طرابلس ، لأن موقعه لا يستجلب الا زبائن من حلب وحمص ، وليس لتلك الاسواق سوى دائرة محدودة جدا (٢٥) .

لقد حكم الفرنسيون حكما مبرما على آفاق تطور هذا المرفأ منذ ١٩١٩ ، اي قبل نيلهم الانتداب بالذات ، ولم يطوروا هذا المرفأ بحيث يستطيع استقبال السفن البخارية بل جعلوه مقتصرًا على بعض السفن الشراعية ، مما حد اكثر فاكثر من طاقته التجارية ، ولم يلق هذا المرفأ اية مساعدة فعلية من جانب ادارة الانتداب الا بعد ١٩٢١ ، عندما بدأت فيه اعمال التوسيع لاقامة أرصفة جديدة بعد ان وقع اختيار شركة نفط العراق على مدينة طرابلس كمصب لبترونها على البحر ، واضمحى بمقدور هذا المرفأ استقبال السفن التي تقوم بالملاحة الساحلية المتوسطة الاوزان . كذلك سعت شركة خط حديد دمشق - حماه وتمديداتها لاستغلال مرفأ طرابلس كي تنقل معداتها عن طريقه (٢٦) .

وبقيت واردات طرابلس مرتبطة وثيقا بمرفأ بيروت واقتصرت ، بصورة رئيسية ، على استيراد الخشب والأسفلت والفحم والاسمنت والدقيق والحديد والسكر والبنزين ، في حين كانت صادراتها تشمل الحبوب والخضار والفواكه ، الجافة والمطازجة ، والزيت ، والصابون ، والحيوانات الحية (٢٧) .

لقد جعل الفرنسيون مرفأ بيروت نقطة الوصل مع الخارج في الاستيراد والتراخيص والتصدير ، في حين اقتصرت حركة مرفأ طرابلس ، بصورة خاصة ، على الداخل السوري - العراقي جزئيا ، وبنسبة ضئيلة جدا مع الخارج . وكانت واردات هذا المرفأ وثيقة الارتباط بمرفأ بيروت مما حرم تجار طرابلس من الاستقلالية تجاه تجار بيروت ، ومن جني ارباح كبيرة ، بل على العكس من ذلك كانوا في حالة تبعية شبه تامة لتجار بيروت . هذه التبعية ستستمر طيلة الانتداب الفرنسي وتجعل نجار طرابلس يظهرون وكأنهم جزء من فروع تجارة بيروت ، لا بل احد فروعها الرئيسية في لبنان الكبير .

وتبعًا لذلك بقيت تجارة مرفأ طرابلس ضئيلة جدا بالقياس الى تجارة بيروت . فمقابل ١٦٠٥٤ الف طن من الواردات لمرفأ بيروت عام ١٩٢١ ، لم تتجاوز واردات طرابلس ٣٧٠٢٣ طنا لنفس العام . وفي حين ارتفعت واردات بيروت الى ١٠٢٨٦ الف طن لعام ١٩٢٢ ، انخفضت واردات طرابلس الى ٣٤٠٨٠ طنا (٢٨) .

لقد ركزت فرنسا وارداتها على مرفأ بيروت بشكل خاص . فقد ارتفعت قيمة وارداتها الى هذا المرفأ من ٣١٤٣ مليون قرشًا سوريا - لبنانيا عام ١٩٢٣ الى ٣١٤٢ مليونًا عام ١٩٢٤ ، الى ٤٠٤٣ مليونًا عام ١٩٢٥ ، بقيت وارداتها الى مرفأ طرابلس

— Ibid. — P. 45.

— L'Asie Française — No. 190 — Mars 1921 — P. 114.

— J. de Monicault — « Op. Cit. » — P. 68.

— Ibid — P. 51 et Achard « Op. Cit. » — P. 112.

(٢٥)

(٢٦)

(٢٧)

(٢٨)

يمعدل ٣٤٠٢ من الملايين لعام ١٩٢٣ ، و٣٤٤ لعام ١٩٢٤ و٣٤٠٢٣ لعام ١٩٢٥ (٢٩) . كذلك ارتفعت قيمة صادرات مرفأ بيروت الى فرنسا خلال تلك الفترة من ١٦٤٠٨٥٥ قرشًا سوريا عام ١٩٢٣ الى ٦٠٩٥٠٠٧٤١ عام ١٩٢٤ الى ١٢٠١٣٥٠٨٨١ عام ١٩٢٥ . في حين انخفضت صادرات مرفأ طرابلس الى فرنسا خلال نفس الفترة من ٥٠١٢٢٤٠٢ قرشًا سوريا عام ١٩٢٣ ، الى ٢٠٤٦٢٠٣٣٩ عام ١٩٢٤ ، الى ٢٩٦٠٨٢١ عام ١٩٢٥ (٣٠) . وكان انخفاض قيمة المبادلات التجارية بين مرفأ طرابلس وفرنسا دافعا قويا للولايات المتحدة الاميركية التي عززت موقعها التجاري مع هذا المرفأ فاحتلت المرتبة الثانية في حجم المبادلات التجارية معه منذ ١٩٢٢ بعد مصر . ولعل المقارنة التالية بين واردات وصادرات المرفأين توضح مركز السيناعية الفرنسية على مرفأ بيروت بحيث اصبحت واردات بيروت عام ١٩٢٦ (٤١) تسعة اضعاف واردات طرابلس ، وصادراتها ٢١ ضعفًا عن صادرات طرابلس .

مرفأ بيروت		مرفأ طرابلس	
الواردات	الصادرات	الواردات	الصادرات
بملايين القروش السورية	بملايين القروش السورية	بملايين القروش السورية	بملايين القروش السورية
١٥٨٠٨٢	٢٥٠٠١٧	٣٠٠٩٩٧	١٦٦٣٨
١٦٣٠٤٨	٩٩٠٤٠٧	٤٨٠٣٦١	٩٠٨٧٤
٢٣٨٠١٧	٤٦٠٨٠	٣٧٠٨٢٤	٨٠٥٦١
٢٨١٠٤٤	٥٥٠٧٢	٣٢٠١٨٧	٥٠٦٦٧

وتبين الارقام ان واردات وصادرات مرفأ بيروت تضاعفت تقريبًا خلال هذه السنوات الاربع في حين شهد مرفأ طرابلس فترة ازدهار نسبي خلال سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ فقط ليعود بعدهما الى التقهقر .

ب : مرفأي صور وصيدا والاذقية والاسكندرون

ظل مرفأ صور قريسة للرمال طيلة الفترة الانتدابية تقريبًا ، ولم يكن بمقدوره استقبال السفن ، حتى الشراعية منها ، بل اقتصرت حركته على المراكب الصغيرة جدًا (٣١) . ففي عام ١٩٢٢ ، كانت اعماق هذا المرفأ التاريخي المشهور ، لا تتجاوز المتر ونصف المتر (٣٢) . وقد اورد تقرير الانتداب عن عام ١٩٢٢ والمرسل لعصبة الامم « ان مرفأ صور لا يصلح لشيء البتة » . وأضاف يقول « ان مرفأي

— Bulletin trimestriel du C.I.F.L. — Années 1924, 1925, 1926 et 1927 — Index. (٣٩)

— Bulletin de C.I.F.L. « Op. Cit. » — Index. (٤٠)

— Bulletin de C.I.F.L. — Ibid — Index. (٤١)

— Haut-Commissariat « Rapport sur l'année 1922 » — P. 141. (٤٢)

— Ibid — P. 141. (٤٣)

صور وصيدا يصلحان فقط لنقل المحاصيل الزراعية من الحبوب والفواكه (٤٤).
 لقد كان بمقدور المراكب التي لا يزيد عمق القسم الفاطس منها في الماء على ١٤٢ مترا (٤٥) فقط الدخول الى مرفأ صيدا . وبقي هذان المرفأ خارج النشاط التجاري .
 في الواقع ، فان المرفأ اللبناني ، طرابلس وصور وصيدا ، ومرفأ الاسكندرون السوري ، لم يكن بإمكانها أن تشكل منافسا جديا لمرفأ بيروت ، فهي واقعة بأجمعها تحت مراقبة سياسة الانتداب الفرنسي القائمة على تشجيع مرفأ بيروت دون سواه . ان منافسة حقيقية في هذه الفترة ، برزت في فلسطين ، وفي مرفأ حيفا بالذات ، بتشجيع من الانتداب البريطاني ، لانتزاع أهمية مركز بيروت التجاري في التصدير وإعادة التصدير ، وتمرير البضائع الاجنبية الى الدول الشرق - اوسطية الداخلية . وهذا ما فسر بوضوح انخفاض واردات مرفأ بيروت من السلع البريطانية في الفترة اللاحقة ، والنهوض العارم لمرفأ بيروت ، وتوسيعه ، وتنشيطه ، بعد ان أضحت مركزا للمنافسة بين طبقتين من الوسطاء ، كبار التجار اللبنانيين والفلسطينيين من جهة ، وبين رأسمالين استعماريين واندبايين ، فرنسي و انكليزي من جهة أخرى . تلك المنافسة الشديدة كانت في أساس تطوير وتوسيع مرفأ بيروت وحيفا ومنطقتيهما الحرتين في التجارة .

اما على الصعيد المحلي فلم تتجاوز الحركة الاجمالية لمرفأ الاسكندرون وطرابلس واللاذقية في عام ١٩٢٧ ، حوالي ١٦٧ ألف طن مقابل ٤٢٣ ألفا لمرفأ بيروت اي بنسبة ٣٩،٤٪ لجموع تلك المرفأ بالمقارنة مع مرفأ بيروت (٤٦) . لقد هيمن مرفأ بيروت على مجمل الحركة التجارية في سوريا ولبنان دون اي منافس جدي في الداخل السوري على عكس توقعات « آشار » و « هوفلان » السابقة اللذين تشاءما حول مصر مرفأ بيروت فرجح الاول انتعاش مرفأ الاسكندرون لقربه من أسواق حلب والثاني مرفأ حيفا (٤٧) .

نماذج من انواع السلع المستوردة والمصدرة ١٩٢٣ - ١٩٢٤

لقد توزعت قيمة بعض الواردات في مرفأ بيروت في عام ١٩٢٣ والبالغة ٥٦٠ مليوناً من الفرنكات الفرنسية على الشكل التالي (٤٨) : ١٨٣ مليوناً للأقمشة القطنية ، و ٤٤ لمحاصيل المستعمرات الفرنسية ، و ٣٦ للزيوت والشحوم ، و ٢٨ للفواكه والخضار ، و ٢٢ للأصواف ، و ١٩ للحرائر ، و ١٩ للمصنوعات الزجاجية ، و ٢٥ للحدائد المصنعة ، و ١٦ للأصباغ ، و ١٥ للأخشاب .
 وفي عام ١٩٢٤ ، بلغت قيمة الواردات لمرفأ بيروت ٧٩٦،٦ مليون فرنك

- (٤٤) — Ibid — P. 187.
 (٤٥) — Ibid — P. 139.
 (٤٦) — J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 66.
 (٤٧) — Voir Achard « Notes sur la Syrie... » — P. 90 et Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 52.
 (٤٨) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — Annexes 8 et 9.

منها : ٢١٣ مليوناً للقطن والمنسوجات القطنية ، و ٦٦ للحبوب ، و ٦٥ لمحاصيل المستعمرات ، و ٥٩ للزيوت ، و ٣٣ للأصواف ، و ٣٣ للحدائد المصنعة ، و ٢٩ للحرائر ، و ٢٧ للحيوانات الحية ، و ٢٢ للأخشاب .

اما صادرات مرفأ بيروت فقد بلغت قيمتها ٢٤٦،٨ مليوناً من الفرنكات لعام ١٩٢٤ و ٣٣٩،٣ مليوناً لعام ١٩٢٤ منها : ابقار بثلاثة ملايين ، اغنام ٨ ، سمن ٧ ، فواكه وخضار ٧ ، حبوب ٦ ، قمح ٥ ، مربى ٥ ، أوراق تبغ ٤ ، سلع ثمينة واثريّة ٣ ، قطن خام ٤٩ ، قنب ١٨ ، شرائق ١٢ ، خيوط حرير ١٢٦ ، انسجة صوفية ١٠ ، صوف خام ١٩ ، سجاد ٦ ، صابون ٢ ، معادن ٣ ملايين فرنك .

ربط الزراعة المحلية بالسوق العالمية

كانت فرنسا . منذ القرن التاسع عشر ، تسيطر على محصول الحرير في سوريا ولبنان . وسرعان ما عادت فرنسا الى تنشيط هذه الزراعة الفاتكة الارباح منذ عام ١٩٢١ . وبلغت قيمة محصول الحرير في عام ١٩٢٢ بحوالي ٣٩ مليون فرنك فرنسي حسب احصاء الفرنسيين . ويبدو ان هذا التقدير اقل من الحقيقة . فقد بلغ محصول الحرير اللبناني والسوري في عام ١٩٢٢ بحوالي ٢٠٦،٥٦٠ كيلوغرام من الفيالج الجافة و ١٢٠،٤١٥٠ كلغ من الوسط للصنع المحلي ، و ٦٠،٣٠٧ كلغ من الشرائق الفاسدة . وقد قدر الفرنسيون انفسهم قيمة الشرائق المصدرة بحوالي ٥١٨،٥٠٠ (٤٩) فرنك ، في حين ان الحرير المفزول محليا لم يدخل في تقديرات الفرنسيين لكامل المحصول . وحسب ما أوردته مجلة « الحارث » البيروتية ، كانت مساحة الارض المزروعة بالتوت عام ١٩٢٣ ، تقدر بمئة ألف فدان . وكان عدد غلب دود الحرير يقدر بحوالي ٦٠ ألف غلبة . كما قدرت عدد المشتغلين بالحرير بحوالي ٦٠ ألف عامل ، بين رجل وامرأة وولد . وقد بيع المحصول لعام ١٩٢٣ بحوالي ٧٠ مليون قرشا سوريا الى الخارج ، أي ما يعادل ١٤ مليون فرنك فرنسي تقريبا . وبلغ تعداد العامل هذه السنة ١٥٤ معملا ، كانت العامل التي تستخدم منها ٩٩ مقابل ٥٥ (٥٠) متوقفة .

وتدل هذه الارقام بوضوح على ارتفاع نسبة الانتاج والمداخيل عام ١٩٢٤ . مما دفع المفوضية العليا الى القيام بحملة واسعة النطاق شملت جميع اراضي لبنان وبعض المناطق السورية ، لزراعة اشجار التوت وتنشيط صناعة الحرير . وقامت الشركات الفرنسية تسلف الفلاحين والمزارعين بالقروض من أجل تلك الحملة ، حتى قدر عدد الاشجار المفروسة في عام ١٩٢٥ بحوالي ٩٣٨،٩٣١ (٥١) شجرة أضيف اليها ٧٥٠ ألف (٥٢) نصبة توت وزعت خلال أعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٨ ، في جميع الدويلات

- (٤٩) — Gilly « La situation Commerciale... » — Correspondance d'Orient — No. 318 — Juin 1924 — P. 351.
 (٥٠) — الارقام السابقة مأخوذة من مجلة « الحارث » — العدد الثاني — ١٩٢٣ — ص ٥٠ - ٥٦ .
 (٥١) — عن « خطط الشام » — باشراف محمد كرد علي — الجزء الرابع — ص ٢٩١ - ٢٩٢ .
 (٥٢) — R. O'Zoux « Etats du Levant » — P. 257.

السورية ولبنان . وقدر انتاج لبنان الكبير لعام ١٩٢٥ من الحرير بحوالي ١٦٣٦.٤٤٧ كلف ، وقدر عدد العامل لحل الحرير في هذا العام ٨٩ معملا ضمت ٣٤٥٥ (٥٢) حوضا ، في حين تقدر مجلة الخارث محصول الحرير في لبنان الكبير لوحده عام ١٩٢٤ بحوالي مليوني كيلوغرام من الحرير الخام من مجموع ٣٤٣ (٥٤) مليون كيلوغرام في لبنان والاسكندرون والعلويين .

ومهما تكن نسبة الصحة في هذه الارقام ، فلا ريب ان زراعة التوت وتنشيط انتاج الحرير قد ضرب رقما قياسيا خلال هذه الفترة . ويستغرب الباحث هذه الغيرة العظيمة من جانب الفرنسيين لتنشيط انتاج الحرير ، وتسليف المزارعين ، وتوزيع نصوب التوت وغيرها . غير ان دهشته تزول عندما يدرك ان عملية احياء مواسم الحرير « الى سابق مجدها » في لبنان ، وتوسيعها نحو سوريا ، كانت وثيقة الارتباط بالسوق الفرنسية التي جنت ارباحا اسطورية من الحرير اللبناني . فقد اوردت مجلة آسيا الفرنسية هذه الارقام البالغة الدلالة « كان كيلو الحرير الخام يتراوح ثمنه في سوريا ولبنان ، عام ١٩٢١ ، ما بين ٧ و ٩ فرنكات فرنسية ليرتفع الى ١ فرنكات في المتوسط عام ١٩٢٢ ، وفي نفس الفترة ، كان كيلو الحرير الخام من الانتاج الفرنسي يباع في مرسيليا ما بين ٤١٥ و ٤٣ فرنك فرنسي ، بينما يباع كيلو الشرائق اللبنانية هناك ما بين ١٦٥ و ١٩٥ من الفرنكات الفرنسية » (٥٥) . صحيح ان انتاج الحرير عاد على المزارعين اللبنانيين بفوائد ملموسة دون شك ، غير ان الارباح الحقيقية كانت تذهب لجيوب التجار الفرنسيين الذين جنوا ثروات طائلة من الاتجار بالحرير اللبناني . يضاف الى ذلك ، ان الشركة الفرنسية لتربية وتسيويق دود القز ، ومؤسسة فينوايان Vidauen لتربية دود القز ، كانتا سيدة السوق اللبنانية في بيع دود القز وكانتا تسيطران على أكثر من ثلاثة ارباع (٥٦) حلب الحرير المباعة في هذه السوق .

فمن اصل ١٠٣.٤٠٠ علبه دود القز التي بيعت خلال عام ١٩٢٤ في لبنان ، كان ٩٠.٤٠٠ علبه من التاج فرنسي ، و ٣ آلاف فقط من انتاج ايطالي والباقي ١٠ آلاف علبه من الانتاج المحلي (٥٧) . لقد ارتفع انتاج الحرير اللبناني بشكل عمودي خلال سنوات ١٩٢٠ - ١٩٢٥ (٥٨) ، وبخطوات متسارعة جدا . فمن ٨٠٠ الف كلف عام ١٩٢٠ الى ١٦٠.٠٠٠ كلف عام ١٩٢١ ، الى ١٦٩.٠٠٠ عام ١٩٢٢ ، الى ٢٦٥.٠٠٠ عام ١٩٢٣ ، الى ٢٦٨.٥٠٠ عام ١٩٢٤ ، ثم انخفض الى ٢٦٧.٠٠٠ عام ١٩٢٥ ، ثم يستمر بالانخفاض بعد هذا التاريخ بسبب منافسة الحرير الياباني (٥٩) .

- (٥٢) خطط الشام - المصدر السابق - ص ٢٩٢ و P. 257. — R. O'Zoux « Etats du Levant »
(٥٤) العدد ١٥ - ١٦ - نيسان ١٩٢٥ - ص ٧٥٠
(٥٥) — L'Asie Française — Octobre 1922 — P. 357.
(٥٦) — R. O'Zoux « Op. Cit. » — P. 257.
(٥٧) — Burckard « Le Mandat français... » — P. 166.
(٥٨) — H. C. « Rapports sur les années 1924 (P. 56) et 1925 (P. 32).
(٥٩) — H. C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » — P. 252-253.

بيد ان بيع الانتاج عن طريق الوساطة الوسطاء في الريف ، كان يقضي على ارباح المزارعين عن طريق التسليف المسبق على الانتاج بفوائد مرتفعة . وان هؤلاء الوسطاء الذين استقروا في الجبل منذ امد بعيد ، جنوا فوائد كبيرة من التوسع في انتاج الحرير . وفي حين اقتصر وجودهم سابقا على مناطق الجبل اللبناني ، وسعوا دائرة نشاطهم الآن لتشمل كافة ارجاء لبنان الكبير ومناطق أخرى من سوريا وأصبحوا يطوفون جميع المناطق اللبنانية والسورية المنتجة للحرير مقدمين القروض بفوائد فاحشة ومشتريين المحاصيل بأسعار بخسة . وقد اتسعت رقعة استثمارهم بدعم مباشر من سلطات الانتداب وبورجوازية بيروت التجارية ، وشكل هؤلاء الوسطاء أساسا لشريحة من التجار الوسطاء في الريف ، بتبعية تامة لتجار بيروت ، الأجانب والمحليين . ان هذه الشريحة كانت ابرز أدوات استغلال الريف اللبناني بيد سلطة الانتداب . فقد جرى امتصاص ارباح المزارعين عن طريقها ، كما ساعدت على افراغ الريف من مذكراته الذهبية ايضا وكانت حلقة الوصل المثبتة لنقل انتاج الريف الى مرفأ بيروت . وقد عرفت هذه الشريحة ان تستغل بدهاء حاجة التجارة الفرنسية الماسة للحرير فجنت ارباحا طائلة من جراء ذلك ، واضحت احدى فصائل البورجوازية اللبنانية الحالية في الريف اللبناني بواسطة الاموال التي كدستها والعقارات التي استولت عليها .

تجارة الترانزيت واعادة التصدير

لم تكن تجارة الترانزيت معروفة بشكل واسع ، قبل الحرب العالمية الاولى ، في سوريا ولبنان ، بل بقيت محدودة كذلك حتى عام ١٩٢٠ وتمركزت اساسا في مرفأ بيروت دون سواه .

بيد ان ادارة الانتداب الفرنسي وضعت نصب عينيها تحقيق الهدف التالي : « تحويل التجارة الداخلية في سوريا ولبنان الى تجارة ترانزيت ، تلك ستكون الافاق البعيدة لتطور التجارة فيهما » (٦٠) . لذا اتسعت هذه التجارة ، في الفترة اللاحقة لتمتد حتى حلب ، وتصبح هناك ابرز أوجه التجارة فيها . فموقع حلب الجغرافي الهام يجعل منها منفذا لاعادة تصدير البضائع الواردة اليها من مرفأ بيروت نحو بلاد فارس والعراق واجزاء من سوريا والجزيرة العربية وتركيا . وهذا ما يفسر ان تجارة حلب من الترانزيت واعادة تصدير السلع المستوردة تجاوزت ضعفي حجم تجارة بيروت من هذا النوع . وتدل الاحصائيات لعامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ على ما يلي (٦١) :

- (٦٠) — H. C. « Ce que tout français doit savoir de la Syrie et du Liban » — P. 42.
(٦١) — Gilly « La situation Commerciale... » — P. 347.

مكان الترانزيت
واعادة التصدير

القيمة بملايين
الفرنكات الفرنسية

1922	1923
146.00	216.30
61.80	147.00
65.00	69.80
116.27	396.45
62.50	96.70
26.25	78.83
المجموع	
اما ابرز انواع السلع المعاد تصديرها او المارة بالترانزيت ، فكانت بمعظمها آلات صناعية ، واسمدة كيمياوية وكماليات ومعادن مصنعة (٦٢) .	

السياسة الجمركية للانتداب الفرنسي

١ - المعاهدات التجارية :

سارع الفرنسيون ، منذ البداية ، لعقد اتفاقيات جمركية مع البلدان القريبة من سوريا ولبنان لضمان المنافذ الاعتيادية للسلع القديمة في تجارتها مع الداخل ، ولتثبيت لبنان الكبير كموزع للمستوردات الاجنبية على المناطق المجاورة .
فباسم البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي عقدت فرنسا المعاهدات التجارية مع الدول غير الاعضاء في عصبة الامم المتحدة ، وذلك على اساس من المصالح المتبادلة والمنفعة المشتركة ، ما عدا الولايات المتحدة الاميركية التي نالت معاملة خاصة دون شرط التبادل في السلع ، « وذلك بإرادة خاصة من الدولة المنتدبة وحدها » (٦٣) .
وكانت أولى المعاهدات الجمركية بين سوريا ولبنان من جهة ، وفلسطين من جهة أخرى ، هي اتفاقية ١٩ آب ١٩٢١ ، والتي استكملت شروطها في توقيع نهائي بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٢٢ (٦٤) .
والواضح في هذه المعاهدة ومثيلاتها لتلك الفترة ، ان سوريا ولبنان اعتبرتا دولة واحدة من الناحية الاقتصادية ، واستمرت كذلك طبقا للقرار رقم ١٤٣٩ المكرر والصادر في ٢١ حزيران ١٩٢٣ . وقد نصت المادة الاولى من هذا القرار على « ان الدول الموضوعة تحت الانتداب ، متحدة كانت ام لا ، تشكل اقليما موحدا من وجهة النظر الجمركية . ولا يمكن احداث فصل جمركي او غير جمركي داخل هذه البلدان » (٦٥) . وقد اكد روبير دوكيه هذه الفكرة بالقول : « في ظل الانتداب

(٦٢) — Saïd Chéhab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 134.
(٦٣) — Mourad Kazem « L'union douanière libano-syrienne » — P. 121.
(٦٤) — Ibid — P. 122.
(٦٥) — Robert de Caix « Histoire des Colonies françaises : La Syrie » — T. III P. 508 et Berger-Levrault « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le mandat français » — P. 201.

الفرنسي ، لم تطرح قط مسألة انشاء حدود جمركية بين دولتي المشرق ، بل كانتا تتمتعان بنظام جمركي واحد ، وعملة واحدة » . فهل بقي « الاستقلال » اللبناني آنذاك مجرد شعار فوق لا يطال الاقتصاد بل يقتصر على الخطب والتصريحات السياسية في المناسبات ؟

وأبرز بنود المعاهدة السورية اللبنانية - الفلسطينية ، اعتماد نظام التبادل التجاري الحر بينهما بالنسبة للمنتوجات المحلية ، والغاء الرسوم الجمركية المباشرة والاستعاضة عنها « بتسديد حسابات من خزينة الى خزينة » بمعنى ان البضائع الاجنبية المعدة لاعادة تصديرها ، والتي كانت تدفع سابقا الرسوم الجمركية لدى مرورها في احدى البلدان المتعاقدة ، استفادت من هذه الاتفاقية واعفيت تلك البضائع من دفع رسم الدخول الى البلد المرسل اليه ، واستعفى عن هذه الرسوم بتبادل في الحسابات بين جمارك البلدين المتعاقدين تسدد بفواتير سنوية عن دخول البضائع اليهما . واضحت ميزانيات سوريا ولبنان من جهة ، وفلسطين من جهة أخرى ، هي التي تتحمل نفقات تلك الجمارك ، في حين اخذت السلع الاجنبية تتجول في تلك المناطق دون رسوم جمركية (٦٦) .

اما المعاهدة الثانية فقد وقعت باسم سوريا ولبنان مع شرقي الاردن في ١٠ ايار ١٩٢٣ بنفس الشروط التي عقدت بها مع فلسطين .

وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٢٥ ، عقدت المفوضية العليا اتفاقا ثالثا ينظم تجارة الترانزيت بين العراق من جهة وسوريا ولبنان الكبير . وقد وسع هذا الاتفاق تجارة الترانزيت نحو الداخل واتاح للسلع الاوروبية الوصول بسرعة الى الاسواق العراقية وكذلك للأسواق الايرانية ، وبالعكس ، كما اسهمت السفريات المنظمة بين بيروت وبغداد وطهران بالسيارات في نقل السلع بين تلك البلدان .

وفي ٢٦ تموز ١٩٢٥ ، تم توقيع الاتفاق الجمركي بين سوريا ولبنان وتركيا (٦٧) لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، وتبعه اتفاق آخر في ٢٣ كانون الاول ١٩٢٦ بغرض تسهيل المعاملات الجمركية على الخط الحديدي الممتد من كيليكيا الى سوريا . وقد استفادت تركيا بموجب الاتفاقين السابقين من التعرفة العادية او الدنيا في الرسوم الجمركية وقدرها ١٥٪ ، على ان يقابلها فرض ضرائب طفيفة من الجانب التركي على السلع المصدرة من انتاج سوريا ولبنان المحلي ، وقد استفادت الحرائر بشكل خاص من تخفيض كبير في الرسوم .

اما الاتفاق التجاري مع نجد (٦٨) فقد ارتدى اهمية خاصة في تلك الفترة . إذ ان الحصار البحري الذي فرض على سواحل المتوسط الشرقية ابان الحرب العالمية الاولى ، اجبر التجار اللبنانيين والسوريين على اقامة علاقات تجارية واسعة مع بلاد

(٦٦) — Mourad Kazem « Op. Cit » — P. 122-127 — et H.C. « Les actes diplomatiques 1920-1930 » — P. 90 et SS — et S. Essaley « L'état actuel de l'économie syrienne » — P. 221 et SS.
(٦٧) — H.C. « Rapport sur l'année 1926 » — P. 147.

(٦٨) استندنا في هذا القطع على مقالة السيد لطفي الحفار ، رئيس تجار دمشق آنذاك ، المنشور في كتاب « خطط الشام » الجزء الرابع ، بعنوان « التجارة والاقتصاد في العصر الحديث » ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

نجد التي استمرت تتاجر بحرية كبيرة مع الهند والمانيا والنمسا دون أن تتضرر من الحصار . لذا تشظت حركة تجارية واسعة بين سوريا ولبنان ونجد خلال تلك الفترة وعادت بثروات طائلة على بعض التجار والوسطاء وحتى الضباط في سوريا ولبنان : « كما ان تلك البضائع التي تم تبادلها بالعملة الذهبية قد استثمرت سبلا من الذهب التي سوريا ولبنان في ذلك العهد ، فاصبحت سوريا ، وخاصة دمشق ، خزانة من الذهب ، عند انتهاء الحرب » . لذا كان من مصلحة الانتداب الفرنسي تشجيع هذا المجري التجاري الحيوي الى داخل الجزيرة العربية ، واستفادت اشارة نجد من التعرفة الدنيا في الرسوم الجمركية .

اما المعاهدات الجمركية بين سوريا ولبنان وكل من مصر وايران ، فقد استمرت على ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الاولى ، وأول اتفاق تجاري رسمي عقده ادارة الانتداب الفرنسي مع مصر يعود تاريخه الى ١٣ حزيران ١٩٢٨ ، في حين ان الاتفاقية الجمركية مع ايران تأخرت حتى ١٧ آب ١٩٣٥ .

ب - الرسوم الجمركية :

ان تلك الاتفاقيات الجمركية ساهمت كثيرا في تحريك النشاط التجاري في مرفأ بيروت وفي ازدياد إيرادات الجمارك فيه ، ففي حين كانت الرسوم المفروضة سابقا لا تتعدى التعرفة الجمركية المطبقة في سوريا ولبنان بنسبة ٨٪ من قيمة البضائع ، اذ اصر الاوروبيون آنذاك على ابقائها فترة زمنية طويلة تسهلا لمرور سلعهم دون جمارك مرتفعة ، غير ان تسلم ادارة الدين العثماني ، وهي مؤسسة قديمة - انكليزية بشكل خاص ، سارعت الى رفع الرسوم الى ١١٪ عند الدخول مقابل ٢٪ عند الخروج او اعادة التصدير . وجاء الانتداب الفرنسي يثبت هذه التعرفة قانونيا بقرار صادر عن الجنرال غورو يحمل الرقم ٤٦٧ بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٢٠ . وقسم القرار المذكور الغائدات الجمركية بنسبة ٨٪ للمفوضية العليا مقابل ٣٪ لادارة الدين العمومي العثماني .

واستثمر العمل بهذه التعرفة حتى عام ١٩٢٤ عندما رفعت الى ١٥٪ بموجب قرار صادر عن المفوضية العليا في اول ايار من هذا العام (٦٩) . وقد رفعت رسوم الدخول على سلع الدول غير المنتمية الى عصبة الامم الى ٣٠٪ مقابل ١٥٪ (٧٠) لسلع البلدان الداخلة في العصبة والولايات المتحدة الاميركية بشكل استثنائي ، لقد حد هذا القرار كثيرا من نشاط التجارة الداخلية لسوريا ولبنان مع اغلب الدول (٧١) . ونظرا لخسارة التي تكبدتها فرنسا بسبب اندلاع الثورة السورية الكبرى ، سارعت الى رفع التعرفة الجمركية الى ٢٥٪ بالنسبة لبلدان العصبة والولايات المتحدة والى ٥٠٪ للبلدان الاخرى ، هذه الزيادة التي تمت « كاجراء مؤقت » لئلا العجز

(٦٩) — R. Colona de Lega « La zone franche du port de Beyrouth » thèse — P. 12-13 et René de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 169.
(٧٠) — Longrigg « Syria and Lebanon under the french mandate » — P. 134.
(٧١) — Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 14.

الناتج في الميزان الاقتصادي عن ثورة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ ، بقيت مستمرة ، واخذت في الارتفاع أكثر فأكثر . جنى ان الاصناف التي اعتبرت سلعا ضرورية في عام ١٩٢٦ واستمر العمل بها على اساس التعرفة الجمركية العادية اي ١١٪ فقط من قيمتها ، اخذت التعرفة الجمركية عليها ترتفع بشكل هائل حتى بلغت ٢٠٪ عام ١٩٣٠ مقابل ٢٥٪ لتعرفة القصوى . ثم ارتفعت ايضا الى ٢٠٪ و ٣٥٪ في تموز ١٩٣٠ . وفي كانون الاول من العام نفسه ارتفعت التعرفتان الجمركيتان ، العادية و لقصوى الى ٢٥٪ و ٦٠٪ ، وفي نيسان ١٩٣١ الى ٤٠٪ و ٨٠٪ ، وفي تموز من العام نفسه الى ٥٠٪ و ١٠٠٪ (٧٢) باعتراف الفرنسيين انفسهم ، على اثر الازمة العامة للراسمالية التي بدأت عام ١٩٢٩ .

وهكذا اخذت الادارة الانتدابية تفرض رسوما جمركية هائلة دونما تمييز على المواد الضرورية كالقمح والدقيق والسكر ، والمواد الخام للصناعة المحلية . وكانت الطبقات الفقيرة اكثر المتضررين من تلك السياسة اذ دفعت الجزء الاكبر منها بشكل ضرائب مباشرة وغير مباشرة ، حتى ان ادمون رباط قدر نسبة الضرائب التي دفعها لفلان السوربون والليمانيون بأكثر من ٧٥٪ من مجموع الضرائب (٧٣) . اما عمر الجابري فقد اعطى نسبة الضرائب المباشرة للضرائب غير المباشرة بحوالي ٣٣٪ للاولى مقابل ٦٧٪ للثانية (٧٤) .

ان نسبة قليلة من التجار فقط استفادت من سياسة فرنسا الجمركية في حين وقع وزر تلك السياسة على كاهل الشعبين اللبناني والسوري حيث نسبة الفقراء تتجاوز ٩٥٪ على الاقل من مجموع السكان (٧٥) .

لماذا فرضت الولايات المتحدة سياسة « الباب المفتوح » في صكوك الانتداب ؟

نص البند ١١ من صك الانتداب على سوريا ولبنان ما يلي : « على الدولة المنتدبة الا تتخذ اجراء من شأنه ان يضع ، في سوريا ولبنان ، رعايا اية دولة عضو في عصبة الامم ، بمن فيهم الشركات والجمعيات والافراد ، في مرتبة ادنى ، ان بالنسبة لرعاياها بالذات ، ومن ضمنهم الشركات والجمعيات والافراد ، او بالنسبة لرعايا اية دولة اجنبية اخرى . ولا يجوز اجراء اي تمييز بين رعايا تلك الدول والرعايا التابعين لدولة الانتداب لا في مجال الضرائب او التجارة ، ولا في مجال الصناعة والمهن الحرة والملاحة وغيرها . وبناء عليه ، ينبغي ألا يفرض ، في سوريا ولبنان ، اي تمييز بين البضائع الواردة الى اجدي دول الانتداب المارة بها . يجب ان تقام هناك ظروف متساوية لحرية النقل عبر الاراضي المذكورة » .

(٧٢) — L'Asie Française — No. 312 — P. 228 et R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 162-165.

(٧٣) — E. Rabbath « Unité syrienne et devenir arabe » — P. 292.

(٧٤) — O. Djabry « La Syrie sous le régime du mandat » — P. 135.

(٧٥) — اسبامي : « اضاء على الراسخ الاجنبي » : ص ٥٠ .

ثم يضيف هذا البند « أن المنتدب (بفتح الدال) يبقى حراً في فرض ، أو في حمل الحكومات المحلية على فرض الضرائب والرسوم الجمركية التي يراها ضرورية ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بتأمين زيادة الموارد الطبيعية للبلدان المذكورة ، وحماية مصالح السكان المحليين ، وعقد اتفاقيات جمركية خاصة مع البلدان المتاخمة لأسباب تعود الى الجوار . . . » .

لقد حرص الأميركيون بعناية على ادخال سياسة « الباب المفتوح » في التجارة مع سوريا ولبنان ، وعلى اعطائهم الافضلية في التسهيلات الجمركية بالرغم من عدم اعترافهم بالانتداب الفرنسي على هذين البلدين . ولم يتم اعترافهم بالانتداب الا بعد توقيع اتفاقية مع الفرنسيين في نيسان ١٩٢٤ ضمنت لهم امتيازات واسعة وحرية العمل التبشيري والتثقيفي ومعاملتهم كبلد عضو في عصبة الأمم المتحدة بالرغم من عدم انتسابهم لها .

لقد كانت سياسة « الباب المفتوح » تعني ، بنظر الأميركيين ، حماية تجارتهم القوية من أية قيود تحد من اقتحامها للأسواق الدولية في فترة ما بعد الحرب وذلك انسجاماً مع مؤتمر برلين ١٨٨٥ و بروكسل ١٨٩٠ ، لأن سياسة الباب المفتوح هي استمرار للفكرة القائلة بأن على المستعمر الا يفرض سياسة ضيقة تنسجم مع مصالحه الآتية فحسب بل مع مصالح التجارة العالمية والنظام الرأسمالي برمته (٧٦) .

ونظراً لحاجة فرنسا الماسة الى القروض الأميركية ، قامت بتقديم تنازلات كبيرة لها بالاتفاق مع البريطانيين ، منها حصة هامة في بترول الموصل ، وحماية الجامعة الأميركية ، وسياسة الباب المفتوح . وأظهرت فرنسا حرصاً كبيراً على مراعاة سياسة الباب المفتوح الى أقصى حد في الفترة الاولى . ولعل السبب في ذلك يعود أصلاً الى كثرة الانتفاضات الفلاحية والعصابات الوطنية في الداخل بحيث كانت تلك الفترة الاولى بالنسبة للرساميل الاجنبية ، فترة ترقب وحذر ، في حين كان لبنان وسوريا بحاجة ماسة الى رأسمال ضخم للتعويض عن خسائر الحرب وترميم ما سببته من أضرار . وبالرغم من توجه المندوبين السامين الفرنسيين نحو جميع الرساميل للعمل في هذين البلدين فقد كان واضحاً من تصريحاتهم أن الافضلية ستكون للرساميل الفرنسية بشكل أساسي . لذا يلخص نجيب الارمنازي دور المفوضين السامين في هذا المجال فيقول : « اذا كانت وثيقة الانتداب قد ضمنت سياسة الباب المفتوح امام التجارة في البند الحادي عشر لتتلافى هيمنة فرنسا على البلدان الموضوعة تحت الانتداب ، فان السلطة التنفيذية الممنوحة للمفوضين السامين كانت كفيلة بتحقيق السيطرة التامة للشركات الفرنسية على الاقتصاد السوري » (٧٧) .

لقد انتعش الوجود الاقتصادي التجاري لجميع البلدان الاوروبية الصناعية وللولايات المتحدة الأميركية وكذلك لتركيا ومصر في الاسواق السورية واللبنانية ، وهذا ما يفسره بوضوح تام الواردات التجارية الى مرفأ بيروت ، غير أن الفرنسيين

— A. Millot « Contribution à l'étude des mandats internationaux » — P. 2 (٧٦)
et Georges Hardy « La politique coloniale et le partage de la terre aux 19ème et 20ème siècles » — P. 15.

(٧٧) نجيب الارمنازي « سوريا من الاحتلال الى الجلاء » ص ٢٣ .

عرفوا كيف يضمنوا لرساميلهم الدور الاهم في البلدان الواقعة تحت انتدابهم . وبالرغم من الانفتاح التجاري امام جميع السلع ، فإن الولايات المتحدة الاميركية كانت المستفيد الأكبر من تلك السياسة ، فسارعت الى الاستفادة من رحيل سلع الانكليز الذين تخلوا عن اسواق بيروت باتجاه مرفأ حيفا وأضحى للأميركيين مرتبة بارزة في حجم المبادلات مع مرفأ بيروت في نهاية هذه الفترة بعد أن كان وجودهم التجاري شبه معدوم قبيل الحرب العالمية الاولى على هذه الاسواق اللبنانية - السورية .

هيمنة الرساميل والشركات الفرنسية

سجلت اعوام ١٩١٩ - ١٩٢٢ بداية تحسن ملحوظ في عودة الحياة التجارية الى مرفأ بيروت . وفي عام ١٩٢٣ ارتفع حجم المبادلات التجارية في المرفأ الى ما كانت عليه عام ١٩١٣ ، مع ارتفاع في نسبة الصادرات الى الواردات مما كان يشير بمرحلة هامة من البوحة والازدهار كثيراً ما تقنى بها الفرنسيون .
ان مرحلة الانتعاش التجاري هذه بدأت منذ ١٩٢٣ بالذات واستمرت حتى ١٩٢٥ . وقد عرف المفوضون السامون كيف يحولون هذا الانتعاش لصالح الرساميل والشركات الفرنسية خاصة . فعلى اثر معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ ، تحولت شركة مرفأ وأرصفة ومستودعات بيروت ، والتي تأسست منذ ٢٠ حزيران ١٨٨٨ باسم الشركة العثمانية لمرفأ بيروت ، الى شركة فرنسية بصورة كلية (٧٨) .

ومنذ ٨ آب ١٩٢١ ، وضع خط حديد الحجاز المار في سوريا ولبنان تحت اشراف الوقف الاسلامي . وكان الوقف قد أصبح مؤسسة حكومية فرنسية تتبع المفوض السامي مباشرة . ثم ضم هذا الفرع من خط الحجاز الى الشركة الفرنسية المسماة خطوط حديد دمشق - حماه وتمديداتها ، في ٢٠ شباط ١٩٢٤ (٧٩) وتحول الخط برمته الى ملكية الفرنسيين .

ومنذ نهاية ١٩٢٣ ايضاً قامت شركة حصر التبغ والتبناك باسم المونوبول ، تبسط سيطرتها على كافة اراضي لبنان الكبير بأمر من الجنرال ويفان ، بينما كان جبل المتصرفية مستثنى من نفوذ هذه الشركة حتى هذا العام . فلجنة الدين العمومي العثماني ، وشركة الخطوط الحديدية لدمشق - حماه وتمديداتها ، وشركة مرفأ بيروت ، وشركة التبغ والتبناك ، والمصارف الفرنسية خاصة الشركة الفرنسية لبنك سوريا ولبنان ، وبنك سوريا العقاري ، وبنك التسليف الليوني ، والبنك العقاري للجزائر وتونس ، وشركات النقل البحري ، وامتيازات التنقيب عن الاثار ، وغيرها كانت تأخذ بزمام جميع اقتصاديات سوريا ولبنان وتحول سياسة الباب المفتوح الى احتكار مكشوف لصالح الرساميل والشركات الفرنسية في المقام الاول .

— Saïd Chéhab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 78. (٧٨)

(٧٩) المنار - الجزء ٢٥ - المجلد ٣ - أيار ١٩٢٤ - مقالة « سكة حديد الحجاز » .

تغير جذري في مواقع الدول المصدرة الى مرفأ بيروت

احتفظت بريطانيا فترة طويلة قبل الحرب وبعدها بالمركز الاول في صادراتها الى مرفأ بيروت (٨٠). وحتى عام ١٩٢١، بلغت قيمة صادراتها الى هذا المرفأ ١٣١٤٥ مليون فرنكاً فرنسياً، بينما احتلت مصر، الخاضعة للحماية البريطانية آنذاك، المركز الاول في صادراتها الى مرفأ طرابلس في نفس العام بقيمة ٣٢ مليون فرنك، في حين احتلت مصر المركز الثاني في صادراتها الى مرفأ بيروت بقيمة ٩٦ مليوناً، واحتلت المرتبة الثالثة لعام ١٩٢٢ في توريداتها لهذا المرفأ بمبلغ ٢٩ مليوناً مقابل احتفاظها بالمرتبة الاولى في صادراتها لطرابلس بقيمة ١٤ مليوناً من الفرنكات. اما فرنسا فقد احتلت المرتبة الثالثة بقيمة صادراتها الى بيروت عام ١٩٢١ وبلغت قيمتها ٩٥ مليون فرنك، ثم احتلت المرتبة الثانية هناك عام ١٩٢٢ بقيمة ٣٤ مليوناً، في حين لم تحتل سوى المرتبة السادسة في صادراتها الى طرابلس في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢.

والحدث البالغ الاهمية، هو دخول الولايات المتحدة بقوة الى اسواق سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الاولى، فاذا اخذنا الترتيب العام لحجم الصادرات والواردات لسوريا ولبنان عام ١٩١٠، تبين لنا ان حصة انكلترا كانت ٢٥٤٧٪ اي المرتبة الاولى، وتلتها تركيا بحصة ١٨٤٥٪، ثم ١٧٤٨٪ لفرنسا، ثم ١٠٪ لمصر، ثم ٦٪ للنمسا، ثم ٥٤٦٪ لاطاليا، ثم ٤٤٤٪ لالمانيا، ثم ١٢٪ لروسيا وبلغيكيا وغيرهما من الدول الاوروبية، ولم يلحظ اي وجود فعلي، على الصعيد التجاري، للولايات المتحدة الاميركية آنذاك.

هذا الوضع، يشهد تغييراً جذرياً منذ مطلع الانتداب، اذ احتلت الولايات المتحدة المرتبة الرابعة بقيمة وارداتها الى مرفأ بيروت والتي بلغت ٢٢ مليون فرنك، والمركز الخامس عام ١٩٢٢، بعد انكلترا وفرنسا واطاليا والمانيا، كما احتلت المرتبة الثانية في وارداتها الى طرابلس عام ١٩٢١ بعد مصر مباشرة. على الصعيد الصادرات من مرفأ بيروت كانت مصر في طليعة الدول التي صدر عنها هذا المرفأ عام ١٩٢١ بمبلغ ٤٩٤٢ مليون فرنك، تلتها فرنسا بمبلغ ١٣ مليوناً، ثم تركيا بمبلغ ٤٤٩ مليوناً، ثم الولايات المتحدة بمبلغ ١٤٩٨ من الملايين.

اما في عام ١٩٢٢، فقد احتلت الولايات المتحدة المرتبة الاولى في استيرادها من مرفأ بيروت بمبلغ ٥٤٩٨٥ مليوناً، وجاءت فرنسا ثانية بمبلغ ٥٤٥ مليون ثم مصر فتركيا، في حين احتلت تركيا المرتبة الاولى في قيمة استيرادها من مرفأ طرابلس عام ١٩٢١ بمبلغ ٣٤١ مليون وتلتها مصر بمبلغ ١٤٣ مليون، ثم فرنسا، فالولايات المتحدة وظلت تركيا تحتفظ بالمرتبة الاولى ايضا في استيرادها من طرابلس لعام ١٩٢٢ بمبلغ ١٤٧ مليوناً، وتلتها مصر وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية (٨١).

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 41.

(٨٠) لطفى الحنار « التجارة السورية » من « خطط الشام » لحمد كرد على الجزء الرابع — ص ٢٨٤

لقد تثبت فعلياً مركز الولايات المتحدة الممتاز في حجم مبادلاتها مع مرفأ بيروت وطرابلس، هذا المركز سيعزز أكثر فأكثر في الاعوام اللاحقة. فقد استورد مرفأ بيروت من الولايات المتحدة بضائع بقيمة ١١٤٣٢٣٤٤٥٠ قرشاً سورياً عام ١٩٢٣، و ١٤٤١٦٦٤٤١٣ قرشاً عام ١٩٢٤، و ٢٢٤٩١٩٥٦٨ قرشاً عام ١٩٢٥ (٨٢). كما استورد مرفأ طرابلس منها بقيمة ٣٠٢٧٠٢ قرشاً لعام ١٩٢٣ وبقيمة ٣٤٢٢٣٤٢٤٣ قرشاً لعام ١٩٢٤، وبقيمة ١٤٤٠٤٢٠١ قرشاً عام ١٩٢٥، في حين بقيت صادرات مرفأ طرابلس الى الولايات المتحدة ضعيفة جداً بقيمة ٧١٤٣٠٠ قرشاً سورياً لعام ١٩٢٣، وبمبلغ ٣١٤٢٠٩ قروش سورية فقط لعام ١٩٢٥.

لقد استطاعت تجارة الولايات المتحدة القوية ان تغزو اسواق سوريا ولبنان بفضل سياسة الباب المفتوح التي فرضوها على الفرنسيين، وبفضل قوة اقتصادهم والنشاط الهائل لتجارهم آنذاك.

وبصورة عامة، يمكن القول ان بريطانيا بقيت تسيطر على المرتبة الاولى في صادراتها الى مرفأ بيروت عام ١٩٢٣ بقيمة ٩٣ مليون فرنك، في حين احتلت فرنسا المرتبة الثانية بقيمة ٦٦ مليوناً، ومصر المرتبة الثالثة بمبلغ ٥٤ مليوناً، واطاليا بمبلغ ٤٦ مليوناً، فالولايات المتحدة بمبلغ ٢٨ مليوناً، فبلجيكا بمبلغ ٢٦ مليوناً، فالمسائيا بمبلغ ٢٥ مليوناً من الفرنكات (٨٤).

وفي مرفأ طرابلس، بقيت مصر تحتل باستمرار المرتبة الاولى في صادراتها اليه عام ١٩٢٣ بمبلغ ٢٠ مليون فرنك، تلتها بريطانيا بمبلغ ١٨ مليوناً فاطاليا بسبعة ملايين، ففرنسا بمبلغ ٦٤٤ مليوناً، فالولايات المتحدة بمبلغ ٦٤٢ مليوناً (٨٥) من الفرنكات.

وبقيت مصر تحتفظ بالمرتبة الاولى في استيرادها من مرفأ طرابلس بقيمة ٥٤٢ مليون فرنك مقابل ٥٤١ مليون لفرنسا، و ٤ ملايين للولايات المتحدة، و ٣٤٥ لاطاليا. في حين نالت فرنسا، ولأول مرة، المرتبة الاولى بقيمة استيرادها من مرفأ بيروت والتي بلغت ٢٩ مليوناً من الفرنكات، تاركة وراءها مصر بمبلغ ٢١ مليوناً والبلدان المجاورة بمبلغ ٨ ملايين وتركيا بمبلغ سبعة ملايين والولايات المتحدة بمبلغ ٤ ملايين. كما احتلت فرنسا المقدمة ايضا خلال هذا العام ١٩٢٣ في استيرادها من مرفأ طرابلس.

اما على صعيد الترتيب الاجمالي للتصدير والاستيراد في مرفأ بيروت وطرابلس، فقد استمرت بريطانيا في الطليعة عام ١٩٢٣ تاركة وراءها فرنسا (٨٦)، التي تسعى حثيثاً للوصول الى المرتبة الاولى بعد ان اصدرت أوامرها لجميع السفن

(٨٢) — Bulletin du C.I.F.L. de 1924-1927 — Index.

(٨٣) — H. C. « Rapports sur les années 1925 et 1926 » — Annexes 8 et 9.

(٨٤) ايلي وجرجي جدعون « الدليل السوري لسنة ١٩٢٤ » ص ٢٥.

(٨٥) — L'Asie Française — No. 224 — Juillet-Août 1924 — Index.

(٨٦) — L'Asie Française — No. 223 — Juin 1924 — P. 253 — Article « Mouvement commercial du port de Beyrouth en 1923-1924 ».

الفرنسية التي تعمل على خطوط الملاحة الفرنسية والاجنبية بالتوقف في بيروت (٨٧) ، ثم مصر التي احتلت المرتبة الثالثة فايطاليا والولايات المتحدة ، وبلجيكا ، والمانيا ، وتركيا .

واستمرت بريطانيا تحتل المرتبة الاولى في صادراتها الى مرفأ بيروت خلال عام ١٩٢٤ ايضا بقيمة ٥١.٠٥ مليون (٨٨) من القروش السورية مقابل ٥.٧٥ مليون لعام ١٩٢٥ . واحتلت فرنسا المرتبة الثانية في هذا المجال بقيمة ٤٥٦٧ لعام ١٩٢٤ والاولى عام ١٩٢٥ بقيمة ٥٣٨٥٩ مليون من القروش السورية . وبالترتيب العام بقيت انكلترا في المرتبة الاولى تليها فرنسا فايطاليا فالولايات المتحدة فبلجيكا فتركيا .

اما في طرابلس فقد تسلمت الولايات المتحدة المرتبة الاولى في الصادرات الى هذا المرفأ عام ١٩٢٥ . وبقيت الولايات المتحدة تحتل المرتبة الاولى كذلك لعام ١٩٢٦ في صادراتها الى هذا المرفأ وتلتها انكلترا ، فالهند ، فايطاليا ، فمصر ، فتركيا (٨٩) .

لقد كان على فرنسا انتظار الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٢٦ كي تحتل المركز الاول في حجم سلعها التجارية مع مرفأ بيروت اذ صدرت اليه ٣٧٤.٧٦ طن من البضائع بلغت قيمتها ٥٨٨٤٤ مليون قرشا سوريا مخلفة وراءها انكلترا فايطاليا فالولايات المتحدة الاميركية . فليس من قبيل الصدفة على الاطلاق ان يرافق احتلال فرنسا للمرتبة التجارية الاولى في مرفأ بيروت اعلان بداية المرحلة الدستورية في لبنان ثم في سوريا باعلان الجمهورية فيهما بعد ذلك بقليل . لقد باتت المرحلة الدستورية ضرورة حيوية للرسميل الفرنسية التي هيمنت في ظل الحكم العسكري المباشر ، كي تنمو وتثمر في ظل الهدوء والاستقرار .

ضرب الاقتصاد اللبناني لصالح القطاع التجاري

وصلت فرنسا الى المرتبة الاولى في صادراتها الى سوريا ولبنان عن طريق مرفأ بيروت بعد ان اوصلت اقتصاد هذين البلدين الى عجز رهيب في الميزان التجاري فيهما قدر بمبلغ ٧٤٥ مليون من الفرنكات خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٠ الى ١٩٢٦ ، حسب اعتراف الفرنسيين انفسهم . وقد اورد روبر دو كيه ، مندوب فرنسا الدائم في لجنة الانتداب ، بنفسه هذا الرقم (٩٠) .

وسجل ميزان التجارة مع سوريا ولبنان عجزا متواصلا خلال السنوات العشر ما بين ١٩٢٣ - ١٩٣٢ ، وبلغ هذا العجز حوالي ٧٦٦.٧ (٩١) مليون فرنك فرنسي . لقد كان العجز مرعبا اذ بلغ سنويا حوالي ٦٧٥.٦٦ مليون فرنك تقريبا ، في حين كانت ميزانية مجموع الدويلات السورية ولبنان تبلغ في المتوسط ٣٨٠ مليون ، بمعنى

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 66.

— Bulletin de C. I. F. L. — Janvier 1926 — P. 4.

— Bulletin de C.I.F.L. — Ibid — Juin-Juillet 1926 — P. 63.

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 63.

— Omar Djabry « La Syrie sous le régime du mandat » — P. 39.

(٨٧)

(٨٨)

(٨٩)

(٩٠)

(٩١)

ان العجز في ميزان المدفوعات تجاوز ضعف الميزانية تقريبا . واذا اضفنا الى هذا العجز حصة الدين العمومي العشائي البالغة ١١٠٣٤٪ من الميزانية تقريبا ، التي كان لبنان وسوريا يدفعانها سنويا ، تبين لنا مقدار العجز الاجمالي الذي اوصلتنا اليه فرنسا .

لقد بالغ الفرنسيون كثيرا في دعم القطاعات غير المنتجة على حساب القطاعات المنتجة . فالعطورات مثلا ستحتل مركزا بالغ الاهمية باعتبارها من المنتجات الفرنسية . ويكفي ان نلاحظ ان تجار مستحضرات التجميل في دمشق قد زاد عددهم اربعة اضعاف ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ في حين ان استيراد الآلات الميكانيكية الضرورية لتنشيط الاقتصاد لم تزد الا بنسبة ٣٠٪ (٩٢) للفترة ذاتها .

ان نسبة ١ الى ٢ التي كانت تربط بين الصادرات والواردات في المتصرفية تغيرت تماما بعد الحرب . فمن ١ الى ٦ عام ١٩٢٠ حتى ١ الى ١١ عام ١٩٢٤ حتى ١ الى ١٦ عام ١٩٢٦ . هذا العجز ستسد أموال المهاجرين اللبنانيين جزءا هاما منه بحيث يسلب الانتداب خيرات اللبنانيين في الداخل والخارج . وبالرغم من ذلك فان ادارة الانتداب اعترفت صراحة عام ١٩٢٦ « ان الخسائر المخيفة الناشئة عن اختلال الميزان التجاري لسوريا ولبنان لن يكون بالامكان التعويض عنها بأموال المهاجرين المرسلين الى ذويهم ، ولا بمصاريف المصطافين ولا بالصادرات الى الداخل (٩٣) . لقد دشّن الفرنسيون عهد استغلال جميع فئات الشعب لمصالح تجارهم والقلّة من الوسطاء المرتبطين بهم تجاريا .

نشوء بورجوازية تجارية بيروتية « أهمية » السمسرة والوساطة

في عام ١٩٢٦ ، كان لبنان يشتري من جميع الدول الاوروبية والولايات المتحدة بشكل خاص . ومنذ ذلك التاريخ ، تبوّأت فرنسا المرتبة الاولى من حيث قيمة وارداتها الاجمالية الى مرفأ بيروت ، في حين بقي ترتيبها يتغير بين المرتبة الثالثة والمرتبة السادسة بالنسبة لوزن البضائع .

وكانت بريطانيا تتبعها مباشرة ثم تليهما الولايات المتحدة ، التي لم يكن لها وجود يذكر قبل الحرب ، فايطاليا وتركيا .

وبصورة عامة كانت الكماليات وادوات الزينة والمنسوجات الفاخرة من صنع فرنسي وانكليزي في المقام الثاني . وكانت البضائع اليابانية تحاول اكتساح الاسواق اللبنانية بأسعار زهيدة لهذه الاصناف . اما السيارات فكانت تستورد من الولايات المتحدة بشكل خاص . وكانت مواد البترول والبنزين والذووت من انتاج شركات « شل » و « ستاندارد اويل » و « فاكوم اويل » والتي كانت اغلبية رسميلها اميركية . في مجال الاجهزة الكهربائية ، كانت فرنسا وبلجيكا والمانيا تتقاسمها فيما

— Richard Thoumin « Géographie humaine... » — P. 195.

— Bulletin économique du H. C. — Février 1926 — P. 7.

(٩٢)

(٩٣)

بينها . اما الحبوب والدقيق فكانت تستورد من الولايات المتحدة واستراليا ، في حين استوردت الاخشاب من رومانيا وتركيا واسكندنافيا . البيوتات الانكليزية والايطالية تتصارع لاحتكار الجوخ ، اما الماركات الالمانية والفرنسية والانكليزية فكانت تتقاسم سوق الادوية والعقاقير . في حين تحتكر المانيا الاجهزة وادوات التصوير الفوتوغرافي . وكذلك اللعب الميكانيكية الصغيرة . وكانت تشيكوسلوفاكيا تزاحم سوق الجلود اللبنانية بانتاج صناعي متفوق . وكانت النمسا وفنلندا تصدران الورق للصحف والمنشورات في لبنان ، وتقتسم فرنسا وايطاليا تقديم معلبات الخضار ، وتصدر فرنسا وهولندا والمانيا وبلجيكا له انواعا جيدة من البيرة والمشروبات . فهل بقيت دولة صناعية عالية خارج الهيمنة على مجال من مجالات التجارة في لبنان ؟

كما ان توسع التجارة دفع الى توسع في اعمال الوكالات لمختلف السلع وتوسعت معها بيوتات الوساطة وشركات التوزيع بصورة خاصة . وكان اغلبيّة اعضائها من اللبنانيين .

وهكذا اخذت مراكب الشحن تفرغ حمولاتها على أرصفة بيروت ، وتحول العديد من اللبنانيين الى سماسرة او وسطاء او مروجين او باعة لتلك الحمولات . لقد نجح الانتداب الفرنسي في تحريك تجارة واسعة في بيروت ، انعمت معها فئة كبيرة من الوسطاء وتجار الترانزيت وباعة الجملة . وجنت تلك الفئة فوائد جمة ، ليس من الرساميل الفرنسية فحسب ، بل ومن جميع الرساميل المتواجدة على ارض بيروت .

واضحت بيروت منذ بداية الانتداب ، عاصمة كبيرة للبنان اداريا ، لكنها عاصمة فعلية لجميع الدويلات السورية ايضا من جميع النواحي الادارية والعسكرية والثقافية والاقتصادية .

ان تجارة بيروت وجدت متسعا لها نحو حلب ودمشق والعراق وغيرها . وكان تجار بيروت يشرفون على مرور بضائع بملايين الفرنكات المحمولة الى تركيا وايران وفلسطين ومصر . وقد خلف هؤلاء التجار ثروات طائلة جدا وشكلوا القاعدة الاساسية للبورجوازية التجارية في لبنان المستقل . ويكفي ان نذكر هنا مثلا للدلالة على غنى هؤلاء التجار ما ورد في جريدة « النهار » البيروتية في عددها رقم ١٢٠٥٢ الصادر في ٧ آذار ١٩٧٤ ، وعلى صدر صفحاتها الاولى من ان التاجر والشاعر المشهور في تلك الفترة ، شارل قرم ، ترك ثروة كبيرة جدا وان ورثته باعوا قطعة واحدة من الاراضي التي خلفها وراءه ، بمبلغ ٦٠ مليون ليرة لبنانية . وشارل قرم هذا كان وكيل العديد من الشركات الاميركية والفرنسية في لبنان .

ان تجار بيروت الوسطاء عرفوا كيف يتوزعون على كافة الوكالات لمختلف رؤوس الاموال الاجنبية العاملة في لبنان . هؤلاء التجار لم يرتدوا اي لون طائفي او قومي سوى التزامهم بمصالحهم التي تنبع اصلا من مصالح الراسمال الذي يعملون لخدمته .

هذه الفئة التجارية الوسيطة كانت موالية للانتداب وداعمة له طيلة تلك الفترة . ان التقدم التجاري الواسع الذي تحقق في بيروت زمن الانتداب الفرنسي ، كان لصالح الانتدابين ، ولصالح هذه الفئة الوسيطة البيروتية التي تنعمت وحدها بخيرات الوجود الانتدابي على لبنان فجعلت من قطاع التجارة ، المرتبط تبعيا ومصالحيا بالراسمال الاجنبي ، العمود الفقري لتطور الراسمالية في لبنان المستقل . لقد ترسخ مع ازدهار التجارة في بيروت اتجاه تطور الراسمالية اللبنانية الوحيد الجانب والشديد التبعية للاحتكارات الاجنبية .

□ الفصل الثاني □
رَبط الاقتصاد اللبناني
بمَجلة القرنك الفرنسي
والشركات الفرنسية في بيروت

الحرب العالمية الاولى تغير الموازين المالية السابقة

كان مخزون النقد الذهبي في تركيا قبيل الحرب العالمية الاولى يقدر بأربعين مليوناً (١) ليرة تركية ذهبية يضاف اليها حوالي ثلاثين مليوناً اخرى من الليرات الذهبية موزعة للتداول واختفى القسم الاكبر منها بسبب النفقات الباهظة للجيش ، والعجز المالي في ميزان مدفوعات الاتراك ، وبسبب بعض التنازلات الاقليمية المختلفة التي اجبرت تركيا عليها منذ مطلع القرن العشرين . ويؤخذ من الاحصائيات الرسمية ان تلك النقود الذهبية قد سكّت خلال الفترة الممتدة بين اعوام ١٨٤٤ و ١٩١٤ ، وبلغ مجموعها ٦٩،٢٨٦،٠٠٠ ليرة تركية ذهبية . وقد أورد فيرجو (٢) تواريخ تلك الاصدارات كما يلي : ١٤ مليوناً و ٤٨٠ ألفاً سكّت عام ١٨٤٤ في عهد السلطان عبدالمجيد ، و ١٤ مليوناً و ٩٧٠ ألفاً في عام ١٨٧٧ في عهد السلطان عبدالعزيز ، و ١٦ مليوناً و ٣٦ ألفاً من الليرات الذهبية ضربت ايام السلطان عبدالحميد الثاني حتى ١٩٠٩ ثم ٢٣ مليوناً و ٨٠٠ ألف ليرة ذهبية ضربت زمن السلطان محمد رشاد عام ١٩١٤ .

غير ان دخول تركيا الحرب في عام ١٩١٥ قلب الوضع المالي للذهب تركيا رأساً على عقب مما اضطرها الى اصدار النقد الورقي وجعلت الليرة التركية الورقية مرتبطة بأسعار الليرة الذهبية بمعدل مئة قرش ذهب لليرة الورقية اسمياً واستمرت الليرة الذهبية أساس النقد المتداول وقامت تركيا منذ هذا العام تحاول فرض الليرة الورقية كأساس للتداول النقدي . لكن العجز المستمر في ميزانية الدولة العثمانية اضطرها الى اعلان سلسلة من الاصدارات الورقية ما بين ٣ آذار ١٩١٥ و ٢٨ آذار ١٩١٧ ، اي في مدى ٢٤ شهراً . وقدر مجموع تلك الاستصدارات خلال تلك الفترة

(١) — Ahmad Sammân « Le régime monétaire de la Syrie » — Thèse. P. 12.
(٢) — Vergeot « Revue d'économie politique » — Année 1919. P. 280.
— Voir Jean Ducruet « Les capitaux européens au Proche-Orient. P. 94.

بأكثر من ١٢٨ (٢) مليون ليرة تركية ورقية توزعت إصداراتها كالتالي : ١٤٧،٩١٩،٥٠٠ ليرة في ٣ أيار ١٩١٥، ثم ٥٠،٦٧،٦٠٠ في ١٨ آب من العام نفسه، ثم ٨،١٣١،٠٠٠ في ١٨ تشرين الأول ١٩١٥، ثم ٧٣،٩٥٥،٨٢٠ ليرة ورقية تركية في ٢٢ كانون الأول من العام نفسه، ثم ٣٥،٤٩٦،٠٧٥ ليرة حتى آذار ١٩١٧. وهكذا أصدرت الدولة العثمانية أكثر من ٩٢ مليون ليرة ورقية في عام واحد، مما أوجد الرعب في نفوس المتعاملين بهذه الأوراق.

وزاد في خطورة الوضع، لجوء تركيا إلى القوة الجبرية لفرض ليرتها الورقية. فأصدر جمال باشا، قائد الفيلق الإمبراطوري الرابع ووزير بحرية تركيا، إنذارا دعا فيه السكان إلى ضرورة استخدام النقد الورقي التركي. وقد أنهى جمال باشا إنذاره ذلك بالتهديد التالي: «إذا لم تتحقق رغبتى قبل ١٥ آذار ١٩١٧، أي إذا لم تقبل الليرة الورقية بسعر معادل العملة الذهبية، فسأنفي إلى الأناضول والرومللي، عشرة من الأغنياء والشخصيات البارزة والتجار والصناعيين يختارون بالقرعة. وألفت الانتباه هنا إلى أن اسمي المديرين للبنك العثماني وللبنك الألماني سيكونان في عداد الاسماء التي ستلقى في صندوق القرعة». ثم يضيف التهديد التركي أنه: «بعد ستة أسابيع من نفي الدفعة الأولى، ستأخذ دفعة ثانية نفس الطريق إلى الأناضول والرومللي، ثم دفعة ثالثة، وهكذا بانتظام حسابي، إلى أن تصبح الليرة الورقية عملة التداول الطبيعية في المنطقة» (٢٤).

يستتبع من هذا الإنذار أن التجار والصناعيين والأثرياء والوجهاء في سوريا ولبنان قد رفضوا التداول بالنقد الورقي التركي كما أن هناك اعترافا صريحا من مسؤول تركي كبير عن لوقف العدائين لأكبر مؤسستين ماليتين في الإمبراطورية العثمانية بينهما البنك الإمبراطوري العثماني بالذات حيال هذا النقد الذي أصدرته تركيا في الحرب مما زاد في صعوبة وضع الليرة التركية الورقية وأضعف من قيمتها التداولية.

لذا سادت أوضاع سوريا ولبنان والمنطقة العربية الخاضعة لتركيا برمتها ثلاثة اعتبارات أساسية (٥) في المداورات المالية من جراء سياسة تركيا تلك في القطاع النقدي: أولى تلك الاعتبارات أن الإمبراطورية العثمانية لم تسع إلى جذب الذهب إلى صناديقها خلال الحرب، كما فعلت دول أوروبا والولايات المتحدة بشكل خاص، بل لم تسع إلى المحافظة على ما لديها من النقد المعدني على الأقل. وثاني تلك الاعتبارات أن سياسة تركيا في استصدار الأوراق المالية قد دفعت السكان إلى ادخار ما لديهم من نقود ذهبية وفضية مما زاد في مخزون الذهب في

(٣). سعيد حباده - «النظام النقدي والمراعي في سوريا» ص ٣٦.

(٤). نشرت جريدة Le Temps الباريسية هذا الإنذار في عددها الصادر في ٦ تموز ١٩١٧ وذكره أيضا.

— André Mandelstam «Le sort de l'Empire Ottoman». P. 341.

— Voir aussi Georges Samné «La Syrie». P. 461-462.

— Maxime Nicolas «Questions monétaires en Syrie...» — Thèse. P. 42. (٥)

سوريا ولبنان بعد رفض السكان التداول بالعملة الورقية والاعتماد على المقايضة في تبادل السلع.

أما الاعتبار الثالث والأهم، فإن تغيرا ملموسا قد حصل على توزيع الذهب في العالم عما كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى بالذات. فقد سجلت تلك الحرب توقفا يكاد يكون تاما في نشاط أوروبا الاقتصادي والمالي والتي منيت بخسائر مالية وبشرية ضخمة جدا. لكن الحرب عينا قد اتاحت لاقتصاد الولايات المتحدة الأميركية المنظم، أن يؤمن لها تقدما هائلا على أوروبا بالذات. فانقلبت إلى دائرة بعد أن كانت مدينة لها حتى الامس القريب. وأضحت الولايات المتحدة الأميركية تشكل خزان لا ينضب من رؤوس الأموال، بعد الحرب مباشرة. فقد زاد دخلها الإجمالي ثلاثة أضعاف ما كان عليه عام ١٩١٠ وذلك في عام ١٩٢٨. وجاء الاستقرار المستمر لمعملتها، الدولار، الذي أصبح وسيلة التداول النقدي الأولى في العالم، لجعل منها أغنى بلد على الكرة الأرضية. كما اتاحت لها وفرة مواردها المادية الاستغناء التام عن عدد كبير من المستوردات الأوروبية، قبل الحرب وبعدها. كما أن اختلال التوازن المالي في الإمبراطوريات القديمة اتاح لها أيضا اجتذاب الذهب الأوروبي الذي جاء ليزيد من حجم مدخراتها المصرفية وموجوداتها الذهبية (٦).

فبينما كان على أوروبا ما بعد الحرب أن تعالج بلبلة نقدية شديدة الخطورة، يضاف إليها مصاعب اقتصادية وبشرية جسيمة، سببت لها اضطرابات سياسية واسعة وقلقا اجتماعيا مرعبا، كان الاقتصاد الأمريكي يقوى وينتعش ويرتفع إلى أضعاف ما كان عليه قبل الحرب. وهكذا برز انقلاب خطير في الأسواق المالية العالمية أحل الأمريكيين محل الأوروبيين في تقديم القروض والمعونات المالية، لا إلى البلدان الفتية فحسب، بل إلى أوروبا بالذات.

لقد بدأ النظام المالي الأوروبي يعاني أزمة مستمرة قاسية في مواجهة الازدهار الاقتصادي المتنامي للولايات المتحدة الأميركية منذ مطلع الحرب العالمية الأولى، وبدأ الارتفاع الجنوني للأسعار يشل القوة الاستهلاكية للمواطن الأوروبي. وهبطت الليرة الانكليزية الاسترلينية بمقدار الخمس عن سعرها السابق بالنسبة للدولار، في حين هبط الفرنك الفرنسي بمقدار النصف (٧)، وأدى التضخم النقدي الأوروبي إلى عدم استقرار لا مثيل له من قبل في أوروبا في حين تعززت مكانة الدولار كأول عملة عالمية مستقرة وثابتة على أساس مبادلتها بالذهب.

الفوضى المالية في سوريا ولبنان

يؤخذ من معلومات إدارة النقد العثماني أن الذهب كان موجودا بوفرة في سوريا ولبنان قبل الحرب العالمية الأولى (٨). وبالرغم من تهديدات جمال باشا، فإن السكان

(٦). Voir Maurice Baumont «La Faillite de la Paix» — Tome I. PP. 291-295.

(٧). Baumont — Op. Cit. P. 12.

(٨). Voir M. Nicolas «Questions monétaires...» P. 12.

الريفيين في هذين البلدين ، وعلى الاخص سكان المناطق الزراعية الفنية بالقمح في حوران وعكار والبقاع ، قد رفضوا تداول النقد الورقي التركي ولم يجز تطبيق انذار جمال باشا الا في بيروت وطرابلس وجبل لبنان ، حيث كان واسع الانتشار على سواحل سوريا ولبنان . وكانت النتيجة الطبيعية لرفض التعامل بالنقد الورقي في الداخل ، ولا سيما ايام الحرب ، ورفض تقديم السلع الزراعية ، خاصة الحبوب ، الا بالنقود الذهبية ، ان تكسبت كميات كبيرة من الذهب في الداخل السوري واللبناني (٩) .

ويقول سعيد حماده في كتابه « النظام النقدي والمصرفي في سوريا » ... « والذي يدعو الى الدهشة هو وفرة التداول من القطع الذهبية التركية في كل مكان ، وعلى الخصوص في الداخل ، حيث تجمع لدى الاهالي مبالغ كبيرة من بيع الحبوب » (١٠) . وقد قدر غابريل منسى المدخر الذهبي بسبعة ملايين ليرة تركية ذهبية عام ١٩١٤ و ١٥ - ١٨ مليوناً عام ١٩١٨ . اما جورج عشي فقدّر الاحتياط الذهبي لسوريا ولبنان ما بين ١١ - ١٢ مليوناً عام ١٩٢٠ - ١٩٢٢ (١١) .

ونتيجة لرفض السكان تداول الورقة التركية ، هبطت قيمتها الفعلية بشكل عمودي مما أدى الى تأزم الوضع الاقتصادي تأزماً خطيراً . فقد انخفضت قيمة الليرة التركية ما بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٧ من مئة قرش ذهبي يوم صدورها عام ١٩١٥ الى ٩٩٠٧٥ عام ١٩١٦ الى تسعة قروش فقط في كانون الاول ١٩١٨ (١٢) أي بعد شهرين فقط من دخول الحملة الانكليزية - فرنسية الى سوريا ولبنان ، في حين بقيت الليرة التركية الذهبية قاعدة للتداول النقدي في هذين البلدين وانتشرت اجزاؤها بكثرة فيهما . وكانت اكثر تلك الاجزاء استعمالاً : البشلك ونصف البشلك ، والقرش الذهبي ونصف القرش ، والمتليك ونصف المتليك ، وكلها من الذهب والفضة او المزيج المعدني معهما ، ثم البارة ، والخمسة اي خمس بارات ، والنحاس ونصف النحاس ، وكلها من المعدن النحاسي والمزيج يدخل فيه النحاس (١٣) .

وبالإضافة الى الليرة التركية الذهبية ، كان قيد التداول ايضا في سوريا ولبنان ، النابوليونيات التي تركتها الحملة الفرنسية عام ١٨٦٠ في لبنان ، واللوسيات من فئة العشرين فرنكا ، وروبلات الذهب الروسية ، والدولارات الذهبية التي كان يرسلها المقربون خاصة ، والليرات الاسترلينية الذهبية ، وقطع الخمس ليرات

(٩) بدر الدين السباعي - « اضواء على الراسمال الاجنبي في سوريا » - ص ١٠٨ .

(١٠) سعيد حماده - المصدر المذكور - ص ٥٤ .

(١١) ذكرها بدر الدين السباعي - المصدر السابق - ص ١٠٨ .

(١٢) سعيد حماده - المصدر السابق ص ٤٥ . وقد جاء في « قرارات المالية العامة لدولة دمشق » من سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ما يلي : « فبن ٩٩ قرشاً ذهباً في مطلع كانون الثاني ١٩١٦ مستخفض الليرة التركية الورق الى ٦٦ قرشاً في تموز ١٩١٦ ثم الى ٤٢ ق.ذ. في تشرين الاول ١٩١٦ ، ثم الى ٢٣ ق.ذ. في آذار ١٩١٧ ، ثم الى ٢٠ ق.ذ. في آذار ١٩١٨ ، ثم الى ٢٠ قروش ذهبية في تشرين الاول ١٩١٨ » - ص ١٢ .

(١٣) راجع حماده - المصدر السابق ص ٢٥ والسلمان - المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ .

الاسترلينية من الفضة ، والليرة الانكليزية « ام حصان » او « ليرة مار جرجس » كما كان يسميها السكان المحليون (١٤) .

لقد بقي الذهب أساس التعامل النقدي في سوريا ولبنان طيلة فترة الحرب العالمية الاولى . وبالرغم من كل التدابير التي اتخذتها الادارة التركية فيهما ، فقد فشلت تلك الادارة في اقناع السكان بضرورة الاعتراف بقيمة الورق التركي معادلاً لأساس ذهبي . لقد كانت الليرة التركية الورقية عديمة الفائدة في مجرى التداول النقدي ولم تكن مستقرة الى سعر واحد عند دخول القوات الحليفة ارض البلدين . فكان سعرها يتراوح بين ستة قروش ذهبية و ٢٥ قرشاً من اصل قيمة اسمية لها تبلغ مئة قرش ذهبي . وكان الصيارفة يرفضون رفضاً باتاً ابدال هذه الليرة بأية قطع نقدية اخرى (١٥) . لذا كان من السهل على الادارة الحليفة ، بقيادة الجنرال اللنبي ، تصفية الورق التركي وجعل استعماله غير قانوني بعد فترة وجيزة جداً من الزمن ، تلك الفترة التي تلت الحرب مباشرة . فقد ترك اللنبي تداول الليرة التركية الورقية كما هو من اجل تمكين السكان من شراء اغذيتهم بعد فترة المجاعة التي مروا بها ، غير ان اللنبي لم يحدد قيمة تلك الورقة التركية بل قام باصدار ورقة النقد المصرية او الليرة المصرية في سوريا ولبنان الى جانب الورق التركي . فأدرك الاهالي ان استخدام الاوراق التركية غير مضمون النتائج ولا تكفله الادارة الحليفة فامتنعوا عن التعامل به . وبين عشية وضحاها ، وجد حاملو الليرات الورقية التركية أنفسهم ، وقد خسروا الجزء الاكبر من ثرواتهم ، ومنيت تلك الليرة بانخفاض متسارع في المبادلات السرية غير الرسمية بينها وبين الذهب . وبيعت تلك الليرة مقابل ١٨ قرشاً ذهبياً لدى وصول الحلفاء الى سوريا ولبنان ، وسرعان ما هبطت قيمتها بعد شهر فقط الى ٩ ق.ذ. ثم الى ٦ ق.ذ. أي ما يعادل ٤٥ فرنكات فرنسية بينما هي تعادل اصلاً ٨٠ (١٦) فرنكا فرنسياً . واختفت الليرة التركية الورق من التداول نهائياً مع مطاع عام ١٩١٩ .

لقد زاد قرار الجنرال اللنبي ، الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ (١٧) ، من تفاقم الوضع الاقتصادي ، والبليلة على صعيد التعامل النقدي . فقضى هذا القرار على حصر التعامل النقدي بالقطع الذهبية لجميع الدول وبالقطع الفضية الانكليزية والمصرية والهندية وكذلك التركية ، وبالنقد الورقي المصري فقط . وجعل هذا القرار التداول بالعملة الورقية ممكناً عن طريق البنك الاهلي المصري بمفرده . وخص القرار كذلك هذا النقد الورقي المصري بامتياز السعر القانوني على أساس معادلته بالذهب . وتلت هذا القرار عدة قرارات اخرى حددت الضرائب والالتزامات ورواتب الموظفين على أساس

(١٤) Voir André Latron « La vie rurale en Syrie et au Liban ». P. 32 .

(١٥) يقول ماكسيم نقولا « كانت الاسعار تتراوح بين ٤٥ و ٥٠ قرشاً ورقياً لليرة الذهبية الواحدة عندما كانت جيوش الحلفاء تقترب من بيروت لدخولها في ٢٣ تشرين الاول ١٩١٨ » المصدر السابق - ص ٤٦ .

(١٦) Voir aussi A. Yammine « Quatre ans de misère 1914-1918 ». P. 49 .

(١٧) س. حماده - النظام النقدي - ص ٥٣ .

(١٨) راجع القرارين ١١ و ٣١ لعام ١٩١٨ .

القرار السابق أي الذهب والفضة والنقد الورقي المصري دون غيره .
لقد جاء ادخال الورق المصري معادلا للذهب والذي يتبع تقلب الليرة الاسترلينية
آنذاك ، واتخاذها نقدا رسميا بصورة اجبارية ليس للسكان المحليين فحسب بل
والقوات الفرنسية المراقبة على ساحل سوريا ولبنان كذلك ، مما سبب استياء عاما في
الداخل والخارج . فقد رفض السكان ابدال الورق بالذهب ، كما رفضوا من قبل
الليرة التركية الورقية ، وكانت كارثة تلك الليرة لا تزال تعيش في واقعهم اليومي ،
كما احتج الفرنسيون بشدة على تلك التدابير التي أصدرها الجنرال اللنبي . وقام
كليمنصو بوجه نقدا قارس اللهجة للجنرال اللنبي في رسالة بعث بها لرئيس الوزارة
البريطانية لويد جورج بتاريخ ١٠ تموز ١٩١٩ ، ونعت اللنبي بالتحيز والرعونة وأنه
يتصرف كمجرد جنرال انكليزي لا كقائد عام للجيش المتحالف .

والدافع الاساسي للنقمة الفرنسية آنذاك يجد تفسيره في الحجم الهائل للنفقات
العسكرية والمدنية للفرنسيين في سوريا ولبنان بالإضافة الى ضرب نفوذهم المعنوي
لدى السكان المحليين . ومن الصعب فهم قرارات الجنرال اللنبي ورد الفعل العنيف
من قبل الفرنسيين الا في اطار التناقض الاستعماري المتجدد بين فرنسا وبريطانيا .
فقد عادت الدولتان المتحلفتان في الحرب الى عداوتهما التقليدية تتنافس على
اقتسام المنطقة . غير ان هذا التناقض سرعان ما سوي باتفاقية ١٥ ايلول ١٩١٩
تحت ضغط الخطر الداهم للاميركيين من جهة ، ولازدياد نفوذ حركة التحرر الوطني
العربية من جهة اخرى .

ان سوريا ولبنان قد عرفتا ، ما بين أعوام ١٩١٥ و ١٩٢٠ ثلاثة أنواع من العملة
الورقية : الليرة التركية الورق التي ألفها الجنرال اللنبي في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ،
والليرة المصرية الورق التي سيلفها الجنرال غورو في عام ١٩٢١ ، والفرك الفرنسي
الورق ، الذي سيفرضه غورو في سوريا ولبنان بعد هزيمة ميسلون . بيد ان السلطة
التركية وقرارات جمال باشا ، والسلطة الانكليزية وقرارات اللنبي ، فشلت في
فرض الورق النقدي عليهما (١٨) . وحدها قرارات غورو سيكون بإمكانها تثبيت
الورق الفرنسي بالقوة وربط اقتصاد سوريا ولبنان بعجلة النقد الفرنسي .

التكاليف على الذهب المدخر في سوريا ولبنان

كان من نتيجة اوضاع ما بعد الحرب العالمية الاولى وحاجة اوروبا الملحة الى
المعدن الاصفر ، ان بدأت حملة واسعة لجمع مخزونات الذهب في سوريا ولبنان
والناطق المجاورة لهما . تلك الحملة التي بدأها الجنرال اللنبي عام ١٩١٨ وتمت
فصولا متلاحقة مع الجنرال غورو وويغان وسراي .

(١٨) يقول جورج عشي في اطروحته « الانتقال من التجارة الحرة الى الاقتصاد الموجه » « منذ تشرين
الثاني ١٩١٨ حتى نيسان ١٩٢٠ . كانت الليرة المصرية والليرة التركية الذهب المملكتين المتداولتين
رسميا في سوريا ولبنان . الاولى في مدن الساحل والثانية في الداخل بصورة عامة » .
— G. Achi « Le passage de la liberté au contrôle... » — Thèse. P. 18.

فبينما كان الجنرال غورو يحاول فرض الفرك الفرنسي الورقي كمعادل
للذهب في بيروت وجبل لبنان وتعميمه على المنطقة الساحلية كلها ، المسماة بالمنطقة
القريبة (١٩) ، تمهيدا لاختضاع باقي سوريا لهذا النظام المالي الجديد ، كانت المملكة
العربية في دمشق تستحدث نقدا وطنيا بموجب قانون صادر عن الملك فيصل في
١٢ نيسان ١٩٢٠ . وقد حدد هذا القانون الذهب (٢١) كقاعدة وحيدة للنقد السوري
الذي جعلت وحدته الدينار السوري المساوي ١٠٠ قرشا ذهبيا والذي قسم الى
اعشار . كما استحدث ذلك القانون ايضا عملة فضية سورية سميت بالريال . الا
ان الاحتلال الفرنسي لسوريا لم يمكن دولة دمشق العربية من وضع ذلك القانون
موضع التنفيذ بل زالت تلك الدولة قبل تنفيذه بالذات .

وكان لمعركة ميسلون الاثر البارز في ترسيخ النفوذ الفرنسي في هذين البلدين .
وفي رايضا ، لا يجوز التسليم بأن انذار غورو ، المعلن في ١٤ تموز ١٩٢٠ ، يمكن
فصله عن الرغبة الفرنسية الاستعمارية للسيطرة على سوريا وعلى الذهب المتجمع
فيها ايام الحرب دون ان تكون لفرنسا هناك أية مزاعم عن علاقات تاريخية او روابط
صداقة أو اقلية تريد ان تحميها .

فالبند الخامس من هذا الانذار القاضي بالاعتراف بالعملة السورية اللبنانية
التي اصدرها بنك سوريا ثم بنك سوريا ولبنان الكبير فيما بعد ، والتي كانت -
حسب نص الانذار - متداولة في المنطقة الغربية ، كان من الاهمية السياسية بحيث
يعادل الاعتراف بالانتداب الفرنسي على سوريا بالذات . وفي رايضا ، ان الخسائر
التي لحقت بالسكان من جراء ابدال النقد الذهبي بالاوراق التركية ثم المصرية ثم
الفرنسية تركت تصلبا لدى قطاع واسع جدا من السكان بحيث اضطر الفرنسيون
فيما بعد الى اعتماد اساليب أكثر مرونة للوصول الى اهدافهم خاصة وان التقلب
المستمر والانخفاض العمودي للفرك الفرنسي ولليرة السورية - اللبنانية التي
ارتبطت به ، جعلت السكان يمتنعون عن الاقبال على تلك الليرة كما امتنعوا من قبل
عن الليرة التركية الورقية والليرة المصرية .

فقد تذرعت فرنسا المنتدبة بتطبيق البنود العامة للانتدابات الدولية التي
نقض « على السلطة المنتدبة واجبا يصل البلد الموضوع تحت سلطتها الى الاستقلال
المالي » (٢١) . لذلك سارعت فوراً إلى انشاء مصرف دعي بالمصرف السوري ، والذي
لم يكن في الواقع سوى البنك الامبراطوري العثماني القديم (٢٢) ، الذي منح الجنرال

(١٩) راجع القرار رقم ١٩٥ المؤرخ في ٢٦ نيسان ١٩٢٠ والقرار رقم ٢٦٤ الصادر في ١٢ تموز من العام
نفسه .

(٢٠) — Voir Youssef Khoury « Prix et monnaie en Syrie » — Thèse. P. 48.
(٢١) — M. Stoyanovsky « La théorie générale des mandats internationaux » —
Thèse. P. 196.

(٢٢) « لقد دعت الليرة السورية ، لكنها خصصت لسوريا ولبنان الكبير . اما ما دعي ببنك سوريا ثم
لبنان الكبير ، ثم ببنك سوريا ولبنان ، فليس في الواقع سوى تعبير عن الشركة الفرنسية المسماة
سابقا البنك الامبراطوري العثماني .

خروج عشي — المصدر السابق — ص ١٨ .

غورو ، حق إصدار النقود والاشراف على ميزانيتي سوريا ولبنان ، والذي سعى منذ البداية الى اخضاع ثروة سوريا ولبنان لنظام البلاد المفلوبة . ولم يكن لليرة السورية - اللبنانية من التسمية سوى الاسم ، لأن هذه الليرة الورقية بقيت مضمونة بقطاع ضعيف جدا من الذهب وكانت فعليا « عملة فرنسية ذات وجه عربي » على حد قول بدر الدين السباعي (٢٣) .

سياسة الانتداب ، في الحقل المالي

ان المتبع لتطور السياسة الفرنسية الانتدابية في سوريا ولبنان يدرك بوضوح ان هذه السياسة دارت ، خلال الفترة الانتدابية الاولى على الأقل ، حول محورين رئيسيين :

١ - اعتماد سياسة الباب المفتوح في التجارة بقصد تمكين الشركات الفرنسية، المدعومة من المفوض السامي الفرنسي مباشرة ، من السيطرة على السوق الداخلية، وارضاء الولايات المتحدة الاميركية طبقا للبند الحادي عشر من صك الانتداب على سوريا ولبنان ، والقصد من هذا التودد ايجاد دعم اميركي وقروض طويلة الأمد لمركز الفرنك الفرنسي المنهار .

ب - تأمين فترة بحبوحة وازدهار اقتصادي في الداخل بقصد اعادة الثقة المالية الى نفوس المواطنين بعد الخسائر الجسيمة التي أصابتهم من جراء التغيير المستمر للعملات . وكان هدف فرنسا الانتدابية في هذا المضمار مزدوجا : الافراج عن الذهب المدخر في الداخل ، واجتذاب اموال المغتربين اللبنانيين واماويل بعض اللبنانيين المودعة في الخارج ، خاصة في مصر ، لتوظيفها في لبنان .

ان تلك الاهداف التي اختطتها سياسة الانتداب لنفسها تبرز بوضوح حرص حكومة باريس على عقد اتفاقات تجارية واسعة مع الولايات المتحدة ، وحرصها كذلك على ضرورة اعتراف الولايات المتحدة بانتدابها على سوريا ولبنان (٢٤) . كذلك قامت حكومة باريس بعدة اتفاقيات ثنائية مع حكومات بريطانيا واطاليا وتركيا وغيرها لتشجيع التجارة وزيادة حجم المبادلات مع مرفأ بيروت .

اما على صعيد الداخل ، فكان لا بد من توطيد الأمن ، واعادة الثقة بالاقتصاد اللبناني - السوري . فبدأت ادارة الانتداب تدرس بذكاء كيفية اخراج الذهب المدخر في هذه المنطقة بعدما قضت على المعارضة الوحشية الجديدة في ميسلون وقامت بنفي المعارضين خارج اراضي سوريا ولبنان .

وقام الجيش الفرنسي بضرب بعنف كل محاولة للتمرد أو العصيان ، ويقضي على العصييات الوطنية الواحدة تلو الاخرى ، ويهدم قرى بكاملها بتهمة صغرة أحيانا، وكان الهدف واضحا : تأمين خطوط المواصلات والطرق التجارية بين الساحل

(٢٣) السباعي - « أضواء » - ص ١٠١ .

(٢٤) تمت التصديقات النهائية على اعتراف الولايات المتحدة بالانتداب بعد اتفاق باريس الموقع بتاريخ ١٣

تموز ١٩٢٤ .

والداخل . لقد توطد الأمن فعلا ، خاصة في المناطق الساحلية ، وراح اللبنانيون الموجودون في اميركا وغيرها ، يرسلون الى أسرهم مبالغ كبيرة من المساعدات بالعملات الذهبية والدولارات والليرات الاسترلينية ، بعد ان تمكنوا من استئناف صلاتهم بأقاربهم في الوطن الأم . وكانت نفقات الحملة الفرنسية والانكليزية كبيرة في السنوات الاولى بعد الحرب . كما ان الحرب من جهتها ساعدت على غنى العديد من اللبنانيين والسوريين ، وانقصت من تعداد السكان، خاصة في الجبل، الذي خسر ثلث سكانه تقريبا . يضاف الى ذلك ان الحدود الجمركية بين لبنان والداخل كانت مفقودة . كل ذلك ساعد على ايجاد نشاط محلي واجنبي واسع النطاق . وبرزت مرحلة من الازدهار الاقتصادي في مجالات مختلفة . وتحررت كميات كبيرة من النقد الذهبي المدخر التي نزلت الى الاسواق كي تثمر وتدخل في تحريك التجارة . « وهطلت الليرات على سوريا ولبنان - كما جاء في مناقشات عصبة الأمم - على شكل قطع ذهبية وفضية وورقية » (٢٥) . وكان المستفيد الأكبر من هذه البحبوحة ادارة الانتداب الفرنسي في بيروت التي كانت تصر على فرض القرامات والضرائب والميرة والعشور كلها بالذهب ، وبدأ واضحا ان فائدة ذلك الازدهار تركزت في ايدي حفنة من المرابين وبعض التجار الوسطاء وجنود الاحتلال (٢٦) . وبدأ الاهتمام الفرنسي جديا باخراج الذهب الى فرنسا عن طريق المؤسسات المالية الفرنسية وحدها المتمركزة في بيروت، خاصة بنك سوريا ولبنان، واخراجها من هناك نحو مراكزها في باريس . فجاءت فترة الازدهار تلك ، والتي لم تتجاوز السنتين ، لتساعد عمليا على ابدال الذهب المدخر بالفرنك الفرنسي الورقي .

لقد قدم الذهب السوري واللبناني ، الذي نقل الى فرنسا خلال فترة هبوط قاسية للفرنك فيها ، فائدة كبرى للرأسمال الفرنسي ، اذ ساعد على دعمه دون ان يتمكن من تقديم علاج شاف له . غير ان هبوط الفرنك المستمر وكذلك الليرة الاسترلينية ، كان يفرض العودة الى استخدام الذهب كأساس للتداول النقدي في أوروبا . تلك العودة التي بدأت منذ ١٩٢٢ والتي شملت أوروبا بأسرها ، لم تغير من سياسة فرنسا الانتدابية في سوريا ولبنان اذ استمرت في فرض فرنكها الورقي كعملة معادلة للذهب . وكان لهبوط هذا الفرنك (٢٧) آثار اقتصادية خطيرة على مجمل

(٢٥) S.D.N. « Procès Verbaux de la C.P.M. ». 1926. P. 116.

(٢٦) يؤكد الضابط نعمان أبو شقرا ، ان العديد من الجنود ، فرنسيين ومحليين ، في منطقة الحولة وصور ورحبعيون ، كانوا يجبرون السكان على دفع العشور والضرائب الاخرى بالذهب . ثم يستبدلون الذهب بفرنكات ورقية من معاشاتهم ويحتفظون بالذهب لانفسهم ويقدمون للحكومة الفرنكات الورقية على اساس انها العملة الوحيدة التي تمكنوا من العثور عليها لدى السكان . (مقابلة خاصة) . ويؤيد هذا القول السيد رابار ، رئيس لجنة الانتداب في الجمعية الدائمة للانتدابيات « انه يوجد في سوريا ولبنان موظفون مارسوا التجارة والمضاربات ... » .

(٢٧) M. Rappard « Procès Verbaux » - 8ème Session. Février-Mars 1926. اذا اخذنا شهر حزيران كمعادلة نجد ان سعر الدولار بالقروش اللبنانية - السورية قد تغير كما يلي « ٦٢٤٩ عام ١٩٢٠ ، و ٦١٤٧ عام ١٩٢١ ، و ٥٧٤٥ عام ١٩٢٢ ، و ٧٩ عام ١٩٢٣ ، و ٩٥٤٤ عام ١٩٢٤ ، و ١٤٤٣ عام ١٩٢٥ ، و ١٦٧٢ عام ١٩٢٦ . » « يعتبر الفرنك الفرنسي ٥ قروش » . س. حمادة - النظام النقدي - ص ٧١ .

الاضاع الاجتماعية في فرنسا بالذات (٢٨) اذ تسبب ذلك الهبوط بارتفاع جنوبي في الاسعار ، مما كان يشل القدرة الاستهلاكية للطبقات الفقيرة . وكان ذلك الهبوط للفرنك من الاسباب التي أدت الى انتصار الكارتيل الذي أطلق عليه اسم كارتيل اليسار في فرنسا في انتخابات ١٩٢٤ بقيادة ادوار هيريو . غير ان هذا الكارتيل ، الذي عرف كيف يستغل السخط الشعبي في فرنسا للوصول الى حكمها ، لم يحدث أي تغيير جدي في سياسة فرنسا نحو مستعمراتها ، ولم يستطع التخلص من سيطرة البنوك الفرنسية في الداخل .

فالجنرال ساراي ، ممثل هذا الكارتيل في المفوضية العليا في بيروت ، لم يكن أقل حماسا من سابقه في العمل على توسيع نفوذ الرساميل الفرنسية في سوريا ولبنان . وجرباقي مدخراتهما الذهبية نحو بنوك باريس . لذا يمكن القول ان سياسة الجنرالات الثلاثة لهذه الفترة كانت تتم بعضها البعض في هذا المجال وكانت تصب في اتجاه واحد : دعم الرساميل الفرنسية على حساب افكار شعوب هذين البلدين . ان كمية المدخرات الذهبية في سوريا ولبنان ، والتي قدرت في عام ١٩١٩ ، غداة دخول القوات الحليفة الى هذين البلدين بحوالي ١١ مليون ليرة (٢٩) تركية ذهبية ، بدأت تتناقص تدريجيا وتختفي بصورة مستمرة ، منذ بدء تطبيق الانتداب الفرنسي عليهما .

فليس من المستغرب بعد ذلك ان يقال « ان سوريا ولبنان قد افترقا تماما من آخر ليراتهما المجيدة في عام ١٩٣٠ » (٣٠) وان معظم كميات ذلك الذهب قد انتقلت الى فرنسا عبر مؤسساتها المصرفية المتمركزة في بيروت . ذلك ان تصدير الذهب كان محظورا ، من حيث المبدأ ، طبقا للقرار الصادر في ١٠ ايار ١٩٢١ . ولم يسمح باخراج الذهب الا بترخيص من المفوضية العليا ، في حين بقي الفرنك أساس التداول النقدي في سوريا ولبنان . والواقع ان الاذن الخاص من المفوضية العليا كان يهدف أساسا الى القضاء على المضاربة بالذهب وحصر تصديره بالمؤسسات الفرنسية وبالاخص بنك سوريا ولبنان دون سواه .

لقد أدت تقلبات الفرنك الى تفاقم الوضع في السوق السورية ، وخاصة في سوق بيروت . وبالرغم من وجود ما يسمى بالليرة السورية على أساس الفرنك الفرنسي ، فان جميع المعاملات التجارية كانت تجري على أساس الذهب في الداخل والفرنك في الخارج . مما جر الليرة السورية الى انخفاض مستمر بالنسبة لاسعار الذهب (٣١) . وانخفضت قيمة الليرة السورية المساوية لعشرين فرنك فرنسي أساسا من ٦٤٤٥ قرشا ذهبيا او ١٤٣٧ دولارا او ٧٩٠ ، من الليرة الاسترلينية عام ١٩٢٠ الى ١٤٣١ ق.ذ او ٧٨٠ من الدولار او ١٦٠ من الاسترلينية عام ١٩٢٨ ، الى ٤٦٠ .

(٢٨) مر الفرنك الفرنسي بأزمعتين حادتين بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٦ اذ اصيب في الاسواق العالمية بهبوط عمودي واصبح الفرنك معرضا لمضاربات مالية عنيفة .

— Commission des Mandats — Rapport sur l'année 1928. P. 162.

(٢٩) احمد السمان — المصدر السابق — ص ١٠١ .

— A. Latron « La vie rurale... » P. 38.

(٣٠) — Voir Bulletin des commerçants et industriels français du Levant. (C.I.F.L.) No. 1 — Janvier 1923. P. 3.

(٣١)

ق.ذ او ٤٥٠ . من الدولار الاميركي او ١٤١١ من الاسترلينية عام ١٩٤٠ (٣٢) . ان عدم استقرار الفرنك الفرنسي خلال الفترة الانتدابية الاولى ، جر الليرة السورية — اللبنانية المرتبطة به الى خسائر اقتصادية باهظة على سوريا ولبنان لان ٩٤٤٣٪ (٣٣) من الاوراق المالية التي كانت مطروحة للتداول في هذين البلدين ، أضحت مرهونة كسندات على الدولة الفرنسية .

المؤسسات المالية والمصارف الفرنسية في بيروت

تميزت فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى في سوريا ولبنان بخلوهما تماما من المصارف الاجنبية باستثناء بعض الفروع للبنك الامبراطوري العثماني العامل برساميل فرنسية وانكليزية . واولى تلك الفروع كان فرع بيروت الذي انشئ عام ١٨٦٣ ثم فرع دمشق ١٨٧٥ ثم فرع حلب ١٨٩٣ ثم فرع طرابلس ١٩٠٤ ، ففرع حمص ١٩٠٨ ففرع صيدا ١٩١١ ففرع زحلة ١٩١٤ (٣٤) .

وقد رافق دخول جيوش الحلفاء في تشرين الاول ١٩١٨ ازدهار واسع في القطاع المصرفي في هذين البلدين . فبعد شهرين فقط على دخول تلك القوات ، وفي ظل حكم الجنرال اللنبي بالذات ، بادر الفرنسيون في كانون الاول ١٩١٨ الى انشاء اول مصرف لهم في سوريا ولبنان عرف باسم البنك الفرنسي لسوريا (٣٥) . وكانت أبرز الشركات الفرنسية المساهمة في انشاء هذا البنك : « الشركة العامة » و « المصرف العقاري الفرنسي » ، و « المصرف العقاري الجزائري — التونسي » .

غير ان اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ سرعان ما أطلق ايدي الفرنسيين في السيطرة على جميع النواحي العسكرية والادارية والمالية والاقتصادية في سوريا ولبنان . لذا سارع الفرنسيون الى انشاء بنك سوريا الذي سيتحول الى بنك سوريا ولبنان الكبير ، اثر انتصار الفرنسيين وعلان تجزئة سوريا الى دويلات . وسارع هذا البنك الى التخطيط الشامل لوضع الاقتصاديين السوري واللبناني تحت امرته . وفي الواقع ، فان بنك سوريا لم يكن سوى امتداد للبنك الامبراطوري العثماني ، الذي انشئ عام ١٨٦٣ برساميل فرنسية وانكليزية ، وكان الجزء الاكبر من رأسماله فرنسيا . اذ قدر عام ١٨٧٠ بمئة وخمسين وعشرين مليون فرنك فرنسي بلغ نصيب الفرنسيين منها ٧٥ مليونا مقابل ٥٠ مليونا للانكليز (٣٦) . أما مجلس ادارة البنك الامبراطوري العثماني ومقره فكان في القسطنطينية ويدير من هناك جميع الفروع المنتشرة في أرجاء السلطنة . ويضاف الى مجلس الادارة ايضا لجنة ادارة مركزهما باريس ولندن .

(٣٢) — J. Achi « Le passage de la liberté... » — Thèse Citée. P. 137.

(٣٣) راجع سعيد حمادة — النظام النقدي ... ، ص ٢٨٨ .

— Voir aussi Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie ». P. 285.

(٣٤) — Boissière « Importance actuelle des intérêts français en Syrie ». P. 24.

(٣٥) بدر الدين السامي — (المصادر) ، ص ٨٨ .

(٣٦) — L'Asie Française — No. 175 — Juillet 1919. P. 18.

وكان للبنك الامبراطوري امتياز اصدار الاوراق النقدية في تركيا وله امتياز احتكار الذهب ايضا «(٢٧)» .

وبنك سوريا الجديد ورث عن البنك الامبراطوري العثماني جميع فروعه في سوريا ولبنان ، وأصبح مركزه الرئيسي في باريس ويتبع مباشرة المؤسسات المالية الفرنسية التي ساهمت بإنشائه . لذا تميز هذا البنك عن سابقه بعدم مشاركة الإنكليز فعليا في رساميله . ومجلس ادارته بل أصبح بنكا فرنسيا صرفا مارس الدور السابق للبنك الامبراطوري العثماني بجميع تفاصيله .

وكان لفرنسا غداة الحرب العالمية الاولى ، ٧٩٪ من المصالح المادية والمعنوية في سوريا ولبنان . لذا كانت سياستها تتجه ، بعد الحرب مباشرة ، الى مركزة ما تبقى من المصالح جميعا بين ايدي رساميلها المتغلغلة هناك . « ان المنتجات الفرنسية ، لتحظى بعد الآن ، بالافضلية المطلقة على باقي السلع ، شأنها في ذلك شأن المواهب الفرنسية ايضا » (٢٨) .

ان هزيمة ميسلون (١٩٢٠) كانت بداية التقليل المصرفي الهائل في سوريا ولبنان . ففي حين كان هذا البلدان يقتصران تماما الى مصارف قبل الحرب ، سوى فروع البنك الامبراطوري العثماني الضعيفة الرساميل ، فان المصارف وبنوك التسليف العقارية سارعت فورا لاستثمار رؤوس أموالها فيها وقامت بعض المصارف الاجنبية تفتح فروعها لها في بيروت ، كما بدأت تظهر على الساحة بعض المؤسسات المحلية للتسليف العقاري والقروض القصيرة الاجل في نهاية هذه المرحلة بالذات . وحسب احصائيات ١٩٢٢ ، اي بعد سنتين فقط من ميسلون ، ارتفع عدد البنوك الفرنسية الى خمسة ، وافتتح مصرفان اجنبيان هما « بنكو دو بوما » و « الانكلو بالستانين بنك » (البنك الانكليزي - الفلسطيني) فرعين لهما في بيروت منذ ١٩٢١ . وبدأت خمس عشرة مؤسسة محلية للتسليف العقاري تنفذ بعض العمليات المالية الصغيرة في بيروت وضواحيها (٢٩) .

لقد بدأت عملية تدمير رؤوس الاموال الفرنسية التي صدرت الى سوريا ولبنان قبل الحرب ، وبدأت معها ، مباشرة بعد نهاية الحرب ، السيطرة التامة على اقتصاد سوريا ولبنان واستغلالهما استغلالا واسعا بالطرق الاستعمارية المعروفة . وبدأت تلك البنوك تسيطر تماما على خطوط السكك الحديدية اللبنانية والسورية والمرافئ وشركة الترام والكهرباء والشركات القطنية والمطاحن والتبغ وكافة الفروع الاقتصادية التي اخضعت تباعا لجبروت الراسمال الفرنسي . غير ان البنك الفرنسي ، الملقب بالبنك السوري ، او بنك سوريا ولبنان ، كان أغنى تلك المؤسسات المالية الفرنسية وأشدّها نفوذاً .

(٢٧) M. Nicolas « Questions monétaires en Syrie... » P. 21.
(٢٨) L. C. Catroux « Le Mandat français en Syrie » P. 30.
(٢٩) ايلي وجرجي جدمون - الدليل السوري لعام ١٩٢٢ - ص ٤٩ .

١- بنك سوريا ولبنان الكبير :

عندما خلف هذا البنك الامبراطوري العثماني عام ١٩١٩ ، لم يكن لديه رصيد مالي سوى ١٠ ملايين فرنك كراسمال اساسي (٤٠) . وكانت السنوات الاولى ، قبل ميسلون ، سنوات انتظار ودرس لامكانيات تحقيق مختلف العمليات المالية ، لذا اقتصر عمل المؤسسات المصرفية بادية الامر على تسليف قصير الامد والقيام باعمال النودائع البنكية . وكانت تلك المؤسسات تحرص ، في البدء ، على عدم توظيف رساميلها الا في الاعمال العامة التي تضمنها الدولة والبلديات الكبيرة التي تتعهدا الدولة رسميا بكفالة مباشرة . وتشجيعا لاعمال الشركات في تلك الفترة ، سارعت الادارة العسكرية الى اعفاء مواد الشركات المستوردة من الضرائب على ان تخضع تلك الشركات في رقابتها الفنية والمالية الى المفوضية العليا . ولكي تضمن البلديات للرساميل الفرنسية تسديد العجز عند وقوعه ، كانت ترهن حصتها التي تدفعها الدولة لها من رسوم المسققات والتمتع وتجعلها تحت تصرف تلك الرساميل والشركات الفرنسية . وكان المندوب السامي شخصا كفيل تلك الدويلات والبلديات (٤١) . الا ان انتصار الفرنسيين في ميسلون ، فك الرساميل من عقالها فبدأت تتوسع في جميع المجالات الحيوية في سوريا ولبنان وارتفعت رساميل بنك سوريا ولبنان الكبير من ١٠ ملايين عام ١٩١٩ الى ٢٥ مليونا في كانون الاول ١٩٢٠ و ١١٩ مليونا عام ١٩٢٨ وذلك بالفرنكات الفرنسية (٤٢) .

وبدا بنك سوريا ولبنان يتحول ، منذ ١٩٢٠ ، الى اكبر مؤسسة مالية في سوريا ولبنان ، في حين بقي مركزه دوما في باريس ، كشركة فرنسية خاصة . فالزبائن الذين كانوا يتجهون سابقا الى البنك الامبراطوري العثماني ، كانوا يسلكون نفس الطريق الى بنك سوريا ولبنان الكبير الذي حل محله «(٤٣)» . لذا فدور هذا البنك لم يتغير فعليا عن دور سابقه اذ ظل يمارس توزيع القروض على الافراد والشركات ، واقرض الدولة التي قدمت له كل حماية رسمية . هذا المصرف لم يكن مصرف دولة يركز بين يديه الاعتمادات ويحدد قيمة الحسم في الاسواق ، كما هو الحال بالنسبة للمصارف المركزية بصورة عامة ، لكن هذا البنك كان الوحيد الذي منح حق الاصدار النقدي في الدول المسماة «الدول المستقلة تحت الإنتداب الفرنسي» فأحل مكان الذهب ، وهو عملة البلاد الاصلية ، الفرنك الورقي عن طريق عملة محلية سميت باليرة السورية - اللبنانية التي رافقت الفرنك في هبوطه المستمر . وقام هذا البنك باصدار كميات هائلة من تلك الليرات بدأت فقط بقيمة ١٧٩٠٥٥٧ فرنكا في كانون الاول عام ١٩٢٠ لترتفع الى ٢١٥ مليون فرنك عام ١٩٢٢ في حين ارتفعت موجوداته من الذهب من قيمة ٣٩ مليون فرنك عام ١٩٢٥ الى ما قيمته ٥٠٠ مليونا

(٤٠) G. Achi « Le passage de la liberté » P. 21.

(٤١) السباعي - اضاء - ص ١٦٥ .

(٤٢) سعيد حماده - النظام النقدي - ص ٦٥ . والسباعي المصدر السابق - ص ١٣٠ .

(٤٣) G. Achi - Op. Cit. P. 21.

عام ١٩٣٠ (٤٤). وكتبت صحيفة « البرق » البيروتية في عددها الصادر في ٣١ كانون الاول عام ١٩٢٣ تقول: « منذ بدء التداول بالليرات السورية (في اول ايار ١٩٢٠) حتى ٣١ تشرين الاول ١٩٢٣ ، قدم قسم الاصدار بنك سوريا ولبنان الكبير الى الموازنة الفرنسية عن حساب المفوضية العليا في بيروت مبلغ ٦٤,٦٨٦,٠٠٠ ليرة لبنانية للاسورية مقابل نقود معدنية (اقلها من الذهب) وظفت باسم هذا المصرف في باريس ، وخلال هذه المرحلة ذاتها لم يتعد المبلغ الاجمالي المقدر لحصة سوريا ولبنان من التجارة الخارجية اكثر من ٣ ملايين ليرة... » (٤٥)

بهذا المقطع يتكشف دور البنك في عملية اخراج الذهب من سوريا ولبنان الى فرنسا عن طريق تغطية ورقية تمنح للمفوضية العليا في بيروت مقابل قيمتها بالذهب تدفع لدى المركز الرئيسي للبنك في باريس . وهذا مما يفسر عودة فرنسا المستمرة الى فرض العملة الذهبية كعملة أساسية للتداول في سوريا ولبنان خلال ١٩٢٢ و ١٩٢٤ و ١٩٢٦ مع مراقبة اي تصدير للذهب او اية مضاربة فيه بفعل الضغط العالمي على الذهب في ذلك الحين . ويتبين بوضوح ان المستفيد الاكبر ، ان لم نقل الوحيد ، كان بنك سوريا ولبنان الكبير الذي استطاع مركزه آخر الليرات الذهبية المدخرة في سوريا ولبنان بين يديه . فليس من الصدفة بشيء ان يلجأ المفوضون السامون ، بعد ست سنوات من فرض استعمال الفرنك الفرنسي الورق ، الى اجبار الاهالي على دفع الفرامات بالذهب دون سواه . لقد كانت خطة الفرنسيين في هذا المجال ذكية ومدروسة ، نفذت بمرونة فائقة من قبل بنك سوريا ولبنان الكبير . فتمكن هذا البنك من تحويل قسم كبير من نقوده المالية الورقية هنا الى نقود ذهبية لحسابه في باريس كما قام التجار الفرنسيون بعمل مماثل . وكانت المؤسسات المالية الفرنسية هي الوحيدة التي يحق لها اصدار سندات مالية قابلة للتحويل الى ذهب . وبنك سوريا ولبنان الكبير لم يعلن عن ربحه الصافي الحقيقي ، والارقام التي تقدم بها غير صحيحة اطلاقاً إذ قدرت ارباحه فقط لعام ١٩٢٥ بحوالي ٢٩,٠٨,٧٨٥ مليوناً من الفرنكات مقابل ٢٩,٧٥,٦٢٤ عام ١٩٢٦ و ١٦,١٧٦,١٦٤ (٤٦) عام ١٩٢٨ حسب التصريح الرسمي لادارة هذا البنك ، والادباج ، في اعتقادنا ، اعلى من ذلك بكثير .

فألربح تحول الى ذهب لصالح الرأسمال الفرنسي في باريس ، اما الخسارة فيحملها السكان المحليون . لهذا كان لابد من الذهب بالورق النقدي المستمر في الهبوط آثار مرعبة في سوريا ولبنان كما في باقي المستعمرات الفرنسية . وكان نتيجة ذلك ان اضطر السكان الى استخدام العملة الورقية الفرنسية وحدها ، بعد غياب النقد الذهبي خاصة والمعدني عامة من التداول (٤٧) .

(٤٤) — Voir A. Sammân — Op. Cit. P. 101 et H.C. Rapport sur l'année 1922. P. 105.

(٤٥) البرق — ص ٢ .

(٤٦) س. حمادة — النظام النقدي — ص ١١٥ . باحد من التقرير السنوي لبنك سوريا ولبنان الكبير — السنوات المذكورة .

(٤٧) السباعي — اوضاعنا ص ١١٦ .

وقد ردت الخسائر التي تكبدها الاقتصادان اللبناني والسوري من جراء تحويل الذهب الى اوراق نقدية ، خلال الفترة بين أعوام ١٩١٩ و ١٩٢٦ بمبلغ عشرة ملايين ليرة (٤٨) تركية ذهباً من جراء الهبوط المستمر لسعر الفرنك الفرنسي . وارتفعت الفوائد العادية على القروض التي تمتعها البنوك الفرنسية العاملة في بيروت الى ١٥٪ على الرهونات وتجاوزت ٦٠٪ على الفوائد الربوية وأحياناً ٧٥٪ (٤٩) في بعض ارجاء سوريا .

ان هزيمة الحركة الوطنية السورية أزالت العراقيل من امام الفرنسيين للانتقال من تداول النقد الذهبي الى تداول الفرنك الفرنسي الورقي . وقامت المؤسسات المالية الفرنسية ، وبشكل خاص بنك سوريا ولبنان الكبير ، باستغلال الذهب من جيوب السكان الى البنوك الباريسية . وقامت تلك المؤسسات طيلة العهد الانتدابي ، باستغلال الاغلبية الساحقة من سكان البلاد على نطاق واسع . كما نشأ على هامش تلك المؤسسات ، وبارتباط وثيق معها ، مؤسسات مالية فخيلة ومرابون انتشروا ، كوكلاء الطاعون ، في القرى اللبنانية والسورية ، يبحثون عن الذهب . فلبوا بذلك دوراً بشعاً في استغلال الفلاحين وافراغ الارياف من المدخرات الذهبية الكثيرة التي كانت فيه قبل الحرب وانشاءها . اما الليرة السورية — اللبنانية التي أصدرها بنك سوريا ولبنان الكبير منذ ١٩٢٠ فقد ولدت في حالة من التبعية التامة له وبالتالي للفرنك الفرنسي استمرت فيها حتى نهاية الانتداب .

لقد عبّر هنري دو جوفنيل بالذات عن أهداف بنك سوريا ولبنان الكبير بقوله : « ان البنك السوري يعتبر سوريا ملكاً له » (٥٠) . وبالرغم من صدور التشريعات القاضية باستخدام باقي العملات المضمونة بالذهب ، كان هذا البنك يجبر المتعاملين بالنقد السوري على اجراء تسديداتهم بالذهب وحده (٥١) ، رغم وجود قرارات المفوضين السامين . لقد كان هذا البنك بالفعل دولة مستقلة ، لا عن شعوب المنطقة فحسب ، بل عن قرارات المفوضين السامين الفرنسيين بالذات وكانت البنوك الفرنسية تسيّر سياسة باريس بالذات .

ب — المؤسسات المالية الفرنسية الاخرى :

صحيح ان بنك سوريا ولبنان الكبير شكل اكبر تروست مالي استغل واستثمر اقتصاديات سوريا ولبنان لمصلحته الخاصة واستطاع نقل كميات كبيرة من ذهب البلاد الى فرنسا ، غير ان هذا البنك لم يكن وحده في الساحة المالية في هذين البلدين ، بل كان الى جانبه مؤسسات مالية فرنسية اخرى ، اصغر منه شأنًا دون شك واقل أهمية ، لكنها لعبت دوراً أساسياً في مخططات الراسمائل الفرنسية العاملة هنا .

(٤٨) س. حمادة — المصدر السابق — ص ٢٨٨ .

(٤٩) — A. Sammân — Op. Cit. P. 123.

(٥٠) اورد هذا القول — السباعي — « اضاء » — ص ٩٥ .

(٥١) — R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » P. 171-172.

فقد استقر بنك التسليف العقاري السوري ، وهو فرع لبنك الشركة العامة المالية للبيروت منذ أواخر ١٩١٩ ، برأسمال قدره ستة ملايين فرنك فرنسي (٥٤) . وسرعان ما توسع في أرجاء سوريا فأقام له فروعاً أو وكالات في حلب منذ آب ١٩٢٠ ، ودمشق منذ حزيران ١٩٢١ ، وطرابلس منذ حزيران ١٩٢٣ .

والشركة العقارية لسوريا ، التي أسسها الكونت كريستاني في بيروت منذ عام ١٩٢٢ ، بلغت رساميلها ١٠ ملايين (٥٥) فرنك فرنسي في تلك السنة .

وانشئ بنك التسليف العقاري للجزائر وتونس في بيروت خلال عام ١٩٢١ برأسمال قدره ٧ ملايين فرنك (٥٤) .

ولعب بنك التسليف الليوني دوراً أقل من دور الشركة الأم في الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . إذ يعود تاريخ هذه الشركة في البلاد الى زمن طويل وكانت تشرف فعلياً ، منذ القرن التاسع عشر على صناعة الحرير في لبنان .

وبصورة عامة ، يمكن القول ان هذه المؤسسات المصرفية الفرنسية قد اتجهت ، بشكل خاص ، نحو التسليفات المالية القصيرة الاجل ، ونحو مشاريع المواصلات والسياحة والمرافق وشركات التأمين والسكك الحديدية والكهرباء وكانت قروضها مخصصة في بيروت خاصة ولم تشكل اية مزاحمة جدية للبنك التروست .

يضاف الى هذه المؤسسات المالية بنك التسليف الزراعي ، الذي خلف المصرف الزراعي العثماني ، وأوقف الحلفاء نشاطه عام ١٩١٩ . هذا البنك كان يعمل برساميل فرنسية منذ تأسيسه عام ١٨٩٨ في القسطنطينية . وكانت له فروع متعددة في مراكز الولايات بما عدا جبل لبنان المصرفية . « غير ان فائدته اقتصرت على عدد ضئيل من الوجهاء وكبار الملاك الاقطاعيين الذين استطاعوا ، بفضل نفوذهم السياسي ، الاستفادة من بعض تسليفاته (٥٥) . لذلك سارع الفرنسيون مجدداً الى اعادة هذا البنك منذ ١٩٢٤ تحت اسم البنك الزراعي لدولة لبنان الكبير ، والذي لم يختلف عن سابقه سوى بالتسمية . الا ان هذا البنك ، نظراً لضالة الرساميل الموزعة فيه ، لم يبدأ أعماله الا في بداية عام ١٩٢٦ . وللدلالة على « ضخامة » القروض التي كان يمنحها هذا البنك نورد هذا المقطع من كتاب « برجيه - ليفرو » حيث يقول : « واقع (اي البنك الزراعي) عام ١٩٢٦ ، على منح مزارعي بعلبك والبقاع قروضا وصلت في مجموعها الى ١٦٧٠٥٨٣ ليرة لبنانية - سورية ورقاً . وقد استفادت ١٢٥ قرية من هذه التسليفات (٥٦) . اما رأسمال هذا البنك فبلغ ٢٦٩٠٠٠ ليرة سورية ورق في عام ١٩٢٦ ولم يقدم اية فوائد للمزارعين الفلاحين لأن البنك لا يعطي قروضا الا مقابل رهن على الارض على الا يتجاوز المبلغ الالفي ليرة سورية تدفع على مدى

(٥٢) السباعي - أضواء - ص ٨٨ .

(٥٣) السباعي - أضواء - ص ١٢١ .

(٥٤) السباعي - أضواء - ص ١٢٠ .

(٥٥) Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie » . P. 256 .

(٥٦) Berger-Levrault « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le Mandat français... » . P. 248 .

اما اوزو فيرفع الرقم الى ١٦٩٠٥٠٠ ليرة سورية موزعة على ١٢٥ قرية .
— R. O'Zoux « Etats du Levant... » . P. 271 .

خمس سنوات وتكون الغاية من القرض « استصلاح مساحة كبيرة من الاراضي » (٥٧) . فتمشيا مع سياسة الفرنسيين في الريف اللبناني في السوري شكل هذا البنك اداة هامة لدعم الاقطاعيين الموالين للانتداب . ولم يقيم هذا البنك بأي دور ايجابي في سبيل تطوير الريف او القيام بمشاريع زراعية وسدود ، حتى ان معظم المصادر والمراجع لتلك الفترة تتجاهل او تجهل وجود هذا البنك بالذات .

المكانة الاولى للشركات والمؤسسات المالية الفرنسية

صرح الجنرال غورو لمرافقه الكولونيل كاترو بقوله : « فتحنا الطريق امام رساميلنا ، فينبغي ان يكون للبضائع الفرنسية المقام الاول » (٥٨) . بهذا الوضوح ، اتسمت السياسة الفرنسية منذ ١٩٢١ ، وبالرغم من ان بنكو دو روما ، اقام له فرعاً في بيروت الى جانب فرع البنك البريطاني الفلسطيني منذ ١٩٢١ ، فان هذين المصرفين لم يكن بإمكانهما الاستفادة من وجود الفرنسيين في ادارة الانتداب في بيروت ، بل على العكس من ذلك ، فرض المندوبون السامون الفرنسيون تدابير صارمة ضد البنوك الاجنبية الاخرى طوال فترة الانتداب ، وألقوا كل أشكال المضاربة معها وأخضعوا هذه البنوك لاشرافهم المباشر والمستمر .

من هذا المنطلق بالذات يمكن فهم الدور الضئيل لتلك المؤسسات المصرفية والشركات الاجنبية غير الفرنسية في سوريا ولبنان . فهناك ٧٠ ألفاً من الجنود الفرنسيين مستعدون لحماية المصالح المشتركة للرساميل الفرنسية دون سواها ، وقرارات الجنرال غورو ، خاصة القرار ٨٦٥ الصادر في ٢٧ ايار ١٩٢١ (٥٩) جاءت تحمي الماركات الصناعية الفرنسية من مضاربة الماركات الاخرى ، ومحكمة التجارة في بيروت ، جعل جميع قضائاتها من الفرنسيين دون سواهم .

صحيح ان القرار ١٣٢٩ الصادر في ٣٠ آذار ١٩٢٢ ، أباح التسليف مقابل رهن عقاري ، الا ان هذا القرار بالذات ينوه صراحة الى انه « لا يزال محظوراً على الادارات والمصارف والشركات التجارية وشركات التسليف المضمون برهن او التسليف العقاري او الزراعي ، ان تقوم ، دون تصريح خاص ، بعمليات تسليف عقاري تزيد مدتها على عامين اثنين » (٦٠) . وكتب عمر الجابري معلقاً على هذا القرار بقوله : « في الواقع ان التصاريح الخاصة لا يمنحها المندوب السامي الا لعدد ضئيل من المؤسسات الفرنسية البحتة وهي : بنك سوريا ولبنان الكبير ، وبنك التسليف العقاري للجزائر وتونس ، وبنك التسليف العقاري لسوريا » (٦١) . واستمرت هذه الشدة في التشريعات ضد المصارف الاجنبية حتى ١٩٢٤ بسبب الازمات المتلاحقة والانخفاض

(٥٧) — R. O'Zoux — Ibid. P. 268 .

(٥٨) — L. C. Catroux « Le Mandat français en Syrie... » . P. 30 .

(٥٩) — Boissière « La Syrie : importance des intérêts français... » . P. 5 .

(٦٠) — O. Djabry « La Syrie sous le régime du Mandat... » . P. 125 .

(٦١) — O. Djabry — Op. Cit. P. 125 .

المسمر للفرنك الفرنسي . ومنذ مطلع هذا العام اقتضت مصلحة الفرنسيين - كما يقول غونتو - بيرون - « التخفيف من قسوة التشريع النقدي في سوريا ولبنان والسماح بأن تحرر العقود بين الافراد بكل انواع العملات المضمونة بالذهب وليس بالفرنك وحده » (٦٢) .

فبدأت الشركات والمؤسسات المالية الفرنسية المدعومة مباشرة من المفوضية العليا ، حملة مركزة للسيطرة على جميع القطاعات المنتجة في سوريا ولبنان وانتزاع الامتيازات التي نالتها شركات اوروية سابقا من الدولة العثمانية . فالشركة العثمانية لخطوط سكة حديد دمشق - حماه (٦٣) وتمديداتها ، التي انشئت عام ١٨٩١ برأسمال قدره ١٥ مليون فرنك بأغلبية ساحقة للفرنسيين ، اصبحت منذ ١٩٢٤ شركة فرنسية مغلقة . يضاف ايضا ان الشركة العثمانية لترام بيروت - المعاملتين ، والتي تأسست عام ١٨٩٢ برأسمال اقليته الساحقة للبلجيكين ، تحولت برمتها الى شركة فرنسية مغلقة ابتداء من ١٩٢٣ . اما شركة حصر التبغ والتبناك ، وهي شركة عثمانية انشئت منذ ١٨٨٣ برساميل فرنسية في الغالب ، والتي حصلت على امتياز زراعة وتصنيع التبغ في كافة انحاء الامبراطورية العثمانية باستثناء متصرفية جبل لبنان ، قام الجنرال ويغان بمنح هذه الشركة امتياز زراعة التبغ والاتجار به في جبل لبنان ايضا منذ اول آذار ١٩٢٣ باسم « منوبول التبغ » على ان تدفع للمفوضية العليا مبلغا قدره عشرون مليون فرنك فرنسي (٦٤) عن المدة الواقعة بين اعوام ١٩١٨ و ١٩٢٣ لقاء منحها حصر التبغ والتبناك في كافة أرجاء سوريا ولبنان .

ودفعت هذه الشركة مبلغ ثلاثة ملايين فرنك عن عام ١٩٢٤ عن دولة لبنان الكبير بمفردها ، ثم قامت بدفع مبلغ ٢٤ مليوناً في عام ١٩٢٦ ، ودفعت ١٥ مليوناً عام ١٩٢٧ و ٢٢ مليوناً عام ١٩٢٨ و ٢٠ مليوناً عام ١٩٢٩ عن جميع الدويلات السورية ولبنان الكبير (٦٥) . ودفعت جميع المبالغ منذ عام ١٩٢٦ بالفرنك الورقي للمفوضية العليا مباشرة بعد ان أعفيت من الدفع لصندوق الدين العام (٦٦) .

لقد أضحت مدفوعات الريجي جزءاً كبيراً من ميزانية الدويلات ولبنان الكبير (ولا تزال حتى اليوم في لبنان) على حساب خراب الفلاحين في البلدين لا سيما في لبنان المتصرفية او الجبل حيث كان السكان يعتمدون كثيراً على زراعة التبغ وتصنيعه والاتجار به . غير ان ادارة الحصر الفرنسية مركزت بين يديها كل زراعة التبغ في سوريا ولبنان منذ اول آذار ١٩٢٣ . فمنعت الاتجار بها خارج نطاقها بالذات ،

(٦٢) R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie », P. 171-172.
(٦٣) تعرف هذه الشركة D.H.P. اي Damas-Hama et Prolongements.
وقدر الربح الصافي لهذه الشركة بليونين فرنك عام ١٩٢٥ وبأربعة ملايين عام ١٩٢٦ .

راجع - السباعي - أضواء - ص ١٤٨ .
- Voir aussi J. Ducruet « Les Capitaux européens... » P. 236-239.

(٦٤) السباعي - المصدر السابق - ص ١٨٢ .

(٦٥) السباعي - المصدر السابق - ص ١٨٢ .

(٦٦) بموجب اتفاقية اول آذار ١٩٢٣ كانت الريجي توزع الارباح كما يلي ٣٠ - ٤٠ للحكومات و ٣٠ - ٣٥ لصندوق الدين و ٣٠ - ٣٥ للشركة بحسب ارباح الشركة - راجع السباعي - المصدر السابق ص ١٨٢ .

« ومنحتها السلطة المنتدبة كل تأييد لأن الشركة تعود لماكين فرنسيين » (٦٧) . ومن المفيد هنا ان نشير الى شركة فرنسية من نوع خاص ، شركة لم تقم بأي عمل في سوريا ولبنان ، وبالرغم من ذلك فقد أجبرت السكان فيهما على دفع مبالغ طائلة لخزانتها ، تعويضاً لها عن « خدماتها » في الامبراطورية العثمانية التي كانت تشكل سوريا ولبنان « جزءاً » من وحدة أراضيها . تلك الشركة هي ادارة الدين العثماني العام المسماة D.P.O. (٦٨) . هذه الشركة في الواقع لها صفة مزدوجة فرنسية - انكليزية ، غير ان معظم المساهمين فيها كانوا من الفرنسيين اذ كانت حصة فرنسا من الدين العمومي العثماني ٦٠٪ من مجموع الدين العثماني العام في حين قدر الرأسمال الفرنسي العامل في سوريا ولبنان قبل الحرب بحوالي ٢٠٠ (٦٩) مليون فرنك فرنسي .

لقد سارعت هذه الشركة الى الاستفادة من الوجود العسكري الفرنسي لسيطرتها على امتيازات واسعة في سوريا ولبنان ، كما حصلت على امتيازات سابقة في داخل السلطنة بالذات منذ ١٨٨٣ ، وهو عام انشائها ، اذ سيطرت على امتياز الملح ورسوم المشروبات الروحية ورسوم الطوابع ، وعشر الشرائق وضريبة التمتع في كافة أرجاء السلطنة قديماً . وبعد هزيمة تركيا في الحرب ، قام مجلس ادارة الدين العمومي العثماني بنقل « باقي » متوجبات السلطنة على الدويلات التي نشأت منها ، ومنها سوريا ولبنان ، منذ ٦ تشرين الثاني ١٩٢٤ بعد ان وزعت معاهدة لوزان ، المعقودة في ٢٤ تموز ١٩٢٣ ، حصة سوريا ولبنان من هذا الدين كالآتي :

« على مجمل البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ان تتحمل ، خلال اعوام ١٩٢٥ و ١٩٢٦ و ١٩٢٧ ، عبئاً مالياً سنوياً مقداره ٧٩٨ ألف ليرة تركية ذهبية ، يخفض الى ٦١٢ ألفاً لعام ١٩٢٨ وإلى ٥٩٤ ألفاً لعام ١٩٣٠ . هذه المدفوعات ستستمر في الانخفاض التدريجي حتى الايفاء الكامل لمختلف الاستدانات والتسليفات التي شكلت الدين العمومي العثماني » (٧٠) . و « توزعت الحصة المترتبة على لبنان الكبير بنسبة ٤٧٪ من الدين العام المتوجب على سوريا ولبنان مقابل ٣٦٪ على دولة سوريا و ٨٪ على دولة العلويين ، و ٧٪ على لواء الاسكندرون و ٢٪ على دولة جبل الدروز » (٧١) .

اما اشتراك سوريا ولبنان الكبير في الديون العثمانية السابقة لتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ فقد تحددت بنسبة ٨٠٣٧٨٪ من مجموع الدين العمومي العثماني ونسبة ١٠٪ عن الفترة التي تلت هذا التاريخ حتى اول تشرين الثاني عام ١٩١٤ (٧٢) .

(٦٧) E. Jung « La révolte arabe ». P. 160.

(٦٨) Dette Publique Ottomane.

(٦٩) دوريو - المصدر السابق - ص ٨ .

(٧٠) القسم الثاني من هذه الاتفاقية . البند ٤٦ .

(٧١) القسم الثاني من اتفاقية لوزان - البند ٤٧ .

- Voir M. Desjardins « Le problème syrien... » P. 152 et Charles Ayyoub « Les Mandats A... » P. 144.

(٧٢) Burckard « Le Mandat français en Syrie et au Liban ». P. 145.

وتجدر الإشارة هنا الى ان مجموع الدين العثماني العام قدر عام ١٩١٨ بمبلغ ٤٦٢ مليون ليرة تركية ذهبية قدم الى تركيا منها فقط ١٤٤ مليوناً من الليرات الذهبية، أما الباقي والبالغ قيمته ٣١٨ مليوناً فقد قدم بالعملات الورقية . بيد ان المجلس العام للدين العثماني فرض كامل المبالغ بالليرات التركية الذهبية ، مضيفاً اليها القوائد القانونية على هذا الاساس ، ثم جرى تقسيمه على السكان الذين كانوا يخضعون سابقاً للإمبراطورية العثمانية ويشكلون جزءاً منها . وقد قدر النائب كاستيلاني حصة فرنسا من هذا الدين بأكثر من ٦٠٪ من أصل ١٦٠ مليون ليرة تركية ذهبية تعادل آنذاك ٣ مليارات و ٧٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية ، تخص دائنين فرنسيين دون غيرهم . وبلغت تقديرات كاستيلاني للفائدة السنوية عن تلك الحصة بحوالى ٣٨ مليوناً من الفرنكات الذهبية الفرنسية (٧٣) .

ان ادارة الدين العمومي العثماني والتي ليست في النهاية سوى مصلحة الرأسمالين الفرنسي والبريطاني بشكل خاص ، قامت بأساليب تجاوزت كل أشكال الاستعمار السابقة في سوريا ولبنان الكبير وبقيت فترة طويلة من الزمن تقتطع ١٪ (٧٤) من ميزانية هذين البلدين .

أسس دولة رأسمالية في لبنان المعاصر

لقد كان تمرکز الشركات والمؤسسات المالية في أيدي فرنسية إحدى السمات المميزة ولا شك لنمو الرأسمال المصرفي في لبنان في ظل الانتداب الفرنسي . غير ان هذا التمرکز الذي تحقق لصالح الفرنسيين انعش على جنباته بورجوازية لبنانية (٧٥) محلية سرحان ما تعززت مكانتها في الفترة الانتدابية اللاحقة . وتشكلت تلك البورجوازية بشكل خاص من المرابين والمصرفيين المحليين وبعض كبار التجار وأغنياء الحرب . وكانت هذه البورجوازية تتوزع على وكالات الشركات الأجنبية ، خاصة الفرنسية منها ، وترتبط بها مباشرة . وبالإضافة الى الوكالات التي حصلت عليها ، كانت تمارس أيضاً أعمال الإقراض والتسليف لأمد قصيرة . وقد استفادت من الوجود العسكري - الفرنسي لتوسع رقعة استقلالها من بيروت ، حيث كانت تتمركز

(٧٣) — L'Asie Française. Supplément du No. 225. Septembre-Octobre 1924.

(٧٤) — R. O'Zoux « Etats du Levant... » P. 155.

(٧٥) تكلم دومنيك شفاليه على بورجوازية مسيحية في جبل لبنان منذ القرن التاسع عشر — تلك

البورجوازية التي شكلت الوسيط المفضل للتجار الأوروبيين .

— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » P. 209.

كذلك يوضح « يساري لبناني » العوامل التي جعلت من قطاع التجارة العنصر المحدد الاساسي لتطور الرأسمالية في لبنان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأهمية أعمال الوساطة والوكالات في الانشاء السريع لكبار التجار والمتنفذين والتي دفعت الاقتصاد اللبناني نحو التبعية للاحتكارات الأجنبية .

راجع « يستقري لبناني » « اليسار الحقيقي واليسار المخامر » . المقطع التحليلي البالغ الدقة « لحة تاريخية لتشكل البنية الاقتصادية في لبنان » ص ١٢٤ وما يليها .

بشكل رئيسي . الى الداخل اللبناني والسوري . كما قامت بتجارة الترانزيت أيضاً ، في حين كان بعض أفرادها يفرضون أنفسهم على تجار المدن الأخرى في سوريا ولبنان كوسطاء بينهم وبين الراسمائل الأجنبية التي احتكروا وكالاتها . وقد استغلت هذه الفئة النشطة فترة فراغ النقود الذهبية من الداخل الى فرنسا عبر بيروت لتجمع ثروت طائلة ، اذ قامت بأعمال الصيرفة وصناعة الحلى والمجوهرات . وقامت بفتح بعض « المصارف المحلية » الخاصة بها ، والتي اعتمدت على التسليف بشكل خاص وتقديم القروض على سندات أو بضائع ، وتسليفات مقابل رهن . ومن أبرز تلك المؤسسات التي كانت على الساحة اللبنانية آنذاك : مؤسسة فرعون وشيخا ، مؤسسة طراد وشركاه ، مؤسسة صباغ وأولاده ، مؤسسة جبيلي وأولاده وشركاهم ، مؤسسة قصعة ، مؤسسة صفر وطراد ، مؤسسة فرحي وطراد ، مؤسسة سليم خياط ، مؤسسة باسيل ريس ، مؤسسة داغر وبطرس ، مؤسسة هوتير ، مؤسسة زلوم ، مؤسسة بدوي ، مؤسسة ديس وفياني ، مؤسسة ا. حداد ، مؤسسة شارل قرم (٧٦) . وأياً كان دور تلك المؤسسات المالية المحلية خلال تلك الحقبة ، فقد بدأت تبرز كقوة اقتصادية هامة ، وتدعم أسس بورجوازية لبنانية كانت في أساس حركة سياسية كبيرة ، بدأت موالية للانتداب ومعارضة لكل حركة وحدوية ، لتبدأ معارضتها له بعد اشتداد عودها في المرحلة التالية للانتداب .

ان عهد المتصرفية قد سهل دخول الرأسمال الاجنبي الى جبل لبنان ، وفي استيراد الراسمائل ، التي سيطرت على الحزير والطرق والمراعي والكهرباء والمياه والسكك الحديدية وغيرها ، وجرى استيراد نماذج ادارية ومالية من الغرب الراسمالي خاصة من فرنسا . الا ان السياسة الانتدابية لفرنسا سعت مباشرة الى نقل أسس تلك الادارة الرأسمالية الفرنسية برمتها الى سوريا ولبنان . فنقلت اليهما الدستور ونظام التعليم وتنظيم الجيش وتنظيم الادارة ، والنظام النقدي وغيرها على نفس النظم التي كانت مطبقة في فرنسا سابقاً . ان انشاء الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب الفرنسي عقب اعلان الدستور عام ١٩٢٦ ، قد رسخت السيطرة الفرنسية على جميع اقتصاديات سوريا ولبنان وربطتها تبعياً باقتصاد فرنسا كما رسخت في الوقت نفسه بذور الدولة الرأسمالية اللاحقة في لبنان المعاصر وبذور بورجوازية لبنانية محلية عرفت كيف تتوزع على الراسمائل الأجنبية المتوافرة في بيروت وتنتعش على هامش علاقاتها التبعية معها .

بعض الملاحظات

شهد لبنان وسوريا ثقافياً استعمارياً وتكالبا على مدخراتهما الذهبية منذ دخول القوات التركية الى لبنان ، وانتهى التنافس بانتصار الفرنسيين الذين فرضوا عملتهم الورقية على أساس معادل للذهب وأجبروا السكان على التعامل بها بعد ان أجبروا سابقاً على التعامل بالليرة التركية الورق والليرة المصرية الورق . وكانت خسائر

(٧٦) ايلي وهزجي جدمون — الدليل السوري لعام ١٩٢٢ — ص ٤٩ .

السوريين واللبنانيين كبيرة جدا من جراء تلك العملات الورقية التي لم تكن تتمتع بالتغطية الذهبية والاستقرار في أسعارها . لذا أظهرت سياسة الفرنسيين مرونة كبيرة لادخال الثقة الى نفوس السكان بقصد الافراج عن مديرتهم الذهبية بعد المحاولات المستمرة والفاشلة لاغرامهم على التعامل بالنقد الورقي المساوي للذهب . ولجأوا خلال هذه الفترة الى فرض الذهب كعملة أساسية في دفع الضرائب والعشور مما أجبر السكان على تقديم ما لديهم تباعا للفرنسيين حتى فرغ الريف تماما من آخر نقوده الذهبية بعد عشر سنوات فقط على بدء الانتداب . وقام المفوضون السامون الفرنسيون ، من الموالين اليمين أو الموالين للكارثيل اليساري ، بتدعيم سيطرة

الراسمال الفرنسي على جميع المرافق الحيوية في سوريا ولبنان . وأولت ادارة الانتداب أمر اصدار النقود الى بنك سوريا ولبنان الكبير الذي اخترع معظم خيرات الانتداب عن طريق سيطرته المباشرة على اقتصاديات سوريا ولبنان . هذا البنك لم يكن بنك الدولة ، وبالرغم من ذلك أعطته سلطات الانتداب جميع صلاحيات بنك الدولة . فكانت الأرباح تذهب الى صناديقه الخاصة بمبادلات ذهبية على مقره في باريس ، أما الخسائر فيتحملها سكان سوريا ولبنان . أن مثل هذا البنك كان الشكل المشوه للبنك المركزي الذي بقي لبنان يفتقر الى وجوده حتى الستينات ، أي بعد الاستقلال بزمان طويل . غير ان الأعمال المصرفية التي قام بها هذا البنك ساهمت الى حد كبير في ادخال العديد من التشريعات المالية على أسس رأسمالية حديثة تبنتها لاحقا دولة الاستقلال . ولم تستفد جميع البنوك والمؤسسات المالية الفرنسية بنفس القدر من وجود الانتداب بل على العكس من ذلك ، فقد انحصرت منافع الانتداب بينك سوريا ولبنان الكبير الذي أصبح أكبر تروست مالي في البلدين في حين اقتصر دور باقي البنوك الفرنسية على تسليفات وقروض قصيرة الامد ولم تلعب دورا هاما في أية مجالات اقتصادية في دولات الانتداب . أن بنك سوريا ولبنان حد بالفعل من تطور جميع البنوك الأخرى من مختلف الجنسيات بما فيها الفرنسية ولعب دور السمكة الكبيرة التي ابتلعت باقي المؤسسات والشركات العاملة في الحقل المالي في سوريا ولبنان .

اما آفاق تطور المؤسسات الأجنبية غير الفرنسية فكانت ضيقة جدا حيث ان الفرنسيين فرضوا عليها قيودا صارمة وأجبروها على الخضوع مباشرة لاشراف بنك سوريا ولبنان ، مما جعل تلك المؤسسات المالية تفقد قدرتها على المزاومة والتوسع فيقي دورها هامشيا طيلة الفترة الانتدابية الاولى ، ولم يظهر لها اثر ملموس في مجالات الاقتصاد اللبناني آنذاك .

لقد اقتصر التوظيفات المالية ، فرنسية كانت ام غير فرنسية ، على القروض وتسليف التجار ، وتمركزت أساسا في بيروت ، في حين افتقرت جميع القطاعات الاقتصادية المنتجة الى الدعم المالي الضروري لتنشيطها . فخارج بيروت ، وخارج مرفأها وما يتعلق به بشكل خاص ، انعدمت توظيفات البنوك والمؤسسات المالية الأجنبية . فدعم قطاع التجارة كان الهدف الرئيسي لتلك البنوك العاملة في بيروت ، في حين أضحت باقي القطاعات ، خاصة الصناعة والزراعة ، في ركود قاتل بعد ان

سدت المزاومة وقلة الرساميل آفاق تطورها .

اما المؤسسات المالية المحلية فقد نشأت على هامش المؤسسات المالية الأجنبية ذات وفي قطاع التجارة والتسليفات دون سواها ، وولدت في حالة من التبعية المطلقة لتلك المؤسسات الأجنبية . فهي ليست شريكا لها ولا مزاحما بل مجموعات صغيرة من التجار والمرايين والصاغة والمهاجرين الاغنياء حاولوا ترسيخ أقدامهم على الساحة المالية البيروتية برساميل قليلة سرعان ما بدات تزدد تباعا بفضل ارتباطاتها لتجارية المتعددة الجوانب والربا الفاحش الذي كانت توظف فيه أموالها بشكل تسليفات قصيرة الامد . فالراسمال المحلي كانت له مصلحة مزدوجة : فهو من جهة يريد التملص من سيطرة الرساميل الأجنبية القوية والتي لا يستطيع مزاحمتها ، ومن جهة أخرى كان بحاجة ماسة للوجود الانتدائي العسكري كي يتمو ويتوسع . لذا كان اصحاب هذه الرساميل من أشد المناصرين للانتداب في مرحلته الاولى فقط وسينقلب العديد منهم ضد الانتداب لاحقا الى منادين بالاستقلال وضرب تبعية لبنان الوحيدة الجانب للفرنسيين .

ان الليرة السورية - اللبنانية كانت تابعا امينا للفرنك الفرنسي ووثيقة الارتباط بتقلباته . فهي لم تستفد قط من فترات نهوضه التي لم تظهر خلال تلك الفترة بل رافقت هذا الفرنك في جميع مراحل هبوطه التي تجاوزت نصف قيمته أحيانا . ان فرض تلك الليرة على أساس معادل للذهب لم يكن فعليا الا على أساس معادل للفرنك الفرنسي غير المضمون بتغطية ذهبية كافية . لذا كان على دولة الاستقلال ان تفصم هذه التبعية المطلقة للفرنك الفرنسي وتعيد الليرة ضمانا ذهبية جديدة ومعادلات مستقلة عن التبعية الوحيدة الجانب للفرنك .

ان هذه البنوك والمؤسسات المالية الفرنسية والأجنبية والمحلية أurst بالفعل أسس دولة رأسمالية حديثة في لبنان استمدت تشريعاتها في الحقل المالي من آخر تطورات الرأسمالية الحاكمة في باريس ، وستسهم لاحقا في تنشيط القطاع المالي في لبنان بعد الاستقلال ودخول الرساميل العربية بوفرة الى مؤسساته المالية الضخمة المتمركزة في بيروت دون سواها والتي كانت المستفيد الأكبر من خيرات الانتداب .

□ الفصل الثالث □
ولادة قطاع جديد : الاصطيفاف
□ فيت جوار بيروت □

بيروت قاعدة بحرية للملاحة الدولية

لا ريب ان الجبال اللبنانية من اجمل مناطق شرقي البحر الابيض المتوسط مناخا ومناظر طبيعية خلابة . وكانت هذه الجبال ملتقى الاغنياء من المصريين والسوريين والعراقيين والفلسطينيين . فقد اعتاد هؤلاء تمشية الصيف بكامله في ربوع الجبال اللبنانية منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى . وسارعت فرنسا المنتدبة الى استغلال هؤلاء « الزبائن » الدائمين كي تشر اقامتهم في لبنان لصالح خزائنه وبالتالي الخزانة الفرنسية . لذا سعى الجنرال غورو ، فور اعلانه عن ولادة دولة لبنان الكبير ، الى توطيد الامن بحزم ، ومد شبكة واسعة من الطرق الحديدية والمواصلات ، وشجع البعثات الاثرية على التنقيب في لبنان الذي يشكل تاريخه مصدرا هاما لوجود اكتشافات اثرية كبيرة على مر العصور ، وقامت المفوضية العليا باستصدار مراسيم متعاقبة اعفت بموجبها الفنادق والفيلات ورؤوس الاموال العاملة في الصناعة الفندقية والسياحة من الضرائب ، كل تلك الخطوات دفعت هذا القطاع الى النمو والانتشار بشكل متسارع .

ولجأ الجنرال غورو كذلك الى عقد اتفاقيات سياحية مع شركات النقل والملاحة البحرية ، الفرنسية وغير الفرنسية العاملة في المنطقة كي تفتح لها فروعاً في بيروت . وبلغ تعداد تلك الشركات اربع عشرة شركة عام ١٩٢١ منها سبع شركات فرنسية الجنسية هي : شركة النقل البحري ، والشركة الفرنسية للملاحة التجارية ، والشركة البحرية في الغرب ، وشركة تجمع مستأجري السفن ، والشركة البحرية للتفريغ والشحن ، والشركة البحرية الوطنية ، وشركة جييه GILLET . واولاده (١) .

اما الشركات السبع الاخرى المتعددة الجنسيات فكانت « الشركة الخديوية » و « برنس لايس » و « موسي لاين » و « لويد تريستينو » و « الشركة البحرية

(١) — H. C. « Ce que tout Français doit savoir de la Syrie et du Liban... » P. 3-5.

الايطالية» و «الشركة الايطالية للمواصلات البحرية» و «شركة الملاحة الايونية» (٢). وبدات تلك الشركات تعمل على نقل المسافرين بانتظام على خطوط بيروت وتؤمن مواصلات دائمة من حوض المتوسط اليها ، وبدأ عدد السواح يتكاثر اسبوعيا منذ ذلك التاريخ .

الخطوط الحديدية تربط بيروت بالداخل

وسارعت المفوضية العليا بفترة وجيزة جدا الى ترميم جميع خطوط المواصلات التي اصبحت خلال الحرب في سوريا ولبنان . وما ان انتصف شهر تموز ١٩٢١ حتى اعيد السير على خطوط بيروت - دمشق ، ورياق - حمص ، وحمص - طرابلس . وقامت بأعمال الترميم تلك «الشركة العامة لخطوط السكك الحديدية» وفدرت تكاليف الاصلاحات بحوالي ٢١ مليون فرنك فرنسي (٣) . لقد كانت المفوضية العليا تخطط بجديّة لتوسيع تجارتها وربط المناطق بعضها ببعض ، وهذا ما يفسر صرف مبلغ ٢١ مليون فرنك فرنسي بعد عام واحد فقط من معركة ميسلون ، على خطوط المواصلات وحدها . واجريت الدراسات ايضا لمد خط حديدي بين بيروت وطرابلس ، ينتهي العمل فيه عام ١٩٢٤ ويمدد ايضا فيوصل بيروت بالناقورة . واعدت الدراسات كذلك لمشروع انشاء خط حديدي مبني يوصل بيروت بمرمانا ، لكن المشروع لم ينفذ (٤) . وارتفعت زنة البضائع المنقولة على تلك الخطوط الحديدية بشكل متصاعد اذ بلغت الصادرات عليها الى الخارج ٤١٧٧ طنا عام ١٩٢٣ مقابل ٦٨٢٠ طنا عام ١٩٢٤ اي بزيادة ٦٠٪ تقريبا خلال عام واحد مقابل واردات عليها قدرت بحوالي ٣٣٩٠ طنا عام ١٩٢٣ و ٤٠٩١ طنا عام ١٩٢٤ (٥) .

وقامت لجنة شبكة الخطوط الحديدية التابعة لجيش المشرق كذلك بترميم واستغلال خطوط الترام اللبنانية التابعة للشركة العامة البلجيكية والتي سرعان ما اُعلنت فنالت امتيازاتها شركة الخطوط الحديدية الفرنسية منذ ١٩٢٤ . وقد وضعت اللجنة قيد الاستخدام خط بيروت - المعاملتين منذ ١٩٢٣ بطول ١٩ كيلومترا فقط ، وبقي الترام اللبناني محصورا في مدينة بيروت دون ان يتعداها الى المناطق المجاورة .

غير ان قلة موارد الخطوط الحديدية ، وبطء سير القطارات بسبب صعوبة الجبال اللبنانية ، وعدم انتظام السير عليها خاصة في فصل الشتاء بعد تراكم الثلوج وكثرة الانهيارات ، حدد موضوعها من امكانية استخدام القطارات لنقل المسافرين والسواح . ورغم الجهود التي بذلتها ادارة المفوضية العليا وشركة الخطوط العامة لسكك الحديد ، فان شبكة الخطوط الحديدية في لبنان لم يطرأ عليها تغيير جدي منذ ذلك التاريخ . والخطوط الحديدية التي اقامها الفرنسيون في لبنان بقيت

(٢) - H.C. « Ce qu'e tout Français... » P. 7-10.

(٣) - H.C. « La Syrie et le Liban en 1922 » P. 144.

(٤) - H.C. « Rapport sur l'année 1923-1924 » P. 40.

(٥) - Bulletin de C.I.F.L. No. 1 de 1923 P. 19 et No. 9 de 1924 P. 19.

دون زيادة بسبب طبيعة لبنان الجبلية بالذات والتي لم يستخدم التكنيك الحديث حتى اليوم لتجاوز وعورتها .

النقل بالسيارات يختصر المسافات

بيد ان تلك الصعوبات الجدية لتطوير النقل بالقطار والترام تفسر جزئيا تنامي دور النقل بالسيارات . فسرعة الانتقال بها وسهولته ، وراحة المسافر ، جعلت الناس يفضلون السيارة للتنقل ولحمل السلع والبضائع القليلة الوزن وغير المربكة في الحمل . فانتسح استخدام السيارات بوتائر عالية منذ الحرب العالمية الاولى وبدأ ينتظم بشكل تقنيات وكاراجات لها سفريات منظمة في الداخل والخارج (٦) . وشجعت المفوضية العليا عملية شق الطرق نحو القرى وذلك باستخدام اليد العاملة المحلية والسخرة العينية واستخدام سجناء الحق العام ، وذلك باشراف الجهاز الفني في ادارة الانتداب (٧) .

وتعددت الطرق المحلية والرئيسية بشكل هائل في تلك الفترة . فباستثناء الطرق ذات الاهمية المحلية القروية في جبل لبنان ، لم يكن في لبنان قبل عام ١٩١٤ سوى طريقين رئيسيين للمواصلات الطويلة في لبنان هما : طريق بيروت - صور التي فتحتها الشركة الفرنسية العامة لشق الطرق في الامبراطورية العثمانية ، وطريق بيروت - دمشق ، التي نفذتها كذلك شركة فرنسية وبدا استخدامها منذ ١٨٦٥ (٨) يضاف اليهما ايضا حوالي ٥٠٠ كلم (٩) حتى عام ١٩١٢ ، من الطرق الضيقة والجبلية السيئة الصيانة في جبل المتصرفية .

وباعتراف المعمرين الذين عايشوا تلك الفترة ، وتقارير المفوضية العليا وبعض المختصين ، فان السيارة ، في عام ١٩١٨ ، كانت تحتاج الى يومين (١٠) لقطع مسافة المئة كيلومتر تقريبا التي تفصل بيروت عن طرابلس .

لقد قامت المفوضية العليا بتأمين حركة مواصلات واسعة جدا منذ ١٩٢٠ . وغدت طرق بيروت - صور ، وبيروت - طرابلس ، وصور - الناقورة ، وبيروت - دمشق ، وطرابلس - حمص ، تعمل بانتظام في عام ١٩٢٣ . وحتى عام ١٩٢٦ ، كان قد تم تنفيذ واصلاح الطرق التالية : الطريق الساحلية الناقورة - اسكندرونة ٥٧ كلم ، والطريق البقاعية حاصبيا - زحلة - بعلبك - حمص (٢٦٠ كلم) ، وطريق صيدا - مرجعيون - حاصبيا - القنيطرة - عذرا - السويداء (١٧٠ كلم) ، كان قد اكمل منها ٥٠ كلم فقط منذ عام ١٩١٩) ، وطريق بيروت - شتورة - دمشق (١٢٠ كلم) وفرع

(٦) - H.C. « Rapport sur l'année 1922 » P. 149.

(٧) - H.C. « Rapport sur l'année 1923-1924 » P. 39.

(٨) - H.C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » P. 170.

(٩) - Correspondance d'Orient - No. 219. P. 531.

(١٠) - H.C. « Rapport sur l'année 1922 » P. 147.

يتجه الى حمص عن طريق بعلبك . وطريق طرابلس - حمص (١٢٠ كلم) (١١) .
وينوه تقرير ١٩٢٣ - ١٩٢٤ الى عصبة الأمم انه بانشاء طريقين جديدين في
منطقة عكار هما طريق العبد - حلبا ، وطريق حلبا - القبيات ، أصبحت دولة لبنان
الكبير تشتمل في عام ١٩٢٤ على ١٥٠٠ كلم من شبكة المواصلات الداخلية (١٢) .
نضيف الى ذلك ، ان المفوضية العليا قامت بعقد اتفاقيات سياحية مع بغداد
وطهران بذات بموجبها رحلات اسبوعية منتظمة من بيروت الى بغداد ، على ان تعبرها
حمرتين في الشهر فتصل حتى طهران (١٣) .

الازدياد الهائل في عدد السيارات

لا ريب ان توسيع الطرقات القديمة واصلاحها ، وشق طرق جديدة الى معظم
القرى دفع أعداد السيارات العاملة في لبنان بشكل خاص الى ارتفاع عمودي وفي
منتهى السرعة . ففي حين كان تعداد السيارات في لبنان وسوريا لا يتجاوز عدد
اصابع اليد الواحدة في عام ١٩١٤ (١٤) تتمركز في مدينة بيروت دون سواها ، فان
العدد سيرتفع الى مئة سيارة في مطلع ١٩١٩ . والى ألف سيارة في دولة لبنان الكبير
وحددها في عام ١٩٢١ والى ١٢٠٠ سيارة ايضا في لبنان بمفرده عام ١٩٢٣ . ثم
قفز الرقم الى ٣٧٠٠ عام ١٩٢٦ ثم الى ٦٠٠٠ سيارة عام ١٩٢٨ مع اضافة ٢٥٠
شاحنة كبيرة للنقل البري ، وذلك ايضا في لبنان وحده (١٥) .
وقد قدر سليمان الجميل تعداد السيارات في لبنان الكبير بحوالي ٣٧٦ سيارة
عام ١٩٢١ و ٥٢٩١ سيارة عام ١٩٢٨ (١٦) . في حين قدر مورغان جونس مجموع
السيارات التي وصلت الى مرفأ بيروت حتى عام ١٩٣١ بحوالي ١٨٢١١ سيارة
مشيرا الى ان أكثر من نصف هذا العدد بقي في لبنان وحده (١٧) .
صحيح ان التقديرات في هذا المجال ليست بالغة الدقة ، لكن جميع الاحصائيات
مقاربة في تحديد العدد الضئيل للسيارات في سوريا ولبنان بعيد الحرب العالمية
الاولى والاشارة الواضحة الى الارتفاع الهائل في ازدياد تلك الارقام . لذا لن نتوقف
على تعداد تلك الاحصائيات بقدر ما يهمنا الخط العام لتطور مبيع السيارات واسباب
هذا التطور والقوانين الاجتماعية التي دفعت اليه .
ففي اواسط عام ١٩١٨ كان في بيروت ١٤ سيارة فقط غير محددة الماركات .
اما في عام ١٩٢٣ فكان فيها ١٢٧٥ (١٨) سيارة ما بين سيارات نقل صغيرة وكبيرة ،

- (١١) — M. Desjardins « Le problème syrien au point de vue économique ». P. 143.
(١٢) — H.C. « Rapport sur 1923-1924 ». P. 39.
(١٣) — Richard Thoumin « La géographie humaine de la Syrie Centrale ». P. 203.
(١٤) — S. Himady « Economic Organization of Syria ». P. 9.
(١٥) — L'Asie Française — Janvier 1932. P. 35.
(١٦) — Souleiman Gemayel « L'évolution du budget libanais ». P. 15.
(١٧) — J. Morgan-Jones « La fin du Mandat français en Syrie et au Liban ». P. 25.
(١٨) — Bulletin de C.I.F.L. — No. 2 de 1923 — P. 21-23.

وسيارات لنقل الركاب عرفنا منها ٩٤٩ سيارة اميركية الصنع و ١٤٦ فرنسية و ١١٢
ايطالية و ٢٩ انكليزية و ٢٩ المانية ، ٨ سيارات نمساوية الماركة ، وواحدة فقط من
صنع سويسري وأخرى من صنع بلجيكي .

وقد قدر استيراد السيارات التي مرت بمرفأ بيروت في الاشهر الثلاثة لعام
١٩٢٧ بحوالي خمسمئة سيارة منها ٣٠٠ ذات صنع اميركي ومئة فرنسية و ٢٠
ايطالية (١٩) . وكانت أكثر أنواع السيارات الفرنسية شيوعا من ماركات رينو ،
ستروين ، برليه . ومن صنع ايطالي كانت ماركات فيات ، وانسلدو ولانسيا . اما
السيارات الاميركية الرائجة فكانت ماركات بويك ، هيدسون ، أسكس ، كرايزلر ،
شفرويه ، فورد ، وناش ، ودودج .

اما على صعيد الآليات ذات المحرك ، سواء الثقيلة منها ام الخفيفة ، الفخمة ام
العادية ، فكان عددها يتزايد ايضا باستمرار من اسبوع لآخر . ولم يكف مرفأ
بيروت عن استقبال العديد منها . وحتى نهاية هذه الفترة ١٩٢٦ ، كانت الولايات
المتحدة الاميركية ذات الامتياز الاوسع انتشارا في تصدير هذه الاصناف الى سوريا
ولبنان .

لقد كان للاميركيين اليد الطولى في اغراق الاسواق اللبنانية بجميع انواع
المحركات دون مزاحم جدي سوى عدد قليل من المحركات الطليانية التي تمركزت
بنجاح في هذه الاسواق .

اما المحركات الفرنسية فكانت قليلة الانتشار خارج دوائر المفوضية العليا
والجيش . وكان عدد قليل من الناس يقتني سيارات فرنسية الصنع ولا تتجاوز
نسبتهم ٥ ٪ فقط على اخص تقدير الفرنسيين انفسهم . ويقول غونتو - بيرون الذي
أورد هذا الرقم : « ان ايا من الفرنسيين لا يمكنه ايراد هذه النسبة دون مراة
قائلة » (٢٠) . ويشير استاذ الحقوق في جامعة القديس يوسف الى هذه المارة بحسرة
اكبر فيقول : « ماذا فعلنا ؟ لقد نظمنا حركة السير ، فوقف شرطي مدرب بعناية
يوجه ما لا يحصى من سيارات البويك والكاديلاك والفراهام والدودج التي تسير في
خطوط مدهشة عبر شوارع بيروت (٢١) .

اما عن قطع الغيار لتلك السيارات فتقول « دو سان بوان » ، الفرنسية ايضا ،
« ان قطع غيار السيارات وكذلك الوقود ، حتى عام ١٩٢٧ ، كانت تجلب جميعها
من الخارج . ومن اين ؟ من الولايات المتحدة الاميركية لا من فرنسا » (٢٢) .

لقد عرف الاميركيون كيف يتمركزون بثبات في هذه التصديرات الى مرفأ
بيروت وبالمقابل ، رافق استيراد السيارات ، الاميركية منها وغير الاميركية ، استيراد
للمحروقات التي يحتل البنزين المقام الاول فيها ، وهذا الاستيراد يكاد يكون حكرا
على الاميركيين . وبدأ استهلاك المحروقات يتزايد بسرعة . فمن أقل من ٩٥ ألف طن

- (١٩) — Bulletin de C.I.F.L. — No. I de 1927. P. 142.
(٢٠) — R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie ». P. 7.
(٢١) — Louis Jalabert « La Syrie et le Liban: Réussite française ? ». P. 162.
(٢٢) — V. de Saint Point « La vérité sur la Syrie ». P. 62.

عام ١٩٢٧ ، ارتفعت الكمية الى ١٢٠ ألف طن عام ١٩٢٩ تصل الى ١٥٠ ألف طن عام ١٩٣٠ (٢٣) ، استهلكت بكاملها في سوريا ولبنان . ولم يكن ينافس الاميركيين في هذا المجال سوى كميات قليلة من بترول رومانيا الذي كان للاميركيين نصيب وافر في انتاجه وتسويقه . لقد عرف الاميركيون كيف يتغلغلون في الاسواق التجارية اللبنانية ، بفعل قوة رساميلهم الهائلة من جهة ، وسياسة الباب المفتوح التي فرضوها على الفرنسيين من جهة اخرى . وكان واضحا منذ البداية ان الاميركيين في هذا الميدان كانوا اكثر المستفيدين على الاطلاق دون ان يساهموا ماديا او معنويا في نفقات الانتداب وادارته واحتفظوا لانفسهم بأفضلية تامة في مجال بيع السيارات والمحركات والوقود في الاسواق اللبنانية طيلة عهد الانتداب .

وقد قدرت جمعية التجار والصناعيين الفرنسيين في الشرق ن مبيعات البترول بلغت عن شهر آب ١٩٢٥ لوحده مبلغ ٦٨٥٠٠٠٠٠٠٠ (٢٤) قرشا سوريا - لبنانيا اذ بيع برميل البترول المؤلف من صفيحتين سعة كل منهما ١٨ ليتر ، بسعر ٤٤٠ قرشا سوريا - لبنانيا بالمعنى .

اما على صعيد اسعار تلك السيارات فكانت السيارات ذات الصنع الاميركي الاكثر مبيعا والاسهل في الدفع على أقساط . وقد قدرت اسعار تلك السيارات كالآتي : (٢٥)

الماركة السعر بالليرات المصرية

بويك	٥١٠
هيدسون	٤٤٠
اسكس	٢٤٠
كرايزلر	٢٣٥
شيفروليه	٢١٠
فورد	١٥٥
ناش	٤٨٠

من هذا الجدول يتبين لنا ان سيارات شيفروليه كانت الاكثر مبيعا لانها الاقل ثمنا ، كذلك سيارات فورد ، في حين كانت البويك والهيدسون حكرا على الاغنياء دون غيرهم . ومما لا شك فيه ان عدد السيارات المباعة في لبنان لم يكن ينسجم اطلاقا مع ثروة البلاد ولا مع الخدمات الاجتماعية المطلوبة من تلك السلع بل عززت قطاع النقل الخاص على حساب انعدام النقل العام تماما واضحت هذه السمة من ابرز خصائص قطاع النقل في لبنان طيلة فترة الانتداب وبعدها .

ان وسائل النقل تلك قد لعبت دورا بارزا في نقل السواح والحجاج ، كما

— R. Thoumin « La géographie humaine... » P. 95.

— Bulletin de C.I.F.L. du Août-Septembre 1925, P. 32.

— Bulletin de C.I.F.L. — No. I de 1927, P. 142.

ان التأثير الاجتماعي لازدياد عدد تلك السيارات المستخدمة لنقل الركاب كان ذا دلالة هامة . فقد ترك بعض صغار التجار والعمال والحرفيين اعمالهم السابقة ، خاصة في المدن ، لينخرطوا كسائقين أو باعة في محطات البنزين او عمال ميكانيك سيارات دون اختصاص مسبق . ومهما قيل في الثروات التي كان يمتلكها بعض هؤلاء الناس والتي سمحت لهم بشراء سيارة كي يعملوا عليها ، فان الاغلبية الساحقة منهم قد ارتبطت بشركات بيع السيارات عن طريق التسهيلات الكبرى بالدفع التي قدمها ممثلو الشركات الاميركية خاصة لزيائهم اذ كانت سندات الدفع تقسط المبالغ وفوائدها الى اثني عشر شهرا او ثمانية عشر شهرا او اربعة وعشرين شهرا (٢٦) مما ضاعف عدد المبيعات من جهة ، وعدد العاملين في قطاع النقل من جهة اخرى ، الذين ارتبطوا بحالة التبعية المطلقة لأصحاب تلك الشركات ، اذ ان عددا قليلا جدا منهم استطاع وفاء ديونه وفوائد تلك الديون وأرتهن السائق للسيارة التي يعمل عليها دون ان تكون له ملكية فعالية لها بل على امل ان تصبغ له في المستقبل . بيد ان اسعار المحروقات المرتفعة جدا ، وقلة عدد الركاب ، والمزاخمة بين العاملين في هذا القطاع ، والاقساط المترتبة عليه وفوائدها ، والضرائب المباشرة وغير المباشرة التي كان يدفعها ، جعلت احلام الاغلبية الساحقة من هؤلاء السائقين تبقى حلما بعيد التحقيق . هذا الشكل من الاستغلال الذي قامت به الشركات الاميركية ، تحت انظار وسمع الادارة الانتدابية الفرنسية ، سيبقى طيلة عهد الانتداب ويزداد شراسة بعد مطلع الاستقلال حتى اليوم .

اثر المواصلات في نمو قطاع الاصطيف

ان تطور وسائل النقل ، البحري منه والبري ، السكك الحديدية والطرق المعبدة ، قد ادى دورا رئيسيا في التوسع التجاري والمالي لفرنسا بشكل خاص . ففضل البواخر والقطارات والسيارات كانت البضائع الفرنسية والاوربية والاميركية تدخل على نطاق واسع ، لا للبنان الكبير فحسب ، بل وايضا الى سوريا والعراق وايران وداخل الجزيرة العربية . وبالمقابل ، تسهلت عملية نقل المنتوجات الزراعية والمواد الخام من الداخل الى فرنسا وتكترا والولايات المتحدة وايطاليا والمانيا وغيرها . كما ان تلك المواصلات لم تقتصر فائدتها على النواحي الاقتصادية وتبادل البضائع ونقل الافراد فحسب بل تمتدتها ايضا الى الاحتكاك المباشر بالصناعات الاوروبية الحديثة والتعامل معها فكريا وعمليا بحيث ان المواصلات « ساعدت على تحرير اللبناني من الارتباطات القاسية التي فرضتها عليه بيئته الطبيعية القاسية » (٢٧) كما جعلته ينظر فصل الصيف ويرصد مجيء الاصطافيين العرب والسواح الاجانب كي يجتذبهم الى المقهى الذي اقامه لهم او الكراج الذي فتحه لاصلاح سياراتهم ، او المطاعم التي تقدم لهم اشهى المازات والمأكولات . لقد جعل الاحتكاك المتواصل بهؤلاء

— R. Thoumin « La géographie humaine... » P. 94.

— R. Thoumin « La géographie humaine... » P. 203.

المصطافين من ساكن تلك المناطق تاجرا من نوع جديد . تاجر يفتش عن الربح في كل شيء : في ايجار المنزل ، في المطاعم والملاهي ، في الخضراوات ، في حفلات الطرب والكيف ... الخ . وقامت السيارات السياحية ترصد هذا الموسم كذلك ، فتؤمن حركة مواصلات دائمة ليلا ونهارا تربط بيروت بمراكز الاصطيف القريبة منها . وتشير مجلة « آسيا الفرنسية » : « ان الف سيارة سياحية قد بيعت في بيروت وحدها حتى اوائل عام ١٩٢٢ » (٢٨) .

وبالفعل ، كانت أغلبية السيارات التي بيعت في لبنان الكبير خلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ سيارات سياحية خاصة لنقل الركاب . وحسب احصائيات صلاح عسلي « فان مجموع السيارات التي بيعت في لبنان وحده بلغت حتى ١٩٣٥ حوالي ١١٧١٦ سيارة منها ٩٨٩٥ سيارة نقل ركاب (تاكسي) مقابل ١٨٢١ سيارة خصوصية فقط . اما باقي الدويلات السورية فلم يتجاوز عدد السيارات فيها جميعا خلال تلك الفترة ٧٧١٦ سيارة فقط » (٢٩) .

يضاف الى ذلك ان « الشركة الشرقية للنقل » عندما قررت منذ ١٩٢٣ تنظيم رحلات اسبوعية بالسيارة بين بيروت وبغداد بطريق دمشق - تدمر ، جعلت من بيروت محطة صيفية بحرية لموظفيها في بغداد . وأرسلت الشركة لموظفي الادارة البريطانية في الانتداب على العراق تقول ان باستطاعتهم « التمتع مع أسرهم بهواء جبل لبنان ومناظره الخلابة بأقل من مسافة يومين بالسيارة » (٣٠) . الفوضية العليا الفرنسية من جانبها قامت بدعوة المصطافين العرب الاغنياء الى « قضاء فصل الصيف في بلدهم الثاني لبنان » . وساهمت بمبلغ ١٠٠ ألف فرنك (٣١) من ميزانية دولة لبنان الكبير لعام ١٩٢٣ لإحداث نهضة كبيرة في الصناعة الفندقية . وألفت لجنة سياحية لدراسة وتقديم الاقتراحات التي من شأنها ان تجتذب أكبر عدد ممكن من المصطافين خلال فصل الصيف الى جبل لبنان، ولتحسين طرق المواصلات الى مصايف الجبل، ولمراقبة تعريفات الفنادق والسيارات كذلك . واقتراح ادمون بلبل جائزة لمن يكتب مقالا عن « تعميم الاصطيف في لبنان وتحسينه تحسينا حيا ظاهرا » وجعل للفائز هدية هي « قلم حبر مذهب » (٣٢) فانبرت اقلام عدة « غير مذهب » تدبج المقالات الطوال عن مناخ لبنان وعدوبة مياهه وكرم اهاليه وحسن ضيافتهم القرية . وقامت مناطق الاصطيف تبني فنادق فخمة لا تيمنا « بالفينيقية والفينيقيين » بل بأسماء عربية واضحة ، خاصة المصرية منها ، حين كان المصريون يقدون بالقطار الى خيفات ثم ينتقلون بالسيارات الى لبنان صيفا . فارتفعت فنادق بأسماء الاهرام والجيزة ومصر والكرنك والنيل وغيرها في جزين وبحمدون وعاليه وصوفر وباقي مناطق الاصطيف . لقد

— L'Asie Française — No. 201 — Avril 1922. P. 178.

— Salah Essaleh « L'état actuel de l'économie syrienne » — Thèse. P. 204.

— H.C. « Rapport sur 1923-1924 ». P. 36.

— H.C. « Rapport sur 1923-1924 ». P. 36.

(٣٢) راجع : الشرق — الجزء ٢٥ لسنة ١٩٢٧ — مقالة الاب لويس شيخو « تعميم الاصطيف في لبنان »

كان لأغنياء المصريين خاصة والعرب عامة دور أساسي ومحدد في ولادة قطاع الاصطيف في لبنان وتنميته .

دور بيروت في امتصاص خيرات الاصطيف

أدركت ادارة الانتداب منذ البداية أهمية هذا القطاع فعملت على دعمه ورفعت موازنات الاشغال العامة في دولة لبنان الكبير تباعا من ١٨٠.٠٩٤.٥ فرنك عام ١٩٢٤ الى ٧٨٧.٤٦.٩٦٠ عام ١٩٢٥ ، الى ١٦.٢١٩.٩٤٠ فرنك عام ١٩٢٦ (٣٣) ، وصرف القسم الأكبر منها على شق الطرقات وتعبيدها . ودفعت بلدية بيروت الى القيام بأعمال موازنة لأعمال ادارة الانتداب فأعادت ترميم الاحياء الوسطى من المدينة التي خربتها الحرب ، وشجعت الفنادق والمطاعم بإعفاؤها من ضريبة المسقفات وأعادت تنظيم شركتي الغاز والترام القديمتين ، وأمنت الكهرباء ليلا ونهارا وسواها من الخدمات البلدية . فبيروت في هذا المجال هي العاصمة ايضا وهي التي كانت مركز حركة الاصطيف بالذات ، كما هي مركز الادارة والتجارة والثقافة والمصارف للبنان وجميع الدويلات السورية . صحيح ان جبل لبنان كان ملتقى المصطافين العرب أكثر من اي منطقة لبنانية اخرى ، غير ان أولئك المصطافين كانوا ينزلون بيروت بادية الامر ثم ينتقلون الى المنحدرات المحيطة بها . لذا فالمنطقة المجاورة لبيروت ، والتي لم تكن افضل من المناطق الاخرى من الناحية المناخية ، هي التي اجتذبت غالبية المصطافين آنذاك .

فتارة تتسع قرى زراعية صغيرة في تلك المنحدرات القريبة من بيروت كعاليه وبيت مري ، لاستقبال المصطافين ، وتارة اخرى تنشأ فنادق في بقاع لا شيء فيها يساعد على سكنى الانسان كضهور الشوير وصوفر . كما ان عددا من الاسواق المحلية التقليدية القريبة من بيروت بدأ يتحول الى مراكز للاصطيف كسوق الغرب مثلا .

فالقرب من بيروت كان شرطا أساسيا لاستثمار البيئة الطبيعية تجاريا بمعنى ان الاهتمام كان ينصرف الى اختيار ارض جبلية ذات مناخ معتدل وعلى مقربة من بيروت ، تشرف على البحر ، فيبنى فيها فندق وعدد من المنازل الريفية . ثم يأتي بائع خضار ويقال وخباز ليقموا قرب الفندق . وسرعان ما تأتي شركة أميركية فتبني محطة لبيع البنزين ، وينتقل ميكانيكي من بيروت فيفتح كاراجا هناك لتصليح السيارات ، ويلاحظ قروي ان من يسكنه يشهد المرء منظرا رائعا لصنين والبحر معا ، فيحول قسما منه الى مقهى على الطريق . وهكذا ... تبدأ المنطقة بالحياة منذ منتصف حزيران لتنتهي في اوائل تشرين الاول .

ان قطاع الاصطيف قد تحدد آنذاك في جوار بيروت فقط ، في خط بيروت - برمانا ، او بيروت - عاليه - بحدون - صوفر - سوق الغرب . وكان المصطافون العرب عماد ذلك الموسم ومصدر خيرات واسعة لسكان قرى المنطقة الجبلية المجاورة لبيروت دون سواها . كما ان الأسر البيروتية الغنية والذين كانوا على شيء من البجوحة ، بدأوا بدورهم ينتقلون الى مراكز الاصطيف ، كي يقضوا فيها فصل

— M. Desjardins — op. cit. P. 183.

الصيف من جهة ، ويتعرفوا على أثرياء العرب فيعرضوا عليهم صفقاتهم التجارية من جهة أخرى . بيد أن انتقالهم للاصطياف كان يمتاز بفارق كبير عن المصطافين العرب إذ كانوا ينتقلون الى تلك المراكز كما لكين لفيلات جميلة وليس كمستأجرين . وكانت هذه الفئة البيروتية الغنية تبالغ في احترامها لتقاليد البذخ والترف (٢٤) . أن في بناء عماراتها وفيلاتها ، أم في حياتها اليومية .

وبالمقابل ، أصبح الجبليون ، الذين يحيون بين المصطافين وتجار بيروت المالكين طيلة نصف عام تقريبا ، والذين شاهدوا ما هم عليه من غنى وبحبوحة ، يتوقون هم ايضا الى تجربة حظهم في المهاجر او بالهبوط الى بيروت يفتشون عن مهنة ، او قصدا لتعليم ابنائهم فيها ، او هربا من البقاء في الجبل البارد المقفر شتاء ، وبدأت تتزايد في نفوسهم رغبة الانفصال عن الحياة التقليدية والالتحاق بوكالات سياحية او وظائف صغيرة او أعمال حرفية وغيرها . حتى أن هجرات جماعية بدأت تنتقل من الريف الى المدينة شتاء ، خاصة الى بيروت . وبدأ الجبل يخلو شيئا فشيئا من حيويته في الشتاء ليقتصر على بعض الكهول في حين تفاديه عناصره النشيطة الى بيروت او الخارج .

الهجرة اللبنانية تدعم قطاع الاصطياف وتنمية

ان توسيع رقعة جبل لبنان المتصرفية نحو « حدوده التاريخية والطبيعية » ، لم تدفع الجبليين من اللبنانيين الى استصلاح أراضي البقاع الخصبة - كما ادعى الفرنسيون وبعض سكان المتصرفية قبل الحرب (٢٥) - كما لم تحمل الفئات اليسورة الحال منهم على امتحان الزراعة ، بل هيأ الاحتلال الفرنسي والادارة الانتدابية العسكرية لسكان المناطق التي ألحقت بمتصرفية جبل لبنان ، فرصة مساواتهم بأخوانهم في الجبل وذلك بفتح طريق المهاجرة أمامهم والتي كانت تقتصر حتى ذلك الحين على الجبليين دون سواهم . فهاجر سكان بعض القرى ، جلهم او جميعهم أحيانا ، الى اميركا ، خاصة الجنوبية منها . وتدل الاحصائيات على أن ٥٠٪ من المهاجرين اللبنانيين في تلك الفترة ، بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، قد توجهوا نحو اميركا الجنوبية و ١٥٪ منهم نحو افريقيا ، و ١٠٪ نحو مصر ، و ١٠٪ نحو اميركا الشمالية ، و ١٥٪ نحو بلدان مختلفة أخرى (٢٦) .

ان فقر البلاد كان السبب الاول والاساسي لتلك الهجرة . فتوزيع الملكية في الداخل ، خاصة الزراعية منها ، والذي جاء الانتداب الفرنسي يزيد في أزمتته ويعطي صفة شرعية للتجاوزات والنهب الاقطاعي التركي القديم ، وطريقة الاستغلال التقليدية للأرض ، وهيمنة الاقطاعيين على كامل المردود ، وأعمال السخرة التي قام بها الفرنسيون بالذات ، وضعف الصناعات والحرف وعجزها عن استيعاب اليد العاملة

— R. Thoumin — op. cit. P. 93.

(٢٤)

— Capdejelle-Hachem « La question syrienne », P. 35.

(٢٥)

— R. Thoumin — op. cit. P. 336.

(٢٦)

التي تدخل تباعا في عملية الانتاج ، يضاف الى ذلك الربا والضرائب والآفات التي تلحق بالمرزوعات ، كذلك دعوة المهاجرين لذويهم والتشبه بمن اغتنوا في المهاجر ، وغيرها ، كانت من الاسباب الرئيسية للهجرة اللبنانية (٢٧) .

وكون هؤلاء المهاجرون جاليات لبنانية في ما وراء البحار ، عمادها التجار وبعض الحرفيين دون أن تتخلى عن الروابط التي تشدها الى أسرها المتبقية في لبنان . ويقول ايلي صفا : « ان الرعيل الاول من المهاجرين اللبنانيين ، الذين كانوا في الغالب فلاحين أقوياء ، نشيطين ومقتصدين ، قد مارس تجارة متعبة جدا وبشنيطة في نفس الوقت ، اعتمدت على البيع « بالكشة » اي نقل بعض البضائع خاصة الالبسة على الظهر وبيعها في القرى . ذلك ان هذا النوع من التجارة كان في متناول أيدي المهاجرين الذين لا يمتلكون رأسمالا كبيرا ولا يفترض اي تدريب مهني للبيع . ليس هذا فحسب بل وكذلك لانها لا تربط المهاجر بالأرض . وهذا هو السبب الاهم . فهي تناسب أشخاصا مثلهم يريدون العودة الى الوطن بأسرع ما يمكن ، بل ان يجمعوا ثروة صغيرة ، ان ما يفسر وضعهم المتقلقل في الخارج هو هذا السبب بالذات » (٢٨) .

ومهما تكن انتقاداتنا على هذه الفكرة ، فمما لا شك فيه ان الهجرات الاولى كانت ترتبط على الغالب بالعودة السريعة أو بارسال كميات وافرة من الاموال الى الاهل .

لقد أحدثت حركة العودة الواسعة الى الوطن امرا كبيرا في لبنان . ذلك ان المهاجر كان يرسل أموالا طائلة الى اهله حالما يستطيع ذلك ، كما يرسل هبات للجماعة التي ينتسب اليها او الى الكنيسة وغيرها . وكان يرسل ايضا أموالا كي يشتروا له أراض في قريته . ولدى عودته لم يكن يقصر في عرض ثروته الجديدة ، أما بشراء بعض قصور الاقطاعيين السابقين ، او بناء منازل واسعة على قسط وافر من الراحة والفخامة . ورغم العادات التجارية التي يقتضيها العمل بالتجارة بالذات اي توظيف الرساميل وفائض الانتاج في مشاريع مربحة او في البنوك لقاء فوائد مصرية ، فان الكثير من المهاجرين ظلوا يوظفون أموالهم في عقارات او منازل عديمة الفائدة ماليا بل تعتبر مشاريع مجمدة . انه لأمر يصعب تفسيره - كما يقول الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك - ما لم تؤخذ بالحسبان الناحية النفسية لذلك المهاجر ، وهي التعويض عن الحرمان والبؤس والفاقة التي عاشها في قريته قبل الهجرة (٢٩) .

لقد عاد قسم من المهاجرين مؤقنا الى قراهم ، فابتنوا لأنفسهم منازل جميلة ، واشتروا عقارات واسعة ، وتزوجوا من لبنانيات ، وجددوا الفرع المغترب بدم لبناني جديد عن طريق الاستمرار في استدعاء الاخوة والاقرباء ، فراح دفع مستمر

— Voir R. Thoumin — op. cit. PP. 331-340 et Elie Sifa « L'émigration libanaise », PP. 160-178 et Briot et Dresch « La Méditerranée et le Moyen-Orient » T. II. PP. 417-419.

راجع ايضا « مجلة المقتطف » - فيليب حتي « السوريون في الولايات المتحدة » خمس مقالات

عام ١٩٦٠ - اعداد: ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ -

— E. Sifa « L'émigration libanaise », P. 206.

(٢٨)

(٢٩) يزبك - مقابلة خاصة .

من المال يرد الى لبنان الكبير معيلا قطاعا واسعا من الامل العاجزين عن العمل ، ومدخلا خيرات واسعة الى ميزانية الدولة .

وقد قدر عدد المهاجرين في تلك الفترة بحوالي ٦٥٣٨ لعام ١٩٢١ ، و ٧٧٧٩ لعام ١٩٢٢ و ٨٦١٤ لعام ١٩٢٣ ، و ٦٣٧١ لعام ١٩٢٤ ، و ٧٦٥٠ لعام ١٩٢٥ ، و ٨٤٨٧ لعام ١٩٢٦ (٤٠) . اما ارقام المفوضية العليا فتشير الى ٨٦١٤ مهاجرا لعام ١٩٢٣ مقابل ٦٣٧١ لعام ١٩٢٤ ، و ١١٠٠٠ لعام ١٩٢٥ ، و ١٥٨٥٦ لعام ١٩٢٦ (٤١) ، فلا ريب ان بعض هذه الارقام تشمل سوريا ولبنان معا .

وقد ردت المبالغ التي أرسلها المهاجرون حتى عام ١٩٢٢ ما بين ٨٠٠ ألف ومليون ليرة استرلينية اي حوالي ٥٠ مليون فرنك فرنسي . اما توظيفات المهاجرين ، المنقولة والثابتة في الخارج فقد قدرت ايراداتها بعشرين مليون فرنك فرنسي (٤٢) . ويقدر بنوا ابو صوان ايرادات المهاجرين التي يرسلونها سنويا الى لبنان بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ بثلاثين مليونا من الفرنكات ، كما ان مجموع ما أرسله المهاجرون اللبنانيون في اميركا فقط حتى ١٩٣١ قد بلغ ١٢٥ مليون فرنك (٤٣) . ويقدر ابو صوان كذلك ثروة اللبنانيين المقيمين في مصر عام ١٩٠٧ بحوالي مليار ونصف المليار من الفرنكات الفرنسية والتي كانت تمثل جزءا من عشرة اجزاء من الثروة المصرية بكاملها (٤٤) .

وبعد قيام دولة لبنان الكبير عمد بعض اغنياء اللبنانيين في مصر واميركا الى تصفية جزء او كامل ثرواتهم الثابتة هناك ووظفوا القسم الاكبر من اموالهم في قطاع الاصطيفات في لبنان ، فابتنوا الفيلات والفنادق والمطاعم والمقاهي ، بعد ان اعفت ادارة الانتداب جميع الابنية المقامة لأغراض سياحية ، والفنادق العشرة الاولى التي ارتفعت في بيروت من ضريبة « الويركو » او ضريبة الاملاك المبنية لمدة خمس سنوات (٤٥) . وهكذا بدأ جبل لبنان يفتني تباعا بالفيلات الجميلة التي يبنونها المهاجرون والاغنياء المحليون ، وانتعشت بيروت بعدد وافر من الفنادق المعدة لاستقبال السواح . لقد قدم المهاجرون اللبنانيون الى سلطة الانتداب مساعدات قيمة في هذا المجال اذ امدوها بأموال طائلة بقفل ارتباط المهاجر بأهله وبوطنه الام ، مما سهّل لادارة الانتداب ان تشارك المهاجرين اللبنانيين في اجزاء عريضة من الاموال التي جنوها في الخارج .

وكان من مصلحة الانتداب بالذات توثيق الروابط بين اللبنانيين في الوطن والمهجر . لذا عمدت الى سد عجز الميزان التجاري الناتج عن سياستها بالذات على حساب قسم من ثروات المهاجرين اللبنانيين . فمن المتصرفية الى لبنان الكبير ، استمر المهاجرون اللبنانيون عرضة لاستغلال الاجانب المسيطرين على بلادهم وتشارك الفرنسيون بذلك في نهب اللبنانيين ، لا المقيمين منهم فحسب بل في جميع المهاجر .

(٤٠) E. Safa — op. cit. P. 195. Voir aussi Beauplan « Où va la Syrie ? » P. 137.
(٤١) H.C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » P. 278.

(٤٢) ايلي وجرجي جدعون — الدليل السوري لعام ١٩٢٢ — ص ٤٥ .
(٤٣) B. Aboussouan — op. cit. P. 29.
(٤٤) B. Aboussouan — Ibidem. P. 29.
(٤٥) مجلة الحارس — السنة الثانية — عدد ١٥ — تاريخ ١ — ١٥ نيسان ١٩٢٥ — ص ٧٥٥ .

الاصطيفات قطاع وافر الارباح

لقد سعت ادارة الانتداب منذ البداية الى تنشيط قطاع الاصطيفات الوافر الارباح لما يقدمه من اموال لبنانية وعربية . وقد استطاعت جذب اغنياء العرب الى مراكز الاصطيفات اللبنانية حيث صرفوا بسخاء اموالا طائلة ، كما سهّلوا اتصال المقربين بذويهم عن طريق شبكة واسعة من البريد عمموها على معظم المناطق اللبنانية ويسروا لهؤلاء المهاجرين توظيف قسم كبير من ثرواتهم في الوطن الام ، في مصارف الفرنسيين بالذات . فقد ادرك الفرنسيون ان خيرات هذا القطاع ستعود لمصلحتهم بالدرجة الاولى طالما سيطرتهم مستمرة على سوريا ولبنان .

ومنذ ١٩٢٤ قام جيلي ، مدير المكتب التجاري في المفوضية العليا ، بحدد الاطار العام لسياسة الانتداب في هذا المجال فكتب في ٤ حزيران يقول : « ان في وسع لبنان ان يجد في توسيع الاصطيفات والسياحة موارد بالغة الاهمية . ان جبال لبنان مركز ممتاز للاصطيفات وينطوي على جميع المزايا المطلوبة من اغنياء المصريين الذين يؤمنونه بالفعل ، كذلك بالنسبة للموظفين الاتكليز واغنياء بلاد ما بين النهرين ، الذين أصبح بإمكانهم المجيء بسياراتهم من هناك في مدى ست وثلاثين ساعة لا غير ... » (٤٦) .

وفي هذا القول اعتراف واضح ان المصطافين كانوا يأتون ، في معظمهم ، من مصر والعراق ، كذلك من سوريا وفلسطين وغيرها ، كما تدل احصائيات تلك الفترة . فقد امّ لبنان في عام ١٩٢٣ حوالي ٤٥٠٠ مصطافا مقابل ٨٠٠٠ في عام ١٩٢٤ (٤٦) . وقدرت مصروفاتهم لعام ١٩٢٣ بمليون ليرة لبنانية — سورية (٤٧) اي ٢٠ مليون فرنك مقابل ٢٥٠ مليون ليرة لبنانية — سورية لعام ١٩٢٤ اي ٥٠ مليون فرنك (٤٨) ، في حين لم تتجاوز موارد لاصطيفات والسياحة والمؤسسات التعليمية في لبنان لعام ١٩٢٢ ما قيمته ١٥ مليون فرنك فرنسي (٤٩) .

وهكذا نشط هذا القطاع منذ المرحلة الاولى من الانتداب وما برح يعد بين القطاعات الاكثر تطورا في لبنان المستقل . وارتفع عدد المصطافين من ٤٥٠٠ الى ٨٠٠٠ في عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ الى ١٢ ألف عام ١٩٢٧ (٥٠) . وبقيت جنسياتهم دوما ذات صفة عربية واضحة . فحتى عام ١٩٣٨ ومن اصل ١٨٦٠٠ مصطافا (٥١) اموا لبنان ، كان بينهم ٨٢٦٤ مصرياً و ٥٢٧٤ فلسطينياً و ٣٧٩٧ عراقياً و ٢٣٠ ايرانياً و ١٠٤٥ من جنسيات مختلفة .

وجرت هذا القطاع معه تقدما هائلا في قطاع البناء ، خاصة الفنادق والفيلات

(٤٦) H.C. « Rapport sur l'année 1923 » P. 36.
(٤٧) مجلة الحارس — السنة الاولى — عدد ٢٢ الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٤ — ص ٤٠ .
(٤٨) مجلة الحارس — السنة الثانية — عدد ٦٥ — الصادر في نيسان ١٩٢٥ — ص ٧٥٠ .
(٤٩) ايلي وجرجي جدعون — الدليل السوري لعام ١٩٢٢ — ص ٤٥ .
(٥٠) Bulletin annuel de Banque de la Syrie et du Liban — Année 1939. P. 34.
(٥١) Bulletin annuel de Banque de la Syrie et du Liban — Ibid. P. 34.

التي تطورت بشكل هائل بعد ان أصبح هذا القطاع يقل سنويا ، باعتراف الفرنسيين أنفسهم ، أكثر من مئة مليون فرنك فرنسي (٥٢) سنويا ، في حين ان قطاع الحرير الذي كان أنشط القطاعات إنتاجا حتى تلك الفترة لم يرتفع مردوده الى ٥ مليون فرنك فرنسي عام ١٩٢٧ . كما جر هذا القطاع معه ارتفاعا كبيرا في أسعار الأراضي في مناطق الاصطياف بالذات . وكانت نسبة ذلك الارتفاع كبيرة جدا في بعض المناطق . ويؤخذ من التقديرات المحلية ان سعر الفدان من الأرض كان في صوفر قبل حرب ١٩١٤ مباشرة ، حوالي ألف قرش (٥٢) ، فأصبح يباع عام ١٩٢٦ بألف ليرة لبنانية - سورية . وبنات بلدة صوفر ، التي لم يكن فيها سوى خان واحد قبل الحرب ، تضم عدة فنادق كبيرة وبضع فيلات مخصصة لاصطياف الاغنياء العرب وجبار التجار البيرونيين .

ان تنشيط الاصطياف ساهم فعليا في استدراج أموال وفيرة لصالح الانتداب من جهة ، ولصالح الجلبين لمجاورين لبيروت على محور الاصطياف من جهة أخرى وأدى الى ارتفاع أسعار الأراضي فيها بشكل عمودي في معظم المناطق الاصطيفية كما دفع ادارة الانتداب الى توسيع شبكة الطرقات والكهرباء والمياه في تلك المناطق قبل سواها بزمان طويل .

بعض الاستنتاجات

ان التحيزات الاصطيفية لم تعم كل لبنان بل تركزت فقط في المناطق المحيطة ببيروت والقريّة منها وكانت تدور في محاور الطرقات الممتدة بين بيروت - عاليه - بحدود - صوفر ، وبيروت - بيت مري - برمانا - صبور الشوير او بكفيا دون أن تتعداهما في تلك الفترة . حتى ان الازدهار الأكثر بروزا كان باتجاه الطريق الاولى التي كانت طريق البقاع ودمشق في الوقت نفسه . وكان من الطبيعي انتشار وسائل الترفيه والتسليه والانارة ومياه الشفة وغيرها في تلك المناطق الاصطيفية وحدها ، وبقيت حكرًا عليها زمنا طويلا أيام الانتداب وبعده .

والانتعاش الكبير في هذا القطاع منذ قسما كبيرا من سكان الجبل اللبناني ، في المناطق القريبة من بيروت وحدها ، بأموال وفيرة أضحت منذ ذلك التاريخ دخلا ثابتا لهم ، مما دفع العديد من القرى المجاورة لمحو الاصطياف الى شق طرقات على نفقاتها الخاصة بقصد الاتصال بالخط الرئيسي للاصطياف واجتذاب عدد من المصطافين نحو قراهم . وبالرغم من فشلهم في اجتذاب المصطافين الاغنياء العرب فقد مهدوا الطريق أمام مصطافين محليين ، من بيروت بشكل خاص . ولعبت تبرعات المهاجرين الاغنياء ، أبناء تلك القرى ، دورا بارزا في مد الطرقات وانارة قراهم بالكهرباء ، وجر المياه اليها ، وهذا ما يفسر كيف كانت تلك الطرقات تشق

— H.C. « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » . P. 281.

(٥٢) . إبراهيم خيرالله « صرصر قبل خط الحديد وبعده » - مجلة الحارس - العدد التاسع - حزيران

١٩٢٦ - ص ٧٨١ .

دون تخطيط هندسي بل تأخذ بالاعتبار ما كان يحمله أولئك القرويون من نظرة خاصة لوجهائهم ومهاجريهم المتبرعين . فالطريق تنعطف معظم الاحيان لتمر أمام دائرة هذا الوجهه وذلك المقرب السخي وتتعرج دون اي تخطيط لترتبط بفيلاد أقامها حديثا مهاجر تبرع بمبلغ كبير للقرية ... الخ . لقد عرف أولئك الجلبون كيف يجعلوا من قراهم مناطق اصطيفية ، وان بدرجة ثانية ، بعد ان أهملتهم ادارة الانتداب الفرنسي من حساباتها ، وهذه الظاهرة ستستمر طيلة عهد الانتداب وعهد الاستقلال ، بحيث ألقيت أعباء تشجيع الاصطياف محليا على كاهل العاملين فيه دون مساعدة فعلية من جانب الدولة .

فبيروت ، التي انتعشت برساميل اجنبية ضخمة ومؤسسات مالية متزايدة النمو ، والتي ما انفك مرفأها يفرغ ويصدر ما تجلبه اليه السفن التجارية الاجنبية ، انعشت بجوارها قطاعا اصطيافيا بالغ الاهمية ما زال يتنامى بسرعة حتى اليوم . هذا لقطاع اعتمد ، منذ البداية ، على الاغنياء العرب . مما جعل هذا القطاع المزدهر يقرض على الاقتصاد اللبناني ارتباطا وثيقا بالعالم العربي في الداخل سيتعزز بأغنياء البترول العرب الذين حلوا محل المصريين والفلسطينيين والسوريين بعد الاستقلال . ان هذا القطاع الاصطيافي الذي دعمته أموال المهاجرين اللبنانيين بشكل خاص ، والايدى العاملة اللبنانية ، بشكل عام ، ساهم في نشوء قطاع جديد مرتبط به هو قطاع البناء . هذا القطاع الذي بدأ بالفنادق في بيروت والفيلات في مناطق الاصطياف ، والمعدة اصلا لراحة السواح والمصطافين ، سيتوسع فيما بعد ليصبح أوسع القطاعات ازدهارا في بيروت التي أصبحت مركز الادارة والتعليم والتطبيب والتجارة والمصارف والمواصلات وغيرها . وسيتعزز كذلك بحركة الهجرة الريفية الى بيروت فيرفع أسعار الأراضي فيها ويزيد من حركة البناء المعد للاجار في بيروت ومناطق الاصطياف المجاورة لها .

ان قطاع الاصطياف في لبنان ، الذي استند منذ البداية على الرأسماليين العرب دون سواهم ، لم يتوسع ويزدهر بفضل دعم الانتداب الفرنسي له بل قام على اكتاف اللبنانيين في الوطن والمهجر في حين نال الفرنسيون القسم الأكبر من ارباح هذا القطاع الذي ساهم ، الى جانب أموال المهاجرين اللبنانيين المرسلة الى ذويهم ، بدور أساسي في تعديل كفة الميزان التجاري اللبناني الشديد الاختلال لصالح الشركات الفرنسية والتجار الوسطاء في بيروت .

فأموال المهاجرين اللبنانيين وخيرات الاصطياف الوفيرة لم تعط ثمارها الحقيقية الا بعد الاستقلال حيث تعززت مكانة هذا القطاع كثيرا بفضل دعم السلطة الاستقلالية له . الا ان هذا الدعم لم يتغير من الانتداب الى الاستقلال بل كان هدفه استدراج أموال الاثرياء العرب لسد جزء من العجز في الميزان التجاري اللبناني ، ذلك العجز الناتج اصلا عن تدعيم أسس الاقتصاد الوحيد الجانب القائم على التجارة والخدمات على حساب القطاعات الاخرى المنتجة . ان السياسة المشوهة التي اعتمدها الفرنسيون لدعم قطاع الاصطياف استمرت طيلة أيام الانتداب وما بعد الاستقلال .

□ الفصل الرابع □
التعليم الخاص يُهيمن
على التعليم الرسمي □

التعليم في سوريا وجبل لبنان حتى الحرب العالمية الاولى

١ - التعليم العالي :

لا شك ان مدارس جبل لبنان في القرن التاسع عشر كادت ان تكون جميعها في ايدي الرهبان والمبشرين وبعض المثقفين المحليين الذين تربوا على ايديهم .
والرهبان والمبشرون ، من فرنسيين واميركيين ، بشكل خاص ، قد زاولوا مهنة الطب هناك لان الجبل كان آنذاك ، كسائر انحاء المشرق ، بحاجة ماسة الى اطباء مختصين . وقد اهتم المرسلون الاجانب اهتماما بالغا بالطب كوسيلة للتأثير في الناس وجذبهم نحوهم . لذا يصح القول « ان المبشرين الاميركيين كانوا اول من ادخل النشاط الطبي في العمل التربوي الاجنبي الى سوريا ولبنان » (١) . في حين ركزت الجزويت خاصة ، والمبشرون الفرنسيون عامة على ارسال منح للتخصص العالي في فرنسا . وكان هدفهم من ذلك « صنع قادة انسانيين مستنيرين » (٢) . لذا كانت المنح مخصصة ، بصفة رئيسية ، لابناء المشايخ والامراء الموارنة . « وكان من اوائل المستفيدين منها اولاد المشايخ من آل شهاب والخازن وحبيش والدحداح وخوري وتابت ... » (٣) .

وجامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين ، التي نقلت الى بيروت منذ ١٨٨١ ، لم تكن تضم في ذلك الحين سوى كلتي دينيتين هما كلية اللاهوت وكلية الفلسفة . وكان عمل هاتين الكليتين ينصب على تخريج دفعات واسعة من رجال الدين المسيحيين على مختلف الدرجات والرتب . ويكفي ان نذكر هنا ان البطريرك الماروني الياس يزبك ، وبطريرك الكلدان عمانوئيل توماس ، وبطريرك الاقباط في القاهرة سيريل مكير

(١) — Benoit Aboussouan « Le problème politique syrien ». Thèse. P. 40.
(٢) — D. Chevallier « La Société du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe ». P. 259.
(٣) — D. Chevallier — Ibidem — P. 265.

وغيرهم ، كانوا من تلامذة المعهد الديني لشرقي سان فرانسوا كزافييه التابع لكلية اللاهوت بجامعة القديس يوسف بيروت (٤) .

كانت الغلبة المطلقة لليسوعيين في هذا المجال بين رجال الدين المسيحيين من جميع الطوائف الخاضعة للبابوية في روما . إلا أن اقتصار جامعة القديس يوسف على مثل تلك الفروع اللاهوتية كان ضارا بأفاق تطورها أمام ضغط الكلية السورية في بيروت (الجامعة الأميركية لاحقا) التي كانت تتعزز فيها تباعا الكليات العلمية والأدبية . لذا سارعت جامعة القديس يوسف منذ ١٨٨٣ إلى إنشاء كليتين جديدتين للطب والصيدلة . وساعد فتح هاتين الكليتين على تخريج دفعات واسعة من الأطباء والصيدالين بلغ تعدادهم حتى بداية الحرب العالمية الأولى ٥٧٨ متخرجا . والملاحظ أن هؤلاء المتخرجين الأول حتى عام ١٨٩٨ لم يكن يسمح لهم بمزاولة الطب والصيدلة إلا في المستعمرات الفرنسية (٥) . ثم ألغى هذا القرار بعد ذلك التاريخ ولم يعد هناك أي فرق بين خريجي الجامعات الفرنسية وخريجي كلية الطب الفرنسية في جامعة القديس يوسف بيروت .

وقبل الحرب مباشرة ، وفي عام ١٩١٢ بالضبط ، تألفت في مبدئية ليون لجنة ضمت بعض أساتذة الجامعة فيها وأعضاء في غرفة تجارتها وأنشأت جمعية هناك سميت « بالجمعية الليونية لنشر التعليم العالي والفني في الخارج » . وأخذت تلك الجمعية على عاتقها مهمة تأسيس كلية الحقوق في بيروت فتحت منذ أواسط ١٩١٣ وكلية للهندسة المدنية تأخر فتحها حتى عام ١٩٢١ ، في مدينة بيروت أيضا ، كجزء من جامعة القديس يوسف .

بالمقابل ، كانت الكلية البروتستانتية السورية تضم عشية الحرب العالمية الأولى ٢٦ فرعا ثقافيا (٦) باعتراف الجزويت أنفسهم منها كلية للطب وأخرى للصيدلة ومدرسة أعدادية للمعلمين ومدرسة للتجارة وكلية لطب الاسنان ومدرسة زراعية ومدارس ثانوية وتحضيرية تابعة لها .

وكانت الكلية السورية تتلقى اعتماداتها من الحكومة الأميركية وبعض الأفراد هناك ، كذلك من هبات قدمها لها بعض المقربين اللبنانيين . وكانت الولايات المتحدة الأميركية تشرف ، منذ البداية ، على مناهجها وجهازها التعليمي ، ونظام الدروس فيها .

أما جامعة القديس يوسف بيروت فكانت محرومة ، حتى الحرب العالمية الأولى ، من أية مساعدة رسمية من قبل الحكومة الفرنسية ، كما أن هذه الجامعة لم تتوسع بكليات جديدة إلا بمعونة الجمعية الليونية التي أغنت الجامعة بكليتي الحقوق والهندسة (٧) .

— L'Asie Française — No. 154 — Janvier 1914 — P. 21.
Saint-François Xavier

— U.S.J. « L'Assemblée Générale au Liban » — UNESCO 1948 — P. 24.

— U.S.J. « Beyrouth et le Grand-Liban » — P. 1.

— Livre d'Or de Saint Joseph : Les Jésuites en Syrie 1831-1931 — voir article de Louis Jalabert sur la Faculté Française de Médecine - F.F.M. — P. 16.

على الصعيد المحلي ، لم تكن جامعة دمشق العربية تضم في تلك الفترة سوى كلية للطب وأخرى للحقوق (٨) . وكانت الدروس فيهما تعطى باللغتين التركية والعربية على أيدي أساتذة نالوا شهاداتهم من القسطنطينية . وكان عدد طلابها ضئيلا . وعندما دخلت تركيا الحرب رسميا إلى جانب ألمانيا ، اضطرت البعثات الفرنسية والانكليزية إلى مغادرة البلاد ، فاحتلت أماكنها واستقرت كلية الطب العثماني في دمشق مكان كلية الطب الفرنسية في بيروت طوال فترة الحرب .

كان التعليم العالي قبل الحرب العالمية الأولى محدودا جدا ويتركز بشكل رئيسي في سوريا ولبنان على مدينتي دمشق وبيروت . وكانت الجامعتان الرائدتان في هذا المجال : جامعة القديس يوسف لليسوعيين والكلية السورية البروتستانتية للأميركيين ، وكلتاهما أجنبيتان ولا تخضعان لأي إشراف مباشر من قبل السلطات المحلية في حين كانت جامعة دمشق تمولها الدولة العثمانية وتشرف على إدارتها ونظام التدريس فيها . وكان للاستقلالية الواسعة التي نالتها كل من الجامعتين الأجنبيتين تأثير واضح في تطوير مناهجهما ونظام الدراسة فيهما على أحدث ما توصلت إليه أوروبا الليبرالية في مطلع القرن العشرين والولايات المتحدة الأميركية . وكانت نسبة الطلاب فيهما تتجاوز ، مجتمعتين أو منفردتين ، عدة أضعاف تعداد طلاب الجامعة العربية في دمشق ، التي وقعت أسيرة الجمود والانحطاط الفكري العام اللذين سيطرا على جميع مرافق الدولة العثمانية آنذاك . وكان أثر التقدم العلمي والتكنولوجي لأوروبا وأخيرا في هذه الفترة ، والذي دفع بوضوح تطور اليسوعية والأميركية في مناهجهما وجهازهما التعليمي ، يكسب يتجلى تماما في جامعة دمشق .

ب - التعليم الثانوي والابتدائي :

لم تكن غالبية التعليم في جبل لبنان سوى مدارس خاصة فتحها ونظمها وإدارها بحرية رؤساء دينيون من أبناء البلاد أو أفراد مديون أو بعثات أجنبية . فالتعليم الابتدائي والثانوي في الجبل كان بكلية تقريبا تعليما خاصا عشية الحرب العالمية الأولى وتقع أعباؤه على عاتق الأهالي دون أية مساعدة فعلية من قبل الدولة (٩) . فتحمل سكان الجبل مسؤولية إعالة تلك المؤسسات التعليمية وأمدوها بالأراضي والأموال والخدمات وقسم من الجهاز التعليمي والإداري . بمعنى آخر ، أن تلك المؤسسات ، بالرغم من دورها الثقافي الذي قامت به ، كانت عبئا ثقيلا على كاهل اللبنانيين قبل الحرب وبعدها حتى اليوم .

وكان الوجود الفرنسي مهيمنا داخل تلك المؤسسات التعليمية الخاصة في الجبل . وكان الأبناء اليسوعيون يحتلون المركز الممتاز في هذا المجال . فقد امتلك التعليم باللغة الفرنسية في سوريا وفلسطين وجبل لبنان حتى أوائل شباط ١٩١٤

— L. C. Catroux « Deux missions au Moyen-Orient » — P. 59.

(٩) محمد رفيع — ولاية بيروت — ص ٢٩٣ .

حوالي ٥٠٠ مدرسة (١٠) ضمت أكثر من ٥٠ ألف تلميذ من الجنسين مقابل ١٠٠ مدرسة انكليزية ضمت ٧ آلاف تلميذ وتلميذة تضاف إليها ٨٨ مدرسة أميركية ضمت ٥ آلاف تلميذ وتلميذة يضاف إليها الكلية السورية التي ضمت بمقردها ٨٧٤ طالبا وطالبة في تلك الفترة . والوجود الألماني اقتصر على أربع مدارس ضمت ١٩٣٥ تلميذا وتلميذة ، بينما كان للروس ١٠٥ مدارس ضمت ١١٥٠٠ تلميذ من الجنسين .

وقدر عدد تلاميذ المدارس الأوروبية والأميركية العاملة في سوريا ولبنان قبيل الحرب العالمية الأولى بحوالي ٢٥ ألفا مقابل ٤٠ ألفا للمدارس الفرنسية يضاف إليها ١٠ آلاف تلميذ وتلميذة يذهبون إلى المدارس المحلية التي يتم التعليم فيها باللغة الفرنسية بحيث اتفقت معظم الإحصائيات آنذاك على تقدير تلامذة المدارس التي تدرس اللغة الفرنسية من أجنبية ومحلية بحوالي ٥٠ ألف تلميذ وتلميذة مقابل ٢٥ ألفا للمدارس الأجنبية الأخرى مضافا إليها ١٢ ألفا من التلاميذ الذين كانوا يؤمون المدارس الرسمية المحلية خارج جبل لبنان . فقدّر بذلك عدد التلاميذ في سوريا ولبنان بحوالي ٩٠ ألفا (١١) (٨٧ ألفا بالضبط) . ويشير جونج في هذا المجال أن « من بين هؤلاء التلاميذ الذين يدرسون باللغة الفرنسية في سوريا ولبنان ، والذين بلغ تعدادهم ٥٠ ألفا قبيل الحرب العالمية الأولى ، كان ٢٥ ألفا منهم في مدارس جبل لبنان وحدها » (١٢) . فكانت هذه المؤسسات التعليمية الفرنسية الرائدة الحقيقية للنفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان . فجميع المعلمين في هذين البلدين تقريبا ، كانوا يتكلمون اللغة الفرنسية (١٣) . لقد عرفا الفرنسيون كيف يمهّدون لانتدابهم اللاحق بسيطرة مالية واسعة وهيمنة على جميع القطاعات الاقتصادية في هذين البلدين ، بعد أن أضافوا إلى سيطرتهم تلك عنصرا هاما هو اللغة الفرنسية في بلد يقول عنه ميشال شيحا « أن المدرسة والتعليم بالنسبة إلى لبنان ، هما أكثر أهمية منهما في أي بلد آخر . فهما ركيزة أساسية ، وهما ضمانة للمستقبل » (١٤) . أن تركيز الفرنسيين على الثقافة الفرنسية في لبنان وتغريب الطالب اللبناني عن محيطه الطبيعي الذي يعيش فيه كطالب عربي له حضارته وتراثه كانت لهما أسوأ الآثار على مستقبل طلاب لبنان الذين تلقوا علومهم في تلك المدارس . وقد أبرز الياس أبو شبكة هذا الأمر بقوله : « أول ما فكرت فيه الرسائل (الرسائلات) م. ص. الفرنسية عندما امت هذه البلاد هو بثها الفضائل التي تحلى بها ملوكها وأدباؤها ورجالها العسكريون والبحريون ، وقد كان لهذه الدعوة أثرها العميق في المسيحيين على الخصوص ، فراحت الناشئة تعرف من معين تلك الفضائل غداء لتفكيرها ، وإذا هي تعرف عن كلوفيس وشرلمان وفرنسيس الأول ولويس الرابع عشر وجان دارك ورابله وديكارت

- (١٠) — E. Jung « La Révolte arabe » — T.I. — P. 93.
Voir aussi John Morgan Jones « La fin du Mandat français en Syrie et au Liban » — Thèse. P. 20, et Correspondance d'Orient — No. 130 — Février 1914 — P. 177.
(١١) — Cressaty — Bulletin trimestriel de C.I.F.L. — No. 1 de 1927, article « La Syrie Française » — P. 58.
(١٢) — E. Jung — Op. Cit. — P. 93.
(١٣) — B. Aboussouan — Op. Cit. — P. 41 — et J. Achkar — Op. Cit. — P. 19.
(١٤) — Michel Chiha — politique intérieure — P. 108.

وكورنيل ورأسين ولافونتين وبوالو أكثر بكثير مما تعرف عن أبطالها وأدبائها وملوكها . . . » (١٥) .

أما التعليم الرسمي قبل الحرب العالمية الأولى فكان مقتصرًا على المدارس الابتدائية دون غيرها ، وهي مدارس قليلة العدد ومبعثرة في مختلف المناطق السورية واللبنانية ولا يؤمها إلا أولاد الفقراء خاصة ، والذين كانوا في غالبيتهم من المسلمين . وقد فسر الإمام رشيد رضا تلك الظاهرة بالقول : « . . . فالمسلمون في سوريا ولبنان تأخروا عن أخوانهم النصارى واليهود والدروز في طلب العلم لأن القدماء من أكابرهم وأغنيائهم كانوا يعتقدون أن طلب العلم إنما يراود لطلب الرزق ، والوجيه الكبير المتوافر رزقه كان يعبد من العار على أبنائه أن يطلبوا العلم للارتزاق » من شق القصة . وضاعف في ذلك أن المدارس كانت كلها نصرانية ، إما للأجانب وإما للمسيحيين الذين تأدبوا بأداب الأوروبيين فحذوا حذوهم وساروا في العلم سيرتهم . وقد لقيت هذه الفكرة تشجيعا من الحكومة (التركية) بل ربما غرست الحكومة نفسها هذه الفكرة في الصدور حتى يظل المسلمون على حالهم فلا يطلبون أصيلا ولا يطالبون بحق . وليس للمسيحيين وسواهم ممن يتعلمون تأثير أو نفوذ لأنهم الأقلية ، ولهذا السبب لم يتمتع أحد من أبناء سوريا بذلك الانعام الذي أنعم به إبراهيم بن محمد علي باشا على لبنان وسوريا بأن يعلم طائفة منهم في مدارس مصر العالية وانحصرت تلك النعمة حتى عهد الاحتلال (الانتداب الفرنسي) بأبناء المسيحيين السوريين وحدهم ، وظلت الحال على هذا النوال ولا مدارس ولا مكاتب للمسلمين في سوريا ، حتى أن دخل أوقاف المدارس والمكاتب (الكتاتيب) فيها كان يجني للاستانة (١٦) .

والمدرسة الرسمية التي كان يتلقى فيها هؤلاء الفقراء العلم « كانت تتألف من غرفة واحدة تضم أكثر من ٥٠ ولدا يتولى تعليمهم فيها شيخ يجلس وبجانبه عصا طويلة يملأ منظرها قلوب الأطفال الأبرياء رعبا ويفعم صيدورهم جزنا وغما . وكم كان هؤلاء الأطفال يتعلمون الذل والخنوع ، هذا إذا لم يصابوا بالبله وركود الذهن » (١٧) .

لقد كان التعليم الرسمي مميزا بوضوح عن التعليم الخاص ولا نحتاج للكثير من العناء في سبيل الوصول إلى إبراز هذه الحقيقة التاريخية . فالمدرستان تختلفان كليًا من حيث جهازهما التعليمي وأماكن تواجد الطلاب فيهما ، وتجهيزاتهما المدرسية ، ولغة التدريس فيهما ، ومستوى المعلمين الثقافي ، وطرائق التدريس والمناهج . وبكلمة مختصرة لم تكن سيوى التسمية فقط تجمع بين تلك المدارس الرسمية والخاصة . الأولى شديدة الانحطاط في مستوى تدريسها وبرامجها واساتذتها وأمكنتها ونسبة المساعدات الحكومية لها ، والثانية حسنة التنظيم عموما وبعضها يضاهي مستويات راقية ومتطورة ، وتخصص في جبل لبنان وبيروت دون أن تتبعدهما

- (١٥) الياس أبو شبكه « روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب » ص ٥٧ .
(١٦) رشيد رضا — المنار ، المجلد ١٩ — الجزء الثالث — مقالة « المشائق في سوريا » — ص ١٨٣ .
١٨٤ .
(١٧) مقبولة شلق — « المرأة العربية قبل الحرب العاتية وبعدها » — مجلة الطريق البيروتية — المجلد الأول — الجزء الرابع — ص ١٠ — ١١ .

الى باقي المناطق اللبنانية خاصة تلك التي الحقت بالجبل منذ ١٩٢٠ والتي كانت لا تزال تشكل جزءا من الدولة العربية في دمشق فكانت حتى مدارسها الرسمية نادرة كل الندرة وتتبع فيها طريقة في التعليم لم تتغير منذ عهد بعيد . وكانت الدروس فيها تعطى باللغتين العربية والتركية . واقتصرت تلك المدارس على عدد ضئيل من المؤسسات الملحقة بالاقواق الاسلامية التي كانت ترسل فئة صغيرة جدا من خريجها الى الجامع الازهر في مصر كما كان الشيعة يقومون بارسال بعض ابنائهم الى النجف في العراق لاستكمال علوم الدين وتخريج الشيوخ . اما المدارس الفرنسية والطائفية المسيحية التي تتبعها فكانت تقوم بتدريس اللغة الفرنسية وتعتني بها أكثر من تدريسها باللغة العربية بالذات . ولم يشك عن هذه القاعدة سوى عدد قليل جدا من مدارس اشرق عليها بعض المحليين الضليعين باللغة العربية فاتقنوا تدريسها ونخص بالذكر من بين تلك المدارس مدرسة عين ورة ومدرسة الثلاثة اقمار ثم فيما بعد مدرسة الحكمة بشكل خاص . وهكذا أصبحت اللغة العربية ضيقة الافاق في مدارس لبنان في حين كانت واسعة الانتشار في سوريا التي غدت « مركز الدراسات العربية في الشرق كله » (١٨) .

لقد لعبت المدارس الخاصة الأجنبية منها والمحلية دورا كبيرا ولا شك في توسيع رقعة التعليم في جبل لبنان . الا ان تلك المدارس ، والتي اتخذت اللغة الفرنسية لغتها الام بشكل خاص ، هيأت بين الشبيبة اللبنانية أرضا خصبة استغلتها السلطة المنتدبة على أكمل وجه ، لترسخ انتدابها في سوريا ولبنان . لذا كان تقدير دور تلك المدارس يتسم بالعاطفة والتسرع . فمن ممجد ومبخر لدور تلك المدارس في « النهضة اللبنانية » وافتتاح لبنان على الغرب وثقل حضارته الينا بحيث أضحي لبنان الوسيط الطبيعي بين الشرق والغرب في هذا المجال » ، الى القول ان « بواسطة المدارس ، توصلت أوروبا ، خاصة فرنسا الى تحويل قسم كبير من المسيحيين واليهود عن العروبة ، بعد ان أوجدت لها بين هؤلاء أتباعا مخلصين ذوي فعاليات كبيرة » (١٩) . حتى ان تلك المدارس غدت عقبة كأداء في طريق توحيد الآراء والعمل السياسي المشترك في سوريا بعد الحرب (٢٠) . وذهب بعض الكتاب السوريين أبعد من ذلك في تعميم دور تلك المدارس فآلقوا عليها تبعة إثارة الطائفية وتثبيت نفوذها في لبنان بشكل خاص لأن هذه المدارس « لا تبذر بذور التعصب الديني فحسب في نفوس الناشئة ، بل كذلك تنتزع منهم فكرة التآزر والإخاء القومي . حتى ان تلك الشبيبة التي تربت فيها ففقدت كل مظاهر الوطنية والولاء القومي . يقولون بأن هذه الشبيبة كانت تتجه الى فرنسا فقط - هذا - مخف وهراء ! ان تلك الشبيبة اللبنانية والسورية التي تربت في تلك المدارس ، لا تتفرد في الولاء لاية دولة ، بل هي مستعدة لخدمة اول دولة أجنبية تعرض عليها العمل لديها » (٢١) (كذا) .

— Haut-Commissariat « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 96. (١٨)

— E. Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous mandat » — P. 25. (١٩)

— E. Rabbath — Ibidem — P. 25. (٢٠)

— Omar Djabry « Le rôle des écoles françaises en Syrie et au Liban ». P. 16. (٢١)

ان تلك المدارس لعبت ولا شك دورا هاما في التمهيد للانتداب الفرنسي على لبنان بشكل خاص ، غير ان تحميل تلك المدارس تبعة « الطائفية وإثارة التعصب القومي والتفرقة العنصرية وضرب الولاء الوطني ومسيخ شخصية الشيايب اللبناني » لا يمكن ان يتوافق مع حجم الدور الذي بإمكان المدرسة ان تقوم به أصلا ، ونحن ننوه الى ان عددا كبيرا من قيادة حركة التحرر الوطني في سوريا ولبنان ، تربوا بالذات في تلك المدارس الأجنبية . صحيح ان هيمنة الفرنسيين على التعليم في سوريا ولبنان قبل الحرب ، كانت من الأسباب التي ساعدت فرنسا على تبرير انتدابها عليهما ، غير ان التفتيش عن المفتاح الاساسي لفهم كيفية فرض ذلك الانتداب يلقي وجوده حتما في تغفل الرساميل الفرنسية فيهما قبل الحرب العالمية الاولى . وقد عبر دوريو عن ذلك بضدق حين قال : « أنتم هناك لتتمير رؤوس الاموال الفرنسية التي صدرت اليهما قبل الحرب . أنتم هناك للسيطرة التامة على سوريا ولبنان واستغلالهما استقلالاً كاملاً بالطرق الاستعمارية المعروفة » (٢٢) .

« معاداة الاكليروس ليست سلعة قابلة للتصدير » الى لبنان

تلك الكلمة قالها غامبيتا ، رئيس وزراء فرنسا سابقا ومن أشد خصوم الاكليروس . غير ان غامبيتا او أي من خصوم الاكليروس في فرنسا لم يتوانوا فيما بعد عن دعم اليسوعيين في المناطق التي سيطروا عليها خاصة في سوريا ولبنان لأن النفوذ المعنوي لفرنسا في الشرق انما قوام على اكتاف هؤلاء المرسلين الذين نشطوا في نشر العلم في الجبل منذ زمن بعيد على أسس مطابقة للتي كانت تدرس في فرنسا بالذات . لذا فمعاداة الاكليروس في سوريا ولبنان لن تكون لصالح الفرنسيين على الإطلاق . ومهما تكن السياسة التي انتهجها الفرنسيون ضد اليسوعيين ورجال الدين عامة بعد الثورة الفرنسية الكبرى ، كان وجودهم هنا ، قبيل الحرب وبعدها ، ضرورة مطلقة وحيوية بالنسبة لمخططات السياسة الفرنسية في الشرق الاوسط ، وبالتالي كان هذا الوجود لليسوعيين مكسبا كبيرا على فرنسا ان تقوم بدعمه . فلم يعتبر الفرنسيون جامعة القديس يوسف في بيروت جامعة للآباء اليسوعيين فحسب ، بل جامعة فرنسية تعمل من أجل فرنسا . وقد عبّر عن هذا الواقع الاب شانتور ، رئيس جامعة القديس يوسف آنذاك ، في افتتاح العام الدراسي في الكليات الفرنسية يوم ٣ تشرين الثاني ١٩٢١ ، وبحضور الجنرال غورو شخصيا . قال الاب شانتور في خطابه ذاك : « ان هذه الجامعة هي جامعة فرنسية ، في نشأتها وتطورها ، في لغة تدريسها وفي نظام تعليمها العالي » (٢٣) .

لقد تلاقت مصلحة الانتداب الفرنسي ومصالح الآباء اليسوعيين خلال هذه الفترة بالذات . فقامت الحكومة الفرنسية بتقديم العون الواسع لجامعة القديس يوسف منذ اليوم الاول لتمركز الجنرال غورو في منصب المفوضية العليا . فالفرنسيون

— Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 25. (٢٢)

— U.S.J. « L'université Saint-Joseph en 1922 » — P. 34. (٢٣)

بأمر الحاجة إلى كادرات من الموظفين المحليين الذين سيقومون بأعباء الوظائف الدنيا، كما كانوا يساندون تعميم نشر اللغة الفرنسية في البلدين الواقعين تحت انتدابهما، وبشكل خاص في سوريا. أما الآباء اليسوعيون، فكان من مصلحتهم بالذات، دعم الحكومة الفرنسية لجامعتهم كي يستطيعوا الوقوف بوجه تطور الجامعة الأميركية في بيروت التي تساندها الولايات المتحدة الأميركية بشتى أشكال الدعم وبوجه جامعة دمشق العربية التي كان الحدوديون السوريون، خلال حكمهم القصير لدمشق، قد خططوا لها مستقبلا زاهرا.

إلا إن تلك المصلحة المشتركة لم تنف وجود اختلاف واضح في خطة العمل بينهما. ففي حين كانت فرنسا ترغب في الوقوف إلى جانب اليسوعيين وتحاول دعمهم، كانت أساليب اليسوعيين تخيف الحكومة الفرنسية التي تحرص على إقامة علاقة طيبة مع السكان، خاصة السوريين منهم. وكانت إدارة الانتداب تخشى اصطدام اليسوعيين بالتيار العربي في الداخل، وجل دعائه من المسلمين المعارضين لفرنسا، بحيث أن ذلك الاصطدام سيؤدي إلى ازدياد نفوذ الجامعة الأميركية في أوساط هؤلاء بالذات ومن ورائها نفوذ الولايات المتحدة الأميركية. وكانت أولى الاصطدامات حول اغلاق جامعة دمشق.

فكلية الطب العثمانية بدمشق حلت محل كلية الطب الفرنسية في بيروت طيلة أيام الحرب. وبما أن الحكومة العربية بدمشق قد حاولت خلال مدة حكمها القصير، تطبيق نظام للتعليم الابتدائي الإلزامي في منطقة دمشق كخطوة أولى نحو تعميم هذا النظام إلى كافة المناطق السورية، بما فيها المناطق اللبنانية التي ألحقت بالجبل (٢٤)، عمد اليسوعيون إلى تقديم اقتراح لإدارة الانتداب الفرنسي، إثر معركة ميسلون مباشرة، وتضمن الاقتراح دعوة ضريحة إلى اغلاق كلية الطب العثمانية بدمشق «بحجة أن التلاميذ هناك سيتلقون في ثورة العروبة - أي كلية الطب بدمشق - مشاعر الغدا للفرنسيين». وطلب اليسوعيون من الجنرال غورو، كإجراء سريع لا يحتمل التأجيل، ويتعلق مباشرة بالسيادة الفرنسية، أن يعلن اغلاق جامعة دمشق نهائيا. لو بالأحرى كليتي الطب والحقوق...» وقد تلقت توجيهها رسميا - يقول الليونتان كولونيل كاترو - باغلاق هاتين الكليتين فعلا... (٢٥). وينتهي كاترو إلى القول أنه استطاع اقناع الجنرال غورو بالحفاظ على بقاء جامعة دمشق «من أجل مصلحة الانتداب الفرنسي بالذات» (٢٦) كي لا يثير مشاعر السكان ضد فرنسا.

ولما أصر اليسوعيون، برئاسة الأب شانتور بالذات، على اغلاق جامعة دمشق، سارع الجنرال غورو إلى شرح وجهة نظره «بأن مصالح الرهبانية اليسوعية في المشرق عزيزة جدا على قلبه، بيد أنه لا يستطيع تجاهل مصلحة فرنسا العليا في

المنطقة» (٢٧). ولما رئيس شانتور من إمكانية حمل غورو على ما يرغب، قام بإتهام كاترو بتفشييل مشروعه ذلك ويقول كاترو: «أن رئيس جامعة القديس يوسف أصدر حرما على الجنرال غورو وعلي أنا» (٢٨).

وهكذا اصطدمت رغبة اليسوعيين بالتفرد في التعليم العالي في سوريا ولبنان بمصالح فرنسا العليا فيهما. وكانت نيته تتجه إلى خنق الجامعة العربية في دمشق كخطوة أولى لتسني لهم بعدها خنق الجامعة الأميركية في بيروت بالرغم من تعهد الفرنسيين بحرية المؤسسات التبشيرية الأميركية في دولتي الانتداب. غير أن ارتباط الفرنسيين بمعاهدة واضحة بهذا الخصوص مع الأميركيين ومعرفتهم المسبقة بعجزهم على القيام بما فعلوه في الجزائر في هذا الخصوص من ضرب للغة العربية والثقافة العربية، أجبرتهم على الإبقاء على الجامعة العربية في دمشق. أما ذلك الإبقاء فلم يكن يعني تشجيعا لها أو تنفيذا للدور الذي رسمه لها الملك فيصل الأول خلال حكمه القصير وبهدف سياسي واضح هو تحويلها إلى جامعة عربية تضم جميع الكليات وتؤدي دورها الثقافي كاملا. «وكان هدفه من ذلك - كما يقول كاترو - تحويل العاصمة السورية إلى عاصمة ثقافية لجميع البلدان الناطقة باللغة العربية» (٢٩). فالخطة الفرنسية تهدف إلى الإبقاء على الجامعة العربية في دمشق مقتصرة على كليتي الطب والحقوق. وضغط اليسوعيين المتواصل سيضرب التطور اللاحق لهذه الجامعة. وبالرغم من استمرارها في الوجود فقد ألحقت بها هيئة تعليمية كانت أغلبية أفرادها من الفرنسيين. وبقيت كليتا الطب والحقوق وحدهما جنيئا لتلك الجامعة التي لم تنم قط خلال الفترة الانتدابية الأولى. وهذا ما يفسر تعداد الطلاب فيها عام ١٩٢٤ حيث قدر عدد الطلبة في كلية الطب ١٤١ طالبا وفي كلية الحقوق ١١١ طالبا أي ما مجموعه ٢٥٢ طالبا مقابل ١١٥٢ طالبا في جامعة القديس يوسف و ١١٤ طالبا في جامعة بيروت الأميركية والمدارس الملحقة بهما في العام نفسه (٣٠). أن اليسوعيين، وإن لم يتمكنوا من اغلاق جامعة دمشق نهائيا، استطاعوا الحد من تطورها وأصابوا بذلك نجاحا كبيرا دون شك. لكن هذا النجاح لم يثمر لصالح الجامعة اليسوعية في بيروت وحدها بل جاء بدعم الجامعة الأميركية فيها فأضحت تشكل منافسا خطيرا لها، فاستفادت كثيرا من كبح تطور جامعة دمشق بحيث توجه قسم كبير من الطلبة السوريين إليها، خاصة من الطوائف الإسلامية، في حين احتفظت جامعة القديس يوسف بوجه طائفي مسيحي ماروني لم تستطع التخلص منه طيلة عهد الانتداب. وباعتراف السكرتير العام للانتداب، روبر دو كيه، «فإن تقلل التعليم الفرنسي اقتصر فعلا على العنصر المسيحي في سوريا ولبنان» (٣١). حتى أن المدارس الملحقة بجامعة القديس يوسف والبالغ عددها اثنتي عشرة مدرسة، سبع مدارس منها

(٢٧) — L. C. Catroux « Op. Cit. » — P. 64.

(٢٨) — L. C. Catroux « Op. Cit. » — P. 63.

(٢٩) — L. C. Catroux « Op. Cit. » — P. 59.

(٣٠) — Haut-Commissariat « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.

(٣١) — R. de Caix — Histoire des colonies françaises — La Syrie — T. 3. P. 485.

(٢٤) جريدة الحقيقة البيروتية - السنة ٢٤ - العدد رقم ٩٥٨ - ١١ كانون الأول ١٩١٨ - ص ٢. راجع القسم المتعلق بالتعليم الابتدائي في الصفحات التالية من هذا الفصل.

(٢٥) — L. C. Catroux « Deux missions au Moyen-Orient » — P. 61-62.

(٢٦) — L. C. Catroux — Ibidem — P. 63.

للكور ، وخمس مدارس للاناث ، لم تضم ، في الغالب ، سوى تلاميذ من الموارنة والكاثوليك بلغ تعدادهم ٨٨٩ تلميذا و ٦٧٢ تلميذة في عام ١٩٢١ . ويقول الدكتور عبدالله اليافي : « كنا قليلي العدد الى اقصى الحدود في الجامعة اليسوعية ، لكن الآباء اليسوعيين كانوا يحترمونا كل الاحترام ... » (٢٢) .

« في الحقيقة - يقول الجنرال كاترو (١٩٢٢) - كان عدد الطلاب المسلمين قليلا جدا في مدارس الآباء اليسوعيين ، غير ان الغالبية منهم ، وعموم الذين كانوا من الجنسية السورية ، كانوا يواصلون تعليمهم في الجامعة الاميركية البروتستانتية ببيروت » (٢٣) . ان تشدد اليسوعيين في ضرب الجامعة العربية بدمشق في ظروف توسع الجامعة الاميركية المدعومة من حكومة الولايات المتحدة الاميركية والمساعدات الفردية ، وفي ظروف النكسة التي أصيبت بها حركة التحرر الوطني السورية واللبنانية اثر ميسلون وثقمة الوطنيين على الفرنسيين والانكليز ، وفي ظروف الطابع الطائفي المحض الذي تميز به تعليم اليسوعيين آنذاك وغيرها عززت مواقع الجامعة الاميركية ، فأضحت ، بالرغم من وجود الانتداب الفرنسي على رأس السلطات في بيروت ، منافسا خطيرا لجامعة القديس يوسف وملتقى أبناء الاغنياء العرب الناقمين على السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان .

التنافس الحاد بين جامعة القديس يوسف والجامعة الاميركية

ان جامعة القديس يوسف ، بمحافظتها على وجهها الطائفي الماروني - الكاثوليكي آنذاك ، احتفظت ايضا بوجه لبناني وان وحيد الجانب نسبيا ، في حين أصبحت الجامعة الاميركية في بيروت ذات لغلبية طلابية عربية ، خاصة من الدول الواقعة تحت الانتداب البريطاني ، وبعض دول الكومنولث . يضاف الى ذلك ان الجامعتين ضمنا اعدادا قليلة من الطلاب الاوروبيين والاميركيين ومختلف الجنسيات . ومما لا ريب فيه ان التوجه الاساسي لهاتين الجامعتين لم يكن معزولا عن الاستراتيجية العامة للانتدابين الانكليزي والفرنسي من جهة ، والمخططات الاميركية في المنطقة من جهة اخرى . ولم يكف الآباء اليسوعيون يوما عن اعلان تأييدهم التام للانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، كي لا تتوقف المساعدة الحكومية الفرنسية لجامعة القديس يوسف عن الزدياد باضطراب (٢٤) . فأضحت هذه الجامعة فرنسية الصبغة تماما وأصبحت تخضع مباشرة لرقابة واشراف المفوضية العليا . وكان المندوب السامي يحضر شخصيا حفلة افتتاح العام الدراسي فيها وحفلة توزيع الشهادات لطلابها بحيث أضحت جامعة الحكومة الفرنسية فعلا . في حين تبنت الولايات المتحدة الاميركية جامعتها وأمدتها بكل مقومات الدعم منذ البداية .

(٢٢) - L. C. Catroux — Op. Cit. — P. 63.

(٢٣) - L'Asie Française — No. 208 — Janvier-Février 1923 — P. 44.

(٢٤)

١ - في مجال الطب والصيدلة :

كان على الطلبة الذين يودون الانتساب الى كلية الطب الفرنسية التابعة لجامعة القديس يوسف ، ان يخضعوا لامتحان عام أمام لجنة يعينها المندوب السامي شخصيا ويرئسها من ينوب عنه من قبل المفوضية العليا . ولم يكن يستطيع التقدم بطلبات انتساب الى هذه الكلية سوى المرشحين الحائزين على شهادة البكالوريا الفرنسية والبكالوريا اللبنانية التي تعطيها ادارة المعارف الفرنسية في بيروت والشهادة السورية للتعليم الثانوي الصادرة عن الادارة الفرنسية في دمشق . واذا كان لا بد من المباشرة ، يعفى حملة البكالوريا الفرنسية من هذا الامتحان (٢٥) .

اما لغة التدريس في هذه الكلية فكانت الفرنسية في جميع المواد . وتدل ارقام خريجها ان عددا كبيرا من حملة شهاداتها ينتمون الى بلدان مجاورة للبنان وعربية الجنسية . وبلغت تلك الشهادات المنوحة من كليتي الطب والصيدلة حتى عام ١٩٢٢ ما مجموعه ٢٦٧٠٠ (٢٦) متخرجا ومتخرجة موزعين على جنسيات في الشرق الاوسط والشرق الاقصى وافريقيا واميركا . وكان عدد خريجي الطب من اللبنانيين يكاد ان يكون مرة ونصف المرة في كلية الطب الفرنسية عنها في كلية الطب في الجامعة الاميركية خلال أعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٦ وتوزعوا على الشكل التالي :

كلية الطب في جامعة القديس يوسف (٢٧)

العام	لبنانيون	سوريون	مصريون	جنسيات مختلفة	المجموع
١٩٢٠	٣	١	١	١	٦
١٩٢١	٩	٤	٢	٥	٢٠
١٩٢٢	١٠	٣	٣	٥	٢١
١٩٢٣	٩	٤	٨	٨	٢٩
١٩٢٤	١١	٥	٨	٣	٢٧
١٩٢٥	٥	١	٤	٩	١٩
١٩٢٦	٤	٢	٣	٢	١١

— U.S.J. « L'Assemblée générale de l'UNESCO — 1948 » — P. 115.

— U.S.J. « L'Université Saint-Joseph en 1922 » — P. 9.

— U.S.J. « Distribution des Prix 1919-1930 ».

(٢٥)

(٢٦)

(٢٧)

كلية الطب في الجامعة الأميركية (٢٨)

العام	لبنانيون	مصريون	جنسيات مختلفة	المجموع
١٩٢٠	٧	٣	١٤	٢٤
١٩٢١	٥	١٣	١٤	٢٤
١٩٢٢	٨	٤	١٦	٢٨
١٩٢٣	١٤	٣	١٦	٣٣
١٩٢٤	٣	١١	١٠	٢٤
١٩٢٥	٤	٩	١٣	٢٤
١٩٢٦	٣	١٤	٢٩	٤٦

عدة ملاحظات يمكن استخلاصها من الجدولين المتقدمين :

١ - ان عدد اللبنانيين لم يصل الى السدس من المجموع العام في الجامعة الأميركية في حين تجاوزت نسبة اللبنانيين هذه النسبة بكثير في المجموع العام لخريجي كلية الطب الفرنسية . فبين ١٣٣ طبيباً تخرجوا من اليسوعية بلغ عدد اللبنانيين بينهم ٥١ طبيباً مقابل ٣٤ لبنانياً من أصل ١٨٨ متخرجاً من الجامعة الأميركية .

٢ - ان عدد الخريجين قد هبط باستمرار وبحدة بعد عام ١٩٢٣ في كلية الطب الفرنسية في حين ان احصاء ١٩٢٦ قد ضاعف عدد خريجي كلية الطب في الجامعة الأميركية وبدأت المنافسة تسير لصالح الأخيرة بالذات في هذا المجال الهام .

٣ - ان عدد المتخرجين اللبنانيين كان يتناقص باستمرار في كلتي كلية الطب الأميركية واليسوعية .

٤ - ان عدد الطلبة المصريين في الكليتين كان كثيراً بالنسبة لمجموع عدد الطلاب وكان بنسبة ١ الى ٢ بين اليسوعية والأميركية لصالح الأخيرة .

٥ - ان عدد الطلبة اللبنانيين بقي ضئيلاً جداً بالنظر الى كثافة السكان في لبنان ، وكان بالتالي حكرًا على عدد قليل جداً من أولاد الاغنياء اللبنانيين والعرب .

ولا بد من التنويه هنا ، وعلى عكس التوقعات السابقة للكولونيل كاثرو من ان « عموم الطلبة السوريين سيتوجهون الى الجامعة الأميركية في بيروت » ، فاننا لم نعد في دليل الخريجين لكلية الطب في الجامعة الأميركية سوى على ثلاثة أسماء فقط لأطباء سوريين نالوا شهادتهم من تلك الكلية . اثنان منهم تخرجوا عام ١٩٢٣ والثالث في عام ١٩٢٦ ، في حين ان وجود الأطباء السوريين بين خريجي الكلية الفرنسية واضح من الاحصاء المذكور وبلغت نسبتهم ٢٠ متخرجاً مقابل ٥١ لبنانياً تخرجوا خلال الفترة المذكورة . ولعل كلية الطب بجامعة دمشق ، بجهازها التعليمي من الفرنسيين ، كذلك التعليم العام باللغة الفرنسية ، أجبرا الطلاب على التوجه خارج دمشق الى كلية الطب الفرنسية دون غيرها .

ب - تدريس الحقوق في لبنان حكرًا على اليسوعية

إذا كان امتياز كلية الطب قد حصر بالاغنياء من بلدان متفرقة بينها لبنان ، فان امتياز الدخول الى كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية بقي حكرًا على اولاد لاغنياء أو « أبناء العائلات » كما يطلق عليهم ، ولم يتجاوزهم سوى لعدد قليل جداً من السوريين والمصريين والفرنسيين ، والاحصاء التالي يبين لنا عدد الخريجين من كلية الحقوق اليسوعية خلال اعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٦ (٣٩) :

العام	لبنانيون	سوريون	مصريون	فرنسيون	المجموع
١٩٢٠	١١	١	١	١٢	٢٥
١٩٢١	١٥	١	١	١٧	٣٤
١٩٢٢	١٦	٢	١	١٩	٣٨
١٩٢٣	١٣	٣	٣	١٩	٣٨
١٩٢٤	١٧	٢	٢	٢١	٤٢
١٩٢٥	١٣	٣	١	١٧	٣٤
١٩٢٦	١٥	١	٢	٥	٢٣

يستنتج من هذا الجدول ان وجود اللبنانيين كان ساحقاً في هذه الكلية اذ بلغ ١٠ طالبا من أصل ١٢٨ طالبا كما ان هذا العدد قد تجاوز الوجود اللبناني في كلتي كلية الطب في الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية معا والذي لم يتجاوز ٨٥ طالبا خلال الفترة عينها . مما يدل بوضوح ان الفرنسيين كانوا بحاجة الى بعض الكادرات المحلية اللازمة لانتدابهم في سوريا ولبنان ، ولتكريس تعليم مشوه يعتمد على تشجيع القطاعات غير التطبيقية والتقنية على حساب الفروع التطبيقية الضرورية لتطوير المجتمع المتخلف في لبنان .

اما كلية الحقوق بجامعة القديس يوسف ، والتي قامت بانشائها الجمعية الليونية منذ عام ١٩١٢ دون ان تمارس نشاطها فعليا الا بعد اعادة افتتاحها عام ١٩١٩ ، سدت جزئياً حاجة الانتداب الفرنسي الى الاداريين في الوظائف المتوسطة والكبيرة ايضا ومهدت الطريق امام المتخرجين فيها ، على نفس الانظمة والبرامج المطبقة في كليات الحقوق الفرنسية ، الى تولي مناصب كبرى في ظل الانتداب الفرنسي . وبذلك استطاع هذا الانتداب ، في محاولة لامتناع قيمة السكان ، ملء وظائف كثيرة بواسطة خريجي هذه الكليات بالذات ، واضفاء الطابع الوطني المحلي على ادارته في المرحلة الانتدابية الدستورية . ويكفي ان نشير في هذا المجال الى ان جميع الذين شغلوا منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية ، قبل الانتداب وبعده ،

ج - في الهندسة وطب الاسنان وباقي المجالات

كي تحافظ جامعة القديس يوسف على «امتياز الفنى» كشرط أساسي للدخول الى حرم كلياتها ، انشأت منذ ١٩١٩ مدرسة تحضيرية مهمتها «اعداد التلاميذ لامتحانات القبول في كليات الطب والحقوق والهندسة (٤٤)» . وكان جميع تلامذتها خارجيين يداومون باستمرار طيلة العام الدراسي ، ولغة التدريس الوحيدة فيها هي الفرنسية .

هذه المدرسة أعدت مباشرة الطلاب للدخول في الكليات اليسوعية . ومما يلفت النظر ان كلية الهندسة التي انشئت عام ١٩٢٢ ، وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، لم تخرج في أعوام ١٩٢٥ و ١٩٢٦ و ١٩٢٧ سوى ٢٠ طالبا فقط توزعوا على السنوات المذكورة كما يلي : ٧ ، ٧ ، ٦ . وكان عدد اللبنانيين بينهم كما يلي : ٤ ، ٢ ، ٤ ، وعدد السوريين ١ ، ٣ ، ٢ ، وعدد المصريين ١ . لعام ١٩٢٥ (٤٥) فقط . اما كلية الصيدلة ، القديمة العهد في لبنان ، فكانت دفعت خريجها على التوالي (٤٦) :

العام	لبنانيون	سوريون	مصريون	جنسيات اخرى	المجموع العام
١٩٢٠	١	٤	—	٢	٧
١٩٢١	١	١	—	١	٣
١٩٢٢	٣	٢	٢	٣	١٠
١٩٢٣	٢	—	٣	٤	٩
١٩٢٤	٢	—	—	١	٣
١٩٢٥	١	١	—	٢	٤
١٩٢٦	٢	٢	١	—	٥

يتبين من هذا الجدول ان عدد الخريجين كان قليلا جدا خلال سبع سنوات اذ لم يتجاوز ١٢ متخرجا من لبنان مقابل ٩ متخرجين سوريين و ٥ متخرجين مصريين و ١٣ متخرجا من جنسيات اخرى .

وفي كلية طب الاسنان بجامعة القديس يوسف ، التي انشئت منذ ١٩٢٠ ، كان الطلاب فيها من الجنسيين اللبنانية والمصرية بشكل خاص وبعض السوريين . وتوزع خريجوها كما يلي : (٤٧)

— U.S.J. « Beyrouth et le Grand-Liban » — P. 18.

— U.S.J. — Ibidem — P. 18.

(٤٤) U.S.J. « Distribution des Prix », 1919-1930.

(٤٥) U.S.J. — Distribution des Prix, 1919-1930

(٤٤)

(٤٥)

(٤٦)

(٤٧)

هم من خريجي المدارس اليسوعية بشكل عام ، وكلية الحقوق فيها بشكل خاص . وحتى الستينات من هذا القرن ، كانت الاغلبية الساحقة من الوزراء والمدراء العامين وكبار موظفي الادارة ، والنواب المثقفين ، من بين خريجي هذه الكلية دون سواها .

ومتخرجو هذه الكلية كانوا من ابناء الميسورين واغنياء اللبنانيين والسوريين بشكل خاص . لذا حافظت هذه الكلية على وجهها الطبقي الواضح منذ نشأتها بالذات ، كما حافظت الجامعتان الاجنبيتان في بيروت على هذا الوجه طيلة ايام الانتداب وبعد الاستقلال . اما ما اعتبر فارقا بينهما فينبع من واقع ان اليسوعية كانت حكرا على ابناء اغنياء اللبنانيين والسوريين وبعض المصريين في الغالب ، في حين فتحت الجامعة الاميركية ابوابها امام ابناء الاغنياء من العرب وبعض دول الكومنولث من جنسيات مختلفة . فبالرغم من تعدد القوميات والجنسيات هذه فان الوجه الطبقي كان واحدا في الجامعتين .

لقد تخرج من كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية ٦٥٢ (٤٠) طالبا حتى عام ١٩٤٧ ، منهم ٣٩٠ لبنانيا و ١١٦ سوريا و ٢١ فرنسا و ١٢٥ طالبا من تسع جنسيات اخرى . وقد شغل هؤلاء المتخرجون ابرز مناصب الادارة الاستقلالية في لبنان ، في حين بقيت الجامعة الاميركية دون كلية للحقوق فيها حتى اليوم . ويعمل الدكتور رباط (٤١) ذلك بان تعليم القانون الفرنسي وحده في لبنان الكبير وطيلة الفترة الانتدابية وحتى لبنان المستقل كان ابرز الاسباب التي جعلت الاميركيين يحجمون عن فتح مثل تلك الكلية نظرا لرفضهم تدريس تلك القوانين الفرنسية من جهة ، ولفقْدان الجهاز التعليمي القادر على تدريس تلك القوانين في كليتهم في بيروت من جهة اخرى . اما الدكتور نقولا زياده (٤٢) ، فأضاف سببا سياسيا هو خشية الاميركيين من اقدم الفرنسيين على اغلاق جامعتهم ان هي تدخلت في الشؤون الخاصة لفرنسا المتدبة .

« ان المؤسسات التعليمية الفرنسية في الشرق هيأت لنا عناصر ممتازة للمء وظائف ثانوية في ادارتنا (٤٣) » ، يقول بوربون ، الا ان كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف هيأت عناصر الادارة اللبنانية ، لا في ظل الانتداب فحسب ، بل في الفترة الاستقلالية التي تلتها ايضا . ان حرمان الجامعة الاميركية من كلية للحقوق في ذلك الحين ، حرما ايضا من المشاركة في مفانم الادارة اللبنانية فترة طويلة من الزمن . وما نشهده اليوم من صراع على تلك الادارة ليس الا محاولة حثيثة من جانب الاميركيين للتعويض عما فاتهم من حرمان ولعدم توافق مشاركتهم في الادارة بنسبة سيطرتهم على الاقتصاد اللبناني في الوقت الراهن .

— U.S.J. « L'Assemblée générale de l'UNESCO 1948 » — P. 181.

(٤٠)

(٤١) مقابلة خاصة .

(٤٢) مقابلة خاصة .

(٤٣)

— Bourbon « La Syrie et la France » — P. 27.

العالم	لبنانيون	مصريون	سوريون	جنيشيات أخرى	المجموع العام
١٩٢٣	٢	٥	٢	—	٩
١٩٢٤	—	٤	—	٢	٦
١٩٢٥	٤	٢	—	١	٧
١٩٢٦	٨	٣	—	—	١١
١٩٢٧	٨	٣	١	٤	١٦

ولم نستطع الحصول على ارقام تفصيلية لخريجي الجامعة الاميركية في تلك الفترات . لكننا وجدنا مقارنة بين طلاب الجامعتين لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وردت في النشرة الاقتصادية لجمعية التجار والصناعيين الفرنسيين في الشرق (٤٨) .

طب الأسنان توليد هندسة حقوق

١٩٢٥	١٩٢٦	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠
القدس يوسف	١٠٨٢	١٠٠٠	٣٧	٣٣	١٤٦
الجامعة الاميركية	٩٢	٤٤	٥٢	—	—
١٩٢٦	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١
القدس يوسف	١٣٩	٢١	٤٣	٢٢	٤٣
الاميركية	٩٩	٣٤	٣٩	٣٤	—

يتبين من هذين الجدولين ان نسبة النجاح ضئيلة جدا في جامعة القدس يوسف بالرغم من كل التضييقات السابقة والمدرسة التحضيرية . فمقابل ٣٧ طالبا في كلية طب الاسنان فيها لم يتخرج سوى ٧ طلاب فقط عام ١٩٢٥ ، ومقابل ٤٣ طالبا لم يتخرج سوى ١٣ طالبا عام ١٩٢٦ و ١٦ طالبا عام ١٩٢٧ . وبالرغم من عدم توفر الاحصاءات الدقيقة لدينا ، نستطيع القول ان نسبة النجاح فيها لم تبلغ ٤٠٪ بعد كل العراقيل السابقة . اما في كلية الهندسة فكانت النسبة ادنى من ذلك بكثير . فقد تخرج ٧ طلاب فقط عام ١٩٢٥ مقابل ٣٣ طالبا مسجلين فيها و ٧ طلاب ايضا عام ١٩٢٦ مقابل ٤٣ طالبا . كذلك الحال بالنسبة لكلية الحقوق التي تخرج منها عام ١٩٢٥ فقط ١٧ طالبا مقابل ١٤٦ طالبا مسجلا و ٢٣ طالبا تخرجوا عام ١٩٢٦ مقابل ١٤٢ طالبا مسجلا . وفي كلية الطب الفرنسية تخرج ٢٧ طالبا فقط للعام الدراسي ١٩٢٧ - ١٩٢٨ مقابل ١١١ طالبا مسجلا ، و ٣ طلاب تخرجوا من كلية الصيدلة مقابل ١٨ مسجلين ، و ٩ خريجين في معهد طب الاسنان فيها مقابل ٤٢ مسجلين (٤٩) .

ان صعوبة الامتحانات ، اذا ما اضيفت الى العراقيل العديدة التي فرضها اليسوعيون امام الدخول الى كلياتهم ، كانت من الاسباب الهامة التي دفعت اعدادا

(٤٨) — Bulletin Trimestriel du C.I.F.L., No. 1 — 1927 — P. 69.
(٤٩) — R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 184.
et H. C. « Rapport sur 1925 » — P. 95.

كبيرة من الطلاب . وجهة الجامعة الاميركية ، فافتتحت اكثر من منافستها بعدد الطلاب وبدأت مؤشرات التطور تعمل لصالح الاميركية على حساب تدهور اليسوعية منذ الفترة الانتدابية الاولى . ولم يحفظ لجامعة القديس يوسف نفوذها في لبنان الا قرارات المندوبين السامين المستمرة ، وكلية الحقوق فيها التي عملت باستمرار على ابراز اليسوعية في الصف الاول للتعليم العالي في لبنان آنذاك ، وبسبب الدعم المباشر الذي قدمه لها خريجوها المنتشرون في دوائر دولة الانتداب بالذات دون وجود اقران لهم من الاميركية .

د - آفاق تطور الجامعتين :

اعتبارا من ١٩٢٤ بدأت جامعة بيروت الاميركية تحرز تفوقا ملحوظا على جامعة القديس يوسف . فقد ارتفع عدد طلابها من ٤٤٩ طالبا عام ١٩٢٣ الى ٥٩٣ عام ١٩٢٤ أي بزيادة ١٤٤ طالبا مقابل زيادة ٢٩ طالبا فقط في اليسوعية التي ارتفع عدد طلابها من ٣٧٢ عام ١٩٢٣ الى ٤٠١ عام ١٩٢٤ .

وفي كلية الطب بالجامعة الاميركية ارتفع عدد الطلاب من ١٦٤ طالبا الى ١٨٥ خلال تلك الفترة . في حين انخفض عدد طلاب كلية الطب في اليسوعية من ١٧٧ طالبا الى ١٧٤ خلال ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، الى ١١٨ طالبا فقط للعام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ (٥٠) . زيادة على ذلك . تعززت كليات الفنون والعلوم والتجارة في الجامعة الاميركية باعداد كبيرة من الطلاب . ففي كلية الفنون والعلوم ارتفع عدد الطلاب من ١٣٧ طالبا عام ١٩٢٣ الى ٢٣٧ طالبا عام ١٩٢٤ ، وفي حين هبطت كلية التجارة فيها ٧٨ طالبا عام ١٩٢٤ مقابل ٦٨ طالبا عام ١٩٢٣ (٥١) .

صحيح ان كلية الحقوق بجامعة القديس يوسف بقي بمقدورها دوما تفسير ميزان الاعداد الطلابية لصالح الجامعة اليسوعية ، غير ان المساعدات المستمرة من جانب حكومة الولايات المتحدة والمفترين اللبنانيين للجامعة الاميركية والتي تجاوزت بكثير نسب مساعدات الحكومة الفرنسية لجامعة القديس يوسف ، اوجدت قلقا جديا وهلما في نفوس الجزويت عن الأفق . لقائم لتطور جامعتهم . وقد عبرت مجلة « آسيا الفرنسية » الوثيقة الاتصال بدوائر الانتداب وخفايا باريس ، عن هذا القلق منذ ١٩٢٩ فكتبت تقول : « ان عدد اليسوعيين الفرنسيين في لبنان يتناقص باستمرار . فقد انخفض ما بين ١٩٠٥ و ١٩٢٨ من ٨٥ الى ٥٤ يسوعيا . زد على ذلك ان ميزانية كلية الفرنسية ببيروت (جامعة القديس يوسف) تبلغ ٤ ملايين فرنك تقدم منها حكومة باريس مليونا و ٨٠٠ ألفا فقط ، في حين ان ميزانية الجامعة الاميركية في بيروت تزيد على ١١ مليون فرنك تدفعها حكومة الولايات المتحدة بكاملها ، ويضاف اليها العديد من الهبات » (٥٢) .

(٥٠) — H. C. « La Syrie et le Liban, 1919-1927 » — P. 129.
(٥١) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.
(٥٢) — L'Asie Française — L'union économique de la Syrie — article « pour le maintien de l'influence française dans le Levant » — No. 267, Février 1929. P. 66.

هذا الدعم الخارجي الهام ، مضافا الى سياسة اليسوعيين السيئة والضيقة
الافق على الصعيد المحلي ، والتي اعتمدت على ابقاء الوجه الطائفي لجامعتهم بأن
جعلوها تقتصر على العنصر المسيحي بشكل عام والماروني - الكاثوليكي بشكل خاص ،
دفعت باقي الطوائف الى تثقيف ابنائها في الجامعة الأميركية ببيروت .

ونعترف هنا أننا لم نستطع الحصول على احصائيات دقيقة للتوزيع الطائفي
في الجامعتين بالنسبة للطلاب غير أن احصاء علميا أورده هاني فياض عن عامي ١٩٥٢
و ١٩٥٤ يدعم وجهة نظرنا السابقة مع اعتقادنا الاكيد أن النسبة كانت أسوأ من ذلك
حتمًا في الفترة التي درسناها . وقد جاء في احصائيات هاني فياض (٥٢) .

ارثوذكس سنة دروز شيعية موارنة بروتستانت كاثوليك

١٩٥٢	٢٠	٢٤	٧	٣	٩	٢
الأميركية	١٤	٥	٢	٤	٣٢	١٧
١٩٢٦	٢٦	١٢	٦	٥	٣	٨
الأميركية	٩	١٣	١	٥	٤٦	١٢
اليسوعية						

هذه الاحصائيات تثبت توجه الاورثوذكس والدروز والبروتستانت بكثافة
نحو الاميركية مقابل توجه الموارنة والكاثوليك بأغلبية ساحقة نحو اليسوعية وتوزع
السنة والشيعية بين الجامعتين مع اعتقادنا الصريح أن توجه هؤلاء كان في الغالب
نحو الاميركية خلال الفترة الاولى للانتداب .

لقد كان وجود الانتداب الفرنسي دعما قويا للجامعة اليسوعية كي تنمو وتزدهر
خلال فترة الانتداب بكاملها الا أن وجود الجامعة الاميركية في بيروت ، وضعف
المساعدات الفرنسية لجامعة القديس يوسف اذا ما قورنت بحجم مساعدات الحكومة
الاميركية لجامعتها ، وأوجه الطائفي لجامعة الجزويت ، كانت من الاسباب الهامة
التي كانت تعيق تطور جامعة القديس يوسف في بيروت .

التعليم الثانوي في ظل الفرنسيين

إن المنافسة العنيفة التي وجدها اليسوعيون في مجال التعليم العالي والتي
تمثلت بالجامعة الاميركية في بيروت كانت معدومة الأثر على مستوى التعليم الثانوي
والابتدائي ، فكانت هيمنتهم شبه مطلقة في هذين المجالين . وقد أصر اليسوعيون
منذ البداية على ضرورة تشجيع المدارس الخاصة دون غيرها على هذا الصعيد ،
خاصة تلك التي تدرس اللغة الفرنسية ، أجنبية كانت أم خاصة .

— Hani Fayyad « The effects of sectarianism on the Lebanese administra-
tion » — thesis — P. 33. (٥٣)

فخلال الحرب العالمية الاولى أصيب التعليم في لبنان بكارثة ، خاصة المدارس
التي تغطي دروسها باللغة الفرنسية او الانكليزية واغلقت جميعها ولم تبق سوى
واحدة فقط هي مدرسة الالينس الاسرائيلية ببيروت ، التي استمرت بتدريس
الفرنسية واستحقت شكر فرنسا فيما بعد ، على لسان المسؤول الفرنسي عن التعليم
في إدارة الانتداب سوريا ولبنان ، السيد شغالي الذي أرسل الى حكومته يقول
بهذا الخصوص « علينا ألا ننسى وفاء الالينس الاسرائيلية ، وأن نقدم لها كل دعم (٥٤) ،
في حين استمرت المدارس الالمانية القليلة العدد تعمل بانتظام ، كذلك مدارس البعثات
الاميركية التي قامت بدور هام في توزيع الأغذية والملابس وبناء الملاجئ والمباني .

وجنس احصائيات بنك سوريا ولبنان ، كان في سوريا ولبنان الكبير عام
١٩٢٢ بالذات ١٦ مدرسة (٥٥) ثانوية للذكور تضم ٦٤٦٦٣ تلميذا و ٧ مدارس للإناث
تتضمن على ٣١٨ تلميذة و ٣ مدارس تعليمية أو فنية ثانوية تضم ٦٤ تلميذا وتلميذة .
ومن بين طلاب هذه المدارس الثانوية يوجد ٦٦٨ تلميذا من سوريا و ١٨٨٥ تلميذا
من بلدان أوروبية أو اميركية مختلفة ، خاصة اولاد المهاجرين اللبنانيين . وهكذا
يتبين أن عدد الطلاب اللبنانيين في تلك المدارس الثانوية والفنية حوالي ٤ آلاف تلميذ
وتلميذة فقط توزعوا على مدارس خاصة محلية وأجنبية ، وكانت الغلبة الساحقة
فيها للمدارس الأجنبية التي يشرف عليها اليسوعيون والفرنسيون والفريير أو
أخوة المدارس المسيحية والأخوة المريميون ، والالينس الاسرائيلية ، وراهبات المحبة
التابعات لرهبانية القديس فرنسوان دو بول ، وراهبات الناصرة ، وراهبات العائلة
المقدسة ، وراهبات القديس يوسف المتجلي ، وراهبات بيزنسون ، وراهبات الراعي
الصالح ، وراهبات زيارة العذراء ، وراهبات القلب الأقدس وغيرها . وكانت هذه
المدارس تتوزع على معظم مناطق الجبل اللبناني خاصة جونية وبعيدا وبكفيا وحمانا
وعينطورة بالإضافة الى بيروت وطرابلس . أما أهم المدارس الثانوية المحلية أو
الأهلية ، وكلها مدارس خاصة ، فكانت الحكمة المارونية الثانوية ، والثانوية
البطركية في بيروت ، وثانوية الأب لطفی ، ومدرسة الثلاثة أعمار الاورثوذكسية ،
وثانوية زهرة الاحسان ، وثانوية تهذيب الفتاة ، وثانوية المقاصد الخيرية الإسلامية ،
والكلية الوطنية بعاليه ، والثانوية الوطنية اللبنانية .

« وفي مرجعيتي ، كانت مدرستان خاصتان تمنحان تلامذتهما شهادة تخولهم
الدخول مباشرة الى المؤسسات التعليمية العالية في بيروت » (٥٦) . أما المدارس
الثانوية الرسمية فكان عددها ثلاثة مدارس (٥٧) حتى عام ١٩٢٦ يضاف اليها مدرسة
للصنائع والفنون في بيروت ، التي انشئت فيها قبل عام ١٩١٤ « لكنها لم تعرف
الانتظام قط في عملها » (٥٨) . وكانت هذه المدرسة للصنائع تنتقي طلابها بين سن

(٥٤) — Chevalley « L'enseignement en Syrie pendant la période d'Organisation
1919-1921, foire-exposition de Beyrouth — P. 105.

(٥٥) — Bulletin annuel de la Banque de Syrie et du Liban — Année 1929. P. 38.

(٥٦) — مجلة الحارس البيروتية — السنة الاولى — العدد الرابع — تموز ١٩٢٣ — ص ١٧٦ .

(٥٧) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.

(٥٨) — Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 24.

الثالثة عشرة والثامنة عشرة . وكانوا قسمين : طلاب يتأتون منحة من الدولة وطلاب يدفعون مصاريف نفقاتهم . وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات وفي السنة الرابعة يحضر الطالب دبلوما للدراسات العليا في فرع تخصصه . وبلغ تعداد طلابها ٧٠ طالبا عام ١٩٢٧ (٥٩) في السنوات الأربع .

اما مواد تلك الدراسة فكانت تقتصر على الميكانيك والكهرباء وتصليح السيارات وسبك المعادن والحدادة والرسم الصناعي والمساحة (٦٠) . كذلك كانت هناك مدرستان لإعداد المعلمين والمعلمات في بيروت انشئت الاولى منذ ١٩٢٥ والثانية في عام ١٩٢٦ تعملان تحت اشراف المسؤول التربوي في ادارة الانتداب مباشرة والذي عاد فجمعها في مدرسة واحدة منذ ١٩٢٧ ، وبلغ تعداد طلابها عام ١٩٢٨ (٦١) اربعة عشر طالبا وطالبة منهم ثمانية طلاب وستة طالبات فقط . وبقي تأثيرها ضئيلا جدا طيلة الفترة الانتدابية بكاملها . وحتى المرحلة الانتدابية الاولى ، كانت الدراسة الثانوية ، التعليمية والثقافية ودور المعلمين ، مقصورة تقريبا على المدارس الخاصة ، الاجنبية واللبنانية . ومن اصل ٣٨ مدرسة ثانوية كانت هناك ٣٤ ثانوية خاصة وثلاث ثانويات رسمية ومدرسة للصنائع والفنون . ومن بين تلك الثانويات الخاصة الـ ٣٤ ، والبالغ عدد تلامذتها ٧٦٤٧ تلميذا وتلميذة عام ١٩٢٦ (٦٢) ، كانت هناك ١١ مدرسة خاصة لبنانية فقط تضم ١٤٧٧ تلميذا وتلميذة ، أي زيادة ثانويتين على عام ١٩٢٤ و ٤٠ ثانويات لبنانية محلية على عام ١٩٢٣ (٦٣) . ومقابل هذه الثانويات اللبنانية الخاصة كانت هناك ٢٣ ثانوية اجنبية تضم ٦٤١٧ تلميذا وتلميذة وبينها عشرون ثانوية تدرس باللغة الفرنسية .

اما المناصب الاجتماعية لتلامذة هذه الثانويات ، فباعتراف الفرنسيين انفسهم ان تلك الثانويات « لم تكن تستقبل سوى أبناء الأسر الغنية » (٦٤) في حين ان الثانويات الخاصة المحلية « تستقبل أبناء الأسر المسورة فتوصلهم الى الشهادة الابتدائية العالية (البريفه) ونادرا الى البكالوريا » (٦٥) .

وهكذا يبدو واضحا تماما ان السياسة الفرنسية التعليمية في هذا المجال كانت تهدف منذ البداية الى دعم قطاع التعليم الثانوي الخاص بشكل عام ، والثانويات التي تدرس باللغة الفرنسية بشكل خاص ، وجعل الثانويات الخاصة المحلية تعجز عن اتمام دراسة تلامذتها ، في الوقت الذي اهتمت فيه اهمالا تاما الثانويات الرسمية للدولة والتي لم تتطور قط خلال تلك الفترة الانتدابية الاولى . فانفرد اليسوعيون في الهيمنة على التعليم الثانوي في لبنان دون ان يجدوا لهم منافسا جديا كما جرى

(٥٩) — R. O'Zoux « Les Etats du Levant... » — P. 200.
(٦٠) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.
(٦١) — R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 196.
(٦٢) — Bulletin de C.I.F.L. — No. 1 de 1927 — P. 154.
(٦٣) — Rapport sur l'année 1925 — Index No. 4.
(٦٤) — Chevalley — Op. Cit. — P. 115.
(٦٥) — Chevalley — Op. Cit. — P. 116.

على سعيد التعليم العالي ، بل كانت الثانويات الاخرى ، رسمية وخاصة محلية ، في حالة تبعية تامة لبرامجهم وانظمة امتحاناتهم التي فرضوها رسميا على الجهاز التربوي برمته في لبنان الكبير والذي كان فعلا منهم ولهم .

ان هيمنة اليسوعيين على التعليم الثانوي في جميع مدارسهم بقي دون منافس جدي طيلة عهد الانتداب . وكانت برامجهم تعتمد اساسا اللغة الفرنسية والتراث الفرنسي في محاولة لاقتلاع الطالب اللبناني من جذوره التاريخية وجعله اسير الثقافة الفرنسية حتى التافه منها . لقد عانى اليسوعيون كثيرا في محاولتهم مسح شخصية الطالب اللبناني وعزله عن محيطه الطبيعي الذي يعيش فيه .

التعليم الابتدائي ايام الانتداب

منذ دخول فرنسا المنتدبة ، وحتى قبيل اعلان انتدابها ، الى سوريا ولبنان ، سعت بالحاح الى اعادة تشجيع التعليم الابتدائي الخاص كي يحتل المركز الممتاز الذي كان له قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ كانون الثاني ١٩١٩ ، أي بعد ثلاثة اشهر فقط من دخول الجيوش الحليفة الى لبنان ، دعا المفوض السامي الاول ، فرنسوا جورج ييكو ، الى محاضرة تكلم فيها عن ضرورة تعزيز التعليم في لبنان . ولبي دعوته تلك جميع الزعماء الدينيين ورؤساء الرهبانيات والعديد من رجال الدين المسيحيين واصحاب المدارس الخاصة الطائفية المسيحية . واعلن ييكو في الخطاب الذي القا في هذه المناسبة قراره على دعوة كل طائفة الى فتح مدارسها التي كانت تعمل قبل الحرب ، ودعا الى فتح مدرسة في كل قرية ، كما اعلن ان المفوضية العليا ستخصص لتلك المدارس ما بين ١٦٠٠ و ١٩٠٠ فرنك فرنسي سنويا عن كل معلم فيها ، بالإضافة الى معونات استثنائية لنفقات البناء الاولى . وقد خصصت الحكومة الفرنسية بالفعل مبلغ مليون ونصف المليون من الفرنكات الفرنسية الذهبية كرسيد لتلك النفقات الاولى . وبفضل هذه الاجراءات المشجعة فتحت ٦٦٨ مدرسة في لبنان منذ اواخر ١٩١٩ ، وارتفع الرقم الى ٨٢٠ مدرسة عام ١٩٢٠ وإلى ٩٩٣ عام ١٩٢١ (٦٦) .

لقد كان التوجه لادارة الانتداب غاية في الوضوح ، فادت تلك الاجراءات الى تطوير المدارس الخاصة بسرعة . وجوابا عن تطور التعليم الرسمي يقول التقرير السنوي لعصبة الامم عنه حرفيا « اما التعليم العام (الرسمي) فحسب ما تسمح به مداخل دولة لبنان الكبير من اعتمادات خاصة في هذا المجال » (٦٧) (كذا) .

وعبارة « حسب ما تسمح به مداخل دولة لبنان الكبير » كانت تعني انخفاضا مستمرا على موازنات التعليم الرسمي . فقد هبطت ميزانية هذا القطاع من ٢٠٠ الف ليرة سورية (مقابل مليون ونصف المليون من الفرنكات الذهبية كهبات لسد النفقات الاولى للمدارس الخاصة !!!) عام ١٩١٩ الى ١٥٢٤٠٠٦ ليرة سورية لعام

(٦٦) — Voir: Bulletin économique de C.I.F.L. — No. 1 de 1927 — P. 58.
(٦٧) — Rapport sur l'année 1925 — P. 24.

١٩٢٣ الى ١٢٤٠٧١٢ ليرة سورية لعام ١٩٢٤ الى ١٣٨٠٨٠١ ليرة سورية لعام ١٩٢٥ (٦٨) . وأشار تقرير عام ١٩٢٥ بصراحة الى « ان عملية الاقتصاد تلك هي بالغة الأهمية ومقصودة وتجدر تبريرها في العدد الكبير للمدارس الخاصة المتواجدة في لبنان الكبير » (٦٩) . فالهدف واضح : جعل التعليم الرسمي في حالة تبعية تامة للتعليم الخاص ، وكلما تطور هذا الأخير كان من الضروري - برأي ادارة الانتداب - تقليص عدد المدارس الرسمية .

وبالرغم من ان وجود التعليم الرسمي كان مقتضيا فعليا على شكله الابتدائي ، فان تلك السياسة الانتدابية قد جمته في مكانه وحدثت من آفاق تطوره اللاحق . فلم تكن هناك أية ميزانية جدية للتعليم الرسمي . فمن اصل ميزانية عامة بلغت أرقامها ٢٠١٩٩٤٠٠ ليرة سورية عام ١٩٢٤ كانت حصة التعليم فيها ١٢٤٠٧١٢ ل.س. ومن اصل ميزانية عامة ١٣٢٠٢٥١٥٠ ل.س. لعام ١٩٢٥ ، كانت ميزانية التعليم فيها ١٣٨٠٨٠١ ، أي بنسبة ١٠٪ (٧٠) تقريبا في الحالتين .

ومن اصل ٩٨٥ مدرسة ابتدائية عاملة في لبنان الكبير عام ١٩٢٤ ، لم يكن عدد المدارس الرسمية يتعدى ١١٥ مدرسة تضم حوالي ٨٠٠٠ تلميذ وتلميذة مقابل ٨٧٠ مدرسة خاصة ، محلية وأجنبية تضم ٨٠ ألف تلميذ وتلميذة ، ويتدني عدد تلامذة المدارس الرسمية من ٨٦١١ تلميذ وتلميذة عام ١٩٢٣ الى ٨٤٠٦٤ عام ١٩٢٤ (٧١) . لذا كان الوضع العام للتعليم الرسمي يزداد سوءا عاما بعد عام . فانتخض عدد المدارس أيضا عام ١٩٢٥ حتى وصل الى ١٠١٣ (٧٢) مدرسة . وبالرغم من ان هذا التعليم سيسجل تقدما ملحوظا مع مجيء الجنرال ساراي ودعوته للعالمية اذ ارتفع عدد المدارس الرسمية فجأة الى ١٤٤ مدرسة عام ١٩٢٦ ، منها ١١٤ مدرسة للذكور و ٣٠ مدرسة للإناث فان عدد تلامذة تلك المدارس لم يتجاوز ٩٠٤٣٢ منهم ٦٤١٧٣ تلميذا و ٣٢٥٩٩ تلميذة (٧٣) .

ولعل الجدول التالي يوضح نسبة التلاميذ في المدارس الخاصة والرسمية منذ ١٩١٩ حتى ١٩٢٦ (٧٤) في دويلات سوريا ولبنان الكبير .

- (٦٨) — H. C. « Rapport sur l'année 1924 » — P. 24.
 (٦٩) — H. C. — Ibidem — P. 24.
 (٧٠) — أبلتي وجرجي جدمون : الدليل السوري لعام ١٩٢٤ من ١٥٠ وبلغام ١٩٢٥ من ١٥٢ .
 (٧١) — Rapport sur l'année 1925 — Index 4 — P. 95.
 (٧٢) — L'Asie Française — No. 225 — Décembre 1927 — P. 394.
 (٧٣) — M. Desjardins « Le problème syrien... » — thèse — P. 83.
 (٧٤) — M. Desjardins — Ibidem — P. 84.
 (٧٥) — et Bulletin de C.I.F.L. No. 1 — 1927 — P. 59.

العام	التعليم الرسمي عدد التلاميذ	التعليم الخاص عدد التلاميذ
١٩١٩	لا احصاء	٣٩٠٠٠٠
١٩٢٠	لا احصاء	٧٥٠٦٧٩
١٩٢١	١٦٠٨٩٧	٧٢٠١٤١
١٩٢٢	٣٠٠١٤٥	٧٥٠٢٤٢
١٩٢٣	٣٣٠٥٠٥	٧٩٠٨٣٤
١٩٢٤	٣٥٠٨٦١	٨١٠١٠٣
١٩٢٥	٣٥٠١٥٥	٧٣٠٥٦٧
١٩٢٦	٣٨٠٨٧٣	٩٢٠٤٨٧
١٩٢٧	٤٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠ (٧٥)

ان عدد التلاميذ هنا يشمل جميع المدارس الرسمية في دويلات الانتداب الفرنسي . وقد أشرنا منذ قليل الى تعداد المدارس والطلاب في دولة لبنان الكبير بمقردها . وأشرنا كذلك لتلامذة المدارس الخاصة حيث ان الأغلبية الساحقة من تلك المدارس وتلامذتها كانت تتمركز في دولة لبنان الكبير بالذات . ومن الثابت القول ان نسبة التعليم الرسمي لم تتعد واحد الى عشرة (٧٦) بالنسبة الى التعليم الخاص الاجنبي والمحلي ، ان بعدد المدارس أو بعدد التلاميذ ، وذلك باعتراف المسؤول الفرنسي عن التعليم في دول الانتداب الفرنسي بالذات .

وبلغ تعداد المدارس الخاصة الاجنبية عام ١٩٢١ ، حسب احصائيات شغالي نفسه ، ٣٦٠ (٧٧) مدرسة ، منها ٩١ مدرسة لليسوعيين و ٤٧ للعازارين و ٣٥ لراهبات المحبة ، و ٣٤ لآخوات القلب الاقدس ، و ٢٤ للكوشيين و ١٦ لآخوات القديس يوسف ، و ١٦ لآخوات الوردية ، و ١٢ لراهبات الناصرة ، ومدرسة اللياتس الاسرائيلية ، و ٩ مدارس لآخوة المدارس المسيحية (الفريز) ، و ٩ للعائلة المقدسة اللبنانية و ٩ للمريميين وغيرها . أما عدد المدارس الطائفية المحلية وشبه الطائفية المجانية ، وتلك التي يديرها مواطنون محليون ، فبلغت ٨٠٣ مدارس عام ١٩٢١ كما يلي : ٢٥٨ مدرسة مارونية ، و ٢١٦ مدرسة للروم الكاثوليك و ١٥٤ للروم الاورثوذكس و ١٥٣ للسنة والشيعة والدروز و ٢٢ (٧٨) لطوائف أخرى .

تضاف الى هذه المدارس الخاصة أيضا ، مدارس انكليزية بلغ تعدادها ٢٢ مدرسة لهذا العام و ٥٧ (٧٩) مدرسة اميركية .

- (٧٥) هذا الاحصاء للسنة الأخيرة هو احصاء تقريبي ورد في
 — R' O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 193.
 — Chevalley — Foire-exposition de Beyrouth « L'enseignement en Syrie et au Liban » — P. 114.
 (٧٦) — Chevalley — Op. Cit. — P. 115-116.
 (٧٧) — Chevalley — Op. Cit. — P. 144.
 (٧٨) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.
 (٧٩)

وفي رأينا ان هذه الاحصائيات ليست دقيقة ، كما ان النشرة الاقتصادية التي تصدر كل ثلاثة اشهر عن جمعية التجار والصناعيين الفرنسيين في الشرق قد اعطت ارقاما مختلفة عن عام ١٩٢١ اذ قدرت عدد المدارس الخاصة في لبنان ٩٩٣ (٨٠) مدرسة في حين ان احصائيات شغالي ترفع هذا الرقم الى ١٢٤٢ مدرسة موزعة كما يلي : ٣٦٠ مدرسة خاصة اجنبية فرنسية ، ٢٢ مدرسة انكليزية ، ٥٧ مدرسة اميركية ، ٨٠٣ مدارس طائفية ومحلية ، ولعلّه يشير الى جميع المدارس الخاصة في سوريا ولبنان معا .

ومهما يكن من امر تلك الاحصائيات فان نسبة التعليم الرسمي لم تتعد فيها جميعا واحد الى عشرة كما المحنا سابقا . كما ان هناك بعض المدارس في المناطق خاصة المدارس الخاصة منها التي جرى احصاؤها من قبل الفرنسيين دون ان تذكر في جداول جمعية التجار والصناعيين . وعلى سبيل المثال ، فان جديدة مرجعيون وحدها كانت تحوي (٨١) مدارس للبنين والبنات تجمع بين جدرانها نحو من ٧٠٠ تلميذ وتلميذة خلال تلك الفترة .

بيد ان ما هو ثابت من تلك الاحصائيات ان اليسوعيين خاصة والتعليم الخاص باللغة الفرنسية عامة ، كانا على رأس المدارس في لبنان الكبير ، ان من حيث عدد المدارس او عدد التلاميذ ولم يكن امامهم من منافس جدي في هذا المجال . وبالرغم من بروز « الجمعية الطليانية للأعمال الخيرية والتثقيفية » في لبنان الكبير منذ ١٩٢٢ فان تلك الجمعية مرت بمرحلة ازدهار عابرة فقط . فقد كانت المدارس الإيطالية في لبنان قليلة العدد قبل الحرب العالمية الاولى وتوقفت عن العمل اثنان الحرب التركية - الإيطالية . ثم عادت الى الازدهار بعد الحرب منذ ١٩٢٢ - ١٩٢٣ بعد ان قامت بفتح مدارس جديدة لها في لبنان بفضل المساعدات السخية التي قدمتها « الرابطة الوطنية للبعثات الإيطالية في الشرق » . فانشأت لها مدرسة للبنين في طرابلس باشراف الآباء الكرمليين ، تلتها أخرى للبنات باشراف الأخوات الكرمليات ثم ثلاث مدارس دفعة واحدة للآباء مقابل ثلاث مدارس للأخوات اتباع القديس كرم توزعت على بشري والقيبات واهدن خلال عامي ١٩٢٢ - ١٩٢٣ (٨٢) وحدهما . كما قام الآباء الدومنيكان بفتح ثانوية للبنين في بيروت . واقامت مستشفى اتبعت بها مدرسة للتمريض في طرابلس للأخوات الكرمليات . وجرى فتح عدة مدارس للبنات في بيروت والمناطق باشراف أخوات الحبل بلا دنس . وهكذا توسع الوجود التعليمي للمدارس الإيطالية بسرعة خلال تلك الفترة بعد بروز الفاشيين على سدة الحكم في إيطاليا . الا ان تلك المدارس لن يصبح بمقدورها ان تنافس جديا مدارس الجزويت التي ارسست قواعدها هنا منذ زمن بعيد ، ولم يتجاوز عدد المدارس الإيطالية في عام ١٩٢٤ اكثر من ١٤ مدرسة بلغ تعداد تلامذتها ١١١ (٨٣) تلاميذ فقط .

- (٨٠) — Bulletin de C.I.F.L. — No. 1 — 1927 — P. 58.
(٨١) مجلة الحارس البروتية — السنة الاولى — العدد ٤ — تموز ١٩٢٣ — ص ١٧٦ .
(٨٢) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.
(٨٣) — H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.

بيد ان جميع الاحصائيات تشير الى ان التعليم سيتقلص منذ ١٩٢٣ ، ان في عدد المدارس او في عدد التلاميذ . فقد انخفض عدد المدارس الخاصة المحلية من طائفية وغيرها الى ٧٢٨ مدرسة عام ١٩٢٤ مقابل ٧٨٥ عام ١٩٢٣ (٨٤) . اما المدارس الخاصة عامة فقد انخفض تعدادها ، حسب احصائيات جمعية الصناعيين من ٩٩٣ مدرسة عام ١٩٢١ الى ٩٩٠ عام ١٩٢٢ الى ٩٣٥ عام ١٩٢٣ ، الى ٩٨٥ عام ١٩٢٤ ، الى ٨٩٥ عام ١٩٢٥ ثم ارتفع الى ٩٨٠ مدرسة في عام ١٩٢٧ (٨٥) في لبنان وحده مقابل ٦٣٧ مدرسة خاصة في جميع الدويلات السورية .

والمدارس الرسمية انخفض تعدادها كذلك من ١١٦ (٨٦) مدرسة عام ١٩٢٣ الى ١١٥ مدرسة عام ١٩٢٤ الى ١١٣ مدرسة عام ١٩٢٥ ثم ارتفع الى ١٤٤ مدرسة حتى عام ١٩٢٧ مقابل ٤٣٥ مدرسة رسمية في الدويلات السورية .

هذا الانخفاض المستمر في تعداد المدارس كان يرافقه هبوط عمودي في تعداد التلاميذ في القطاعين الخاص والعام . فقد هبط عدد التلاميذ في المدارس الخاصة عامة من ٥٥٤١٨٢ عام ١٩٢٣ الى ٥١٤٥٥٣ عام ١٩٢٤ في المدارس التي تستخدم اللغة الفرنسية . ويشير تقرير المفوضية العليا الى ان المدارس التي كانت تدرس باللغات الأخرى ظلت محتفظة بتعداد مدارسها لكن دون زيادة بين أعوام ١٩٢١ الى ١٩٢٥ . فكانت المدارس التي تعلم الانكليزية ٧٩ مدرسة ، منها ٢٢ انكليزية و ٥٧ اميركية بلغ تعداد تلاميذها ١٤١٥٢ للمدارس الانكليزية مقابل ٣٤١٣٢ تلميذا وتلميذة للأميركية منها بالإضافة الى المدارس الإيطالية الأربعة عشر التي بلغ تعداد تلامذتها ١١١ (٨٧) تلاميذ .

معركة العلمانية نصر آخر لليسوعيين

ان معركة العلمانية التي بدأها الجنرال ساراي ، ساعدت على ارتفاع عدد المدارس الرسمية عام ١٩٢٦ الى ١٤٤ مدرسة أي بزيادة ٣١ مدرسة في عام واحد . ونسبة تجاوزت ٢٠٪ دفعة واحدة . وقام كايلا ، حاكم لبنان الكبير عام ١٩٢٥ ، يعلن في خطاب له في ١٦ آذار في مدينة زحلة ، عن ضرورة العلمانية في التعليم . وجاء في خطابه « انني اتني على المدرسة العلمانية لأنها تخرج شبانا ليس فيهم تلك الروح المعروفة بل يعملون بروح المدرسة وبتعاليمها التي لا تفضل فريقا من أبناء الوطن على آخر ، فهي اذا روح المدرسة الوطنية . اتنا سنوجد هذه المدرسة لأننا لا نشغل في الظلام بل على ملأ الناس لكي يتحرر التعليم من كل القيود التي عاقت

- (٨٤) — H. C. — Ibidem.
(٨٥) — Bulletin de C.I.F.L. — Op. Cit. — P. 58.
(٨٦) — H. C. — Rapport sur 1925 — Index 4, et R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français... » — P. 195.
(٨٧) — Rapport sur 1925 — Op. Cit. — Index 4.

(اعاقف - م.ض) لبنان الكبير حتى الآن (٨٨) وكان رد الجزويت عنيفا جدا ضد هذه العلمانية التي ستهدد وجودهم بالذات في هذه المنطقة وأثيرت جريبتهم «البشير» تصدر سلسلة مقالات ضد العلمانية . وكانت أبرز عناوينها «العلمانيون ليس لهم رب ولا دين ولا خلق» «يخرضون على الفتنة» و «محاربة الدين باسم العلمانية» «المدارس العلمانية اللادينية هل تحترم الأديان؟» «حكومة الولايات المتحدة ما أبعدتها عن العلمانية» «فرنسا هل تؤيد كايلا؟» (٨٩) الخ ...

ومن جملة ما كتبت «البشير» في تلك المقالات ردا على كايلا «- أولا ان المدارس العلمانية هي منافية لكل الأديان . ثانيا : انها منافية للأداب وجمالية للولايات والبلايا على المجتمع الانساني . ولا نشك أبدا ان اللبنانيين ينضمون كتلة واحدة بعد نشر هذا المقال لمقاومة المدارس العلمانية التي لا إله لها دفاعا عن دينهم وآدابهم» (٩٠). لقد عرف الجزويت كيف يقودون المعركة ضد العلمانية ، والتي لم تكن تنفصل آنذاك وحتى اليوم ، عن تشجيع المدارس الخاصة على حساب المدارس الرسمية في حقل التعليم ، وذلك باسم الدين ، في زمن كان التعصب الديني فيه يبلغ اقصى مآله . وقام اليمين الفرنسي بجميع أجنحته بضغط على حكومة باريس لإجبار الجنرال ساراي على مصالححة الآباء اليسوعيين الذين كانوا أكبر قوة تدعم التفوذ الفرنسي في هذا المجال .

وقد مهد اليسوعيون لحملتهم تلك منذ معرفتهم الاولى بتعيين الجنرال ساراي في المفوضية العليا ببيروت . ويقول لامازير ، معبرا بصدق عن تلك الفترة «عندما انتشر خبر استدعاء ويفسان الى باريس وعرف اسم خلفه ساراي في اوساط المسيحيين ، خاصة اليسوعيين في لبنان الكبير ، اعتبر تعيينه تحدا لهم . وانطلقت صحف اليسوعيين خاصة ، والموارنة عامة ، تكتب المقالات وتنتشر الأنباء ذات الطابع العدائي الواضح ضد ساراي . ووجهت الرسائل والعرائض والبرقيات الى كل من رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس الجمهورية ، في فرنسا ، كذلك الى الوزراء والنواب والشخصيات البارزة ، مطالبين بتبديل المفوض السامي الجديد قبل أن تطأ قدمه ارض لبنان» (٩١) .

ان الهجوم العنيف على الجنرال ساراي ومن ثم على العلمانية فيما بعد لم يكن يهدف الا وضع العراقيل امام فك الارتباط بين اليسوعيين في لبنان والسياسة الفرنسية فيه ، ايا كان الحاكم في باريس . فالمعركة هناك ارتدت طابعا واضح

(٨٨) Correspondance d'Orient - No. 329 - Mai 1925 - P.2 05.

وقد نقلت الخطاب ايضا جريدة «الاحرار» البيروتية في عددها ٢٩٣ الصادر في ١٧ آذار

١٩٢٥ .

(٨٩) بدأت حملة «البشير» ضد العلمانية منذ العدد ٣٣١٥ الصادر في ١٨ نيسان ١٩٢٥ ، وفي الاعداد اللاحقة .

(٩٠) «البشير» العدد ٣٣١٥ - تاريخ ١٨ نيسان ١٩٢٥ .
(٩١) La Mazière «Partant pour la Syrie» - P. 107.

المعالم بين اليمين وكارتيل اليسار بينما معركة اليسوعيين هنا ارتدت طابعا طائفيا واضحا وجعلت حكومة الكارتيل امام خطر فقدان ركيزة اساسية من ركائز فرنسا في الشرق الاوسط ان استمر ساراي في عدائه للجزويت وفي معركة العلمانية . لقد اكلت لفرنسا المنتدبة ، فرنسا اليمين وفرنسا الكارتيل ، فائدة كبرى من تأييد الآباء اليسوعيين في لبنان . ولم يكن من مصلحتها قط تقويض احدى قواعد وجوده في المنطقة لوضاء العلمانية الجنرال ساراي التي وجهها ضد رجال الدين ، خاصة الموارنة منهم ، في بلد متعدد الأديان وسريع الانفعالات الطائفية . ولقد عرف اليسوعيون نقطة الضعف تلك في جبهة العلمانية ، فانبشروا بصورون العلمانية على انها حرب حقيقة ضد الدين في لبنان الكبير بشكل عام ، وضد الموارنة والكاثوليك بشكل خاص ، واستطاعوا بذلك ان يؤلبوا السكان ضد ساراي . وتضافرت كل القوى ، الداخلية والخارجية ضد المفوض السامي العلماني ، ولم يسائده سوى عدد قليل من اللبنانيين والسوريين ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك تراجع الجنرال ساراي ، وذهابه الى بكركي معتذرا يوم اطلق عبارته المشهورة «ان باريس تستأهل قداسا» . الا ان تراجع الجنرال «الساراي» كان يعني الكثير على الصعيد الداخلي ، اذ ثبتت هيمنة الآباء اليسوعيين على التعليم في لبنان ، فاستمروا الأكثر عددا في المدارس ونسبة التلاميذ ، وفرضوا هيمنتهم المطلقة على الجهاز التربوي اللبناني برمته خارج أسوار الجامعة الأميركية فقط ، وأشرفوا على مناهج التدريس ، ونظام الامتحانات ، ونوعية الشهادات ، ووضعوا التعليم الرسمي بحالة تبعية مطلقة للتعليم الخاص . هذه التبعية ستستمر طيلة أيام الانتداب الفرنسي ، ومرحلة واسعة من الاستقلال حتى يومنا هذا .

وهكذا سيطر الآباء اليسوعيون ، حملة لواء التعليم الخاص باللغة الفرنسية على جهاز التعليم الابتدائي والثانوي في لبنان الكبير . وبالرغم من وجود بعض المؤسسات الاحبية والخاصة المحلية على جنباتهم ، فقد هيمنوا ، دون منازع جدي في هذا المجال ، على التعليم الخاص والعام هنا ، وسدوا آفاق التطور بوجه التعليم الرسمي طيلة عهد الانتداب .

النتائج الاجتماعية لهيمنة التعليم الخاص في لبنان

ان تبعية التعليم الرسمي للتعليم الخاص طوال مرحلة الانتداب الفرنسي ، جعلت تعليم الدولة في حالة من الركود والانحطاط المستمر . فالمدرسة الرسمية في القرى ، خاصة في المناطق التي ألحقت بحيل لبنان منذ ١٩٢٥ ، لم تختلف بشيء عن مدارس الاتراك السابقة (٩٢) ، لا في طريقة تدريسها ولا في جهازها التعليمي ولا في مناهج التلاميذ الذين كانوا يؤمنونها . وبقي الشكل الأكثر انتشارا : معلم واحد لأكثر من خمسين تلميذا . والطريقة المتبعة : العصا الطويلة والتكرار

(٩٢) مقبولة شلق «التعليم في لبنان قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها» - مجلة الطريق - المجلد الاول - الجزء الرابع - ص ١٠ - ١١ .

الرتيب للدروس ، والحفظ عن ظهر قلب ، بالإضافة الى بعض مبادئ علم الحساب . وقد اعترف تقرير فرنسا المنتدبة لعام ١٩٢٤ ، المرسل الى عصبة الأمم ، بهذه الحقيقة صراحة اذ قال « ان المدارس الرسمية في لبنان الكبير لم تتغلب بعد على مناهجها القديمة وأوضاعها المتردية وطرائق تدريسها السيئة الناتجة عن فقدان معلمين مختصين » (٩٢) .

وجاء فرض اللغة الفرنسية في المدارس الرسمية ، مكان اللغة التركية السابقة ، بضيف عاملا معيقا آخر في وجه تطور هذه المدارس ، بسبب فقدان الجهاز التعليمي بصورة تكاد تكون تامة لتدريس هذه اللغة من جهة ، وبسبب العقبات التي فرضتها هذه اللغة في وجه طلاب المدارس الرسمية . صحيح ان اللغتين ، العربية والفرنسية (٩٤) ، اعتبرتا رسميتين في المدارس الرسمية واجباريتين ، فان الفرنسية كانت لغة تدريس معظم المواد تقريبا في تلك المدارس ، بالإضافة الى كونها لغة التدريس الوحيدة في المدارس الخاصة التي تدرس بالفرنسية . وكانت الامتحانات الرسمية تجري طبقا لمنهج المدارس الخاصة بالذات . لهذا فرضت مواد اللغة الفرنسية والرياضيات والعلوم وأحيانا التاريخ والجغرافيا والحساب في المدارس الرسمية باللغة الفرنسية ، في حين كانت اللغة العربية تدرس « كلفة حية أولى » (٩٥) في المدارس الخاصة ، الأجنبية والطائفية ، كما قامت المدارس الانكليزية والاطالية والالمانية وغيرها في لبنان باستخدام لغاتها أولا في تعليم تلامذتها ، وتدرس اللغة العربية والفرنسية كلفتين حيتين . وهذا ما جعل « العروبة اللغوية » تقتصر على بعض المدارس الرسمية السيئة التعليم وعدد قليل جدا من المدارس الخاصة المحلية التي اهتمت بتدريس تلك اللغة . فحلت اللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والانكليزية ، وهما حكرا على أبناء الطبقات الغنية والميسورة أساسا ، محل اللغة العربية الام التي أصبحت تدرس « كلفة حية » فقط في المدارس الخاصة ، ونشأ عن ذلك تبعية مطلقة للثقافات الأجنبية التي تدرسها تلك اللغات مع احتقار تام للغة العربية ولكل التراث المكتوب فيها .

والنتيجة الثانية ، ان التعليم الرسمي انتشر ببطء في المناطق الفقيرة فقط ، وكان جميع الذين اقبلوا عليه من أبناء الطبقات الكادحة عامة ، والمسلمين منهم بشكل خاص . فمن اصل ٥٤٩٩ تلميذا عام ١٩٢٤ ، موزعين على ٩١ مدرسة ابتدائية رسمية ، وباعتراف تقارير المفوضية العليا بالذات ، كان عدد المسلمين منهم ٤٤١٦ تلميذا مقابل ١٠٨٣ تلميذا مسيحيا . ومن اصل ٢٥٧٩ بنتا في العام نفسه كانت نسبة المسلمات منهن ٢٣٢٣ تلميذة مقابل ٢٥٦ تلميذة مسيحية فقط . في حين ان النسبة ستكون معكوسة تماما في المدارس الخاصة . فمن اصل عدد التلاميذ لعام

(٩٢) H. C. « Rapport sur l'année 1924 » — P. 19.
(٩٣) راجع القطع الهام جدا الذي كتبه الدكتور جورج حنا في « من الاحتلال الى الاستقلال » حول دور اللغة الأجنبية في مسح الثقافة الوطنية والشعور القومي في لبنان — ص ٣٤ — ٣٥ .
(٩٤) H.C. « Rapport sur 1924 » — P. 12.

١٩٢٤ والبالغ ٥٥٣٥٨ تلميذا وتلميذة (٩٦) ، ينتشرون في ٧٢٢ مدرسة تدرس باللغة الفرنسية ، لم يكن بينهم سوى ٧٨٣٩ تلميذا وتلميذة من السنة و ١٠١٥ من الدروز و ٩٦ من الشيعة مقابل ٤٦٤٠٨ من المسيحيين وعدد ضئيل من اليهود . يضاف الى ذلك ، ان تلامذة المدارس الأجنبية ، غير الفرنسية ، كانوا يبلغون ٦١٧٣ تلميذا وتلميذة عام ١٩٢٤ ، ويتوزعون على ٨٨ مدرسة . وكانت نسبة السنة فيهم ٨١٦ و ٤١٣ درزيا ودرزية ، و ٦٤ من الشيعة مقابل ٤٨٦٠ من الطوائف المسيحية وبعض اليهود .

ومن اصل ٢٥٧٤٥ بنتا موزعة على ٢٦٣ مدرسة فرنسية ومحلية تدرس الفرنسية عام ١٩٢٤ ، كانت نسبة المسيحيات منهن ٢٣٦٨٢ مقابل ٢٠٦٣ مسلمة موزعات كما يلي : ١٦٩١ سنية ، و ٣٠٩ درزية ، و ٦٣ شيعية (٩٧) . وهكذا يتبدى لنا ان التعليم الخاص قد أوجد اتساعا في شقة التحصيل الثقافي بين الطوائف اللبنانية بالذات ، واضحا اداة للتصنيف الطبقي لصالح المسيحيين دون المسلمين . فالتعليم الخاص في لبنان بقي محصورا ضمن الطوائف المسيحية بشكل عام ، والأغنياء منهم بشكل خاص . ودلت احصائيات رسمية أجريت عام ١٩٠٣ ، ان نسبة الاميين في البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي كانت تبلغ ٤٠٪ في لبنان ، و ٧٧٪ في سوريا ، و ٨٥٪ في بلاد العلويين ، و ٩٣٪ في جبل الدروز (٩٨) . فالتعليم الخاص جعل لبنان يتبوأ المركز الاول بين تلك الدويلات ، الا ان نسبة الامية ظلت مرتفعة جدا فيه ، خاصة في صفوف الطبقات الفقيرة .

وتوزعت تلك النسب على الطوائف في عام ١٩٣٥ كما يلي : ٨٣٪ بين الشيعة ، و ٦٦٪ بين السنة ، و ٥٣٪ بين الدروز ، و ٥٣٪ بين الارثوذكس ، و ٤٨٪ بين الموارنة ، و ٣٨٪ بين الكاثوليك (٩٩) . وحسب احصاء رسمي للاميين في لبنان الكبير والذي يرقى الى عام ١٩٢٢ ، توزعت نسبة الاميين فيه حسب المناطق اللبنانية على الشكل التالي :

المحافظة	عدد الاميين	النسبة المئوية من السكان
بيروت	٤٢٠٦٨٢	٣٧٠٦٢٪
جبل لبنان	٩١٤٦٤٤	٤٠٠٣٪
لبنان الشمالي	٨٩٤٩٣٤	٥١٠٤١٪
لبنان الجنوبي	٨١٤٢٩٤	٤٨٪
البقاع	٦٣٠٤٣٣	٥٣٠٧٤٪ (١٠٠)

(٩٦) H.C. « Rapport sur 1925 » — Index 4.
(٩٧) H.C. « Rapport sur 1925 » — Index 4.
(٩٨) جريدة « ضروت العيان » — المصدد الاول — الصادر في ٧ آذار ١٩٣٠ — الصفحة الرابعة .
(٩٩) L'Orient (Journal) — 24 Janvier 1935 — Voir aussi : Hani Fayad.
« The effects of sectarianism... » — Thesis — P. 33.
(١٠٠) سعيد حماده — « النظام النقدي » ص ١١ .

نتيجة أخرى تشير إليها هنا ، ان فرنسا المنتدبة ، بتأييدها لقطاع التعليم الخاص دون سواه ، خاصة ما يعود منه للأبناء اليسوعيين ، شجعت المؤسسات التعليمية ، الأجنبية منها والخاصة المحلية ، المدنية والدينية ، كي تلعب دور صاحب المؤسسة في معاملته لعماله . فقد عمدت تلك المؤسسات التعليمية الى استغلال اساندها بصورة مباشرة ، وهو استغلال لم يتوقف عن الاتساع . ففي غياب أي تشريع قانوني يضمن عمل أولئك الاساندة ، وفي غياب أية رقابة فعلية من جانب الدولة على تلك المدارس ، كانت أجور الاساندة متدنية جدا ، كما كانوا عرضة للتسريح الكيفي والطردي .

وباعتراف الفرنسيين أنفسهم ، فإن المدرس في تلك المؤسسات الخاصة لم يكن يتقاضى أجراً يساوي الأجر الذي تقدمه له الدولة نفسها لقاء عمل مساو لعمل زميله في مدارس الدولة ، ان لم يكن أكثر ارجاها في معظم الحالات . وقد أورد هذه الحقيقة ، السيد شفاي ، المسؤول العام عن التعليم في لبنان الكبير حين قال : « ان مهلمي المدارس الخاصة يتقاضون أجوراً أقل من أجور مهلمي المدارس الرسمية . فمرتباتهم الشهرية تتراوح ما بين ٣ و ١٠ ليرات لبنانية - سورية ، بينما تتراوح مرتب المعلم في المدارس الرسمية ما بين ٧ و ٢٠ ليرة » (١٠١) . وهذا الوضع الشاذ والبالغ السوء ، الذي أرسيت قواعده الادارة الفرنسية في لبنان الكبير ، والذي يطال مجموعة كبيرة من العاملين في حقل التعليم الخاص ، سيستمر طيلة فترة الانتداب وبعده . لقد مارس أصحاب تلك المدارس ، مدنيون ودينيون ، دور أصحاب المصانع وأرباب الأعمال ، فقدت المدرسة مع هذا الدور البشع لأصحابها ، طابعها التنقيضي الحضاري ، لتنزوي في الجانب التجاري القائم على الاستغلال وامتصاص خيرات القوى المنتجة الحقيقية في المجتمع .

بعض الاستنتاجات

لا ريب ان التعليم الخاص أدى خدمات كبيرة في مجال التثقيف في لبنان ووضع الشبيبة اللبنانية وسط حركة ثقافية واسعة بالنسبة لسكان المنطقة بأسرها . بيد ان هذا التعليم بالذات كان أداة للتمييز السياسي والثقافي بين أبناء البلد الواحد . « فالتربية في لبنان - كما يستنتج بنوا أبو صوان منذ ١٩٢٤ - كادت ان تكون فرنسية تماما . واذا كانت اللغة العربية هي اللغة الاساسية للبنان ، فإن اللغة الفرنسية كانت تفوقها انتشارا في دوائر المثقفين . تلك الدوائر بالذات التي ستقود الشعب اللبناني بأسره ، مدعومة بدوائر الانتداب الفرنسي » (١٠٢) .

والجامعتان الكبيرتان في بيروت اليسوعية والاميركية ، لم تعودا بأية فائدة على صعيد الطبقات الفقيرة وأبنائها ، بل على العكس من ذلك ، كرستا وجودهما لخدمة

— Chevalley « L'enseignement en Syrie... » Op. Cit. — P. 114. (١٠١)

— B. Aboussouan « Le problème syrien ... » P. 173-174. (١٠٢)

أبناء الاغنياء من اللبنانيين خاصة ، والغرب عامة ، وقامت جامعة القديس يوسف بدعم ادارة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان بالعديد من الموظفين على مختلف المستويات ، وبعض الاطباء والمهندسين من أبناء البورجوازية اللبنانية والعائلات الاقطاعية . اما الجامعة الاميركية فساهمت بقسط كبير في الدور المماثل بالنسبة للعراق وفلسطين وشرقي الأردن وحتى مصر . وتدل الحقائق ١٩٢٧-١٩٢٨ ان تعداد الاساندة في الجامعة الاميركية قد بلغ ٢١٤ استاذاً بينهم ٨٤ استاذاً مشرقياً فقط . وبلغ تعداد الطلاب فيها ، لنفس العام ، ١١١٧ طالباً بينهم ٣٩٩ فقط من جميع الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي و ٤١٢ فلسطينياً و ١٤١ أرمينيا و ١٤٢ عراقياً و ٨٥ مصرياً و ٤٥ فارسياً و ٢٨ يونانياً و ٦٤ طالباً من جنسيات متفرقة . اما الجامعة السورية فقد اقتصر عدد طلابها ذلك العام ، بسبب الخطة الفرنسية الرامية الى ابقائها ضمن جدران كليتي الحقوق والطب ، على ٣٩٤ طالباً (١٠٤) منهم ٢٤٦ في كلية الحقوق و ١٠٠ طالب في كلية الطب و ١٦ طالباً في فرع الصيدلة و ٩ طلاب فقط في فرع طب الاسنان ، و ٢٣ فتاة في مدرسة التمريض .

اما التعليم الرسمي فاستمر على ضعفه ولم يتجاوز عدد المدارس الرسمية عام ١٩٢٧ أكثر من ٥٧٩ مدرسة في جميع الدويلات السورية ولبنان مقابل ١٥١٧ مدرسة خاصة فيها ، يتركز منها ٩٨٠ مدرسة في لبنان وحده ولم يقبل على هذه المدارس الرسمية سوى أبناء الطبقات الأكثر فقراً وحرماناً . وقد اتسم التعليم الرسمي بالعجز الدائم في ميزانيته وملاكه التعليمي وأبنيته وأدواته التربوية الضرورية .

فحتى عام ١٩٢٧ لم تتجاوز حصة التعليم ٨/١٠٥ فقط من الميزانية العامة للدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . وهذه الحصة تتوزع بين التعليم الخاص والتعليم الرسمي في حين استمرت ميزانية قوى الامن والبوليس والامن العام تتجاوز ثلاثة اضعاف ميزانية التعليم في سوريا ولبنان . وكانت النتائج الملموسة لهذه السياسة تنعكس بارتفاع نسبة الجهل والامية فيهما والتي بقيت ، حسب اعتراف الفرنسيين أنفسهم ، تتجاوز نسبة ٨٥/١٠٦ من سكان البلدين . والاميون هنا ليسوا أبناء الاغنياء والميسورين على كل حال . فقد كان التعليم الخاص ، المدعوم من ادارة الانتداب الفرنسي او حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، او الواقع على كاهل الميسورين المحليين ، يستأثر بالغالبية الساحقة من تعداد الطلاب والتلاميذ من هذه الطبقة . لقد عرفت الفئات الفنية والميسورة في لبنان خاصة ، وفي الوطن والمهجر ، كيف تستفيد من جميع ابواب التعليم التي فتحت أمام أبنائها . فالاسر الفنية تلك ، مهما كانت ميولها وآراؤها ، ولقتها ، كانت تجد على الدوام المؤسسة التعليمية التي تروق لها ، وباللغة التي ترغب تعليمها لأبنائها . فأمامها الاختيار بين التعليم بالفرنسية والانكليزية والالمانية والاطالية وغيرها . وأمامها الاختيار الواسع بين مدارس الآباء

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat Français » P. 188. (١٠٣)

— Ibid. P. 191. (١٠٤)

— R. O'Zoux « Etats du Levant... » P. 154. (١٠٥)

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 5. (١٠٦)

اليسوعيين ، والمدارس البعثات العلمانية الفرنسية ، ومدارس القريز ، والاليانس
اليهودية ، ومدارس زاهبات الناصرة ، والمدارس البروتستانتية ، والمدارس الاميركية
والايطالية والانكليزية والالمانية ... الخ ، فهل كان غريباً بعد هذا ، ان تجد معظم
الدول الاجنبية من يتقن لغاتها في لبنان ؟
ان سياسة الادارة الانتدابية ، بتشجيع القطاع التعليمي الخاص (١٠٧) على حساب
التعليم الرسمي اعطت للتعليم في لبنان ، ومنذ ذلك التاريخ ، وجهاً طبقياً واضحاً .
فاضحت المدرسة اللبنانية أداة تمييز طائفي ، ووظيفي ، اجتماعي ، اقليمي وطبقي .
ومهما قيل في محاسن ذلك التعليم الخاص ، فان دوراً مشوهاً اعطي للمدرسة
اللبنانية منذ ذلك التاريخ واستمر طيلة عهد الانتداب ، وفي ما بعد الاستقلال .

(١٠٧) يشير تقرير ١٩٢٥ مראה الى ان ادارة الانتداب كانت تحول ٩٩٧ مدرسة خاصة في دول الانتداب
الفرنسي .

باب الثالث
الريف اللبنانية في
مطلع عهد الانتداب

□ الفصل الأول □
سياسة الاستدباب تدعيم
مركز كبار الاقطاعيين
في الشريف اللبناني □

النظام العقاري التركي المطبق في لبنان

كانت القوانين العقارية المطبقة في جميع المناطق اللبنانية حتى الحرب العالمية الاولى تجد نصوصها في الشرع الاسلامي الذي بقي ساري المفعول حتى ذلك الحين وفي الفرمانات او الارادات السلطانية التي كانت تصدر تباعا وبرزها « قانون الاراضي » الصادر في ٢١ نيسان ١٨٥٨ والمعروف « بالملحة العثمانية لعام ١٢٧٤ هجرية » . وبموجب هذا القانون اعتبرت الارض ملكا كليا أو جزئيا للدولة ، وحق السيادة عليها يرجع للسلطان دون سواه . واشتمل القانون على سبع فئات من الاراضي ، مقسمة بدورها الى فروع أو فئات فرعية :
١ - الاراضي الملك وهي مقسمة الى ثلاث فئات فرعية : أ - ملكية تامة (داخل المدن والقرى) . ب - ملكية عشرية اي خاضعة للعشر . ج - ملكية خراجية اي خاضعة للخراج .

٢ - الاراضي الوقف أو الممتلكات الموقوفة . وقد فرض عليها عدم التصرف بها كليا أو جزئيا الا بأمر من السلطان أو من ينوب عنه .

- ٣ - الاراضي الأميرية : اي التي تخص الدولة بدون مشاركة فيها .
٤ - الاراضي المتروكة والاراضي المحمية واعتبرت أيضا من الاملاك العامة .
٥ - الاراضي المرفقة أو ذات الملكية المشتركة والجماعية .
٦ - الاراضي الميتة أو الموات اي تلك التي لم يعرف قط انها امتلكت في السابق .
٧ - الاراضي المباحة اي التي وضعت خارج نطاق الاتجار بها (١) .
وكانت تحديدات هذه الانواع غامضة ومشوشة بحيث لم يكن بالإمكان تحديد الملكية بشكل ثابت ودقيق . وعلى سبيل المثال ، فقد جاء في المادة ٢٠٦ من « الملحة العثمانية » تعريف الاراضي الموات كما يلي : « الاراضي الموات هي الاراضي الموحشة

(١) — Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie » — Thèse P. 148.

والاماكن الحجرية الوعرة المسالك ، والمراعي التي تنبت فيها الحشائش قصيرة جدا ، والتي ليست ملكا لاحد يستخدمها سكان النواحي والقرى المجاورة ، والتي هي بعيدة عن تلك الاماكن بحيث لا يمكن سماع رجل ذي صوت جهوري من اطراف الاماكن المسكونة ... (٢٧) .

الملكية العقارية في لبنان حتى الحرب العالمية الاولى

١ - في الجبل

كان جبل لبنان استثناء فريدا في شكل الملكية الذي كان سائدا فيه حيث كانت معظم الاراضي تقريبا تعتبر ملكا خاصا ولاصحابها حق الاستغلال والتصرف والبيع والرهن . وقد تميزت هذه الملكية في الجبل بوضوح كلي عن سائر المناطق اللبنانية خاصة بعد ثورة الفلاحين هناك .

فالمحاصيل الزراعية الضئيلة في الجبل كانت من الشح بحيث لم تكن الارض تحتل العبد المزدوج للمالك من جهة وللزادج المزارع او المحاصيل او المزارع من جهة ثانية . فالارض الزراعية في الجبل هي من صنع الفلاح « ان ارض الجبل جذباء لكن فلاحها يتمتع بقسط كبير من الحرية عليها ، هذا الفلاح منعاه فقره الاستغلال في جبله » (٢٨) . لكنه بقي في الواقع خاضعا لاستغلال بشع من جانب المقاتعة المسيطرين وراثيا على اراضي الجبل وذلك على حساب فقر الفلاحين . وكانت الهوة تزداد عمقا بينهم وبين اسياذ الاراضي (٢٩) .

غير ان الفئات الفلاحية الائمة الذكر كانت تنتشر في الجبل اللبناني بدرجات متفاوتة وكانت تنحصر في خمس فئات فقط من الناحية القانونية : الاراضي الاميرية ، الاراضي الملك ، املاك الدولة او الدومين كما سماها الفرنسيون ، والاراضي المينة او المباحة ، وارض الوقف . اما الاراضي المشاعية فكانت اقل انتشارا منها في سائر المناطق اللبنانية .

وكانت الملكية الزراعية الصغيرة اكثر الانواع انتشارا نظرا لوضع الجبل الجغرافي الذي جعل معظم اراضيها غير صالحة للزراعة او للاستصلاح الزراعي بالنسبة لادوات ذلك العصر ، وقد لعبت ثورة طانيوس شاهين دورا أساسيا في تفتيت سيطرة المقاتعة في الجبل والقباء ما كان يدعى « بحقوق المقاتعة » ، كما لعبت الهجرة الكثيفة الى بيروت والخارج دورا هاما بانتقال قسم من المقاتعة الى بيروت لتعاطي الوساطة التجارية مما اضطرهم الى تاجر او بيع املاكهم في الجبل . ونظرا للهبوط المستمر في اعداد الفلاحين المقيمين هناك ، أصبح بمقدور هؤلاء الاستفادة من الوضع الناتج عن الثورة الفلاحية من جهة ، وقلة الايدي العاملة

في الزراعة بسبب الهجرة من جهة اخرى ، وحاجة المقاتعة الى الاموال لتعاطي التجارة وغيرها لكي يحسنوا من ظروفهم المادية ويقتنوا اجزاء واسعة من اراضي الملاكين المقاتعة القدامى .

غير ان القدر اليسير من الملكية التي جمعها الفلاحون الصغار في الجبل لم يكن بالامكان مقارنتها مع ما جمعه الكنيسة المارونية لنفس الاسباب السابقة وغيرها . « فممن منتصف القرن التاسع عشر تحولت الكنيسة المارونية الى اكبر قوة عقارية في الجبل » (٣٠) . فكانت دافعا أساسيا من دوافع الثورة الفلاحية ضد تسلط المقاتعة وكانت المستفيد الاكبر من تفجير تلك الثورة بعد ان حولتها لصالح ملكيتها الكبيرة . فقد استغلت تلك الكنيسة ظروف الثورة وما تبعها ، استغلالا واسعا بغية السيطرة على الجزء الكبير من الاراضي المسماة بالخالية او الموات والتي كانت تزداد باستمرار بسبب الهجرة والوقاة والتزويج والضرائب حتى ان الارض الموقوفة في مطلع القرن العشرين أصبحت تحجب اكثر من ثلث (٣١) الاراضي الزراعية والقابلة للزراعة في الجبل . هذه الارض التي حرمت ملكيتها على الفلاحين كانت ممنوعة ايضا على التجارة بحجة الوقف .

ان الاراضي الموقوفة او الوقف كانت في اساس الملكية العقارية الكبيرة للكنيسة المارونية في جبل لبنان (٣٢) . تلك الملكية التي ما فتئت تزداد تباعا بفضل « الهبات » التي كان يقدمها الفلاحون لها تهربا من دفع الضرائب . غير ان تلك « الهبات » حملت معها اسلوبا استغلاليا بشعا لا يعادله الا اساليب رجال الاقطاع في باقي المناطق . فقد قامت الكنيسة باستغلال هؤلاء الفلاحين مباشرة كمالك فعلي لتلك الاراضي . وساهم هذا الشكل من الملكية والاستغلال في تدهور وضع الفلاحين المادي والاقتصادي وترسخت دعائم الملكية العقارية الدينية في الجبل ولا زالت مستمرة حتى اليوم بعد ان حرمت آلاف الفلاحين من الملكية الخاصة والعمل الحر . فالكنيسة المارونية لم تفتن ملكيتها الزراعية على حساب الاراضي الموات والهبات الفلاحية الصغيرة بل وايضا على حساب ضرب أسر المقاتعة ، اسياذ الجبل السابقين ، والسيطرة على اجزاء كبيرة من ملكياتهم . وحتى اليوم لا تزال جميع الملكيات الموقوفة ، كالاديرة والكنائس وما جاورها ، تقوم على اراض كانت ملكا لتلك الاسر القديمة . ويكفي ان نذكر كمثال خلاصة الدعوى الشهيرة التي تقدم بها آل صفيير ضد بكركي . فتحت عنوان « الاعتراف بملكية دير روميه للبطريركية المارونية » كتبت صحيفة « الاوربان - لوجور » تقول « أصدرت محكمة الاستئناف في بيروت ، برئاسة السيد ف. خداد ، حكمها في الدعوى العقارية التي تنازع عليها أسرة صفيير مع البطريركية المارونية حول ملكية اراض في كسروان تفوق قيمتها ٢٠ مليون ليرة لبنانية . ان هذه القضية التي تستمر منذ عام ١٩٥٩ ، هي كمثيلاتها ، معقدة الى اقصى حد .

(٥) - D. Chevallier « La société du Mont-Liban... » — P. 256.
et T. Touma « Paysans et institutions féodales » — P. 528 et s.
(٦) - Jouplain « La question du Liban » — P. 564.
(٧) - T. Touma « Paysans et institutions féodales... » — T. II — P. 538 et s.

(٢) - Cité par Joseph Chaour « Le régime foncier en Syrie » — Thèse. P. 76.
(٣) - J. Weulersse « Les pays des Allaouites » — P. 21.
(٤) - Elie Safa « L'émigration libanaise » — P. 170.

وقد أقرت المحكمة حق الملكية ، المسجلة في المساحة كهبات لمدرسة دير روميه من آل صغير ، إلى الطائفة المارونية وبالتالي إلى البطركية المارونية بصفة وقف خيري ، وقد رد طلب أسرة آل صغير القاضي بالاعتراف لهم بملكية الأرض مع الاعتراف بحق الانتفاع بها للأكليروس الماروني (٨) .

ب - في المناطق اللبنانية الأخرى

إن كانت « الهبات » و « الأراضي الخالية » هي الأساس في توسيع دائرة الملكية العقارية الكبيرة للكنيسة المارونية في الجبل ، على حساب ضرب امتيازات المقاطعية القدامى وخراب الفلاحين ، ففي لبنان المضموم ، كانت أساليب امتلاك الأراضي الواسعة متنوعة جدا : فمنها ما كان على شكل هبات سلطانية تمنح لكبار الموظفين وأرباب الحظوة والأقطاعيين المحليين ، ومنها ما تم الاستيلاء عليه بالقوة وبحروب بين الأقطاعيين بالذات ، ومنها ما تم برشوة الموظفين الإتراك واستصدار فرمانات بتملك أراضي الدولة . . الخ . لكن السمة البارزة لتلك المناطق أن نظام الملكية العقارية فيها كان يتركز أساسا على سيطرة الملكية الكبيرة لا بل الكبيرة جدا خاصة في سهول عكار والبقاع والبقية وتشتت عن ذلك ملكية فردية أو عائلية تضم الواحدة منها عشرات القرى قد تبلغ الثلاثين (٩) أحيانا . فقد حصل آل مرعب في عكار ، منذ القرن الثامن عشر ، على الجزء الأكبر من سهل عكار . وظل عبود عبد الرزاق ، الذي ينتمي إلى هذه الأسرة ، يملك أكثر من ٢٧ قرية ، كليا أو مشاركة ، بعضها في لبنان والبعض الآخر في سوريا ، واستمرت ملكيته تلك حتى أواسط القرن العشرين بالذات . واستمرت تلك الملكية الكبيرة لا تتجزأ بين المالكين خوفا من دفع رسوم التسجيل . وكانت البثات من تلك الأسر الاقطاعية يزوجن إلى أبناء أعمامهن داخل تلك الأسر . وإذا صادف أن سمح لفتاة منهن بالزواج من خارج العائلة كان عليها أن تنازل عن ملكيتها العقارية وتعطى مبلغا معينا من المال وتبقى الملكية الكبيرة غير مجزأة يتقاسمها الاخوة بالتراضي (١٠) .

إن قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨ وما سمي بالإصلاحات الزراعية لأعوام ١٨٨٠ و ١٩١٣ جاءت تدعم ركائز هذه الملكية العقارية الكبيرة . ففي العديد من المناطق ، كان الفلاحون يرفضون التصريح عن أراضيهم أو يتعمدون إعطاء تصريحات كاذبة بعد أن عودتهم الدولة العثمانية فرض ضرائب جديدة عقب كل « إصلاح » . وزاد في فداحة النتائج التي ترتبت على تلك الإصلاحات أن عمليات التسجيل كانت تقوم على أساس شهود فقط ودون الكشف على الأراضي وتحديداتها فعليا في معظم

— L'Orient-Le Jour — No. 501 du 31 Octobre 1972.

(٨)

(٩) راغب الأسمر « الأرض والفلاح » ص ١٢ .

(١٠) أخبرني الأستاذ أكرم الزايعي عن زواج شقيقه النائب السابق في عكار بشير العثمان والقصة تنطبق تماما مع هذا الوضع . وهناك أمثلة عديدة على ذلك تنطبق على الطوائف المسيحية والإسلامية في عكار

الأحيان . فلا تعيين حدود ولا مسح دقيق ولا حتى رسم تخطيطي للقطعة المسوحة بل مجرد إعطاء « سند طابو » أو « حجة » . وكان كبار المتنفذين يستصدرون تلك السندات بأسمائهم ويجردوا الفلاحين (١١) . بذلك من البقية المتبقية لهم من الملكية الصغيرة ، وأعطت تلك « الإصلاحات » الطابع القانوني والشرعي للنهب العقاري الذي قام به أولئك الأقطاعيون . أما في المناطق العشائرية كالهرمل وأكروم فلم تصلها سندات الطابو واستمرت ملكيتها جماعية إلى جانب الملكية المشاعية الكبيرة هناك . لقد أدت تلك التنظيمات العثمانية إلى حالة من البلبلة في كل مكان ووسخت دعائم الملكية العقارية الواسعة على حساب تقهقر الملكية الصغيرة في تلك المناطق .

وهكذا اتخذت الملكية العقارية الكبيرة في الريف اللبناني « صفة قانونية » بعد تلك الإصلاحات العثمانية وأضحت الواقع المعاش الذي تحدت عليه جميع جوانب الحياة الاجتماعية في عكار والبقاع والبقية وغيرها . وكانت سمتها الأساسية أن تظل عائلية مشتركة لا تنقسم ولا تتجزأ رسميا في كافة هذه المناطق . لقد استطاعت تلك الملكية العقارية الريفية الواسعة في لبنان المدمج ، بفضل تفاديها للتقسيمات بين الورثة ، وبفضل أساليب القمع والنهب لإنتاج الفلاحين واستغلالهم كعبيد من القرون الوسطى ، أن تتمتع بثبات يمكنها من الاستمرار كما كانت منذ مطلع العهد العثماني لكن بصورة قانونية حتى الحرب العالمية الأولى . وبقي الملاكون الكبار في تلك المناطق يعجزون عن إعطاء المساحة الحقيقية لممتلكاتهم .

غير أن ذلك الشكل من الملكية لم يكن وحيد الجانب في تلك المناطق بل كانت هناك ممتلكات عامة واسعة بقيت ملكا للدولة أو الأراضي الأميرية . ففي ظل الحكم العثماني بقيت الدولة المالك الوحيد للأرض في تلك المناطق ولأصحابها حق الاستغلال أو التصرف بموجب « حجة » مدونة في السجل الخاص أو « الدفترخانة » . وكان امتلاك الأراضي الزراعية بموجب القوانين العثمانية المرتكزة على الشرع الإسلامي خاضعا لشروط معينة منها شرط الزراعة وذلك وفق قانون « الأرض الموات » الإسلامي « من أحيا أرضا مواتا فهي له ، شرط أن يقوم بحراستها ولا يتركها دون زرع ثلاث سنوات متتالية ، فتعود ملكيتها عندئذ إلى الدولة » . غير أن المتبع لنظام الدورة الزراعية المعتمد في تلك المناطق آنذاك يجد أن الأرض كانت تزرع سنة وتترك بوراً سنة أخرى وذلك بصفة دورية وأحيانا كثيرة تزرع قمحا في السنة الأولى وتترك للمرعى سنة أخرى ثم بوراً سنة ثالثة ، مما أبقي هذا الشكل من الملكية أو التصرف عمليا خارج دائرة الانتاج الفعلي في تلك المناطق . وقد حرم الفلاحون بذلك من استصلاح تلك الأراضي مع إجبارهم على البقاء مرايعين عند أسيادهم الاقطاعيين .

شكل آخر للملكية في تلك المناطق هي الملكية المشاع وكانت نسبتها كبيرة جدا . والأرض المشاع هي تلك التي يعود حق الانتفاع بها في قرية واحدة أو عدة قرى ، إلى جميع السكان بصورة جماعية . فالفلاح هنا لا يملك أرضا خاصة به ،

(١١) راغب الأسمر « الأرض للفلاح » مقالة « كيفية استيلاء الاقطاعيين على الأرض في لبنان وسوريا »

ص ٥٢

بل يملك حق التصرف على جزء من مجمل تلك الاراضي . وبقيت قرى بكاملها في البقاع مشتركة الملكية حتى وقت متأخر . فقرية بر الياس مثلا استمرت حتى عام ١٩٣٤ على هذا الشكل المشاعي . كذلك قرية يونين التي استمرت ملكيتها مشاعية بصورة جزئية حتى عام ١٩٣٦ . وقد اشارت تقارير المفوضية العليا تباعا الى هذه الملكية منها ما جاء في تقرير ١٩٢٦ : « يمكن للمرء ان يلاحظ في السهول الواقعة في الشرق أو الشمال الشرقي من لبنان أي في مناطق الهرمل وأكروم وعكار وبعبك ، ممتلكات واسعة ذات ملكية جماعية لأسرة واحدة أو لقرية واحدة » (١٢) . فالاراضي المشاع انتشرت في لبنان المضموم الى جانب الاراضي ذات الملكية العقارية الكبيرة ، واراضي الاوقاف ، خاصة الإسلامية منها ، كذلك الاراضي العشائرية ذات الملكية الجماعية .

اما الاراضي الملك المفروزة التي تكون تحت تصرف المالك بصفة كلية والتي تنقل عن طريق الإرث بموجب قوانين الاراضي المنقولة ويمكن اخضاعها للضمان والرهن والهبة ، فلم يكن لها وجود فعلي في لبنان المضموم خارج نطاق المدن . هذه الملكية ، على العكس من جميع سابقتها ، كانت صغيرة . ومن الناحية الجغرافية لم تتجذر في الارض بمعنى انها كانت غير واضحة ودون ان تكون لها حدود جلية وملكيتها ثابتة بل كانت تتنقل وتبدل ملكيتها باستمرار ، وكانت السيطرة فيها لصالح العائلات المحلية وللمرابين والتجار ولم تشمل مساحة واسعة من الاراضي . أما فلاحو تلك المناطق فكانوا محرومين تماما من الملكية الفعلية . وحتى الاجزاء الصغيرة التي استطاع البعض انتزاعها عن طريق المغارسة وغيرها كانت عرضة للنهب الاقطاعي في كل حين .

يتبين من ذلك ان نظام الملكية العقارية في لبنان قبل الحرب العالمية الاولى كان ينقسم بطابعين متناقضين : ملكية صغيرة ومتناهية في الصغر وفلاح فقير واوقاف كنيسية واسعة الاراضي في الجبل ، يقابلها ملكية كبيرة ومتناهية في الكبر وغير معرضة للتجزئة وملكيتها مشاعية واسعة وارض للدولة وفيرة وملكيتها صغيرة جدا وغير مستقرة بجوار المدن وسيطرة اقطاعية يراققها استقلال رهيب لفلاحين محرومين من جميع الحقوق الأساسية ، في المناطق التي ضمت لاحقا لجبل لبنان . فماذا فعل الانتداب الفرنسي للتقليل من ويلات هذا الواقع البالغ السوء للملكية العقارية في لبنان ؟

الحرب العالمية الاولى تؤزم وضع الفلاحين في الجبل

ان تكون الملكية الصغيرة في الجبل ايام المتصرفية وانتعاش أعداد كبيرة من الفلاحين الصغار لم تقدم حماية رسمية لهؤلاء تجاه المقاطعة القدامى وتوسع نفوذ ملكية الوقف ، كما لم تستطع حمايتهم من السنين العجاف فلم يكن بمقدور الفلاح

— Haut-Commissariat « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 243.

الجبلي ، المحاصص والمفلوس والمالك الصغير ، ان يواجه منفردا تقلبات الزدود الزراعي الضئيل . لذا كان يلجأ دوما في حالة الافلاس والعوز الى المرابين ليستلف منهم الاموال بفوائد مرتفعة جدا . فبالرغم من استعراش الملكية الصغيرة في الجبل كآثر اشكال الملكية انتشارا فيه فان الوجود الحر لتلك الملكية وللـفلاحين الصغار كان عرضة لتقلبات وأزمات شديدة الاخطار في اثناء الكوارث الطبيعية . وكان قسم منهم يهجر اراضيهم بؤرا ويفادروها الى المدينة يعمل هناك في التجارة او في الوكالات الاجنبية او في مناصب الفئات الدنيا ، وقسم آخر « يهب » املاكه للكنيسة التي غدت المالكة العقارية الكبرى منذ زمن بعيد . وجاءت الحرب العالمية الاولى تقضي على العديد من الفلاحين الصغار والمتوسطين من سكان الجبل ، و« باع » قسم كبير منهم املاكه ، بشروط بائسة الاجحاف ، الى راساليبي بيروت وطرابلس وحلب (١٣) لقاء مبالغ من المال لا تتعدى عشر قيمتها الحقيقية . ففي مثل تلك الظروف القاسية « اشترى » هؤلاء الراساليون اجزاء واسعة من الاراضي في المتن والشوف وكسروان وبيروت . وقام الاهالي يطالبون ، بعد الحرب ، بالفداء تلك البيوع ، وقامت مظاهرات عنيفة طيلة عام ١٩٢١ (١٤) حتى اضطرت المفوضية العليا لتعديل بعض تلك البيوع والفداء البعض الآخر بالقرار رقم ٧٩٧ تاريخ ٢١ آذار ١٩٢١ .

مراسيم الانتداب تعطي الواقع السيء صفة حقوقية

١ - توسيع ملكية الدولة

لقد رسمت قرارات المفوضية العليا في بيروت اهداف الانتداب الفرنسي في الريف اللبناني بوضوح وأبرز تلك القرارات ما صدر في ٢١ كانون الثاني ١٩٢١ برقم ٦٥٥ والقرار رقم ٧٩٧ الصادر في ٢١ آذار ١٩٢١ ايضا . وقد تناول هذان القراران النقاط الأساسية التالية : (١٥) .

- ١ - وضع قوانين لصيانة ونقل حقوق الملكية وما يتفرع عنها ، والعمل قانونيا على تجزئة الملكيات المتوارثة دون تقسيم ، كذلك الملكيات المشاعية ،
- ٢ - تحسين الوضع الاقتصادي في الريف اللبناني بتجزئة الملكيات الكبيرة وفرض اراضي الدولة وخلق الملكية الزراعية الصغيرة .
- ٣ - تسهيل التسليف العقاري عن طريق تسويق الارض وذلك بجعلها سلعة تجارية حقيقية تباع وتشرى بموجب سندات رسمية .
- ٤ - السماح للأفراد وللشركات الاجنبية بالاتجار بالارض دونما ازعاج من احد . فاذا كانت الملكية العقارية الكبيرة في لبنان المضموم قد نشأت عن طريق الهبات

(١٢) — J. Luquet « Le Mandat A... » — P. 158-159.

(١٤) لسان الحال — العدد ٨٢٤٧ تاريخ ٢١ شباط ١٩٢١

(١٥) — Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie et au Liban » Thèse — P. 118.

السلطانية والمنازعات الإقطاعية والقوة والعنف ضد الفلاحين ، وترسيخت عن طريق « الطابو العثماني » ، وإذا كانت الكنيسة المارونية قد استغلت الأراضي الموات أو الخالية و « الهبات » لتوسع ملكيتها الوقفية بشكل هائل في جبل لبنان ، فكيف سيفسر عمليا الهدف الأول من الانتداب « وضع قوانين لصيانة ونقل حقوق الملكية وما يتفرع عنها » سوى تعزيز وضع تلك الملكيات الكبيرة وإضفاء الطابع القانوني الحقوقي على ما أخذ بالقوة والنهب واستغلال الظروف الحرجة التي مر بها الفلاحون قبل الحرب وبعدها .

فالقوانين الصادرة في ٢٠ نيسان ١٩٢٢ ، و ٢٠٠ الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٢٣ ، و ١٤٤/س الصادر في ١٠ حزيران ١٩٢٥ ، و ٢٧٥ الصادر في ٥ أيار ١٩٢٦ وغيرها ، تحت شعار « تنظيم الاملاك في دولة لبنان الكبير وذلك انسجاما مع المصلحة العامة في تكوين الملكية الريفية الصغيرة » (١٦) ، شملت العقارات المبنية وغير المبنية ، وتوزعت الملكيات بموجبها على الشكل التالي (١٧) :

- ١ - الأراضي الأميرية ويعود القسم الأكبر منها للدولة .
- ٢ - الأراضي المتروكة المرفقة ، وهي الأراضي الموضوعة تحت تصرف الجماعات .
- ٣ - الأراضي الخالية كالأحراش والغابات والجبال غير المزروعة وغير القابلة للاستصلاح الزراعي ، أي بصورة عامة ، جميع الأراضي التي جعلها القانون العثماني ضمن باب الأراضي الموات ، مع الاحتفاظ بالحقوق العينية أو حق الانتفاع المكتسب طبقا للقوانين والنظم التي كانت سارية أيام الأتراك .
- ٤ - الأراضي المسجلة حتى في ذلك الحين في السجلات باسم الأراضي المخلوطة التي لا مالك لها أو التي مر الزمن على ملكيتها فأضحت دون مالك شرعي .
- ٥ - العقارات أو الأراضي المدورة أي المحجوزة بشكل دوري متتابع لصالح الخزينة .

- ٦ - الأراضي المسجلة في سجلات دوائر الملكية المبنية .
- ٧ - الأراضي التي تثبت المساحة والتحديد أنها من ضمن املاك الدولة .
- ٨ - الأراضي الموات التي تعود ملكيتها للدولة والتي لا تدخل في باب الاملاك العامة أو الدومين .
- ٩ - الأراضي الخالية من الاملاك الخاصة أي التي كانت مملوكة وفقدت مالكيها لسبب أو لآخر .

- ١٠ - الأراضي المسجلة على اسم الخزينة في سجلات الإدارات العامة .
 - ١١ - الأراضي الناشئة عن اهمال الزراعة والتركات الشاغرة أو الساقطة الاجل والتي اثبت القانون اهمالها أو انتهاء اجلها .
- ملاحظة نقدية لهذه البنود نرى ان التركيز الاساسي فيها باتجاه توسيع ملكية الدولة أو الخزينة أو الاملاك العامة دونما ذكر للملكية الصغيرة وسواها . فقدرت

(١٦) — Achard « Notes sur la Syrie » — P. 80.
 (١٧) — L. Cardon « Op. Cit. » — P. 208-209 et Haut-Commissariat « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 43 et ss.

املاك الدولة رسميا عام ١٩٢٢ في سوريا ولبنان بحوالي مليون ونصف المليون (١٨) من الهكتارات . اما في لبنان ، ففي عام ١٩٢٥ كانت املاك الدولة أو الممتلكات الاميرية تشمل ٥٠٠ هكتارا في منطقة رأس العين وحدها في قضاء صور ، و ١٢٠ هكتارا في مغرود في البقاع ، و ١٩٨٠٠ هكتارا في جرد المسري في البقاع أيضا أي « الاغلبية الساحقة من مساحة تلك النواحي تقريبا » (٢٠) وذلك بلعريف كتاب فرنسيين بالذات .

فالدولة في أيام الانتداب الفرنسي ، أصبحت المالك الفعلي لمساحات واسعة من الأراضي في سوريا ولبنان بعد ان كان لها طابع الملكية الشكلية أيام الأتراك ، وان هذه الدولة بالذات قامت بسن القوانين وإصدار المراسيم التي جعلت منها ، وبصفة قانونية ، أكبر مالك عقاري في البلدين على الإطلاق .

ان قرارات المفوضية العليا في بيروت ، والتي صدرت تحت شعار « تكوين الملكية الريفية الصغيرة في لبنان الكبير » لم تكن تهدف في الواقع إلا لإضفاء الصفة الشرعية على ما كان ساريا أيام الأتراك ، وجعلت من تلك الاملاك التي عادت ملكيتها قانونيا للدولة سلعة تجارية حقيقية تباع وتشترى بموجب سندات رسمية تباع لصالح الخزينة أي لصالح إدارة الانتداب بالذات في حين استمر نهب الفلاحين كالسابق واستمر حرمانهم من الملكية الزراعية . ان إدخال الدولة كشرط أساسي حقوقي في ملكية الأرض اللبنانية كان خطوة هامة على طريق بناء الدولة الرأسمالية في لبنان التي عمل الفرنسيون باصرار وتصميم على ارساء قواعدها منذ الأيام الأولى لانتدابهم عليه . وكان الفرنسيون بذلك أول من جعل الأرض اللبنانية سلعة تجارية ، لا في الجبل وحده حيث كان هذا الشكل منتشرا منذ أيام التصرفية ، بل في جميع الأراضي اللبنانية .

ب - المساحة والتحديد يشتان قانونيا النهب السابق

كانت سجلات الطابو القديمة بالغة التشويش وتحديداتها من أشد الأمور إبهاما ، وكانت الاغتصابات سهلة جدا ، وحقوق الملكية بدلها القوة باستمرار ، والحجج أو سندات الطابو لا تزال دوما في حوزة الإقطاعيين دون سواهم ممّا كان يزيد في سهولة التزوير . لذا فالمساحة التي قامت بها دولة لبنان الكبير واستندت أساسا على التجاوزات السابقة سهلت انتقال تلك التجاوزات إلى الشرعية والقانونية . وأبرز القرارات التي صدرت حول المساحة والتحديد كانت في عام ١٩٢١ وحملت أرقام ٦١٥ الصادر في ٢١ كانون الثاني و ٧٩٧ الصادر في ٢١ آذار و ٨٢٤ الصادر في ١٣ أيار وكذلك القرارات رقم ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩ الصادرة في ١٥ آذار ١٩٢٦ وغيرها . وقد نظمت تلك القرارات وضع نقاط التثبيت وتحديد قواعد

(١٨) — L. C. Catroux « Le mandat français en Syrie » — P. 31.

(١٩) — L. Cardon « Op. Cit. » — P. 211.

(٢٠) — L. Cardon — Ibid — P. 211.

وزوايا الحدود وتوضيح المناطق المستوحة وعلامات المساحة ، ولوائح الإحصاء ، والجداول الأبجدية لذلك ، وطبيعة التربة للأرض المستوحة ، وتوزيع المياه لها ، ومواقع القرى المستوحة وأشملها الدقيقة ، والطبيعة القانونية للملكية (أميرية ، وقف ، مخلوطة ، الخ . .) (٢١) وغيرها .

وحسب النظام الجديد للمساحة والتحديد قسمت القرى الى مناطق ، والمناطق الى اجزاء صغيرة بحيث ان الأسرة لم تلجأ الى تصفية تركات اعضائها بعد وفاتهم خشية تفويت الملكية بشكل متناه بل أبتت على تلك التركات كأرض مخلوطة تجاوزت حدود احيال من المالكين أحيانا .

وقد أعطى الندرية لآثرون مثالا على النتيجة التي ترتبت على تلك المساحة في قرية « المرج » في البقاع وذلك عام ١٩٣٦ ، ونحن ننقل حرفيا هذا المقطع البالغ الدلالة . يقول لآثرون « كانت اربع أسر كبيرة تمتلك قرية المرج هي : أسرة كعك وأسرة صالح وأسرة شاهين وأسرة جراح . وقد ردت مساحة الأراضي المروية في تلك القرية بأربعين فدانا ، مقسمة الى ٣٣ منطقة حسب النظام الجديد للمساحة . وقسمت تلك المناطق الى ١٣١ قطعة انقسمت بدورها ، على اثر التقسيمات المتلاحقة الناشئة عن الموارث وعمليات البيع للغير ، الى ٢٣٦٩٦ جزءا في عام ١٩٣٦ لمساحة أرضية لا تتجاوز ٨٢٠ هكتارا مما جعل متوسط مساحة الجزء الواحد ٣٢٩ مترا مربعا . وباجراء التقسيم للقطع أخيرا ، وهو تقسيم يجري باتجاه الطول ، أدى ذلك التقسيم في النهاية الى حصص تبلغ مساحتها بضع مئات من الأمتار المربعة بطول يزيد أحيانا على كيلومتر واحد ، في حين لا يتعدى العرض بضعة أمتار وأحيانا بضعة أقدام . ونتيجة لذلك التقسيم الذي تعاقب على « المرج » حتى عام ١٩٣٦ ، فان حمد الجراح كان يمتلك قطعة أرض مساحتها ٢٥٢ م بقيمة لا تزيد على ٢١٠ ، قرشا ذهبيا ، وسمير الطرزي شاهين ، كان يملك ٢٧١ م بقيمة ٣١٨ ، قرشا ذهبيا . عندها تنازل كل من الفلاحين عن « ملكيتهم » للعائلة التي ينتمي اليها ، فزاد نظام المساحة ذاك بحرمانه من الأرض التي يعمل عليها ووسع من الملكية المخلوطة على تلك الشاكلة » (٢٢) .

نظام المساحة هذا لم يجرء الملكية القطاعية الكبيرة ، بل على العكس من ذلك ، ثبتت الملكية الكبيرة المشتركة . وبدلا من ان يعيد نظام المساحة الفرنسي في لبنان الكبير تنظيم الملكية فعليا بحيث يستفيد منها في الدرجة الاولى الفلاحون العاملون في الزراعة ، لم يفعل ذلك النظام سوى تثبيت المفاصل القديمة التي قام بها القطاعيون أيام الاتراك مع استحداث تجاوزات جديدة لصالح ملكية الدولة أو الاملاك العقارية . وقد علق لويس كاردون على هذا النظام الجديد للمساحة بقوله « بالاختصار ، كان نظام المساحة المتبع في لبنان الكبير كاسوأ ما يمكن تصوره ، إذ بنى حق الملكية ، لا على أساس تقسيم العمل ، بل على أساس المفاصل التركية السابقة » (٢٣) .

(٢١) — H. C. « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 43 et ss.
(٢٢) — A. Latron « La vie rurale en Syrie et au Liban » — P. 62-64.
(٢٣) — L. Cardon « Op. Cit » — P. 97.

ج - حق الشفعة يرشح الملكية العقارية الكبيرة غير المجزأة .

امعانا في ابقاء الملكية العقارية المشتركة دون تجزئة ، وفي سبيل حماية الملكيات الكبيرة والوقفية أيضا ، عمدت ادارة الانتداب الى القبول بقانون « حق الشفعة التركي » الذي نصت عليه المادة ٩٥ من « المجلة العثمانية » الصادرة عام ١٢٧٤ هجرية . واستمر هذا الحق طيلة عهد الانتداب وبعد الاستقلال . ويتلخص هذا الحق بامكانية استرداد الأرض الملك المباعة الى شار جديد حتى بعد دفع ثمنها واعادتها الى أحد أفراد المالكين بالشراكة لتلك الأرض . وقد حدد جوزف شاوي الأشخاص الذين يملكون حق الشفعة هذا وهم : (٢٤)

١ - الشركاء في عقار له صفة أرض الملك المشترك ، فيما يتعلق بحصة شائعة من الشراكة .

٢ - الشركاء في حق قانوني شائع مثبت أيضا لحساب الملك المشترك المباع .

٣ - الجيران المالكون للعقارات الملاصقة للأرض المباعة .

لقد ضمن حق الشفعة هذا الملكية المشتركة في لبنان الكبير من المضاربة والانتقال للمالكين جدد وحرّم بالتالي الفلاحين من امتلاك أرض جديدة بسبب هذا الحق الذي كرس إعادة الأرض الى أحد الأشخاص الذين أعطتهم الشفعة حق استردادها ولو بعد زمن .

الملكية العقارية الكبيرة حماها نظام المساحة الجديد ، والملكية الوقفية اتخذت طابعا قانونيا ثابتا بعد تلك المساحة ، وحق الشفعة حمى الملكية المشتركة من التجزئة وامتلاك الغير لها ، فهل جاءت مراسيم الانتداب الفرنسي الا لتدفع سيطرة كبار الاقطاعيين في المناطق المضمومة وسيطرة الكنيسة المارونية في الجبل ؟

ان تلك الملكيات العقارية الواسعة أصبحت « مصنونة وفي حمى القانون » بواسطة جهاز رسمي تحميه جيوش الانتداب والقوى المحلية المساعدة ، في حين يؤخذ من التقرير الرسمي المرسل الى عصبة الأمم لعام ١٩٢٢ ان عدد الفلاحين الذين لا يملكون أرضا والذين ادوهم التقرير تحت اسم « العمال الزراعيين » تجاوز تعدادهم ٧٩ ألف عامل زراعي (٢٥) في لبنان الكبير وحده يضاف اليهم ٢٢ ألف خادم في المدن ، وأغلبيتهم الساحقة من منابت ريفية دون شك ، اي ميا مجموعه مائة ألف عامل زراعي وخادم على مجموع سكاني لا يتجاوز ٥٧٩،٧٧٨ ألف لبناني خلال تلك الفترة . فلباعتراف الفرنسيين انفسهم كان خمس السكان محرومين من اية ملكية زراعية وغير زراعية ، ليس هذا فحسب بل حرم العاملون فعلا في الزراعة من اية ملكية او حتى أمل في ملكية الأراضي التي يقنون عليها ايامهم من المهد الى اللحد . فهل تغير القانون التركي المشهور « من يعمل لا يزرع ومن يزرع لا يعمل » مع مجيء رسل الحرية والاخاء والمساواة الى لبنان ؟

(٢٤) — J. Chaoui « Le régime foncier en Syrie » — Thèse — P. 100-101.
(٢٥) — H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 290-292.

بالإضافة إلى الإعدام والشنق والنفي إلى الأناضول والرومللي ، كان من آثار أعمال العثمانيين في لبنان القانون الصادر في ٢٤ تموز ١٩١٦ (٢٦) والذي خول الحكومة التركية سلطة مصادرة الرعايا العثمانيين وغير العثمانيين في السلطنة الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية ، رجالا كانوا أم نساء ، وذلك للقيام بالأعمال الزراعية في مدة زمنية تحددها وزارة الزراعة العثمانية . هذه المصادرة لم تكن جديدة على اللبنانيين . فقد شهد فلاحو لبنان عصورا واسعة من السخرة والمصادرة أيام السيطرة المقاطعية وإبان الحكم المصري في القرن التاسع عشر ، بيد أن ثورة الفلاحين في كسروان جعلت هذه المصادرة نوعيا من الذكرى المريرة القابعة في وعي الجماهير الفلاحية كإرث ثقيل ومقيت من تركه السيطرة المقاطعية على الجبل . غير أن الإدارة الانتدابية في لبنان ، وجدت في الأعمال السابقة للإتراك مثالا يحتذى به وأخذت تستخدم قوانين المصادرة والسخرة حسب الظروف ، وعلى نطاق واسع ، خاصة في المناطق المضمومة إلى الجبل . وأخذت تلك السخرة أشكالا مختلفة حتى أن البعض منها يثير الضحك والاستعراب . ففي طرابلس مثلاً كان الجنود يقفون في ساحة التل ، وهي الساحة الرئيسية في المدينة ، وإلى جانبهم حجر ثقيل الوزن ، ويجبرون كل مار من هناك على نقله من مكان إلى آخر ، والقصد من ذلك اذلال السكان . وفي عكار كان الكابتين ميك MIC وكلبه « يحكمان المنطقة » (٢٧) حسب التعبير الشائع فيها حتى اليوم . فكان الكابتين ينتقي وجهاء المنطقة وفلاحيها ويجبرهم على العمل أياما في شق الطرقات ونقل الحجارة على ظهورهم . لكن الأخطر من ذلك أن فرنسا الانتداب قد اعترفت بتلك السخرة رسميا في تقريرها لسنة ١٩٢٤ المرسل إلى عصبة الأمم حيث يقول : « عندما يطالب المكلفون في منطقة ما ، بشق طريق ذات فائدة محلية ، يحدد الوجهاء عدد أيام العمل التي ينبغي على البالفين القيام بها . والبالفون هم الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والستين . ومن لا يستطيع القيام بالعمل شخصيا ، عليه أن يستأجر من يتوب عنه لذلك . أما العامل فعليه دفع حصته عملا عينيا » (٢٨) . هذا الاعتراف الواضح مترجم عمليا إلى اتخاذ السخرة شكلا رسميا وقانونيا في شق الطرقات . ومن يتخلف عن ذلك ، كانت السلطة العسكرية هناك لا يجارها على ذلك .

في الواقع ، كان هذا الشكل من السخرة ستارا لاستغلال العمال والفلاحين دون سواهم . أن العمال والفلاحين كانوا يدفعون العمل اليدوي العيني ، وهم الذين يدفعوا الضرائب لشق الطرقات ، وهم الذين قدموا العمل « المستأجر » من قبل الوجهاء والمتنفذين المحليين ، وبالإضافة إلى كل ذلك ، كان على المارة أن يدفعوا ضريبة الطرق التي كانت تظال أيضا الفئات الفقيرة دون سواها .

(٢٦) — A. Mandelstam « Le sort de l'Empire ottoman » — P. 148.
(٢٧) جميع المقابلات الشخصية في قرى المنطقة تؤيد هذه الفكرة .
(٢٨) H.C. « Rapport sur l'année 1924 » — P. 46-47.

« أن نظام العمل غير المأجور القائم على التبرع ، بصفة خاصة ، العمل المجاني في الطرقات وأعمال الري وغيرها » (٢٩) ، كان خطة واضحة من خطط الفرنسيين « لانعاش الريف بسواعد ابنائه بالذات » (٣٠) .

لقد اتخذت السخرة طابع اذلال الفلاحين والعمال الفقراء ومدت الاقطاعيين بزخم جديد لاستغلالهم في اقطاعياتهم بعكار والجنوب والبقاع ، حيث ساعدت تدابير السلطة الانتدابية بالذات ، على تحويل القروي - الفلاح إلى شبه عبد يأتمر بقضاء سيد يستأثر بكافة الحقوق ، بما فيها حق إقامة العدالة في قراه ، وبمراسيم سلطة انتدابية تقيم للسخرة شكلا قانونيا رسميا معترفا به على صعيد سياسة الدولة العليا . وكانت النتيجة الحتمية لذلك زيادة اذلال الفلاحين يقابلها زيادة في نفوذ مدليهم ، اقطاعيين كانوا أم سلطة انتدابية .

استمرار الوجود الاقطاعي والسيطرة الاقطاعية في الريف اللبناني

يختلف الباحثون في الملكية العقارية لجبل لبنان حول ما إذا كانت التسمية بالاقطاعية تصح هناك أم لا ، ويقترح دومنيك شغاليه ابدال الاقطاعية في الجبل بالمقاطعية كونها تعبر بعلمية ودقة عن واقع تلك السيطرة فيه . بيد أن ما يهمنا التأكيد عليه هو أن هذا الشكل من استغلال الفلاحين والضرائب الباهظة المفروضة عليهم والتي تسمى بالحقوق الاقطاعية أو المقاطعية كان واسع الانتشار في الجبل حتى الثورة الفلاحية الكبرى فيه لعام ١٨٥٨ التي ساهمت في رفع نير الاضطهاد عن أعناق الفلاحين دون أن تزول هذا النير تماما بل كانت بداية مرحلة جديدة في تاريخ جبل لبنان . وحتى الوقت الحاضر لا تزال كلمات الاقطاعية وشبه الاقطاعية والحقوق الاقطاعية واسعة الانتشار . ففي رأي ادمون رباط « أن النظام شبه الاقطاعي كان مهيمن في لبنان ويستغرق وقتا طويلا كي يزول من المناطق المحقة بالجبل . هذا النظام ، لم يعد في الجبل اللبناني سوى ذكرى انقضى أجلها منذ عام ١٨٦٠ ، أما في المناطق المحقة فقد تحول نظام الملكية الواسعة جدا إلى استغلال اقتصادي للفلاح من قبل كبار الملاكين » (٣١) .

وفي رأي ميشال شيحا « أن الاقطاعية هي ذلك الشكل من التبعية الذي يستند إلى الجهل المطبق بحقائق الحياة السياسية الحديثة ، والذي ينزع عن المرء شخصيته البشرية بالذات » (٣٢) .

ويربط الدكتور بشارة الدهان بين الاقطاعية والهجرة فيقول : « أن الاقطاعية ما زالت قائمة في بعض المناطق اللبنانية بمختلف مظاهرها المادية والطائفية والعائلية

(٢٩) — H. C. — Ibid — P. 46.
(٣٠) — E. Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous mandat... » — P. 231.
(٣١) — Michel Chiha « Politique intérieure » — P. 181.

والسياسية . لقد كانت دوماً يوماً برجت ، سبباً لهجرة السكان الريفيين الجماعية الى المدن » (٢٢) .

اما هاني بزي فيرى « ان السمة المميزة للبنان هي تركيبه الاقطاعي بالذات » (٢٣) . وعنوان كتاب توفيق توما « الريفيون والمؤسسات الاقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى ١٩١٤ » ، كذلك كتاب ميشال غريب « الطائفية والاقطاعية في لبنان » يؤكدان دلالة الاقطاعية كنظام سائد في الريف اللبناني ، ان لم يكن في لبنان كله حيث ميزوا بين اقطاعية ومقاطعية ، فالاتفاق تام حول طبيعة هذا النظام في الريفات الملحقه بحيل المتصرفية (٢٤) عام ١٩٢٠ .

في الواقع ان استعمال كلمة اقطاعي أو شبه اقطاعي ، واقطاعية ، وفيودالية ، وحقوق اقطاعية ، بحاجة الى الكثير من الدقة في الاستعمال المعاصر ، وهي تستخدم في شتى المناسبات ، وفي الصحافة بدون تحديد دقيق وتشير دوماً الى البكوات ، والزعماء بالوراثة ، والنظام المتعفن ، والعقلية المتحجرة ، الخ . ويشير جاك بيرك الى « ان تعبير الاقطاعية والأبوابية ، يقتصران دوماً عند العرب ، بتعبير ثالث هو الانسحاق أو الحرمان في كافة المجالات الجنسية والحياتية والروحية » (٢٥) .

غير ان هذه الكلمات تهمنا بقدر ما ندمع نمط الاستقلال الانساني الذي كان مسيطراً على فلاحي لبنان في تلك الفترة وحتى اليوم . بتعبير آخر ، نردد ما قاله البير سوبول عن استعماله لكلمة فيودالية في فرنسا ، خلال القرنين الثامن والتاسع عشر فيقول « انا استخدم الفيودالية والحقوق الفيودالية لا بالمعنى الذي يقصده رجال القانون أو الحقوقيون ، بل بالمعنى الذي يعاينه الفلاحون بالذات » (٢٦) .

فالاقطاعية ، برأينا ، هي ذلك النمط من الاستغلال الذي يعني في نظر الفلاحين ، المحرومين من الملكية ، عبودية الأرض التي تثقلها الضرائب الاقطاعية العقارية التي لا يمكن التهرب منها ، وتعني أيضاً تلك المساحات الشاسعة من الاراضي التي تستخدم عليها اسلوب زراعي موغل في القدم والضرائب المستمرة والاعشار واعمال السخرة التي ترهق كاهل الفلاحين ، كما تعني بالنسبة للفلاحين ، تدخل السلطة لحماية مركز الاقطاعي وتاديب « العصاة » من الفلاحين الذين ينتفضون في وجهه مطالبين بحقوقهم . فالاقطاعية « الحديثة » هي الواقع المعاش الذي ما زال مسيطراً في كثير من المناطق اللبنانية ، والذي قام وما زال على العنف والعبودية وما برح يحمل آثار استرقاق الجماهير الفلاحية بالسخرة والعشور والحقوق الاقطاعية

— Béchara Dahan « L'exode rural » — Semaines Sociales 1962 — P. 13. (٢٢)

— H. Bazzi « The Lebanese executive between 1943 and 1963 » — P. I. (٢٣)

— Voir aussi: D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » et Jouplain « La question du Liban » et Elie Safa « L'émigration libanaise... » (٢٤)

— Jacques Berque « Leçon inaugurale au Collège de France » — 10 décembre 1956 — P. 19. (٢٥)

— Albert Soboul « La féodalité et la Révolution Française », La Pensée — No. 149 — P. 59. Voir aussi Boutruche « Seigneurie et féodalité » — T. I. P. 18. (٢٦)

ومختلف أنواع الاذلال وسلب الحريات الاساسية واستخدام الدولة لمختلف اجهزتها القمعية لصالح الاقطاعيين والمتنفذين في سبيل ابقاء الفلاحين والمزارعين على تخلفهم وجهلهم وحرمانهم وتبعيتهم المطلقة لابناء الاقطاع القديم واحفاده .

البنك الزراعي يدعم كبار الاقطاعيين والضرائب ترهق الفلاحين

بدأ البنك الزراعي للبنان الكبير ، وهو استمرار للبنك الزراعي العثماني الذي اوقفه الحلفاء منذ ١٩١٩ ، يعطي التسليفات الزراعية منذ مطلع ١٩٢٦ . وكانت قروض هذا البنك حكراً على كبار الاقطاعيين فقط ، وهم بدورهم يقروضون الفلاحين بفوائد مرتفعة جداً ارتفعت في شمال سوريا الى ٧٥٪ (٢٧) من رأس المال لان الاقطاعيين هناك لم يدفعوا حتى رؤوس الاموال المستلفة من البنك . والبنك لا يعطي قروضا الا لقاء رهونات على العقارات بفوائد اسمية تتراوح بين ٩ و ١٠٪ مما يعني عملياً حرمان جميع الفلاحين ، المحرومين أصلاً من الملكية القابلة للرهن ، من أية قروض زراعية ، فجاءت قروض البنك الزراعي — الذي لم يكن له من الزراعة سوى الاسم — يعمل لمصلحة الاقطاعيين المالكين دون سواهم وذلك بسبب طبيعة قروضه بالذات .

وبالمقابل ، كانت الضرائب تتعدد على كل مظاهر الحياة الاجتماعية لكن أبرزها الويركو ، أو ضريبة الاملاك البنية وهي ٤٪ ، وضريبة الانتقال ٥٪ ، والعشر وتتراوح بالزغم من تسعيتها ، من ١٠ - ٢٠٪ ، وضريبة الاغنام ١٠٪ ، وضريبة بدل الطريق وهي ١٠٠ قرش في السنة عن كل شخص بالغ (٢٨) ، وغيرها . وكانت الضريبة العقارية في سوريا ولبنان اهم مورد مباشر للخزينة . ومنذ عام ١٩٢٥ ابدلت ضريبة العشر بضريبة أخرى اسمها « التريخ » (٢٩) بعد ان زادت بنسبة ٩٧٪ (٤٠) ، وقيل عند وضع هذه الضريبة ، انها مؤقتة بسبب الجفاف والقحط وبسبب العجز الذي احدثته الثورة السورية الكبرى في ميزانية الادارة الانتدابية ، لكن الفرنسيين استمروا في جبايتها حتى عام ١٩٣٣ يوم اعيدت الى اسمها الاصلي . اما في جبل لبنان ، فكانت السلطة الانتدابية « وفيه » لتقاليد هناك فأبقت الضرائب فيه على ما كانت عليه أيام التصرفية والتي لم تتغير منذ أيام العثمانيين لا بل المماليك بحكم العرف والعادة اذ ان الضرائب كانت المصدر الرئيسي لخزينة الجبل وكانت أبرزها : الفردية والشوبصة والتوت أو الحرير والزيتون والكرمة والعشور والطواحين والاعنام والميزان (٤١) وغيرها . وبما ان اعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٥ و ١٩٢٦ كانت اعوام جفاف وقحط ، وكان اجتياح الجراد يتكرر سنوياً تقريبا منذ الحرب العالمية الاولى ، فقد قدرت الخسائر من جراء موجات الجراد فقط في عام ١٩٢٤ - ١٩٢٥ في سوريا ولبنان بحوالي ٧٠

— L. Cardon « Op. Cit. » — P. 264. (٢٧)

— M. Mounayer « Le régime de la terre en Syrie » — P. 220-222. (٢٨)

— Arrêté No. 123 de 1925. (٢٩)

— M. Sarrage « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie » — P. 127. (٤٠)

— T. Touma « Paysans et institutions féodales » — T. II — PP. 647-649. (٤١)

المادية في قيمة بعض الأراضي وتضخيم ثروة عدد ضئيل جدا من كبار الملاكين ؟ (٤٨)
لقد اعترف الفرنسيون صراحة ان نظام « الطابو » العثماني كان بالغ السوء اذ جعل
أراضي الدولة او الدوميين والملكيات الصغيرة (٤٩) عرضة لنهب الاقطاعيين وسيطرتهم ،
لكن نظام المساحة هذا ، وبالشكل الذي طبق فيه ، أعطى هؤلاء الاقطاعيين السندات
القانونية لملكيتهم ووضع عساكر الانتداب ، الاجنبية منها والمحلية ، في خدمة
الاقطاعيين ولتثبيت « ملكياتهم القانونية » التي اكتسبوها حديثا .

ب - اعطاء الاقطاعيين السلطة التنفيذية المطلقة في مقاطعاتهم

كان الاقطاعي يمتلك مساحات واسعة من الارض التي تعمل عليها مجموعة كبيرة
من الفلاحين على اساس نظام المراقبة او المحاصصة . وكان الاقطاعي يجبي شخصا
ضرائب لحسابه الى جانب الضرائب التي تفرضها الدولة وتجمعها تحت اشرافه . وقد
ترسخت تلك الضرائب ، خاصة العشر ، في جميع انحاء الريف اللبناني ، وترسخت
معها الحقوق الاقطاعية التي مثلت مظهرا من اسوأ مظاهر الحياة الريفية ابان العهدين
التركي والفرنسي فقصمت ظهور الفلاحين بكثرتها . واتخذت تلك الحقوق طابعها
القانوني الشرعي خلال فترة الانتداب اذ مارسها السلطة المنتدبة ايضا على شكل
منفعة وضرائب عينية لانجاز الطرقات واعمال لري وغيرها ، مما شجع الاقطاعيين
على استغلال فلاحهم اكثر فأكثر ، فكان له حق القضاء ولجاء العدالة في منطقته
دونما اي تدخل من الدولة . واتخذ الاقطاعي ، في هذه الحالة زعامة مزدوجة : فهو
زعيم المنطقة التي يسيطر عليها ، كونه يمتلك مساحات شاسعة من الارض ويسيطر
على الفلاحين العاملين عليها ، وهو من جهة اخرى ، زعيم سياسي يمثل منطقته في
الادارة المركزية في بيروت ، كونه وديرا او نائبا عن منطقته او موظفا كبيرا فيها .
لقد خولته تلك الزعامة المزدوجة رئاسة السلطة التنفيذية يرمتها في منطقته .
تلك السلطة بالذات وضعت تحت امرته لا جموع الفلاحين والقاطنين في منطقته
فحسب بل وجموع القوى العسكرية المراقبة فيها ايضا . ولم يحدث قط ان خالف
ضابط او مسؤول عن الامن اوامر الاقطاعي في مقاطعته بل مثل هؤلاء دوما الاداة
الطليعة بيده والا كان مصيرهم العزل او النقل ، لقد أصبحت السلطة المركزية بالذات
بحاجة الى هؤلاء الاقطاعيين الموالين لها لكي تضرب اية معارضة لها في الريف الذي
سيطرت عليه عتوة . وقد استغل الاقطاعيون هذا الوضع أوسع استغلال ، اذ أصبح
الاقطاعي سيد اقتصاد المنطقة يرمتها وسيد السلطة التنفيذية فيها ، كما يمثل تلك
المنطقة في الادارة المركزية العليا . وكان الوحيد الذي وضعت الدولة بنكها الزراعي
لتسليفه كي يقرض الفلاحين بدوره لقاء حرمانهم حتى من حرية الانتقال احيانا ،
والأدهى هؤلاء الاقطاعيون بالمقابل ، خدمات جلي للسلطة المنتدبة . فقد كانوا
ادواتها التي توسلتها للسيطرة على جميع المناطق اللبنانية بعد ان استعانوا بهذا الهدف

(٤٨) — Achard — « Notes... » — P. 80.

(٤٩) — R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 175.

بالرشوة وتوزيع الأراضي على الموالين واطلاق حرية التصرف لهم . وللتأكد من ولائهم
التام والمستمر لجأت ادارة الانتداب كذلك الى توظيف ابناء الاقطاعيين واعوانهم في
مختلف مراكز الدولة الهامة (٥٠) .

فالاقطاعي اذا استطاع إيجاد مكان رطب له ولأعوانه في جهاز الدولة الانتدابية .
فالغلبة الساحقة من الضباط ، والجنود الفقراء وصفار الموظفين ، ورجال الدرك
والشرطة ، كانوا رقيقين في الغالب . هؤلاء ، وأن تحرروا ظاهريا من سلطة الاقطاعيين ،
فان قسما كبيرا منهم كان ضيعة هؤلاء الاقطاعيين بالذات واستمرارهم في وظائفهم
رهن بارادة الاقطاعيين ايضا ، في حين بقي اهلهم تحت سيطرة الاقطاعيين المباشرة .
وبرأينا ، ان هؤلاء الموظفين والعسكريين لم يشككوا أداة ضغط في جهاز الدولة لضرب
نفوذ الاقطاعيين في مناطقهم ، بل على العكس من ذلك ، كانوا أداة توسيع نفوذ هؤلاء
الاقطاعيين خارج مناطقهم وفي مختلف ادارات الدولة .

لقد تمثلت الارياف اللبنانية بأسوأ رجالها الاقطاعيين . وكفي القول ان ممثلي
الدولة في الريف ما كانوا الا الطبقة المستغلة له أي الاقطاعيين انفسهم . فالأراضي
كانت تحت سيطرتهم او سيطرة الدولة التي كانوا هم ممثليها . فهل تغير وضع الفلاح
من العهد التركي الى العهد الفرنسي ؟

ان فائض انتاج الريف كان يجري لصالح الاقطاعيين وضرائب الدولة ، وحرم
الريف ، المنتج لتلك الخيرات ، من جميع فوائدها . ولما كان الاقطاعيون واجهزة
الدولة ، المدنية والعسكرية ، تتمركز في بيروت خاصة وباقي المدن ، فإن فائض
انتاج الريف لم يتحول الى مشاريع تعود بالفائدة على المكان الذي أنتج فيه بل كانت
المدن ، وخاصة بيروت ، المستفيد الاول من ذلك الفائض ، مما شكل أحد الاسباب
الرئيسية للركود الاقتصادي المستمر في الريف اللبناني . وفي الوقت الذي ارتفعت
فيه أسعار كافة السلع ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الاولى ، فإن
أسعار المنتوجات الزراعية احتفظت بأسعار مبيعها القديمة تقريبا في الريف طيلة
عهد الانتداب (٥١) .

أما رجال الاقطاع المتوسطو الحال والصفار ، فكانوا هم ايضا مضطرين للسكنى
في المدينة حيث تتمركز ادارات الدولة والمؤسسات التعليمية ووسائل الترفيه
وغیرها . ولم يكن بمقدورهم استيراد وشراء الادوات الزراعية الحديثة ، لذا استمروا
على الانماط البدائية للانتاج والتي لا تعطي سوى مردود ضئيل ، في حين كان سكانهم
في المدينة يضطرون الى تكبد النفقات الكبيرة والاستدانة بفوائد فاحشة . فيعودون
عندها الى مزارعهم وفلاحهم ، وتزداد اساليب استغلالهم شراسة يوما بعد يوم .
ويلجأون الى جميع الانماط التي توفر لهم مداخيل أكثر من المحاصصة والمراقبة
والعقود الفصلية والشهرية واليومية . ولما لم يكن العقد المكتوب مألوفاً ، ولا توجد
قوانين عمل في الريف اللبناني ، كانت اليد العاملة تشغل افراديا وشفعيا حسب

(٥٠) السباعي ، أضواء ، ص ٢٣٠

— Omar Djabry « La Syrie sous le mandat » — P. 124.

(٥١)

العادات المحلية التي كرسها العرف (٥٢) - وسرعان ما كان هؤلاء الاقطاعيون يتملصون من « عقودهم » ايام الحصاد ويستغلون فلاحهم دونما رحمة او رادع ، مما اجبر هؤلاء على ترك الريف والنزوح الى المدن او الهجرة الى الخارج التي توسعت بشكل كثيف خلال تلك الفترة لتشمل لبنان بأسره بعد ان كانت حكرا على جبل المتصرفية قبل الانتداب .

اما التقنية الزراعية فلم تشق طريقها نحو الريف اللبناني وتنعدم هناك بصورة تكاد تكون تامة خلال الفترة الاولى من الانتداب . فالقطاعي هنا ، اما متعاطي السياسة ويهميل املاكه الواسعة او يعطيها الى وكلاء ، واما غير قيادر على شراء المعدات الحديثة . لذا كان ابقاء الفلاحين القسري هو السبيل الوحيد الذي يضمن استمرار اساليب واشكال الاستغلال القديم . بيد ان الهجرة والنزوح حرا اعدادا كبيرة من الفلاحين واجبرا الاقطاعيين الصغار على بيع قسم من املاكهم ، في حين استمر الاقطاعيون الكبار المتنفذون يحافظون على اراضيهم الواسعة ويزيدون في انتشارها وبدا الانقسام الطبقي في الريف اللبناني يزداد وضوحا واتساعا على اساس طبقتين رئيسيتين : كبار الملاكين الاقطاعيين والفلاحين المعدمين . ففي حين كانت الطبقة الاولى تتسع ملكيتها ويقل عدد افرادها ، كانت الثانية تزداد عددا وتقلص نسبة ملكيتها باستمرار .

ج - دور نظام المفارسة في ابراز الملكية العقارية الصغيرة في الريف اللبناني

في مثل تلك الاوضاع من الانعدام شبه الكامل للتقنية الزراعية الحديثة في لبنان ، ولازدياد موجة النزوح والهجرة نحو المدينة والخارج ، ولاضطرار قسم من الاقطاعيين الصغار الى بيع اجزاء من ممتلكاتهم ، ولفقدان اية مساعدة من جانب الادارة الانتدابية للفلاحين الصغار ومساعدتها ودعمها لكبار الاقطاعيين في الريف ، لعب نظام المفارسة دورا هاما في تحرير الفلاحين نسبيا من اسلوب الاستغلال الاقطاعي البشع . ونظام المفارسة (٥٣) اساسا لا يتناول سوى زراعة الاشجار . لذا فهو عقد طويل الامد . وطبقا لهذا النظام ، يعهد المالك بأرض الى احد الفلاحين او المزارعين كيما يقوم بالفرس والزرع والتطعيم وبذل كل ما ينبغي من العناية بالاشجار . وبعد ثلاث الى خمس سنوات على زراعة التوت ، واربع الى ست سنوات على زراعة الكرمة ، وسبع الى ثماني سنوات على زراعة اشجار التين ، وعشر الى اثنتي عشرة سنة على زراعة اشجار الزيتون ، يتم تقاسم الارض المفروسة بالثلث او بالنصف . ولا يحق للمزارع الشريك ان يطلب اجراء القسمة خلال سريان العقد الشفهي .

اما محاصيل الثمار الناتجة عن الشراكة ، وكذلك محاصيل المزروعات الاخرى

— H. C. « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 307.

(٥٢) — A. Latron « La vie rurale en Syrie et au Liban » — P. 66-67. Voir aussi M. Sarrage « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie » — P. 30-33.

فتقسم بينهما مناصفة .

لقد ثبت هذا الشكل من المزارعة حق الفلاح كشريك ، لا كعبد للاقطاعي . ومن هذا المنطلق بالذات جاء نظام المفارسة ليعطي الفلاح حق التملك لثلث او نصف الارض المفروسة بالكروم والاشجار المثمرة ، ومن هنا ايضا تبرز اهميته كنواة اساسية لبروز الملكية الريفية الصغيرة في المناطق اللبنانية خارج الجبل . فقد ادت المفارسة فعلا الى تجزئة الارض (٥٤) ، وترسيخ حق المزارع من هذا النوع بحصة منها . بيد ان الاقطاعي كان يجبي الضريبة والاتوات العينية قبل اقتسام المحصول ، كما كان يجبر المزارع على حراثة الارض وعدم تركها بورا ، وعلى ربط المزارع بأرض سيده دون السماح له بمغادرتها (٥٥) . ولم يكن المالك الاقطاعي يلجأ الى المفارسة الا اذا كانت مداخيله وفيرة بحيث يستغني عن مردود بعض الاراضي التي يخضعها لهذا النظام ، بشرط الا تكلفه شيئا ، نظرا لعل ان يكون مردودها من الاشجار المثمرة اكثر بكثير من مواردها الزراعية .

وعندما يحين موعد اقتسام الارض ، لا يعترف الاقطاعي للمزارع الا بحصة صغيرة جدا بعد ان يسدد الديون والضرائب والاتوات التي يفرضها عليه . لذا ، فعليا ما يكون الدفع مجرد استيفاء الدين اذا ما اراد المزارع الاستقلال عن الاقطاعي ، اذ ان هذا المزارع مدين باستمرار للمالك الكبير . واذا رفض المزارع القسيمة يقوم الاقطاعي باحتجاز الارض بالقوة وتلقين المزارع درسا تأديبيا صارما بواسطة ازماله . اما اذا قبل القسيمة فيعطيه الاقطاعي ارضا جديدة لغرسها لقاء تنازل المزارع عن حصته في الارض المفروسة سابقا ، وتبقى ملكية الارض الجديدة باسم الاقطاعي رسميا ، والهبة تبقى شفويا فقط بحيث انه في نهاية مدة المزارعة ، وعندما تبدأ الاشجار المثمرة بالانتاج يتم طرد المزارع منها بالقوة او لقاء ارض جديدة لغرسها اما اذا كانت الارض موقوفة اي تابعة لاحدى المؤسسات الدينية فيحظر على المزارع طلب القسيمة الرسمية « لان هذه الارض ، بطبيعتها ، غير قابلة للتقسيم » ، وبالتالي ، فان الخيار الوحيد امام هذا المزارع هو الاستمرار بالعمل عليها ، والا فهو « حر في التنازل عن حصته او نقل ملكيتها للوقف » (٥٦) .

غير ان الهجرة الكثيفة نحو الخارج والنزوح الى المدن ، بالإضافة الى ان عددا من تجار وأغنياء المدن ، وحتى الحرفيين الميسورين فيها ، بدأوا يتطلعون نحو الريف لامتلاك بساتين لهم هناك املا في توظيف رساميلهم فيه نظرا لتحسن اسعار الاراضي الريفية القريبة من المدن . كما ان قسيما كبيرا من المزارعين أخذ يضع يده على املاك تابعة لصغار الاقطاعيين الذين رهنوها دون ان يستطيعوا ايفاء ديونهم وفوائدها الباهظة . وسرعان ما عمد هؤلاء الى بيع تلك الاراضي بأسعار مغرية نظرا للسحر المتدني الذي سيطروا به عليها ، مما ساعد عددا من الفلاحين الميسورين ، ومنهم العمال الزراعيين الذين كانوا يحصلون على أجورهم بالنقد ، على تملك قطع صغيرة

— A. Latron — op. cit. — P. 70.

— M. Mounayyer « Le régime de la terre en Syrie... » — P. 74.

— A. Latron « op. cit. » — P. 71.

(٥٤)

(٥٥)

(٥٦)

من الأراضي في الريف . كل تلك الاسباب وغيرها اجبرت الاقطاعيين على تخفيف حدة اساليب استثمارهم للفلاحين والمزارعين الذين أضحى بمقدورهم العمل عند اغنياء او تجار المدن الذين امتلكوا ارضا في الريف ، مما جعل عقد المفارسة اكثر تيساهلا من السابق وذلك لصالح المزارعين بالذات .

وعلى هذا النحو بدأ ازدياد الملكية العقارية الصغيرة في جوار المدن ، قرب بيروت وطرابلس وصيدا وصور وبعبك ومرجعيون . ومن حالة العبودية للاقطاعي ، من حالة الالتصاق بالارض التي ليست له والتي لا يطمح ان يصبح مالكا لها بل من عند مقيد بها عن طريق العرف المتوارث عن الاسلاف (٥٧) ، إنتقل عدد من الفلاحين والمزارعين اللبنانيين — وان كان محدودا في الفترة الاولى — ليصبحوا عمالا زراعيين ، وحتى مالكيين صفار . وهكذا أصبحوا اكثر تحررا من ضغط البكوات والاغوات والمشايع ورجال الدين ، لقد سار فلاحو المناطق المضمومة الى المتصرفية على طريق رفاقهم فلاحي الجبل في امتلاك اراض كانت حكرًا على الاقطاعيين المسيطرين عليهم . « تلك كانت قديما قصة قرية الدامور ، التي استبعد المزارعون فيها ، عن طريق المفارسة ، ملكي القرية من أسرة آل شهاب » (٥٨) . وعلى غرارها حديثا بدأ انتقال اراضي العديد من القرى في الريف اللبناني الى فلاحين متوسطين و صفار .

ومهما كانت الضغوط المستمرة التي مارسها الاقطاعيون على المزارعين بموجب نظام المفارسة ، فقد لعب هذا النظام دورا بالغ الأهمية في المناطق المضمومة الى الجبل ، نظرا للحقوق التي وسخها للمزارعين وأبرزها حق المزارع في التملك . لقد كان من شأن هذه المفارسة ان تساعد على انتشار الملكية الصغيرة وتوسيع المزارع القليلة المشاحة ، خاصة تلك التي تشمل حصة المفارسة فيها الارض والاشجار . ففي هذه الحالة ، أكثر من سواها ، أخذ المالك الصغير يفتني الى الحد الذي يستطيع معه حيازة قسم من اراضي الاقطاعي المسيطر عليه سابقا .

د - بداية ظهور البروليتاريا الزراعية

بالإضافة الى المفارسة ، كانت حاجة المفوضية العليا الفرنسية مناسبة الى اليد العاملة الزراعية في لبنان وسوريا لتنشيط مواسم انتاج الحرير . فقد وزعت خلال عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ فقط أكثر من ٩٠٠ ألف نصبة توت في وسارعت بيوت المال الفرنسية بتقديم السلف الواسعة على كميات الحرير التي ستنتج . وجاءت حملة المفوضية العليا هذه لزيادة انتاج الحرير تخدم ، الى حد بعيد ، تجزئة الأراضي الكبيرة في الريف اللبناني . فهي بحاجة الى اليد العاملة بقدر حاجتها ، ان لم نقل اكثر ، الى الارض . لهذا كان تشجيع المزارعين الصفار أساسيا في برنامج تلك

(٥٧) J. Luquet «Le Mandat A et l'Organisation française en Syrie et au Liban» P. 158.

(٥٨) A. Latron «Op. Cit.» — P. 72.

(٥٩) السباعي «اضواء» ١٩٦٠ ص ١٩٦

لحملة ، خاصة وان قلة عدد هؤلاء ، والمتناقص باستمرار بسبب النزوح والهجرة ، عزز وضعهم الاقتصادي . فبين حاجة المفوضية العليا لهم لانجاح حملتها «الحريرية» ، وحاجة الاقطاعيين وتجار المدن وغيرهم من المالكين ، لتلك اليد العاملة في الزراعة خشية ان تصاب اشجارهم باليباس وارضيتهم الزراعية بالبوار ، فاندفع العديد من المزارعين والفلاحين الى هجر العمل القديم كمحاصص او مزارع ، والعمل بأجر يومي نقدي . وبرزت مجموعة واسعة من العمال الزراعيين ، والاجراء ، والبروليتاريا الزراعية ، وأنصاف البروليتاريا ، والاجراء الفصليين او الموسميين وغيرهم . وافتحت النقود ، التي أصبحت بحوزة هؤلاء العمال ، شراء أجزاء جديدة من اراضي الاقطاعيين الصفار او اراضي الدولة وغيرها . فقد قدر عدد العمال الزراعيين في عام ١٩٢٢ بحوالي ٧٩ ألف عامل (٦٠) ، متوسط الاجر اليومي للرجل منهم ٦٠ قرشا سوريايا لبنانيا ، مقابل ٣٠ ق. من بل للمرأة و ٢٠ ق. من بل للولد .

بيد انه يمكن القول ان الملكية الاقطاعية الكبيرة لم تلق منافسة جديدة من جراء المفارسة والعمل المأجور ، بل كان التنافس فقط في جوار المدن وفي المناطق الزراعية الكثيفة بالسكان ، حيث استطاع دخول المزارع امتلاك قطع صغيرة من الارض . وجاء انتشار العمل اليومي المدفوع نقدا يساعد على تحرر الفلاحين من الارض التي ليست ملكا لهم كي ينتقلوا الى انواع جديدة من الاعمال في المدينة والريف ، خاصة في صناعة النعج والحرير وكانوا ايدانيا بولادة نواة البروليتاريا اللبنانية التي وجدت اولى تنظيماتها السياسية والنقابية في الريف مع حزب الشعب اللبناني عام ١٩٢٤ .

هـ - بين الملكيات الكبيرة جدا والمتناهية في الصغر

أخذت ملكيات صفار الاقطاعيين غير المدعومين من الادارة الانتدابية بالتقلص تدريجيا لصالح الملكية العقارية الكبيرة ، والملكيات الفلاحية الصغيرة ، وشكلت نواة الملكية العقارية المتوسطة . هذه الملكية التي انبسطت في لبنان بين الملكية الكبيرة والبالغة الكبر من جهة ، والملكية الصغيرة والمتناهية في الصغر من جهة أخرى ، لم تتمتع بطابع الاستقرار في مجتمع شرقي يقول عنه جبالك ويليس انه «مشطور الى شطرين حادين بحيث لا توجد بينهما فئات متوسطة ولا طبقة وسطى . فالملكية الوسطى كانت حكرًا على اغنياء المدن ووجهاء الريف دون سواهم » (٦١) .

أضف الى ذلك ان أصحاب الاملاك الواسعة ، من الاقطاعيين الكبار والاغوات والبكوات ، لم يمازسوا العمل ولا السكن في الريف . وكان اليسورون منهم يمينون من قبلهم «خوليا» او «وكيلا» او «شوباضيا» مخلصا وذا خبرة للاشراف على املاكهم . هكذا الوكيل ، كان في الغالب مزارعا ناجحا او زعيما محليا او شيخا من الاسرة الاقطاعية نفسها . وكان هذا الوكيل يستغل اراض لحسابه الخاص ، لقاء مبلغ من المال او جزء معين من المحصول يؤديه للاقطاعي المالك . وسرعان ما اغتنى هؤلاء

(٦٠) H. C. «Rapport sur l'année 1922» — P. 294.

(٦١) Jacques Weulersse «Les paysans de la Syrie et du Proche-Orient» P. 120.

الوكلاء ووسعوا ثرواتهم الشخصية بعد أن أصبحوا ملتزمين لمناطق واسعة، ومدعومين مباشرة بسلطة الاقطاع المتنفذ على الصعيد الدولة، مما سهل لهم عملية استغلال الفلاحين إلى أقصى حد، وإلى امتلاك أراض واسعة على حساب بعض الاقطاعيين الأضعف نفوذاً وعلى حساب أملاك الدولة أيضاً. وعن هذين الطريقين تكونت الملكية العقارية المتوسطة، والتي انتشرت بشكل خاص في المناطق الملحقة من لبنان. وبقيت تلك الأراضي عديمة الاستقرار وتتبدل ملكيتها دوماً، خاصة ما قام منها على دعم الاقطاعي المتنفذ للمالك العقاري المتوسط.

لقد بقيت الملكية الاقطاعية الكبيرة السمة المميزة للملكية في الريف اللبناني. أما الملكية المتوسطة فكانت سريعة التبدل، في حين بقيت الملكية الصغيرة، الحديثة العهد هناك، غير ذي أهمية كبرى. يضاف إلى تلك الملكية الاقطاعية الواسعة، ملكيات من نفس النوع باسم الملكية المشاعية الواسعة الانتشار، وأملاك الوقف، والملكيات الكبيرة المشتركة غير المجزأة.

استمرار تمايز جبل لبنان عن سائر الأرياف اللبنانية

لا شك أن العلاقات الرأسمالية التي دخلت جبل لبنان منذ بداية القرن التاسع عشر وأربطت السوق التجارية في الجبل مباشرة مع القرب الرأسمالي (١٢)، خاصة فرنسا وبريطانيا، وضرب المقاطعية فيه بعد ثورة الفلاحين عام ١٨٥٨ وغيرها قد حدثت من سيطرة كبار الملاكين والمقاطعية على مستقبل فلاحي جبل لبنان وبدأ نفوذهم بالانحدار تدريجياً منذ قيام نظام المتصرفية هناك.

ومع مطالع القرن العشرين، كان نظام المفارسة ونظام العمل المأجور والمدفوع نقداً، ونظام استئجار الأراضي، وهجرة العديد من المقاطعية السابقين إلى المدينة والعمل هناك كوسطاء تجاريين، والهجرة المتواصلة من الجبل نحو بيروت والخارج، فرضت شروطاً أكثر ملاءمة لصالح الفلاحين وعلى حساب امتيازات المقاطعية السابقة. وجاءت الحرب العالمية الأولى والتي تسببت بوفاة أكثر من ثلث سكان الجبل اللبناني لتعزيز من وضع المتبقين فيه والعاملين في قطاع الزراعة إذ اضطرت المقاطعية والكنيسة المارونية المالكة لعقارات كثيرة إلى عقود أكثر انفتاحاً خشية بوار أراضيهم.

أما حملة تشجيع المفوضية العليا لتربية ذود الحريز فكانت بحاجة ماسة إلى اليد العاملة أكثر من حاجتها للأراضي، فجميع المناطق صالحة لزراعة التوت. لذا ساهمت المفوضية العليا مساهمة ناشطة في إعادة إنتاج الحريز إلى سابق عهده وأمدت المؤسسات المالية الفرنسية الفلاحين بالقروض والتسليفات والأعانات بسبب الأرباح الطائلة التي تجنيها من تجارتهم بالحريز اللبناني. وتنشيط الحريز أدى دوراً هاماً في إبراز دور الفلاح المنتج للخيرات لا الأرض.

(١٢) D. Chevallier « De la production lente à l'économie dynamique en Syrie » Annales 1966 — P. 65.

الجرداء القاحلة في الجبل مما زاد في أهمية هذا الفلاح وجعله يعي موقعه الطبقي من تقسيم العمل أكثر فأكثر. ومن توزيع الأرباح والملكية فكان يطالب بشروط أفضل ويعمل على التحرر نهائياً من سيطرة المقاطعية ويسعى إلى شراء العديد من مقاطعاتهم. أن هذا الوضع المميز لفلاح الجبل ساعده على سد العديد من حاجاته الضرورية والاحتفاظ بملكية خاصة لقطع من الأراضي وشراء قطع جديدة على حساب تفسخ ملكية المقاطعية. وتعززت بذلك مواقع الملكية العقارية الصغيرة كطابع مميز للملكية في جبل لبنان، وانتشر فيه العمال الزراعيون الاجراء بفضل زراعة التبغ والحريز أكثر من باقي المناطق. وكان ظهور هؤلاء المياومين الزراعيين، ولأول مرة في لبنان، ايداناً ببداية مرحلة جديدة لتحرر الفلاحين من سيطرة المقاطعية والكنيسة المارونية. وساهم الاجر النقدي والمنتجات الزراعية المرتفعة الاسعار كالحريز والتبغ، في تحسين وضع الفلاح الفقير في الجبل وفي توسيع ملكية الفلاحين المتوسطين والميسورين.

ان المرحلة الانتدابية الأولى، بفعل منا رافقها من تنشيط لانتاج الحريز خاصة في جبل لبنان، لعبت دوراً هاماً في تحسين وضع العمال الزراعيين والفلاحين هناك. فبقدر ما كانت المزرعات التجارية مصدراً لغنى التجار بها، بقدر ما كان التجار أكثر غدداً وأشد تنافساً على امتلاك المحصول، فيصبح المزارع والاجر والفلاح أكثر انفلاتاً من الضغوطات السابقة ويتحسن بالتالي مستوى معيشته ويتاح له شيء من البجوحة في السكن والمأكل والملبس وفي ادخار جزء من دخله يشتري به أرضاً صغيرة يمتلكها أو يضيفها إلى ملكية صغيرة سابقة.

ان تحرر العمال الزراعيين والفلاحين من سيطرة المقاطعية حررهم أيضاً من ارتباطهم بالأرض التي ليست ملكاً لهم، أو أرضهم التي لا تكفيهم مؤونة العيش. لذا بدأوا يغادرون مناطقهم بعد انتهاء مواسم الحصاد والحريز والتبغ ويتوجهون إلى المناطق الأخرى والمدينة طلباً للعمل وهرباً من البطالة القسرية التي تفرضها عليهم مواسم العمل بالذات. ومن هنا بدأ نشوء فئة واسعة من العمال الموسمين غير المستقرين الذين يرتحلون إلى المدينة ثم يعودون إلى أريافهم في مواسم الزراعة والحصاد. هذه الظاهرة بدأت في جوار بيروت ثم أخذت تتوسع فشملت معظم الأرياف اللبنانية القريبة من المدن وساهمت إلى حد بعيد في تأمين دخل للمزارع والفلاح طيلة أيام السنة، وحدث بالتالي من بطالته المستمرة خارج أوقات العمل الزراعي (١٣).

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن تشجيع المفوضية العليا للاصطياف امد جوار بيروت بمداخل ثابتة ووفيرة ودفع أعداداً كبيرة من الفلاحين والاجراء للعمل بهذا القطاع الصيفي. فبدأوا بتسويق منتجاتهم الزراعية دونما حاجة إلى مساهمة المدينة وجنوا أرباحاً لا بأس بها من اختلاطهم بالمصطافين، الأجانب والمحليين، الذين يتسمون جميعاً بطابع الغنى الفاحش. وقد استطاع هؤلاء الريفيون بفضل تأجير

— Latron — op. cit. — P. 113.

قسم من مساكنهم ، ويبيع محاصيلهم دونما سمسة ، وتقديم الخدمات للمصطافين ، والعمل اليومي بأجور نقدية ، والانتقال إلى المدينة للعمل فيها فترة من السنة ، كل هذه السمات وغيرها جعلت من جبل لبنان منطقة مميزة ، كما في السابق ، عن سائر الأرياف اللبنانية .

ففي حين استمرت سائر الأرياف على ما كانت عليه أيام الأتراك تقريبا ، استفاد جبل لبنان من سياسة الانتداب ليتعزز اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا ويتميز بوضوح تمام عن سائر المناطق اللبنانية .

بعض سمات الريف اللبناني في نهاية المرحلة الانتدابية الاولى

لم تنجح الإدارة الانتدابية ، لا بل لم ترغب في خلق الملكية الصغيرة في الريف ، كما وضعت في برامجها وقراراتها ، واستمر النظام الإقطاعي هناك الشكل البارز لسيطرة الملكية العقارية الكبيرة على الأرض . وبقيت ٧٨٪ (٦٤) من ملكيات سهل البقاع ، حتى عام ١٩٢٥ ، ذات طابع مشترك بين أفراد من أسر واحدة دون أن تجزأ تلك الملكيات الكبيرة ، وذلك بإعتراف الفرنسيين أنفسهم . أما في الهرمل مثلا ، فقد بقي ٩٣٪ من أراضي غير مستثمر حتى ١٩٧٢ بالذات . ومن أصل ٦٣،١٨٣ هكتارا هناك ، تقول الأوربان - لوجور ، لم يوجد سوى ٤٧٩٨ هكتارا من الأراضي المزروعة (٦٥) .

أن الفرنسيين أنفسهم حكموا على سياستهم الانتدابية في الريف اللبناني بما يلي : « أن نظام الملكية العقارية الباقية الكبر ، والملكية الواسعة غير المجزأة ، وأمالك الوقف ، وطريقة الاستثمار المتبعة منذ زمن بعيد والتي لا تبقى للفلاح سوى الحد الأدنى للمعيشة ، والانعدام الكامل للتعليم المهني والزراعي ، ولتشريع العقاري ، ولعقود العمل ، والطرق البدائية في الزراعة ، والهجرة الكثيفة إلى المدن والخارج ، والعشور والضرائب وأساليب حياتها ، والانعدام التام للتسليف الزراعي للفلاحين ، وقلة طرق المواصلات ، كانت من أبرز الصعوبات أمام تطور الريف اللبناني » (٦٦) . ونضيف في هذا المجال ، أن دعم كبار الإقطاعيين ، وأعطاء نظام السخرة طابعا قانونيا ، والإبقاء على الملكيات الكبيرة دون تجزئة ، وبقاء شعار « من يزرع لا يملك » ، ومن يملك لا يزرع » الذي كان سائدا في العهد التركي ، ساري المفعول أمام الانتداب ، وغيرها أيضا ، كانت أبرز السمات للريف اللبناني في نهاية هذه المرحلة من الانتداب .

لقد خضع سكان الريف اللبناني لنوعين متلازمين من الاستقلال يكمل أحدهما الآخر : استقلال مباشر من قبل كبار المتنفذين والكوات والإغوات والسياد والمشايخ الإقطاعيين عامة من جهة ، واستقلال من الدولة الانتدابية التي قدمت لأولئك المستقلين

— Charles Burckard « Le Mandat Français en Syrie et au Liban » — P. 15. (٦٤)

— L'Orient-Le Jour — No. 421 du 12 Août 1972. (٦٥)

— Achard « Notes sur la Syrie » — P. 80. (٦٦)

كل دعم ورفعتهم إلى مراكز السلطتين التشريعية والتنفيذية . لقد ربط المستقلون الخارجيون ، بشكل طبيعي وحتمي ، علاقاتهم السياسية والاجتماعية والإدارية والفكرية ، بالمستقلين في الداخل ، وشكلوا وياهم حلفا واحدا لاستغلال الفلاحين والمزارعين ونهب خيرات الريف ومدخراته النقدية والإنتاجية . أن السياسة الانتدابية الفرنسية في هذه المرحلة ، لم تجزء الملكية العقارية الكبيرة في الريف اللبناني ، كما وعدت هي بالذات ، بل قامت بترسيخ النهب الذي تم في العهد التركي السابق وأعطائه صفة قانونية لم تكن له في الماضي .

□ الفصل الثاني □
ملاع من الحياة الاجتماعية
□ اللبنانية □
□ البيت □ العائلة □ العمل □

١ - المسكن اللبناني

التجمعات السكنية

ان احدى السمات المميزة للحياة القروية في لبنان آنذاك ، ان القرى السهلية فيه كانت خالية تماما من وسائل الدفاع المادية كالحصون والقلاع وغيرها . فالقرية المحصنة كانت أمرا غير مألوف تماما ، والسكن القروي في السهل كان يعتمد على الامان من الخارج اكثر من داخل القرية المفتوحة على جميع الجهات . والتحصين المنظم والواعي لم يكن يظهر اطلاقا في جميع قرى لبنان ، الجبلية منها والقائمة في السهل . والقرية لم تتخذ طابع الجسم السياسي الموحد ولم تكن تطمح قط للاستقلال عما جاورها والاكتفاء الذاتي بمنتجاتها ، كما لم تكن تنعزل عن اجرائها حتى في اشد الظروف الطائفية العصبية التي كانت تمر بها بل كانت بيوت المسيحيين تفتح امام الاقليات المسلمة اثنان الحوادث كذلك الحال بالنسبة لبيوت المسلمين . فالقرية اذا ، لم تكن جسما مستقلا عما يجاورها من القرى بل كانت خاضعة ، اداريا وسياسيا ، لاسياد البلاد ، اتركا كانوا ام اقطاعيين محليين . والاختلاف الوحيد بين القرية الجبلية والقرية السهلية هو اختلاف في البناء والموقع والحماية الطبيعية وكان الجبل يرمته يعتبر حصنا يحمي قراه بوعورة مسالكه وضعوبة محاربة اهاليه . مما اكتسب الجبلين تاريخا من الحرية عبر العصور .

ان فهم التكوين العائلي والسلطة العائلية في القرية (١) ، امر في غاية الاهمية لمعرفة القرية الجماعية اللبنانية وخصائصها ، في السهل والجبل على السواء . فالقروي لا يترك قريته وعائلته الا في ظروف العسر المتناهي ، وهو مرتبط بوجدان الجماعة التي ينتمي اليها حيث يتغلب لديه الشعور الجماعي اكثر من الشعور الفردي .

(١) — A. LATRON « Sn Syrie et au Liban : village communautaire et structure Sociale » — P. 233.

فأفكار الفلاح وعواطفه وردود فعله لا تفهم تاريخيا إلا بربطها بتلك الروح الجماعية التي سيطرت عليه (٢) داخل نظام انتاجي اقتصادي شبه مغلق .
 ان بنية العائلة اللبنانية تكاد تتشابه في السهول والجبال . غير ان القرى السهلية ، بحكم السيطرة الاقطاعية الزمنية عليها ، كانت مجموعة من البيوت والاكوخ غير المبنية على الارض بناء راسخا . فالارض التي شيدت عليها تلك القرى والمزارع لم تكن ملكا للفلاحين بل للاقطاع ، والفلاح المعدم مربوط بهذه الارض بحكم العادة والاعراف وأبشع مظاهر الاستغلال والسيطرة . لذا بقيت بيوتها من الطين واللبن وجذوع الاشجار . فهي مأوى للعمل الاجباري وليست منزلا للفلاح الحر ، في حين كانت قرى المنحدرات والجبال ذات رسوخ على الارض التي كانت في الغالب من صنع الفلاحين الفقراء الذين بدأوا يوسعون ملكياتهم وبيوتهم منذ بداية تحررهم من سيطرة المقاطعة في منتصف القرن التاسع عشر مع ثورة طانيوس شاهين .

دلالة البيت اللبناني في الريف

وعلى العموم ، كانت مساكن اللبنانيين تنقسم الى فئتين كبيرتين : البيت اللبناني القديم ذي السطحة او « المصطبة » ، وهو واسع الانتشار في جميع المناطق اللبنانية . والبيت « البيروتي » او على الطراز الغربي ذي السقف القرميدي (٣) . فالاول يذكر بأبنية الداخل العربي وأبسط نموذج له ذلك الذي يشتمل على حجريتين وليوان او رواق او ردهة . ولما كانت الامطار الشتوية غزيرة التهطل في لبنان ، فقد كان اللبناني مضطرا الى بناء منزل يمكن الانتقال فيه من حجرة الى اخرى دون المرور خارج الفناء او الرواق المسقوف . لذا كانت الحجرتان تفصلان برواق مسقوف يسمى مركزا للالتقاء بين افراد العائلة وقاطعا بين الذكور والاناث لدى بعض الطوائف او حتى بين الزوجات في حال تصيدهن .
 أما النموذج الثاني فدليل على الفنى والجاه ويبرر نشوؤه أصلا بتأثير العمارة الغربية . فحيازة بيت ذي سقف احمر من القرميد ، خارج بيروت ، كانت تدل على الرفعة والجاه ، وعلى ان صاحبه من الاعيان او مهاجر ثري . ومع ازدياد اقبال المصطافين أصبح يرجى منه جذب هؤلاء للإقامة فيه صيفا .
 والبيت اللبناني ، في المدينة والريف ، كان دليلا حسييا ملموسا على وضع صاحبه الاجتماعي من حيث الفنى والفقر . فبيت الفقراء كان يتألف من غرفة واحدة او كوخ للعائلة والحيوانات والمؤن والمطبخ وهو مائل الى السواد بفعل الدخان المتصاعد من « مطبخه » . هذه الحجرة لا يدخلها الهواء النقي ولا النور . وليس امامها اية فسحة ولا تدخلها الكهرباء ولا المياه .
 واذا ما ارتفع دخل الفلاح او العامل أصبح المسكن غرفتين اي استطاع اخراج الحيوانات والمؤن والمطبخ من تعداد « سكن العائلة » .

(٢) — J. Weulersse « Les paysans de Syrie et du Proche-Orient... » — P. 240.
 (٣) — R. Thoumin « La géographie humaine de la Syrie centrale » — P. 294.

وبيت الوجهاء واعيان الريف يحتفظ بطابع الحجرة الواحدة بعد ان تصبح أرحب مدى واكثر انسارة وتهوية ، ثم تضاف اليها غرفة ثانية للنساء وثالثة لاستقبال الضيوف التي تؤثث على الطراز المحلي فتوضع الدواوين على جوانبها ليتذوق عليها الزائرون قهوة الترخيب (٤) .
 اما الاناث الريفي فكان متشابهة تقريبا . فهو من البساطة في كل مكان بحيث كانت متطلبات الحياة اليومية كالاكل والاستراحة والنوم تجري كلها على الارض . فلم يكن هناك أسرة للنوم ، حتى عند الميسورين من سكان الريف . والسرير هناك ، اذا ما وجد ، كان خشبيا وليس معدنيا طيلة تلك الفترة .

مسكن فقراء الريف والمدينة

بيت الفلاح الريفي المعدم هو مكان العيش وكان العمل في الوقت ذاته . وبهذا تتحدد البنية الاجتماعية لهذا البيت . فداخله تمر حياة الفلاح الاجتماعية والاقتصادية من البهد الى اللحد . هذا الفلاح ، لم يكن يشتري ، مبدئيا ، شيئا من الخارج . فقد كان عليه ان يعيش فقط من محصوله الخاص ، او بعبارة أدق ، مما تتركه له الدولة والقطاعي والمراي من المحصول . فلا شراء من الخارج ، وأحيانا لا اتصال مع هذا الخارج . هذا هو الاطار الاجتماعي للاقتصاد المغلق ، لاقتصاد البؤس والجهل والعبودية للأرض التي عاشها الفلاح الفقير في الريف اللبناني . لا تعليم ، ولا وقاية صحية ، ولا كهرباء ، ولا ماء ، ولا امتلاك للأرض التي يفني عليها حياته ، ولا حتى للكوخ الذي يقيم فيه مع افراد عائلته . ولا الأمل في التحرر من تلك القيود الثقيلة (٥) . فبيته ، والارض التي يعمل عليها ، وقوة عمله ، وفائض الانتاج ، قد امتلكها الاقطاعي دون سواه وأضاف اليها « تمثيلة الحر » لهذا الفلاح في المجالس المحلية والعامرة اذا وجدت .

ومسكن هذا الفلاح ، كمسكن الفقير المعدم في المدينة ، عبارة عن كوخ حقير في وحام من الاكوخ المشابهة . والكوخ عبارة عن فسحة محدودة الابعاد ومسقوفة بجذوع الشجر والأتربة ولها من الارتفاع بمقدار ما يلامس رأس الواقف سقف ذلك الكوخ فيضطر للانحناء كما تعود الفلاح في حضرة سيده الاقطاعي .

وتختلف مواد البناء في هذا الكوخ ، من منطقة الى أخرى . فهي من الحجر منارة ومن الطين المشوي منارة أخرى .

وكوخ المدينة يسقف بقطع من الصفيح القديمة والاخشاب التي توزع كيفما اتفق (٦) . وتتم « التهوية » عبر فتحتين تؤدي احدهما دور الباب والاخرى دور النافذة . و« المطبخ » في كوخ المدينة يقوم على جانب الشارع ، كذلك المراض ،

(٤) — J. Weulersse « Les paysans de Syrie... » — P. 236.

(٥) كان من مطالب الحركة الفلاحية التي اندلعت في عكار ١٩٦٩ ان يسمح للفلاح بدفن موتاه في الارض وليس على جوانب النهر .

(٦) — S. Chehab-ed-Dine « La géographie humaine... » — P. 333.

أما في القرية فالمطبخ هو جانب الجدار الإمامي للكوخ ، إذا كان من الحجر ، أو كومة من الحجارة القريبة ، إذا كان الكوخ غير حجري البناء . والمرحاض يحتل مساحة واسعة من الأراضي المجاورة للكوخ .
هذا الكوخ يفتقر إلى المياه والكهرباء سواء في المدينة أو الريف . والبحر قرب المدينة يقوم مقام الحمام صيفا (٧) ، كذلك النهر أو الساقية يلعبان الدور نفسه للقرية . وتفصل الملابس وتنشر على ضفاف النهر أو الساقية أو البحر أو البركة للمياه الراكدة التي تتجمع من أمطار الشتاء وتلعب دور المشرب للإنسان والحيوان .
أما أثاث الكوخ فلا يختلف كثيرا بين الريف والمدينة . فهو عادة فراشان قذران مصنوعان من الخرق البالية ويسطان على الأرض أو على دكة خشبية يطلق عليها اسم « الديوان » أو « الطر » أو « الدشك » وذلك حسب المناطق .
والكوخ دوما مرتع للجرذان والفئران بسبب الحبوب والأجبان ، مما يضطر سكان الكوخ إلى تعليق الخبز و « الجبنة » و « الشنكليشة » وبقايا الزاد اليومي ، على عمود الكوخ والا فقدوا غذاءهم لليوم التالي .

إن قرية الفلاحين المعدمين ليست سوى مجموعة من هذه الكواخ تشابه مع مثيلاتها في المدن وتختلف عنها فقط بوجود منزل البيك أو الأغا أو الإقطاعي في الريف . فبالرغم من أن هؤلاء الإقطاعيين هم من سكان المدن ويحتقرون حياة الريف والبؤس العميق المتوارث فيه ، فإن هذا الإقطاعي كان يبني لنفسه بيتا حجرياً لتمضية بضعة أيام هناك أثناء مواسم الحصاد . لذا تميزت قرى الفلاحين المعدمين بشط شبه موحد في معظم المناطق المضمومة إلى جبل لبنان عام ١٩٢٠ : ففي وسط أراضي الإقطاع الواسعة تقوم مزارع صغيرة هي عبارة عن بعض الكواخ المتراسة جنباً إلى جنب ، والقليلة العدد جداً . وعلى مكان قريب منها ، لكنه معزول عنها ، وقرب النبع أو البئر بالذات ، يقوم منزل وحيد ، مربع وحجري ، ينزل فيه الإقطاعي عند مزوره بالمزرعة (٨) . والأشجار الوحيدة في الجوار هي أشجار البساتين التي تحيط بذيالك المنزل وتمتد خلفها مساحات شاسعة من الأراضي البور . وقرب ذلك المنزل يبادر الحصاد التي تصب غلالها في منزل الإقطاعي دون سواه . ومنه بالذات تجري عملية إعادة توزيع لبعض الانتاج على شكل قروض بفوائد فاحشة أو تسليفات تعطي للفلاح لقمة العيش وتستلبه كل نفحة من حرية أو استقلالية عن البيك وأزلامه وواوئيه .

مسكن الفلاح المتوسط والعامل الميسور

هذه الفئات الاجتماعية هي كبيرة العدد نسبياً . ففي الريف (٩) ، كان الفلاح المالك الصغير يعيش في بيت واحد مع جميع أفراد أسرته مهما بلغ عددهم . وكان هذا البيت ملكاً له وتم بناؤه بمساعدة أفراد الأسرة أنفسهم والأقارب والجيران .

— S. Chehab-ed-Dine — op. cit. P. 333.

— J. Weuleresse « Les pays des Allaouites » — P. 364.

— A. Latron « La vie rurale... » — P. 113.

(٧)

(٨)

(٩)

وكان الابن المتزوج ، في أغلب الأحيان ، يبقى في البيت مع والديه وأخوانه وأخواته وبضيف اليهم الزوجة الجديدة كذلك الأولاد فيما بعد ، أو يبنون له غرفة ملاصقة للبيت الأبوي يسكن فيها مع زوجته وأولاده . وإذا كانت العائلة على شيء من اليسر ، ابنتت لها غرفة أخرى للمؤونة واسطبل للحيوانات . وغرفة المؤونة عادة حجرة واسعة لتخزين الحبوب وصنع الخبز وطهي الطعام . فهي مطبخ ومستودع في الوقت نفسه . وبيت هذه الأسرة عادة من الحجر المسقوف بجذوع الأشجار ، لكنه في بعض المناطق ، من اللبن والطين . أما أثاثه فيعتمد على بعض الكراسي من القش وطاولة الطعام أحياناً وحصر وطاقس أو طراريج . والمنامة تبقى دوماً على الأرض . فالفراش من الصوف واللحاف من القطن ، وفي بعض الأحيان تضاف إليها أسرة من الخشب ، خاصة في الصيف ، على سطح المنزل ، كذلك سرير خشبي أو مرجوحة للطفل الصغير . ونادراً ما عرفت هذه الفئة في الريف ، المراحيض ، بل بقيت تعتمد على البرية في قضاء حاجاتها أو « بيت الخلاء » حسب التعبير المستخدم حتى اليوم .

أما في المدينة (١٠) ، فعائلة العامل الميسور تعيش عادة في بيت حجري مبني قبيل الحرب ومؤلف من حجرة واحدة فقط ومن مطبخ ومرحاض تفصلهما عن حجرة السكن حديقة صغيرة هي كناية عن أرض زراعية خصبة يقوم العامل نفسه بزراعتها ببعض الخضار كالبصل والثوم والبقدونس والخس والفجل وغيرها . ومطبخ هذه العائلة عادة من الخشب القديم المشقق مع بعض ألواح التوتياء . هذا المنزل هو ملك للعائلة أو مستأجر . أما أثاث حجرة السكن فعبارة عن سرير للزوجين تم شراؤه قبل الزواج ، ومن فراشين اثنين ، وسرير خشبي إن كان هناك من أطفال ، مع خزانة خشبية وعدة كراسي . والبيت مزود كذلك بالكهرباء والماء وله باب واحد يفتح على الحديقة .

مسكن تجار المدن وأعيان الريف

يتكون مسكن التاجر الصغير في بيروت عادة من بيت حجري مؤلف من غرفتين وردهة وشرفة وحمام عربي ومرحاض . ويرقى إلى هذا المنزل بسلم خشبية خطيرة أحياناً . ويكون المنزل مجهزاً بالكهرباء ومزوداً بمياه الشرب . وتزين كل حجرة بسريرين وخزانة للملابس وتستخدم الردهة كقاعة للاستقبال ومنامة للأولاد عند مجيء الضيوف (١١) . وجميع الغرف مضأة بالكهرباء ، والمسكن مزود دوماً بمياه الشرب النقية . أما المطبخ ففيه أثاث حديث وعلاقات للصحون ، وطاقير ودزينات من الملاعق والسكاكين والشوك ، كما يضم أيضاً طاولة خشبية للطعام مع عدة كراسي .

وكلما ازداد اللبناني غنى ، ازداد مسكنه اتساعاً وأثاثه فخامة وأناقة . لذا كان منزل كبار التجار والنواب والوزراء ، خاصة في بيروت ، ملكاً لهم والقليل منهم يسكن بالإيجار ويتكون من ثلاث غرف للنوم أو أكثر ، وقاعة أو اثنتين للاستقبال ، وردعتين ،

— S. Chehab-ed-Dine — op. cit. — P. 335.

— S. Chehab-ed-Dine — op. cit. — P. 338.

(١٠)

(١١)

وغرفة للطعام ، ومطبخين وحمامين . وكان البناء بالغ الاناقة ، وأحيانا لا يشاركه في سكنه أحد بل عبارة عن فيلا ضخمة مستقلة بنيت على طراز العمارة الفرنسية أو الإيطالية ، زينت جدرانها بالنقوش والرسوم الجميلة ، كذلك شبابيكه بالزجاج الملون . وعلى مدخله أقيمت بركة للمياه ، وعلى جانبيه أشجار وارفة الظلال تحضن منزلا للخدم وكاراجا للسيارة . هذه الفئة الفنية كانت تسكن في أحياء خاصة بها أبرزها حي السراسقة في بيروت ، على مقربة من منزل المفوض السامي الفرنسي وكبار موظفي الإدارة . أما أثاث المنزل فمن الخشب المطعم بالذهب أو العاج ، ومعظمه من صنع أشهر صالات العرض في إيطاليا وفرنسا .

أما مسكن أعيان الريف واقطاعيه فكان مزدوجا : مسكن أساسي لهم في المدينة ولا يختلف بشيء عن منازل اليسوريين فيها وليس الاغنياء . ومسكن آخر في الريف ، وهو عبارة عن بيت حجري كبير يشتمل داخله على « مضافة » . وكان للعديد من أعيان الريف منازل شبه مهجورة في مناطقهم ، إذا كان سكنهم الأساسي في المدينة ، ومنازل بسيطة الأثاث والبناء إذا كان الوجه متوسط الحال .

كانت الهوة عميقة جدا بين منازل اغنياء المدن ، خاصة كبار التجار منهم ، ومنازل أعيان الريف الساكنين فيه وحتى المقيمين في المدن . ففي حين جلبت التجارة واردات ضخمة لأولئك التجار بحيث اغتنت جيوبهم « وأبت دراهمهم إلا أن ترفع أعناقها » فكانت قصورهم الفخمة وكان أثاثها الفاخر ، بقي المردود الزراعي الضئيل لا يكفي لاعالة الاقطاعي وسد نفقاته المدنية ناهيك باعاشة الفلاحين وعوائلهم . لقد بدأ بعض الاقطاعيين منذ ذلك التاريخ يسعون جديا لاحتلال مركز تجاري أو منصب في إدارة الدولة يدر عليهم أرباحا وجاها وعمارة وثروة بحيث تصبح موارد الريف احتياطا لمداخيلهم لا مصدرا أساسيا لمعيشتهم وترفعهم .

٢ - العائلة اللبنانية

بنية العائلة اللبنانية

كانت العائلة تلعب دورا في المقام الأول في حياة اللبناني ، سواء كان في المدينة أو الريف . فالعائلة بالنسبة للفلاح خاصة ، هي الذات والوطن (١٢) . وفي تشبث بها ، كان الشعور العائلي لديه يتحول إلى شغف بها وخضوع تام لها يستولي على جميع ملكاته الفكرية . فالقانون الواحد الذي يخضع له طوعا ، أنه ما دام قد تلقى الحياة في عائلة محددة فعليه أن يهبها بدوره كل طاقاته الجسدية والفكرية دون تذر . فالعائلة هي الأسرة في المقام الأول ثم تمتد أحيانا فتصل إلى الدرجة البعيدة من القرابة . لذا تتحدد علاقة الفلاح ابتداء من الأقرب بالدم ويتجسد المثل القائل « أنا وخي عا ابن عمي ، وأنا وابن عمي عالفريب » بمؤازرة الأكثر قرابة في النسب .

— J. Weulersse « Les paysans de Syrie et du Proche-Orient » — P. 216.

هذه البنية العائلية شديدة الانطباق على عائلات لبنان بجميع طوائفه الدينية (١٣) ، كما هي أيضا بالنسبة للعائلة الشرق - اوسطية عامة . صحيح أن للعائلة اللبنانية استقلاليتها النسبية ، غير أن تلك العائلة تقوم أيضا على صلة الدم والقرابة وتقوم على الارتباط الوثيق بالأرض كما هو الحال في الأطوار الاجتماعي للعائلة في الشرق الاوسط . فالبيت ليس بناء ماديا فحسب بل وروحي كذلك . والأفراد - كما يقول د. شغاليه - في جبل لبنان ، لم يحققوا ذاتهم إلا أزواجا بالنسبة للآخرين . ذلك أن وجودهم الاجتماعي لم يتم تعريفه إلا داخل جماعات مغلقة ، وبالنسبة لجميع هذه الأسر بعضها إلى بعض (١٤) . فوجود العائلة كان ضرورة اجتماعية آنذاك وله مبرره التاريخي خاصة في الجبل اللبناني ، إذ أن العائلات الفلاحية فيه كان عليها أن تتجمع وتتعاقد للحصول على إنتاج جيد وتسهيل عملية استثمار الأرض الصخرية . أما الأسر الاقطاعية أو المقاطعية فكان عليها أيضا الاحتفاظ بتجمعاتها وبالتالي إمكاناتها الاجتماعية . التي تركز على وجودها كعائلات مقاطعية بالدرجة الأولى ، وكعائلات تحافظ على وحدة أراضيها غير مجزأة بالدرجة الثانية . ذلك أن قسمة الأراضي لا تخدم المقاطعي ، ولا تخدم عائلته كذلك ، كما هو الحال بالنسبة للفلاح والمالك الصغير . وتقسم الأراضي كثيرا ما كان يقود إلى تأخر العائلات المقاطعية السياسي بالنسبة لها وللجماعات الفلاحية المرتبطة بها . فالعائلة إذا تكون قوية بقدر ما تسيطر على أراضي غير مجزأة يعمل عليها فلاحون محاصصون أو أتباع لها ، أي بقدر ما كانت تشكل حولها مجتمعا يقوم على الملكية غير المقسمة للأرض . وبالحرص على هذا الشكل من الملكية يمكن تفسير الزواج اللحمي أو الزواج من أبناء العم ، لا في جبل لبنان وحده بل في جميع المناطق اللبنانية ولدى جميع الطوائف ، وأن بدرجات متفاوتة . أن مجتمع العائلات ذوات الملكية غير المجزأة والقائمة على أفضلية الزواج اللحمي هي إحدى السمات الرئيسية للعائلة اللبنانية آنذاك .

الزواج المبكر

والعائلة ، في نظر اللبناني ، لا تنفصل عن الزواج . فالزوجان يشكلان « عيلة » . والفردية لا وجود لها . فالفرد « المعزول » ، الفرد العازب في سن الرشد ، ظاهرة غريبة وشاذة . « فليس للفرد وجود إلا بعائلته ومن أجل عائلته » (١٥) . لذا فالزواج يتم دوما في سن مبكرة . وبصورة عامة ، كان من النادر أن يبقى الشاب ، من أمة طائفة كان ، عازبا بعد سن العشرين . ويعتبر الزواج في الريف كما في المدينة أسعد حدث في حياة الإنسان . لذا فأكبر سعادة يحلم بها الآباء هي تزويج أبنائهم وبناتهم قبل الشيخوخة والوفاة . وهذا ما يفسره الدعاء أو الأمانة التي تتردد في جميع المناسبات السعيدة « ان شاء الله بتزوج الكل عاحياتك » . فاستمرار الشاب عازبا

— M. Feghali « La famille maronite » — P. 7.

— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » — P. 73.

— J. Weulersse — op. cit. — P. 216.

بعد سن العشرين ، خاصة في الريف ، كان عارا مذلا على نفسه وعلى عائلته . ونادرا
جد ما كانت هذه الظاهرة واسعة الانتشار الا في حالات الامراض المستعصية . لذا
فنسبة الزواج تبلغ حدها الاقصى في الارياض حتى ينعدم وجود العازبين والعازبات
تقريبا . وفي الواقع ، قلما كانت توجد عوانس في لبنان آنذاك الا لأسباب قاهرة . فالبنات
العوانس مذلة بل عار لعائلتهن (١٦) . وهذا ما يفسر التشاؤم المبكر على مصيرهن
منذ الولادة . ويشهد على ذلك المثل القائل : « خير للبنات ان تتزوج خشبة من ان
تبقى عانس في بيت أبيها » .

والتفاوت في سن الزوجين كان نتيجة ملازمة للزواج المبكر . فالذكور عادة
يتزوجون بين الخامسة عشرة والعشرين ، والفتيات في سن الرابعة عشرة أحيانا . وإذا
زاد هذا التفاوت أصبح ملفتا للنظر في بعض الاحيان ولو ان اقتران رجل في سن
الثلاثين من صبية في الخامسة عشرة كان كثير الحدوث في المدن خاصة . وكان الآباء
يترددون في تزويج بنت في الرابعة عشرة الى رجل مسن بعد الاربعين . بيد ان
الزواج يتوقف بالدرجة الاولى على مشيئة الاب . وكان مثل هذا الزواج المبكر يؤدي
الى أوخم العواقب . فقد كانت نسبة الوفيات في الولادات الاولى مرتفعة الى اقصى
حد . كما كانت نسبة الوفيات بين الامهات خلال أول وضع كبيرة جدا ، كذلك الحال
بالنسبة للأطفال دون السنة . ويفسر ذلك انعدام الوقاية الصحية التامة ، خاصة
في المناطق ، وجهل القرويات المطبق لأبسط قواعد الوقاية ، كذلك الحر الشديد
اثناء الصيف والبرد القارس في الشتاء . يضاف الى ذلك ان هذا الزواج المبكر وقبل
النضج أحيانا ، كان بالغ الضرر على الام وطفلها حيث ان الامهات الصغيرات السن ،
كن ما زلن قريبات العهد بالطفولة ولم تكن لديهن الدراية الكافية والصبر على
تربية أطفالهن .

الزواج من بنت العم

في معظم أسر العائلات الشرق - اوسطية ، سواء البدوية منها ام الحضرية ،
كانت هناك افضلية مطلقة للاقتران ببنت العم (١٧) . لذا تميزت العلاقات الاجتماعية
داخل القرية اللبنانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بصرف النظر
عن الطائفة التي ينتمي اليها سكان تلك القرية ، باضفاء صفة الافضلية تلك على
الزواج من ابنة العم (١٨) . وعلى العموم ، كان لابن العم ، عند جميع اللبنانيين ، حق
الاولوية في خطبة ابنة عمه ، على ان يكون هذا الحق متدرجا من ابن العم الاقرب الى
الابعد . وكان هذا الحق محترما الى حد بعيد عند جميع القرويين اللبنانيين ، وان
كان تطبيقه اقل نسبة بكثير عند سكان المدن .

— M. Feghali — op. cit — P. 7.
— J. Berque « Normes et valeurs dans l'Islam contemporain : deux cas de
compromis entre droit universaliste et réalités locales » — P. 137.
— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » — P. 66.

(١٦)

(١٧)

(١٨)

الكنيسة المسيحية نفسها (١٩) — كما يقول المونسنيور ميشال فغالي — وبالتالي عن
حاجة المسيحيين الماسة الى الانضواء في عائلات متماسكة ومتراصة ، كما هو الحال
بالنسبة للعائلات الاسلامية ، خاصة تلك الواقعة منها على رأس السلطة .

بيد ان هذا الوضع بدأ يتغير مع بداية القرن العشرين . وبدأ التغير شديد
الوضوح لدى الطوائف المسيحية في لبنان ، مع عدة قرارات اصدرتها الكنائس فيه
وتناولت حالات عدة تمنع الزواج : بين ذوي القربى الدموية ، وبين الاقارب الذين
تجمع بينهم صلة النسب او المصاهرة او يجمع بينهم العماد . فالعراب مثلا لا يجوز
له الاقتران بابنته في المعمودية . وتشددت بعض الطوائف المسيحية فمنعت زواج ابن
العراب كذلك من تلك البنت وحتى الزواج من ابنة العم والخالة .

لقد ظهر نموذجان اثنان في لبنان أيام الانتداب للزواج من ابنة العم : الاول
مسيحي يحرم الزواج منها شرعيا ، والثاني مسلم يندرج مع الاغلبية الساحقة لشعوب
سكان المنطقة ويعطي الافضلية بدرجات متفاوتة بين الطوائف لهذا القران . وهكذا
بدأ المسيحيون ينفصلون تدريجيا ، خاصة في جبل لبنان ، عن قواعد ارتباطهم الوثيقة
بالشرع الاسلامي عبر مئات السنين ، فأخذوا يشكلون حالة متميزة وجديدة حتى ان
جاءك برك يصف هذا الوضع بالقول : « لم يعد هناك خلاف بين حق واحد وعادة
واحدة فقط بل بين حقين وعادتين » (٢٠) . لقد بدأ المسيحيون يتوجهون شطر الغرب
في تشريعات الزواج والطلاق والارث ، هذا التوجه ، وان كان عميق الجذور ويعود
الى القرن التاسع عشر ، لم يكن يجرؤ على الظهور بوجهه المستقل الا في أيام
الانتداب بالذات وبتشجيع من الفرنسيين انفسهم .

كثرة الاولاد

لم يكن هناك أي تحديد ارادي للنسل . فالدين يعتبر ذلك جريمة لا تفتقر .
كذلك القانون . كما ان مصلحة العائلة ، ومصلحة الاهل تقضيان بانجاب أكبر عدد
ممكن من الاولاد . لذا كانت نسبة المواليد مرتفعة جدا . والعائلة العديدة الاولاد
هي القاعدة لجميع الطوائف اللبنانية في تلك الفترة في مجتمع تحتل الزراعة فيه المكان
الأكبر في الاقتصاد (٢١) . والناس يأملون بزيادة تخلفهم وتساعدتهم في الحقول .
فالتضامن في العمل والحاجة الماسة للأيدي العاملة كانا في أساس الدعوة الى الاكثار
من الاولاد حسب نظام القرابة السائد لأن حراثة الارض القروية تعتمد على القطع
الصغيرة في الجبل والتي تتكيف حسب شكل وأسايب الجهد الانساني المبذول
لاحياؤها . وقطعة الارض تلك ، التي يزرعها الفلاح اللبناني ، خاصة في الجبل ،
سواء كان مالكا لها أو محاصصا فيها ، تخضع دوما لجهد العائلة بأسرها . ان
ممارسة التضامن الجماعي والذي فرضته أساليب التقسيم الاجتماعي للعمل بالذات ،

— M. Feghali — op. cit. — P. 11.

— J. Berque — op. cit. — P. 132.

— E. Safa « L'émigration libanaise » — P. 167.

(١٩)

(٢٠)

(٢١)

فرضت كثرة الاولاد عند جميع الطوائف اللبنانية .
وعندما يقولون « ولد » كانوا يعنون الصبي وليس البنت ، « اذ لا حساب للبنات فيما يتعلق بتعداد العائلة » (٢٢) . والبيت الذي يخلو من الصبيان بيت نزلت عليه اللعنة الالهية . ويقول المثل الشائع « البيت اللي ما في ولد الله ما يباركه » كذلك « من خفف ما مات » .

والآباء كانوا يرون بكثرة الاولاد مصدرا للجاه وطاقات هائلة للعمل ، وقوة يواجهون بها الآخرين ، وكانوا يحرصون على اختيار فتيات لابنائهم متينة البنيان ، تامة الصحة ، وينتمين الى عائلات تمتاز أيضا بكثرة انجاب الاولاد . وكانت الاسئلة الخفية تدور حول « ماضي » ام العروس وسلوكها وشخصيتها فالمثل الدارج « طب الجرة عاتما (فمها) البنت بتطلع لـ اما (أمها) » يلخص ذلك الحرص على تلك الاسئلة . ولدى جميع الطبقات والفتات الاجتماعية في لبنان ، كان مولد الذكر أشبه بعيد يملأ البيت فرحة وجورا . ففي الاوساط المسيحية والفنية ، تسرع القابلة الى الوالد الجالس في قاعة مجاورة بين الاهل والاصدقاء ، تزف اليه البشري السعيدة وتنادي « حلويتها » بالليرات الذهبية . عندها تنطلق مظاهر الفرحة الصاخبة من عقالها ، خاصة في الريف ، ويسارع الحضور الى تقبيل الوالد السعيد ، ويعتلي الشبان المتحمسون سطح المنزل او السطحة التي أمامه ويبدأون باطلاق رصاص البهجة . ويبدأ الجميع بالرقص والفناء ، وشرب العرق والتبذير عند المسيحيين ، وتدور الحلويات والسكرات ومرات ومرات على الحاضرين (٢٣) . واذا كان الوالد وجيها ، وزعيما سياسيا ، يرتدي الحدث طابعا سياسيا واضحا ، وتبدأ الوفود تتنالي من القرية والقرى المجاورة لتهنئة الزعيم وكأنهم بذلك يعلنون ولاءهم المبكر للسيد ابن السيد ، زعيم المنطقة في المستقبل . ويظهر الزعيم سخاء منقطع النظير ، وتنهل هدايا الفلاحين على البيك من خراف وحماز ودجاج والبان وسمن وأرز وسكر وغيرها . فولادة الذكر لدى السياسيين خاصة كانت تتسم بفرحة شاملة عند جميع مناصريه ، وكان العناية الالهية شاعت الا « يفرغ العرين من الاشبال » ، والويل كل الويل لمن يتقاعس في تهنئة البيك ، فلديه سجلات وأزلام يرصدون ، في الافراح والمآتم ، المتقاعسين المعارضين لسلطوته . لقد كان الوجهاء والسياسيون يبالفون عمدا في أضفاء طابع سياسي بارز على جميع حفلاتهم الاجتماعية ويعتبرون ذلك مقياسا لشعبيتهم ونفوذهم .

كذلك كانت ولادة الذكر مصدر بهجة عند الفقراء والفلاحين . فالذكر يعني بدا عاملة قوية تساند الاسرة وتساعد في أعالتها وتمدها بالانجاب الضروري لبقائها . أما ولادة البنت ، فكانت ، لدى جميع الطبقات ، مصدر أسى وحسرة ، خاصة بين النساء الكبيرات في السن واللواتي يرددن : « عندما تولد البنت تحمل عتبة البيت الحداد اربعين يوما » او « خبروا السلطان الرصين فأصبح معتلا حزينا » ، وغير ذلك من الامثال التي تحط من قيمة البنت . وتلبث القابلة صامدة دون ان تنال الحلوة .

— M. Feghali — op. cit. — P. 7.
— M. Feghali — op. cit. — P. 8.

أما الاهل والاقرباء فينسحبون صامتين ويتوجهون الى منازلهم دون تهنئة لأحد . فعندما تولد الانثى ، لا يزعم الرجال ، حتى من الاقرباء ، خاطرهم بزيارة والد والدة البنت بل تأتي النساء فقط لزيارة الام . فالبنت تعني عارا للعائلة لا يمكن تجنبه الا بوفااتها . وطالما هي على قيد الحياة ، وحتى بعد زواجها ، كانت مسؤولية أعمالها تعتبر أصلا على عاتق أسرته التي ولدت فيها وعلى كاهل والدتها بالذات . فالفتاة ينظر اليها ، لا كعضو ثابت ، من أعضاء العائلة بل كجزء منفصل عنها تقريبا . وبالتالي واجب العائلة فقط اعالة الفتاة حتى تحظى بعريس يزوجونها اياه في أقرب وقت ممكن .

ان ما يلفت النظر في هذا المجال ان القدرية وجدت طريقا واسعا لها في صفوف سكان الريف اللبناني ، ذكورا واناثا . فنظرا لكثرة الولادات والانجاب المستمر ، كانت وفاة الوليد تعتبر حادثا عاديا في كل مكان ، ولا تثير الكثير من الحزن والاسى . ان امورا اسوأ من ذلك كانت تحدث في حالة وفاة البنت في سنها الاولى ، حتى ان بعض النسوة ما كن يخفين شعور الفرح في بعض المناطق اثر وفاة مبكرة للبنت . وكثيرا ما كانت تتردد عبارة « يا الله ! ارتاحت وريحت اما » (ارتاحت وجلبت الارتياح لأمها) .

لقد كانت نسبة الوفيات مرتفعة في الريف بحيث تجاوزت ٢٧ بالالف مقابل ٤٧ بالالف هي نسبة الولادات . وبهذا بقيت الزيادة السنوية في السكان لا تتعدى ٢٠ بالالف (٢٤) من تعداد السكان . وبالرغم من فقدان الاحصائيات التفصيلية في هذا المجال فان معظم العائلات اللبنانية كانت تفقد حوالي نصف تعداد أطفالها في السنين الاولى للولادات وترتفع النسبة الى أكثر من ذلك في بعض الارياف اللبنانية . لقد كانت كثرة الانجاب أمرا طبيعيا مرده الجهل والفقر من جهة ، والتعويض عن ازدياد الوفيات من جهة أخرى . وكانت السمة الرئيسية لكثرة الانجاب تأمين استمرار نفوذ العائلية وتوزيع العمل الزراعي وبسبب فقدان الارشادات الطبية وسيطرة النظريات الدينية خاصة في مجال الاجهاض ومنع الحمل وغيرها . وكان للزواج المبكر القائم على الجهل المطبق جنسيا تأثير كبير على العائلة اللبنانية وازدياد عدد الانجاب فيها ، كما جاءت النظرة الاجتماعية الى الفتاة والقائلة باسقاط البنت من تعداد افراد العائلة حيث اعتبر وجودها فيها لا وجودا دائما بل عرضيا ، لتسهم هي الاخرى بدورها في الاكثار من عدد الاولاد اعتمادا على أرقام الذكور فقط .

الاسرة اللبنانية بين العائلية والزواج الحر

كانت الاسرة اللبنانية (٢٥) تتميز بمظهرين واضحين في المدينة والريف على السواء : الاول منهما يتمثل بسيطرة الاب او الرجل ، والثاني بالزواج الحر او محاولة التحلل من تلك السيطرة . فسيطرة الرجل او الاب تتصل جذورها تاريخيا بالنظام

— J. Weulersse — op. cit. — P. 248.

— S. Chehab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 291.

الاقطاعي السائد منذ زمن قديم والذي جعل الرجل المحارب صاحب السلطة العليا في بيته وعلى أرضه ، واستمرت تلك السيطرة عبر العادات والاعراف ، وعبر الملكية غير المجزأة ونظام تقسيم العمل الاجتماعي بالذات . أما الزواج الحر فيستمد وجوده من التطور الاجتماعي وعبر الاحتكاك بالغرب والاقتباس عنه . والزواج الحر لم يكن يعني تحرر المرأة فقط بل والابن أيضا من سيطرة أبيه . لقد بدأ هذان المظهران يتصارعان بوضوح مع بداية دخول الرأسمالية الى لبنان منذ القرن التاسع عشر واتخذتا شكل الصراع المكشوف في مطالع القرن العشرين ، خاصة في مدينة بيروت بالذات . فمن الناحية الاولى ، كان الاب يحاول الاستمرار في تقرير مصير أولاده ونمط حياتهم وثقافتهم وتوجههم المستقبلي ، ومن ناحية أخرى كان الشاب يسعى الى التملص من تلك السيطرة وتكوين البيت المستقل القائم على حرية الاختيار للزوجة والمهنة وتربية الاولاد .

كما ساعدت الهجرة مع العودة الى الوطن بعد تجميع ثروة وبناء بيت حديث في الجبل أو الريف على تفسيح نظام الاستثمار القطاعي القديم حيث أفقده تلك الهجرة أعدادا كبيرة من الشباب الذين تحرروا من ذلك النمط الانتاجي من جهة ومن سيطرة الاب في الوقت نفسه من جهة أخرى . صحيح أن الاهل استمروا يختارون للابن الزوجة حسب العادات القديمة بشكل عام ، بيد أن ذلك الاختيار سرعان ما كان يتبعه هجرة المرأة مع زوجها أو بقاؤها في البيت الذي بناه زوجها خلال اقامته بعد العودة . ان هذه الإقامة الجديدة ستفرض على الزوج ارسال الاموال اللازمة لاعالة زوجته وأولاده ورفضه اشراكها في أعمال الحقول لأسباب تتعلق « بكرامته » و « سمعته » في القرية والمنطقة . وكائنا ما كانت النسبة ضئيلة في هذا المجال ، فقد اعطت نموذجا صالحا للشباب والفتاة بإمكانية التحرر من نمط الحياة الروتيني في القرية ، ونمط الانتاج الزراعي القاسي ، وإمكانية التحرر من سيطرة الوالد وبناء بيت زوجي مستقل ، ولو أدى ذلك الى ترك منزل أبيه وترك العمل الزراعي والسفر الى المدينة أو الخارج . لقد ارتبطت استقلالية الزواج مع استقلالية العمل وسارتا جنباً الى جنب . فانفصال الشاب عن النظام الانتاجي المطلق الجماعي جر معه انفصال هذا الشاب واستقلالته عن منزله الابوي وأدى به الى تشكيل البيت الحر .

كما ان الاحتكاك بالاوروبيين ، خاصة في بيروت ، ساعد على نقل الطراز الاوروبي الداعي الى استقلالية الزوجين عن الاهل بصورة تكاد تكون تامة . وكان طلاب الجامعتين الاجنبيتين في بيروت ، والذين تابعوا ثقافتهم العليا في الخارج ، السباقين الى بناء هذا البيت المستقل . كذلك بدأ العمال القادمون من الريف الى المدينة ينقلون نساءهم معهم اليها ويستأجرون لهم منازل خاصة بهن تاركين آباءهم في الريف .

بيد ان ظاهرة تحلل الانشاء من سيطرة الآباء وارتباطهم الاقتصادي والاجتماعي بهم بقيت ضئيلة النسبة في ذلك الحين ولم تشهد هذه الفترة من الانتداب سوى بداية تلك الظاهرة فقط . وكان الانشاء العازبون ، على العموم ، وحتى المتزوجون منهم ، يظلون منضمين الى البيت الابوي في المدينة والريف . وفي القرى بشكل خاص ،

بقيت السلطة الابوية شديدة التماسك خاصة اذا كانت الاستثمارات الزراعية لا يمكن تجزئتها دون تعريض كيان الاسرة والعائلة لضرر بالغ . واستمر الآباء المسنون يعيشون مع هذا الولد أو ذاك ، وعلى هذا النحو كان البيت يضم بين جدرانه ثلاثة أجيال وأحيانا أربعة تحت سقف واحد .

وحتى في الحالة التي يتمتع بها الانشاء المتزوجون بحرية إقامة منازل خاصة بهم ، استمروا يخضعون معنويا لسلطة الاب ، وكانت الاسرة تتجمع حول « عميدها » خاصة أيام الاعياد والمناسبات ، وبقي الجد الاكبر السيد المطلق الحرية والمثل الوحيد للجماعة والحكم الوحيد في خلافاتها والناطق الرسمي باسمها والمتفاوض باسم عدد البالغين ، ذكورا واناثا ، في أيام الانتخابات المحلية والعامية .

لقد كان السيد هو الجد الاكبر الذي لم يدركه سن العجز بعد والا انتقلت السلطة للأب ، وفي حال عدم وجوده ، كان الابن الاكبر ، أو حتى الابن الاكثر شجاعة وجراة ، هو الذي يمثل الزعامة العائلية وينطق باسم أخوته وأخواته والموالين له (٢٦) . ورئيس العائلة هذا أو عميدها ، يفرض سيطرته على جميع املاك العائلة غير المجزأة ويشرف على شؤون العائلة . فهو الذي يدير عملية الاستثمار والمحاصصة ، ويدافع عن ممتلكات العائلة ، ويوزع العائدات على افراد العائلة بنسب متفاوتة حسب حصصهم في الملكية . وكان تأجير الملك أو استثماره بالمحاصصة والمفارسة ، كذلك بيع المحصول قبل جنيه ، يزيدان في مركز عميد الاسرة وفي طابع الملكية غير المقسمة ويجعلان من التكوين العائلي السائد أكثر صلابة ورسوخا . فقد كان عميد الاسرة المالك الفعلي للأراضي والبيت طيلة أيام حياته . وفي الأرياف كان لهذا العميد حق فرض العقوبات على المخالفين ، وحق إقامة العدالة بين افراد استثماره جميعا . والعدالة العائلية هي باستمرار المظهر الوحيد للعدالة في الريف . وكان فرض العدالة يختلف تبعا للمناطق ولشخصية عميد العائلة ، لكن النتيجة تنسجم تماما عندما تمس كرامة العائلة أو شرفها ، كما في حالة التفرير باحدى بناتها أو خيانة زوجية ، ففي هذه الحالة تطبق العادات القديمة بكل صرامتها مع تأييد عام وعلني لجميع افراد العائلة والموالين لها ، ومع اغضاء السلطات العليا عن الاقتصاص من مرتكبي « جرائم الشرف وغسل العار » التي ما زالت مستمرة حتى اليوم .

ونظرا لتعدد الزوجات عند أعيان الريف ، ولكون عمادة العائلة تنتقل الى أحد الاولاد فقط ، وهو الاكبر سنا في العادة ، كان العديد من هؤلاء الأعيان ، ومن أجل حماية زوجاتهم من المضايقات المحتملة بعد وفاتهم ، يلجأون الى اجراء عقود بيع لهن على جزء من ممتلكاتهم المنقولة والثابتة . وخوفا من أن تنتقل هذه الممتلكات التي اجريت عليها عقود البيع فعليا الى هذه الزوجات وبالتالي الى أقربائهن بعد الوفاة ، كان الأعيان يقومون باجراء عقود بيع مضادة ، أو يجبرون الزوجات على تحرير اعتراف بدين في ذمتهم لصالح الأزواج أو ورثتهم . وبذلك تبقى الملكية الكبيرة للعائلة متحدة ولا تمسها اية تجزئة .

ومن أجل تفادي وقوع خلافات بين الورثة ، كان بعض الشيوخ والأعيان يعملون

ب - الوجه الاقليمي

ان سلطة الانتداب كانت سلطة مدنية بالدرجة الاولى وتتمركز في بيروت . لذا ، فالريف اللبناني لم يشعر بأي تبدل عميق في حياته الاقتصادية والاجتماعية خلال هذه الفترة . ولما كانت الاستثمارات الفلاحية تقوم اساسا على العمل المشترك بين افراد القرية وخاصة بين افراد العائلة الواحدة ، فان اي نقص في تعداد افراد تلك العائلة ، أي الافراد الذكور ، سيؤدي الى خلل في تركيبها الاقتصادي ويضعف بالتالي مركزها الاجتماعي بالذات .

هذا الاقتصاد الفلاحي شبه المغلق ، بسبب اهمال الفرنسيين للريف وللمواصلات فيه ، فان الزواج في القرى بقي محصورا داخل افراد العائلة الواحدة . وكانت عقود الزواج تشمل عائلات القرية بكاملها اذا كانت هذه العائلات ذات صلات قرى او اذا لم يحدث اصطدام وقتلى بين عائلاتها يؤدي الى اغلاق أبواب الزواج تماما بين تلك العائلات . غير ان تزاوج عائلات القرية الواحدة لم يكن يتعدى تلك القرية الى جوارها الا بشكل نادر وشبه استثنائي .

أما خارج حدود القرية والجوار ، فكان الزواج معدوما تماما . وحتى في الحالات التي كان فيها العمال ينتقلون الى المدن ، خاصة العمال الموسميون منهم ، كان الحرص الشديد عند الاهل ينصب على تزويج أولادهم في سن مبكرة خشية ان ينزويج فتاة من المدينة . وقد أحاطوا هذه الفتاة بأساطير متعددة وواهية تنال من « شرفها » و « عرضها » وتحدث عن « اباحتها » وانفلاتها من جميع التقاليد والاخلاق . فالآباء يحرسون على بقاء أولادهم تحت سيطرتهم حفاظا على وحدة التقسيم الاجتماعي للعمل الريفي من جهة ، وعلى عدم انتقال أبنائهم للسكن في المدن التي انتشرت فيها الكهرباء والماء والسيارات وغيرها بحيث أضحي من الصعب جدا على فتاة المدينة سكناً الأرياف المحرومة من أبسط مقومات المدينة والمدارس ونواحي التسلية وغيرها . لقد ارتدى الزواج وجها اقليميا واضحا بقي مسيطر طيلة أيام الانتداب بحيث كانت الافضلية للزواج داخل القرية دون ان يتعداها الا الى الجوار الريفية . وكل زواج يتم مع الخارج ، خاصة مع المدن ، كان قائما على محاولة التحلل من سيطرة العائلة والعمل الزراعي الريفي ، ونادرا جدا ما كان يحظى بموافقة لاهل الا مرغمين .

ج - الوجه الديني الطائفي

رغم ان الدين الاسلامي لم يمنع زواج المسلم من المسيحية او اليهودية ، فان هذا الزواج بين الطوائف كان شبه معدوم ان لم نقل معدوما تماما في جميع أنحاء لبنان . أما الحالات الخاصة فكانت تقوم على زواج مسلم ، عادة من المثقفين الذين يتابعون دراستهم في الجامعات الاجنبية في لبنان او الخارج ، من امرأة مسيحية ، اوروبية كانت أم من جنسيات أخرى .

الى تقسيم ممتلكاتهم ، كليا او جزئيا ، بين أولادهم وزوجاتهم ، كاجراء احترازي . فكانوا عادة ، يخصصون ثلث ثروتهم لتغطية النفقات اللازمة لجنازاتهم ولأعمال يرصدونها من أجل راحة نفوسهم ، او لوفاء ديونهم ، او لتوزيع الصدقات على المعوزين (٢٧) .

لقد لعبت العائلة وتنظيم الاسرة المستند اساسا على سيطرة الاب على الارض ومن يعمل عليها دورا أساسيا في استمرار النمط الاقطاعي القديم المتمثل بالملكية العقارية الكبيرة غير المجزأة طيلة أيام الانتداب ، دون ان يترسخ وجود الزواج الحر الا في المدينة وبشكل محدود جدا .

ابرز سمات الزواج في لبنان

١ - الوجه الطبقي

كان الزواج بين العائلات الغنية والاقطاعية ، في المدينة والريف ، من ابرز سمات التزاوج بين اللبنانيين . وكان الدافع لهذا الحصر في الزواج بين العائلات يحدوه الشعور الطبقي بالمركز الاجتماعي المميز لتلك العائلات ، وهاجس المحافظة على الثروات الموروثة والمتزايدة في الاتساع . لذا كان الزواج لا يتعدى العائلات بل يتم غالبا بين أبناء تلك العائلات حسب مستواها المادي والسياسي . وهكذا ظل هذا البناء الطبقي متماسكا اقتصاديا عبر الاجيال ، وتكدست تلك الثروات التي كانت تضاف الى بعضها بالزواج ، لتجمل من بعض الأسر اللبنانية ، في المدينة والريف ، عائلات ذات ملكيات عقارية كبيرة وأموال وافرة ، حافظت عليها طيلة أيام الانتداب ولا زالت حتى اليوم . ومن الملاحظ ان أيا من العائلات الغنية في لبنان لم تفقد ثرواتها بسبب المصاهرة .

أما الفئات المسورة والمتوسطة الفنى والمكونة في الغالب من تجار ومثقفين وموظفين ، فكانت تتزاوج فيما بينها بالدرجة الاولى ، لكنها تنفتح على المثقفين والافنياء الجدد من الطبقة الفقيرة أو ذوي الأصول الوضيعة خاصة المهاجرين منهم . لذا لم يبق التزاوج في هذه الطبقة محصورا على افرادها بالذات بل تعداها الى الطبقات الاخرى ، في حين اقتصر الزواج بين الطبقات الفقيرة المؤلفة من العمال وصغار المستخدمين والفلاحين ، على التزاوج بين افراد من نفس الطبقات او الفئات الاجتماعية ، وكثيرا ما كان الزواج يتم بين رجل وامرأة من نفس الفئة او المهنة الاجتماعية ويبقى محصورا داخل العائلة الواحدة ولا يتعدى حدود القرية الواحدة الا نادرا (٢٨) .

(٢٧) T. Touma « Les paysans et les institutions féodales chez les Druzes et les Maronites... » — P. 581.

(٢٨) Saïd Chehab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 291 et s., et Khalid Chatila « Le mariage chez les musulmans en Syrie et au Liban » — P. 90-98.

بيد ان هذا الحظر لزواج مسلم من غير مسلمة ، لم يقف عند حدود المنع للتزاوج بين المسلمين والطوائف الاخرى ، بل كذلك لكل طائفة من طوائف لبنان ، مسيحية كانت أم مسلمة ، من الطوائف الاخرى . وكان من النادر جدا زواج سنية من شيعي أو درزي كذلك زواج مارونية من ارثوذكسي أو بروتستانتي أو غير ذلك . لقد حاول الاغنياء والمتنفذون ، من جميع الطوائف اللبنانية ، مدعومين بسلطة رجال الدين وعساكر الانتداب ، ان يبقوا من تلك الطوائف قلاعا مغلقة على بعضها اجتماعيا بحيث لا تفتح الا اقتصاديا وفي سبيل دعم مصالحهم المادية بالذات . ان التستر بالدين لمنع التزاوج بين الطوائف ، حتى داخل الديانة الواحدة ، لم يكن يهدف الا تكريس السيطرة الاقطاعية والسياسية للتجمعات العائلية التي كانت تدعي النطق بتقيديا باسم تلك الطوائف . وكان الحظر الاسلامي السني اشد بكثير من حظر باقي الطوائف الاسلامية ، كذلك الحال مع الحظر الماروني بالنسبة لباقي الطوائف المسيحية ، ولعل هذا ينبع من شعور الطائفتين الاكثر قوة ونفوذا في لبنان .

« ان العدد الضئيل جدا من المسيحيين الذين تزوجوا ، في المدن فقط ، نساء مسلمات — يقول كاظم الداغستاني — قد واجهوا أكبر المصاعب في سبيل حمل القضاة الشرعيين على جعل زواجهم شرعيا ، الى درجة ان البعض منهم قد اضطر الى اعلان اسلامه من أجل تحقيق ذلك » (٢٩) . أما العائلات الدرزية ، فلم تكتف بالحظر على زواج بناتها لطوائف أخرى ، مسيحية كانت أم مسلمة ، فقد ضيقت دائرة الزواج بحيث انحصرت داخل حدود أبناء العمومة ضمن العائلة الدرزية الواحدة . فالانفلاق الاجتماعي بين الطوائف المتمثل بالزواج ساهم في ترسيخ المملكات العقارية العائلية الواسعة من جهة ، وفي سيطرة الاسر التقليدية اللبنانية في المدينة وفي الريف بشكل خاص على مقدرات لبنان بحيث عادت تتحكم بمصيره بعد جلاء القوات الفرنسية عن اراضيه وتتقاسم الحكم مع البورجوازية التجارية الوسيطة في بيروت .

الفتاة اللبنانية ضحية الشرع والتربية والتقاليد

كان الدور الرئيسي مسندا الى الرجل الاب . أما الزوجة فكانت نظرة المجتمع السائدة آنذاك انها ما خلقت الا لانجاب الاطفال وتربيتهم ، حتى ان بعض العائلات اللبنانية كانت تشدد في اغلاق ابواب الحياة أمام المرأة بحيث لا تفادى بيتها الا الى القبر . وهذا ما يفسره القول الشائع « المرأة لا تخرج من الخدر الا الى القبر » . فالرجل عمليا ، عند المسلمين والمسيحيين على السواء ، هو الاهم . فهي تسمع يوم زفافها بالذات « الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو رأس الكنيسة » و « ايها النساء اطيعوا رجالكن ، وايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة ... » او بالكلام الموجه للرجال « فانكحوا من النساء ما طاب لكم ، مثنى وثلاث ورباع ... » و « للرجل حظ الانثيين » ... الخ . وكان الزواج يعني للفتاة الانفصال التام عن

(٢٩) — Kazem Daghestani « La famille musulmane contemporaine en Syrie » — thèse — P. 22.

العائلة التي ولدت فيها . فهي لا تسمع الا تصائح عن « طاعة زوجها طاعة عمياء » ، وانها . « اذا ما خرجت من عتبة الدار يجب ألا تعود اليها » . واذا ما تجرات فأجبت من لم يتلاءم مع مزاج أخيها أو أحد أبناء عمومته فيجب ان تقطع علاقتها به فورا ، واذا تزوجته اعتبروا عملها هذا فعلا شنيعا تستحق عليه الموت ذبحا ، غسلا للعار وأنقاذا للشرف الرفيع الذي يجب ان يراق على جوانبه دم الفتاة .

ان تلك النظرة قد ساهمت فعلا في احتقار دور الفتاة وبالتالي الام ، وجعلت منها انسانا ضعيفا ذا مكانة اجتماعية من الدرجة الدنيا . وقد انعكس ذلك مباشرة على سلوك الفتاة والام . فهي تشعر انها غريبة عن العائلة التي ولدت فيها كما تشعر ايضا انها غريبة عن العائلة التي انتقلت اليها بعد الزواج . لقد جعلت تلك التقاليد والعادات البشعة من المرأة اللبنانية ، خاصة الفقيرة ، كومة من الرواسب النفسية المعقدة . فهي لا تجرؤ على الافصاح عن شخصيتها وما يجول في ذهنها ، ولا تعي ايا من حقوقها الاساسية . فقد حرمت من العلم والعمل ، ووضعت تحت سيطرة الرجل من جهة ، وسيطرة الاعراف والتقاليد من جهة أخرى . ان القانون الاخلاقي الوحيد الذي كانت العائلة تلقنها اياه ان الفتاة مصدر عار دائم على نفسها وزوجها وجميع أفراد عائلتها وان « شرفها » و « عرضها » ، اي عمليا ارتباطها جنسيا وعاطفيا بأي انسان قبل الزواج ، وارتباطها الوحيد بزواجها بعده ، هما الشرعة الاخلاقية الوحيدة التي يجب ان تحافظ عليها والا فالعاقبة وخيمة وقصص القتل وجرائم غسل العار تتعدد وتكرر يوميا بحيث تصبح هاجسا فكريا يرافقها منذ تفتح وعيها حتى اللحد .

فالفتاة اللبنانية آنذاك لم تكن تعلم ان لها حقوقا كي تطالب بها ، بل كل حياتها واجبات مستمرة تجاه عائلتها وزوجها وأولادها . وكل ما تعطاه تلك الفتاة كانت تعتبره « احسانا » و « عطايا » من الامل والاخوان . لقد انسيت حقها بالزواج ، وحقها بالتعليم والثقافة ، وحقها بالعمل خارج البيت الا برضى العائلة ، وحقها بالطلاق اذا كانت حياتها جحيما بالفعل ، وحقها بالانتخاب والتمثيل ، وحتى حقها بالحياة اذا ما خالفت التقاليد والقانون الاخلاقي الوحيد الذي لقنوها اياه . حتى في حالة الزنى ، يحق للرجل ما لا يحق للمرأة ، لا شيء الا لكونه رجلا في مجتمع تعطي الافضلية فيه للرجل :

وسرين واحد ضمهما تسقط الانثى ويحصى الرجل (٣٠)

استغلال للرجل والمرأة لا استغلال الرجل للمرأة

في المدينة ، يقتصر عمل المرأة داخل المنزل فقط دون ان يتعداه . فهي تدبر المنزل وتهتم بتربية الاولاد . وكانت المرأة المدنية السيدة الحقيقية لمنزلها ، خاصة في البيئات الفنية : ولم يكن الزوج من هذه الفئة يهتم بأمور المنزل الا من الناحية المالية فقط . لذا تمتعت المرأة الفنية بحرية نسبية بحيث كان لها صديقاتها الحميمات

(٣٠) نزار قباني — من قصيدة « البقي » .

وكانت تقيم لهن حفلات الرقص والسهرات الممتعة بين الحين والحين ، داخل منزلها الزوجي بالذات ، وكن يتكلمن اللغة الفرنسية في الغالب ويتحدثن عن آخر الأزياء الباريسية (٢١) .

يبد أن نسبة هؤلاء النسوة كانت ضئيلة جداً وتتوافق مع تعداد الفئة الأرستقراطية المتمركزة في بيروت بشكل خاص ولم يكن دورهن الاجتماعي يتعدى تلك الحفلات إطلاقاً . أما النساء الفقيرات ، وهن الأغلبية الساحقة من نساء لبنان في المدينة والريف فكن يقمن بأعمال تساوي ما يقوم به الرجل وأحياناً أكثر خاصة في الأرياف . فالمرأة هناك لم تكن تتولى شؤون المنزل فقط . فهو أقل تجهيزاً عند القرويين منه عند سكان المدن ، بل كانت كذلك تقاسم زوجها كثيراً من أعمال الحقول . فالفلاحة كانت تتحمل بالفعل حياة شاقة خاصة في مناطق الهرمل وعكار بحيث يبدو عليها الهرم وهي في سن الأربعين .

ولعل السبب في ذلك أن الزواج الفلاحي ليس في الواقع عقداً دينياً أو سياسياً بل عقداً اجتماعياً بالدرجة الأولى . فهو عقد له صفة خاصة إلى أقصى الحدود . فما هو ربط بين عائلتين بل ربط بين شخصين على مصير معروف لا يحتمل التغير والتبدل ويستند بالدرجة الأولى على انجاب فلاحين جدد . فالمرأة الفلاحة ، المحرومة من كل ثقافة ، والمرتبطة تبعية واقتصادياً بمصير زوجها الفلاح ، والمنفصلة تماماً عن عائلتها القديمة ، فقدت كل أمل بالتححرر من وضعها الشاق وأضحت أداة للاستغلال من زوجها ومن النظام الإقطاعي المسيطر في نفس الوقت . فالعادات والتقاليد أعطت الفلاح سوطاً يلهب به ظهر المرأة الفلاحة في حين كان السوط الأشد والذي يلهب ظهر الاثنين معاً ، هو سوط الإقطاع والسلطة الانتدابية والتقاليد البالية . أن الكلام عن استغلال الرجل للمرأة في الريف ليس في الواقع سوى الوجه الظاهري لعملية الاستغلال الحقيقية للاقطاعيين ضد مجموع سكان الريف رجالاً ونساءً وأولاداً . أما المرأة المدنية المتوسطة ، خاصة عند الطوائف الإسلامية ، فلا تعمل خارج منزلها إلا في النادر . وعدد قليل جداً منهم كن يعملن كمعلمات في مدارس البنات خاصة ، أو كقابلات قانونيات . ونادراً ما دخلت المرأة المسلمة دوائر الدولة في لبنان الكبير كموظفة أو سكرتيرة أو غير ذلك .

أما المرأة في جبل لبنان فكانت ، على العموم ، تعمل في الزراعة ، وخاصة إنتاج الحرير وتصنيعه عملاً يكاد ينحصر في نساء الجبل ، وكانت معظم معامل تكرير الحرير تشرف عليها النساء (٢٢) . وفي التقرير المقدم لعصبة الأمم عام ١٩٢٢ ، قدر عدد العمال الزراعيين بحوالي ٧٩ ألفاً منهم ١٧ ألف امرأة و ١٣ ألف ولد ، في حين كان تعداد النساء العاملات في الصناعة حوالي ٤٢٠٠ امرأة و ٢٤٠٠ ولد مقابل ٢٠ ألف عامل (٢٣) .

أن الامتياز الذي اعطي للرجل أو الذكر في الولادة والعمل والاجور والتعليم

- (٢١) — K. Daghestani « étude sociologique sur la famille musulmane » — P. 79.
(٢٢) — Ducouso « L'industrie de la Soie en Syrie » — P. 89.
(٢٣) — H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 290.

والزواج والطلاق والارث والوظائف والسياسة وغيرها لم يكن وليد سيطرة الرجل على المرأة بقدر ما كان طابعاً مميزاً للنظام الاقتصادي المتخلف في لبنان والمنتقل من التبعية للأتراك إلى التبعية للفرنسيين دون أن تكون له امكانية التحرر من تلك التبعية وبالتالي تحرير القوى المنتجة الحقيقية فيه ، رجالاً ونساءً ، وعلى جميع الأصعدة ، الاقتصادية منها والسياسية والثقافية والاجتماعية .

تعليم الفتاة وأثره على تطور الحركة النسائية في لبنان

كان تعليم الفتاة اللبنانية قبل الحرب تحت رحمة الإدارة التركية المحتلة في بيروت وسائر المناطق المحتلة ، وحكراً على بعض المؤسسات القليلة في جبل لبنان واللواتي كانت كلها تقريباً بإدارة بعثات تبشيرية وراهبات . وكانت خدمات هذه المؤسسات تقتصر على عدد ضئيل من البنات الميسورات ، خاصة من أوساط مسيحية . بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الراهبات ذوات المنابت الاجتماعية الفقيرة .

لذا بقي عدد المتعلّمات قليلاً جداً إذا ما قيس بعدد السكان آنذاك . ويكفي أن نذكر أن ذلك العدد كان يتناقص أيضاً باستمرار . ففي عام ١٩٢٨ كان عدد مؤسسات التعليم الثانوي ١٦ مؤسسة للذكور تضم ٦٢٦٣ تلميذاً مقابل سبع مؤسسات للبنات تضم ١٤٠٠٢ تلميذة (٢٤) .

وفي عام ١٩٢٩ (٢٥) أصبح في لبنان ١٨ مؤسسة للذكور تضم ٦٤٠٧٣ تلميذاً مقابل ١٠ مؤسسات للإناث تضم ٩٠٨ تلميذات انخفض عددهن إلى ٧٧٠ عام ١٩٣٠ (٢٦) وإلى ٧٣٨ في عام ١٩٣١ في ١١ مؤسسة إلى ٧١٠ تلميذات في ١٥ مؤسسة لتعليم البنات في المرحلة الثانوية عام ١٩٣٢ مقابل ٥٤١٠ تلميذة في ٣٧ (٢٧) مؤسسة ثانوية للصبيان .

أن مؤسسات التعليم الثانوي ، وأغلبها الساحقة مؤسسات خاصة ، قد ارتفع عددها من ١٦ إلى ٣٧ مؤسسة للذكور بين أعوام ١٩٢٨ و ١٩٣٢ في حين انخفض عدد طلابها من ٦٢٦٣ تلميذاً إلى ٥١٨٧ خلال الفترة نفسها ، مقابل ارتفاع عدد مؤسسات البنات من ٧ إلى ١٥ مؤسسة تدنى عدد تلميذاتها من ١٤٠٠٢ إلى ٧١٠ تلميذات على مجموع سكاني قارب ٨٠٠ ألف نسمة .

أن سياسة الانتداب التي توسعت نسبياً في فسخ المجال أمام بعض الشبان من اللبنانيين لملاءمة الكادر الإداري للانتداب في سوريا ولبنان ، كانت تشدد كثيراً في تعليم البنات ، وقلما تجاوزن المرحلة الثانوية . ولم يلاحظ قط وجود أية طيبة أو مهندسة أو محامية خلال تلك الفترة بكاملها .

فليس غريباً بالملاحظة أن نسبة الأمية تكاد تكون تامة بين النساء الفقيرات في

- (٢٤) — Bulletin annuel de la Banque de Syrie et du Liban » - Année 1929 - P. 38.
(٢٥) — Ibid — Année 1930. Index
(٢٦) — Ibid — Année 1931. Index
(٢٧) — Ibid — Année 1932. Index

جميع أنحاء لبنان ، حتى أن النساء اللواتي حصلن على نسبة ضئيلة من الثقافة الثانوية كن نادرات ولم يقمن بأي دور بارز على الإطلاق للمساهمة في تطوير المجتمع اللبناني ودفعه الى الامام .

وأبرز الحركات النسائية التي ظهرت في لبنان آنذاك كانت بين الطوائف الاسلامية ، وتعود الى أيام عزمي بك ، والي بيروت ، الذي بادر ، منذ ١٨٨٠ ، الى ارسال بعض الفتيات المسلمات لمتابعة تحصيلهن في الخارج ، كما ساهم في انشاء « نادي الشابات المسلمات » (٣٨) الذي اعتبر أول مكان عام تلتقي فيه البنات والنساء المسلمات ، حيث يرفعن الحجاب عن وجوههن ، ويساهمن في بعض النشاطات الاجتماعية . وأبرز أسماء تلك الفترة فتيات من عائلات يهيم وقدورة وخالدي وغيرها . و « الحركة النسائية » تلك كانت مجرد ظاهرة ارسنقراطية بحتة . فلم يكن

لها برنامج ولا أية فكرة اصلاحية طيلة فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، بل كانت بعض النسوة يصاحبن زوجات البشوات وكبار الموظفين الاتراك ويتكلمن التركية بطلاقة . « فكن يجهلن تاريخ البلاد العربية بشكل يكاد يكون تاما ، ويحفظن تاريخ الامبراطورية العثمانية عن ظهر قلب . سياسيا ، لم يكن يعرفن سوى الدعاء الى الله أن يحفظ السلطان ابن السلطان ، ويجعل عهد الباشا التركي الحاكم في سوريا ولبنان مليئا بالازدهار » (٣٩) .

اما في اوساط الارستقراطيات المسيحيات ، فكانت نسبة التعليم اعلى ولا شك بسبب الوجود الكثيف للمؤسسات التعليمية الاجنبية . بيد أن ظهورهن اجتماعيا قد اقتصر على اقامة حفلات الكوكيتل واستعراض آخر أزياء باريس ومنتجاتها الحريية والعطرية ولم يكن لهن وجود فعلي على الصعيدين السياسي والفكري داخل المجتمع اللبناني .

كذلك فان أي ظهور لبوادر حركة نسائية لبنانية في الريف كان معدوما خلال تلك الفترة . فالحركة النسائية اللبنانية لم تتسع الا مع انتشار التعليم . وفي الريف

بشكل خاص ، ارتبطت الحركة النسائية بتطور التعليم الرسمي الى حد بعيد . بيد أن تلك الحركة النسائية بدأت تنشط في فترة ما بعد الحرب ، وان على

نطاق ضيق (٤٠) . فقد لوحظ وجود مظاهرات نسائية في لبنان وسوريا بين أعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٥ ، واشترك بعض النساء السوريات في معركة ميسلون ، وضد

مرور بلغور في دمشق ، والمناذاة بالاستقلال ومن أجل الدستور . وكانت هذه المظاهرات أولى التحركات السياسية للمرأة بعد الحرب في هذه المنطقة . وقد نادى

هذه المظاهرات بالفاء الحجاب ، وبحقوق الفتاة في اختيار الزوج ، وبحقها في التعليم ، وبضرورة ادخال التاريخ العربي وتعزيز اللغة العربية في المدارس الاجنبية والخاصة ، كذلك بمقاطعة المنسوجات الاجنبية كاجراء لتشجيع الصناعة الوطنية ... ان تلك

— Paul Achkar « Le Féminisme au Liban... » - Supplément l'Orient-Le Jour (٣٨) No. 74 du 28 octobre 1972 — P. II.

(٣٩) مقبولة شلق « المرأة العربية قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها » الطريق — المجلد الاول

العدد الرابع — شباط ١٩٤٢ — ص ١٠ .
— Correspondante d'Orient — No. 293-294 — septembre 1922 — P. 62 — (٤٠) et Achkar — op. cit. — P. I.

المظاهرات التي شهدتها دمشق خلال تلك الفترة كانت ذات انعكاس مباشر على وضع المرأة اللبنانية . وقد شهدت سوريا ولبنان عشرات المنظمات والمجلات النسائية خلال فترة الانتداب . وكانت تلك المنظمات تركز نضالها المباشر على متطلبات الحياة اليومية للمرأة ، أما النضالات السياسية فكانت غير واضحة ومبهمة الى درجة كبيرة . فقد طالبت تلك المنظمات بضرورة التقاء الشاب والفتاة قبل الزواج ، وتحديد الحد الأدنى لسن الزواج عند البنت بالخامسة عشرة وعند الشاب بسن الثامنة عشرة . كذلك طالبت بالتطبيق الصحيح للشرع القاضي باستشارة البنت قبل موافقة الاهل على زواجها وبحقها في اختيار الزوج المناسب ، وطالبت ايضا بحماية الاطفال من الامراض وبمكافحة البغاء وادمان المسكرات والقمار .

لقد تأثرت الحركة النسائية خلال تلك المرحلة بثلاثة عوامل : الاول غربي يعتمد على الثقافة الاجنبية وحمل لواءه النساء اللواتي عشن في الخارج خاصة في أوروبا وأمريكا او تابعن دراستهن العليا في مدارس البعثات التبشيرية في بيروت (٤١) .

اما العامل الثاني فذو ارتباط بالحركة النسائية في مصر وتركيا وهو اسلامي بحت . ويؤكد دعاة هذا الاتجاه ان الاسلام لا يقف حجر عثرة في طريق ادخال اصلاحات على التشريعات الخاصة بالمرأة . فقد ازال مصطفى كمال الحجاب عن المرأة التركية ومنع استخدامه ، كذلك منع تعدد الزوجات وأقر الزواج المدني على اساس القانون المدني السويسري فيما يتعلق بالاحوال الشخصية . فالهم ، برأي دعاة هذا الاتجاه ، وجود مصلحين اجتماعيين بالدرجة الاولى .

اما العامل الثالث فعلى صعيد التجربة السوفياتية التي حررت المرأة من قيودها السابقة ومنحتها حق التعليم والعمل والزواج والطلاق والارث والانتخاب وساوتهن بالرجل ، نظريا وعمليا . وبالرغم من ان مجلة « فتاة الشرق » تنعت ثورة اكتوبر « بالفوضى المفعمة بالوحشية » فقد اهتمت بوضع المرأة المسلمة في مناطق آسيا السوفياتية الاشتراكية وقيمت جهود السوفيات في الانجازات التي حققوها على صعيد مساواة المرأة بالرجل ووصفت تلك الانجازات بالاجابية وبأنها حررت المرأة المسلمة (٤٢) .

ان الحركة النسائية في لبنان بقيت حركة فوقية معزولة عن جماهير النساء طيلة أيام الانتداب الاولى . وجاء دستور ١٩٢٦ يضمن مساواة الرجل بالمرأة في مادته الثانية عشرة . لذا فتحت تلك المادة الباب أمام الحركة النسائية للمطالبة بحق الحصول على أجر متساو عن عمل مساو للذي يقوم به الرجل ، وبفتح دور للحضانة ، وبمطاعم شعبية وغيرها . وبقيت تلك الحركة أسيرة مجموعة صغيرة من الارستقراطيات دون ان يظهر لها دور فعلي قبل معركة الاستقلال ١٩٤٣ .

— P. Achkar — op. cit. — P. II — et correspondance d'Orient — No. 239 — (٤١) Juin 1920 — P. 506.

— Achkar — cité — P. II. (٤٢)

٣ - نظام العمل في الريف اللبناني

المحاصصة أو المزارعة

كان نظام العمل الأكثر انتشاراً في لبنان خلال تلك الفترة ، سواء في المناطق المضمومة الى الجبل أم في جبل لبنان نفسه ، هو نظام المزارعة أو المحاصصة . فكانت اقلية الاراضي الزراعية تستثمر حسب هذا النظام ، والمزارعة أو المحاصصة نظام قديم جاء تعريفه في قانون الاراضي العثماني القديم لو « المجلة » الصادرة في نيسان ١٨٩٨ ، واستمر تطبيقه طيلة ايام الانتداب . وقد عرفت « المجلة » المزارعة بأنها « نوع من الشركة يقدم فيه أحد الشريكين أرضاً ويقدم الثاني عملاً ، على ان تقسم ارباح الانتاج بين الشريكين » (المادة ١٤٣١) .

بيد ان هذا التعريف الغامض لهذه « الشركة » و « القسمة بين « الشريكين » كان باستمرار لمصلحة كبار الملاك العقاريين . ذلك ان المزارعة لا تتناول سوى الاراضي المخصصة لزراعة الحبوب والخضار . وتتراوح حصة المزارعي بين الخمس والربع والثالث والنصف وتصل الى ٧٠ بالمائة وحتى ٨٠ بالمائة (٤٣) في الاراضي الجردية القاحلة كما يستطيع الفلاح تأمين لقمة العيش من أرض مجربة غير مروية لقاء تعهده بالاستمرار في زراعتها واتقادها من العودة الى حالة الموت أو البوار وفقدانها قيمتها الاقتصادية . فالمالك هنا يتنازل عن قسم من الانتاج الضئيل مفسحاً المجال أمام ربط هذا المزارعي بأرض مروية تابعة له ووافرة الانتاج ، عندها يفرض شروطاً قاسية على مزارعه بعد اتمامه بعدالة قسمته في الأرض الصخرية . وتنقسم المحاصصة الى أربعة أنظمة فرعية (٤٤) :

أ - نظام المزارعة

يقدم مالك الأرض الى المزارع ، بموجب هذا النظام ، السكن ونفقات الزراعة والبذار على ان يتكفل صاحب الأرض بدفع الضريبة التي لم يكن يدفعها فعلاً بل يحسمها عند اقتسام الانتاج أو المحصول بمعدل ثلاثة أرباع للمالك والربع للفلاح . لذا فالمزارعة تعتمد على اقتسام عيني للمحصول وحصة المزارع لا تكفي لتأمين معيشته مع عائلته بل تبقى دائماً تحت رحمة المالك . فقد تميز هذا النظام بالاستمرارية طالما ان الفلاح لم يكن بمقدوره التخلص من الاستلاف والاقتراض من المالك بفوائد مرتفعة .

ب - نظام الشركة الجموية

كان المحصول يقسم مناصفة بين المالك والمزارع بعد اقتطاع الضرائب وكافة النفقات الاخرى . والفلاح لا يقدم سوى قوة عمله وعمل توريه طيلة ايام السنة .

(٤٣) — L. Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie » — P. 54.
 (٤٤) — Latron « La vie rurale... » — P. 85 et Achard « Notes sur la propriété foncière en Syrie » — L'Asie Française — No. 309 — Avril 1933 — P. 135.

ج - نظام الشركة الحلبية

على الفلاح بموجب هذا النظام ان يقدم قسماً من نفقات الزراعة والعمل اللازم لها . فالنفقات وحتى الخسائر يتحملها الفريقان مناصفة كذلك الاعشار . وكان هذا النظام واسع الانتشار في سهلي عكار والبقية .

د - نظام الخمس

يقضي هذا النظام بان يقدم الفلاح العمل ونفقات الزرع وكذلك البذار . اما المالك فيقدم الأرض فقط وسكن الفلاح ويتمهد بدفع الضريبة التي كانت تسمى بالمشر لكنها تجبى فعلياً بنسبة ١٢,٥ الى ١٥ بالمائة (٤٥) . فكان المحصول يقسم على الوجه التالي : يقطع المالك العشر قبل كل شيء ثم يأخذ الخمس والباقي للمزارع . هذا النوع من المحاصصة كان كثير الانتشار في عكار وجزير وجرمون وغيرها . وبمقتضى نظامي « الشركة الحلبية » و « الخمس » كان للمزارع حرية العمل خارج اراضي المالك . لهذا كان الفلاح يستأجر أرضاً يعمل عليها لنفسه دون محاصصة لقاء مال سنوي معين يؤديه لصاحب الأرض . فالمزارع لا تشغله الأرض طيلة ايام السنة . وطمعاً في زيادة دخله كان يؤجر قوة عمله اليومي ، او قوة عمله وعمل توريه ، لقاء أجر يومي معين يناله نقداً او عيناً . وكان يوم العمل هذا يمتد من « الفجر الى النحر » ، حسب التعبير الشائع ، اي من طلوع الفجر حتى عتمة المساء . كذلك كان يتفق أحياناً مع مالك الأرض على حراثة مساحة معينة او عمل معين اذا ما قام به باليد ، وهذا النوع يسمى « بالمقاطعة » اي « أجر مقطوع لقاء عمل محدود » (٤٦) .

نظام الالتزام الدائم او العمل القسري مدى الحياة

انتشر هذا النظام منذ زمن طويل في مناطق عكار خاصة منطقة « الدريب » ، وفي اكروم والهمل وجوار مرجعيون وراشيا وحاصبيا وبعبك والضنية وفي المزارع المجاورة لمشفرة وغيرها .

وتبعاً لهذا النظام ، استمر الاقطاعيون بالسيطرة على الفلاحين المدمين العاملين في مزارعهم وارضيتهم . فالمالك العقاري الكبير او الاقطاعي كان يقدم « المسكن » أي الكوخ الخشبي او مساحة البيت الذي يقيمه الفلاح على « أرض سيده » . بجهد الخاضع ، على ان تبقى ملكية الأرض والبيت للمالك لا للفلاح . ولا يقدم المالك للفلاح أية مساعدة في الزراعة بل يؤمن له الحماية من اعتداء الآخرين عليه ، كذلك

(٤٥) يعترف التقرير الفرنسي لعام ١٩٢٥ المرسل الى عصبة الامم ان ضريبة العشر كانت تجبى بمعدل ١٢,٥٪ .
 — H. C. « Syrie et Liban en 1925 » — P. 49.
 — H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 290.

البقر لحسابه الخاص ويلتزم فلاحا عليهما طيلة أيام السنة لقاء أجر معين ،
عينا ونقدا .

الاجير السنوي

يمتاز هذا النظام عن سابقه بعدم وجود ثيران الحراثة . فالاجير هنا خادم
فرد لا يمتلك سوى قوة عمله ، ولا يشتري له المالك أية حيوانات للعمل الزراعي .
وهناك عدة أنواع من الاجراء السنويين منهم رعاة البقر او الماعز او الفقم ، ومنهم
الاجراء الذين يخدمون في البيوت ، ذكورا ام اناثا . والاجير يعتاش دوما على حساب
مخدومه او المالك الذي يؤمن له ايضا المسكن والملبس واجرا عينيا او نقديا مقطوعا
في كل عام . وكان بعض المالكين يلجأون الى منح الاجير قطعة ارض يعود كامل
محصولها له بعد اقتطاع العشر لقاء عمله السنوي لديه .

وعقاب الاجير الذي يسرق بيت سيده الطرد ، لا من خدمة سيده فحسب
بل ومن القرية ايضا بعد ضربه ضربا الينا . واذا صفح عنه « البيك » - وهي الحالة
الفالبة - كان الاجير يجبر على العمل خلال سنة او أكثر دون اي أجر بعد ان يجبر
كذلك على المبيت في اسطبل سيده . وكان هؤلاء الاجراء محرومين من أية حماية
من جانب السلطة بل ارادة « البيك » هي القانون المنفذ في منطقته ولا مرد لأحكامه ،
لذا كان الاجراء عرضة ، وباستمرار ، للسخرة والاهانة والاذلال .

الاجير الموسمي

طبق هذا النظام بوجه خاص في مناطق الزيتون والتين . فعند قطاف الزيتون ،
يلجأ المالك في الكورة والزاوية والشويفات والشوف الى استخدام الاجير لمدة محددة
زمنيا تنتهي غداة القطاف وجني المحصول . لذا كانت هناك امكانية انتقال الاجير
ايضا من منطقة لأخرى عند انتهاء العمل ومن مالك صغير الى متوسط الى كبير ،
حيث كان قطاف الزيتون في عكار يجري عادة في شهري تشرين الثاني وكانون الاول
بينما يتأخر في الكورة وحاصبيا والشوف حتى كانون الثاني وشباط ، وفي هذه
الحالة ينتقل الاجير من منطقة الى أخرى طمعا في استكمال مؤنثته من زيت الزيتون
وهربا من البطالة بعد انتهاء الموسم .

واطعام الاجير الموسمي يجري على حساب المالك ويعطى جزءا معينيا من المحصول
الذي يقوم بحراسته او بقطافه ، كما يتقاضى جزءا آخر منه بالنقود . وتتراوح حصة
هذا الاجير تبعا للمناطق ما بين ١ على ١٢ و ١ على ٦ من كميات المحصول التي يجمعها
بنفسه . اما الاجير الموسمي العامل في تربية دود الحرير فكانت حصته تصل الى
ربع المحصول وأحيانا الى نصفه اذا كان الموسم رديئا (٤٩) .

— A. Latron « La vie rurale... » — P. 54.

(٤٩)

يتعهد بدفع الضريبة عن المحصول . ولقاء تلك الحماية الوهمية كان المالك يمتص
القسم الاكبر من المحصول ان لم نقل المحصول بكامله . اما القسم المتبقي للفلاح
فلا يكفي الا لفترة قصيرة جدا من أيام السنة . والمالك يتعهد كذلك « بتقديم »
السلفة للفلاح في أيام الشدة وسني القحط والزواج على ان يسددها الفلاح بكاملها
مع فوائدها ، التي تفوق عادة اضعاف ما اقترضه ذلك الفلاح (٤٧) . وبمقتضى
العرف والعادة والتقاليد كان الفلاح يمد المالك بكميات معينة من الحليب والسمن
والماعز والدجاج والحبوب . وهو يشرك المالك باقتسام جميع مواشيه وطيوره
وغلاله مناصفة .

ويروى عن الاقطاعي الشهير عبود عبدالرزاق المرعبي ، نائب عكار سابقا ،
والذي كان يمتلك عشرات القرى في لبنان وسوريا ، انه عثر على عجلة (أنثى عجل)
اثناء مروره في إحدى القرى فأعطاهها لفلاح يعمل لديه . وبعد ثماني سنوات كان تعداد
البقر من تلك العجلة وذريتها يتجاوز ١٧ رأسا . وطلب الفلاح اقتسام الماشية من
« البيك » . وبعد القيام بالحساب وما يتوجب على الفلاح دفعه للمالك كل سنة
من ابطال السمن والحليب وغيرها عاد الفلاح لقريته برأسين من البقر واحتفظ
« البيك » بخمسة عشر رأسا . والحادثة معروفة جيدا لدى جميع أوساط
الفلاحين في عكار .

لقد ارتهن الفلاح قسراً في مسكن مشاد على أرض سيده ، محروما من المدرسة
والطرق والمياه وجميع مظاهر الحياة المعاصرة . واذا ما باع المالك الأرض ، كان
الفلاح ينتقل معها الى المالك الجديد دون علم منه ودون ان تكون لديه أية فكرة عن
كيفية انتقاله ، وحتى دون رؤية سيده الجديد ، بل فرضت عليه ظروف عمل وعيش
قاسية جدا بموجب هذا النظام الشديد التعفن والذي لقبه أحد الاجانب بنظام
« العبودية السائدة في القرون الوسطى » (٤٨) .

الالتزام السنوي

يقضي هذا النظام باستئجار الفلاح وثيرانه طيلة سنة زراعية قابلة للتجديد .
والعقد دوما شفهي كما في باقي الحالات . وبموجب هذا النظام يتقاضى المحاصص
نصف أو ثلث المحصول عينا بعد اقتطاع الضريبة وذلك تبعا لما تم الاتفاق عليه عند
قيام العقد من مشاركة الفلاح في تقديم البذار أو قسم منه أو عدم تقديمه ذلك .
ويفرض هذا الالتزام ايضا الا يدفع المالك الاجر اليومي لكل عمل يقوم به الفلاح ،
مفردا او مع ثوريه ، في أرض المالك او خارجها شرط ان يتعهد المالك بدفع نقد
عيني متفق عليه عن كل عمل يقوم به الفلاح خارج أرض المالك . ويتنوع الالتزام
السنوي وفقا لحاجة المالك الى عمل الفلاح طيلة أيام السنة او لفترات متقطعة
منها . وكثيرا ما كان المالك الكبير يمتلك أراض في عدة مناطق ، فيشتري ثوري

— L. Cardon — op. cit. — P. 54.

— J. Luquet « Le mandat A... » — P. 158.

(٤٧)

(٤٨)

الأجير الشهري

كان هذا النظام مقتصرًا على العمال المختصين في الحدادة والنجارة وقيادة الآليات . وكان الأجير يدفع في نهاية كل شهر كما هو الحال بالنسبة لموظفي الدولة . ويتراوح الأجير تبعًا لنوعية العمل ومكانه ، وهو في جميع الحالات لا يتجاوز معدل حاجات الأجير فيضطر دومًا إلى الاقتراض من رب العمل . ويكون الاتفاق أيضًا شفهيًا (٥٠) دون أن يكون هناك أي إجبار من الدولة لصاحب العمل من أجل تأمين حياة عماله ضد طوارئ العمل أو ضمان الشيخوخة . كما كان العامل عرضة دومًا لطرده من العمل دون أي عذر مشروع . ولم تسع سلطة الانتداب طيلة حكمها ، لاستصدار تشريعات للعمل على غرار تلك التي استحصل عليها العمال الفرنسيون ، بل كان هناك اختلاف واضح وتمييز عنصري بين العمال الفرنسيين أو عمال المندوبين الفرنسي والعمال المحليين (٥١) ، أن في الأجور أم في العمل الإضافي أم في التعويضات .

الأجير اليومي

كان العمال المياومون خاضعين لقوانين العرض والطلب وتتغير أجورهم حسب الفصول والمناطق . ففي الشتاء وأوائل الربيع يكون الأجير منخفضًا جدًا نظرًا لقلة الأعمال وكثرة اليد العاملة . أما في فصلي الصيف والخريف ، فكان الأجير يبلغ أقصى مداه ، خاصة في الجبل والبساتين القريبة من المدن ، وغالبًا ما كان الأجير الصيفي اليومي يصل إلى ضعفي الأجير الشتوي . وميزة اختلاف الأجير حسب المناطق بقيت واضحة المعالم بعد الاستقلال . فقد نوه بهيج طبارة عام ١٩٦٠ إلى أن الأجير اليومي للعامل في الهرمل يتراوح بين ليرتين وثلاث ليرات ، بينما كان عامل جبل لبنان والمناطق الساحلية يتقاضى أجرًا يوميًا يتراوح بين ٥ و ٧ ليرات لبنانية (٥٢) . وقد سجل تقرير ١٩٢٢ الأجير اليومي للعامل الزراعي بمعدل ٦٠ قرشًا لبنانيًا - سورياً للرجل و ٣٠ قرشًا للمرأة و ٢٠ قرشًا للولد . أما متوسط أجر العامل الصناعي اليومي في نفس الفترة فكان ٧٥ قرشًا للرجل و ٤٠ قرشًا للمرأة و ٢٥ قرشًا للولد في حين كان العامل في التجارة ينال أجرًا يوميًا يبلغ ١٠٠ قرشًا للرجل و ٨٣ قرشًا للمرأة و ٣٠ للولد (٥٣) .

أما يوم العمل فكان يتراوح بين ١٠ - ١٤ ساعة في اليوم . ولم تعتمد سلطات الانتداب إلى تحديد ساعات العمل طيلة الحكم الانتدابي على لبنان . وأول محاولة للمطالبة بنوم العمل من ثماني ساعات كانت تلك التي تقدم بها حزب الشعب اللبناني عقب مظاهرات الاحتفال بأول أيار ١٩٢٥ .

— H. C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » — P. 308. (٥٠)

(٥١) راجع فصل « تطبيق الانتداب » : مقطع « أجر غير متساو لعمال واحد » .

— Bahige Tabbarah « Procédés juridiques pour la mise en valeur de l'exploitation » — semaines sociales — P. 90. (٥٢)

— H. C. « Rapport pour l'année 1922 » — P. 294. (٥٣)

أدوات الزراعة والري

كانت التقنية الزراعية معدومة تمامًا في جميع الأرياف اللبنانية . وكانت السكة الخشبية الأداة الزراعية الأولى لقلب التربة . والسكة ، سواء بسبب خفتها وطريقة استخدامها ، أو بسبب ضعف خيوانات الجر السيئة التغذية ، لم تكن تشق الأرض إلا على عمق ضئيل جدًا . وقد نتج عن تكرار هذه العملية في الأراضي الزراعية أن تكونت تحت سطح تربتها ، وعلى قليل من العمق ، طبقة صلبة يصعب على مياه الأمطار اختراقها وعلى جذور النباتات التغذية منها ، لذا كان المردود عادة بالغ الهزال .

أما في المزارع الصغيرة كالبقول والخضار فكان المول ذو اليد الطويلة والحديد المثلثة الشكل المسماة « مجرفة » والرفش ، أدوات الزراعة الرئيسية وإن اختلفت تسمياتها حسب المناطق .

ويتم الحصاد غالبًا بالمنجل . وفي المناطق الحجرية كان الحصاد يتم « بالقولش » ، وهي عبارة عن منجل صغير . ويتم الدراس بواسطة النورج ، وهو لوح خشبي مستطيل الشكل فيه ثقب أفقية متعددة مخلوعة بقطع الحجارة الصلبة التي تطحن القش .

وري المزارع ذو سمة مميزة في جميع المناطق . فتنوات الري من عمل المزارع الفرد أو الجماعة العائلية المحدودة بنطاق القرية الواحدة . والري من النهار يقوم في الغالب على الحق المكتسب بالعرف والعادة لجميع الأراضي الواقعة على ضفاف النهر أو تلك التي تصلها مياه النهر حسب فترات زمنية منظمة سابقًا . فالماء ، بالمفهوم الشائع لاستعماله آنذاك ، ملك خاص لمفجره إذا كان بشرًا ، وللأراضي الواقعة على ضفافه إذا كان نبعًا أو نهرًا (٥٤) . والقاعدة المتبعة منذ أيام الاتراك أن الاستعمال يخلق الحق . لذا بقي الاستعمال حكرًا على أراضي الاقطاعيين والأغنياء والموالين لهم . بمعنى أن القوة الاقطاعية هي التي قرّضت قانون توزيع المياه . وعن طريق خدمة هؤلاء الاقطاعيين وممالاتهم اكتسب بعض المزارعين حقوقًا ثابتة في الري سرعان ما تمسكوا بها ودافعوا عنها بقوة وثبتوها عن طريق المساحة . أما استخدام التنكيك في جر المياه واكتشافها فلم يكن له أي وجود . لذا ظلت معظم البنايات خارج الاستخدام الزراعي وبقيت الانهار تحمل مياهها للبحر دون أن يستفاد من الطاقات الهائلة التي تحملها للري . وبالمقابل استمرت معظم الأراضي اللبنانية الصالحة للزراعة تعطي مردودًا ضئيلًا جدًا وتعتمد في إنتاجها على الأمطار . أما السدود فلم يظهر لها أي أثر طوال فترة الانتداب ، كذلك مشاريع تربية الحيوانات المائية كالاسماك وغيرها ، وظل الري في جميع المناطق اللبنانية يعتمد مباشرة على مزارعين ، أفراد وجماعات ، يشيئون بالتقاليد والعرف والعادة (٥٥) .

— J. Weulersse « Les paysans de Syrie... » — P. 43. (٥٤)

— J. Weulersse — op. cit. — P. 43. (٥٥)

ان اغفال تنظيم الري عمداً ، لعب دوراً أساسياً في زيادة افقار وخراب الفلاحين لصالح كبار الملاكين الاقطاعيين وهيمنتهم على الارياض اللبنانية . فالري هو العصب الرئيسي للزراعة . وسيطرة الاقطاعيين عليه ، بدعم مباشر من حراب عساكر الانتداب ، اخرج مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية من دائرة الانتاج ورمها في البوار والمردود التافه بحيث اضطرت اعداد كبيرة من السكان الى الهجرة من الارياض الى المدن والخارج .

لصالحه من اختلاف المكايل والمقاييس والاوزان ؟

كانت المكايل الزراعية وثيقة الاتصال بأدوات العمل والنقل ونوعيتها لدى الانسان والحيوان ، كما ترتبط أساؤها بالحبوب والحيوانات المستخدمة في الزراعة وتكيف طبقاً لطبيعة المنتوجات الزراعية وللضرورات الاقتصادية والاجتماعية . ففي مجتمع كان القمح أساس الاقتصاد فيه ، كانت « القمح » تعتبر الوحدة الصغرى في الاوزان الزراعية وترتبط بها الاوزان التالية (٥٦) :

الحبة أو القمح	وحدة الوزن الأساسية	وتساوي	غراما
القيراط	٤ حبات	وتساوي	٠.٢٠ غ.
الدرهم	١٦ قيراطا	»	٣.٢٠ غ.
المثقال	١٤٥ درهما	»	٤٦.٨٠ غ.
الأوقية	»	»	٢١٥ غ.
الأقة	»	»	١٦٨٢ كلف
الرطل	»	»	٢٥٦٤ كلف
القنطار القديم	»	»	٣٢٠ كلف
القنطار الجديد	»	»	٢٥٦ كلف

وتباع الحبوب بالكيل . والوحدة الشائعة للمكايل هي « المد » في معظم المناطق اللبنانية ، و « الطبة » أو « المسحة » في مناطق عكار بشكل خاص . وأهم متفرعات المد هي (٥٧) :

- الشمية أو التمنية وتساوي ثمن من المد أو ٢٦٢٥ كلف .
- الربعية وتساوي ربع من المد أو ٤٥٠ كلف .
- المد ويساوي ١٨ كلف من القمح .
- الكيلة وتساوي مدين أو ٣٦ كلف من القمح .
- الشنبيل ويساوي ٣ كيلات أو ١٠٨ كلف من القمح .
- الشراير وتساوي ١٢ كيلة أو ٤٨٢ كلف من القمح .

(٥٦) — Latron « La vie rurale » P. 7; et E. G. Gédéon « L'indicateur syrien de 1922 » P. 48 et N. Mastracci « La Syrie contemporaine » P. 94.
(٥٧) — Latron « op. cit » P. 8, et Gédéon « op. cit. » P. 49, et Mastracci « op. cit. » — P. 95.

أما السوائل فكانت تباع على أساس الرطل بالنسبة للزيت أو الحليب أو الدبس وغيرها . وكان الرطل الشامي أو الاسطمبولي هو الرطل الرسمي الذي فرضته الحكومة العثمانية وينقسم الى ايتين بالضبط ، وتنقسم كل منهما الى ست أوقيات بحيث يبلغ وزن الرطل تقريبا ٢٦٦ كلف على أساس ان الكيلو الواحد يساوي ٥ أوقيات والأوقية ٢١٥ غ وليس ٢٠٠ غ كما هي حاليا .

أما في التطبيق العملي فكان الرطل في صيدا يساوي ١٥ أوقية بدلا من ١٢ ، وفي جزين ١٨٥ أوقية ، وفي الشويفات ١٣٥ أوقية ، وفي عكار ١٢٥ أوقية (٥٨) . كذلك تختلف الاوزان حسب المناطق والمنتوجات وتختلف معها الاجور العينية . « فالطبة » أو « المسحة » كانت تزن ١٤ كلف من القمح في مناطق عكار وطرابلس والزاوية . لكنها تزن ١١ كلف من الشعير في سهل عكار مقابل ١٠ كلف من نفس المادة في الدريب في المنطقة ذاتها . وتزن كذلك ١٣ كلف من « السورغو » أو الذرة البيضاء علف الدجاج وتزن ٨ كلف من الشوفان و ١١ كلف من السمسم و ١٢٥ كلف من العدس والحمص وغيرها من البقول في مناطق الدريب بعكار . فالطبة اذا لم تكن موحدة الوزن بل تختلف حتى داخل المنطقة الواحدة وباختلاف المادة الزراعية . لذا كان التجار يقتنون نوعين من « الطبات » : واحدة للبيع وهي صغيرة ، وأخرى للشراء وهي كبيرة . ويكون الاختلاف بينهما واضحا ويتجاوز الكيلو الواحد في جميع الحالات . كذلك كان الاختلاف واضحا في أدوات بيع التبن وأرطال الزيت والحليب وغيرها بحيث كان التاجر يستخدم دوما أداتين لا واحدة .

ويتغير وزن المد حسب المواد الزراعية وحسب المناطق . فهو يزن أساسا ١٨ كلف من القمح لكنه يرتفع الى ١٩ كلف قمحا في مناطق العاقورة وكسروان وعاليه وينخفض الى ١٧٥ كلف قمحا في المتن والشوف والى ١٣٥ كلف قمحا في صور والنبطية والى ١٢٥ كلف قمحا في صيدا ويحافظ على نسبة ١٨ كلف من القمح في البقاع الشمالي والجنوبي وفي حاصبيا وراشيا ومرجعيون (٥٩) . ومد الشعير يختلف ايضا تبعا للمناطق فهو ١٢٥ كلف في المتن مقابل ١٥ كلف في الشوف والبقاع الشمالي و ١٤ كلف في البقاع الجنوبي و ١١ كلف في عكار و ١٠ كلف في الدريب من نفس المنطقة ، و ١٠ كلف في صور و ٩ كلف في صيدا . أما مد الذرة فيعادل ١٣ كلف في عكار و ١٤ كلف في الزاوية و ١١ كلف في صيدا ، و ١١٥ كلف في النبطية و ١٧ كلف في البقاع الشمالي و ١٨ كلف في البقاع الجنوبي .

ويزن شنبيل الحنطة ١٤ كلف في عكار والدريب ، وشنبل الشعير ١١٠ كلف في عكار مقابل ١٠٠ كلف في الدريب (٦٠) . لقد كان الاختلاف في المكايل والاوزان يتم لصالح التجار وعلى حساب المنتجين الزراعيين . وكان هذا النوع من الغبن والنهب واسع الانتشار في جميع الارياض

— A. Latron « op. cit. » — P. 8.

— Latron « op. cit. » — annexe I.

— Latron « op. cit » — annexe I.

(٥٨)

(٥٩)

(٦٠)

البنانية . ولم تدخل السلطة المنتدبة خلال الفترة الانتدابية الاولى لوضع اوزان موحدة وفرضها في جميع المناطق بل لجأت فقط الى اعتماد المتر في الاسواق المدنية واليارد بالنسبة للبضائع الانكليزية . وبالرغم من اعتماد الكيلوغرام في الازان فنان هذه الوحدة لم تعد نطاق المدن ولم تسع سلطات الانتداب لفرضها رسميا في جميع المناطق .

اما مقاييس الطول فكانت وحدتها « الدراع » او « الدراع » لا المتر المربع . وكان « الدراع المعماري » الوحدة الاساسية في قياس الاراضي ويتفرع عنه الباع المساوي لاربعة اذرع ، والميل المساوي لالف ذراع . ويعتبر الدراع المعماري ٧٥ سم والباع ٢٤٧١ م والميل ٢٧٥٠ م (١١) .
وحدة مقاييس المساحة هي « الدونم » عادة بالنسبة لقياس الملكيات ، كذلك « الفدان » أي يوم الفلاحة الذي باستطاعة الفدان ان يقوم به . وترتبط بالدونم التقسيمات التالية (١٢) :

الدراع المربع ويساوي ٤٠٠٤٥٩ م^٢ .

الدراع المعماري ويساوي ٢٠٠٠٧٥ م^٢ .

الفدان ويساوي ٢٠٧٥٤ م^٢ .

الدونم ويساوي ٨٠٠ م^٢ بدلا من ١٠٠٠ م^٢ كما هو حاليا .

ولا بد من التنويه في هذا المجال ان قياسات المسافة كانت وحدتها الاساسية بالكيلومتر لكنها حصرت في نطاق الخطوط الحديدية والطرق ، في حين استمر قياس المسافات ، طيلة ايام الانتداب ، بساعات السير على الاقدام ، وبالفرسخ التركي الذي يبلغ في المتوسط خمسة كيلومترات . ويعبر عنه بالمسافة التي يقطعها حصان محمل في مبدى ساعة واحدة . لكن الفرسخ التركي كان يختلف ايضا بالنسبة للمناطق فيصل احيانا الى ٣ أميال او ٨٣ كلم . وبقي استخدام الميل الهاشمي المساوي ١٠٠ باع او ٢٤٧٠ كلم (١٣) شائع الاستعمال .

من المؤكد ان الارياض اللبنانية عامة ، والارياض الواقعة خارج جبل لبنان خاصة ، ومناطقها الباقية الخصوبة زراعية على الاخص ، كانت عرضة لاستغلال مباشر لصالح تجار المدن وساسة الحبوب . فهذه المناطق بالذات كانت بمثابة مركز لتموين سكان المدن بالحبوب . وقد لعبت المقاييس والاوزان والمكاييل دورا هاما في نهب الفلاحين والزراعيين تحت ابصار ادارة الانتداب بالذات . تلك الادارة كانت مدنيية الطابع والمكان بحيث اعتبرت بيروت المركز الاساسي لادارتها وعسكرها وسياستها وتجارها وتوجيهها الثقافي وغيره . وبقدر ما كان يزداد نهب تجارها وموظفيها لبيروت وباقي المدن اللبنانية والسورية ، بقدر ما كانت تفسح المجال امام تجار وساسة المدن لنهب الارياض وتجميع خيراتهم في مصارف ومؤسسيات الفرنسيين .

— H. C. « Ce que tout Français doit savoir de la Syrie et du Liban » — P. 51.

— Latron « op. cit. » — Annexe I — et Gédéon « op. cit. » — P. 49 — et

Maestracci « op. cit. » — P. 95.

— Latron « op. cit. » — P. 201.

فالادارة الانتدابية لم تسع الى تنظيم الريف الا بمقدار ما يتسجم ذلك التنظيم مع مصلحة الاقطاعيين والساسة المحليين العاملين على تأييد سياستها .

سفسار المدينة يشارك ايضا في نهب الفلاحين

بين بداية مواسم الحصاد والاشهر القليلة التي تليه ، كان يلاحظ انخفاض عمودي في أسعار الحبوب بحيث تنحدر الى ٣٠ و ٤٠ و ٥٠ بالمئة عما كانت عليه قبل ذلك التاريخ . وفي حين تحافظ الحبوب على أسعار متدنية طيلة فترة جني المحصول ، ترتفع فوراً الى ضعفين او ثلاثة اضعاف عند شراء البذار ثم تزداد ارتفاعا في الشتاء وتبقى مستمرة الارتفاع حتى بداية الموسم الجديد . وعلى هذا الاساس يضطر الفلاح الى شراء ما باعه باستعار مرتفعة جدا . والفلاح دوما مضطر لبيع محصوله عند الحصاد بسبب استدائنه المسبقة من المرابي او مالك الارض او تاجر المدينة ، وعليه ان يسدد ما استدائنه مع الفوائد الباهظة . اذا كان تاجر المدينة او السمسار يلعب دور المرابي لهؤلاء الفلاحين ويستغل حاجتهم الماسة الى القوت فيمدهم بالحبوب او النقود لقاء التفهد بازساق محصولهم اليه ، وهو الذي يبيع المحصول كما يشاء ويقتطع تقوده وفوائدها كما يشاء ايضا ، ونادرا ما يتبقى للفلاح الا مؤونة اشهر قلائل يعود بعدها الى الاستدانة من جديد .

ان سفسار المدينة لعب دور البائع والشاري لمحاصيل الفلاحين . وكان يستغل هذا الوضع الى اقصى حد فيشتري المحصول في بداية الموسم بأسعار زهيدة ، ثم يخزنه ويعود فيبيعه الى الفلاح نفسه بأسعار جد مرتفعة .

ان مختكري الحبوب في المدينة لعبوا دورا قدرا في افقار وخراب المزارعين والفلاحين . فبتقديم المال والبذار لهم ، على حساب الموسم القادم ، كان الساسة يسيطرون على انتاج هؤلاء . ففي حين احتجز الاقطاعي حرية الفلاح المدم وممنعه بالقوة من مفادرة الارض التي يعمل عليها ، كان سفسار المدينة يحتجز فعليا محصول الفلاح المتوسط والفقير والميسور وحتى الاقطاعي الصغير ويجبره على تقديم كامل محاصيله لهذا السمسار . اما المحصول ، فجيدا كان أم رديئا ، لم يكن من نصيب الايدي التي عملت على انتاجه ، ولا من نصيب المنطقة التي انتج فيها بل يذهب الى جيوب تجار المدن واقطاعيين الريف الساكنين فيها ايضا .

ان ساسة المدن جمعوا ثروات طائلة على حساب خراب الفلاحين في الارياض وامتصاص خيراتهم لصالح حفنة صغيرة من تجار الحبوب المرابين .

سوء نظام التغذية

ان استغلال الفلاحين ونهبهم من قبل الدولة وساداتهم الاقطاعيين والمرابين ، مضافا الى الكوارث الطبيعية والامراض التي كانت تفتك بهم وبماشيتهم ومزروعاتهم ، قد كشفت عن نتائج مذهلة من البؤس الرهيب في حياة الفلاحين والريفين في

لبنان بشكل عام . فالفلاح ، المعدم والفقير والمتوسط ، يعيش دوماً على حدود المجاعة . فهو فريسة لسوء تغذية مزمنة وليس لديه سوى الخبز والبرغل والبن الرائب . كما ان المحاصصة لا تترك له سوى الحد الأدنى من القوت الضروري لاستمرارية الحياة مع افتقار تمام للنقد الذي يستطيع بواسطته شراء حاجيات من خارج الانتاج الزراعي الذي يتم تبادله بالمقايضة . فالادخار ، مهما كان شكله ومهما كان نوعه ، كان حلماً نادراً لتحقيق لذا كان الموسم الرديء يعني دمار الفلاح او موته جوعاً او الاستلاف بفوائد فاحشة يدفعها احياناً ٤٠٠ بالمئة (١٤) .

والخبز اساس التغذية الريفية في جميع الاحوال . واستقبال الضيوف واحتفالات الاعياد كانت المناسبات الوحيدة التي يتغير فيها نوع الغذاء تقليدياً عن مشتقات البرغل والحبوب ومشتقات الحليب . ففي هذه المناسبات كان يتم ادخال اللحم على الطعام كذلك الدجاج الذي تربيته العائلة بالذات والذي ينجو من اتياب الاقطاعي ورجال البدرك .

وفي السهول الكبيرة ، كان نظام التغذية يقوم اساساً على الحبوب ، من قمح وذرة وشعير والتي يصنع منها الخبز والحلوى والبرغل وغيرها . والشعير غذاء الفلاح الفقير الذي لا يستطيع شراء القمح لأن الشعير عادة هو علف الحيوانات ، خاصة الحمير . أما الذرة فكانت على نوعين : الذرة الصفراء وتكثر في مناطق عكار والبقية والبقاع وتستخدم كذلك في صنع الخبز ، والذرة البيضاء ، وتسمى السورغو ، وهي غذاء الدجاج عادة . لكن نظام الاستثمار ذاك دفع اعداداً كثيرة من السكان لمشاركة الدجاج في اكل السورغو ، كما دفعوا قسماً آخر من السكان لمشاركة الحمير في غذائها من الشعير .

تضاف الى هذه الحبوب مادة دهنية ، هي زيت الزيتون على السواحل وفي مناطق انتاج الزيتون ، او سمن الغنم والبقر في السهول والجبال ، ثم الزيتون المكبوس ، مع بعض الخضار والبيض والفاكهة الطازجة والاجبان . وفي اما اللحم فلم يكن يحتل سوى مكانة ضيقة جداً في تغذية الفلاحين . وفي الصيف خاصة ، كان اللحم وجبة غير عادية في جميع أرجاء الريف اللبناني ، فهو لا يظهر الا في الاحاد وايام الجمعة والاعياد . وفي الشتاء يستعاض عن اللحم « بالقاورمة » (١٥) او اللحم المدهن المحفوظ .

وكانت الخضار تستهلك بكميات كبيرة في الجبل والسواحل . وفي جميع المناطق كان يجري تحضير أنواع من المربيات لفصل الشتاء خاصة الدبس ومربى العنب والسفرجل والشمش والزبيب وغيرها (١٦) .

وفقر المدن لم يكن طعامه بأفضل من طعام فلاح الريف بل كان يتفدى بالخضار والفواكه الرخيصة ويقطع الخبز مع الحلاوة او الجبنة . فقد كانت حياة الاثنين متشابهة في المأكل والسكن والملبس . فقير الريف يعتمد على ما يقيه له

— Latron « La vie rurale » — P. 117.

— J. Weulersse « Les paysans de Syrie... » — P. 232.

— Latron « op. cit. » — P. 120.

(١٤)

(١٥)

(١٦)

المالك من انتاجه هو من الارض ، أي يعيش على حساب نفسه دون أي اتصال بالخارج ويعتاش المالك من استغلال فلاحه بالذات وعلى حساب خرابه ، كذلك فقير المدينة الذي يعيش على جزء ضئيل من قوة عمله في حين يفتني التاجر او صاحب المصنع على حساب دماره ايضاً (١٧) . لقد كان الاثنان خاضعين لاستغلال رهيب ولا يستطيعان مفارقة عملهما الا اذا اختارا الموت جوعاً او هاجرا تاركين وراءهما عيالا متعددة الاطفال . اما الشراب فكان يختلف حسب المناطق والطوائف . وعلى العموم كان الريفيون مقلين في تناول المشروبات الروحية ما عدا جبل لبنان حيث كان النبيذ يستهلك بكثرة خاصة النبيذ المعتق في فصل الشتاء ، كما كان العرق الملقب « بحليب السباع » منروب . لاعراس عند المسيحيين واثناء ولأئمتهم وأعيادهم الكبرى دون ان تكون له صفة الاستهلاك اليومي . والنبيذ والعرق محرمان شرعياً لدى جميع الطوائف الاسلامية . ان شرب الفلاح الاساسي هو الماء الذي يفضل من ينبوع مباشرة ويشربه حتى الارتواء ، يديه او بالابريق الفخاري . وفي المنازل كانت القهوة شراب الضيافة ويستعاض عنها بالشاي في بعض المناطق و « بالمئة » عند الدروز بشكل خاص .

سوء العناية الصحية

ان نقص التغذية ، والسكن الرديء ، والجهل بالوقاية الصحية ، وغياب الثقافة والتعليم ، وحياة البؤس المستمرة للأغلبية الساحقة من اللبنانيين ، والربا الفاحش ، وضرائب الدولة المتزايدة ، والسيطرة الاقطاعية ، وغيرها ، ساهمت الى حد كبير الى جانب موجات الجراد والطاعون والكوليرا والتيفوئيد والامراض البوائية باعتلال صحة اللبنانيين ، خاصة الفقراء منهم في المدينة والريف ، كما يعترف بذلك صراحة تقرير المفوضية العليا لعام ١٩٢٤ . حتى في جبل لبنان ، حيث المناخ أكثر ملاءمة من باقي المناطق وحيث مستوى الفلاح فيه مرتفع أكثر بما لا يقاس من أقرانه في باقي المناطق ، فان تقرير هذا العام يسجل ٣٤٤ اصابة بالحمى التيفوئيدية هناك ، و ٨٣ اصابة بالجذري ، و ١٢٤٣ اصابة بالحصبة ، و ٢٠٤ اصابات بالدفترية او الخانوق ، و ١٣٤ اصابة بالترأخوما ، و ٩٢ اصابة بالسعال الديكي ، و ١٦٥ اصابة بأمراض الدماغ والجهاز العصبي ، و ٩٤٥ اصابة بأمراض جهاز الدورة الدموية ، و ١٤٧١ اصابة بأمراض الجهاز التنفسي ، و ٩٤٣ اصابة بأمراض الجهاز الهضمي ، و ٢٧٥ حالة وفاة بأمراض خطيرة ، و ١٩ اصابة بالطاعون ، وغيرها (١٨) . وتسجل تقارير الفرنسيين ان سوريا ولبنان كانتا عرضة باستمرار لموجات من الجذري والطاعون والكوليرا والتيفوس التي كانت تجتاح السكان والحيوانات دون ان تكون هناك اجهزة صحية قادرة على مكافحة تلك الاوبئة والامراض سوى الحجر الصحي في الكرنتينا في بيروت الضعيف التجهيز ، وبعض المؤسسات الصحية الخاصة التي

— Noël Maestracci « La Syrie contemporaine » — P. 207.

— H. C. « Rapport sur l'année 1924 » — Annexes 6 et 7 — P. 98-99, et R. (١٧)

— O'Zoux « Les Etats du Levant... » — P. 204-205. (١٨)

تتطلب المعالجة فيها نفقات باهظة وتفتقر أيضا إلى معظم الأدوات الصحية اللازمة والتجهيزات .

ان السنوات الاولى التي تلت الحرب العالمية الاولى تميزت بالقسوة الهائلة على مجموع السكان في سوريا ولبنان بسبب موجات الجراد المتتالية التي كانت تجتاح اراضيها وتاكل الاخضر واليابس تاركة وراءها كميات كبيرة من البيوض على اراض قاحلة مما اضطر الاهل إلى تنظيم حملات جماعية مستمرة لمكافحة الجراد ويوضح دون ان تكون هناك وسائل فعالة لمكافحة والقضاء عليه من الجو . وقد تسبب الجراد والجوع والابوة بالعديد من الاصابات المميتة بين اللبنانيين والمهاجرين الايمن .

بعض الملاحظات

بقي الريف اللبناني خلال الفترة الانتدابية الاولى متروكا لشأنه دون أي تدخل فعلي من جانب سلطات الانتداب لتطويره وتنشيط الموارد الطبيعية فيه . فطبيعة الانتداب بالذات كانت ترتدي طابعا مدينيا واضحا وتتمركز في بيروت بشكل خاص حيث تجمعت فيها ادارات الدولة ومؤسساتها المالية والتجارية والعسكرية والتعليمية وغيرها . لكن لا بد من الإشارة إلى ان الانتداب الفرنسي لم يكن يهمل الريف اللبناني في حملاته المتكررة لجمع مذكراته الذهبية وفرض الضرائب الباهظة على سكانه . تلك الضرائب دفعت العديد من الريفيين ، بفعل سنوات الجفاف المتكررة خلال تلك الفترة ونهب الاقطاعيين والاقواف الدينية المتزايد للانتاج الفلاحي الضئيل إلى هجرة قراهم والتمركز في المدن أو الانتقال إلى الخارج مما أدى إلى افراغ قرى بكاملها من سكانها وازدياد سكان المدن خاصة بيروت بشكل عامودي .

لقد لعب النزوح والهجرة دورا بارزا في ضرب أسس الاقتصاد الفلاحي ومؤسساته الاجتماعية في الريف خاصة السكن والعائلة والعمل . فقد أثقل هؤلاء المهاجرون من العمل القسري أو الإيجار السنوي والموسمي إلى العمل اليومي المدفوع الأجر نقدا فشكّلوا نواة أخرى من الطبقة العاملة اللبنانية المتفاوتة الاستقرار بين البروليتاريا الصرف وأنصاف البروليتاريا وبقيت السمة المميزة لهم ، خلال تلك الفترة ، ارتباطهم الفعلي في الريف بحيث شاركوا في العمل اليومي فيه خاصة في مواسم الحصاد والقطاف وغيرها كما شارك المهاجرون في اعالة أعداد كبيرة من الاهل والاولاد المقيمين فيه .

ان تطوير الريف اللبناني وشق الطرق هناك ، على قلتها ، لم تكن فعليا من عمل ادارة الانتداب ، بل اعتمدت في الغالب على هبات الكرماء من أبناء القرى الذين هاجروا وأثروا ، كما اعتمدت على فرض السخرة في شق طرق الريف وأعمال الري فيه .

كذلك فتطوير المنازل السكنية في الريف لم يتم أيضا بفضل انعاش الريف بالمشاريع الاقتصادية التي تدر الخيرات الوفيرة على سكانه بل بفعل الهجرة في المقام الاول وبفعل النزوح إلى المدن ، هذا النزوح المرتبط بوئاق متين مع الريف في المقام

الثاني . اما حياة الريف الاقتصادية فبقيت كما كانت عليه أيام الاتراك دون أي تغيير جدي وظاهر في جميع المستويات ، ان على صعيد نظام الملكية العقارية الكبيرة أو على صعيد الري والطرق وأدوات الزرع والحصاد وغيرها . وإذا استثنينا فقط حملة تشجيع زراعة التوت لانتاج الحرير والتي تمركزت أساسا في جبل لبنان وانعشت سكانه لسنوات قليلة جدا بكميات وفيرة من الثقود ، فإن أي مشروع اقتصادي أو سد مائي لم يظهر في أرياف لبنان طيلة العهد الاول من الانتداب .

هذا الاهمال التام للريف أبقي حياته الاجتماعية على حالها دون تغيير جذري خلال هذه الفترة . فقد استمرت سيطرة الاب على عائلته ، كما استمرت سيطرة الذكر ، المنتج زراعيًا في اقتصاد يقوم أساسا على الزراعة البسيطة والتبادل البضاعي ، سمة بارزة من سمات الريف ، واستمر معها حق الاب أو الوصي في اجراء العقاب الفوري حتى الموت في بعض الحالات ، خاصة في « جرائم الشرف وغسل العار » دون تدخل مباشر من جانب السلطة المركزية .

ان قوانين العرف والعادة المتوارثة عبر مئات السنين بقيت سارية المفعول وسيفا مسلطا فوق رؤوس الريفيين بحيث كان واضحا ان سيطرة الذكر أو الاب ليست الا مظهرًا من مظاهر سيطرة الاقطاعي ، الممثل للسلطة الانتدابية في الريف ، على الرجل والمرأة معا في حالة من نظام العبودية الموهل في القدم .

وسيطرة الاقطاعيين على الريف لم تكن تحجب في الواقع دعم الفرنسيين لهؤلاء الاقطاعيين وتسخير عساكر ادارة الانتداب لخدمتهم بحيث أصبح الاقطاعي سيد الريف وممثلا في ادارة الدولة الانتدابية الموالي لها . فتعززت بالتالي سيطرته العقارية والتنفيذية في منطقته دون ان تتمركز معها امكانياته المادية التي يستطيع معها شراء الادوات الزراعية الحديثة وتنشيط زراعته في الريف . فهو مضطر لابرار زعامته الريفيه ، ولتحمل أعباء السكن في المدن وما يقتضيه من نفقات باهظة . ولما كانت موارده الزراعية محدودة ، نتيجة نظام الاستثمار وأدوات الزراعة والري ، كانت شراسته تزداد لنهب فلاحيه أكثر فأكثر ، بينما كان هؤلاء يلجأون إلى النزوح والهجرة أو يفرضون العمل اليومي المأجور نقدا ، مما زاد بشكل ملحوظ في أزمة الاقطاعيين المادية وفي ارتفاع نسبة الاراضي البور في جميع الأرياف اللبنانية خاصة أراضي الاقطاعيين وأبقى اسعارها دون زيادة تذكر في حين كانت نسبة تكاليف المعيشة ترتفع باضطراد . هذا الواقع الجديد دفع العديد من الاقطاعيين ، كما دفع العديد من المقاطعية سابقا في جبل لبنان ، إلى تعاطي التجارة وأعمال الوكالات ، حيث الربح السريع ، وابتاع اراض لهم في المدن حيث امكانية ارتفاع الاسعار كبيرة ، وبدأ بعضهم بترسيخ أقدامه في أجهزة الدولة سياسيا وماليا .

ان ابقاء الريف اللبناني يواجه قدره بنفسه دون مساعدة من دولة الانتداب أو من الاقطاعيين المسيطرين عليه ، حرم هذا الريف كما حرم لبنان من خيرات اقتصادية وفيرة تخزنها اراضيهم وبقيت مساكنه على حالها ، ما خلا بعض مناطق الاصطياف القريبة من بيروت كما بقي التعليم فيه شبه معدوم بين الذكور والاناث ، واستمر نظام

العمل يقوم على العرف والعادة دون اية تشريعات او قوانين تضمن للفلاح الحد الأدنى من امكانية العيش والضمان من الموت جوعاً، كما استمرت الملكيات العقارية الكبيرة غير المجزأة سمة بارزة من سمات المجتمع الريفي في لبنان، خارج اسوار قلعة جبل لبنان الصخرية. فالجهل والفقر والمرض والهجرة كانت الصفات الملازمة لحياة الريفيين في لبنان في أوائل عهد الإنتداب.

إلياس الراعي :
الحركة السياسية في لبنان:
من الحكم العسكري المباشر
إلى الديمقراطية الشكلية
١٩١٨ - ١٩٢٦

تيار القومية العربية العلمانية

ادت الحرب العالمية الاولى الى نتائج بالغة الاهمية بالنسبة للعرب منها اعلان الثورة العربية عام ١٩١٦ للتخلص من النير التركي ، وهزيمة الامبراطورية العثمانية واقتسام تركتها بين الحلفاء المنتصرين .

وبالرغم من ان نهاية هذه الحرب لم تحمل آمالا زاهرة للعرب ، فقد حملت الثورة العربية الكبرى احلاما كبيرة للوطنيين . فكتب الشاعر اللبناني بشارة عبد الله الخوري ، الاخطل الصغير ، يقول « ان الفكرة السائدة آنذاك ان الحلفاء سيبعثون الامبراطورية العربية وعلى رأسها الحسين بن علي . وكانت الحاجة ماسة الى اثارة الخواطر في البلاد تعجلا ليوم الخلاص وهو أمنية كل البلاد العربية في ذلك العهد » (١) بيد ان سياسة جمال باشا القمعية ، وشنق الاحرار ، والنفي الى الاناضول والرومللي ، انتهت بمقتل او ترحيل قسم كبير من المثقفين الوطنيين في سوريا ولبنان ، وقمع كل تعاطف مع الفرنسيين والانكليز بشدة بالغة ، وتناول الاضطهاد المسلمين والمسيحيين على السواء ، ودونما تمييز .

وقدم قنصل فرنسا ، فرنسوا جورج بيكو ، من حيث لا يدري ، اسماء جميع المتعاونين معه من المثقفين الوطنيين . ومن كتاب الشهيد فيليب قعدان الخازن نقرأ الفقرة التالية : « أعلنت الحرب العالمية الاولى في صيف ١٩١٤ وبدأ الانتقام الطوراني من العرب الذين عملوا لحرية قومهم ولا سيما في لبنان وسوريا وفلسطين . فكان من سبل الشر وعونة قنصل فرنسا في بيروت ، ف. جورج بيكو ، اذ سافر الى بلاده تاركا اوراقه وتقاريره السرية في خزائن القنصلية وأوكل امر حمايتها الى قنصل

(١) « جريدة البرق — لماذا تسميت بالاخطل الصغير ؟ » السنة ٢٣ — العدد ٣٣٨٦ الصادر في ١٥ كانون الاول ١٩٣٠ . حول الحياة السياسية في لبنان المتصرفية راجع مقالة الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك « المقدمات التي مهدت للحياة النيابية في لبنان » المنشور في مجلة « الحياة النيابية » المجلد الثالث — تشرين الاول ١٩٧٣ .

الولايات المتحدة الأمريكية . ولم يكن القنصل الأميركي حازما في ما كلف له ، والحكومة العثمانية لم تبال بامتيازاته القنصلية فاستولت على اضرار القنصلية الفرنسية ، ومن هذه الاضرار عرفت جميع النشاطات التي بذلها القوميون العرب والاحرار والناقمون على سياسة الاستانة . فراحت تبطش بهم افرادا وجماعات (٢) يتبين لنا من هذا المقطع ان الدعوة كانت قومية عربية وليست اقليمية حتى بين صفوف المسيحيين في لبنان . ويؤكد الكثير ممن كتب حول هذه الفترة ان بعث الفكرة والشعور العربيين قد ساهم فيه بنشاط المسيحيون اللبنانيون ، حتى ان الدكتور ادمون رباط ينسب الى هؤلاء ، تاريخيا ، « بعث هذه الفكرة ثم هذا حذوهم كتاب مسلمون من سوريا لحاوا جميعا الى مصر هربا من استبداد السلطان عبد الحميد الثاني » (٣) . « ففكرة القومية العربية تحركت أساسا من منطلقات ديمقراطية علمانية » (٤) ، كما يقول رثيف خوري . ويؤكد هذا القول البرت حوراني « بأن القومية العربية ، في تعبيرها عن نفسها ، كانت حركة علمانية » (٥) . فقد كان الزعماء يغبون في تجريد فرنسا من سلاحها الاقوى وهو وجود الاقليات المسيحية التي كانت تتطلع الى فرنسا لحمايتها .

لذا يمكن القول ان الشعارات التي رفعها دعاة القومية هؤلاء ، انطلقت أساسا من الالتفاف حول العروبة لا الدين . وكان الهدف واضحا : تجميع العرب حول شعار وحدوي قومي للعمل ضد الانكسار وضد الانجرار وراء مخططات الاوروبيين ، فرنسيين كانوا ام انكليز .

وهذا ما يفسر الى حد كبير ، مغزى الدعوة التي اطلقتها جريدة « الحقيقة » البيروتية منذ دخول الحلفاء الى سوريا ولبنان . « فالحقيقة » التي كانت تنطق آنذاك بلسان الوجدانيين العرب ، رفعت شعار « تأليف حزب سياسي يضم المسيحيين والمسلمين في سبيل قيام وحدة وطنية على أساس مكين » (٦) .

ان الجو العام الذي اعقب الحرب العالمية الاولى ، والذي كثرت فيه شعارات « حق تقرير المصير » و « حق الامم الصغيرة في ادارة نفسها بنفسها » و « تبذ الطرق الاستعمارية القديمة » وغيرها ، دفعت العديد من المثقفين الى اقتباس شعارات الثورات التحريرية في العالم وخاصة الثورة الفرنسية بالذات . ويقول الياس ابو شبكة في تقييمه لهذه الفترة « ما كادت الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) تضع أوزارها ، حتى ارتفعت أصوات الشرقيين ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، داعية

(٢) كتاب الشهيد فيليب تعدان الخازن - نشر يوسف ابراهيم يزبك - ص ٦٩ . وسميح الزين

« ٦ أيار » ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) - E. Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous Mandat » - P. 22.

(٤) رثيف خوري . « عبد الفني العريسي » . الطريق - السنة ١٨ - كانون الاول ١٩٥٩ -

ص ١٢ .

(٥) البرت حوراني « الفكر العربي في عصر النهضة » - ترجمة كريم عزقول - ص ٣٥٣ .

وتقولا زيادة « ابعاد التاريخ اللبناني الحديث » ص ٢٤٢ .

(٦) كمال عباس . « الحقيقة » - السنة ١١ - العدد ٩٨٤ الصادر في ٥ كانون الاول ١٩١٨ .

الى الاخاء ، والمحبة ، والحرية ، والمساواة... » (٧)

لقد تميزت السنوات الاولى من نهاية الحرب بمد عروبي واسع في سوريا ولبنان ، وكان على الحلفاء خاصة الفرنسيين منهم ، العمل بصبر وناة لتفتيت وحدة هذا التيار ، وتآليب العديد من المحليين ضده باسم « الدين » و « الاستقلال التام » و « المساعدة » للوصول الى مدارج الحضارة . ان فكرة القومية العربية العلمانية وجدت صدى واسعا لها بين صفوف الكتاب والمثقفين اللبنانيين في الداخل والخارج ، فانبروا للدفاع عنها ومناصرتها كحركة قومية جامعة لشمل العرب وتجاوز الاطر الدينية التي كانت اسيرتها آنذاك . والقومية العربية العلمانية كانت في الواقع تجسيدا واستمرارا للدعوات السابقة التي نادى بها بطرس البستاني وابراهيم اليازجي والعديد من الكتاب اللبنانيين في مصر منذ القرن التاسع عشر ، لذا لاقت ارضا خصبة وآذانا صاغية لها في لبنان قبيل الحرب العالمية الاولى واثناءها ، ولعبت الاحزاب السياسية والجمعيات السرية والمؤتمرات السابقة دورا كبيرا في التمهيد لها .

أضواء على مواقف اللبنانيين من الاتحاد ، والانفصال ، والانتداب (١٩١٨ - ١٩٢٠)

١ - في الداخل :

تميز الاحتلال الانكلي - فرنسي للبنان في نهاية ١٩١٨ بالغياب الكامل للحياة السياسية فيه ، والتي كانت بالغة النشاط قبيل الحرب .

اما الوجود الفرنسي العسكري الضئيل والبالغ الذي رجل فقط عند نهاية الحرب ، فقد اجبر ساسة الفرنسيين على التركيز مباشرة على اصدقاءهم التقليديين اي الموارنة بشكل خاص . وكانت أبرز التيارات في صفوف هؤلاء تلك التي تنادي بتوسيع حدود لبنان نحو مواقعه الطبيعية والتاريخية (٨) . وكان دعاة هذا التيار يطمحون الى الاستقلال الذاتي وتحقيق الانفصال عن سوريا .

لذا كانت مطالب الاستقلال التام والعلاقات الاقتصادية المتينة مع الداخل وتوسيع حدود الجبل نحو المدن والسهول أبرز أهداف الحركة السياسية داخل جبل لبنان خلال عامي ١٩١٩ - ١٩٢٠ . ولتحقيق هذه الاهداف كان البعض يطالب بالمساعدة الفرنسية ، دون ان تؤثر هذه المساعدة على الاستقلال التام الذي حدده اللبنانيون كهدف لهم . وتمثلت تلك الاهداف في مذكرات ثلاث تقدم بها مجلس ادارة جبل لبنان السابق والتي تم على أساسها ارسال ثلاثة وفود الى مؤتمر الصلح في باريس . وكان داخل أعضاء هذا المجلس تمايز في مستوى التصور السياسي للبنان المستقل . فمنهم من أيد الانفصال التام عن سوريا ومنهم من دعا الى تأييد مقررات المؤتمر السوري لعام ١٩١٩ والرامية الى اعطاء لبنان استقلالية نسبية

(٧) الياس ابو شبكة « روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب » ص ٥٨ .

(٨) A. Sfeir « Le mandat français... » - P. 44.

داخل الاتحاد السوري شريطة ابعاد كل يد اجنبية عن التلاعب في مصير سكانه .
وسرعان ما قامت ادارة غورو باعتقال دعاة هذا الاتجاه وعلى رأسهم سعد الله الحويك ،
شقيق البطريك بالذات ، عندما قرروا الذهاب الى دمشق لبابعة الملك فيصل والسفر
من هناك الى حيفا فأوروبا لتوضيح وجهة نظرهم أمام الرأي العام هناك . وقامت
ادارة الانتداب بنفي سعد الله الحويك و خليل عقل ومحمد محسن وسليمان كنعان
وفؤاد عبد الملك والياس الشويري الى كورسيكا (٩) . اما دعاة الاتحاد مع سوريا
فكانوا الاغلبية الساحقة من سكان المناطق التي ضمت الى جبل لبنان المتصرفية .
وقد عبرت مقررات المؤتمر السوري ، الذي شاركوا فيه عبر مندوبيهم ، عن
تصوراتهم السياسية حول مستقبل لبنان .

ففي أعوام ١٩١٨ - ١٩٢٠ كانت هناك فكرتان رئيسيتان لحل القضية اللبنانية
— كما يقول جورج حنا — الفكرة الاولى : استقلال لبنان وانفصاله عن سوريا ، والفكرة
الثانية : استقلال لبنان واتحاده مع سوريا في الامور الخارجية والاقتصادية (١٠) .
اما القول بأن اللبنانيين قد رحبوا بالفرنسيين وايدوا فكرة اقامة دولة لبنانية
مستقلة عن سوريا وباقي اجزاء العالم العربي ، وبأن اللبنانيين دعوا الى الانتداب
الفرنسي وعملوا له فقول يرفضه الواقع التاريخي وترفضه الوثائق التاريخية بالذات .
فالذين رحبوا بالانتداب من اللبنانيين لم يمثلوا كل اللبنانيين من جهة ولا طائفة واحدة
حتى من جهة ثانية . فالتائفة المارونية ، وهي المعنية دوما بالقول انها ايدت الانتداب
وعملت له ، لم تكن موحدة الآراء اطلاقا في هذا المجال . فمجلس الادارة السابق
لجبل لبنان ، والذي كان لا يزال يعتبر شرعيا قبل ان يقدم الجنرال غورو على حله ،
قد اجتمع وقرر في ٩ تشرين الاول ١٩١٨ ما يأتي (١١) :

- « ١ — توسيع نطاق جبل لبنان كما كان معروفا فيه تاريخيا وجغرافيا وما
تقتضيه منافعه الاقتصادية بحيث يكون بلادا قادرا على القيام بحياة شعوبها
ومنافعهم وثروتهم وبحكومة راقية منظمة .
- « ٢ — تأييد استقلال حكومة منظمة بادارة شؤونها الادارية والقضائية بواسطة
رجال من اهلها .
- « ٣ — يكون لهذه الحكومة مجلس نيابي يؤلف على مبدأ التمثيل النسبي حفظا
لحقوق الاقلية وينتخب من الشعب ويكون لهذا المجلس حق التشريع ووضع
القوانين المناسبة للبلاد وسائر ما للمجالس النيابية في البلدان الديمقراطية .
- « ٤ — مساعدة دولة فرنسا للحصول على الاماني المتقدم ذكرها ومعاونتها
الادارة المحلية في تسهيل نشر العلوم والمعارف وتقديم البلاد وازالة اسباب التفرقة
والخلاف وتطبيق الاعمال على محور العدالة والحرية والمساواة وضمن الدولة

(٩) يوسف مزهر — « تاريخ لبنان العام » ص ٩٢٣ .

(١٠) جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٣ — ٢٤ .

(١١) المقتطف — السنة ٥٤ — الجزء الاول — كانون الثاني ١٩١٩ — مقالة « مشروع لبنان » — ص ٩٧

راجع ايضا جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٤ — ٢٥ — ويوسف مزهر

« تاريخ لبنان العام » الجزء الثاني — ص ٨٧٤ — ٨٧٥ .

« المشار اليها للاستقلال المذكور منعا لكل مساس به . وقد فوض المجلس المندوبين
« لآلية اسأؤهم لعرضه على اصحاب الامر :

داود عمون — اميل اده — محمود جنبلاط — عبدالله الخوري — ابراهيم ابو خاطر —
حليم الحجار — تامر حماده » .

فمجلس الادارة ، وفيه من الموارنة ما فيه ، لم يناد بالانتداب بل بالاستقلال .
وقد اوضح المقصود بهذا الاستقلال اديب باشا في كتابه « لبنان بعد الحرب » حيث
يقول : « استقلال لبنان في حدوده التاريخية ، على ان يكون هذا الاستقلال مضمونا
من الدول الكبرى . تلك هي اماني اللبنانيين ، فلا حكام اجانب على رؤوسهم بل
حكومة وطنية شرعية ينتخبها الشعب اللبناني وحده » (١٢) .

ثم عاد مجلس ادارة جبل لبنان للاجتماع في ٢٠ ايار ١٩١٩ واصدر قراره
الثاني الآتي (١٣) :

- « ١ — المناداة باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية
واعتبار البلاد المفصولة منه بلادا لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه .
- « ٢ — جعل حكومة لبنان هذه ديمقراطية مؤسسة على الحرية والاخاء
والمساواة مع حفظ حقوق الاقليات وحرية الاديان .
- « ٣ — تقرر الحكومة اللبنانية علائقها الاقتصادية بين لبنان والحكومات المجاورة .
- « ٤ — مباشرة درس وتنظيم القانون الاساسي بطرقه الاصولية .
- « ٥ — تقديم هذا القرار الى مؤتمر الصلح .
- « ٦ — اعلان هذا القرار في الجريدة الرسمية وفي غيرها من الجرائد الوطنية
تطمينا لافكار اللبنانيين وبيانا للمحافظة على حقوقهم » .

وكان رد البطريك الحويك على جواب لجنة كينغ — كراين بالغ الوضوح
« استقلال لبنان المطلق . وان كان لا بد من مساعدة فلتكن من جانب فرنسا » (١٤) .
ثم يعود البطريك الحويك فيؤكد هذه الفكرة بالذات في ٢٣ ايلول ١٩٢١ في
مصيفه في جديدة قنوبين وأمام الجنرال غورو هذه المرة . قال البطريك « ان لبنان
لم يحكمه قط اجنبي . فأجدادنا لجأوا الى هذه الجبال الجرداء ليدافعوا عن حريتهم
من الغزاة . وان فرنسا نفسها ارادت سنة ١٨٦١ ان تضمن لنا استقلالنا تاما مع
حاكم وطني » (١٥) . كذلك كان الاعتراف باستقلال لبنان استنادا الى المذكرة الثانية
لمجلس الادارة الصادرة في ٢٠ ايار ١٩١٩ ، أولى البنود التي طالب بها البطريك
الماروني في مذكرته الشهيرة التي تقدم بها الى مؤتمر الصلح في ٢٥ تشرين الاول ١٩١٩ .
ومن البند الرابع في هذه المذكرة يتبين لنا ان اللبنانيين ما كانوا على علم

(١٢) Adib Pacha « Le Liban après la Guerre ». Cité par E. Jung « La Révolte arabe » — P. 115.

(١٣) يوسف مزهر — المرجع السابق ص ٨٧٩ .

(١٤) مزهر — المرجع السابق — ص ٨٨٢ وعادت لسان الحال في عددها ٨٤٩٤ تاريخ ١٠ كانون الاول
١٩٢١ تؤكد نفس الفكرة وتضيف على لسان البطريك « انا ناطق بلسان اللبنانيين على فكرة

ابيهم فاقول : ان اللبنانيين لاشد تشبها اليوم بالاستقلال منهم في اي وقت مضى .. »

(١٥) راجع نص المذكرة البالغة ١٥ صفحة في مزهر — المرجع السابق — ص ٨٨٨ وما يليها .

بالانتداب قبل اقراره في مؤتمر سان ريمو . وقد ورد في هذا البند « ولا كان مبدأ الانتداب قد تقرر في معاهدة الصلح المبرمة في فرساي يوم ٢٨ حزيران ١٩١٩ دون ان يؤثر ذلك على حقوق لبنان بالسيادة ، فيلتزم ايضا ان يعهد بهذا الانتداب الى حكومة الجمهورية الفرنسية التي تتعطف بناء على البند ٢٢ من عهد جمعية الامم بإيلاء لبنان معونتها وارشادها ... » (١٦) .

اما فكرة الاستقلال التام المطلق التي تردد صداها في بنود مجلس ادارة جبل لبنان وتصريحات البطريرك الحويك وسائر الموفدين اللبنانيين الى مؤتمر الصلح فكانت تعني ايضا وبوضوح « استقلال لبنان التام تجاه كل ولاية عربية قد تقام في سوريا لان اللبنانيين كانوا على الدوام وحدة قومية متميزة عن كل جماعة من أهل جوارهم باللغة والاخلاق والميول والاداب الغريبة التي عندهم . وان أبسط مبادئ العدل الاولى تفرض ان يحترم استقلال لبنان التام تجاه سوريا حيث لا شيء يجمع بين هذين البلدين لا في الماضي ولا في الاماني ولا في الرقي العقلي او السياسي » (١٧) . وراي هؤلاء في الانتداب « اذا كان مبدأ الانتداب يرمي الى معاضدة الشعوب التي يطبق عليها والاسراع في ايصالها الى السعادة القومية المطلقة ، فلبنان الموضوع منذ ستين سنة تحت ادارة انتداب دولي يستحق الآن ان يكون بلادا ذات سيادة . ومع هذا فلبنان يخضع بكل طيبة خاطر لتقرير مؤتمر الصلح بشأن الادارة بمقتضى الانتداب مع حفظ حقوقه في السيادة وذلك من قبيل العواطف والتهذيب لان اللبنانيين لا يمكنهم ان ينسوا الحسنات التي خصتهم بها فرنسا منذ القدم كذلك العلاقات السياسية والتجارية العريقة في القدم بين البلدين ... فاللبنانيون ، يطلبهم انتداب فرنسا ، مقتنعون كل الاقتناع ان فرنسا ستحترم استقلالهم وتعضده وتدافع عنه وتزيده رسوخا ، وانها ستاتي الى لبنان بصفة مشير نصوح وصديق ، وانها في مدة الانتداب الذي سيعد لبنان الى السيادة ستعمل على تدريب الطاقات الوطنية بتركها التنظيم والادارة والعدلية في لبنان بأيدي اللبنانيين بالذات ... » (١٨) تلك كانت آمال البطريرك الحويك في الانتداب الفرنسي وفي رغبة الكثير من اللبنانيين ، خاصة الموارنة منهم الذين كانوا يسيرون بهدي البطريرك ، في الاستفادة من خبرات الفرنسيين . وقد علق الدكتور يوسف مزهر على المذكرة بقوله « ان الفرنسيين بعدما استقروا في البلاد لم ينفذوا طلبا واحدا من مطالب البطريرك ولا وفوا بعهودهم له بل ضربوا بتمنياته عرض الحائط وعملوا بعكسها فمات وهو نائم عليهم . اما النصاري ، وبالاخص الموارنة ، فلم يكونوا سببا في مجيء الفرنسيين الى هذه البلاد كما يزعم بعض المؤرخين فالفرنسيون انتدبوا على لبنان وسوريا بناء على قرار مؤتمر فرساي ومذكرة البطريرك باللغة الواضحة ... » (١٩) . ونحن اذ تؤيد ما جاء في كلام الدكتور مزهر نود تأكيد الامور التالية :

(١٦) مزهر — المرجع السابق — ص ٨٨٨ .

(١٧) راجع مذكرة الحويك الى مؤتمر الصلح .

(١٨) المذكرة السابقة .

(١٩) مزهر — المرجع السابق — ص ٨٩٨ — حاشية .

أولا : ان اللبنانيين ، على اختلاف طوائفهم ، لم ينادوا بالانتداب كاستعمار او احتلال ولم يعملوا له على الاطلاق بل فرض عليهم فرضا .

ثانيا : ان اي استفتاء لم يجر في هذا الخصوص بين اللبنانيين والاستفتاء الوحيد الذي قامت به لجنة كينغ — كراين الاميركية اظهر نتيجتين متلازمتي الاهداف : الاولى على لسان البطريرك والقائلة باستقلال لبنان المطلق وان كان لا بد من مساعدة فلتكن من جانب فرنسا . والثانية على لسان أعضاء المؤتمر السوري الذي تمثل فيه العديد من الشخصيات اللبنانية والقائلة بالاستقلال التام وقيام مملكة سورية تضم لبنان وفلسطين وعلى رأسها الامير فيصل ، وعدم قبول اية وصاية او اي انتداب ، وعدم الاعتراف بأي حق تدعيه فرنسا في اية بقعة من المناطق السورية ورفض مساعدتها بأي حال من الاحوال ، اما اذا كان لا بد من دولة مرشدة تقدم مساعدتها الفنية للبلاد السورية فلتكن هذه الدولة اميركا . وان هذه رفضت فلتكن بريطانيا العظمى على ان هذه المساعدة لا تمس استقلال البلاد التام ووحدتها وعلى ألا تزيد عن ٢٠ سنة ... » (٢٠) .

ثالثا : ان استقلال لبنان كان يعني في نظر البطريرك الحويك والمؤيدين له انفصالا عن سوريا كما جاء في مذكرته ، في حين كان الفرنسيون يحاولون دوما ابقاء لبنان جزءا لا يتجزأ من سوريا الاشكليا . فأبقوا ادارة بيروت مركز جميع الدويلات السورية ولبنان ، كذلك في الاتفاقيات الاقتصادية والجمركية والخارجية . كما حاول دو جوفنيل عام ١٩٢٦ اعادة القضية الاربعة الى سوريا عن طريق استفتاء شعبي كان يعني بالضرورة — لو حصل — اعادة ضمها اليها بسبب ازدياد نفوذ الحركة الوحشية في تلك المناطق الرافضة اساسا لفكرة الانتداب والموالين له .

رابعا : ان التستر بالطائفية كان وراءه الفرنسيون من جهة ورجال الدين الموارنة من جهة ثانية . فالفرنسيون كانوا يخططون لبقاء لبنان قاعدة اساسية لتوسيعهم الاقتصادي والثقافي والسياسي نحو الداخل السوري والعراقي ، والاكليروس الماروني خاصة كان يخطط لتوجيه السياسة اللبنانية وجهة انشاء وطن قومي مسيحي مستقل عن سوريا وباقي المناطق العربية ومدعوم من جانب الفرنسيين ، ويكون هذا الوطن استمرارا تاريخيا لنظام المتصرفية بالذات الذي أقر لرجال الدين هؤلاء بدور بارز في مجرى السياسة اللبنانية لم يكن لهم حتى ذلك التاريخ . ان تصور لبنان المستقل في رأي دعاة هذا التيار لم يكن سوى متصرفية جديدة . « فلبنان — يقول البطريرك الحويك — كان وسبقه وطننا مسيحيا ، فليس لهم الاّ وطن في جميع الدول الشرقية » (٢١) . وقيام لبنان الكبير استند الى حد بعيد على تقاليد فرنسا الشرقية في ظهورها بمظهر المدافع عن المسيحيين (٢٢) .

(٢٠) راجع هذه المقررات للجنة كينغ — كراين في مزهر — المرجع السابق — ٨٨١ — ٨٨٢ .

(٢١) — Cité par E. Rabbath « Unité Syrienne et devenir arabe » — P. 168 .

(٢٢) Voir : E. Rabbath — Op. Cit. — P. 187 .

ب - في الخارج :

نشطت خارج لبنان حركة سياسية واسعة في صفوف المهاجرين اللبنانيين ، خاصة في مصر والأمريكتين حيث ألف السوريون واللبنانيون عدة أحزاب وجمعيات سياسية تراوحت برامجها بين المطالبة بالاستقلال التام لسورية الموحدة والتي تشتمل على فلسطين ولبنان ، وبين المطالبة باستقلال جبل لبنان وضم ولاية بيروت اليه وبعض الاقضية التابعة لولايتي دمشق وبيروت .
ومن ابرز الاحزاب التي نشأت خارج لبنان خلال تلك الفترة :

١ - حزب سوريا الفتاة (٢٣)

نشأ هذا الحزب في نيويورك في أواخر ١٨٩٨ . وتعارف مؤسسوه الاربعة : شبل دموس (زحلة) ، ويوسف شديد أبي اللمع (فالوغا) وجميل العلوف (زحلة) وعيسى مخايل الخوري (بحدون) - عن طريق الصحافة . وكانوا يبشرون باستقلال سوريا استقلالا تاما وتحريرها من نير الاتراك . وكانت أفكارهم جميعا مستوحاة من مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى لعام ١٧٨٩ ويتنادون فيما بينهم باسم « اخوان الجهاد » ومن شعاراتهم « اما الحرية واما الموت » و « اتنا نجاهد في سبيل تحرير الوطن من نير عبودية السلطان السفاح » و « أبناء العرب يريدون ان يعيشوا أحرارا في وطنهم لينعموا بالعدل والثقافة والخير ... » .
اما القانون الاساسي لهذا الحزب فقد تحدد بالنقاط التالية (٢٤) :

١ - السعي لاستقلال سوريا بحدودها الطبيعية اي من رأس العقبة الى

عريش مصر .

ب - التفاهم مع باقي الاقطار العربية لايجاد الاتحاد العربي .

ج - فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية فصلا تاما .

د - ضبط جميع املاك رجال الدين وتعيين معاش يقوم باحتياجاتهم والانتفاع بما تبقى من ثروة المؤسسات الدينية الطائفة لانشاء المشاريع العامة كالمدارس الوطنية ودور الكتب والمستشفيات ودور العجزة .

هـ - توحيد طريقة التعليم في الانحاء السورية كافة .

و - جعل الخدمة العسكرية اجبارية لان الشعب الذي لا جندي له لا وطنية له .
يتبين من هذه المبادئ ان الحركة السياسية للبنانيين في المهجر الاميركي ، والتي دارت بمعظمها في الفلك الوجدوي بين سوريا ولبنان ، تستمد برامجها من الاسس التي ارتكز عليها « حزب سوريا الفتاة » الذي لم يعمر طويلا . لذا اعتبرنا

(٢٣) يوسف يزبك « اول حزب عربي قال « اما الحرية واما الموت » - الطريق - المجلد الاول - الجزء

الرابع الصادر في ٢٠ شباط ١٩٤٢ - ص ٣ .

(٢٤) يزبك - المصدر السابق - الطريق - المجلد الاول - الجزء الحادي عشر - حزيران ١٩٤٢ -

ص ٧ - ٨ .

هذا الحزب مقدمة ضرورية لفهم الحركة السياسية اللاحقة للمفكرين اللبنانيين في المهجر الاميركي .

وبالرغم من الطابع الاصلاحي الواضح لهذا الحزب فقد كان الاتراك ينظرون اليه بحذر خاصة وأن دعوته الاستقلالية الرامية الى انفصال اجزاء عن الدولة العثمانية كانت تتعارض وأهداف « تركيا الفتاة » لذا حاربوه منذ البداية . لكن وجود الحزب في الديار الاميركية ابقاه بمعزل عن اضطهاد عبدالحميد وأعوانه ولم يجد الحزب صدى حقيقيا له الا في مصر وبشكل سري . وكان أكثر المتحمسين له المفكرون السوريون العاملون في حقل الفكرة العربية العلمانية وأبرزهم آنذاك سليم سركيس (٢٥) صاحب جريدة « المشرق » الواسعة الانتشار . فاذاع بيانا بتوقيع « حزب سوريا الفتاة » بالقاهرة عام ١٨٩٩ صدره بالراية السورية المرسومة في نيويورك والمشكلة من الالوان الثلاثة : الاحمر فالايض فالبنفسجي في خطوط مربعة وفي وسطها نجمة بيضاء اعتبروها « نجمة بيت لحم » تيمنا بالنجمة التي اهدت المجوس الى المغارة . لكن الدعوة لم تعمّر طويلا في مصر وسرعان ما هرب سليم سركيس الى باريس في صيف ١٨٩٩ . اما في نيويورك فقد بقي الحزب سريا ايضا . وكان لدعوته الى العلمانية ما أثب عليه رجال الدين الذين ناهضوا مبادئه من على المذابح وفي المجتمعات والمعابد ولم يعمر الحزب سوى سنة وبعض الثانية (٢٦) وتفرق مؤسسوه الاربعة .

٢ - الحزب الوطني العربي :

كان يطالب بالاستقلال التام لكل الاقطار العربية على طريقة اللامركزية لتؤلف الولايات المتحدة العربية . وكان يقف ضد كل حماية او وصاية او رقابة او انتداب . وبلغ عدد المشتركين فيه بنحو ٦٠ ألفا (٢٧) . كان مركزه بيونس ايرس في الأرجنتين وله فروع كثيرة في معظم انحاء القارة الاميركية . وكان بين أعضائه العديد من اللبنانيين ومن كافة الطوائف السورية واللبنانية .

ان القول بأن عدد المشتركين فيه قد ناهز ٦٠ ألفا قول مبالغ فيه جدا . بيد ان هذا الحزب كان له وجود فعلي بين المهاجرين العرب في اميركا وشارك في المؤتمر السوري العام الذي عقد في جنيف عام ١٩٢٢ عن طريق ممثله طعان العماد ، وكان الحزب رافضا لفكرة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان .

(٢٥) يزبك - المصدر السابق - الطريق - المجلد الاول - الجزء الخامس - الصادر في ٦ شباط ١٩٤٢

- ص ٤

(٢٦) يزبك - المصدر السابق - الطريق - المجلد الاول - الجزء ١١ - حزيران ١٩٤٢ - ص ٨ .

(٢٧) جريدة الحقيقة البيروتية - العدد ١٢٦٢ الصادر في ٦ آذار ١٩٢٠ .

٣ - الجمعيات السياسية في المهجر الأمريكي (٢٨) :

أبرزها : جمعية الاتحاد اللبناني التي طالبت باستقلال لبنان الكبير استقلالاً مطلقاً مضموناً من الدول الأربع : فرنسا وانكلترا وأميركا وإيطاليا . وكانت تقف ضد كل حماية ووصاية وتعارض السياسة الفرنسية وترفض كذلك الوحدة السياسية والاقتصادية مع سوريا .

« **الحزب الديمقراطي** » وهو جمعية تقول عنها « الحقيقة » اسم بلا حجم . رئيسه وأمين سره وأمين صندوقه الدكتور خليل سعادة . والحزب يطالب باستقلال سوريا استقلالاً تاماً والمحافظة على وحدتها الطبيعية ورفض الانتداب أو الوصاية عليها . « **التحالف اللبناني** » جمعية سياسية أسسها أفراد لبنانيون انشقوا عن جمعية الاتحاد اللبناني ووالوا السياسة الفرنسية وروجوا لها في المهجر . وقد حصرت الوكالة الفرنسية في هذه الجمعية وفي « **الجامعة السورية** » المالية أيضاً للفرنسيين و « **الجمعية السورية المركزية** » في باريس التي يرئسها شكري غانم ، أمر إعطاء شهادات الهوية للبنانيين والسوريين الذين يودون العودة إلى بلادهم أو السفر إلى أوروبا لقضاء مصالحهم التجارية .

« **جمعية النهضة اللبنانية** » طالبت بتوسيع حدود لبنان وتدعيم استقلاله وجعله إمارة ذات علم خاص وجعل أميره أوروبا كما كان أيام المتصرفية .

إن هذه الجمعيات في المهاجر تأثرت دون شك بفكرة استقلال الإقطار العربية عن الدولة العثمانية بالدرجة الأولى . وكانت تتفاوت أهدافها بين الاستقلال المطلق لسورية الموحدة أو الولايات العربية على أساس اللامركزية ، وبين استقلال لبنان وانفصاله التام عن سوريا . أما بالنسبة للانتداب فكان هناك رفض صريح للانتداب الفرنسي لدى غالبية المهاجرين اللبنانيين والسوريين ما عدا أقلية ضئيلة منهم عملت لذلك الانتداب وأيدته . أما الانتداب الأمريكي على سوريا ولبنان أو المعونة الأمريكية فكان من الطبيعي أن يلاقي رواجا كبيرا بين هؤلاء المهاجرين بسبب وجودهم هناك والضغط الأمريكي لاجتاد سند له من المحليين المنادين بضرورة هذا الانتداب وبأن الولايات المتحدة هي أفضل الدول على الإطلاق للقيام بهذه المهمة .

٤ - في مصر (٢٩) :

كان « **حزب الاتحاد السوري** » من أبرز الأحزاب التي أسسها المهاجرون

(٢٨) الحقيقة - العدد ١٢٦٤ الصادر في ١٢ آذار ١٩٢٠ و المنار - المجلد ٢١ - الجزء الرابع - مقالة « المسألة السورية والأحزاب » ص ٢٠٥ .

(٢٩) المنار - المجلد ٢١ - الجزء الرابع - مقالة « المسألة السورية والأحزاب » - ص ٢٠٢ وما يليها .

ورشيد رضا « الثورة السورية والحكومة الفرنسية والنزاع بين الشرق والغرب » - المنار - مجلد ٢٦ - الجزء ٨ - شباط ١٩٢٦ - ص ٥٨٩ وما يليها .

اللبنانيون والسوريون في مصر . وكان هذا الحزب يضم في صفوفه المسلمين والمسيحيين دونما تمييز . وارتكز برنامج الحزب السياسي على الاستقلال التام لسورية الموحدة ورفض أية وصاية أو حماية أو انتداب . ولعب الحزب ، عن طريق أعضائه الكثر داخل سوريا ولبنان ، دوراً بارزاً في المؤتمر السوري المنعقد في دمشق عام ١٩١٩ .

ثم « **الحزب الوطني اللبناني** » : كان يقول بوحدة سوريا ولبنان وفلسطين وبمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لهذه الوحدة . أرسل برقية للجنة الأميركية للاستفتاء في ١٩ تموز ١٩١٩ يقول فيها « الانفصال عن سوريا في السلم فقر وشقاء ، وفي الحرب موت وفناء » (٣٠) .

أما « **الحزب اللبناني** » أو « **الحزب السوري - الفرنسي في مصر** » فهو الحزب الذي أسسه عبدالله صفي ، والذي أطلق عليه الوندانيون لقب « **الحزب الفرنسي** » وعلى صاحبه « صديق الفرنسيين » . كان الحزب يطالب بجعل سوريا ولبنان وفلسطين مملكة مستقلة واحدة تحت إدارة فرنسا ووصايتها . اقتصر الحزب على اللبنانيين لمسيحيين . وتقول المنار أن هذا الحزب « لم يكن يضم في صفوف مؤسسيه سوى حقي العظم ومختار اجزائري من المسلمين » .

« **الحزب الحر المعتدل** » كان يطالب بوحدة سوريا تحت وصاية الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً وكان على ارتباط وثيق بالحزب الوطني اللبناني .

أما أبرز الجمعيات السياسية هناك فكانت « **جمعية الاتحاد اللبناني** » التي طالبت الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى بحقوق لبنان المتصرفية ، ثم تحولت بعد الحرب لمطالبة الحلفاء باستقلال الجبل وتوسيع حدوده وجعله تحت حماية الدول الكبرى ، كما كان عليه قبل المتصرفية ، مع تعيين حاكم وطني عليه .

يتبين لنا أن الأحزاب والجمعيات السياسية خارج لبنان كانت تعمل باتجاهين : الأول وحدوي عربي وهو الخط المستمر لجماعة القومية العربية على أساس علماني والذي عبرت عنه جريدة الحقيقة بالقول : « يجب أن تكون أحرارنا من الآن فصاعداً من أبناء الوطن بصرف النظر عن الدين . فيكون الحزب مؤلفاً من مسلمين ومسيحيين معا حتى تتوفق بهذا التماس والاجتماع عرى الروابط الوطنية والقومية العربية » (٣١) . وكانت هذه الأحزاب تسعى باستمرار للوحدة السورية والاستقلال التام دون أية وصاية أو انتداب . وقد وجد هذا التيار انعكاساً شعبياً له في الداخل تجسد بالمؤتمر السوري العام . وكان هذا التيار بالغ القوة طيلة السنوات الثلاث ١٩١٨ - ١٩٢٠ التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى وسبقت معركة ميسلون . وكان دعاة هذا التيار من جميع الطوائف والوجه الأكثر بروزاً للحركة السياسية في سوريا ولبنان وفلسطين . وبالمقابل كانت الجمعيات والأحزاب السياسية التي تناصر الفرنسيين وتؤيد انتدابهم ، ضعيفة النفوذ جماهيرياً ويقتصر نشاطها على المسيحيين عامة والموارنة بشكل خاص . وقام الفرنسيون بدعم هذا التيار بجميع الوسائل . وكان دعاة

(٣٠) الحقيقة - السنة ١١ - العدد ١١٣٥ الصادر في ١٩ تموز ١٩١٩ - ص ٣ .

(٣١) الحقيقة - السنة ١١ - العدد ٩٨٤ الصادر في ٥ كانون الأول ١٩١٨ - الصفحة الأولى .

يتقسمون بين الدعوة للاستقلال التام للبنان ومساعدة فرنسا وحمايتها لهذا الاستقلال، وبين الدعوة للانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وفلسطين . ومهما يكن من أمر هذه الحركة السياسية خارج الدول العربية فإن تأثيرها بقي ضعيف النفوذ . وجاء الوجود العسكري الفرنسي المكثف بعد الاتفاق الانكليزي - فرنسي لعام ١٩١٩ يطلق أيادي الفرنسيين لضرب الحركة الحدودية السورية من جهة ودعاة الاستقلال اللبناني « التام المطلق » من جهة أخرى واضحت الحركة السياسية في الخارج أسيرة الرفض المطلق للانتداب ، ذلك الرفض الذي تجسد بمؤتمر جنيف ١٩٢٢ والذي سرعان ما تلاشى بعد أن قام الفرنسيون بترسيخ أقدامهم عسكريا واقتصاديا وسياسيا على سوريا ولبنان ، وبعد أن تنكر الانكليز والأمريكيون للحركة الحدودية السورية لصالح الانتداب الفرنسي والتضييق على دعاة هذه الوحدة داخل مناطق نفوذهم .

غورو يحسم الموقف لصالح دعاة الانفصال ومؤيدي الانتداب

ان اتفاق ايلول ١٩١٩ ، وتعيين غورو مفوضا ساميا في سوريا ، ومؤتمر سان ريمو ، ومعركة ميسلون واضعاف الحركة الوطنية الحدودية عسكريا ، والوجود العسكري الفرنسي الكثيف وغيرها، مهدت الطريق للفرنسيين واصداقائهم كي يفرضوا انتدابهم على مجمل الحركة السياسية في سوريا ولبنان . وانقسم السكان الى فئتين كبيرتين : الاولى ترفض الانتداب والتجزئة وتنادي بالوحدة والاستقلال . هذه الفئة وقفت منذ البداية ضد الفرنسيين وضد أي شكل من أشكال التعاون معهم ، وتمثلت بالمقاومة العسكرية المسلحة ، والعصابات الوطنية ، والمقاطعة السياسية ، وارتدت أحيانا طائعا طائفا اسلاميا واضحا . وكان الوجود المسيحي فيها ضعيفا ويكاد يكون نادرا في صفوف الموارنة بشكل خاص .

اما الفئة الثانية ، فهي التي قبلت بالانتداب وعملت من أجله ، ودعمته في الداخل والخارج . وقد تمثلت باليسوعيين ، وذوي الثقافة الفرنسية ، ودعاة الانفصال اللبناني عن سوريا . هذه الفئة ارتدت ايضا طائعا طائفا مسيحيًا مارونيًا في معظم الأحيان . وهذا التيار ينقسم بدوره الى عدة فروع : فمنهم من ينادي بالاستقلال للبنان ومساعدة فرنسا فقط وبِحاكم وطني لبناني مع مساعدة فرنسية ، ومنهم من دعا الى تأييد خطوات الانتداب مهما كانت ، ومنهم من نادى باستقلال لبنان سياسيا عن سوريا مع الترحيب الكامل بالتعاون الاقتصادي معها الى أبعد الحدود (٣٣) .

وحدهم الفرنسيون كانوا يعزفون ما يريدون: فهم يريدون لبنان كبيرا لا صغيرا، لكنهم يريدون اتحادا سوريا اقتصاديا لا ينفصل عنه لبنان بل يشكل واجهته التجارية نحو الخارج . وهذا ما أكدته غورو بقوله: « انكم، ايها اللبنانيون، متمسكون باستقلالكم ومتأكدون ان لا شيء يقدر ان يهدده . لكنكم اذكي من أن تنكروا حاجتكم الى سوريا وحاجة سوريا اليكم ، وان الاتحاد الاقتصادي هو ضرورة حيوية لاجل البلدين ... »

(٣٣) جورج حنا - « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٢ .

وانني آمل بزوال المنافسة بين الطوائف لأن بقاءها يضعف لبنان الكبير ... » (٣٣)

ثم يصرح بعد شهرين من ذلك في دمشق « انني لا اذكر من ضمن دول الاتحاد، لبنان الذي جعلته تقاليده الخاصة يتطور خارج الاتحاد السوري، وبمشاركة اقتصادية فقط معه ، حتى يأتي اليوم الذي يقرر فيه بنفسه الانضمام الى هذا الاتحاد » (٣٤) .

ان فكرة انضمام لبنان الى الاتحاد السوري بقيت تتكرر في تصريحات الفرنسيين طيلة المرحلة الانتدابية الاولى ، حتى أن دو جوفنيل اضطر في عام ١٩٢٦ للاعتراف باستفتاء عام يجري في الاقضية الاربعة التي ألحقت بلبنان عام ١٩٢٠ والسماح لها بتقرير مصيرها في الوحدة أو الانفصال عن سوريا (٣٥) . وجاء ضغط الأكليروس الماروني خاصة لجبر دو جوفنيل على التراجع عن هذا الاستفتاء ، الذي لو تم لكان أعاد جميع المناطق الاسلامية التي ألحقت بالتصرفية الى سابق وجودها داخل الوحدة السورية .

وبرأي رباط « ان فرنسا كانت تحاول خلال تلك المرحلة اقناع الموارنة بفائدة الاتحاد الكامل مع سوريا وبأن الجنرال غورو حاول إقامة نوع من « التوازن الدائم » (٣٦) بين الطوائف الدينية اللبنانية . فتلخصت سياسة الفرنسيين باتجاهين رئيسيين : الاول ضرب التيار الحدودي العربي عن طريق النفي والحكم القيايبي . وكان أبرزهم في لبنان رياض الصلح الذي حكم غيايبا بالسجن خمس سنوات وتفرجه بعلبون واربعمئة ألف فرنك فرنسي مع نفقات المحاكمة ، وذلك لقيامه برشوة أعضاء مجلس ادارة لبنان في حادثتهم المشهورة » (٣٧) .

اما الاتجاه الثاني فاعتمد على ضرب دعاة الاستقلال التام للبنان . حتى ان عبدالله صفيّر ، مؤسس « الحزب السوري - الفرنسي في مصر » والذي كان يطلق عليه الوجدويون اسم « الحزب الفرنسي » ، طاله انتقام غورو ، فوصف عهده بالقول « جميع الذين ضحوا بحياتهم من أجل لبنان يوم كانت فرنسا بعيدة جدا عنه ، كان الجنرال غورو يحترقهم ويسحقهم » (٣٨) . وقد اتضحت سياسة الفرنسيين تماما مع محاولة اليسوعيين اغلاق جامعة دمشق العربية ، ووقوف غورو وادارته في وجه تلك المحاولات آخذًا بعين الاعتبار لا مصلحة اليسوعيين فحسب ، بل مصلحة السياسة الفرنسية عامة والتي كانت تسعى لكسب ود السكان المحليين خاصة بين أوساط الزعماء المسلمين الرافضين لانتدابها ولقيام دولة لبنان الكبير بالذات .

(٣٣) H. C. « La Syrie et le Liban en 1921 » — P. 19.

راجع ايضا لسان الحال العدد ٨٢٠٢ تاريخ ٣ ايار ١٩٢١ .

(٣٤) — Gouraud — Discours-programme à Damas. Le 20 Juin 1921.

(٣٥) عادل اسماعيل « السياسة الدولية في الشرق العربي » الجزء الخامس ص ١١١ — راجع ايضا

ابراهيم حروف « دلائل العناية الصمدانية » ص ٦٦١ .

(٣٦) رباط — مقابلة خاصة .

(٣٧) لسان الحال — عدد ٨١٩٥ — تاريخ ٨ كانون الاول ١٩٢٠ — كذلك اسكندر رياشي « رؤساء لبنان

كما عرفتهم » ص ٥٤ .

(٣٨) — A. Sfeir « Le mandat français... » — P. 49.

النضال ضد الانتداب يوحد بين الوطنيين من جميع الطوائف

اقصت ادارة المفوضية العليا الفرنسية جميع العناصر الوطنية الداعية الى الاستقلال التام عن الإدارة بحجة عدم الكفاءة والاختصاص وأبقت العديد منهم خارج حدود لبنان (٣٩) ، فحددت سياستها بين فريقين التطرف : فهي ضد دعاة الاستقلال التام والانفصال عن سوريا وضد دعاة الوحدة الشاملة والاندماج في سوريا . هكذا وجه الفرنسيون سياستهم الانتدابية بوضوح ومنذ البداية . فهم يريدون لبنان الكبير مستقلا سياسيا عن سوريا لكنه مرتبط معها أشد الارتباط اقتصاديا . هم يريدونه منطلقا لرساميلهم وتجارتهم نحو الداخل السوري - العراقي وليس معزولا عن هذا الداخل بالذات . لقد أصيب دعاة الاستقلال التام في لبنان بخيبة أمل مريرة ، وتحددت آفاق العمل السياسي ، كما رسمها الفرنسيون بالذات ، بتيارين لا ثالث لهما : موال للانتداب ويرهن مصيره به ، او معارض له ويسعى الى ازاحته . وفي هذا المجرى بالذات تحددت وتطورت آفاق الحركة السياسية في لبنان في ظل الإدارة العسكرية لفرنسا المنتدبة . اما «استقلال لبنان» الذي كان يحلم به العديد من اللبنانيين ، في الوطن والمهجر ، فقد عبر عنه الشيخ ابراهيم المنذر بصدق في عام ١٩٢٢ حين قال قصيدته الشهيرة بعنوان « استقلال يبطئه انتداب » جاء في خاتمتها :

« قد كان لي وطن أزهو به شرفا
واحر قلبا على فقدان اوطاني
قالوا : استقل بنا لبنان ، قلت لهم :
بالوهم ادركتم استقلال لبنان » (٤٠)

ان سياسة الانتداب تلك كانت تخطط الى البقاء في لبنان وسوريا بقدر ما تسمح الظروف بذلك . اما ما قيل عن مرحلة الانتداب واعطاء السكان المحليين استقلالهم التام فكانت وعدا غير قابلة للتنفيذ . هذه المنطلقات السياسية للانتداب دفعت المعارضين الوطنيين من جميع الطوائف الى الاصطدام المباشر بها وتعريضها وكشف الوجه الاستعماري لها . ويقدر ما كانت تشتد الأزمة الاقتصادية والسياسية في لبنان وسوريا وخارجهما بقدر ما كانت إدارة الفرنسيين تسفر عن وجهها الحقيقي وتكشف زيف الادعاءات والوعود التي نادت بها ، وسرعان ما تنخرط في النضال ضدها أعداد جديدة من اللبنانيين والسوريين . وبقيت الأزمات تشتد حتى انفجرت في معركة الاستقلال حين كانت الظروف الدولية مؤاتية تماما لهؤلاء المعارضين للانتداب كي يقفزوا الى السلطة في لبنان لتبدأ معركة جديدة من النضال الاجتماعي الديمقراطي العام ، وتبدأ معها بداية النهاية للانقسام الطائفي السابق .

(٣٩)

(٤٠) عن كتاب جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٠ .

— G. Samné « La Syrie » — P. 585.

الحركة السياسية في لبنان ١٩٢٠ - ١٩٢٤

أولا : الموالون للانتداب

١ - التيار الطائفي الرفض لعروبة لبنان

كانت أولى المحاولات لتأليف حزب سياسي داخل لبنان أيام الانتداب تلك التي انبثق عنها « حزب الترقى اللبناني » (٤١) الذي تأسس في بيروت في كانون الاول ١٩٢٠ . وقد رفع الحزب شعارا واحدا « صداقة دائمة بين لبنان وفرنسا » . اما برنامجها السياسي فقد انطوى على ثلاث نقاط :

١ - حماية الاستقلال السياسي للبنان بمساعدة الانتداب الفرنسي .

٢ - الدفاع عن حرية الأديان في لبنان .

٣ - تحديد النسبة التمثيلية في الانتخابات النيابية حسب الرسوم الذي يصدر عن إدارة الانتداب . وتشكلت اللجنة التنفيذية لهذا الحزب في بيروت من ١٥ عضوا بينهم الماركيز جان دو فريج رئيسا ، ونعوم باخوس نائبا للرئيس ، واميل اده امينا للسر ، واميل قشوع مدير بنك سوريا ولبنان امينا للصندوق .

اما أبرز اعضاء الحزب الآخرين فمنهم : المصري ميشال شيحا ، والمحامي بشاره خليل الخوري ، والمحامي الفرد نقاش ، والتاجر - الشاعر شارل قرم ، والدكتور شكري قرداجي ، واميل عرب ، والفونس زينية وغيرهم . وسيلعب اعضاء هذا الحزب دورا بارزا في السياسة المحلية طيلة أيام الانتداب ويكفي ان نؤكد في هذا المجال ان اميل اده ، وبشاره خليل الخوري ، والفرد نقاش سيتولون زمام رئاسة الجمهورية في ظل الانتداب وبعده .

لقد ارتدى هذا الحزب وجهها مسيحيا مارونيا بشكل خاص ، ولم يبرز أي وجود اسلامي بين اعضاءه (٤٢) . وكان وجود اميل اده في امانة سر هذا الحزب يعبر بوضوح عن دعم الفرنسيين له ، كما يقول اسكندر رياشي . « فاميل اده كان يمثل بنظر الفرنسيين ، وظل كذلك حتى وفاته ، فرنسا المشرق ، فرنسا مع تقاليدها وعلاقاتها وحمائتها للنصارى وعلى الأخص للموارنة في لبنان » (٤٣) .

اما اليسوعيون فساندوا الحزب بشدة في صحافتهم ولدى أبناء بلدهم المنتدبين ، لان حزب الترقى في نظرهم « سيكون صلة الوصل بين الحكومة والامة (اللبنانية) وكذلك بين جميع الطوائف الدينية » (٤٤) .

ان حزب الترقى اللبناني ، نظرا للأهداف التي وضعها في برنامجها ، كان حزبا

(٤١) « لسان الحال » - العدد ٨٢١٠ الصادر في ٢٠ كانون الاول ١٩٢٠ - و « البشير » - العدد ٢٦٦٣ ، الصادر في ٤ كانون الثاني ١٩٢١ .

(٤٢) اسكندر رياشي - « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ٦٧ .

(٤٣) الرياشي - مصدر سابق - ص ٦٨ .

(٤٤) البشير - العدد ٢٦٨٣ الصادر في ٢٤ شباط ١٩٢١ .

اصلاحيا يعتمد في سياسته ووجوده على دعم الانتداب الفرنسي .
ثم قام اللبنانيون في دمشق بتأسيس ناد لهم هناك اسموه « **النادي العربي الماروني في دمشق** » (٥٠) برئاسة الدكتور مرشد خاطر ، والأمير نسيب شهاب في نيابة الرئاسة ، وميشال سعد في امانة السر . وكان من اعضائه البارزين : حبيب برهوم ، يوسف الجميل ، ميشال صادر ، داود الشمالي ، بطرس مسابكي ، جميل لحدود ، يوسف بيروتي ، ميشال ابو راشد . وقد اتخذ هذا النادي دمشق مركزا له منذ ١٩٢٢ ، وكان ذا صبغة مارونية واضحة كما تدل تسميته ، ورفع شعارا واحدا « من اجل الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان » .

كان دعاة هذا التيار يؤكدون على فصل لبنان سياسيا عن محيطه العربي . ونشطت اقلام العديد منهم بالدعوة الى امجاد فينيقيا وابرار محاسن الحروب الصليبية التي اظهرت استقلالية المسيحيين في لبنان . وكانت الفكرة التي تتكرر في جميع كتاباتهم ان لبنان كان مستقلا عن العرب عامة وسوريا خاصة عبر جميع العصور التاريخية ، وان اللبنانيين ليسوا عربا بل فينيقيون . كما رفض الاعتراف بعروبة الفينيقيين كذلك . ولم يخف هؤلاء عداؤهم الصريح لعروبة لبنان ووحدته مع سوريا بل تهافتوا حول فكرة الاستقلال التاريخي للبنان المسيحي تجاه العالم العربي المسلم . وبراى هؤلاء ، ان لبنان لم يكن عربيا في الماضي ، كما لم تكن لغته عربية بل فينيقية . ومنذ تشرين الاول ١٩٢٠ نظم متري المر نشيدا فينيقيا (٤٦) ، الذي اطلق عليه آنذاك لقب النشيد الوطني اللبناني . في الوقت الذي كان فيه الشاعر شارل قرم يكرس قسا كبيرا من ديوانه « الجبل الملهم » للاشادة بالجنرال غورو ، وبفرنسا ، وبفينيقيا ، والذي نال على اساسه ، ديوانه ذلك ، جائزة ادغار آلن بو للأدب . فاللغة اللبنانية عنده هي لغة الفينيقيين « لغة الفينيقيين يا لفتي اللبنانية » (٤٧) . . . و « لو ذكرت اهلي بأجدادنا الفينيقيين » (٤٨) . . . و « هذه فينوس ميلو ! هذا نصر ساموتراس ! هذا هو الجنرال غورو » (٤٩) !

ان هذا التيار لم يلاق رواجاً الا في صفوف الموازنة دون سواهم ، وبقيت هذه الدعوة محصورة داخل اسوار المدارس اليسوعية حيث « حملت الناشئة المسيحية — كما يقول الياس ابو شبكة — على الاعتقاد ، من جراء حصر الدعوة في ما انطوى عليه التاريخ الفرنسي من الفضائل ، بأن تاريخها لا يرتبط بتاريخ العرب ، جاهلة انه من خطر الرأي القول بأن تاريخ العرب هو تاريخ الامة الاسلامية دون سواها » (٥٠) .

(٤٥) لم يكن هناك فارق كبير بين الحزب والنادي والجمعية وغيرها من التسميات حتى ان القانون العثماني الصادر ١٩٠٨ ، والذي ما زال ساري المفعول حتى اليوم ، يرخص للأحزاب السياسية باسم جمعيات .

(٤٦) نشرته « لسان الحال » في عددها ٨١٦٢ الصادر في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٣ .
(٤٧) — Charles Corm « La Montagne inspirée » — P. 41.

(٤٨) — Ibid — P. 53.

(٤٩) — Ibid — P. 20.

(٥٠) الياس ابو شبكة « روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب » ص ٥٧ .

وهكذا كان دعاة الفينيقية في ذلك العهد ، بمساندة الفرنسيين ، يعملون على اظهار لبنان وكأنه غريب عن البلاد العربية الاخرى سواء في السياسية الداخلية ام الخارجية . وبدا لبنان في نظر دعاة العروبة والعلمانية وكأنه لطائفة دون اخرى (٥١) ، بالرغم من جميع التصريحات والبيانات الفرنسية التي كانت تصر ، وفي جميع المناسبات ، على ضرورة ربط لبنان اقتصاديا بسوريا والعالم العربي الشرقي .

٢ - في النقابات :

١ - بين عمال الصناعات والمهن

منذ بداية الانتداب ، انشئ في لبنان « **حزب العمل العام في لبنان الكبير** » ويسمى ايضا « **بحزب العمال العام** » وهو الذي خلف « اتحاد العمال العام » وحدد برنامجه كما يلي « تحسين ظروف الحياة للعمال » (٥٢) .

وقد توسل هذا الحزب طريق التعاون بين العمال وأرباب العمل ، بين الحزب والحكومة . كما كانت خطته تنطوي على عرض مطالب العمال على الحكومة « بالطرق الشرعية » . وتتلخص سياسة هذا الحزب ان « على أرباب العمل والعمال ان يؤلفوا طرفا واحدا في الحزب لأن لهم مصلحة واحدة » . اما في التطبيق العملي ، فكانت الهيئة الادارية التنفيذية لهذا الحزب تقتصر فعليا على غير العمال وذلك بسبب قيمة الاشتراكات الباهظة التي حددها نظام الحزب الداخلي اذ نص على ان من يدفع خمس ليرات لبنانية — سورية يصبح عضوا عاملا ، ومن يدفع خمس عشرة ليرة يصبح عضوا مؤسسا له الحق في الانضمام الى لجنة الحزب التنفيذية . وبهذا الشكل أبعد العمال عن قيادة الحزب ولم يكن لهم وجود فعلي فيه ، ولم يكن للحزب من الحركة العمالية سوى التسمية فقط في حين أطلق عليه العمال التقدميون لقب « **حزب الصيفي** » (٥٣) ، نظرا لموقعه في تلك المنطقة البيروتية .

ويصر ابراهيم بك الاسود (!) على اعتبار نفسه الرئيس العامل لهذا الحزب . وابراهيم الاسود كان عضوا في مجلس الادارة السابق لجبل لبنان ونائبا عن مدير المصارف في لبنان الكبير . وكتب يقول « . . . من جملة اعماله بعد الاحتلال انني خدمت حزب العمال في بيروت بضع سنوات بصفتي رئيسا عاملا له ، وكان رئيسه الفخري حضرة انيس بك الهاني . وقد أسسنا له فروعاً عديدة ، ولاقى في عهدنا ازدهارا كبيرا » (٥٤) .

لقد ترأس هذا الحزب سعادة انيس بك الهاني (!) عام ١٩٢٠ ، وشارل بك سرسق (!) في عام ١٩٢١ ، في حين كان سكرتيره العام الدكتور الياس بعقليني (!)

(٥١) محمد جميل بيهم « لبنان بين مشرق ومغرب » ص ١٧ .

(٥٢) ابراهيم الاسود « تنوير الاذهان » المجلد الثاني — ص ٢٤٥ — وما يليها .
et Jacques Couland « Le mouvement syndical du Liban... » — P. 83-86.

(٥٣) يوسف ابراهيم يزك — مقابلة خاصة . راجع مؤاد الشمالي « نقابات العمال » — ص ٤٣ .

(٥٤) تنوير الاذهان — المصدر السابق — ص ٣٤٥ .

ومن أعضائه البارزين الدكتور حبيب ثابت (١) والوجهاء : سليم باز ، ومحمود حماده وإبراهيم الأسود وميشال شدياق ، واسعد الدقوني ، و خليل باخوس ، والياس الحنيكاني وغيرهم (٥٥) .

وكان شعار حزب العمل العام والذي يسمى كذلك بحزب الشيفيلة للبنان الكبير « الله والانسانية » واشتمل برنامجه على النقاط التالية (٥٦) :

١ - الدفاع عن علم لبنان المؤلف من الألوان الفرنسية مع الارزة اللبنانية .
٢ - الدفاع عن السيادة الفرنسية على سوريا .

٣ - اقامة علاقات اقتصادية وتجارية وعلاقات صداقة بين دولة لبنان الكبير وسائر أجزاء سوريا وفرنسا .

٤ - مساعدة الصناعة ، وتأييد العمال ، وتنظيم ظروف العمل . واقامة العمل على أسس أخلاقية ، والوحدة بين العمال والرأسماليين .

٥ - العمل المشترك مع الحكومة والسعي السلمي لتحقيق رغبات البروليتاريا وتحسين شروط الحياة الاخلاقية والاقتصادية للبروليتاريا .

٦ - الاهتمام باللغتين العربية والفرنسية .

وبموجب المادة الثانية من دستور الحزب ، فان لكل عامل أو رأسمالي ،

سوري أو لبناني أو فرنسي ، حق الانتساب لحزب الشيفيلة هذا . لذا فان مجلس

الحزب المنتخب في أوائل ١٩٢٥ ضم خمسة من كبار ملاك الاراضي ، وخمسة من

التجار الاغنياء ، وخمسة من أصحاب دور النشر ، وبعض مالكي ورشات النجارة ،

وبعض الصناعيين والمحامين والاطباء . وبلغ عدد الاعضاء المؤسسين لهذا الحزب

خمسين عضوا . وارتفع تعداد اعضاء الحزب في نيسان ١٩٢٥ الى ٢١٠٠ عضو (٥٧) .

وقد علقت جريدة « الاممية النقابية الحمراء » على نشاط هذا الحزب بالقول :

« أدرك العمال ان الحكومة كانت مع الاغنياء ضد الفقراء . هكذا كان حالها في عهد

الاستبداد التركي وهي كذلك الآن (١٩٢٥) في عهد الاستعمار الفرنسي ... » (٥٨) .

ان دعم هذا الحزب لسياسة الانتداب واضحة في برنامجه السياسي وخطة

عمله . وكان من مصلحة الانتداب بالذات تثبيت أشكال من العمل النقابي والسياسي

تضع في اهدافها مصالح الانتداب بالدرجة الاولى بحيث ترسخ مفهوما مشوها

يضيئ العمال الطليعيين والساسة الوطنيين الى العمل ضد هذه الاشكال بالذات .

وبالمقابل ، كان هذا الحزب يطمح لأن يصبح الحزب العمالي في لبنان الكبير

على غرار مثيله في بريطانيا . فأوروبا الغربية في بداية القرن العشرين كانت المركز

الرئيسي الذي تستوحى منه الليبرالية السياسية آنذاك (٥٩) ، لذا نرى سعادة

(٥٥) المعرض - السنة الاولى - عدد ٢ حزيران ١٩٢١ .

(٥٦) « الاممية النقابية الحمراء » العدد ٤ الصادر في ١٥ نيسان ١٩٢٥ ص ٢٤٠ . ترجم النمن

الدكتور عبدالله حنا « الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥ » ص ٣٢٤ .

(٥٧) المصدر السابق ص ٣٢٥ .

(٥٨) المصدر السابق ص ٣٢٧ .

(٥٩) Pierre Renouvin « La crise européenne et la première guerre mondiale... » P. 15.

انيس بك الهاني ، رئيس حزب العمال في لبنان الكبير ، يبرق مهننا رمزي ماكدونالد ، رئيس وزراء بريطانيا ورئيس حزب العمال فيها ، بمناسبة نجاحه في الانتخابات (٦٠) .

اما سياسة حزب العمل العام ومبادئه ووسائله التطبيقية فكانت تحاول الظهور

دوما بمظهر الشرعية والتنسيق مع ادارة الانتداب الفرنسي تنسيقا كاملا . تلك

سيمة بارزة في جميع الاحزاب والنقابات الاصلاحية . ولا بد من التنويه في هذا

المجال « ان التمييز بين النقابة والحزب آنذاك لم يكن واضحا تماما بل كان وجود اي

منهما يفترض وجود الآخر » (٦١) ومن الصعب الفصل بينهما بدقة .

واعتماد الاساليب « الشرعية » للوصول الى تحسين ظروف حياة العمال ،

كانت تتبع اساسا من تركيب هذا الحزب وقيادته غير العمالية والتي كانت تتوسل

اعداد العمال للوصول الى مراكز سياسية بارزة . وهذا ما يفسر اقتصار اللجنة

التنفيذية لهذا الحزب على الوجهاء والمحامين والاطباء وكبار التجار والعديد من

الموظفين . كما كان له صحيفة مستقلة واسعة الانتشار باسم صحيفة « العمال »

لصاحبها سجع الاسمر ، وكان له ايضا مركز على جانب من الفخامة في البناء

والاثاث في منطقة تعتبر من الاحياء الغنية في بيروت .

بيد ان موالة هذا الحزب للانتداب الفرنسي ، انطلاقا من الاعتقاد السائد عند

كثير من اللبنانيين آنذاك والقاتل بأن الانتداب مرحلة « انتقالية » لن تدوم طويلا

ريثما يصبح اللبنانيون قادرين على حكم انفسهم بأنفسهم ، جعلت أغلبية هذا

الحزب الساحقة تقتصر على المسيحيين ، وبشكل خاص على الموارنة ولم يلحظ أي

وجود اسلامي في قيادته او احد مراكزه الاساسية طيلة تلك الفترة ، لأن الاغلبية

الساحقة من المسلمين كانت ترفض اساسا الانتداب الفرنسي وجميع ما يدور في

فلكه من احزاب سياسية او نقابات عمالية .

لقد سقط الحزب في برائن سياسة الانتداب الفرنسي ، عن وعي او بدون

وعي ، اذ اقتصر على وجه طائفي واحد من جهة ، وعلى المطالبة الاصلاحية عن طريق

الادارة الانتدابية كقيادة شرعية تحكم البلاد من جهة أخرى . وكان من مصلحة

الانتداب الفرنسي في لبنان الكبير قيام نموذج نقابي مزيف يتحتم على العمال انفسهم

النضال ضده في المستقبل .

كان هذا الحزب يمثل نقابات الطباخين ، وعمال الطباعة ، والنجارين ،

والحلاقين ، ومستخدمي شركة حصر التبغ والتبناك ، وتجار بيروت ، وبحارة

الزوارق ، وجمعية المصلحة المشتركة لمستخدمي وعمال خطوط حديد دمشق -

حماء وتمديداتها ، وغيرها من النقابات والجمعيات العاملة في لبنان الكبير . وبالشكل

الذي كان يدعو فيه « للتعاون بين العمال وارباب العمل » ويقترح « عرض المطالب

العمالية على الحكومة بالطرق الشرعية » فان اهدافه ووسائل « نضاله » لم تكن

ضد الانتداب بل على العكس ، تخدم ادارته العسكرية المتمركزة في بيروت الى

حد بعيد اذ تحفظ لفرنسا وجهها ليبراليا طالما تفنت به مدارس الجزويت في

(٦٠) المعرض - السنة ٣ - العدد ٢٧٧ الصادر في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٤ الصفحة الاولى .

(٦١) J. Couland - op. cit. - P. 96.

(٦١)

لبنان ، وجه الحرية والعدالة والاخاء ، وجه الثورة الفرنسية الذي طمسه القمع المتواصل والتدمير وحرق القرى وفرض الغرامات المالية الباهظة على السكان من قبل الادارة الانتدابية العسكرية .

وحزب العمل العام ، المتمركز في بيروت تحت اشراف ادارة الانتداب ، والعامل بتوجيه مباشر منها وبمساعدها بالذات ، فرض على الطليعة الواعية من العمال الانتقال خارج بيروت لتكوين نواة عمالية حقيقية ، تناضل ضد التمثيل المزيف لهم الذي يدعيه حزب العمال هذا ، وتتخذ وجها معارضا ضد ادارة الانتداب الفرنسي وبالتنسيق مع الحركة الوطنية المعادية له .

ان ولادة التنظيم العمالي المعارض للانتداب باسم « حزب الشعب اللبناني » خارج بيروت ، وفي بكفيا بالذات ، لم يكن وليد صدفة ، بل ضرورة تاريخية حتمتها امكانية النضال بعيدا عن نفوذ « حزب الصيفي » من جهة ، وعن ادارة الانتداب الداعمة له من جهة اخرى .

ب - بين العاملين في الزراعة والارياض

كانت الحركة النقابية واسعة الانتشار في صفوف عمال الصناعة والحرف والمدن قبل الحرب وبعدها ، في حين اقتصر في الارياض على نقابتين فقط خلال تلك المرحلة الانتدابية ولم نعثر لها هناك على وجود في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، لا في جبل لبنان المتصرفية ولا في باقي المناطق .

النقابة الاولى كانت « نقابة العمال الزراعيين لجبل لبنان » ورؤسها الياس الضاهر وكان شعارها الاساسي « الانتداب الفرنسي ضرورة حيوية لشعب لبنان بأسره » (١٢) ولم نستطع العثور على أي نشاط لهذه النقابة التي يبدو ان رؤسها « الشيخ » كان من اعوان الفرنسيين في الريف ، ولم يسمع بها أي من النقابيين الذين عاصروا تلك الفترة . وقد عثرنا على برقية من رؤسها الياس الضاهر ، تحتج بشدة على محاولة ضم حاصبيا ومرجعيين الى فلسطين وتؤيد غورو في مطالبته بالحاقهما بلبنان الكبير (١٣) .

والنقابة الثانية والاهم هي « نقابة مزارعي الدامور » (١٤) التي تأسست في تشرين الاول ١٩٢٠ ، وكان مؤسسوها من « النخبة المثقفة » في بلدة الدامور ، ورؤسها خليل الغريب « محرز نيشان الاستحقاق الزراعي الافرنسي » ، وفي نيابة رئاستها الدكتور اسكندر عون ، ومن اعضائها البارزين : نعيم عون ، وسليم نورالله ، وفيليب هيكل وغيرهم .

وتحددت اهداف هذه النقابة الزراعية على الشكل التالي (١٥) :

(١٢) لسان الحال - العدد ٨١٩٤ الصادر في ٧ كانون الاول ١٩٢٠ .

(١٣) لسان الحال - العدد ٨١٩٣ الصادر في ٦ كانون الاول ١٩٢٠ .

(١٤) جريدة « الحقيقة » البيروتية - العدد ١٣٣٥ - السنة ١٣ ، الصادر في ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٠ .

(١٥) المصدر السابق .

- ١ - السعي الى انشاء المصارف الزراعية في البلاد .
- ٢ - الارتباط مع نظام الزراعة في لبنان الكبير ارتباطا تاما .
- ٣ - ايجاد وسائل التضامن بين الملاك والزرع .
- ٤ - السعي في توفير الوسائل العائدة لرشاء الزارع لامساكه عن الهجرة ..
- ٥ - الدفاع عن حقوق العامل الزراعي .
- ٦ - السعي في معاضدة مشاريع الري التي تقوم بها نظارة الزراعة .
- ٧ - السعي لانشاء لجنة الرفق بالحيوان الزراعي .
- ٨ - محاربة الآفات والامراض الزراعية .
- ٩ - السعي في انشاء معرض زراعي عام يكون مركزه في الدامور .

من قراءتنا لبرنامج هذه النقابة يتبدى لنا بوضوح اثر الفرنسيين في نشأتها والدور الذي لعبته ادارة الانتداب في تشكيل قيادتها وصياغة برنامجها بالذات بحيث لم تختلف عن اهداف « حزب العمل العام في دولة لبنان الكبير » ان من حيث فكرة التعاون بين العامل ورب العمل و « التضامن بين الملاك والزرع » ، او من حيث اقتصار برنامجها على التعاون مع السلطة الانتدابية و « معاضدة مشاريع الري التي تقوم بها نظارة الزراعة والارتباط الوثيق بهذه النظارة » ، ومن حيث انتشارها الوحيد الجانب في صفوف المسيحيين الموارنة دون سواهم .

وتجدر الملاحظة ان الحركة النقابية في لبنان الكبير خلال السنوات الاولى للانتداب كانت تستمد برامجها ووسائل تحركها بتقليد الاحزاب الاشتراكية والعالية في اوروبا الغربية وبشكل خاص عن الحزب الاشتراكي الفرنسي وحزب العمال البريطاني . وقد دعمت هذه الحركة صراحة الى الصلح الطبقي والتعاون مع سلطات الانتداب ، واقتصرت على العناصر المسيحية في الاغلبية الساحقة من اعضائها دون ان يكون للمسلمين وجود يذكر فيها .

وبرأينا ان عدم اقبال المسلمين للانخراط في صفوف الحركة النقابية والسياسية لا ينبع من اساس طائفي ، كما يظن العديد من المؤرخين بل من رفض المسلمين للانتداب الفرنسي وجميع المؤسسات التي تعترف بشرعيته ، ورفضهم لفصل لبنان عن سوريا وعن باقي اجزاء العالم العربي ، ورفض اية نقابة او حزب سياسي لا يجاهر صراحة بهذا الرفض لدولة لبنان الكبير بالذات ، التي هي برأيهم ، صنعة الفرنسيين .

٣ - ولادة التيار الشعبي :

لقد تجسدت فكرة التعاون بين العامل ورب العمل ، وبين المالك العقاري والفلاح الفقير ، بتيار سياسي انتشر بسرعة بين صفوف المثقفين والذي سمي بالتيار الشعبي ، وأحيانا يطلق عليه « التيار الديمقراطي - الاشتراكي » والذي وجد تعبيراً له في جريدة « الصحافي التائه » في زحلة ، والتي كان يصدرها اسكندر رياشي المعروف بارتباطاته الوثيقة بالفرنسيين .

ففي افتتاحية العدد الاول من « الصحافي النائه » يحدد سكندر رياشي اهدافه السياسية بالقول : « ان الصحافي النائه يعترف بالتآخي بين الطبقات ، وسوف يناضل من أجل ذلك » .

ويضيف « ان مبادئ الاشتراكية المعتدلة منبثقة من الكتابين السماويين : كتاب يسوع وكتاب محمد » (٦٦) .

ان فكرة التعاون بين المستغل (بالكسر) والمستغل ، والتآخي بين الطبقات ، والاشتراكية الدينية وغيرها ، شكلت محور كتابات الجريدة بالإضافة الى محور واحد يتكرر دوماً ، عن الفقراء والاغنياء ، كما ان الجريدة اعتبرت نفسها « جريدة العمال والبؤساء » (٦٧) .

اما من الناحية السياسية فقد اختصرت « الصحافي النائه » سياستها بالقول « هذه الجريدة ، سياستها مع الانتداب الصحيح الذي تعترف بضرورة اشرافه على البلاد » (٦٨) .

ان التيار الشعبي ، بالرغم من جميع الاتجاهات التي كانت تتصارع في داخله ، قد أسهم في ولادة تيار اشتراكي حقيقي منذ ١٩٢٤ . والحقيقة التي لا بد لنا من تسجيلها هي ان « الصحافي النائه » كانت الجريدة التي دفعت الحركة الاشتراكية - الشيوعية الى الامام ، وعرفت أفرادها بعضهم الى بعض ، ونسقت جهودهم وساعدتهم على الانتشار والنمو وحفزتهم على الدراسة والتبحر في الاسس الاشتراكية . فاليها يعود الفضل الاول في قيام حركة شيوعية في سورية ولبنان (٦٩) . ان انتشار الافكار الاشتراكية الطوباوية كان وليد التأثير المباشر بالفكر الاشتراكي الاوربي ، خاصة الفرنسي منه ، والذي كان لا يزال ينهل من أفكار الثورة الفرنسية الكبرى لعام ١٧٨٩ القائلة بالاخاء والمساواة والتي ساعدت المدارس اليسوعية في لبنان على نشرها والمناداة بها . ولم يكن أي من هؤلاء الكتاب الاشتراكيين الاوائل في لبنان على اطلاع ، ولو جزئي ، على الفكر الاشتراكي العالمي (٧٠) .

ثانياً : المعارضون للانتداب

١ - في الخارج :

لم يكن من الممكن تشكيل حزب سياسي يعمل علانية ضد الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان خلال السنوات الاولى ، بل تميزت المعارضة برفض الانتداب . رفضاً ارتدى طابعا طائفياً واضحاً نظراً لانتشاره الواسع في صفوف المسلمين بشكل

(٦٦) الصحافي النائه - العدد الاول الصادر في ٢٨ ايلول ١٩٢٢ .

(٦٧) المصدر السابق .

(٦٨) المصدر السابق .

(٦٩) س. ايوب - « الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ١٩٢٢ - ١٩٥٨ » ص ٢١ .

(٧٠) راجع يوسف بزيك « قصة اول ايار في لبنان » .

خاص دون ان يتعداهم الا الى أفراد من المسيحيين . وقد شعر دعاة الرافض هؤلاء بحرية العمل السياسي في الخارج لا في الداخل وتجمعوا حول فكرة « الاتحاد السوري » التي نادى بها الوجدويون في تلك الفترة وسموا حزبهم باسم « حزب الاتحاد السوري » .

وتجمع هؤلاء الوجدويون السوريون في اول لقاء لهم في جنيف ١٩٢١ في المؤتمر الذي سمي بالمؤتمر السوري في جنيف الذي بدأ التحضير له منذ ١٠ حزيران ١٩٢١ ، نظراً لانعقاد مجلس عصبة الأمم المتحدة في تلك المدينة السويسرية خلال هذه الفترة .

وجاء في الدعوة التي وجهتها لجنة حزب الاتحاد السوري ما يلي (٧١) : « رأت لجنة الاتحاد السوري ، التي كانت وما زالت تجاهد بجميع الطرق المشروعة للحصول على استقلال البلاد التام ، ان تتأزر جميع الاحزاب والجمعيات السورية التي تعمل لغاية الاستقلال التام ووحدة البلاد ، سواء في سوريا نفسها او في المهاجر البعيدة المتفرقة ، وتتفاهم فيما بينها على أسس المبادئ والمساوي معا ، طالبة الحصول على حقها الطبيعي الوطني المؤيد بكثير من العهود والوعود من أقطاب السياسة في العالم المتمدن . ولما كان مجلس عصبة الأمم سيجتمع قريباً وينظر في شروط الوصاية المفروضة على سوريا وغيرها من البلاد المنفصلة عن تركيا ، فقد قررت لجنة حزب الاتحاد السوري ان تدعو جميع الجمعيات والاحزاب السورية الى عقد مؤتمر سوري عام في جنيف ، مركز عصبة الأمم في ١٠ حزيران المقبل لتبرهن ، بكل ما لديها من الوثائق والحجج والادلة على ما لسورية من الحق بالحرة والاستقلال » .

وقد وقّع الدعوة الرئيس ميشال لطف الله ، ونائبه محمد رشيد رضا . وفي ٧ آب ١٩٢١ صدرت قرارات مؤتمر جنيف ونصت على البنود الخمسة التالية (٧٢) :

- ١ - الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين .
 - ٢ - الاعتراف بحق هذه البلاد في ان تتحد معاً بحكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وان تتحد مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل ولايات متحدة (فيدراسيون) .
 - ٣ - اعلان الغاء الانتداب حالا .
 - ٤ - جلاء الجيوش الفرنسية والانكليزية عن سوريا ولبنان وفلسطين .
 - ٥ - الغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين » .
- اما الاحزاب والجمعيات السياسية التي شاركت في التوقيع على مقررات مؤتمر جنيف فكانت (٧٣) :

(٧١) المنار - المجلد ٢٣ - الجزء الثاني - شباط ١٩٢٢ - ص ١١٦ - ١١٧ .

راجع ايضاً عبدالله حنا « الحركة العمالية في سوريا ولبنان » ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٧٢) المنار - المجلد ٢٣ - الجزء السادس - ايار ١٩٢٢ - ص ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٧٣) المنار - المصدر السابق - ص ٤٥٩ .

رئيس المؤتمر : ميشال لطف الله - رئيس اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السوري ومندوبها .

نائب الرئيس : رشيد رضا - رئيس المؤتمر السوري العام في دمشق ونائب رئيس الاتحاد السوري ومندوبه .

نائب الرئيس : توفيق حماد - رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس - مندوب المؤتمر الفلسطيني الممثل لجميع الاهالي .

سكرتير عام : شبيب ارسلان - مندوب حزب الاستقلال العربي .

اعضاء : احسان الجابري - مندوب حزب الاستقلال العربي .

رياض الصلح : مندوب حزب الاستقلال العربي .

نجيب شقير : مندوب حزب الاستقلال العربي .

وهبه العيسى : رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ومندوبها .

شيلي الجمل : مندوب الوفد العربي الفلسطيني وسكرتيه .

امين التميمي : مندوب الوفد العربي الفلسطيني

- مستشار رئيس الوزارة بدمشق سابقا .

سليمان كنعان : عضو مجلس لبنان الاداري سابقا .

صلاح عز الدين : مندوب الجمعية السورية الوطنية في بوسطن .

طعان العماد : مندوب الحزب الوطني العربي في الارجننتين .

جورج يوسف سالم : مندوب حزب تحرير سوريا في نيويورك .

توفيق اليازجي : مندوب حزب استقلال سوريا ووحدتها

في سانتياغو - شيلي .

اما في مصر ، فقد شن « **الحزب الوطني اللبناني** » هناك هجوما شديدا ضد الانتداب الفرنسي على سوريا . وكان حبيب البستاني رئيسا لهذا الحزب الذي ضم بين صفوفه ميشال زكور ، صاحب جريدة « **المعرض** » البيروتية ، ومؤسس حزب الشبيبة اللبنانية فيما بعد . ومن المؤكد ان الحزب الوطني اللبناني حاول ان يفتح فرعا له في بيروت ، الا ان نشاطه الفعلي بقي في اطار اللبنانيين في مصر . كما عقد هذا الحزب مؤتمرا للبنانيين في مصر ، في نيسان ١٩٢٢ ، احتج فيه بعنف على وجود الانتداب الفرنسي في لبنان الكبير . وقد علقت مجلة « **آسيا الفرنسية** » ، الصحيفة شبه الرسمية للانتداب ، على مؤتمر اللبنانيين في مصر بقولها « يبدو ان بعض اللبنانيين في القاهرة ، قد عقدوا اجتماعا هناك للاحتجاج على فرنسا المنتدبة على سوريا ولبنان . وهتف المجتمعون مرارا : لتسقط فرنسا » (٧٤) .

وفي ١٨ حزيران ١٩٢٢ ، نشرت جريدة « **المعرض** » عريضة مسببة رفعها حبيب البستاني ، رئيس الحزب ، يحتج فيها على المجلس النيابي اللبناني لارساله برقيته المشهورة التي يشكر فيها الفرنسيين على انشاء دولة لبنان الكبير (٧٥) .

L'Asie Française — No. 202 — Mai 1922 — P. 223.

(٧٤)

(٧٥) المعرض — السنة الثانية — العدد ١١٧ — الصادر في ١٨ حزيران ١٩٢٢ — الصفحة الاولى .
Voir aussi « L'Asie Française... » — No. 203 — Juin 1922 — P. 270.

لقد تعالت صيحات العديد من اللبنانيين خارج الحدود ، متحدة مع اصوات اخوانهم السوريين والفلسطينيين في المهجر ام منفصلة عنها ، تطالب برفض الانتداب الفرنسي وبضرورة النضال ضده . وتأثرت هذه الاصوات بالجو السياسي العام الذي ساد قبيل فرض الانتداب على سوريا ولبنان وفلسطين والعراق والشعاعات الوحودية العلمانية للقومية العربية . ومهما كان من امر هذه الصيحات ، فقد بقي تأثيرها ضئيلا جدا على سير سياسة الانتداب الفرنسي ومخططاته في الداخل . فاقصر دور الاحزاب والجمعيات المعارضة في الخارج على الاعلام دون ان يتعداه الى الاعمال الجماهيرية المنظمة بسبب طبيعة تلك الاحزاب والجمعيات الفوقية المعزولة عن جماهير اللبنانيين في المهجر من جهة ، وبسبب سياسة الانكسار والاميركيين التي انقلبت ضد الحركة الوحودية السورية والى جانب الانتداب بعد اتفاقيات المصالح المشتركة .

٢ - في الداخل :

بدأ الساخطون من التيار الموالي للانتداب سابقا ، والذين حرموا من المناصب الادارية في لبنان ، بالتجمع حول « **حزب الاتحاد الديمقراطي** » الذي بدأ نشاطه في كانون الاول ١٩٢٠ بارسال برقيات الى فرنسا وبريطانيا والى عصبة الامم ، احتجاجا على مطالب الصهيونيين بضم اراض من لبنان الى فلسطين . وجاء في برقية هذا الحزب « ان حزب الاتحاد الديمقراطي في بيروت يحتج بكل شدة على ما طلبه مجلس فلسطين من سلخ افضية حاصبيا ومرجعيون وبانياس والحولة والقنيطرة ووادي اليرموك عن البلاد السورية والحاكما بفلسطين » (٧٦) .

ويفهم من هذه البرقية الواقعة من داود عمون ، رئيس اول وفد لبناني الى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة « باستقلال لبنان التام وتوسيع اراضيهِ نحو حدوده التاريخية والطبيعية » ، ان داود عمون هذا كان رئيسا للجنة التنفيذية لحزب الاتحاد الديمقراطي .

وسار هذا الحزب شوطا واسعا في انتقاده ، بعد ان حرم من مقام الادارة ، حتى وصل به الامر الى حد ارسال عريضة في ١٠ حزيران ١٩٢١ ، مرفوعة الى عصبة الامم بمناسبة انعقاد مجلسها في جنيف ، حدد الحزب فيها مطالبه بالبنود التالية (٧٧) :

« ١ - ان يكون الانتداب مؤقتا وشكله استشاريا محدودا يتناول الدوائر الرئيسية ولا يتعداها .

٢ - ان يمكن أهل البلاد من انشاء حكومة وطنية نيابية مستقلة يرؤسها ويديرها وطنيون .

٣ - ان تُلغى الامتيازات الاجنبية .

(٧٦) لسان الحال - العدد ٨١٩٤ - تاريخ ٧ كانون الاول ١٩٢٠ .

(٧٧) جريدة المعرض البيروتية - السنة الاولى - العدد العاشر الصادر في ٢ حزيران ١٩٢١ .

٤ - ان تلغى الضرائب والقوانين المستحدثة وان تبقى القوانين العثمانية موقية الاجراء الى ان يلتئم المجلس النيابي الوطني الذي له وحده حق سن القوانين وفرض الضرائب .»

اما على الصعيد الشعبي غير المنظم فقد ارتدت معارضة الانتداب طابعا اقليميا طائفيًا . فوجدت فرنسا المنتدبة نفسها امام ترجيب سافر في بعض المناطق اللبنانية ورفض شعبي شامل في سائر المناطق التي رأت فيها دولة اجنبية محتلة . واضحت المناطق اللبنانية مقسمة سياسيا الى قسمين واضحين تماما يعترف أحدهما بالوجود الانتدابي الفرنسي والكيان اللبناني الجديد ، ويرفض الآخر هذا الانتداب وهذا الوجود لدولة لبنان الكبير ويتوق الى وحدة كلية او جزئية مع سوريا (٧٨) .

٣ - النضالات الطليعية المشتتة :

ان اول اضراب عمالي كبير ، بعد اعلان الانتداب الفرنسي على لبنان ، هو الاضراب الذي نفذه عمال ومستخدمو شركة خطوط السكة الحديدية المعروفة بخطوط دمشق - حماه وتمديداتها D.H.P. ، وذلك في صيف ١٩٢٠ ، واعادوا تنفيذه مرة اخرى خلال ١٩٢١ وذلك للمطالبة بزيادة الاجور (٧٩) .

وفي ٢٠ شباط ١٩٢١ (٨٠) ، قامت مظاهرة كبرى ، اغلبيتها الساحقة من النساء ، فانطلقت من وسط المدينة الى دار الحكومة تطالب بفسخ عقود البيع التي جرت ايام الحرب نظرا لان الشاري لم يدفع ربع القيمة الحقيقية في حين كان البائع مضطرا للبيع بفعل ظروف الحروب والضائقة المادية والجوع . وقد طافت المظاهرة على ادارات الصحف سائلة اصحابها نصرتهم وابلاغ الحكومة شكواهم . مما اضطر المفوضية السامية الفرنسية الى فسخ تلك العقود المسماة « بيوع الحرب » بالقرار رقم ٧٩٧ تاريخ ٣١ آذار ١٩٢١ .

وفي ١٩٢١ ، قامت المفوضية العليا بفرض ضرائب جديدة على عربات النقل والمواقف ، مما دفع الحوذيين الى اعلان الاضراب في الثالث من تموز ١٩٢١ . وتقول لسان الحال : « اليوم اصبحنا والحوذيون مصرون على الاعتصاب (الاضراب) والاستواق خالية منهم . لكن حضرة حاكم بيروت الاداري ، والبلدية ، اضطروا اصحاب القربى وخوذيتها بوجوب الرجوع الى العمل قبل ظهر اليوم والا اخذت منهم رخصهم ... » (٨١) مما أفشل الاضراب . وكان الفشل دافعا لهم لتشكيل نقابة تدافع عن مصالحهم منذ ذلك التاريخ .

وكانت شركة الترامواي اللبنانية ، وهي شركة بلجيكية تفرض على الراكب من قرن الشباك الى البرج ، او من البرج الى الحرج تسعة متاليك حجز و ٤٥ قرشا

ورقا نقديا . وتقول جريدة « الحقيقة » بيروتية « ان الشركة في عام ١٩١٨ ، كانت تسعى لانزال سعر الورقة النقدية بدلا من رفعها ، وان الساسرة انفسهم لم يوصلوا حتى الان سعر الورقة النقدية (اي الليرة التركية) الى اقل من ثمانية قروش . فهل تريد شركة الترامواي ان تبرهن على انها أقدر على انزال سعر الورقة من ساسرة السوق ؟ » (٨٢) .

لقد اشتدت وطأة النقل على المواطنين ، فقاموا بالاضراب عن استخدام الترامواي في ٨ تموز ١٩٢٢ . ووصفت جريدة « المعرض » هذا الاعتصاب تقول : « ثلاثماية شخص وما ينيف اجتمعوا مساء الجمعة في فرن الشباك من جميع محلات بيروت لتقرير الاعتصاب العام على الترامواي . انها كانت مظاهرة وطنية جميلة ضد استبداد الشركة التي امتصت وما برحت تمتص دماءنا بأسعارها الفاحشة كان بيروت مكلفة ان تسدد ديونها وديون البلجيك معها » .

وجاء في البيان الذي نشره المجتمعون بعنوان « صوت من الشعب والى الشعب » ورد فيه « شركة الترامواي تتقاضى من فقيرك خمسة وسبعة غروش على مسافة يدفع عنها ابن الشام غرشا واحدا فقط ... » (٨٣) .

ان الحركة المطليعية في لبنان بدأت تنمو مع اتساع موجة الغلاء وتدني القدرة الشرائية للشعب اللبناني ، بسبب تسلط الشركات ، خاصة الفرنسية منها ، على مقدرات لبنان وفرض الضرائب الباهظة على سكانه . غير ان تلك المظاهرات والاضرابات بقيت معزولة وغير موحدة ، وكان ينقصها التنسيق والتوجه السياسي ضد المستغلين الفعليين أي الانتداب الفرنسي وأعوانه في الداخل .

كما ان هذه الحركة المطليعية لم تلاق أي دعم او اهتمام من « حزب العمل العام في لبنان الكبير » الذي كان يخطط زعماءه للوصول الى المجلس النيابي غير آبهين بمظاهرات العمال واضراباتهم والقمع المستمر الذي قاسوه من سلطة الانتداب وعساكرها . هذه الحركة ستشتد وتقوى مع ولادة « حزب الشعب اللبناني » في اواخر ١٩٢٤ ، الذي عرف كيف يوحد بين نضالات الطبقة العاملة اللبنانية ، ويرفع شعارات مطلبية واضحة ، ويسعى حيثما الى تنظيم النقابات العمالية في « الكومسيون النقابي » لعام ١٩٢٥ الذي أبرز « ولأول مرة في تاريخ لبنان ، وجه الطبقة العاملة اللبنانية كطليعة للنضال المطليبي والديمقراطي العام في وجه استغلال شركات الانتداب والمتعاونين معها من اصحاب الرساميل المحلية .

(٧٨) عادل الصلح « حزب الاستقلال الجمهوري » ص ٨ .
(٧٩) — J. Couland — op. cit. — P. 85.

(٨٠) لسان الحال — عدد ٨٢٤٧ — تاريخ ٢١ شباط ١٩٢١ .

(٨١) لسان الحال — عدد ٨٣٩١ — تاريخ ٣ تموز ١٩٢١ .

(٨٢) للحقيقة — العدد ٩٧٣ — السنة ١١ — في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ .

(٨٣) المعرض — السنة الثانية — العدد ١٢٣ — الصادر في ٩ تموز ١٩٢٢ — ص ٣ .

□ الفصل الثاني □
مَرحلة النضال الديموقراطي
العام وولادة الدستور والجمهورية
في لبنان □ ١٩٢٤ - ١٩٢٦ □

جنود الفكر الاشتراكي العلمي في لبنان

ان تحديد تاريخ أول ظهور للفكر الاشتراكي في لبنان ليس سهل المنال نظرا لانعدام الوثائق حول هذا الفكر ، خاصة وان أعمال أولئك الطليعيين الأوائل قد دفنت معهم كذلك أقوالهم ، المكتوبة أو المعلنة خطايا ، بسبب الارهاب والقمع .
وقد أشار يوسف يزبك في مقاله « حكاية أول أول أيار في بيروت ١٩٢٥ » إلى الحقيقة التاريخية التالية : « تكرارا أشير إلى ان تلك المطالب - أي مطالب حزب الشعب اللبناني لعام ١٩٢٥ والتي سنتكلم عنها مطولا - هي الأولى من نوعها بسطا وتحديدا وتوضيحا ، وان لم يكن احتفالنا مثلها في الأولوية ، اذ سبق لقبضة من المثقفين اللبنانيين ان احتفلوا به قبل ثماني عشرة سنة ويذكرهم التاريخ بأنهم اصحاب أول صوت ارتفع في الشرق كله في هذا السبيل » (١) .

وفي حواشي هذا المقال يوضح يوسف يزبك حقيقة هذا الاحتفال فيقول « جرى ذلك في أول أيار سنة ١٩٠٧ ، وقد دعا إليه المرحومون خيرالله وداود مجاعص وجرجي نقولا باز وآخرون من زمريهم التي قامت في العام الثاني بدور رئيسي جريء في بيروت بتأييد اعلان الدستور العثماني وبالدعوة إلى حراسة الحرية ومكافحة بقايا الطغيان الحميدي . وكان جيلنا الذي خلف أولئك الاحرار ، مباشرة ، ينظر اليهم باحترام واعجاب شديدين ويعتبرهم المعلمين والرواد الذين شقوا لنا الطريق : وقصة احتفالهم بأول أيار سنة ١٩٠٧ سمعناها من الرفقاء الثلاثة في مناسبات متباعدة . وكان المرحوم خيرالله يحتفظ بالشارة الحريية الحمراء التي علقها على صدره في ذلك اليوم ، كما علق رفقاؤه شارات أخرى ، ولما احتفلنا في بيروت سنة ١٩٢٥ احتفالنا التاريخي انتزع خيرالله شارته من جيبه وهو يلقي خطابه ولوح بها ثم اعطانيها علنا فائسار حماسة عاصفة في القاعة الهبت

(١) يوسف يزبك - مجلة البلاغ البيروتية - السنة الاولى - العدد ١٧ الصادر في أول أيار ١٩٧٢ -
صفحة ٣٢ .

الآلاف بالتصفيق . اما مكان ذلك الاحتفال الرمزي فكان في الروشة ، على رمال الشاطئ... بعيدا عن عيون الرقباء » (٢) .

تلك هي البادرة الوحيدة التي تدل عن حركة « اشتراكية » في لبنان قبيل الحرب العالمية الأولى . إنها حركة اشتراكية طوباوية معزولة عن جماهير العمال والفلاحين ، لكنها ، وعلى لسان رادها يوسف يزبك ، الأولى من نوعها ، ان لم نقل معه في الشرق كله تحفظا ، فهي دون شك الأولى في لبنان خلال تلك الفترة .

بيد ان واقع ما جرى بعد الحرب حمل بذورا اشتراكية فعلية الى لبنان والمنطقة العربية المجاورة . وقد أسهمت مراسلات لينين وبعض الزعماء العرب فعليا في بروز أصوات اشتراكية في مصر وفلسطين خاصة منذ أواخر الحرب . فقد كتبت مجلة « النار » ، الواسعة الانتشار آنذاك ، سلسلة مقالات بقلم الامام رشيد رضا - وهو لبناني من بلدة القلمون قرب طرابلس - أبرزها مقالان : « اله البلاشفة والعالم الاسلامي » في العدد العاشر لعام ١٩١٨ ، ومقال « الاشتراكية والبولشفية والدين » الذي جاء فيه : « الاشتراكية الحقيقية ليست سوى البلشفية التي تعني الغاء استغلال الرأسماليين وعمالهم في السلطة » .

وكتب الشيخ رشيد رضا يقول ايضا : « ... ان الذي فهمناه من مجموع ما اطلعنا عليه في البلشفية انها عين الاشتراكية المقصود منها ازالة سلطان ارباب الاموال الطامعين واعوانهم من الحكام المناصرين لهم الذين وضعوا قوانينهم المادية على قواعد هضم حقوق العمال في بلادهم واستعمار بلاد المستضعفين من غيرهم ، وان معناها الحر في « الاكثرية » فالمراد منها ان يكون الحكم الحقيقي في كل شعب للاكثرية من أهله وهم العمال في الصناعة والزراعة وغيرها وذلك بعد اسقاط سلطة ارباب الثراء والكبراء المشايخين لهم . وقد فعلوا ذلك في روسيا ... لا يعجب القاريء اذا قلنا ان ٩٩٪ من سكان الكرة الارضية هم من الاشتراكيين او البولشفكيين وهؤلاء هم الشعب الذي تقول الامثال ان صوته هو صوت الله ... نعم انه لا يستطيع انشاء حكومات شعبية الا بعد ان تبشر ثروة الاغنياء . ولكن الشعب لا يظلمهم بذلك بل ان طمعهم بابقاء سيطرتهم المطلقة ينتج لهم ان الشعب يضطر لاختها بالقوة والارغام ... » (٣)

يمثل هذا الوضوح عن البولشفية وأهدافها كانت اقلام عربية تكتب خلال تلك الفترة . لذا فالقول بأن العالم العربي لم يكن يعرف عن الاشتراكية شيئا وان البولشفية كانت مجهولة تماما لدى جماهير المثقفين العرب قول يفتقر الى الكثير من الدقة والعلمية . ومهما كانت الدائرة ضيقة لدى انتشار هذه الاصوات الاولى وتلك الصيحات المؤيدة للاشتراكية ، فان وجودها ، وعلى صفحات مجلة كبرى كالنار الواسعة الانتشار آنذاك كانت وسيلة اتصال هامة بالعديد من المثقفين العرب . بيد ان هذا الموقف لم يكن ينبع من ايمان علمي بالاشتراكية والبولشفية دون شك بل انطلاقا من موقف اسلامي واضح . فقد كتب الشيخ الامام رشيد رضا

نفسه يقول « ... بل فعلت دولة السوفيات اعظم من هذا : عقدت معاهدات بينها وبين الدول الاسلامية الثلاث - الترك والفرس والافغان - اعترفت فيها باستقلال كل منها ، وأرجعت اليهن ما كانت دولة القياصرة قبلها قد سلبتهن ، واسقطت للمدنيات منهن لروسيا ما كان لها من الدين عليهن ، وسمحت للدولة الايرانية بما لها في بلادها من سكك الحديد وغيرها . لذا كان العالم الاسلامي مع الشعوب الشرقية كلها راضيا من حكومة الروس الجديدة ، شاكرها لها مثنيا عليها ، وان كان المسلمون أبعد الشعوب عن البلشفية ومذاهبها » (٤) .

لقد كان موقف ثورة اكتوبر من فضح الاتفاقيات الاستعمارية وتأييد ثورات شعوب الشرق التحررية ، الدافع الاول لتأييد العديد من مثقفي العالم الاسلامي لهذه الثورة ، كما جاءت المواقف الاستعمارية للحلفاء وتضامن الاميركيين معهم تزيد في مواقف التأييد للثورة السوفياتية في اوساط العالم العربي ، وتعالى اصوات المناصرين لها قبل ان يطالبهم اضطهاد الانكليز والفرنسيين . ان تلك الاصوات ، على ندرتها ، كانت أولى الصيحات العربية التي نادى بالاشتراكية وأيدها علنا على صفحات الجرائد والمجلات ، ودعت الى مؤازرة ثورتها الكبرى في روسيا وتشديد التضامن معها ضد غدر الحلفاء والتعاونين معهم .

اما داخل بيروت فكانت جريدة « الحقيقة » - حسب وثائقنا الخاصة ومطالعنا حول هذا الموضوع - اول جريدة بيروتية قامت باصدار سلسلة مقالات عن الاشتراكية العلمية أبرزها ثلاث مقالات ظهرت تباعا في الاعداد ١٣٦٠ و ١٣٦١ و ١٣٦٢ الصادرة بتاريخ ١ و ٣ و ٤ كانون الاول ١٩٢٠ وتناولت على التوالي « النظام الانتخابي ومعنى السوفياتيات » و « الاحزاب السياسية في روسيا السوفياتية » و « الصناعة السوفياتية » . وتستنتج الجريدة « ان النظام البلشفي المطبق في روسيا حاليا ليس بالضبط النظام الذي أعلن عنه كارل ماركس لكنه خطوة على طريق ذلك النظام ، انها مرحلة انتقالية تلك التي تجتازها روسيا اليوم مع نظام السوفياتيات الجديد .

ان هذين المصدرين الهامين يوضحان دون أدنى ريب ان الفكر الاشتراكي والثورة البلشفية وجدا تأييدا واضحا من جانب الشعوب العربية خاصة بعد موقف الثورة بفضح الوثائق الاستعمارية لاتفاقية سايكس - بيكو ونداء لينين الشهير الى شعوب الشرق وبدعم ثورة اكتوبر للحركة التحررية التركية بقيادة مصطفى كمال ، وذلك اثر المواقف الاستعمارية التي كشفت عنها الوعود الانكلو - فرنسية للعرب بعد نهاية الحرب والتي تجسدت عمليا باتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ الذي أوقع المنطقة العربية ، شرقي البحر الابيض المتوسط ، في برائن الاستعمارين الانكليزي والفرنسي باسم الانتداب .

اما جريدة « المعرض » البيروتية فقامت ترصد تطور الحركة البولشفية في فلسطين منذ أوائل ١٩٢١ . فقد كتبت عن حوادث اول ايار التي وقعت هناك « ان العمال اليهود نادوا بالبولشفية في اول ايار ١٩٢١ وتجمعوا يحملون اعلاما

(٤) رشيد رضا - النار - المجلد ٢٢ - الجزء العاشر - ص ٧٤٦ .

(٢) يزبك - المصدر السابق - الحاشية رقم ٥ ص ٢٨ .

(٣) رشيد رضا - النار - المجلد ٢١ - الجزء الخامس - ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

حمراء (علامة البولشفيك) وتوجهوا الى امام دار الحكومة . فأرسل الحاكم نفرا من الشرطة ليطلب من المتظاهرين ان ينزلوا الاعلام الحمراء . فما كان من المتظاهرين ، وقد كانوا على أتم الاستعداد ، الا ان قتلوا الجندرية وهم من اهالي فلسطين الوطنيين . فهاج رجال الجندرية الوطنيين وهاجموا اليهود . ونشبت معركة حامية هناك . ونمي الخبر الى الاهالي فتجمعوا يشدون أزر الجندرية الوطنية ضد العمال اليهود . وبلغ عدد القتلى ٧٥ شخصا ومن المسلمين ١٥ ومن النصاري ١٣ . وكانت المناشير التي منعها ادارة الرقابة تحض على الثورة البولشفية واسقاط الحكومة وانشاء حكومة سوفياتية في فلسطين » (٥) .

وتعود « المعرض » مرة أخرى الى تلك الحوادث فتستنتج « ان السياسة الانكليزية عرفت ان تلعب لعبتها هذه المرة . فبعد ان كانت الحركة محض بولشفكية ، انقلبت الى خلاف صهيوني - عربي واغتنمت الحكومة وقوف الوطنيين العرب بجانبها ضد هياج الصهيونيين فاتهمت الفريقين بالاخلال بالامن العام وقامت تحاكمهم كان هناك خلافا صهيونيا - عربيا ولم يعد للحركة البولشفكية خبر في نتائج تلك الاحداث » (٦) . ثم تعود ايضا الى الحوادث ذاتها فتقول « تخوف الحكومة في فلسطين من امتداد الفكرة البولشفكية في البلاد بعد ما راته من قيام عمال اليهود ببث هذه الدعوة ، فرصدت قواتها على الحدود لمنع كل تلاخل (تواجد) بولشفكي في الارض المقدسة » (٧) .

يستدل من ذلك ان « المعرض » لعبت ، في هذه الفترة وفي الفترة اللاحقة ، دورا هاما خلال السنوات الاولى للانتداب ، في اطلاع اللبنانيين على تطور الحركة البولشفكية في الاراضي المجاورة اي فلسطين . وبدأت « المعرض » باستعراض طبيعة النظام الاشتراكي في سلسلة مقالات متواصلة كما ان الحركة الاشتراكية البولشفية في فلسطين ستلعب دورا ملحوظا في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني في عام ١٩٢٤ .

اما جريدتا « الصحافي الثنائ » و « زحلة الفتاة » اللتان كانتا تصدران في زحلة فكان لهما دور كبير في تجميع « الكتاب الاشتراكيين » اللبنانيين على صفحاتها . وكان اسكندر رياشي وراجي الراعي وشكري البخاش والشبح الباكي (اي يوسف ابراهيم يزبك) من ابرز قادة هذا التيار الاشتراكي الطوباوي الذي اطلق عليه لقب « التيار الشعبي » . فلم تكن اقلام هذا التيار تنهل من منابع الاشتراكية العلمية بل - كما يقول يوسف يزبك - « كنا شيوعيين ولم يكن منا من قرا كتابا واحدا للينين » (٨) .

(٥) المعرض - السنة الاولى - العدد الثالث - الصادر في ٨ أيار ١٩٢١ .

(٦) المعرض - السنة الاولى - العدد السادس - الصادر في ١٩ أيار ١٩٢١ .

(٧) المعرض - السنة الاولى - العدد ١٢ - الصادر في ٩ حزيران ١٩٢١ .

(٨) راجع يزبك - مقال البلاغ المشار اليه سابقا - العنوان - وراجع كذلك عبدالله حنا « الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥ » خاصة عنوان « مرحلة يزبك او الصحافي الثنائ »

١٩٢٢ - ١٩٣٠ ص ٨٤ - ٨٩ .

ومهما يكن من امر دعاة هذا التيار ، فمما لا شك فيه ان أقلامهم (وخاصة يوسف يزبك) ساهمت اسهاما فعالا في ولادة الفكر الاشتراكي في لبنان وسوريا . كما ان تفكير البعض منهم تجذر أكثر فأكثر باتجاه الفكر الاشتراكي العلمي في حين انقلب البعض الآخر الى وصوليين يتسكعون على أبواب ادارة الانتداب .

ان بذور الاشتراكية في لبنان بدأت في صفوف المثقفين الوطنيين . بيد ان تلك البذور لم تصبح صالحة للزرع الا بعد تلقيحها بالفكر الاشتراكي العلمي الذي حملته طليعة عمالية مجربة بدأت بفؤاد شمالي ، عامل التبغ المطرود من مصر ، وتوسعت مع طليعة نقابة عمال التبغ في بكفيا التي شكلت قيادة حزب الشعب اللبناني بالذات .

ما القول بأن الفكر الاشتراكي العلمي في لبنان هو وليد فئة مثقفة من البورجوازية الوطنية فيدحضه الواقع التاريخي بالذات . ففكر تلك الفئة المثقفة لم يكن اشتراكي علميا ولم يعرف تلك الصفة على الاطلاق . ان طليعة الطبقة العاملة اللبنانية ، المتمثلة آنذاك بنقابة عمال التبغ في بكفيا ، والتي ساندها العديد من المثقفين الوطنيين هي التي تقبلت ذلك الفكر المعبر عن مصالحها والمجسد لأمانيتها وهي التي عملت على نشره بين صفوف العمال والفلاحين يساندها في ذلك المثقفون الوطنيون الذين آمنوا بدور الطبقة العاملة الطليعي في بناء المجتمع الاشتراكي في لبنان .

الحياة السياسية عند أرمن سوريا ولبنان

١ - الهجرة الارمنية الى لبنان وسوريا

حسب تقدير مجلة الصناعيين والتجار الفرنسيين في الشرق لعام ١٩٢٧ ، فان تعداد الارمن في لبنان كان يقدر بحوالي ٢٩ ألفا (٩) منهم ٢١ ألفا في بيروت و ١٢٠٠ في زحلة و ١٠٠٠ في طرابلس . ويرفع لويس جالابر هذا الرقم الى ٣٢ ألفا (١٠) موزعين بين بيروت وعنجر . والاختلاف ليس كبيرا على كل حال .

وفي تقدير مجلة الصناعيين المذكورة ان ١١٩٠٣٨٧ (١١) ارمنيا فقط كانوا يعيشون من عرق جباههم دون مساعدة الدولة مقابل ١٣٠٣٦٩ ارمنيا تقدم لهم الدولة مساعدة جزئية في حين ان ٥٠٩٦٥ ارمنيا كانت الدولة تقوم بكامل اعالتهم خلال تلك الفترة . وقد توزع الارمن ، استنادا الى احصائيات هذه المجلة ما بين ١٤ ألفا يقومون بالعمل الزراعي ، و ٤ آلاف حرفي في المناطق خارج المدن ، و ١١ ألف حرفي في المدن اللبنانية ، خاصة في بيروت . فقد امتاز هؤلاء بنشاط هائل في المجالات الحرفية الصغيرة التي كانت تتطلب مهارة يدوية وتقنية . فعملوا كحدادين

(٩) Bulletin de C.I.F.L. — No. I — de 1927 — P. 76-77.

(١٠) Louis Jalabert « La Syrie et le Liban; réussite française ? » — P. 110.

(١١) Bulletin de C.I.F.L. — op. cit. — P. 77.

ومضوون ومزخرفين وعمال نسيج وعمال ميكانيك وغيرها . وكانت بعض نسايم اختصاصيات في صناعة السجاد من الصوف الفاخر والبياضات والمطرزات (١٢) . وقد استغلت فرنسا المتدبة هؤلاء المهاجرين أبشع استغلال بسبب حاجتهم الماسة للمأكول والسكن والملبس ، اذ كانوا مضطرين للعمل بأجور بالغة الانخفاض . وقد انتشرت الامراض بين صفوفهم بشكل مرعب ، خاصة في احياء الكرنطينا . وبرزت تلك الامراض مرض الحصبة او الحمراء التي تكاثرت بسرعة بين اطفالهم بصورة خاصة والتي قالت عنها مجلة الحارس البيروتية « لم يبق بيت من بيوت الارمن الا وزارته الحمراء التي انتشرت بشدة بين اطفال بيروت حتى يكاد يزور بيوتها قاطبة » (١٣) . لقد استطاعت دارة الانتداب استغلال الوضع المادي البائس لهؤلاء المهاجرين الارمن الى أقصى حد وقامت تشكل منهم فرقا صدامية ضد السكان لوطنيين خاصة في ابان الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ .

ويؤكد روبر دوكة في تقريره امام اللجنة الدائمة للانتدابات في جنيف ان الارمن قدموا الى الدويلات الخاضعة للانتداب الفرنسي على دفعتين كبيرتين (١٤) : الاولى بعد هزيمة الجيوش الفرنسية في كيكيا وانسحابها من هناك نهائيا بموجب صلح انغورا في نهاية ١٩٢١ ، وقدر عدد افراد هذه الدفعة بحوالي ٣٠ ألفا . والثانية بعد انتصار الاتراك على اليونانيين في نهاية ١٩٢٢ . وقدرت هذه الهجرات الجماعية في الدفعة الثانية بحوالي ٥٨ ألفا . وتوزع المهاجرون الارمن على دويلات الانتداب كالآتي : ٣٢ ألفا في لبنان الكبير ، و ١٠ آلاف في دمشق ، و ٣٧٤٠٠ في حلب ، و ١٢٠٠ في دير الزور ، و ٦٢٤٠ في الاسكندرون ، و ١٤٢٠ في دويلة العلويين ، مما يجعل المجموع العام ٨٨٩٠٠ (١٥) مهاجر أرمني .

ويضيف تقرير ادارة الانتداب لعام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ان موجة ثالثة من الهجرة الارمنية بدأت بعد توقيع اتفاقية لوزان عام ١٩٢٣ وبلغ تعداد افرادها ١٢ ألفا (١٦) مما رفع العدد النهائي للمهاجرين الارمن الى ١٠٠ ألف أرمني في دويلات الانتداب ، وقد ارتفع العدد الى ١٥٠ ألفا تقريبا في ١٩٢٥ (١٧) .

ان هؤلاء المهاجرين الارمن ، الفارين من خطر الإبادة التركي ، وجدوا لهم مأوى واسعا في دويلات الانتداب الفرنسي . وقد سهلت لهم انتماءاتهم الطائفية المسيحية - كما يقول دومنيك شغاليه - الانخراط بين الطوائف اللبنانية دون ان تذوب فيها . فقد بقي الارمن يحافظون على استقلاليتهم النسبية كمجموعات

(١٢) — L. Jalabert — op. cit. — P. 128.
(١٣) مجلة الحارس — السنة الثالثة — العدد ٨ ايار ١٩٢٦ — ص ٧٥١ .
(١٤) — R. de Caix « C.P.M. » 4ème Séance - Genève 25-6-1924 — P. 33.
(١٥) — L. Jalabert — op. cit. — P. 110.
(١٦) — H. C. « Rapport sur les années 1923-1924 » — P. 26-27.
(١٧) ارتين مادويان — مقابلة خاصة . اما اوزو فيقدر تعداد الارمن لعام ١٩٢٧ بثماني ألفا فقط وهو رقم بعيد عن الحقيقة .
— R. O'Zoux « États du Levant... » — P. 206.

طائفية مسيحية من جهة ، وكقومية أرمنية متميزة من جهة ثانية (١٨) . ومن هذا المنطلق بالذات تبرز الحياة السياسية عند غالبية الارمن بتميزها عن الحياة السياسية اللبنانية في ظل الانتداب من جهة ، وبارتباطها العضوي مع السلطة الحاكمة في جميع الظروف ما عدا تيار اشتراكي صغير التف حول شبينة سبارتاك الارمنية التي انخرطت في نضال الحزب الشيوعي او البولشفيكي اللبناني منذ عام ١٩٢٥ .

٢ - الاحزاب السياسية الارمنية

كانت احزاب الارمن السياسية ثلاثة : الداشناق او الطاشناق ، والهانشاق ، والرمفافار ازاداجان . وحزب الطاشناق هو الذي تسلم السلطة في « ارمينيا الحرة » بمساعدة الحلفاء في عام ١٩١٨ . اما حزب الهانشاق فكان حزبا اشتراكيا ديمقراطيا يؤيد الثورة السوفياتية في ارمينيا انطلاقا من مواقع وطنية أكثر منها طبقية . اما حزب الرامغافار فيمثل تيارا ديمقراطيا ليبراليا داخل صفوف الارمن (١٩) .

وبقيام السلطة السوفياتية في جمهورية اذربيجان في نيسان ١٩٢٠ ، وجد الحزب البولشفيكي او الشيوعي في ارمينيا ان الظروف مؤات للقيام بثورة اشتراكية تدعمها ثورة اكتوبر العظمى فقلب سلطة الطاشناق وأعلن قيام جمهورية ارمينيا السوفياتية في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٢ .

ومع قيام جمهورية ارمينيا السوفياتية انشطرت حياة الارمن السياسية في الخارج الى تيارين بارزين : الاول يميني شوفيني يدعو الى الحفاظ على « الشخصية » الارمنية داخل المجتمعات التي تواجدت فيها وعدم الانخراط في النضالات المطالبة والنقابية والتحريرية لتلك المجتمعات بل تشكيل « قومية ارمنية » منفصلة عن « القوميات » المحلية ولها شخصيتها واستقلاليتها . وقد تجسدت هذه الدعوة عمليا بوقوف دعاة هذا التيار ومناصريهم دوما الى جانب الاحزاب اليمينية المحلية والسلطة الحاكمة (٢٠) ، خارجية كانت ام محلية ، ومحاربة الاشتراكيين والليبراليين داخل صفوف الارمن . ان دعم السلطة الانتدابية لدعاة هذا التيار لم يكن خفيا منذ البداية ، فقد شكلت منهم فرقا صدامية عسكرية لضرب نضالات شعوب سوريا ولبنان ولعبت الفرقة الارمنية في جيوش الانتداب دورا غير مشرف ابان الثورة السورية الكبرى ولا يقل بشاعة عن دور أية فرقة من الفرق السنفالية

(١٨) — D. Chevallier « Les Arabes et la fin du peuple juif de Friedmann » — Annales — 1966 — P. 1325.
(١٩) — M. Suleiman « Political parties in Lebanon » — P. 20; et Thorossian « L'histoire de l'Arménie » — P. 158; et A. Mandelstam « La Société des Nations et les puissances devant le problème arménien » — Consultation.
(٢٠) — M. Suleiman — Ibid — P. 20.

العاملة في تلك الجيوش . ان اثر دعاء هذا التيار كان قويا طيلة ايام الانتداب ، وبتشجيع مباشر من سلطته بالذات . ووقعت جماهير الارمن ، نتيجة ذلك ، فريسة استغلال بشع من جانب الراسماليين ، الاجانب والمحليين ، واستطاعت سلطة الانتداب ابقاء اعداد كبيرة من الارمن رديفا واحتياطيا أساسيا لسياستها القمعية .

اما التيار الثاني فهو ديمقراطي ، ليبرالي ، اشتراكي على درجات متفاوتة . وقد دعا قاداته الى الاشتراك في نضالات الجماهير المحلية في البلدان التي يعيش فيها الارمن . كما دعا الاشتراكيون العلميون الى الانخراط في الاحزاب الشيوعية المحلية والعمل في داخلها . وقد تجسدت هذه الدعوة عمليا بالانضمام المباشر « لشبيبة سبارتاك الارمنية » الشيوعية التي أعلنت حل نفسها والانضمام الى الحزب الشيوعي اللبناني السوري فور معرفتهم بوجود هذا الحزب بعد مهرجان اول ايار ١٩٢٥ في بيروت . وقد عبّر ارتين مادويان عن هذا التيار بالقول : « ان الطريق الوحيد لحماية الارمن في سوريا ولبنان وجميع البلدان العربية هو طريق وحدة النضال الى جانب الشعوب العربية التي تقاوم الامبريالية بضراوة من أجل تحريرها واستقلالها » (٢١) .

ان دعاء هذا التيار ومناصريهم كانوا قليلي العدد لكنهم بالغوا النشاط . وقد اعترف لويس جالابر ، من أبرز الفرنسيين المؤيدين لسياسة الانتداب في سوريا ولبنان ، بهذه الحقيقة حين قال :

« ان الحياة السياسية بين المهاجرين الارمن كانت تدور في فلك الاحزاب الثلاثة . وكان الطاشناق والرامغافار معارضين للسلطة السوفياتية في أرمينيا ، في حين كان الثالث ، اي الهانشاق ، يؤيد سياسة موسكو . فالهجرة الارمنية اذا كانت تحمل في أحشائها خلايا بولشفيكية نشيطة ، فاعلة ، قليلة العدد لكنها بالغة الديناميكية » (٢٢) . الا ان جالابر لم يستطع التمييز بين الهانشاق وشبيبة سبارتاك المنشقة عنه ، تلك الشبيبة وحدها التي يصح وصفها بالنشاط والفاعلية والديناميكية ، والتي سارع الهانشاق نفسه الى حلها والتبرؤ من أعمالها . لذا يجب التمييز بين الهانشاق كحزب ديمقراطي اشتراكي محافظ ، وشبيبة سبارتاك الارمنية التي شكلت فصيلا أساسيا داخل الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان .

٣ - شبيبة سبارتاك الارمنية رافد اشتراكي آخر ضد الانتداب

كانت أولى بوادر الفكر الاشتراكي العلمي داخل صفوف الارمن في سوريا ولبنان تلك التي تمت مع ولادة « اتحاد الطلاب الهانشاق » الذي أنشئ على غرار

(٢١) A. Madéyan « De l'histoire de notre presse publiée au Liban et en Syrie » « Nor-Paros » « La Nouvelle Phare » — No. I — Juin 1925.

(٢٢) L. Jalabert « La Syrie et le Liban, réussite française ? » — P. 130.

الاتحاد المماثل له في أضنه ، داخل صفوف الارمن هناك . وقد أنشأ هذا الاتحاد في بيروت مجموعة من الطلاب الارمن . وكان سكرتيره العام ارتين مادويان . وقد اتخذ هذا الاتحاد اتجاها يساريا واضحا مما دفع قادة حزب الهانشاق الى حل هذا الاتحاد في اواخر عام ١٩٢٣ والطلب الى المسؤولين عنه بتسليم المستندات والوثائق التي بحوزتهم للقيادة الهانشاقية (٢٣) . بيد ان التجمع اليساري في الاتحاد سرعان ما قام بحل نفسه وجميع ارتباطاته بحزب الهانشاق والاعلان عن قيام اتحاد جديد باسم « شبيبة سبارتاك » متخذا اتجاها شيوعيا واضحا ويسير على خطى الاممية الشيوعية ويتخذ من « الشبيبة الشيوعية » في أرمينيا السوفياتية مثاله الأعلى . وانتشرت شبيبة سبارتاك وأسست لها فروعاً في بيروت وزحلة وحلب وجبل موسى . وكان من أبرز قادتها آنذاك : آرام يرتيزيان رئيسها ، وارتين مادويان سكرتيرها العام في بيروت ، وهيكازون بويادجيان وكريكور تاتيان في زحلة ، وماسيس بانوسيان وستراك هاكازيان في حلب ، وبانوس أرماسيان وأغوب دربدروسيان في جبل موسى (٢٤) .

لقد رفعت شبيبة سبارتاك ، منذ البداية ، راية الدفاع عن الحقوق الديمقراطية والقومية للأرمن في سوريا ولبنان ، وناضلت في سبيل تحسين أوضاعهم المعيشية البالغة السوء في المخيمات ، ونادت بوحدة الارمن في لبنان وسوريا والعالم أجمع حول الوطن الام : أرمينيا السوفياتية (٢٥) .

وفي كانون الاول ١٩٢٤ بعثت قيادة سبارتاك برسالة الى الحزب الشيوعي الفرنسي تعلمه فيها بقيام هذه الشبيبة المناضلة الشيوعية وتطلب منه المساعدة التنظيمية والثقافية . وقد تلقت القيادة رسالة جوابية في اواخر هذا الشهر موقعة من لويس سيليه Louis Sellier ، الامين العام للحزب الشيوعي الفرنسي بالذات تؤكد وقوف الحزب الى جانب الشبيبة ودعمها بجميع الوسائل المتوفرة لديه (٢٦) . وفي أوئل عام ١٩٢٥ توجهت شبيبة سبارتاك بالرسالة التالية الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية وبرسالة مماثلة الى اللجنة المركزية للكومسومول او الشبيبة الشيوعية الارمنية . وهذه ترجمتها العربية (٢٧) :

بيروت في ٨ كانون الثاني ١٩٢٥

الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا — يريفان .

(٢٣) ارتين مادويان — مقابلة خاصة .

(٢٤) A. Madéyan « Quelques notes sur la formation du Parti Communiste au Liban et en Syrie... » — Documents privés ronéotypés — P. 2.

(٢٥) A. Madéyan « De l'histoire de notre presse au Liban et en Syrie... » — article paru dans Haratch le 26-7-1964.

(٢٦) ارتين مادويان — مقابلة خاصة .

(٢٧) وثيقة خاصة مترجمة عن النص الارمني الى اللغة الفرنسية . وقد تلقت الشبيبة رسالة جوابية من « كومدين » رئيس الكومسومول في أرمينيا السوفياتية ، يبيد استعداد شبيبتها للمساعدة في دعم نضال شبيبة سبارتاك . والرسالة مكتوبة بالارمنية وعدد صفحاتها ثمانية ومنتزعة الى الفرنسية .

» ايها الرفاق .
 » منذ عدة أشهر قامت مجموعتنا المؤلفة من بعض الشبان المنشقين عن اتحاد
 » طلاب الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، حزب الهانشاق في بيروت ، بتأسيس
 » اتحاد شبيبة سبارتاك الارمنية . ولم تمض فترة طويلة حتى التف حولنا
 » مجموعات جديدة من شبيبة الهانشاق والشبيبة غير المنظمة سياسيا ، مما اتاح
 » لنا تثبيت اقدامنا بالرغم من جميع الصعوبات التي وضعت لعرقلة نشاطنا .
 » ان اتحادنا هذا هو مجموعة عناصر بروليتارية من عمال وطلاب وموظفين .
 » وقد وضع الاتحاد في رأس اهدافه جمع الشبيبة العاملة في المستعمرات تحت
 » راية الكومنترون وتربيتها سياسيا بايديولوجية وتكتيك الكومنترون ، وشحنها
 » بالروح الطبقية ، وتنظيمها كفضيل مناضل من فصائل البروليتاريا الاممية
 » في الشرق .
 » ان تسمية شبيبتنا باسم « سبارتاك » بدل الشبيبة الشيوعية ، فرضتها
 » علينا ظروف النضال المحلية الناجمة عن فقدان حزب شيوعي في سوريا .
 » ونحن ، كلاجئين هنا ، قد اخترنا هذه التسمية كي لا تسعى القوى المفرقة في
 » رجعتها الى ضرب تحركنا منذ البداية ، ومحاربتنا على الصعيدين الوطني
 » والديني وتحريض العمال المحليين علينا .
 » الرجاء امدادنا بالتوجيهات الضرورية وبالدراسات الثقيفية الحزبية . كما
 » نود ابلاغكم اننا أجرينا عدة اتصالات مع الحزب الشيوعي الفرنسي ومع
 » جماعة العمل الارمنية » .

» فاقبلوا في الختام تحياتنا الرفاقية الحارة

» عن لجنة اتحاد شبيبة سبارتاك

الرئيس
 السكرتير
 ارام يراتريان ارتين مادويان «

وقد كتبت مجلة « Banvor-Paris » الارمنية او « باريس العامل » مقالا
 تحت عنوان « حياة الارمن في الخارج » لمراسلها في سوريا ، جاء فيه « تأسس
 هنا منذ عدة أشهر اتحاد الشبيبة اللينينية باسم « شبيبة سبارتاك » بمبادرة قام
 بها فريق من الطلاب المنشقين عن اتحاد طلاب حزب الهانشاق . وقد حصل
 الانشقاق انطلاقا من موقف طبقي واضح ... وبالرغم من جميع الاستفزازات
 والملاحقات البوليسية التي لجأ اليها حزب الطاشناق ، وبالرغم من جميع العقوبات
 الاخرى ، فان « شبيبة سبارتاك » لا تنفك تفتني بأعداد جديدة من شبيبة
 الهانشاق واللاحزيين وحتى من شبيبة الطاشناق بالذات . وقد بدأت شبيبة
 سبارتاك كذلك تنظيم ندوات ثقافية جماعية يوم الاحد من كل اسبوع » (٢٨) .

— Banvor-Paris ou « Paris-Ouvrier » — Traduit en français — No. 29 — du 15 Mars 1925.

ولعل شبيبة سبارتاك هي أول محاولة تنظيمية شيوعية ، متصلة بالاممية ،
 تقوم على أرض لبنان وسوريا . بيد ان جهل الارمن باللغة العربية ، واللبنانيين
 والسوريين باللغة الارمنية ، ومراقبة سلطات الانتداب لجميع التحركات السياسية
 المناوئة لها تحت ستار « محاربة الشيوعية » ، ابقى هذا التيار الاشتراكي العلمي
 محصورا داخل نطاق تجمعات صغيرة من شبيبة الارمن في سوريا ولبنان دون ان
 تتمدهم . وهذا ما جعل هؤلاء الارمن الاشتراكيين يترقبون ظهور أول تيار
 اشتراكي علمي لبناني للانخراط فيه والعمل معه . ولم تكن لشبيبة سبارتاك أية
 صلات بالمحاولات الجارية في صفوف اللبنانيين لتأسيس حزب شيوعي او بولشفيكي
 في سوريا ولبنان (٢٩) . وقد تأخر قيام تعاون مشير ومشترك بين جناحي الاشتراكيين
 العلميين المتواجدين سوياً على أرض لبنان حتى مهرجان الكريستال في أول ايار
 ١٩٢٥ . اما اسم سبارتاك فقد رافق الحركة الشيوعية في صفوف الارمن فترة
 طويلة . كما أصدرت جريدة « شبيبة سبارتاك » عديدين في عام ١٩٢٧ كرس الأول
 لثورة ١٩٠٥ الروسية والثاني بعنوان « مات لينين ، عاشت اللينينية » (٣٠) .

دور ساراي في تفتيت الجبهة الموالية للانتداب

جاءت انتخابات ١١ ايار ١٩٢٤ الفرنسية بكارثيل اليسار الى السلطة الذي
 عهد الى الجنرال ساراي بمفوضية بيروت . وكان تعيين ساراي كافياً لبث الرعب
 في نفوس اليسوعيين والاكليروس اللبناني لما عرف عنه من عداء شديد لرجال
 الدين . وبمعنوان « ساراي عدو الثوب الاسود » كتب اسكندر رياشي يقول :
 « وكان أول عمل قامت به حكومة المتطرفين (في باريس) استدعاء وبقان من سوريا
 ولبنان وتعيين الجنرال ساراي ، أحد أركان الحزب المتطرف وعدو الثوب الاسود
 الأكبر ، مفوضاً سامياً في البلدين ... ووقع الهم في ركاب السكرتيرية بأجمعهم ،
 وهم يعرفون ان ساراي ، اذا لم يحبسهم حالا ، فهو سريمهم بالبحر لأنه يعرف
 انهم صنائع الجزويت والعازاريين والفرير والمطارين والكهنة ... » (٣١)
 وكان ساراي يتهم بالتعصب الاعمى ضد اليسوعيين وبأنه من الماسونيين .
 « وقام اليسوعيون يعبئون بطارياتهم بوجه ساراي المتعصب ، الملحد ... وفرضوا
 على تلامذة مدارسهم دقيقة صمت حزناً على الديمقراطية ، وبدأت جرائدهم حملة
 مباشرة ضد المفوض السامي الجديد ... وبدأوا بارسال العرائض والاحتجاجات
 الى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزرائها والوزراء والنواب والشخصيات
 البارزة ، قبل مجيء ساراي بالذات . واستقبلته شبيبة اليسوعيين بالهتاف لويقان
 بدلاً من الهتاف له » (٣٢) .

(٢٩) ارتين مادويان — مقابلة خاصة .
 (٣٠) A. Madéyan « Quelques notes sur la formation du Parti Communiste... » P. 6.

(٣١) الرياشي — « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ٢١ — ٢٢ .

(٣٢) فرنسوا خوري « ذكريات » ص ٨١ .
 et La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 101-107.

فهل استعجل اليسوعيون فتح المعركة ضد ساراي ام كانوا على علم بما سيقوم به مسبقاً ؟ ان ما يهمنا تاريخياً في هذا المجال ان اليسوعيين فتحوا ثغرة واسعة ، وللمرة الاولى ، بين ادارة الانتداب واخلص أعوانها في الداخل ، اي اليسوعيين ورجال الدين المسيحيين . هذه الثغرة استفاد منها كثيرا انصار الليبرالية ، والماسونيون ، والنقابيون والاشتراكيون اللبنانيون . « فنتيجة للهجوم العنيف الذي بادره به اليسوعيون قبل مجيئه الى بيروت ، لم يجد ساراي أمامه سوى الراديكاليين والاشتراكيين والماسونيين للتعاون معهم » (٢٣) . وقام ميشال زكور ، صاحب جريدة « المعرض » ، يؤسس حزبا يطلق عليه « حزب الشبيبة اللبنانية » في أواخر ١٩٢٤ بالذات ، على اثر اعلان ساراي « جئت من فرنسا لتنفيذ أحكام صك الانتداب لا أكثر ولا أقل » . لذا رفع هذا الحزب الشعارات التالية :

- ١ - تأييد حق الشعب اللبناني بانتخاب رئيس لبناني لحكومته الوطنية كما أعلن الجنرال المفوض السامي ساراي .
- ٢ - التثبيت بالقانون الاساسي (الدستور) للدولة اللبنانية وتخويل الامة حق وضعه .
- ٣ - شكر الدولة المنتدبة على تحقيقها ، بلسان مفوضها السامي ، احد الاماني اللبنانية « (٢٤) » .

وتألف حزب آخر في آذار ١٩٢٥ برئاسة فارس مشرق ، وهو « حزب الرابطة اللبنانية » . ووضع هذا الحزب نفسه ايضا بتصرف الجنرال ساراي ، وجعل شعاره « مع فرنسا المنتدبة من أجل تقدم لبنان الكبير » (٢٥) . كما استغل الماسونيون ، من جهتهم ، تلك الليبرالية ، ليلعبوا دورا بارزا أيام ساراي . ويؤكد محمد جميل بيهم (٢٦) ، رئيس المؤتمر الماسوني العام ، المعروف بفحفل قاسيون ، والذي عقد في دمشق في تلك الفترة ، ان هذا المؤتمر ضم ١٧ محفلا من سوريا ولبنان وفلسطين ، وكان سعيد صباغة وجبران تويني من أعضاء اللجنة التنفيذية لهذا المؤتمر . ويقول بيهم ان في بيروت وحدها كان يوجد ٨ محافل منها الاتحاد والسلام والفرنسي والمصري والاسكتلندي . كما أكد ايضا ان ساراي نفسه كان ماسونيا . لذا كانت ردة الفعل عنيفة لدى الجزويت في هذا المجال ، فانشاوا عصابات مهمتها التعرض للماسونيين واهانتهم وتهديم مراكز محافلهم . ويؤكد الدكتور آدمون رباط (٢٧) انه كان في شبابه أحد أعضاء تلك العصابات التي شكلها اليسوعيون في مدارسهم ببيروت . وزاد في تأزيم الموقف ان ساراي كان يرفض دوماً حضور احتفالات اليسوعيين التقليدية ويرفض حضور الاحتفالات الدينية

— Ibid — P. 92.

(٢٣)

(٢٤) اوردته جريدة البشير — العدد ٣٢٧٤ تاريخ — ١٠ كانون الثاني ١٩٢٥ .

(٢٥) الحارس — العدد ١٧ — ١٨ أيار ١٩٢٥ — ص ٧ .

(٢٦) مقابلة خاصة — راجع ايضا عبد الله حنا « الحركة العمالية في سوريا ولبنان » ص ١٠٢ .

(٢٧) مقابلة خاصة .

للكنيسة المارونية ، كما يرفض الذهاب الى بكركي . لقد زاد ساراي ، بسياسته تلك ، من اتساع ثغرة الخلاف بين ادارة الانتداب والموالين لها داخليا حتى اضطرت حكومة باريس للتدخل فصالحت بين ساراي وبكركي . واطلق ساراي عبارته المشهورة « ان باريس تستأهل قداسا » . غير ان تلك المصالحة لم تطل في عمر حكم ساراي هنا فجاء اندلاع الثورة السورية وقصفه البربري لمدينة دمشق ، بعد قمعه الوحشي لمظاهرة بيروت تجبر حكومة الكارتيل على سحب جنرالها « الاحقر » الماسوني ، الملحد ... » .

النضال الديمقراطي ضد الانتداب

١ - الحزب الشيوعي يقود بالسراي خطى حزب الشعب اللبناني

كانت معامل لف السجائر واسعة الانتشار في بسكنتا وبكفيا وبيت شباب وانطلياس والخنشارة وضهور الشوير والشيخ وزحلة وغيرها . وكانت مؤسسات قاصوف ، صوايا وغيرهما أكبر مراكز تلك التجمعات الصناعية اللبنانية للف التبغ برساميل لبنانية محلية . وقد أضحت تلك المعامل مراكز لتجمع العمال في معظم المناطق القريبة من بيروت بحيث ارتفع تعدادهم الى حوالي الالفين ، مما أفسح المجال امام تأسيس « نقابة عمال التبغ » في لبنان في أواخر تموز - أوائل آب ١٩٢٤ والتي سرعان ما أسست لها فروعا في معظم المعامل . وكانت بكفيا المركز الرئيسي لتلك النقابة التي كان يديرها مجلس مستشارين بقيادة فؤاد الشالي ، وهو لبناني هاجر الى مصر وشارك هناك في نضالات الطبقة العاملة المصرية وأصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري يوم طردته السلطات البريطانية الى لبنان في عام ١٩٢٣ .

وكان لنقابة عمال التبغ أثر كبير بين عمال التبغ في لبنان وبلغ من نفوذها ان نجحت باقامة اول لجنة للتنظيم النقابي الشامل للطبقة العاملة اللبنانية فأسست، منذ تشرين الاول ١٩٢٥ ، الكوميسيون النقابي او « اللجنة النقابية العليا » التي ضمت مندوبين عن عمال التبغ والطباعة والطهارة والنجارة والسكاكين والسائكين وغيرهم . وكان أبرز قادة نقابة عمال التبغ : فؤاد الشالي ، وفريد طعمه ، وبطرس حشيمه ، وبشارة كامل وغيرهم ، والتف حولهم مجموعة من المثقفين الديمقراطيين الذين آمنوا بدور الطبقة العاملة الاساسي في النضالات المطالبة والسياسية والوطنية وكان على رأسهم يوسف ابراهيم يزبك ، ونمر هبه ، نقيب المحامين سابقا ، وشفيق مظهر ، طبيب أسنان وغيرهم (٢٨) .

وكان يوسف يزبك قد أقلع عن « البكاء » في الصحافي التائه وبدأ كتاباته

(٢٨) يوسف يزبك ، وارتين مادويان . مقابلات خاصة .

عن الاشتراكية منذ أوائل ١٩٢٣ وظهر له مقال هام حول « الاشتراكية في لبنان » (٢٩) بمناسبة الاول من ايار لهذا العام . وكانت جريدة « المعرض » ، لميشال زكور ، تحتضن هؤلاء المثقفين . وجاءت صداقة يزبك مع فؤاد الشمالي الحميمية لتزيده حماسا للأفكار الشيوعية والمناذاة بها . وبمناسبة موت لينين كتب يزبك مقالا في المعرض في اواخر كانون الثاني ١٩٢٤ يقول : « وأخيرا مات الرفيق لينين ، الرجل الذي شغل العالم بأسره ، في حياته وفي مرضه وفي موته ... أن لينين ، الذي كان شبح الخوف والخطر لاوروبا وللعالم ، كان إله الحكومات البولشفيكية الواسعة الاطراف ، وظل يبع الدول وغول الحكومات حتى مات . وها قد تنفست اوروبا الصعداء في موته ولكن بدون أن تترحم عليه . على أن التاريخ سيقوم بهذه المهمة ... » (٤٠) .

وفي اواسط تشرين الاول ١٩٢٤ توفي أناتول فرانس فنعته المعرض بالكلمة التالية « مات هذا الاسبوع أناتول فرانس ، الرجل البولشفيك الحقيقي والكاتب الانساني العظيم . وكان للنعي صداه في لبنان فقام كتابه الاشتراكيون يودعون الراحل الكبير » (٤١) . وقال فيه راجي الراعي : « ستجتمع بعد اليوم بهيجو ، وسيحدث اليك بيرن ، وسيقبل جيبينك فرجيل » (٤٢) . أما يوسف يزبك فكتب يقول : « مات صديق الفلاحين والعمال ، مات صديق المظلومين والفقراء ، مات صديق الحرية ورسولها ... » (٤٣) .

ان تلك المقالات كانت فاتحة تعارف بين يوسف ابراهيم يزبك ، مراقب جوازات السفر في مرفأ بيروت ، وجوزف برجر ، أحد قادة الحزب الشيوعي في فلسطين الذي كان في بيروت خلال تلك الفترة . وكان يزبك يقيم صلات قوية مع فؤاد الشمالي المطرود من مصر والعامل في صناعة لف السجائر في الحدث . وجرى لقاء موسع بين برجر ويزبك والشمالي ومظهر وهبه وقشعمي وطعمه والياس ابو نادر والحامي الياس جهشان ، في الحدث في ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٤ . وقد تحدث المجتمعون حول امكانية تأسيس حزب شيوعي واصدار جريدة يومية تنطق باللغة العربية وتحمل خط الحزب الى الجماهير . ولم يتقبل الفكرة سوى يوسف يزبك وفؤاد الشمالي وفريد طعمه والياس قشعمي وانضم اليهم بطرس حشيمة فيما بعد . وهكذا تم تأسيس اول حزب شيوعي في سوريا ولبنان من هؤلاء العمال الاربعة في معامل لف التبغ والمثقف الديمقراطي يوسف ابراهيم يزبك ولم يكن هناك اي تجمع شيوعي آخر بين عرب سوريا ولبنان ولم تكن هناك ايضا أية معرفة مسبقة بوجود شبيبة ارمنية شيوعية . فالارمن لا يعرفون اللغة العربية والعرب لا يعرفون اللغة الارمنية ، ولم تكن نشاطات شبيبة سبارتاك تتعدى نطاق اعداد صغيرة جدا

(٢٩) راجع : « المعرض » العدد ٥٨ الصادر في ٥ ايار ١٩٢٣ .

(٤٠) المعرض - السنة ٣ - العدد ٢٧٧ الصادر في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٤ - الانتاجية .

(٤١) المعرض - السنة الرابعة - العدد ٣٤٤ الصادر في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٤ .

(٤٢) المصدر السابق .

(٤٣) المعرض عدد ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٤ - راجع يزبك « حكاية اول نوار » ص ٥٩ .

من الشبيبة الارمنية دون سواها نظرا للعداء الشديد الذي جوبهت به من قبل سلطات الانتداب وحزب الطاشناق وحزب الهانشاق المنفصلة عنه حديثا ، ولم تكن لها القوة الذاتية التي تمكنها من نشر برنامجها وتكثيف وسائل عملها (٤٤) .

لقد قام الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان على اكتاف هؤلاء الخمسة الذين سارعوا الى توسيع نشاطه في صفوف عمال التبغ بشكل خاص وقرروا اتخاذ وجه علني لنضالهم تمثل بحزب الشعب اللبناني (٤٥) الذي اعتمد اساسا على نقابة عمال التبغ في توسيع نضاله داخل الحركة العمالية اللبنانية وقرر الاحتفال ، ولأول مرة في لبنان ، بعيد اول ايار ، عيد الطبقة العاملة العالمية (٤٦) . وكان هذا العيد فاتحة تعارف بين جناحين شيوعيين متواجدين سوياً على ارض لبنان : شبيبة سبارتاك الارمنية ، والقادة اللبنانيين الشيوعيين المستترين خلف حزب الشعب اللبناني . فقد عرف الارمن الشيوعيون بهذا الاحتفال من خلال الصحف اللبنانية . وقد تلاقى الفصيلان الشيوعيان بعد أيام قلائل من مهرجان الكريستال واتفقا على توحيد جهودهما في تنظيم سياسي واحد باسم الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا ضم المنظمين اللبنانية والارمنية . وقد تسمى الحزب بهذا الاسم - كما يقول اوتين مادويان ويوسف يزبك - بسبب الارتباط التاريخي والاقتصادي لسوريا ولبنان من جهة ، وبسبب وجود عدو واحد ومصلحة مشتركة في النضال الموحد ، ضد الفرنسيين . وقد تشكلت اللجنة القائدة لهذا الحزب من يوسف يزبك وفؤاد الشمالي ، وفريد طعمه ، وبطرس حشيمة ، واوتين مادويان ، وهيكازون بويادجيان وتسمت باللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان واستمر حزب الشعب الوجه العلني لنشاط الحزب الشيوعي السري .

ان حزب الشعب اللبناني ، الذي لم ينل ترخيصا رسميا بنشاطه ، لعب دورا اساسيا في نقل خط الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان الى جماهير الطبقة العاملة ، كما ساهم الكوميسيون النقابي (٤٧) ايضا في ايصال خط الحزب الى عمال الطباعة والطهارة والتجارة والسواقين والسكاكين بالاضافة الى عمال التبغ . لذا كان ضرب الحزب الشيوعي في نهاية هذا العام ، باعتقال ونفي خيرة مناضليه ، ضربة رئيسية لحزب الشعب اللبناني ولهذا الكوميسيون النقابي بالذات .

لقد ارتدى نضال حزب الشعب اللبناني طابع الدمج في الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا حتى يصعب تاريخيا التمييز بين نضالاتهما التي كانت واحدة بالفعل وان كان الفرز واضحا بين أعضاء حزب الشعب اللبناني الذين قبلوا بالتسمية الشيوعية والذين رفضوها . فالحزبان واحد في النضال العملي والتفاوت فقط في مستوى وعي الاعضاء وازدواجية انتسابهم في الحزبين .

(٤٤) راجعنا في هذا المجال يوسف يزبك واوتين مادويان .

(٤٥) يزبك ومادويان - مقابلات خاصة . راجع كتاب يزبك « حكاية اول نوار » ص ٦٥ وما يليها .

(٤٦) راجع مقالة يزبك في البلاغ « تمهيد اول ايار في لبنان » .

(٤٧) A. Madéyan « Des notes sur le mouvement syndical au Liban » - P. I. (٤٧)

تمت ولادة حزب الشعب اللبناني كوجه علني للحزب الشيوعي أو البولشفيكي اللبناني (٤٨) الذي بدأ نشاطه التأسيسي في أواخر تشرين الأول ١٩٢٤ . وقد تمركز قادة الحزب كطليعة نقابية لعمال التبغ في بكفيا والتي كان يشمل نشاطها الاغلبية الساحقة من عمال مصانع التبغ في لبنان .

وعندما أعلن ساراي عزمه على اقامة مجالس منتخبة ، لاقى التأييد التام من جانب حزب الشعب اللبناني الذي وجد في افتتاح ساراي على الليبراليين والعلمانيين والاشتراكيين فرصة طيبة للانتشار والتنظيم وطلب الترخيص الرسمي به .

ففي ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ، وجه يوسف يزبك ، والياس سرور ، وبشارة كامل ، وفارس معتوق ، ومخايل داود ابي حنا ، والياس قشعمي ، وبطرس حشيمة ، وفريد طعمه ، طلبا رسميا للترخيص لهم بانشاء « حزب الشعب اللبناني » هذا نصه مترجما عن الفرنسية (٤٩) :

« الى السيد حاكم دولة لبنان الكبير .

دولة الحاكم .

« ان الموقعين ادناه يتشرفون بأن يرفعوا الى مقامكم ما يلي :

« لقد اتفنا حزبا باسم « حزب الشعب اللبناني » هدفه الاسهام بكافة الوسائل

« لتطوير الصناعة والزراعة والتجارة في لبنان ، ولنشر روح الاخاء في صفوف

« الامة اللبنانية ، ولنع الاكليروس من توسيع نفوذه على حساب المصلحة العامة ،

« ولدعم المدارس الوطنية وتوحيد البرامج على اساس التعليم العلماني ، ولتجميع

« العمال والفلاحين في نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة . ان حزب الشعب

« اللبناني سيستخدم كامل نفوذه لاختضاع الرساميل والميراث للضرائب وكي تعتبر

« الاملاك الوقف املاكا وطنية تخضع لاشراف الحكومة ، كما يعمل الحزب على

« تحرير المرأة اللبنانية ...

« ان هذه البنود مفصلة في نظامنا الاساسي . ومقر الحزب بكفيا . وقد

« انتدبنا فريد طعمة لتمثيلنا لدى الحكومة ، ولن يكون لحزب الشعب رئيس .

« اعتمادا على ما لديكم من افتتاح على حزب الشعب اللبناني ونظرا لما عرف

« عنكم من روح تجريرية ، فنحن على ثقة تامة بأن طلبنا هذا سيجد استجابة

« تامة من مقامكم ... فاقبل ، يا دولة الحاكم ، جزيل احترامنا ... » .

ان برنامج حزب الشعب اللبناني هذا ، والذي لا يخلو من بصمات التوجه

العام لسياسة الجنرال ساراي خاصة في محاربة الاكليروس وملكية الاوقاف العامة

والتعليم العلماني ، يدل بوضوح على مستوى سياسي رفيع من حيث شموله برنامجا

(٤٨) يوسف ابراهيم يزبك - « قصة اول اول ايار في لبنان » مجلة البلاغ البيروتية - العدد ١٧ - الصادر في ١ ايار سنة ١٩٧٢ ص ٣٢ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٣٤ - ٣٥ - النص الفرنسي الذي ترجمته الى العربية .

نقابيا ، مطلبيا ، سياسيا ، دون المناداة علناً برفض الانتداب وسياسته بل كان يحاول اتخاذ وجه شرعي للنضال يخفي وراءه الحزب البولشفيكي ، كما يقول أحد مؤسسيه يوسف يزبك « كانت لنا قاعدة عمالية نخبية وراءها ونستتر بها ، اسمها « حزب الشعب اللبناني » ، وهو حزب الفئاه من الطبقة العاملة وحدها غطاء لحقيقتنا ، وأبدى فؤاد الشامي وفريد طعمه وفارس معتوق نشاطا كبيرا في ضم كثيرين من رفقاتهم عمال التبغ اليه من معامل بكفيا والشوير والخشارة والشيخ وما اليها » (٥٠) .

بيد ان هذا الحزب لم يحصل على الترخيص الرسمي بعمله وبقي محصورا ضمن الفئات المسيحية دون سواها ، كما يدل على ذلك لائحة مؤسسيه ، لان الحركة الوحدوية في لبنان الكبير بقيت ترفض التعاون مع الانتداب وجميع المعترفين بشرعيته والنضال من داخله ، واكتفوا بالمقاطعة والرفض لانتخابات المجلس التمثيلي في عام ١٩٢٢ ، ولضم المناطق الاربعة وبيروت وطرابلس الى لبنان الكبير (٥١) . وبقي رفض الحركة الوحدوية بهذا الشكل عائقا أساسيا في وجه تجميع القوى ذات المصلحة بضرب الانتداب والنضال لازاحته فعليا عن صدور اللبنانيين . ان حزب الشعب اللبناني كان أول من حاول تجميع القوى الوطنية ضد الانتداب الفرنسي متخطيا بذلك جميع الشعارات الطائفية والعنصرية التي كان يفذيها الانتدابيون بالذات .

اما نشيد حزب الشعب اللبناني فيدل بوضوح على تخطيه للطائفية والعنصرية اللتين كان الانتداب يحرص بشدة على تفذيتهما خاصة في صفوف الموارنة والارمن . كما يدل النشيد الذي نظم كلماته يوسف ابراهيم يزبك ، وكان الاعضاء ينشدون مقاطع منه في كل اجتماع ، فلا يخلو من الجراءة في دعواته لاعتناق الشيوعية . ونحن ، اذ نورد هذه المقاطع على مسؤولية راويها ، ننوه الى ان يزبك يصر على ان المقطع الاخير قد اضيف الى النشيد ولم يكن موجودا فيه أصلا . وتقول كلمات النشيد (٥٢) :

اللازمة :

« يحيى حزب الشعب فينا
واذا ما عاش يروى
رغم أنف الظالمين
بدماء الكادحين

□□□

(٥٠) يوسف يزبك - البلاغ - المصدر السابق ص ٣٢ .
(٥١) — Pierre Rondot « Les institutions politiques du Liban » — P. 48 .

(٥٢) وجدنا كلمات النشيد مكتوبة بدون توقيع بين اوراق محفوظات مجلة « الطريق » . وبعد الاتصال بالاستاذ يزبك اكد انها من تأليفه ونحن نوردتها ثقة منا بان الاستاذ يزبك مصدر موثوق من مصادر هذه الفترة .

لا نصارى لا يهود
لا دروز بل عهود
بالشأخي اجمعين
في الحمى لا مسلمين

لا نصارى لا يهود
لا دروز بل عهود
بالشأخي اجمعين
في الحمى لا مسلمين

□□□

انها الداء اللذيم
شعب لبنان الكريم

لا نريد الطائفية
فلتضم الشيوعية
اللازمة

□□□

اما المقطع المضاف ، حسب رأي الاستاذ بريك ، فيقول
عشنا دوما تحت نير
حطموه يا رفاقي
ثقله يضني النفوس
بالمطارق والفسؤوس
اللازمة

□□□

٣ - مهرجان الكريستال يرسخ دور حزب الشعب اللبناني في قيادة المعارضة

قرر الشباب التسعة ، الذين وقعوا عريضة للتريخ بحزب الشعب اللبناني، الاحتفال بعيد اول ايار ١٩٢٥ ولأول مرة في لبنان . واصدر الحزب دعوة للعمال يدعوهم فيها الى الاضراب ، وكان اول نداء من نوعه في لبنان (٥٣) . وجاء فيه :
« ان حزب الشعب اللبناني الذي أسسه عمال لبنان وفلاحوه ، وجعل من مطالبه الجهورية رفع الظلم عن الطبقة العاملة ، ينادي العمال في كل البلاد ليشتبكوا مع اعضاء الحزب في الاضراب عن العمل في يوم اول ايار الذي هو العيد الرسمي الوحيد لجميع عمال العالم ، ويرجو منهم ان يظهروا للرأسماليين والمتمولين انهم لا يشتغلون في اليوم المذكور احتجاجا على الاعتساف اللاحق بهم منهم ، وتأييدا للمطالب التي أقرها مندوبو العمال في العالم كله في مؤتمر باريس، عام ١٨٨٩ .
« نطلب من جميع العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية ان يتركوا اعمالهم في يوم اول ايار ويبرهنوا للمتمولين والاقطاعيين انهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات .

« يجب على جميع العمال الذين هم سعادة الوطن وساعد نجاحه ان يسمعو صوت تظلمهم عاليا في اول ايار ، ويشاركوا اخوانهم اعضاء حزب الشعب اللبناني في الاحتجاج على الحيف الواقع عليهم .

(٥٣) يزبك - المصدر السابق - ص ٣٢ . ويزبك « حكاية اول نوار ٠٠ » ص ٧٨ - ٧٩ .

- ٣٠٤ -

« فليحي العمال والفلاحون ، وليحي اول ايار !
اللجنة التنفيذية » (٥٤) .

وقد نشرت النداء جريدة الصحافي التائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ، كما نشرته « زحلة الفتاة » في نفس التاريخ ، وقد صدرت هذه الصحيفة في ذلك اليوم تحت هذا العنوان « نداء حزب الشعب اللبناني الى جميع العمال والفلاحين . حركة اشتراكية في بيروت » (٥٥) .

وفي الساعة العاشرة من اول ايار ١٩٢٥ ، وصلت الى سينما الكريستال في بيروت، مكان المهرجان، خمسون سيارة (٥٦) تقل وفود حزب الشعب اللبناني من القرى، مزينة برايات حمراء، وبعض رايات « لبنانية » وكانت القاعة ملاء بالعمال والفلاحين . وتكلم الرفيق (٥٧) وديع الشبخاني مبينا اسباب الاجتماع وحاجة العمال الى التكاتف والتضامن للمطالبة بحقوقهم المهضومة . ثم الرفيق حنا ابي راشد فتكلم عن وجوب تأليف نقابات العمال من العمال انفسهم ، ثم الرفيق الياس متى عن ضرورة ملحّة لاتحاد العمال في نقابات منظمة ، ثم الرفيق فؤاد الشمالي الذي قال « علينا ان نتحد داخل النقابات ، عليكم ايها الاخوة ، ان تحذروا الدخلاء الذين يندسون بينكم .. اطردهم باحتقار من صفوفكم .. يجب ان يكون نوابنا من طبقتنا . ان العمال طبقة لها الحق في الحياة الحرة كغيرها من الطبقات . لننتد ايها الاخوة ، ولننتهف بصوت واحد : ليحي العمال ! ليحي الفلاحون ! ليحي اول ايار ! وليسقط الطفاة » (٥٨) .

ثم تكلم الرفيق هنري الجميل واصفا حياة العامل وشقاءه . ثم القى الرفيق الياس ابو شبكة قصيدة نارية بعنوان « العامل الثائر » جاء فيها وصف لكبار الموظفين اللبنانيين الراحين في خدمة المستعمر !

« فهم الذئاب وفي سبيل وظيفة
تمشي اظافرهم على اكباده
من يسترق قوما يعيش بهمالم
فلتبصق الدنيا على الحاده » (٥٩)

ثم تكلم الصحافي خير الله خير الله بالعامية فقال « شوفوا فوق ، تطلعوا للسما ... شو في بين رؤوسكم والله ؟ ما شي . ما في شي ابدأ ... ليش الأقوياء بدهم يفصلوا بين رؤوسكم والسما ؟ » ثم تكلم الرفيق يوسف يزبك عن تاريخ اول ايار ومؤتمرات العمال في العالم وبسط مطالبهم التي يجب ان يرفعوها الى الحكومة . والقى الصحافي شكري بخاش خطابا جاء فيه « ان كل الانسانية سائرة نحو مبادئ فولتير وروسو وكارل ماركس » (٦٠) . وبدأت جريدته « زحلة الفتاة » تصدر،

(٥٤) المصدر السابق - ص ٣٢ - والصحافي التائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٥) راجع « زحلة الفتاة » عدد ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٦) يزبك - المصدر السابق - ص ٣٣ .

(٥٧) يقول يزبك بان الحزب وزع بيايه على الصحف وفيه كلمة رفيق امام معظم الخطباء - المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥٨) الانسانية - العدد الاول الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٥ .

(٥٩) البلاغ - المصدر السابق ص ٣٣ .

(٦٠) زحلة الفتاة - عدد ايار ١٩٢٥ .

- ٣٠٥ -

لا نصارى لا يهود
لا دروز بل عهود
بالآخي اجمعين
في الحمى لا مسلمين

لا نصارى لا يهود
لا دروز بل عهود
بالآخي اجمعين
في الحمى لا مسلمين

□□□

انها الداء الذميم
شعب لبنان الكريم

لا نريد الطائفية
فلتضم الشيوعية
اللازمة

□□□

اما المقطع المضاف ، حسب رأي الاستاذ يزبك ، فيقول
عشنا دوما تحت نير
حطموه يا رفاقي
بالطارق والفسوس
ثقله يضني النفوس
اللازمة

□□□

٣ - مهرجان الكريستال يرسخ دور حزب الشعب اللبناني في قيادة المعارضة

قرر الشباب التسعة ، الذين وقعوا عريضة لترخيص بحزب الشعب اللبناني، الاحتفال بعيد اول ايار ١٩٢٥ ولأول مرة في لبنان . واصدر الحزب دعوة للعمال بدعوتهم فيها الى الاضراب ، وكان اول نداء من نوعه في لبنان (٥٢) . وجاء فيه :
« ان حزب الشعب اللبناني الذي أسسه عمال لبنان وفلاحوه ، وجعل من مطالبه الجوهرية رفع الظلم عن الطبقة العاملة ، ينادي العمال في كل البلاد ليشتبكوا مع اعضاء الحزب في الاضراب عن العمل في يوم اول ايار الذي هو العيد الرسمي الوحيد لجميع عمال العالم ، ويرجو منهم ان يظهروا للرأسماليين والتمولين انهم لا يشتغلون في اليوم المذكور احتجاجا على الاعتساف اللاحق بهم منهم ، وتأييدا للمطالب التي أقرها مندوبو العمال في العالم كله في مؤتمر باريس، عام ١٨٨٩ .
« نطلب من جميع العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية ان يتركوا اعمالهم في يوم اول ايار ويبرهنوا للتمولين والاقطاعيين انهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات .

« يجب على جميع العمال الذين هم سعادة الوطن وساعد نجاحه ان يسمعوها صوت تظلمهم عاليا في اول ايار ، ويشاركوا اخوانهم اعضاء حزب الشعب اللبناني في الاحتجاج على الحيف الواقع عليهم .

(٥٣) يزبك - المصدر السابق - ص ٣٢ . ويزبك « حكاية اول نوار .. » ص ٧٨ - ٧٩ .

« فليحي العمال والفلاحون ، وليحي اول ايار !
اللجنة التنفيذية » (٥٤) .

وقد نشرت النداء جريدة الصحافي الثائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ، كما نشرته « رحلة الفتاة » في نفس التاريخ ، وقد صدرت هذه الصحيفة في ذلك اليوم تحت هذا العنوان « نداء حزب الشعب اللبناني الى جميع العمال والفلاحين . حركة اشتراكية في بيروت » (٥٥) .

وفي الساعة العاشرة من اول ايار ١٩٢٥ ، وصلت الى سينما الكريستال في بيروت ، مكان المهرجان ، خمسون سيارة (٥٦) تقل وفود حزب الشعب اللبناني من القرى ، مزينة برايات حمراء ، وبعض رايات « لبنانية » وكانت القاعة مملوءة بالعمال والفلاحين . وتكلم الرفيق (٥٧) وديع الشبخاني مبينا اسباب الاجتماع وحاجة العمال الى التكاتف والتضامن للمطالبة بحقوقهم المهضومة . ثم الرفيق حنا ابي راشد فتكلم عن وجوب تأليف نقابات العمال من العمال انفسهم ، ثم الرفيق الياس متى عن ضرورة ملحة لاتحاد العمال في نقابات منظمة ، ثم الرفيق فؤاد الشمالي الذي قال « علينا ان نتحد داخل النقابات ، عليكم ايها الاخوة ، ان تحذروا الدخلاء الذين يندسون بينكم .. اطردهم باحتقار من صفوفكم .. يجب ان يكون نوابنا من طبقتنا . ان العمال طبقة لها الحق في الحياة الحرة كغيرها من الطبقات . لتتحد ايها الاخوة ، ولننتهف بصوت واحد : ليحي العمال ! ليحي الفلاحون ! ليحي اول ايار ! وليسقط الطفاة » (٥٨) .

ثم تكلم الرفيق هنري الجميل واصفا حياة العامل وشقاءه . ثم القى الرفيق الياس ابو شبكة قصيدة نارية بعنوان « العامل الثائر » جاء فيها وصف لكبار الموظفين اللبنانيين الزاحفين في خدمة المستعمر !

« فهم الذئاب وفي سبيل وظيفة
تمشي اظافرهم على اكباد
من يسترق قوما يعيش بمالهم
فلتبصق الدنيا على الحاده » (٥٩)

ثم تكلم الصحافي خير الله خير الله بالعامية فقال « شوفوا فوق ، تطلعوا للسما ... شو في بين رؤوسكم والله ؟ ما شي . ما في شي ابدا ... ليش الأقوياء بدهم يفصلوا بين رؤوسكم والسما ؟ » ثم تكلم الرفيق يوسف يزبك عن تاريخ اول ايار ومؤتمرات العمال في العالم وبسط مطالبهم التي يجب ان يرفعوها الى الحكومة . وألقى الصحافي شكري بخاش خطابا جاء فيه « ان كل الانسانية سائرة نحو مبادئ فولتير وروسو وكارل ماركس » (٦٠) . وبدأت جريدته « رحلة الفتاة » تصدر ،

(٥٤) المصدر السابق - ص ٣٢ - والصحافي الثائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٥) راجع « رحلة الفتاة » عدد ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٦) يزبك - المصدر السابق - ص ٣٣ .

(٥٧) يقول يزبك بان الحزب وزع بيباه على الصحف وفيه كلمة رفيق امام معظم الخطباء - المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥٨) الانسانية - العدد الاول الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٥ .

(٥٩) البلاغ - المصدر السابق ص ٣٣ .

(٦٠) رحلة الفتاة - عدد ايار ١٩٢٥ .

٤ - حزب الشعب اللبناني يتجه نحو تجذير المطالب الاجتماعية

ان النجاح المنقطع النظير الذي أصابه مهرجان الكريستال في اول ايار ١٩٢٥، خلق جواً حماسياً عارماً في اجتماع اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني. وقررت توسيع نشاطها بحيث يشمل جميع الروافد الوطنية الاخرى. وقرر اصدار جريدة تنطق باسم الحزب البولشفيك وترفع شعاراته الاشتراكية صراحة. وتشكلت لجنة مركزية جديدة بصورة مؤقتة من فؤاد الشمالي ويوسف يزبك وأرتين مادويان وهيكازون بوياجيان والياهو تيير ممثل الاممية الشيوعية في الشرق الاوسط والياس أبو ناضر (٦٦).

وبالفعل جرى اصدار جريدة «الانسانية» التي ظهر عددها الاول في ١٥ ايار ١٩٢٥ وتولى اصدارها يوسف ابراهيم يزبك كوسيلة اعلامية لنشر خط الحزب. وتسمية «الانسانية» بهذا الاسم مقتبس دون شك عن جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي «الامانيته» أو الانسانية. وجاء في عددها الاول: «الانسانية جريدة الطبقة العاملة. انشئت هذه الجريدة لخدمة العمال والفلاحين والمدافعة عن حقوقهم واسماع السلطات الحاكمة من افرنسية و «وطنية!» (٦٧) ورأسمالية صوت تظلمهم. ولا نبالي بالمبادئ السياسية ولا الاجتماعية ولا الادبية ولا الدينية على اختلاف نزعاتها اذا كانت لا تهم العمال والفلاحين. ولا نعتزف بسلطة من السلطات الرجعية المسيطرة الا اذا كانت تحترم حقوق العمال والفلاحين. وننظر الى العالم كفتين: فئة فقيرة عاملة هي الاكثرية المطلقة فنخدمها وندافع عنها، وفئة غنية كسولة مستبدة معدودة رجالها فنحاربها ونقوم عليها. شعارنا دوماً: ايها العمال والفلاحون اتحدوا» (٦٨).

لقد جاءت «الانسانية» - كما يقول جاك كولان، في الوقت المناسب، في يوم اخذ فيه اكثر العمال اللبنانيين استنارة يتلمسون طريقهم النضالي الصحيح» (٦٩). وسرعان ما بدأت حملة واسعة قامت بها النقابات لتطهير أنفسها طبقياً على اساس الوعي الجديد الذي بدأ يتبلور في صفوفهم كطبقة ذات وجود مستقل، وأخذت النقابات تتخلص من البكوات والأمراء والزعماء الدخيلين عليها، وبدأ فؤاد الشمالي سلسلة مقالات تدعو الى انشاء اتحاد للنقابات متجانسة اجتماعياً تحت عنوان «كيف هي نقابتنا الآن وكيف يجب ان تكون» وجاء في المقال الاول «... ومما هو أشد غرابة وأدعى الى الدهشة، ويدل دلالة واضحة على عدم فهم معنى النقابة عندنا ان كل هذه النقابات «الاسمية» تضم العمال وأصحاب العمل... فيا للخجل! والذي هو أشد ايلاماً ونكاية والذي يسجل الجهل المطبق على عمال هذه البلاد ان البعض منهم يجتمع تحت سقف واحد مع الملاكين الممولين والوجهاء الرأسماليين!!

(٦٦) س ايوب - الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان - ص ٦٨.

(٦٧) صيغة التهكم هنا للجريدة.

(٦٨) الانسانية - العدد الاول الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٥ - الصفحة ٤.

— J. Couland — op. cit — P. 116.

(٦٩)

منذ ذلك التاريخ وعليها شعار «جريدة يومية علمانية اشتراكية» (٦١). وفي نهاية المهرجان انتخبت لجنة من خمسة وعشرين (٦٢) عاملاً لمتابعة المطالب التي أقرها الحاضرون بالهتاف. وانتدبت اللجنة وفداً عنها من ثمانية رفاق يرفع للحاكم «مطالب اول ايار» ويطلب رخصة تأليف نقابة عامة لجميع العمال. وتحددت مطالب اول ايار كما يلي:

١ - تحديد أوقات العمل اليومي ثماني ساعات.

٢ - تحديد ادنى الأجور التي يجب ان تكون كافية لمعيشة العامل.

٣ - سن نظام يحمي العمال.

٤ - أصحاب العامل مسؤولون عن كل حادث يقع على العامل اثناء شغلته وتكون تربية الاطفال ومعيشة المشوهين بسبب عملهم على عاتق الهيئة الاجتماعية وأصحاب العمل.

٥ - منع الشغل الليلي.

٦ - احياء المشاريع الاقتصادية.

٧ - ابقاء قرار لجنة الأجور سارياً على العمل» (٦٣).

وقامت اللجنة المكونة من الياس متى، جبران نفاع، غطاس كرم، نمر هبه، حنا ابي راشد، وديع الشبخاني، فؤاد شمالي، يوسف يزبك (٦٤)، بمقابلة حاكم لبنان ورفع تلك المطالب اليه فوعد بتنفيذ البعض منها، خاصة مسألة قانون لحماية العمال والعاملات والاطفال.

لقد رسخ مهرجان الكريستال وحدة النضال المشترك بين طليعة النقابات من جهة، والمثقفين الوطنيين المعارضين لسياسة الانتداب من جهة اخرى. كما كان هذا المهرجان فرصة طيبة لاكتشاف المجموعة الثالثة من الاشتراكيين، مجموعة «سبارتاك» الأرمنية أو «شبيبة سبارتاك» التي أسسها أرتين مادويان، عضو حزب الهانشاق سابقاً، منذ ١٩٢٣، والتي ضمت العديد من العمال والشبيبة الأرمنية.

لقد ترسخ دور حزب الشعب اللبناني بعد مهرجان الكريستال، كأقوى حزب سياسي معارض للانتداب، يستند الى برنامج واضح ويفتح أبوابه لجميع الطوائف وجميع القوميات. انه حزب من نوع جديد، قال عنه روبير دو كيه بالذات: «سرعان ما أصبح حزب الشعب اللبناني حزب المعارضة الحقيقي في دولة لبنان الكبير... ان موقف ساراي من حزب الشعب اللبناني، الحزب المعارض للانتداب، شجع اللبنانيين على الدعوة الى ان النظام الأساسي ينبغي ان يكون من عمل السكان المحليين لا من عمل الانتداب» (٦٥).

(٦١) راجع اسماءهم في الملاحظة رقم ٨ لقول يزبك المنشور في البلاغ - العدد السابق - ص ٣٨.

(٦٢) راجع غلاف ملحق النهار الاقتصادي والمالي - الصادر في ٢٩ نيسان ١٩٢٤.

(٦٣) البلاغ - المصدر السابق - ص ٣٦ - نشرته الانسانية في العدد الثاني - ص ٢.

(٦٤) البلاغ - المصدر السابق - ص ٣٦.

(٦٥) R. de Caix «Histoire des Colonies françaises - T. III - La Syrie» P. 516.

قالى متى هذه الفوضى وما معنى هذه البلاهة وما شأن الملايين والتمولين الأغنياء مع العمال الفقراء المهضومة حقوقهم ؟ » (٧٠) .

وعلى أساس تلك المفاهيم الطبقية الواضحة جرى تعديل هام في مبادئ حزب الشعب اللبناني . ونشرت « الإنسانية » في عددها الثاني تلك المبادئ بعد تعديلها على الشكل التالي : (٧١)

« ١ - تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة اللبنانية والعمل لفرض ضريبة على الآلات الميكانيكية الصناعية والزراعية التي يتسبب من استعمالها شل الأيدي العاملة أو جعلها ملكاً للحكومة وتسهيل دخول ما كان منها مساعداً للحياة الاقتصادية واليد العاملة في البلاد .

٢ - بث روح الاخاء العام وقتل جرائم التعصب الديني والطائفي والاقليمي ومنع رجال الدين من التدخل في الامور السياسية ومحاربة العوائد والتقاليد المضرة .

٣ - تعزيز المدارس الوطنية وتوحيد التعليم الحر فيها وجعل التعليم الأولي اجبارياً للبنين والبنات ، وان تكون المدارس الاجنبية خاضعة لبرنامج التعليم ، وان تهتم الحكومة بتشجيع المؤلفين لوضع أو تعريب كتب العلوم التي تفي بحاجة البلاد وتغني الطلاب عن اقتباسها بغير لغة بلادهم التي يجب ان تكون رئيسية في عموم المدارس .

٤ - تنظيم العمال والفلاحين بالنقابات والدفاع عن مصالحهم المشتركة لينالوا حقوقهم كاملة في الحياة ، وسن نظام يؤيد حقوقهم (كتحريم تشغيل الاولاد الذين هم دون الرابعة عشر ، وجعل اوقات العمل اليومي ثماني ساعات وتحديد الحد الأدنى للأجور ليتمكن العمال من المعيشة براحة ، والزام اصحاب الأعمال بأن يعطوا العاملين الحاملات اجازة شهرين تبتدىء قبل الوضع بشهر مع اعطائهن اجورهن الكاملة) .

٥ - العمل لفرض ضريبة على الإرث وضريبة على الثروة وتخفيف الضرائب عن عائق الشعب .

٦ - جعل الأوقاف العمومية ملكاً للشعب تحت ادارة الحكومة .

٧ - تحرير المرأة ومساعدتها لنيل حقوقها المهضومة (كمنع تعدد الزوجات ومنع الزواج الباكر) .

٨ - يعتمد الحزب على الشعب اللبناني في الوطن والمهجر وعلى الشعوب الحرة ويتحد مع الاحزاب التي تماثله في الفاية ويتخذ جميع الوسائل الممكنة للوصول الى مطالبه » .

لقد جاءت الأهداف المطالبة الجديدة باللغة الواضحة تتدرج من تنشيط الاقتصاد الى محاربة الطائفية والاقليمية والدعوة ، ولأول مرة في لبنان ، الى فصل الدين عن الدولة بمنع رجال الدين من تعاطي السياسة ، الى تشجيع المدارس العلمانية وجعل التعليم الابتدائي اجبارياً للجنسين مع الدعوة الصريحة الى التعريب ، الى التنظيم النقابي لجميع العمال ، وفرض الضرائب على الاغنياء وتخفيفها عن الطبقات الشعبية

(٧٠) الإنسانية - العدد الاول - ص ٣ .

(٧١) الإنسانية - العدد الثاني - الصفحة ٢ و ٣ .

وتأميم الأوقاف وتحرير المرأة وتنشيط الصلات مع المهاجرين اللبنانيين والتعاون مع جميع الاحزاب العمالية العالمية .

ومما لا شك فيه ان تلك المبادئ لم تنجز من الناحية السياسية ولم توجه النضال فعلياً ضد السلطة الانتدابية الفرنسية بل توجهت اليها من أجل تحقيق تلك المطالب . وهذا ما يعطي الحزب الطابع الاصلاحى البحت . فبقي الحزب أسير الشرعية في نضالاته . وقد حدد الاهداف المستقبلية للحركة النقابية على انها الشكل الأمثل من أشكال التنظيم والنضال الطبقي . لذا كانت مهمة التوفيق بين الشرعية النقابية والخط السياسي للحزب البلشفيكي المسير لحزب الشعب اللبناني ، صعبة جداً ان لم تكن مستحيلة . فكان لا بد من الاصطدام بالسلطة الانتدابية وتوجيه النضال ضدها . فحزب الشعب اللبناني لم يكن بمقدوره رفع النضال المطليبي الى درجة النضال السياسي والايديولوجي الذي يريده الحزب الشيوعي المستتر وراءه ، لذا بقي حزب الشعب حزباً ديمقراطياً ذا نزعة اشتراكية . انه حزب « ديمقراطي شعبي » - اذا صحت التسمية . فام يكن حزب الطبقة العاملة اللبنانية ، بل حزباً عمالياً ووجهاً ظاهراً لنضال الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان على الساحة اللبنانية ، وجهاً علنياً بقدر ما تسمح الظروف السياسية والاجتماعية بالنضال العلني آنذاك .

٥ - وجهاً لوجه امام السلطة الانتدابية وضرب الحزب الشيوعي

لقد كان التوجه الأكثر جذرية في صياغة المبادئ الجديدة لحزب الشعب اللبناني ، والدعوة الى النضال الطبقي الواضح ، والتوجه الاعلامي لتغطية اخبار الاتحاد السوفياتي والدفاع عن النظام الاشتراكي (٧٢) من الأسباب التي عجلت في اغلاق جريدة الإنسانية بعد صدور عددها الخامس فقط . وادى تعطيلها الى حرمان حزب الشعب اللبناني وبالتالي الحزب البولشفيكي ، من وسيلة اعلامية هامة لبث دعايته والترويج لأفكاره .

ومنذ أواخر ايار ١٩٢٥ ، قاد حزب الشعب أول حركة جماهيرية ضد التمثيل النيابي على أساس طائفي . ووقف في وجه ساراي ، الذي دعا الى اجراء الانتخابات التشريعية على نفس الأسس الطائفية السابقة . ووجه الحزب نداء موقعاً من لجنته التنفيذية في ٢٣ ايار (٧٣) يدعو فيه العمال والفلاحين للامتناع عن التصويت لأن هذا النمط من الانتخاب يحرمهم من الاختيار الحقيقي لممثليهم الذين سيشاركون في وضع الدستور الأساسي كخطوة أولى في طريق الاستقلال .

وفي ٢٠ تموز ١٩٢٥ ، قاد حزب الشعب مظاهرة جماهيرية ضخمة للمطالبة بتخفيض اجارات السكن ضمت الرجال والنساء والاولاد . وقام جنود ساراي بقمع المظاهرة بوحشية بالغة فسقط تسعة قتلى وأربعين جريحاً والقي القبض على حوالي

(٧٢) راجع اعداد الإنسانية الخسة .

(٧٣) راجع الإنسانية - العدد الرابع - الصادر في ٧ حزيران ١٩٢٥ .

ستين متظاهرا (٧٤) .

ووصلت انباء انفجار الثورة السورية الكبرى التي اندلعت في ٨ تموز ١٩٢٥ ،
إبان ذلك الاستياء الجماهيري العام ضد تصرفات سلطات الانتداب ، ووجد قادة
الحزب ان الظرف السياسي العام مؤات للدعوة الى الكفاح المسلح ضد الفرنسيين .
وتعمقوا في تحليلهم السياسي الشامل للأوضاع فقرنوا بين قمع الحركة العمالية
المطلبية وبين القصف الوحشي للثورة الوطنية السورية واستنتجوا انهما مظهر واحد
للاستعمار الفرنسي الجديد ودعوا العمال الى ضرورة تشديد النضال ضد هذا
الاستعمار ومساندة الثوار السوريين بجميع الوسائل . واثار اجتماع اللجنة المركزية
للحزب قررت هذه اللجنة بالاجماع دعم النضال المطلبى لجماهير المستأجرين في
بيروت وتأييد الثوار السوريين في كفاحهم البطولي ضد الاستعمار الفرنسي . فأصدرت
بيانا مطبوعا على الجيلاتين ، وهو أول بيان موقع باسم الحزب الشيوعي في سوريا
ولبنان (٧٥) . وقد وزع البيان في بيروت وزحله وحلب وارسل بالبريد الى العديد
من السوريين واللبنانيين . وأصدرت بيانا آخر يدعو الجنود الفرنسيين الى التآخي
مع الثوار وتوجيه بنادقهم الى صدور قادتهم الاستعماريين .

« لقد توجه الحزب طبقيا الى الجنود الفرنسيين للوقوف ضد قياداتهم التي
تأمرهم بقتل اخوانهم في سوريا ولبنان . » (٧٦) . كذلك توجه الحزب ببيان باللفة
الأرمنية يدعو فيه جماهير الأرمن للوقوف الى جانب الثوار السوريين ودعم نضالهم
العادل . والهدف من هذا البيان ، يقول ارتين مادويان ، « ان اللجنة المركزية للحزب
الشيوعي في سوريا ولبنان كانت ترى خمسة اسباب موجبة لهذا النداء الموجه للأرمن :
١ - اجتماعيا : الأرمن لاجئون وبالتالي هم فقراء معدمون يعتاشون من عرق
جباهم . فهم كادحون تستغل سلطات الانتداب اعدادا واسعة منهم لضرب نضال
الشعبين السوري واللبناني .

٢ - سياسيا : كان كره شديد يعتمل في نفوس الأرمن ضد الإنكليز والفرنسيين
والاميركيين الذين وعدوهم كثيرا دون ان ينفذوا لهم ايأ من تلك الوعود بالحرية
والاستقلال ولم يقوموا بحمايتهم من المجازر الرهيبة التي تعرضوا لها .

٣ - وطنيا : ادخل الفرنسيون في روع الاغلبية الساحقة من جماهير الأرمن
ان العرب المسلمين هم اتراك أي سفاحون . بيد ان الواقع كان يدحض ذلك تماما .
فالثورات التحررية العربية كانت تقمع بالطائرات والدبابات والمدافع . والفرنسيون
هم المضطهدون وليس العرب ، في حين ان الأرمن وجدوا كل ترحاب من جانب
السكان المحليين . فالنضال اذا نضال وطني للجماهير العربية ولجميع الواقعين تحت
نير الاستعمار الفرنسي . اما امن الأرمن او حمايتهم فلا يمكن ان تتعارض مع مشاعر
الوطنيين العرب المناضلين من أجل حريتهم واستقلالهم . فنضال العرب الوطني اذا
ليس موجها ضد الأرمن بل ضد الاستعمار الفرنسي الذي يقوم باضطهاد العرب

— Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 15.

(٧٤)

— A. Madéyan « Quelques notes historiques... » — P. 4.

(٧٥)

— M. Majzoub « L'indépendance libanaise » — thèse ronéotypée — P. 116.

(٧٦)

والأرمن على السواء .

« ٤ - طبقيا : كان قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ذا دلالة واضحة على
نجاح الثورة الطبقة ، ثورة العمال والفلاحين ضد استغلال الرأسمال . هذه الثورة
الاشتراكية الاولى اثبتت قدرتها على تحرير الطبقات الفقيرة الكادحة واعطت القوميات
الصغيرة امكانية التحرر من التعصب القومي والنمو الحر المستقل .

« ٥ - اهميا : كان قيام جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية بقيادة حزب
الطبقة العاملة الأرمنية دعوة صريحة لجماهير الأرمن في كل مكان من أجل النضال
لتقويض اسس النظام الامبريالي العالمي . فللأرمن ، كباقي الشعوب الاخرى ، دور
اساسي في حل راية النضال الأممي ضد الجوع والفقر والمرض والاستعمار واستغلال
الانسان للانسان . هذا الدور من واجب الأرمني القيام به ، لا داخل أرمينيا
السوفياتية فحسب ، بل وايضا داخل أي مجتمع طبقي يعيش فيه وذلك بالانخراط
في صفوف المناضلين الوطنيين وتأييد كفاحهم العادل . فالنضال ضد الامبريالية
كان قد امتد ليشمل العالم بأسره ... » (٧٧)

وأصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان تباعا عددين من
جريدة « المنارة الجديدة » NOR PAROS الأرمنية وذلك على الجيلاتين في شهري
حزيران وتشيرين الثاني ١٩٢٥ (٧٨) لتعريف جماهير الأرمن بخط الحزب وبنضاله
ضد الاستعمار الفرنسي ولدعوتهم للاشتراك في هذا النضال .

وقد علقت الصحافة المحلية باللغات العربية والفرنسية والأرمنية على هذه
النداءات ودعمت جريدة « سوريا » الناطقة بلسان الانتداب الى ضرب الحزب .
وكانت السلطات الفرنسية تخطط فعلا لاعتقال قادته وبدات الملاحقات والمراقبة
الدقيقة لمنازل البارزين . وقد كتبت جريدة « كورورتيان هايستان » (٧٩) الأرمنية
تقول : « في سوريا كما في لبنان بدات ملاحقة المسؤولين عن المنظمات السياسية
المدافعة عن حقوق الشعوب التي تضطهدا الامبريالية الفرنسية . وبرزت المنظمات
التي طالتها الملاحقة الحزب الشيوعي وشبيبة سبارتاك الشيوعية . فقد مضى
ثلاثة أشهر ولا تزال الامبريالية الفرنسية تجتاح سوريا بأساليبها الحرية وبطائراتها
ومدفعيتها الثقيلة وعساكرها الجرارة التي تحاول خنق الانتفاضة الدرزية . لقد
توجه الحزب الشيوعي السوري ضد هذه السياسة البربرية بالذات وفتح بوجهها
معركة حاسمة . فأصدرت لجنة الحزب المركزية نداء موجها لجنود « اللواء السوري »
الذي يضم في صفوفه اعدادا كبيرة من الأرمن . والنداء مطبوع على أوراق حمراء
ومكتوب باللغة الفرنسية ، وهو يدعو الجنود الى التآخي مع الدروز ويأمل في
تجاوز العقبات للوصول الى تشكيل جبهة ثورية موحدة ضد الامبريالية . وقد
وزع البيان في بيروت وجميع المدن اللبنانية والسورية . ان الحزب يقود حاليا

(٧٧) ارتين مادويان — جواب خاص على سؤال حول سبب توجيه النداء الى الأرمن .

— A. Madéyan « Quelques notes sur la formation historique... » — P. 6.

(٧٨)

— Khorhourtayin Hayastan — No. 225 du 10 Novembre 1925 — traduit du français.

(٧٩)

تضالاً سوريا لكنه نضال ناجح . فالثورة التحريرية ، ثورة العمال والفلاحين الدروز ، ستنتهي ، عاجلاً أم آجلاً ، بالنصر الأكيد . . . »
 « وفي أوائل كانون الأول ١٩٢٥ ، عقد الاجتماع الأول الموسع للجنة الحزب المركزية في بيروت . وقد حضر الاجتماع ١٥ مندوباً يمثلون خلايا بيروت ، بكفيا ، زحلة ، وحلب . وكان جدول أعماله :

- ١ - مناقشة تقرير اللجنة المركزية .
 - ٢ - الاطلاع على رسالة من الاممية تؤيد خط الحزب السياسي وتدعم نضاله .
 - ٣ - إعادة انتخاب اللجنة المركزية .
- وقد أسفر الاجتماع المذكور عن المقررات التالية :
- ١ - تأييد خط الحزب في مساندته التامة للثورة السورية الكبرى ودعمها بالكفاح المسلح .
 - ٢ - تشديد النضال ضد الامبريالية .
 - ٣ - تعميق النضال من أجل الاستقلال القومي والحريات الديمقراطية .
 - ٤ - دعم النضالات المطنية للطبقة العاملة في سوريا ولبنان .
 - ٥ - الدعوة الى مصادرة أراضي الاقطاعيين الموالين لسلطة الانتداب وأراضي المعادين للثورة السورية الوطنية .
 - ٦ - التجديد للجنة المركزية السابقة « (٨٠) » .

وكانت عيون السلطة الانتدابية تراقب تحركات الحزب ونشاط قياديه عن طريق جواسيسها داخل صفوفه بالذات . لذلك سارعت ، منذ مطلع ١٩٢٦ ، الى شن حملة واسعة ضد زعماء الحزب ومناضليه والعديد من الوطنيين المؤيدين للثورة ، وقامت السلطات الفرنسية تعتقل قادة الحزب تبعاً وتحيلهم الى المحكمة العسكرية في بيروت بتهمة تأييد « العصاة السوريين » . وتدخل الحزب الشيوعي الفرنسي لصالحهم (٨١) وأرسل جورج سادول للدفاع عنهم . لكن سلطات الانتداب منعتهم من ذلك ، فأبرق النائب الشيوعي المحامي اندريه برتون يعلن قدومه للدفاع عن المعتقلين على أول باخرة تطلع من مرسيليا . وخشية احراج « كارتيل اليسار » في باريس ، سارعت سلطات الانتداب الى منع محاكمتهم فأبعدتهم الى اميون ثم الى ارواد ثم الى سجن الرقة في صحراء سوريا . وكان أبرز المعتقلين : يوسف يزبك وفؤاد الشامي وارتين مادويان والوطني المناضل علي ناصر الدين . ومنعت سلطات الانتداب كذلك نشاط حزب الشعب اللبناني .

لقد كانت فترة النهوض الجماهيري للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قصيرة جداً لكنها حافلة بالنضال الديمقراطي والوطني . فلم يمهله الفرنسيون كي يرسخ اقدامه في صفوف جماهير الشعبين . بيد ان موقف الحزب الثوري والبالغ الاهمية ضد قمع الطبقة العاملة في نضالاتها المطنية ، وضد قصف الثوار بالدافع

(٨٠) - A. Madéyan « Quelques notes historiques sur la formation du Parti Communiste au Liban et en Syrie » - P. 5.

(٨١) راجع جريدة « العمال » السنة السابعة - العدد ٢ الصادر في ١ كانون الأول ١٩٣٠ .

والطائرات ، وضد الارهاب الاستعماري الفرنسي والدعوة الى حمل السلاح ضده ، جعلت الوطنيين يقبلون على الانخراط في صفوفه فور عودته الى النشاط السري منذ ١٩٢٨ . وعاد الحزب يحتل بسرعة فائقة دوره الطليعي في النضال الجماهيري في سوريا ولبنان ، على أسس أكثر متانة هذه المرة . ففي حين اقتصر حزب الشعب اللبناني على المسيحيين دون سواهم ، أرمنا كانوا أم لبنانيين ، فان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بعد عام ١٩٢٨ سيفتني برفاد هام من الوطنيين المسلمين الذين أدركوا ان الانتداب حقيقة واقعة لا يمكن تجاهلها بالرفض الطوباوي لها ، بل بالعمل الوطني الثوري القائم على النضال اليومي ضد هذا الوجود . كما أدرك الوطنيون من المسلمين ، ان المسيحيين ليسوا بمجموعهم أعواناً للانتداب وموالين له ، بل هنالك معارضون لهذا الاستعمار الفرنسي البشع وعاملون على تقويضه بجميع الوسائل . لذا كان لا بد من تشكيل جبهة عريضة ضد الانتداب ، لا على أساس ديني ، بل على أساس المصلحة المشتركة لجميع المتضررين من وجود هذا الانتداب على صدورهم ، جبهة تضم المسلمين والمسيحيين ، العرب والأرمن على السواء .

ان موقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان لعام ١٩٢٥ ، ووقوفه الحازم الى جانب النضالات الوطنية والديمقراطية والمطلبية ، جعلته يستعيد حجمه السابق بعد أشهر معدودة من بروزه مجدداً الى الساحة ويزيد أعضائه الى عدة أضعاف ما كان عليه في أعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، مما أكسبه قوة جماهيرية بين المسيحيين والمسلمين ، بين الأرمن واللبنانيين والسوريين ، فأصدر وثيقته - البرنامج لعام ١٩٣٠ بعنوان « لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري ؟ » (٨٢) التي اعتبرت بحق أول برنامج سياسي متكامل خلال تلك الفترة .

دستور ١٩٢٦ وعلان الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب

في أواخر ١٩٢٥ ، غادر الجنرال ساراي ، المفوضة العليا في بيروت بعد ان ترك وراءه ثورة عارمة في سوريا ، ونقمة واستياء كبيرين في لبنان . وعينت حكومة باريس السيد هنري دو جوفنيل ، عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ، كأول مفوض سام فرنسي في سوريا ولبنان . وفور وصوله الى بيروت ، حدد المفوض السامي الجديد ، سياسته كما يلي : « ان مرحلة الاستشارات والتجارب الفردية قد ولت . وكل ما يمكن ان تعلمنا اياه تلك التجارب ، أصبحنا الآن على معرفة تامة به . لذا ، فأنا عازم على منح هذين البلدين تشريعات تؤمن لهما مستقبلاً آمناً ودائماً بحيث تتجنبان فيه كل أنواع

(٨٢) سنتمعرض لهذه الوثيقة البالغة الاهمية في دراستنا المقبلة « المجتمع اللبناني من الجمهورية الى

الاستقلال ١٩٢٦ - ١٩٤٣ » .
 - H. C. « Rapport sur l'année 1925 » - P. 75 et L'Asie Française - No. 238
 Février 1926 - P. 82.

الحروب الاهلية او الدينية او الخارجية» (٨٢) .

وفي غياب اية معارضة جدية في لبنان ، دعا هنري دو جوفنيل أحد معاونيه المخلصين ، سوشيه ، وطلب منه ان يكتب دستوراً للبنان . وأردف يقول « انني راحل بعد شهر ، وأريد دستورا للبنان قبل ذلك التاريخ . فأجابه سوشيه ضاحكا وهو يروح ويجيء حاملا دستور فرنسا عام ١٨٧٥ : « سيكون بين يدك خلال اسبوع واحد ! » . لقد كان همه ايجاد صيغة تجعل هذا الدستور الفرنسي يتلاءم مع الذوق المحلي ، اي بوضع كوفية عربية وعقال على رأسه » (٨٤) .

ويؤكد الدكتور آدمون رباط (٨٥) ان الدستور اللبناني لم يكن من صنع اللبنانيين ، لا بنصه الفرنسي ولا العربي الركيك خاصة والمجلس النيابي في ذلك الحين كان يضم ادباء كبار بين اعضائه كالشيخ يوسف الخازن ، والشيخ ابراهيم المنذر وشبل دموس وغيرهم .

ان دستور لبنان لهذا العام لم يكن ثمرة نقاشات واستمزاج آراء المفكرين اللبنانيين ، بل جمعا لنظم مختلفة صدرت في فرنسا بين ١٧٨٩ و ١٨٧٥ . وباعتراف الفرنسيين انفسهم ، فان هذا الدستور « كان بالفعل أبعد من ان يتناسب مع مستوى التطور السياسي للشعب اللبناني وغير معبر اطلاقا عن حاجاته وامانيه » (٨٦) . فهل كان الانتداب الفرنسي يبحث عن دستور سياسي للبنان أم عن صيغة توفيقية بين الطوائف الدينية المتواجدة على أرضه ؟

لقد عبر هنري دو جوفنيل بوضوح عن هدفه من وضع دستور ١٩٢٦ عندما قال : « اني بالغ السرور باعلان الدستور اللبناني . اننا وجدنا هنا اديانا وأجناسا متفرقة ، ونحن نحاول ان ندفع بعضها نحو البعض الآخر ، لا لكي تتصادم ، بل ليعملوا معا من أجل المصلحة العامة » (٨٧) . وطالما ان الصلاحيات بأجمعها كانت بأيدي المفوض السامي الفرنسي في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والتعليمية والعسكرية والادارية وغيرها ، فالمصلحة العامة هنا ليست سوى مصلحة الانتداب والمتعاونين معه دون غيرهم .

ان الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ لم يكن غريبا عن الدساتير التي مرت بها فرنسا ولا عن شرعة حقوق الانسان ولا عن نظام المجلسين : مجلس شيوخ ومجلس النواب . لكن الفارق الاساسي بين مجلسينا ومجلسي فرنسا ان شيوخنا وقسا من نوابنا كانوا بالتعيين . ولم يختلف جماع هؤلاء عن أغلبية النواب المنتخبين من حيث الموالة التامة للانتداب الفرنسي ومفوضيته العليا في بيروت .

(٨٣) راجع ايضا وجيه علم الدين « مراحل استقلال دولتي لبنان وسوريا » . معاهدة دو جوفنيل مع سوريا من ١٨ - ٢٠ .

(٨٤) — Alfred Fabre-Luce « Deuil au Levant » — Cité par M. Majzoub « op. cit. » — P. 37.

(٨٥) في ندوة حول كتابه « التكوين التاريخي للبنان » في معهد غوته الألماني في بيروت بتاريخ ٨ آذار ١٩٧٤ .

(٨٦) — R. de Contant-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 13.

(٨٧) — L'Asie Française — No. 242 — Juin-Juillet 1926 — P. 247.

في ٢٣ ايار ١٩٢٦ ، أصبح للبنان دستوره (٨٨) . وبعد ثلاثة أيام أصبحت له جمهوريته « الاولى في الشرق » ورئيسا لهذه الجمهورية ، فاخترت بذلك تسمية لبنان الكبير وحلت محلها الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب الفرنسي .

وخشية ان نظلم هذا الانتداب وادارته ننقل هذا المقطع ، البالغ الدلالة ، الذي أورده أحد الفرنسيين عن كيفية انتخاب شارل دباس رئيسا للجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦ . يقول بوبلان حريبا « اجتمع مجلسا الشيوخ والنواب في ٢٦ ايار ١٩٢٦ وانتخبوا رئيسا للجمهورية اللبنانية بأغلبية ٤٤ صوتا من أصل ٤٥ ووجود ورقة واحدة بيضاء هي ورقته . كان ذلك المنتخب هو السيد شارل دباس ، مدير العدلية سابقا . ولن تكون مبايعين اذا قلنا ، وبالتأكيد ، ان عشية ذلك الانتخاب ، كان عشرة مرشحين على الأقل ، يأملون بالوصول الى هذا المنصب الرفيع في لبنان . لقد احتفظ الشيوخ والنواب ببطاقات الانتخاب جاهزة دون ان يعرفوا اسم من سيدونون عليها . وكانت أنظارهم تتجه الى منصة المفوض السامي . ووصلت كلمة السر لحظة افتتاح الجلسة حين أعلن المفوض السامي انه لا يريد انتخابا بالأغلبية ، بل بالاجماع . تلك كانت التوصية وقد عمل الجميع بحذافيرها » (٨٩) .

لقد عبر اسكندر رياشي بأسلوبه المشهور عن حقيقة ذلك الوضع فقال « كان مصرير جمهوريتنا متوقفا على كلمة واحدة تنطلق من شفاه الديكتاتور الفرنسي ، الذي اسمه المفوض السامي ... كنا نمسي ولنا رئيس جمهورية ومجلس نواب ومجلس شيوخ ، فاذا أصبحنا نجد ان كل شيء قد ألفي او أوقف حتى اشعار آخر » (٩٠) .

« والانتخابات النيابية » — يقول جورج حنا — لم تكن في عهد الانتداب ، الا مهزلة يلهون بها الشعب ، ومخازي يقصد منها التظاهر بأنهم يهيئون البلاد للأنظمة الحرة الديمقراطية ، فيحبذ عملهم الجالسون سعداء في جمعية الامم ، اما اقتناعا أو تواطؤا ... » (٩١)

ان تعيين قسم من النواب ، و « تعيين » القسم الآخر عن طريق « الانتخاب » ، وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ ، وتعيين رئيس الجمهورية ، وإبقاء الدستور والمجلسين تحت امرة المفوض السامي الفرنسي ، تبرر بالفعل نعت جورج حنا لهذه الانتخابات بالمهزلة ، لا بل يؤكد فرنسوا خوري في مذكراته ان الفرنسيين كانوا

(٨٨) للاستزادة حول ولادة دستور ١٩٢٦ راجع كتاب الدكتور آدمون رباط « التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري » باللغة الفرنسية ، صفحة ٢٥٩ وما بعدها .

راجع ايضا نص الدساتير المتشابهة لدول سوريا ولبنان وبلاد العلويين وجبل الدروز في الكتاب الذي اصدرته المفوضية العليا الفرنسية بعنوان

Haut-Commissariat « Statut organique des Etats du Levant sous mandat française » — Paris 1930.

— Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 104.

(٨٩)

(٩٠) اسكندر رياشي « قبل وبعد » ص ٥٩ .

(٩١) جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٢ .

يحتقرون مجالس لبنان الانتخابية حتى ان الحاكم الفرنسي لا برو La Brue نعت مجلس الادارة السابق لجبل لبنان « بالاصطبل » (٩٢) . فهل يلام اللبنانيون اذا جاءت احكامهم بالفة القسوة على ادارة الانتداب ومؤسساته المحلية ؟ ومهما يكن من امر هذه المجالس وسيطرة الفرنسيين عليها ، فمما لا شك فيه ان المرحلة الدستورية ستكون منطلقا لتجميع قوى المعارضة ضد الانتداب ، تلك المعارضة التي ستقود معركة الاستقلال وتحرير الدستور والبرلمان والعلم والسياسة والاقتصاد في لبنان من التبعية الوحيدة الجانب للفرنسيين .

بعض الاستنتاجات

عام ١٩٢٠ ، ومع ولادة دولة لبنان الكبير ، شهد المجتمع اللبناني تيارين سياسيين بالفي الوضوح : تيار يرفض الانتداب وجميع مؤسساته وجميع المتعاونين معه ويتسم بطابع اسلامي واضح وينتشر خاصة في المناطق التي ضمت الى جبل لبنان المتصرفية . هذا التيار كان يرفض لبنان الكبير ويصر على الحاقه بسوريا التي فصل عنها بقوة الفرنسيين العسكرية .

وتيار آخر يتعاون مع الانتداب ويهلل له كمنقذ للبنان من برائن الاتراك ومحقق اعادة لبنان الى ما أسموه بحدوده التاريخية والطبيعية التي حرمه منها نظام المتصرفية . وينتشر هذا التيار في جبل لبنان ، في اوساط المسيحيين عامة والموارنة بشكل خاص .

الا ان سياسة الفرنسيين في سوريا ولبنان كانت من العنف بحيث خسرت اصدقاءها التقليديين بعد ان فقدت أصلا امكانية جذب المعادين لها منذ البداية . ذلك ان السياسة العسكرية التي اعتمدها جنرالات فرنسا ، يمينا ويسارا ، كانت تنطلق فقط من مصلحة فرنسا دون اية التفاتة لصك الانتداب والبنود التي وردت فيه ، بل كانت تلك السياسة لا تختلف ، في مجمل مظاهرها ، عن اعمال حكام المستعمرات الفرنسيين في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها ، وذلك باعتراف قادة الفرنسيين انفسهم . ان تلك السياسة التي طبقت في سوريا ولبنان ، أدت بالفعل الى خراب هذين البلدين ، بسبب ضعف مواردهما الاقتصادية واهمال الفرنسيين للقطاعات المنتجة وتركيزهم على التجارة وقطاع الخدمات من جهة ، وبسبب تعزيز السيطرة القطاعية وزيادة الضرائب والقروض من جهة ثانية ، مما زاد في نقمة السكان على الفرنسيين وسياستهم الاستعمارية الواضحة .

يبد ان تلك النقمة على الانتداب الفرنسي ورفض سياسته الاستعمارية في لبنان لم تتبلور بوضوح الا بعد اشتداد الازمة الاقتصادية وازدياد نهب الفرنسيين للدخل السوري واللبناني وافراغ جميع مدخراته الذهبية ، وضرب القوى الوطنية المناوئة لسياستهم ، والعمل على جعل الانتداب مرحلة دائمة لا انتقالية كما ورد في صك الانتداب .

(٩٢) فرنسوا خوري « ذكريات » ص ٧٨ .

ان بروز التيار الشعبي منذ ١٩٢٢ والذي بدأ يستقطب اوساطا عديدة من المثقفين والليبراليين ، ورفع شعارات اشتراكية ، وان بأشكال طوباوية ، ساعد على رفع الوعي الجماهيري عبر صحيفتي « الصحافي التائه » و « زحلة الفتاة » ، وبدأ يتعمق مع جريدة « المعرض » المعارضة للانتداب آنذاك .

ومع تعيين الجنرال ساراي ، ممثل الكارتيل اليساري الناجح في انتخابات باريس ، بدأت مرحلة جديدة من النضال الديمقراطي ضد هيمنة المتعاونين سابقا مع الانتداب ، خاصة اليسوعيين ، لذا استفاد الطليعيون في الحركة النقابية والتيار الشعبي من الانشقاق البارز في جبهة الانتداب والمتعاونين معه لتشكيل حزب من نوع جديد ، هو الحزب الشيوعي اللبناني الذي اتخذ وجها ظاهريا له تمثل « بحزب الشعب اللبناني » الذي قاد نضالا مطلبيا بالغ الاهمية خلال تلك الفترة . وتعمقت مفاهيم هذا الحزب مع اشتداد أزمة الانتداب وانتقاله الى القسوة البالغة في قمع الحركة الوطنية والجماهيرية في سوريا ولبنان بعد مرحلة قصيرة جدا من الليبرالية والعلمانية والدعوة الى انتخاب المجالس الوطنية المحلية وحكم اللبنانيين والسوريين لانفسهم بأنفسهم .

وبالرغم من اقتصار حزب الشعب اللبناني على وجه مسيحي بارز نتيجة رفض الوطنيين المسلمين الانخراط في أية حركة سياسية تعمل من داخل الانتداب ، فان الحزب استطاع ان يكسر الطوق العرقي الذي فرضه الفرنسيون على مجرى السياسة اللبنانية ، فضم في صفوفه طليعة نقابية واعية خاصة بين عمال التبغ ، ونخبة من المثقفين الوطنيين ، وطليعة من الشبيبة الارمنية المسماة « بشبيبة سبارتاك » . وشكلت هذه التيارات الثلاثة أول حزب لبناني تخطى الطائفية والعرقية ودعا الى العلمانية والتعريب والاصلاح الاجتماعي .

يبد ان الحركة السياسية المعارضة للانتداب على أساس غير طائفي بقيت ضعيفة طيلة الفترة الانتدابية الاولى وتكاد تقتصر على محور بيروت - زحلة - بكفيا دون ان تتعداه . اما الحركة الوطنية في صفوف المسلمين فقد اقتضرت على الرفض المطلق للادارة الفرنسية وللدولة لبنان الكبير بالذات ، واستمرت تطالب بالانضمام الى سوريا والانفصال عن دولة لبنان التي ضمت اليها بالاكراه ، تاركة العديد من زعمائها الوصوليين يتسابقون لتسلم مهام وظيفية وتمثيلية في ادارة الانتداب . وأضحى كبار الاقطاعيين ، وأغلبيتهم الساحقة من المسلمين ، ووثقي الارتباط مع ادارة المفوضية العليا ومن اكبر دعاة التعاون الكامل معها بعد ان ثبتت سلطتهم قانونيا على الارياض التي كانوا يسيطرون عليها منذ أيام العثمانيين .

وهكذا أوجد الانتداب الفرنسي قاعدة داخلية له من الزعماء المحليين المتعاونين معه ، وربط الريف اللبناني ببيروت والجبل بواسطة حزام متين من وسطاء بيروت التجاريين وكبار اقطاعيي الريف وبعض مثقفي الجبل الذين تربوا على أيادي اليسوعيين ، فأتم بذلك حلقة « التعايش السلمي » بين الرأسمالية والاقطاعية في لبنان . ذلك التعايش ، بدل التناحر ، سيطبع تطور الحياة السياسية اللبنانية طيلة أيام الانتداب وبعده ، وسيفسح المجال أمام الفرنسيين لنقل لبنان الى

المرحلة الدستورية والجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب ، حيث تبقى السيادة الفعلية لمثل الانتداب في بيروت .

ان المرحلة الدستورية تلك ستكون ذات أهمية خاصة بالرغم من استمرار سيطرة المفوض السامي على جميع مقدرات لبنان وسوريا ، فهي خطوة أساسية على طريق النضال الديمقراطي والتحرر . فقد أجبرت الثورة السورية الكبرى الفرنسيين على تحويل أسلوبهم الاستعماري العسكري الذي ساد طيلة الفترة الانتدابية الاولى الى أسلوب يعتمد المظهر الديمقراطي ولو شكليا . هذا المناخ الديمقراطي الشكلي سيسهم في تجميع القوى ذات المصلحة المشتركة في ضرب الانتداب بعد ان أثبتت الثورة السورية امكانية الانتصار عليه ، بالرغم من جميع الحشود العسكرية التي استخدمها في معاركه ضدها .

ان استفادة الحركة الوطنية اللبنانية من نتائج الثورة السورية للمطالبة بالدستور والجمهورية ربطت مصر الحركة الوطنية اللبنانية بمصير الحركة الوطنية السورية طيلة الفترة اللاحقة من الانتداب حتى الاستقلال ، وهذا ما ساعد ايضا على كسر الطوق الطائفي الذي فرضه الانتداب على تطور الحياة السياسية في لبنان ، بشكل خاص ، طيلة الفترة الانتدابية الاولى .

خاتمة

ضم الجنرال غورو الى متصرفية جبل لبنان السهول الخصبة في البقاع وعكار ومناطق بعلبك وراشيا وحاصبيا ومرجعيون وصيدا صور وكذلك مدينتي بيروت وطرابلس . فلم يعد تاريخ لبنان في الاول من ايلول ١٩٢٠ تاريخ جبل لبنان بمفرده ، بل أصبح تاريخ لبنان الكبير او لبنان بشكله الحالي ، وبدأت عملية الضم وكأنها ارضاء لدعاة الوطن اللبناني المنفصل عن سوريا وضرورة حيوية لشعب جائع في جبل قاحل ، أودت المجاعة بثلاث سكانه في سني الحرب العالمية الاولى . وبعلان دولة لبنان الكبير بدأت أهم مرحلة من تاريخ لبنان المعاصر . اذ ، على عكس المتصرفية ، كانت ولادة دولة لبنانية متوازنة كل التوازن ، ان من الناحية الاقليمية و من الناحية السكانية والمدنية .

يبد ان الفرنسيين ، رغبة منهم في تأمين مصالحهم الاقتصادية والسياسية بشكل افضل ، وتوسيع المجال الحيوي أمام رؤوس أموالهم التي بدأت تتمركز أكثر فأكثر في بيروت ، ربطوا ذلك « الانفصال » اللبناني ربطا محكما بالسوق السورية - العراقية في الداخل ، واعتبروا سوريا ولبنان دولة واحدة على الصعيد الاقتصادي والاداري والعسكري .

وبتحويل بيروت الى مركز لجميع اصناف البضائع المستوردة من الخارج ، ومركز لرؤوس الاموال المصرفية ، خاصة الفرنسية منها ، ومركز للترانزيت واعادة التصدير ، وجدت دولة لبنان الكبير نفسها في تبعية مزدوجة .

- فهي مرتبطة بشكل بالغ الاحكام بالسوق الاوروبية - الاميركية المصدرة لتلك البضائع التي تفرغها بواخرها على شواطئ مرفأ بيروت

- وهي ، من جهة أخرى ، وثيقة الارتباط بالسوق التجارية العربية في الداخل التي تشكل المجال الحيوي لهذه الدولة اللبنانية المستقلة عنها سياسيا .

وبهذا بقي لبنان الكبير شديد الاندماج في الوحدة الاقتصادية العربية في شرقي البحر الابيض المتوسط ، لا بل تعمق ارتباطه بتلك الوحدة وأضحى جزءا لا يمكنه الانفصال عنها .

اما العاصمة الجديدة ، بيروت ، فقد تطورت بسرعة بالغة ، لا على حساب باقي المدن اللبنانية فحسب ، بل وايضا على حساب المدن السورية كذلك ، اذ مدت سيطرتها الى دمشق وحلب واللاذقية والاسكندرون والسويداء ، فكانت بيروت المركز السياسي والاداري والثقافي والاقتصادي لتلك المدن .

وفي بيروت هذه ، اخذ الاقتصاد اللبناني يرتدي وجها جديدا . فقد ادى تراكم البضائع والثروات فيها الى نمو بورجوازية تجارية وسيطة تألفت من تجار بيروت بشكل خاص . وكانت هذه البورجوازية تشرف على مرور جميع السلع التي تفرغها سفن النقل التجارية ، وبالتالي على ملايين الليرات اللبنانية - السورية مما اتاح لها الفنى الفاحش ، واستفادت الى اقصى حد من وجود الحماية الانتدابية لها لتوسع دائرة نشاطها من لبنان الكبير الى سوريا والعراق وحتى ايران .

وساهمت البنوك الاجنبية المتمركزة في بيروت ، خاصة الفرنسية منها ، بولادة قطاع مصرفي بالغ النمو ، تلك الرساميل التي سارعت الى بسط سيطرتها على الشركات العاملة في لبنان وسوريا وبدأت تحويلها الى شركات فرنسية الجنسية . وساهم اللبنانيون الوسطاء ايضا في هذا المجال اذ بدأوا ينشئون ، ولحسابهم الخاص ، مصارف صغيرة او كونتواتر للتسليف المالي لقاء رهونات وفوائد فاحشة ، ولاجال قصيرة الامد .

ولم يكن بإمكان الفرنسيين اغلاق حدود سوريا ولبنان أمام الرساميل الاجنبية والسلع الاخرى ، بناء على سياسة الباب المفتوح التي ضمنها صك الانتداب بالذات ، لذا سارعت الرساميل الانكليزية والاميركية والايطالية والالمانية وغيرها لتوظيف رساميلها في بيروت وفتح فروع لبنوكها في عاصمة لبنان الجديدة ، وقام اللبنانيون يمدون تلك البنوك والسلع بالجهاز البشري اللازم للعمل فيها وتوزعوا على جميع المجالات بحيث نشأت أجنحة عديدة داخل البورجوازية اللبنانية المحلية ترتبط مباشرة برساميل الدول التي تعمل لها وتأتمر بأوامر تلك الدول بالذات اكثر من ارتباطها بالفرنسيين وسياساتهم .

اما على الصعيد الثقافي فقد أصبحت بيروت من اكبر مراكز الثقافة الاجنبية في الشرق الاوسط بفضل جامعتها الاميركية واليسوعية . وبوجود هاتين الجامعتين والعدد الهائل من المدارس الاجنبية والمحلية الخاصة التي تدرس بالفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية وغيرها ، بدأت عاصمة لبنان تتخذ صفة همزة الوصل الثقافية لنقل التراث الاوروبي الغربي والاميركي الى المشرق العربي . غير ان هاتين الجامعتين بقيتا حكرا على اغنياء اللبنانيين والعرب دون سواهم ، وشكلت المدارس الخاصة قطاعا تجاريا وافر الارباح ، وازدهرت تجارة التعليم بعد ان أصبحت شهادات تلك المدارس والجامعات سبيلا فريدا للتمايز الاجتماعي لا يقل أهمية عن جمع الثروة والجاه السياسي . ان مدارس بيروت وجامعتها كانت أداة طبقية هامة بيد سلطات الانتداب لضرب التعليم الرسمي وابقائه في أدنى المستويات ويقتصر على أبناء الفقراء دون سواهم .

كذلك استفادت بيروت من قطاع الاصطياف الجديد وائعشت جوارها بمداخيل

ثابتة وواقرة . غير ان المناطق القريبة من عاصمة لبنان وحدها هي التي نمت بسرعة ونالت نصيبها الوافر من أموال المصطفين الاثرياء العرب . كما ادى هذا القطاع الجديد الى نهضة هامة في مناطق الاصطياف وفي بيروت بالذات خاصة في حركة البناء وما يرافقها .

اما الارياض اللبنانية ، وعلى الاخص ارياف لبنان المضموم ، فقد استمرت تحت امرة سادته السابقين من كبار الاقطاعيين . وجاء الانتداب الفرنسي يزيد من نفوذ هؤلاء ، فهم الذين شكلوا القاعدة التي ارتكزت عليها فرنسا المنتدبة في مناطقهم بالذات . ومن أجلهم ، قام الانتداب يضيف صفة الشرعية القانونية على النهب الاقطاعي الذي تم في عهد الاتراك ، عن طريق المساحة التي قامت بها دولة لبنان الكبير . وهكذا أضحت الملكية العقارية الاقطاعية في تلك المناطق ، واملاك الاوقاف المسيحية والاسلامية الواسعة ، الشكل القانوني السائد في دولة لبنان الكبير وذلك على حساب خراب صفار الفلاحين والمزارعين الذين شكلوا الغالبية الساحقة من اللبنانيين آنذاك . وبهذه المساحة أصبح قانون « من يملك لا يزرع ومن يزرع لا يملك » يرتدي طابعا رسميا .

لقد وجد الفلاحون أنفسهم ، مرة اخرى بعد الحرب ، بعضهم الجوع في قراهم ، منهوبين من ساداتهم الاقطاعيين المدعومين من سلطات الانتداب ، رازحين تحت اعباء الضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم الدولة ، فلم يروا بدا من الرحيل ، واتخذوا طريق بيروت والبحر . وفي حين اقتصرت الهجرة في الماضي على متصرفية جبل لبنان ، فقد فتحت ادارة الانتداب باب الهجرة على مصراعيه أمام شعب لبنان بأسره واضطرت قسما كبيرا منه للرحيل .

ان سياسة الانتداب في الريف قامت على نهب هذا الريف واستغلاله لصالح كبار الاقطاعيين الموالين لها . وهذا ما يفسر جزئيا الركود الاقتصادي الذي عاناه ريف لبنان طوال عهد الانتداب ، فلم يرق فيه مشروع تنمية اقتصادية واحد في طول البلاد وعرضها . فهل وجد الفلاح اللبناني فارقا كبيرا بين حكم الاتراك وحكم الفرنسيين ؟

اما سادة الريف من الاقطاعيين ، فاستمروا يحكمونه دون ما رادع من ضمير او قانون . لذا ، فلا الحركة التجارية الناشطة في بيروت ، ولا حركة الاصطياف في جوارها ، ولا الحركة النقابية لعمال التبغ وغيرهم ، ولا الحركة السياسية لحزب الشعب اللبناني وباقي الاحزاب ، كانت لتجد طريقا لها نحو ذلك الريف . الفرنك الفرنسي الورق وحده وجد سبيله الى هناك ومتسعا رحبا في جيوب الفلاحين والسكان الريفيين الذين اجبروا على ابدال ليراتهم التركية الذهب ، بهذا الفرنك الدائم الهبوط . وما مضت عشر سنوات حتى خلا الريف اللبناني تماما من آخر مدخراته الذهبية . لقد نجح الفرنسيون ايما نجاح في افقار الريف اللبناني ونهب خيراتهم لحساب بنوكهم وتجارتهم والقطاع المحلي الموالي لهم والمرايين بفوائد فاحشة .

ان الانتداب الفرنسي الذي تقرر في سان ريمو كمرحلة انتقالية لمدة ثلاث

سنوات يوصل خلالها اللبنانيين والسوريين الى « ادارة انفسهم بأنفسهم » استمر في السيطرة على هذين البلدين خمسة وعشرين عاما (١٩١٨ - ١٩٤٣) .

لقد كان الاختلاف في مستوى التطور بين لبنان المتصرفية ولبنان المضموم بالغ الوضوح ، تلك حقيقة تاريخية ولا شك . غير ان هذا الاختلاف استمر في الازدياد اكثر فأكثر طيلة ايام الانتداب الفرنسي وحتى اليوم ، واستغلت أرياف لبنان لصالح بيروت وادارتها الفرنسية ومصارفها وشركاتها الاجنبية ، واستمرت المناطق المضمومة ترزح لانظمة القرون الوسطى والعهد التركي البائد في شتى المجالات .

ان الاول من ايلول ١٩٢٠ شهد ولادة دولة جديدة في لبنان تعززت قاعدتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية بوجود الفرنسيين وجنود المستعمرات التابعين لهم . وكانت بيروت المستفيد الاكبر ومركز تلك القاعدة . واضحت بورجوازيته التجارية الوسيطة تمتلك ثروات ضخمة وتمثل دور رائد التقدم اللبناني ايام الانتداب . وجاءت جمهورية ١٩٢٦ ودستورها يعطيان نموذجا اوروبيا لدولة رأسمالية حديثة على ارض لبنان ذات لباس فرنسي واضح في المؤسسات الدستورية والقوانين والجيش والادارة والتعليم واللغة وغيرها . لقد دفعت هذه الجمهورية العديد من الساسة المحليين الى الواجهة السياسية في لبنان واغضبت العديد منهم ايضا فرمتهم بأحضان المعارضة ، وطنية كانت ام للوصول الى كراسي الحكم . وارتبط هؤلاء بالمناوئين اقتصاديا وثقافيا وسياسيا لهيمنة الفرنسيين على مقدرات لبنان وارتفعت أصواتهم تنادي بالاستقلال السياسي ضمن الحدود التي ترسخت في لبنان عام ١٩٢٠ وعلى نفس الاسس التي وضعت لدور لبنان في المنطقة .

ان مرحلة النضال الدستوري بعد ١٩٢٦ سترتدي طابع التمسك بهذا الكيان السياسي للبنان الذي انشأه الفرنسيون عام ١٩٢٠ . لذا ستشهد المعارضة تغييرا جذريا في توجهها السياسي ضد الفرنسيين . هذا التوجه لن يبقى كالسابق أسير الرفض المطلق للانتداب الفرنسي ولدولة لبنان الكبير ، بل رفض التبعية الوحيدة الجانب التي ربط بها الفرنسيون هذه الدولة . وعلى أعقاب دعوة الانفصال اللبناني سياسيا عن سوريا ستنشأ دعوة الاستقلال اللبناني عن الفرنسيين واعادة وجه لبنان المتصرفية المتعدد الارتباطات الخارجية ، انما على اسس رأسمالية حديثة بالغة التطور ، وعلى وفاق طائفي يأخذ بالاعتبار التوازن الطائفي الجديد في لبنان المعاصر وارتباطه الاقتصادي البالغ الاحكام مع الدول العربية المجاورة .

مراجع باللغة العربية

- أبيلا ، روبر : « اطوار الحكم في لبنان » - بيروت ١٩٤٣ .
 اديب باشا : « لبنان بعد الحرب » - القاهرة ١٩١٩ .
 اسماعيل ، عادل : « السياسة الدولية في الشرق العربي » ، الجزء الخامس - بيروت ١٩٧٠ .
 اسود ، ابراهيم : « تنوير الازهان في تاريخ لبنان » ، اربع مجلدات - بيروت ١٩٢٥ - ١٩٣٥ .
 انطونيوس ، جورج : « يقظة العرب » - بيروت ١٩٦٦ .
 أيوب ، س : « الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » - بيروت ١٩٥٩ .
 بيهم ، محمد جميل : « قوافل العروبة ومواكبها » ، الجزء الثاني - بيروت ١٩٥٧ .
 بيهم ، محمد جميل : « لبنان بين مشرق ومغرب ١٩٢٠ - ١٩٦٩ » - بيروت ١٩٦٩ .
 بيهم ، محمد جميل : « العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ - ١٩٢٠ » - بيروت ١٩٧٢ .
 جابر ، منذر محمود : « مؤتمر الحجير وآثاره » ، رسالة كفاءة في التاريخ غير منشورة - كلية التربية - الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٧٣ .
 جنعون ، الياس وجرجي : « الدليل السوري » بيروت - سنوات ١٩٢٢ - ١٩٢٧ .
 حرفوش ، الأب ابراهيم : « دلائل العناية الصمدانية » ، جويليه ١٩٣٥ .
 الحصري ، ساطع : « يوم ميسلون » - دمشق ١٩٦٤ .
 حقي ، اسماعيل : « لبنان ، مباحث علمية واجتماعية » منشورات الجامعة اللبنانية ، جزءان - بيروت ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، باشراف الدكتور فؤاد افرام البستاني .
 الحكيم ، يوسف : « سوريا والعهد الفيصلي » - بيروت ١٩٦٦ .
 حماده ، سعيد : « النظام النقدي والصيرفي في سوريا » ، ترجمة شبل دموس عن الانكليزية - بيروت ١٩٣٦ .

حنا ، جورج : « من الاحتلال الى الاستقلال » - بيروت ١٩٤٦ .
 حنا ، عبد الله : « الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٢٠ - ١٩٤٥ »
 - دمشق ١٩٧٣ .
 حنا ، عبد الله : « الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥ »
 - دمشق ١٩٧٤ .
 الخازن ، فيليب : « كتاب الشهيد » تقديم يوسف ابراهيم يزبك - بيروت
 ١٩٥٧ .
 خاطر ، لحد : « عهد المتصرفين في لبنان » ، منشورات الجامعة اللبنانية
 - بيروت ١٩٦٧ .
 خباز ، حنا : « فرنسا وسوريا » ، الجزء الثاني - القاهرة ١٩٢٩ .
 خدوري ، مجيد : « نظام الانتداب ، تحليل ونقد » - بغداد ١٩٣٣ .
 خدوري ، مجيد : « الاتجاهات السياسية في العالم العربي » - بيروت
 ١٩٧٢ .
 خوري ، بشارة خليل : « حقائق لبنانية » ، ثلاثة اجزاء - بيروت ١٩٦٠ .
 خوري ، رثيف : « الفكر العربي الحديث ، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه
 السياسي والاجتماعي » - بيروت ١٩٤٣ .
 خوري ، فرنسوا : « مذكرات فرنسوا خوري » - بيروت ، مجهول تاريخ
 الاصدار .
 راسي ، سلام : « لثلاث تضيع » - بيروت ، الجزء الاول ، مجهول تاريخ
 الاصدار والمرجع ١٩٧٣ .
 رستم ، اسد : « لبنان في عهد المتصرفية » - بيروت ١٩٧٣ .
 رفيق وبهجت ، محمد : « ولاية بيروت » - بيروت ١٩١٤ .
 رياشي ، اسكندر : « قبل وبعد ١٩١٨ - ١٩٥٣ » - بيروت ١٩٥٣ .
 - « الايام اللبنانية » - بيروت ١٩٥٧ .
 - « رؤساء لبنان كما عرفتهم » - بيروت ١٩٦١ .
 ربحاني ، أمين : « فيصل الاول » - بيروت ١٩٣٤ .
 زياده ، نقولا : « ابعاد التاريخ اللبناني الحديث » - بيروت ١٩٧٢ .
 زين ، زياده وآخرون : « دراسات في الثورة العربية الكبرى » - عمان
 ١٩٦٧ .
 زين ، زين نور الدين : « نشوء القومية العربية » - بيروت ١٩٦٨ .
 زين ، زين نور الدين : « الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي
 سوريا ولبنان » - بيروت ١٩٧١ .
 سعاد ، جورج عارج : « النهضة الصحفية في لبنان » - جونه ١٩٦٠ .
 سعيد ، أمين : « اسرار الثورة العربية الكبرى » - بيروت ، دون تاريخ
 الاصدار .
 سفرجلاني ، محي الدين : « تاريخ الثورة السورية الكبرى » - دمشق
 ١٩٦١ .

سليمان ، موسى : « الثورة العربية الكبرى ، وثائق واسانيد » - عمان
 ١٩٦٦ .
 سليمان ، موسى : « الحركة العربية ، تاريخ النهضة العربية الاولى
 ١٩٠٨ - ١٩٢٤ » - بيروت ١٩٧٠ .
 سجيليانسكايا : « الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الاول من القرن
 التاسع عشر » ، مترجم - بيروت ١٩٧٢ .
 شبيبكه ، مكى : « العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى »
 - بيروت ١٩٧١ .
 شقير ، سعيد : « تقرير عن مالية لبنان » - بحدون ١٩١٣ .
 شهنندر ، عبد الرحمن : « الثورة السورية الوطنية » - دمشق ١٩٣٣ .
 صايغ ، انيس : « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » - بيروت ١٩٦٦ .
 صلح ، عادل : « حزب الاستقلال الجمهوري » - بيروت ١٩٧٠ .
 صليبي ، كمال : « تاريخ لبنان الحديث » - بيروت ١٩٦٧ .
 ضاهر ، مسعود : « الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي » ، دبلوم
 دراسات عليا في التاريخ . غير منشور . كلية الاداب والعلوم
 الانسانية - الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٧٠ .
 طرين ، احمد : « الوحدة العربية ١٩١٦ - ١٩٤٥ » - القاهرة ١٩٥٩ .
 طرين ، احمد : « لبنان منذ عهد المتصرفية الى بداية الانتداب ١٨٦١ -
 ١٩٢٠ » - القاهرة ١٩٦٨ .
 عارج ، انطوان : « لبنان ، السلطات العامة » - بيروت ١٩٦٣ .
 علم الدين ، وجيه : « العهود المتعلقة بالعالم العربي » - بيروت ١٩٦٥ .
 علم الدين ، وجيه : « مراحل استقلال دولتي لبنان وسوريا ١٩٢٢ -
 ١٩٤٣ » - بيروت ١٩٦٧ .
 قاسمي ، ظافر : « وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى » - بيروت
 ١٩٦٥ .
 كرد علي ، محمد : « خطط الشام » ستة اجزاء - دمشق ١٩٢٢-١٩٢٨ .
 مرقص ، ميشال : « تاريخ الحياة الانتخابية في لبنان ١٨٤٣ - ١٩٧٠ »
 - بيروت ١٩٧٠ .
 مزهر ، يوسف : « تاريخ لبنان العام » ، الجزء الثاني - بيروت ١٩٦٠ .
 مسعد ، بولس : « لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده » - القاهرة ١٩٢٩ .
 موسى ، منير : « الفكر العربي في العصر الحديث : سوريا من القرن
 الثامن عشر حتى ١٩١٨ » - بيروت ١٩١٨ .
 نخله ، رشيد : « كتاب المنفى » ، تقديم امين نخله - بيروت ١٩٥٦ .
 النقاش ، زكي : « لبنان بين الحقيقة والخيال : دراسة تحليلية ونقد
 موضوعي لكتاب حقائق لبنانية » - بيروت ١٩٦٥ .
 يزبك ، يوسف ابراهيم : « حكاية اول نوار في العالم وفي لبنان » -
 بيروت ١٩٧٤ .

جرائد ومجلات باللغة العربية
وردت أسماؤها في الكتاب

(أ) جرائد :

الصحافي التائه ،
زحله الفتاة ،
العمال ،
صوت العمال ،
المعرض ،
لسان الحال ،
البرق ،
الانسانية ،
الحقيقة ،
البشير ،
النهار .

(ب) مجلات :

اوراق لبنانية ،
الحارس ،
البلاغ ،
المشرق ،
المنار ،
الطليعة ،
الطريق ،
اليقظة ،
الحياة النيابية في لبنان .

THESES EDITEES OU RONEOTYPEES

ABOU KHATER Jamil Ibrahim : « La Condition des Etrangers en Syrie et au Liban ». BOSC — Lyon, 1933.

ABOUSSOUAN Benoît : « Le Problème Politique Syrien ». Duchemin, Paris, 1924.

ACHQAR Joseph : « La France et l'Angleterre dans le Proche-Orient : l'Evolution Politique de la Syrie et du Liban, de la Palestine et de l'Irak ». M. Martin. Paris, 1934.

ACHI Georges : « Le Passage de la Liberté au Contrôle dans les échanges extérieurs de la Syrie 1929-1947 ». Thonon-Les-Bains, Suisse, 1949.

AJALANI Mounir : « La Constitution de la Syrie ». Les Presses Modernes, Paris, 1932.

AYOUB Charles : « Les Mandats Orientaux ». Sirey. Paris, 1924.

BIKHAZI Samia Jibran : « The Lebanese Chamber of Deputies ». A.U.B. Beirut, 1962.

BURCKARD (Charles) : « Le Mandat Français en Syrie et au Liban : La Politique et l'œuvre de la France au Levant ». Courrouy — Nîmes, 1925.

CHAOUI Joseph : « Le Régime Foncier en Syrie ». Douriez. Lille, 1928.

CHATILA Khaled : « Le mariage chez les musulmans en Syrie ». Les Presses Modernes. Paris, 1933.

CHEHAB ED DINE Saïd : « Géographie humaine de Beyrouth ». Mise-à-jour. Beyrouth, 1960.

CHERIF Ihsan el : « La Condition Internationale de la Syrie ». La Vie Universitaire. Paris, 1922.

- MAJZOUB Mohamed** : « L'Indépendance Libanaise dans l'Ordre interne et international ». Aix-en-Provence. Dactylographiée, 1956.
- MILLOT Albert** : « Contribution à l'Etude des Mandats Internationaux ». Larose. Paris, 1924.
- MONICAULT Jacques de** : « Le Port de Beyrouth et l'Economie des Pays du Levant sous le Mandat Français ». Librairie Technique et Economique. Paris, 1936.
- MUFARRIJ Fouad K.** : « Syria and Lebanon under the French Mandate ». A.U.B. Beirut, 1935.
- NASR Nafhat Nassim** : « The Presidency of Lebanon ». A.U.B. Beirut, 1960.
- NICOLAS Maxime** : « Questions Monétaires en Syrie ». Rey. Lyon, 1921.
- RABBATH Edmond** : « L'Evolution Politique de la Syrie sous Mandat de 1920-1925 ». Rivière. Paris, 1928.
- RONDOT Pierre** : « Les Institution Politiques du Liban ». Imprimerie Nationale. Paris, 1947.
- SABEA Michel** : « La Réorganisation du Conseil d'Etat en Syrie ». Leroux. Paris, 1932.
- SADAQA Najib** : « La question syrienne pendant la guerre de 1914 ». Larose. Paris, 1940.
- SAFA Elie** : « L'Emigration Libanaise ». Imprimerie Catholique. Beyrouth, 1960.
- SAMMAN Ahmad** : « Le Régime monétaire de la Syrie ». Rode-tein, Paris, 1935.
- SARRAGE Mohammed** : « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie ». Imprimerie Sud-Ouet. Toulouse, 1935.
- SOREL Jean-Albert** : « Le Mandat Français et l'Expansion Economique de la Syrie et du Liban ». Marcel Girard. Paris, 1929.
- SPENCER Noël W.** : « The role of the Maronite Patriarchate in Lebanese Politics from 1840 to the present ». A.U.B. Beirut, 1963.
- SULEIMAN Michael W.** : « Political Parties in Lebanon ». Cornell University Press, New York, 1967.
- STOYANOVSKY Jean** : « La Théorie Générale des Mandats Internationaux ». Presses Universitaires de France, Paris, 1925.
- THOUMIN Richard** : « Géographie humaine de la Syrie Centrale ». Arrault, Tours, 1936.

- CHEVALLIER Dominique** : « La Société du Mont-Liban à l'époque de la Révolution Industrielle en Europe ». Geuthner. Paris, 1971.
- COULAND Jacques** : « Le mouvement syndical au Liban 1919-1946 ». Editions Sociales. Paris, 1970.
- DAGHESTANI Kazem** : « Etude Sociologique sur la famille musulmane contemporaine en Syrie ». Leroux. Paris, 1928.
- DESJARDINS Maurice** : « Le problème syrien au point de vue économique ». Douriez. Lille, 1928.
- DJABRY Omar** : « La Syrie sous le Régime du Mandat ». Dirion. Paris, 1934.
- FAYYAD Halim Farid** : « The effects of sectarianism on the Lebanese Administration ». A.U.B. Beirut, 1956.
- GEMAYEL Sleiman** : « Evolution du budget libanais ». Pichon. Paris, 1962.
- GROUSSET Philippe** : « La Constitution Libanaise du 23 Mai 1926 révisée le 17 Octobre 1927 ». Cledier. Toulouse, 1928.
- HILAN Rizkallah** : « Culture et Développement en Syrie et dans les Pays retardés ». Anthropos. Paris, 1969.
- JONES John Morgan** : « La fin du Mandat Français en Syrie et au Liban ». Pedone. Paris, 1938.
- JOUPLAIN M.** : « La question du Liban ». Arthur Rousseau. Paris, 1908.
- KAZEM Mourad** : « L'Union douanière Libano-syrienne ». Gri-vet. Genève, 1950.
- KHOURY Youssef** : « Prix et Monnaie en Syrie ». Vie Universitaire. Paris, 1937.
- KURI Victor A** : « L'Evolution du Mandat A : Article 22 du Pacte de la S.D.N. ». Les Presses Modernes. Paris, 1927.
- KUZBARI Nader** : « La question de la cessation du Mandat Français sur la Syrie ». Pedone. Paris, 1937.
- LAPIERRE Jean** : « Le Mandat Français en Syrie : origines, doctrine, exécution ». Sirey. Paris, 1936.
- LEGA Raoul Colona de** : « La Zone Franche du Port de Beyrouth ». Catholique, Beyrouth, 1957.
- LONGRIGG Stephen Hemsley** : « Syria and Lebanon under French Mandate ». Oxford University Press. London, 1958.
- LUQUET Jean** : « Le Mandat A et l'Organisation du Mandat Français en Syrie ». Vie Universitaire. Paris, 1923.

SUR LE MANDAT FRANÇAIS EN SYRIE ET AU LIBAN

- BERGER-LEVRAULT** (éditeur) : « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le Mandat Français 1919-1927 ». Auteur inconnu. Paris, Nancy. 1929.
- BOURGEOIS Léon** : « L'œuvre de la S.D.N. 1920-1923 ». Payot. Paris. 1923.
- FERIET René de** : « L'application d'un mandat ». Joune. Paris. 1926.
- O'ZOUK Raymond** : « Les Etats du Levant sous Mandat Français ». Larose. Paris. 1931.
- PICOT François-Georges** : « Discours à Tripoli ». Beyrouth. 1919.
- REIS Van** : « Les Mandats Internationaux : Les principes généraux du régime des mandats ». Rousseau. Paris. 1928.
- RONDOT Pierre** : « L'expérience du Mandat Français en Syrie et au Liban 1913-1945 ». Extrait de la Revue Générale de Droit international public. Pédone. Paris. 1948.
- SFEIR Abdallah** : « Le Mandat Français et les traditions françaises en Syrie et au Liban ». Paris. 1922.
- TABET Ayyoub** : « L'Etat du Liban et le Mandat Français ». Catholique. Beyrouth. 1926.

SUR L'HISTOIRE DU LIBAN AVANT ET SOUS LE MANDAT

- ABOUCHDID Eugénie Elie** : « 30 years of Lebanon and Syria 1917-1947 ». The Sader Rihani Printing. Beirut. 1948.
- CAYLA Léon et NAMMOUR Moussa** : « Anniversaire de la proclamation du Grand-Liban ». Discours prononcés le 1er Septembre 1925. Imprimerie des Lettres. Beyrouth. 1925.
- CHIIHA Michel** : « Politique Intérieur ». Trident. Beyrouth. 1964.
- COMITE LIBANAIS DE PARIS** : « Mémoire sur la question du Liban » ; Pariset, Paris, 1912.
- COZE Edouard** : « La Syrie et le Liban ». Conférence. Paris. 1922. Bibliothèque Nationale.
- DAHDAH Nagib** : « Evolution Historique du Liban ». Oasis. Mexico. 1964.
- EDDE Camille** : « La justice en Syrie et au Liban ». Conférence. Le Caire, 1930.

TOUMA Toufic : « Paysans et institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIIème Siècle à 1914 ». Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1971-1972.

WEULERSSE Jacques : « Le Pays des Alaouites ». Arrault, Tours, 1940.

ZEINEDDINE Farid M. : « Le régime du Contrôle des Mandats de la S.D.N. ». P.U.F. Paris, 1932.

RECUEILS

REPUBLIQUE FRANÇAISE,
MINISTÈRE DES AFFAIRES ÉTRANGÈRES

HAUT-COMMISSARIAT EN SYRIE ET AU LIBAN :

- « La Syrie et le Liban en 1921 : La Foire-exposition de Beyrouth, Avril-Mai 1921 ». Larose. Paris, 1922.
- « Ce que tout Français doit savoir de la Syrie et du Liban ». Paul Barbey. Le Caire. 1921.
- Bulletin hebdomadaire officiel des actes administratifs du Haut-Commissariat ». Jeanne d'Arc. Beyrouth, 1921-1927.
- « La Syrie et le Liban en 1922 ». Larose, Paris, 1923.
- « Recueil des Actes administratifs du Haut-Commissariat de la République Française en Syrie et au Liban ». Cinq volumes, 1919-1924. Jeanne d'Arc. Beyrouth. 1920-1925.
- « Rapport sur la situation de la Syrie et du Liban (Juillet 1923-Juillet 1924) ». Imprimerie Nationale. Paris. 1924.
- « Rapport sur la situation de la Syrie et du Liban : Année 1924 ». Genève. 1925.
- « Rapport provisoire à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban : Année 1925 ». Imprimerie Nationale. Paris. 1926.
- « Syrie et Liban ». Comité Franco-Syrien de propagande pour l'exposition des arts décoratifs. ». Paris, 1925. Imprimerie Graphique.
- « Statut organique des Etats du Levant sous mandat français ». Paris. Hugnin 1930.
- « Dix ans de Mandat ». Paris. Joune. 1930.
- « Quinze ans de Mandat ». Paris. Joune. 1936.

TYAN Ferdinand : « France et Liban : défense des intérêts français en Syrie », Perrin, Paris. 1917.

YAMMINE Antoine : « Quatre ans de misère : Le Liban et la Syrie pendant la Guerre », Hindié, Le Caire. 1922.

SUR L'HISTOIRE DE L'ENTRE DEUX GUERRES 1918-1939

ANDREA Le Général : « La révolte druze et l'insurrection de Damas 1925-1926 », Payot, Paris. 1937.

BAUMONT Maurice : « La faillite de la Paix 1919-1939 », Deux volumes, P.U.F. Paris. 1960.

BEAUPLAN Robert de : « Où va la Syrie ? Le mandat sous les Cèdres », Tallandier, Paris. 1929.

BERQUE Jacques :

— « Collège de France : Leçon inaugurale », Décembre 1956.

— « Dépossession du Monde », Seuil, Paris. 1964.

— « Les Arabes d'hier à demain », Seuil, Paris. 1969.

— « L'Orient second », Gallimard, Paris. 1970.

BRIOT P. et DRESCH Jean : « La Méditerranée et le Moyen-Orient », 2ème Volume, P.U.F. Paris. 1956.

BOISSIERE Paul : « La Syrie : importance actuelle des intérêts français en Syrie », Chaix, Paris. 1919.

BOURON Capitaine N. : « Les Druzes : Histoire du Liban et de la Montagne Haouranaise », Berger-Levrault, Paris. 1930.

BOURBON Prince Sixte de : « La Syrie et la France », Emile Paul, Paris. 1919.

BUEHRIG Edward : « Woodrow Wilson and the Balance of Power », Indiana University Press, U.S.A. 1955.

CAIX Robert de : « Histoire des colonies françaises : La France dans le Levant », Tome III, La Syrie, Plon, Paris. 1931.

CAPDEJELLE Commandant et HACHEM Cheikh Aziz al : « La question syrienne », Gédéon, Beyrouth. 1927.

CARDAHI Choukri : « Le problème de l'organisation judiciaire dans les pays du Levant placés sous Mandat français », Sirey, Paris. 1928.

CATROUX Le Général : « Deux missions en Moyen-Orient 1919-1922 », Plon, Paris. 1958.

CLEMENCEAU Georges : « Grandeurs et Misères d'une victoire », Plon, Paris. 1946.

SOCIETE DES NATIONS :

Mandats: Série 1920-1928. Bibliothèque Nationale, Paris.

S.D.N. :

« Commission Permanente des Mandats (C.P.M.) — Procès-verbaux de la Huitième Session (extraordinaire), tenue à Rome du 16 Février au 6 Mars 1926 », Publication de la S.D.N., 1926.

FEGHALI Mgr. Michel :

— « La famille catholique au Liban », Revue d'ethnographie et des traditions populaires, Nos. 23-24, Paris. 1925.

— « Contes, légendes, coutumes populaires du Liban et de la Syrie », Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris. 1935.

GEIGER André : « Syrie et Liban », Arthaud, Grenoble. 1932.

GHALEB Pierre : « Le protectorat religieux de la France en Orient », Avignon, 1913.

JALABERT Louis : « Syrie et Liban : Réussite française ? », Plon, Paris. 1934.

KAIRALLAH Kairallah :

— « La question du Liban », Plon-Nourrit, Paris. 1915.

— « Les régions arabes libérées », C.C. SYRIEN — DOCUMENTS, Paris. 1919.

KHAIR Antoine : « Le Moutassarifat du Mont-Liban », Beyrouth. 1973.

LYAUTEY Pierre : « Liban Moderne », Julliard, Paris. 1965.

MUNICIPALITE DE ZAHLE : « La Béqu'a aux Libanais ; Arguments historiques et économiques ; Mémoire présenté aux gouvernements des grandes puissances protectrices du Liban par les Conseils Municipaux de la ville de Zahlé et du Mont-Liban, Mars 1913 », Zahleh al Fatat, Zahlé. 1913.

RABBAT Edmond : « La Formation historique du Liban politique et Constitutionnel », Beyrouth. 1973.

RISTELHUEBER René : « Traditions françaises au Liban », Alcaïn, Paris. 1925.

SAMNE Georges : « Le Liban autonome de 1861 à nos jours », Arts et Manufactures, Paris. 1919.

TABET Ibrahim : « Projet Constitutionnel pour le Grand-Liban », Catholique Beyrouth, 1920.

— « Les buts de guerre du gouvernement français 1914-1918 », Revue Historique No. 235. Paris. 1966.

RODINSON Maxime : « Marxisme et Monde Musulman ». Seuil. Paris. 1972.

RONDOT Pierre : « Les Chrétiens d'Orient ». Cahiers d'Afrique et d'Asie, No. IV. Paris. 1955.

ROYER André : « Treize mois en Syrie 1924-1925 ». Edition inconnue.

SAINT-POINT Victoria de : « La vérité sur la Syrie par un témoin », Cahiers de France. Paris. 1929.

SAMNE Georges : « La Syrie ». Bossard. Paris. 1920.

THOBIE Jacques : « Les intérêts français dans l'Empire Ottoman au début du XXème siècle ». Revue Historique No. 235. Paris. 1966.

SUR L'INSTRUCTION PUBLIQUE

ASSOCIATION AMICALE DES ANCIENS ELEVES DE L'U-

NIVERSITE SAINT-JOSEPH (U.S.J.) : « Livre d'or ». Catholique. Beyrouth. 1949.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT (A.U.B.) : « Directory of Alumni 1870-1957 ». Catholic. Beirut. 1957.

CORM Charles : « La Montagne inspirée ». La Revue Phénicienne. Beyrouth. 1964.

DAHAN Robert : « Souvenirs d'Orient : la vie d'étudiant en Syrie ». Revue Moderne des Arts et de la Vie. Paris. 1932.

DEHERAIN Henri : « Histoire des colonies françaises : l'œuvre scientifique en Asie Mineure, en Syrie et en Perse du XVIIème au XXème siècle ». Tome III. Plon. Paris. 1931.

U.S.J. :

— « Distribution des Prix 1910-1930 ». Catholique. Beyrouth. 1931.

— « Unesco : Assemblée Générale au Liban 1948 ». Catholique. Beyrouth. 1948.

— « Les Jésuites au Liban : Le Livre d'or 1881-1956 ». Catholique. Beyrouth. 1956.

— « Beyrouth et Grand-Liban ». Catholique. Beyrouth. 1922.

— « Les Jésuites en Syrie 1831-1931 ». Paris. 1931.

VALINE : « Le pluralisme socio-scolaire au Liban ». Dar Al Machriq. Beyrouth. 1969.

COMITE CENTRAL SYRIEN :

— « L'opinion syrienne à l'étranger pendant la guerre ». Documents. Paris. 1918.

— « La Syrie devant la Conférence ». Barnagand. Paris. 1919.

DORiot : « La Syrie aux Syriens ». Discours prononcé à la Chambre des Députés le 20 Décembre 1925. L'Humanité. Paris. 1926.

DUPIN Gustave : « M. Poincaré et la Guerre de 1914 ». Librairie du Travail. Paris. 1935.

GRIMAL Henri : « La décolonisation 1919-1963 ». A. Colin. Paris. 1965.

GONTAUT-BIRON Compte René de :

— « Comment la France s'est installée en Syrie 1918-1919 ». Plon. Paris. 1923.

— « Sur les Routes de Syrie après neuf ans de Mandat ». Plon. Paris. 1928.

HARDY Georges : « La politique coloniale et le partage de la terre aux XIXème et XXème siècles ». Albin Michel. Paris. 1937.

HUNTZIGER : « Le livre d'or des troupes du Levant 1918-1936 ». Paris. 1938.

JUNG Eugène : « La Révolte arabe de 1906 à la révolte de 1916 (Tome I) » et « de Juin 1916 à nos jours : la lutte pour l'Indépendance ». Colbert. Paris. 1925.

LAMAZIERE Pierre : « Partant pour la Syrie ». Baudinière. Paris. 1926.

LESSOURD Y.A. et GERARD G. : « Histoire économique XIXème et XXème siècle », Tome II. A. Colin. Paris. 1963.

MAESTRACI Noël : « La Syrie Contemporaine ». Lavauzelle. Paris. 1930.

MANDELSTAM André :

— « Le Sort de l'Empire Ottoman ». Payot. Paris. 1917.

— « La Société des Nations et les Puissances devant le Problème Arménien ». Association Libanaise des Universitaires Arméniens. Beyrouth. 1970.

PICHON Jean : « Le partage du Proche-Orient ». Paris. 1936.

RABBATH Edmond : « Unité Syrienne et devenir arabe ». Rivière. Paris. 1937.

RENOUVIN Pierre :

— « La crise européenne et la Première Guerre Mondiale ». P.U.F. Paris. 1962.

**CENTRE D'ETUDES ET DE RECHERCHES
MARXISTES (C.E.R.M.) :**

- « Sur le mode de production asiatique ». Editions Sociales. Paris. 1969.
- « Sur les Sociétés pré-capitalistes : Textes choisis de Marx, Engels, Lénine ». Editions Sociales. Paris. 1970.
- « Sur le Féodalisme ». Editions Sociales. Paris. 1971.

CLAVEL Eugène : « Le Wakf ou Habous ». Dienner. Le Caire. 1896. 2 Volumes.

DUFOUR Alphonse : « La Syrie d'aujourd'hui, ses ressources, son avenir ». Société des Ingénieurs Civils de France. Paris. 1922.

LATRON André : « La vie rurale en Syrie et au Liban ». Beyrouth. 1936.

SEMAINES SOCIALES DU LIBAN : « Problèmes ruraux et devenir libanais ». Editions des Lettres Orientales. Beyrouth. 1962.

WEULERSSE Jacques :

- « Paysans de Syrie et du Proche-Orient ». Gallimard. Paris. 1946.
- « L'Oronte ». Arrault. Tours. 1940.

**SUR L'AGRICULTURE
LA VIE RURALE ET L'ECONOMIE SOUS MANDAT
(ARTICLES)**

ACHARD :

- « Etudes sur la Syrie et la Cilicie ». L'Asie Française — supplément spécial — Paris. 1922.
- « La plaine du Akkar ». L'Asie Française. No. 209. Mars. 1923.

CHEVALLIER Dominique :

- « Lyon et la Syrie en 1919 : Les bases d'une intervention. Revue Historique. No. 224. P.U.F. Paris. 1960.
- « A Damas, production et société à la fin du XIXème siècle ». Annales d'E.S.C., 1964, p. 966-972. Paris.
- « Les cadres sociaux et l'économie agraire dans le Proche-Orient au début du XIXème siècle : le cas du Mont-Liban ». Revue Historique, No. 239. Paris. 1968.

DONDON Jean : « La question foncière en Syrie et au Liban ». L'Asie Française. No. 208. Février 1923.

DUCRUET Jean : « Les Capitaux européens au Proche-Orient ». Paris. 1964.

SUR L'ECONOMIE

ABD-UL AZIZ l'Emir Ali : « Etudes sur l'Histoire des Relations Economiques franco-syriennes ». Saint-Gilles. Paris. 1936.

ACHARD : « Le coton en Syrie et en Cilicie ». Supplément de l'Asie Française. Juin 1922.

BANQUE DE SYRIE ET DU LIBAN : « Bulletin de la Banque de Syrie et du Liban ». Paris. 1920-1930.

BERGASSE Louis : « L'œuvre française en Syrie ». Barlatier. Marseille. 1922.

BERIEL : « La sériciculture au Liban ». Supplément de l'Asie Française. Septembre-Octobre 1922.

CHAMBRE DE COMMERCE DE MARSEILLE : « Congrès français de la Syrie : Marseille, Janvier 1919, Programme Provisoire ». Barlatier. Marseille. 1919.

COMPAGNIE DU PORT DE BEYROUTH : « Documents constituant le statut de la concession ». Saint Amand. 1936.

DUCOUSSO Gaston : « L'industrie de la soie en Syrie et au Liban ». Catholique. Beyrouth. 1913.

FEGHALI Mgr. Michel : « L'élevage du ver à soie au Liban ». Le Caire. 1934.

HAMADAY Saïd :

- « Monetary and Banking system of Syria ». American University, Beirut, 1936. (Traduit en arabe par Chibl Dammous).
- « Economic Organization of Syria ». American University, Beirut, 1935.

HUVELIN Paul : « Que vaut la Syrie ? ». Supplément de l'Asie Française de Décembre 1921.

MENASSA Gabriel : « Plan de reconstruction de l'économie libanaise et de réforme de l'Etat ». La Société Libanaise de l'Economie Politique. Beyrouth. 1948.

**SUR LE REGIME FONCIER ET LE PROBLEME AGRAIRE
(OUVRAGES)**

BLOCH Marc : « La Société Féodale ». Albin Michel. Paris. 1970.

BOUTRUCHE Robert : « Seigneurie et Féodalité ». Aubier. Paris. 1959.

CARLE G. : « L'Hydraulique agricole et industrielle en Syrie ». Editions Géographiques. Paris. 1923.

LEFEBVRE Georges : « Marc Bloch : Apologie pour l'Histoire ». Revue Historique, No. 210, Paris, 1953.

LA PENSEE (Revue) : « Sur la catégorie de Formation Economique et Sociale », Numéro Spécial 159, Octobre 1971.

RONDOT Pierre : « Les structures socio-politiques de la Nation Libanaise ». Revue Française de Science Politique. Volume IV, No. 1. P.U.F. Paris. 1954.

SIMIAND François : « Méthode Historique et Science Sociale ». Annales d'E.S.C., 1960, p. 83-119.

VILAR Pierre : « L'Histoire et l'historien : Histoire sociale et philosophie de l'histoire ». Recherches et débats du Centre Catholique des Intellectuels Français. A. Fayard. Cahier No. 47. Paris. Juin 1964.

LATRON André : « En Syrie et au Liban : villages communautaires et structure sociale ». Annales d'Histoire Economique et Sociale. No. 27. Mai. 1934.

PARMENTIER Paul : « L'Agriculture en Syrie et en Palestine ». Extrait de la Revue de Botanique appliquée et d'Agriculture coloniale. Paris. 1922.

SOBOUL Albert : « La Révolution Française et la féodalité ». Notes sur le prélèvement féodal. Revue Historique No. 240, Année 1968.

THOUMIN Richard : « La maison syrienne ». Documents d'Etudes Orientales. Institut Français de Damas. Leroux. Paris. 1923.

WEULERSSE Jacques : « Régime agraire et vie agricole en Syrie ». Bulletin de l'Association Français, No. 110. Coueslant. Janvier 1938. Paris.

SUR LA METHODOLOGIE ET LE MANDAT (ARTICLES) et (COLLOQUES)

BRAUDEL Fernand : « Sur une conception de l'histoire sociale ». Annales d'E.S.C. de 1959, p. 308-319.

CHEVALLIER Dominique :

— « Politique et religion dans le Proche-Orient : une Icônographie des Maronites du Liban ». Revue d'Histoire Moderne et contemporaine. P.U.F. Paris. 1963. Tome X.

— « Ombres et lumières sur le Liban ». Annales d'E.S.C. 1965. p. 825-827.

COLLOQUE DE L'ECOLE NORMALE SUPERIEURE DE SAINT-CLOUD. 15-16 MAI 1965 : « L'Histoire Sociale : Sources et Méthodes ». P.U.F. Paris, 1967.

COLOMBE Marcel : « Islam et Nationalisme arabe à la veille de la première Guerre Mondiale ». Revue Historique, No. 223. P.U.F., Paris, 1960.

COULAND Jacques : « L'impérialisme français au Moyen-Orient ». Nouvelle Critique, No. 36, Septembre 1970.

DOUMER Paul : « Les intérêts de la France en Syrie ». Paris. 1913.

HAYE Henri : « Les relations de la France et de la Syrie ». Conférence au Centre d'Etudes de Politique étrangère. Paris. Février 1939.

VIENOT Pierre : « Le Mandat Français sur le Levant ». Conférence au Centre d'Etudes de Politique étrangère. Paris, le 9 Février 1939.

(١)

ابراهيم باشا ١٦٣
 ابراهيم عبدالله ٨٦
 ابو حنا مخايل داود ٣٠٢
 ابو مروب اسماعيل ٨٦
 ابو خاطر ابراهيم ٢٦٣
 ابو راشد حنا ٣٠٥ — ٣٠٦
 ابو راشد ميشال ٢٧٤
 ابو شبكة الياس ١٦٢ — ٢٦٠ — ٢٧٤ — ٣٠٥
 ابو شقرا نعمان ٨٦
 ابو صوان بنوا ١٥٤ — ١٨٨
 ابو عيد حسين ٨٦
 ابو نادر الياس ٣٠٠
 ابو ناصر الياس ٣٠٧
 اده اميل ٢٦٣ — ٢٧٣
 اديب باشا ٢٦٣
 ارسلان شكيب ٦٤ — ٢٨٢
 ارقش رزق الله ٢٤
 ارميسان بانوس ٢٩٥
 اسعد بك ٤١
 اشار ٩٨ — ١٠٢ — ٢٠٩
 الارمنازي نجيب ١١٠
 الاسود ابراهيم ٢٧٥ — ٢٧٦
 اندريا ٣٩
 ؟اوهانس باشا ٢٤ — ٤٩ — ٥٠
 اوزو ريمون ٧٩
 اوهرى ٨١

A — PRESSE en langue française :

La Syrie,
 Le Commerce du Levant,
 L'Orient,
 L'Orient-Le Jour
 Le Temps (Paris).

B — REVUES (articles choisis) :
 En langue française

— Annales : Economies, Sociétés, Civilisations (E.S.C.).
 — « L'Asie Française ».
 — L'Association des Commerçants et Industriels français au Levant (C.I.F.L.), (revue mensuelle).
 — Correspondance d'Orient,
 — La Nouvelle Critique,
 — La Pensée,
 — La Revue des Deux Mondes,
 — La Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine,
 — La Revue Historique,
 — La Revue d'Economie Politique,
 — La Revue de Paris.

(ب)

باخوس خليل ٢٧٦
باخوس نعيم ٢٧٣
بارتون اندرية ٨٢
باز جرجي نقولا ٢٨٧
باز سليم ٢٧٦
بانوسيان ماسيس ٢٩٥
بخاش شكري ٢٩٠ - ٣٠٥
برتون اندرية ٣١٢
برجر جوزف ٣٠٠
برجية - ليفرو ١٣٤
برك جاك ٥٣ - ٢٠٦
برهوم حبيب ٢٧٤
برو ٣١٦
بريان ارستد ٩٥
بزي هاني ٢٠٦
بستاني بطرس ٢٦١
بستاني حبيب ٢٨٢
بعقلين ٢٧٥
بلس هوارد ٣٣
بلفور ٢٦ - ٣٢ - ٣٤ - ٢٤٠ - ٢٨١
بليب ادمون ١٥٠
بوادغار الن ٢٧٤
بوالو ١٦٣
بوانكارية ريمون ٢٣ - ٣١ - ٤٩ - ٧٠ - ٧٣ - ٧٨ - ٨٥
بويلان ٤٢ - ٣١٥
بوربون ١٧٢
بوتشيل ٨١
بويادجيان هيكازون ٢٩٥ - ٣٠١ - ٣٠٧
بيرار فيكتور ٣١
بيران ٣٠٠
بيشون جان ٣٤
بيكو فرنسوا جورج ٦٦ - ٧٢ - ١٧٩ - ٢٥٩
بيهيم محمد جميل ٢٩٨
بيهيم ٢٤٠
بيرون غونتور ٨٧

(ت)

تابت ايوب ٢٤
تابت حبيب ٢٧٦

ناتيان كريكور ٢٩٥
ترابو ٧٢
تشيشرن ٣٦
التميمي امين ٢٨٢
توما توفيق ٢٠٦
توماس عمانوئيل ١٥٩
تويني جبران ١٩٨
تويني نخلة ٢٤
تيرر الباهو ٣٠٧

(ج)

الجابري احسان ٢٨٢
الجابري عمر ١٠٩ - ١٣٥
جالا بير لويس ٢٩١ - ٢٩٤
جراح ٢٠٢
الجراح محمد ٢٠٢
جرجس حنا ٢٠٨
الجزائري مختار ٢٦٩
جمال باشا ٢٥ - ٢٦ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٤ - ٢٥٩
الجميل شبلي ٢٨٢
الجميل سليمان ١٤٦
الجميل هنري ٣٠٥
الجميل يوسف ٢٧٤
جنبلاط محمود ٢٦٣
جهشان الياس ٣٠٠
جورج لويد ١٢٤
جونس مورغان ١٤٦
جونغ ١٦٢
جيلي ١٥٥

(ح)

الحجار حليم ٢٦٣
حسين الشريف ٢٦ - ٢٩ - ٢٥٩
حشيرة بطرس ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢
حمادة تامر ٢٦٣
حمادة توفيق ٢٨٢
حمادة سعاد ١٢٢
حمادة محمود ٢٧٦
حنا جورج ٢٦٢ - ٣١٥

حنبلاني الياس ٢٧٦
 حويك (البطريك) ٧٢ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥
 حويك سعدالله ١٢٢

(خ)

الغازن فيليب تعداد ٢٥٩
 الغازن يوسف ٣١٤
 خاطر لحد ٤٩ — ٥٠
 خاطر مرشد ٢٧٤
 خالدي ٢٤٠
 خوري اميل
 الخوري بشاره خليل ٦٨ — ٢٧٣
 الخوري بشاره عبدالله ٢٥٩
 الخوري رثيف ٢٦٠
 خوري عبدالله ٢٦٣
 الخوري عيسى مخايل ٢٦٦
 خوري فرنسوا ٧٠ — ٣١٥
 خوري مؤاد ٦٩
 خير الله خير الله ٢٤ — ٢٨٧ — ٣٠٥

(د)

دارك جان ١٦٢
 الداغستاني كاظم ٢٣٦
 دباس شارل ٣١٥
 دريد روسيان اغوست ٢٩٥
 دروبي علاء الدين ٤١
 الدقوني اسعد ٢٧٦
 دلكاسية ٢٣
 ردوس شبل ٢٦٦ — ٣١٤
 دهان بشاره ٢٠٥
 دوريو ٣٠ — ٧٨ — ٨٥ — ١٦٥
 دي جاردان موريس ٧٧ — ٧٨ — ٧٩ —
 دينز ٢٩
 ديكارت ١٦٢
 ديورلوسيان ٩٥

(ر)

رابليه ١٦٢

— ٣٤٨ —

راسين ١٦٣
 الراسي سلام ٨٦
 الراعي راجي ٢٩٠ — ٣٠٠
 رباط ادمون ٦٧ — ٧٤ — ١٠٩ — ١٧٢ — ٢٠٥ — ٢٦٠ — ٢٧٠ —
 ٢٩٨ ٣١٤
 الرحباني ابراهيم مقري ٣٢
 رشاد محمد ١١٩
 رضا رشيد ١٥٣ — ١٦٣ — ٢٨١ — ٢٨٢ — ٢٨٨
 رودنسون مكسيم ١٩ — ٣٥
 روسو ٣٠٥
 رياشي اسكندر ٨٣ — ٢٧٣ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٢٩٠ — ٢٩٧ —
 ٣١٥
 الريحاني امين ٣٩ — ٤٣

(ز)

زغلول سعد ٣٦
 زكور ميشال ٢٨٢ — ٢٩٨ — ٣٠٠
 زياده جوزف ٢٦
 زياده نقولا ١٧٢
 زيد الامير ٢٧ — ٣٨ — ٦٥ —
 زين زين ٣٣
 زينية الفونس ٢٧٣
 زينية خليل ٢٤

(س)

سادول جورج ٣١٢
 ساراي ٨٠ — ٨١ — ٨٤ — ١٢٤ — ١٦٨ — ١٨٠ — ١٨٣ — ١٨٤
 ١٨٥ — ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٢ — ٣٠٦ — ٣٠٩ —
 ٣١٢ — ٣١٧ —
 سالم جورج يوسف ٢٨٢ —
 ساموتراس ٢٧٤ —
 سايكس مارك ٢٩
 السباعي بدر الدين ١٢٦
 سرسق شارل ٢٧٥
 سركيس سليم ٢٦٧
 سرور الياس ٣٠٢
 سعادة خليل ٢٦٨
 سعد ميشال ٢٧٤
 سمعة جورج ٤٦

— ٣٤٩ —

سموتس ٦٣
سوبول البير ٢٠٦
سوشيه ٣١٤
سبله لوبس ٢٦٥

(ش)

شانتور ١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧
شاهين ٢٠٢
شاهين سير الطرزي ٢٠٢
شاهين طانيوس ١٩٤ — ٢٢٢
شاوي جوزف ٢٠٣
شحادة جويد الحاج ٨٦
شدياق ميشال ٢٧٦
شديد يوسف ٢٦٦
شرلمان ١٦٢
شقر نجيب ٢٨٢
شهاب نسيب ٢٧٤
شويري الياس ٢٦٢
شيحا ميشال ١٦٤ — ٢٠٥ — ٢٧٣
الشيخاني وديع ٣٠٥ — ٣٠٦

(ص)

صادر ميشال ٢٧٤
صالح ٢٠٢
صباغة سعيد ٢٩٨
صفا ايلي ١٥٣
صفي عبدالله ٧١ — ٧٤ — ٢٦٩ — ٢٧١
الصلح رياض ٦٠ — ٢٧١ — ٢٨٢

(ط)

طاهر الياس ٢٧٨
طبارة بهيج ٢٤٦
طراد بترو ٢٤
طعمة فريد ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٢ — ٣٠٣

(ع)

الغازور محمود ٨٦

عبد الحميد الثاني ١١٩ — ٢٦٠ — ٢٦٧
عبد الرزاق عبود ١٩٦ — ٢٤٤
عبد العزيز ١١٩
عبد المجيد ١١٩
عبد الملك فؤاد ٣٦٢
عرب اميل ٢٧٣
عزمي بك ٢٤٠
عسليه صلاح ١٥٠
عشي جورج ١٢٢
العظم حقي ٢٦٩
عقل خليل ٢٦٢
عماد طعان ٢٦٧ — ٢٨٢
عمون داود ٢٦٣ — ٢٨٣

(غ)

غامبيتا ١٦٥
غاملان ٨٠ — ٨٢
غانم شكري ٢٦٨
غريب خليل ٢٧٨
غريب ميشال ٢٠٦
غورو ٣٠ — ٣٨ — ٤١ — ٤٢ — ٥١ — ٥٩ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٨
— ٧٠ — ٧١ — ٧٥ — ٨٠ — ٨١ — ٩٥ — ١٠٨ — ١٢٤ —
— ١٢٥ — ١٢٦ — ١٣٥ — ١٤٣ — ١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧ —
— ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٤ — ٢٧٨ —
٣١٩
غوفتو — بيرون ١٣٦ — ١٤٧
غيز هنري ٥٠

(ف)

فرانس اناتول : ٣٠٠
فرجيل : ٣٠٠
فرنسيس الاول : ١٦٢
فرنسيس سعيد : ٨٦
فريج ايجان دو : ٢٧٣
فغالي ميشال : ٢٢٩
فلاندان اتيان : ١٩
فولتير : ٣٠٥
فياض هاني : ١٧٦
فيرجو : ١١٩
فيصل : ٢٦ — ٢٧ — ٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٤ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠

— ٤١ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ١٢٥ — ١٦٧ — ٢٦٢ — ٢٦٥ —
فينوس ميلو : ٢٧٤

(ق)

قدورة ٢٤٠
مرداحي شكري ٢٧٣
قرم شارل ١١٦ — ٢٧٣ — ٢٧٤
قشعبي الياس ٣٠٠ — ٣٠٢
قشوع اميل ٢٧٣

(ك)

كاترو : ١٣٥ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٧٠
كارييه ٨١
كاردون لوييس ٤٠٢
كاستيلاني ٢٢ — ١٣٨
كامل بشاره ٢٩٩ — ٣٠٢
كايل ليون ٥٢ — ١٨٣ — ١٨٤
كرم غطاس ٣٠٦
كريستاني ١٣٤
كحك ٢٠٢
كلومنييس ١٦٢
كليمنسو ٢٦ — ٣٠ — ٤٠ — ٧٢ — ١٢٤
كمال مصطفى ٣٦ — ٢٤١ — ٢٨٩
كنعان سليمان ٢٦٢ — ٢٨٢
كوانية جان ٢٣
كورنيل ١٦٣
كولان جاك ٣٠٧
كيرزون ٢٩
كينغ — كراين ٣٣ — ٢٦٣ — ٢٦٥

(ل)

لا ترون اندرية ٢٠٢
لافونتين ١٦٣
لامازير ١٨٤
لحود جميل ٢٧٤
لطف الله ميشال ٢٨١ — ٢٨٢
النبني ٢٩ — ٣٠ — ٣٤ — ٦٦ — ١٢٣ — ١٢٤ — ١٢٩
لوييس الرابع عشر ١٦٢

— ٣٥٢ —

لينغ جورج ٢٠
لينين ٣٥ — ٣٧ — ٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩٧ — ٣٠٠

(م)

مادويان ارتين ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٣٠١ — ٣٠٦ — ٣٠٧ — ٣١٠ —
٣١٢
ماركس كارل : ٢٨٩ — ٣٠٥
ماكدونالد رمزي ٢٧٧
ماكير سيريل ١٥٩
متي الياس ٣٠٥ — ٣٠٦
مجاعص داود ٢٨٧
محسن محمد ٢٦٢
المحمد كامل ٨٦
مراد محمد ٢٠٨
المرمري ٢٧٤
المرعبي عبود عبد الرزاق ٥٣
مزهري يوسف ٢٦٤
مسابكي بطرس ٢٧٤
مشرق فارس ٢٩٨
مطران يوسف ٩٤
مظهر شفيق ٢٩٩ — ٣٠٠
معتوق فارس ٣٠٢ — ٣٠٣
المعلوف جميل ٢٦٦
المنذر ابراهيم ٢٧٢ — ٣١٤
منيسي غبريل ١٢٢
مورنة ٨١
موريل ٨١
مبيوالبير ٣٢

(ن)

نابليون الثالث ٢٠
ناصر الدين علي ٣١٢
نعيم ادمون ٤٥
نفاع جبران ٣٠٦
نقاش الفريد ٢٧٣
نور الله سليم ٢٧٨

(هـ)

الهاني انيس ٢٧٥ — ٢٧٧

— ٣٥٣ —

(١)

ابل القمح ٨٦
اذربيجان ٢٩٣
ارغون ٣٠
ارمينيا ٢٩٣ — ٢٩٥ — ٣١١
استانة ٢٣ — ٢٦٠
استراليا ١١٦
اسكندنافيا ١١٦
اسيا ٢٢
اضنة ٢٩٥
افريقيا ٦٣ — ٦٦ — ٧٠ — ٧٥ — ١٥٢ — ١٦٩
اقليم التفاح ٤٥
اقليم الخروب ٤٥
اكروم ٤٦ — ١٩٧ — ١٩٨ — ٢٤٣
الارجنتين ٢٦٧
الاسكندرون : ٨٤ — ٨٥ — ٩٩ — ١٠٢ — ١٠٤ — ١٠٦ — ١٤٥
الامبراطورية العثمانية ١٩ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٣٢ — ٤٢ — ٥٠
٦٥
المانيا ٢١ — ٢٢ — ٩٦ — ١٠٨ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ — ١٤٩
امريكا ٢٤ — ٢٧ — ٣٢ — ١٢٧ — ١٥٢ — ١٥٤ — ١٦١ — ١٦٩
٢٦٥ — ٢٦٧ — ٢٦٨
امريكا الجنوبية : ٥٠ — ١٥٢
اميون : ٣١٢
الاناضول : ١٢٠ — ٢٠٤ — ٢٥٩
انفة : ٤٧
انطلياس : ٤٧ — ٢٩٩

الهاني يوسف ٢٤
هبة نمر ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٩٦
هنانو ابراهيم ٣٧
هوفلان ٤٧ — ١٠٠ — ١٠٢
هيجو ٣٠٠
هيكازيان ستراك ٢٩٥
هيكل فيليب ٢٧٨

(٩)

وايزمن ٢٦
ويلرس جاك ٩٥
ويلسون ٣١ — ٣٢ — ٣٣
ويغان ٧٣ — ٨٠ — ٨١ — ٨٢ — ٨٥ — ١١١ — ١٢٤ — ١٣٦ — ٢٩٧ ١٨٤

(ي)

اليازجي ابراهيم ٢٦١
اليازجي توفيق ٢٨٢
اليافي عبدالله ١٦٨
يرتيزيان ارام ٢٩٥
يزيك الياس ١٥٩
يزيك الياس ١٥٩
يزيك يوسف ابراهيم ١٥٣ — ٢٨٧ — ٢٨٨ — ٢٩٠ — ٢٩١ — ٢٩٩
٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٢ — ٣٠٣ — ٣٠٥ — ٣٠٦
٣١٢ — ٣٠٧
اليوسف خلف ٨٦
اليوسف كامل حسين ٨٦

انكثرة : ٢٢ — ٢٩ — ٣٠ — ٣٥ — ١١٢ — ١١٤ — ١٤٩ — ٢٦٨
 اهدن : ٤٦ — ١٨٢
 اوروبيا : ١٩ — ٢٢ — ٢٧ — ٣١ — ٣٥ — ٤٠ — ٥٩ — ١٢٠ —
 ١٢١ — ١٢٧ — ١٦١ — ١٦٤ — ٢٤١ — ٢٦٨
 ايران : ٢٣ — ١٠٨ — ١١٦ — ١٤٩ — ٣٢٠ —
 ايطاليا : ٢١ — ٢٢ — ٣٩ — ٤٠ — ٩٧ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ —
 ١١٦ — ١٢٦ — ١٤٩ — ١٨٢ — ٢٢٦ — ٢٦٨

(ب)

الباروك : ٢٣
 باريس : ٢٤ — ٢٧ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٧ — ٣٨ — ٦٣ — ٦٨ — ٧٣
 ٧٦ — ٨٨ — ٨٩ — ٩٤ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٢٩ — ١٣٠ —
 ١٣١ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٤٠ — ١٧٥ — ١٨٤ — ١٨٥ — ٢٦١ —
 ٢٦٧ — ٢٦٨ — ٢٨٣ — ٢٩٧ — ٢٩٩ — ٣٠٤ — ٣١٢ — ٣١٣
 ٣١٤ — ٣١٧
 باثياس : ٢٨٣ —
 بترون : ٢٦ — ٤٥ — ٤٦ — ٥٢ — ٨٤
 بترون السفلى : ٤٦
 بترون العليا : ٤٦
 بترون الوسطى : ٤٦
 بحدون : ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٦ — ٢٦٦ —
 بر الياس : ١٩٧
 برلين : ١١٠
 بريفة : ٥١
 برمانا : ١٤٤ — ١٥١ — ١٥٦
 بروكسل : ١١٠
 بريطانيا : ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٣ — ٢٦ — ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ —
 ٣١ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٩ — ٤٠ — ٤٢ — ٩٣ —
 ٩٦ — ٩٧ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ٢١٦ — ٢٦٥
 ٢٧٦ — ٢٧٧ — ٢٨٣
 بسكتنا : ٤٥ — ٢٩٩ —
 بشري : ٤٥ — ٤٦ — ١٨٢
 بعبد : ٥٢ — ١٧٧
 بعلبك : ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٦ — ١٣٤ — ١٤٥
 بغداد : ٦٥ — ١٠٧ — ١٤٦ — ١٥٠ —
 البقاع : ٢٤ — ٢٥ — ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ —
 ٥٨ — ١٢٢ — ١٣٤ — ١٥٦ — ١٨٧ — ١٩٦ — ١٩٧ — ١٩٨ —
 ٢٠١ — ٢٠٢ — ٢٠٥ — ٢٠٨ — ٢١٨ — ٢٤٩ — ٢٥٢ — ٣١٩
 البقاع الغربي : ٥٦
 البقيعة : ٥١ — ٥٣ — ١٩٦ — ١٨٧ — ٢٤٣ — ٢٥٢
 بكركي : ١٨٥ — ١٩٥ — ٢٩٩
 بكيا : ٢٤ — ٤٧ — ١٥٦ — ١٧٧ — ٢٧٨ — ٢٩١ — ٢٩٩

بلجيكا : ٩٥ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦
 بوسطن : ٢٨٢
 بونس ايرس : ٢٦٧
 بيت شباب : ٤٧ — ٤٨ — ٢٩٩
 بيت مري : ٢٨
 بيروت : ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٣٣ — ٣٨ — ٤٦ — ٤٧ — ٤٨ —
 ٤٩ — ٥١ — ٥٢ — ٥٤ — ٥٥ — ٥٨ — ٦٠ — ٦١ — ٦٦ — ٦٨ —
 ٦٩ — ٨٠ — ٨٢ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٧ — ٩٣ — ٩٤ — ٩٥ — ٩٦ —
 ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٣ — ١٠٥ — ١٠٦ —
 ١٠٧ — ١٠٨ — ١١٠ — ١١١ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ —
 ١١٧ — ١٢٢ — ١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٢٩ — ١٣٠ —
 ١٣٢ — ١٣٤ — ١٣٥ — ١٣٦ — ١٣٨ — ١٣٩ — ١٤١ — ١٤٣ — ١٤٤ —
 ١٤٥ — ١٤٦ — ١٤٧ — ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٢ — ١٥٤ — ١٥٦ —
 ١٥٧ — ١٥٩ — ١٦٠ — ١٦٣ — ١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧ —
 ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧٢ — ١٧٦ — ١٧٧ — ١٧٨ — ١٨٢ —
 ١٨٤ — ١٨٧ — ١٨٨ — ١٩٤ — ١٩٥ — ١٩٩ — ٢٠١ — ٢١١ —
 ٢١٤ — ٢١٦ — ٢١٧ — ٢٢٢ — ٢٢٥ — ٢٢٦ — ٢٢٧ — ٢٣٥ —
 ٢٣٨ — ٢٣٩ — ٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٥٠ — ٢٥٤ — ٢٥٩ — ٢٦٥ —
 ٢٦٦ — ٢٧٣ — ٢٧٥ — ٢٧٧ — ٢٧٨ — ٢٨٢ — ٢٨٤ — ٢٨٥ — ٢٨٧ —
 ٢٨٩ — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٢٩٧ — ٢٩٨ —
 ٢٩٩ — ٣٠٣ — ٣٠٥ — ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣ — ٣١٧ —
 ٣١٩ — ٣٢٠ — ٣٢١ — ٣٢٢
 بيسان : ٥١

(ت)

تدمر : ١٥٠
 تركيا : ٢١ — ٢٥ — ٢٧ — ٤٩ — ٦٤ — ٦٥ — ٨٢ — ٨٥ — ٩٣ —
 ١٠٥ — ١٠٧ — ١١٠ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ —
 ١١٩ — ١٢٠ — ١٢٦ — ١٣٠ — ١٣٧ — ١٣٨ — ١٦١ — ٢٤١
 ترنك : ٨١
 تشيكوسلوفاكيا : ١١٦
 تل حياة : ٥٣
 توغلند : ٦٣
 تونس : ١٩ — ٢٠ — ٦٩ — ٨٨ — ١١١

(ج)

جبانة الخشب : ٨١
 جبة بشري : ٤٧
 جبل الدروز : ٦٦ — ٨٧ — ١٨٧
 جبل الريحان : ٤٥

جبل لبنان : ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٢٧ — ٢٨ — ٢٩ — ٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠ — ٤١ — ٤٥ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥٠ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٥ — ٥٨ — ٦٠ — ٦٥ — ٧٠ — ٩٧ — ١٢٢ — ١٢٥ — ١٣٤ — ١٣٦ — ١٣٩ — ١٤٥ — ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٢ — ١٥٤ — ١٥٩ — ١٦١ — ١٦٢ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٨٥ — ١٨٧ — ١٩٤ — ١٩٥ — ٢٠٠ — ٢٠٥ — ٢٠٧ — ٢١٢ — ٢١٦ — ٢١٧ — ٢١٨ — ٢٢٤ — ٢٢٧ — ٢٢٩ — ٢٣٨ — ٢٣٩ — ٢٤٢ — ٢٤٦ — ٢٥٠ — ٢٥٣ — ٢٥٥ — ٢٥٦ — ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٦ — ٢٧٥ — ٢٧٨ — ٣١٦ — ٣٢١ — ٣٢٢

جبل موسى : ٢٩٥
جبيل السفلى : ٤٦ — ٨٤
جبيل العليا : ٤٦
جديدة قنوبين : ٢٦٣
جديدة مرجعيون : ١٨٢
جرد المبري : ٢٠١
جرد جبيل : ٤٦
الجرد الجنوبي : ٤٥
الجرد الشمالي : ٤٥
جرد كسروان : ٤٦
الجزائر : ١٩ — ٦٩ — ٨٨ — ١١١ — ١٦٧
الجزيرة العربية : ١٠٥ — ١٤٩
جزين : ٤٥ — ٤٧ — ٤٨ — ٥٨ — ١٥٠ — ٢٤٣ — ٢٤٩
جسر القمر : ٥١ —
جنفلة : ٨١
الجنوب : ٢٠٥ — ٢٠٨
جنوب افريقيا : ٦٣
جنيف : ٢٨ — ٢٢٧ — ٢٧٠ — ٢٨١ — ٢٨٣ — ٢٩٢
جونيه : ٤٦ — ٤٧ — ٨٤ — ١٧٧

(ح)

حاربنا : ٥١
حاصبيا : ٥١ — ٥٢ — ٥٦ — ٨٧ — ١٤٥ — ٢٤٣ — ٢٤٥ — ٢٤٩
٢٧٨ — ٢٨٣ — ٣١٩
الحجاز : ٣٤ — ١١١
الحدث : ٤٧
حرمون : ٢٤٣
حشمش : ٢٠٨
حصرون : ٤٦
حلبا : ١٤٦
حلب : ٦٦ — ٩٤ — ٩٥ — ١٠٠ — ١٠٢ — ١٠٥ — ١٠٦ — ١١٦

١٢٩ — ١٣٤ — ١٩٩ — ٢٩٢ — ٢٩٥ — ٣١٠ — ٣١٢ — ٣٢٠ —
حمنا : ١٧٧
حماة : ١٠٠ — ١١١ — ١٣٦ — ٢٧٧ — ٢٨٤
حمص : ١٠٠ — ١٢٩ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٦
حوران : ١٢٢
حوشب : ٥٣
حولة : ٨٥ — ٨٦ — ٢٨٣
الحيصا : ٥٣
حيفا : ١٠٢ — ١١١

(خ)

الخالصة : ٨٦
خان الدوير : ٨٦
الخصاص : ٨٦
الخليج العربي : ١٩
الخنشلة : ٤٧ — ٢٩٩ — ٣٠٣

(د)

دارين : ٥٣
الدامور : ٤٧ — ٢١٤ — ٢٧٨ — ٢٧٩
دريب : ٢٤٥ — ٢٤٩
دفنة : ٨٦
دمشق : ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٤١ — ٤٦ — ٥٣ — ٦٥ — ٦٦ — ٨٠ — ٨١ — ٨٧ — ٩٤ — ٩٥ — ١٠٠ — ١٠٦ — ١٠٨ — ١١١ — ١١٥ — ١١٦ — ١٢٥ — ١٢٩ — ١٣٤ — ١٣٦ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٥٠ — ١٥٦ — ١٦١ — ١٦٣ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٦٥ — ٢٦٩ — ٢٧١ — ٢٧٤ — ٢٧٧ — ٢٨٢ — ٢٨٤ — ٢٩٢ — ٢٩٨ — ٣٢٠
الدوارة : ٨٦
دير الزور : ٢٩٢
دير القمر : ٤٥ — ٤٦ — ٥٢
دير ميهاس : ٨٧

(ذ)

الذوق : ٢٦ — ٤٦
الذوق التحتاني : ٨٦
الذوق الفوقاني : ٨٦

٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٤٤ — ٢٥٣ — ٢٥٩ — ٢٦٠ — ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٤ —
 — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٨ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٢ —
 ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٢٨١ — ٢٨٢ — ٢٨٤ — ٢٩٣ —
 — ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٩ —
 ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣ — ٣١٦ — ٣١٧ — ٣١٨ — ٣١٩ — ٣٢٠.

سوق الغرب : ١٥١
 السويداء : ٨١ — ١٤٥ — ٣٢٠

(ش)

الشام : ٤١
 شتورة : ١٤٥
 الشنار : ٤٥
 الشرق الاوسط : ٢٣ — ٤٢ — ١٦٩ — ١٨٥
 شرق الاردن : ١٠٧ — ١٨٩
 الشرق الاقصى : ١٦٩
 شمسطار : ٤٥
 الشوف : ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥٢ — ٥٨ — ٨١ — ١٩٩
 الشوفين : ٤٥
 الشوير : ٤٥ — ٤٧ — ٣٠٣
 الشويفات : ٢٤٥ — ٢٤٩
 الشياح : ٢٩٩ — ٣٠٣
 شيخانة : ٨١
 الشيلي : ٢٨٢

(ص)

الصالحية : ٨٦
 صور : ٢٥ — ٤٦ — ٥١ — ٥٢ — ٥٤ — ٥٥ — ٨٤ — ٩٩ — ١٠١ —
 — ١٠٢ — ١٤٥ — ٢٠١ — ٢١٤ — ٢٤٩ — ٣١٩
 صوفر : ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٦
 صيدا : ٢٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٥ — ٩٥ — ٩٩ — ١٠٢ —
 — ١٢٩ — ١٤٥ — ٢١٤ — ٢٤٩ — ٣١٩

(ض)

الضنية : ٤٦ — ٢٤٣
 ضهور الشوير : ١٥١ — ١٥٦ — ٢٩٩

— ٣٦١ —

(ز)

رأس العين : ٢٠١
 راشيا : ٤٦ — ٥١ — ٥٢ — ٥٦ — ٢٤٣ — ٢٤٩ — ٣١٩
 رعيت : ٢٠٩
 الرقة : ٣١٢
 روسيا : ٢٢ — ٢٨ — ٣٦ — ١١٢ — ٢٨٨ — ٢٨٩
 روثة : ٢٦ — ٣٥
 روما : ١٦٠
 رومانيا : ١١٦
 الروملي : ١٢٠ — ٢٠٤ — ٢٥٩
 ريباق : ١٤٤ — ٢٠٨ — ٢٠٩

(ز)

الزاوية : ٤٦ — ٤٧ — ٢٤٥ — ٢٤٩
 زحلة : ٢٤ — ٤٥ — ٤٧ — ٤٩ — ٥٢ — ٥٧ — ٥٨ — ١٢٩ —
 ١٤٥ — ١٨٣ — ٢٦٦ — ٢٧٩ — ٢٩٠ — ٢٩١ — ٢٩٥ — ٢٩٩ — ٣١٠ —
 ٣١٢ — ٣١٧
 زغرتا : ٤٥ — ٥٢
 الزوية : ٨٦

(س)

سان ريمو : ٢٤ — ٣٠ — ٣٤ — ٣٩ — ٤٠ — ٦٤ — ٢٦٤ — ٢٧٠ —
 ٣٢١ —
 جزيرة سموا : ٦٣
 السودان : ١٩
 سوريا : ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٢٧ — ٢٨ —
 — ٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ —
 — ٤٠ — ٤١ — ٤٢ — ٤٣ — ٤٩ — ٥٠ — ٥٢ — ٥٣ — ٦١ — ٦٣ —
 ٧٥ — ٧٤ — ٧٣ — ٧٢ — ٧٠ — ٦٩ — ٦٨ — ٦٧ — ٦٦ — ٦٥ — ٦٤ —
 ٨٧ — ٨٥ — ٨٤ — ٨٣ — ٨٢ — ٨١ — ٨٠ — ٧٩ — ٧٨ — ٧٦ —
 ١٠٤ — ١٠٣ — ١٠٢ — ٩٩ — ٩٨ — ٩٧ — ٩٤ — ٩٣ — ٨٩ — ٨٨ —
 ١١٣ — ١١٢ — ١١١ — ١١٠ — ١٠٩ — ١٠٨ — ١٠٧ — ١٠٦ — ١٠٥ —
 — ١٢٥ — ١٢٤ — ١٢٣ — ١٢٢ — ١٢١ — ١٢٠ — ١١٥ — ١١٤ —
 ١٣٤ — ١٣٣ — ١٣٢ — ١٣١ — ١٣٠ — ١٢٩ — ١٢٨ — ١٢٧ — ١٢٦ —
 — ١٤٧ — ١٤٦ — ١٤٤ — ١٤٠ — ١٣٩ — ١٣٧ — ١٣٦ — ١٣٥ —
 ١٦٥ — ١٦٤ — ١٦٣ — ١٦٢ — ١٦١ — ١٥٩ — ١٥٥ — ١٥٤ — ١٤٨ —
 — ١٨٢ — ١٨٠ — ١٧٩ — ١٧٧ — ١٧١ — ١٦٨ — ١٦٧ — ١٦٦ —
 ٢٣٩ — ٢١٤ — ٢٠٩ — ٢٠٨ — ٢٠٧ — ٢٠١ — ١٩٦ — ١٨٩ — ١٨٧

— ٣٦٠ —

(ب)

طرابلس : ٢٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٥ — ٥٦ —
٥٧ — ٨٤ — ٩٥ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٦ — ١١٢ —
١١٣ — ١١٤ — ١٢٢ — ١٢٩ — ١٣٤ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٦ — ١٧٧ —
١٨٢ — ١٩٩ — ٢٠٤ — ٢١٤ — ٢٤٩ — ٢٨٨ — ٢٩١ — ٣٠٣ — ٣١٩ —
طهران : ١٠٧ — ١٤٦ —
الطبية : ٨٧

(ع)

العاقورة : ٢٤٩ —
عاليه : ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٦ — ١٧٧ — ٢٤٩ —
العباسية : ٨٦ —
عبدلي : ٢٦ —
العبد : ١٤٦ —
عبرين : ٢٦ —
العرقوب الاعلى : ٤٥ —
العرقوب الشمالي : ٤٥ —
العرقوب الجنوبي : ٤٥ —
عزرا : ١٤٦ —
عكار : ٢٥ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٦ — ٥٧ — ١٢٢ —
١٩٦ — ١٩٧ — ١٩٨ — ٢٠٤ — ٢٠٨ — ٢٤٣ — ٢٤٤ — ٢٤٨ —
٢٤٩ — ٢٥٢ — ٣١٩ —
علي النهري : ٢٠٩ —
عنجر : ٢٩١ —
عينطورة : ١٧٧ —
العراق : ٢٩ — ٣١ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٦٨ —
١٠٥ — ١٠٧ — ١٦٦ — ١٤٩ — ١٥٠ — ١٦٣ — ١٨٩ — ٢٨٢ — ٣٢٠

(غ)

الغرب الاعلى : ٤٥ —
الغرب الاقصى : ٤٥ —
الغرب الشمالي : ٤٥ —
غوسطا : ٤٦ —

(ف)

فارس : ١٠٥ —

— ٣٦٢ —

نالوغا : ٢٦٦

الفتوح : ٤٦

فرنسا : ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٧ — ٢٨ —
٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — ٣٦ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠ —
٤٩ — ٦٧ — ٧٠ — ٧٢ — ٧٣ — ٧٤ — ٧٥ — ٧٨ — ٧٩ — ٨٢ —
٨٥ — ٨٦ — ٨٨ — ٨٩ — ٩٣ — ٩٦ — ٩٧ — ١٠٠ — ١٠١ —
١٠٦ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ —
١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٣٠ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٣٧ —
١٣٨ — ١٣٩ — ١٤٣ — ١٤٧ — ١٤٩ — ١٥٩ — ١٦٤ — ١٦٥ —
١٦٦ — ١٧٧ — ١٧٩ — ١٨٤ — ١٨٥ — ١٨٦ — ١٨٨ — ٢٠٤ —
٢٠٦ — ٢١٦ — ٢٢٦ — ٢٥٩ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥ —
٢٦٨ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٢ — ٢٧٣ — ٢٧٤ — ٢٧٦ —
٢٧٧ — ٢٨٢ — ٢٨٣ — ٢٨٤ — ٢٩٢ — ٢٩٨ — ٣١٤ — ٣١٦ — ٣٢١

فرساي : ٨٥ — ٢٦٤

فرن الشباك : ٤٧ — ٢٨٥

فلسطين : ٣١ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٥١ — ٨٥ —
٨٦ — ١٠٢ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١١٦ — ١٥٥ — ١٦١ — ١٨٩ —
٢٥٩ — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧٨ — ٢٨١ — ٢٨٣ —
٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩٠ — ٢٩٨ —
فنلندا : ١١٦ —
فينيقيا : ٢٧٤

(ق)

قاديشا : ٤٦ —
قاسيون : ٢٩٨ —
القاطع : ٤٥ —
القاهره : ٦٦ — ٢٦٧ — ٢٨٢ —
القببات : ١٤٦ — ١٨٢ —
القسطنطينية : ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٤ — ١٦١ —
القلبون : ٢٨٨ —
القلبيعة : ٨٧ —
قنات : ٤٦ —
قنيطرة : ٤١ — ٨١ — ١٤٥ — ٢٨٣ —
القويطع : ٤٦ —

(ك)

الكاميرون : ٦٣ —
كسروان : ٤٥ — ٥٢ — ٥٨ — ١٩٥ — ١٩٩ — ٢٠٤ —
كفر كلا : ٨٧ —

— ٣٦٣ —

كفر ملكي : ٨٧
الكورة : ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥٤ — ٢٤٥
الكورة الشمالية : ٤٦
الكورة الوسطى : ٤٦
كوريز : ٨٨
كيليكيا : ٣٠ — ٣٦ — ٣٨ — ٦٥ — ٨٢ — ١٠٧ — ٢٩٢

(ل)

اللاذقية : ٨٤ — ٩٥ — ٩٩ — ١٠٢ — ٣٢٠

لبنان الجنوبي : ١٨٧

لبنان الشمالي : ١٨٧

لبنان الكبير : ٣٤ — ٤١ — ٤٢ — ٤٣ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤

٥٧ — ٥٨ — ٥٩ — ٦٠ — ٦١ — ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٧

٧٨ — ٧٩ — ٨٠ — ٨١ — ٨٢ — ٨٣ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٧ — ٨٨ — ٨٩

٩٠ — ٩١ — ٩٢ — ٩٣ — ٩٤ — ٩٥ — ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠٢ — ١٠٣

١٠٤ — ١٠٥ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١١

١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ — ١١٧ — ١٢٠ — ١٢١

١٢٢ — ١٢٣ — ١٢٤ — ١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٢٩

١٣٠ — ١٣١ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٣٤ — ١٣٥ — ١٣٦ — ١٣٧ — ١٣٨

١٣٩ — ١٤٠ — ١٤١ — ١٤٢ — ١٤٣ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٦

١٤٧ — ١٤٨ — ١٤٩ — ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٣ — ١٥٤ — ١٥٥

١٥٦ — ١٥٩ — ١٦١ — ١٦٢ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٧

١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧١ — ١٧٢ — ١٧٣ — ١٧٥ — ١٧٧

١٧٨ — ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨١ — ١٨٢ — ١٨٣ — ١٨٤ — ١٨٥

١٨٦ — ١٨٧ — ١٨٨ — ١٨٩ — ١٩٠ — ١٩٦ — ١٩٧ — ١٩٨

١٩٩ — ٢٠٠ — ٢٠١ — ٢٠٢ — ٢٠٣ — ٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٠٦

٢٠٧ — ٢٠٨ — ٢٠٩ — ٢١٢ — ٢١٤ — ٢١٥ — ٢١٦ — ٢٢١

٢٢٢ — ٢٢٩ — ٢٣٢ — ٢٣٦ — ٢٣٨ — ٢٣٩ — ٢٤٠ — ٢٤١

٢٤٢ — ٢٤٤ — ٢٤٦ — ٢٥٢ — ٢٥٣ — ٢٥٥ — ٢٥٦ — ٢٥٩

٢٦٠ — ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧

٢٦٨ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٢ — ٢٧٣ — ٢٧٤ — ٢٧٥

٢٧٦ — ٢٧٧ — ٢٧٨ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٢٨١ — ٢٨٢ — ٢٨٣

٢٨٤ — ٢٨٥ — ٢٨٧ — ٢٨٨ — ٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٣ — ٢٩٤

٢٩٥ — ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٢ — ٣٠٣

٣٠٤ — ٣٠٦ — ٣٠٨ — ٣٠٩ — ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣

٣١٤ — ٣١٥ — ٣١٦ — ٣١٧ — ٣١٨ — ٣١٩ — ٣٢٠ — ٣٢١

٣٢٢

اللزارة : ٨٦

لندن : ٢٩ — ١٢٩

— ٣٦٤ —

لوزان : ٢٢ — ١١١ — ١٣٧ — ٢٩٢
ليون : ٢٣ — ١٦٠

(م)

مار نعمة : ٢٦

مقربة : ٥١

المتن : ٤٥ — ٥٢ — ٥٨ — ١٩٩ — ٢٤٩

المتن الاعلى : ٤٥

مراكشي : ٢٠ — ٨٨

مرج : ٢٠٢

مرجعيون : ٢٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٣ — ٥٥ — ٨٥ — ٨٦

٨٧ — ١٤٥ — ١٧٧ — ٢١٤ — ٢٤٣ — ٢٤٩ — ٢٧٨ — ٢٨٣

٣١٩

مرسيليا : ١٠٤ — ٣١٢

مزرعة الشوف : ٨١

مسا : ٢٠٩

المسعودية : ٥٣

مشغرة : ٢٣٤

مصر : ١٩ — ٢٧ — ٣١ — ٣٦ — ٣٨ — ٥٠ — ٩٣ — ١٠١

١٠٨ — ١١٠ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٦ — ١٢٦ — ١٥٢

١٥٤ — ١٦٣ — ١٨٩ — ٢٤٠ — ٢٦٠ — ٢٦٥ — ٢٦٧ — ٢٦٩

٢٨٢ — ٢٨٨ — ٢٩١

مصرعة : ٥١

المطلة : ٨٦

المعالمين : ١٤٤

المعلقة : ٥١ — ٥٢

المغرب : ٢٠ — ٦٦ — ٦٩

مغروود : ٢٨

المناصف : ٤٥

النصورة : ٨٦

المنيطرة : ٤٦

مهجر : ٨١

موسكو : ٢٩ — ٣٥

الموصل : ٢٣ — ٣٠ — ٣٤ — ١١٠

ميسلون : ٣٨ — ٣٩ — ٤١ — ٦٥ — ٦٦ — ٧٣ — ٧٥ — ٧٨

٨١

(ن)

نابلس : ٢٨٢

الناصرية : ٢٠٩

— ٣٦٥ —

فهرس الموضوعات

	٧٨٦
الاهداء	
صفحة	
٣	
١٧	الباب الاول : من لبنان الصغير الى لبنان الكبير
١٩	الفصل الاول : سياسة الوفاق الاستعماري في الشرق الاوسط وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان
٤٥	الفصل الثاني : من المتصرفية الى لبنان المعاصر ، توازن من نوع جديد
٦٣	الفصل الثالث : صك الانتداب في التطبيق العملي
٩١	الباب الثاني : بيروت تحجب لبنان وجميع دويلات الانتداب الفرنسي
٩٣	الفصل الاول : تجارة بيروت قلب الانتداب النابض
١١٩	الفصل الثاني : ربط الاقتصاد اللبناني بمجلة الفرنك الفرنسي والشركات الفرنسية في بيروت
١٤٣	الفصل الثالث : ولادة قطاع جديد : الاصطياف في جوار بيروت
١٥٩	الفصل الرابع : التعليم الخاص يهيمن على التعليم الرسمي

الناعمة : ٨٦
 الناقورة : ١٤٤ - ١٤٥
 النبطية : ٢٤٩
 النجف : ١٦٣
 نجد : ١٠٧ - ١٠٨
 النخيلة : ٨٦
 النمسا : ٢١ - ١٠٨ - ١١٢ - ١١٦
 نهر الذهب : ٢٦
 نيويورك : ٢٦٦ - ٢٦٧

(d)

الهرمل : ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٥٢ - ٥٦ - ٥٧ - ١٩٧ - ١٩٨ -
٢٤٦ - ٢٤٣ - ٢١٨
الهند : ١٩ - ٢٩ - ٤٣ - ١٠٨ - ١١٤
الهند الصينية : ٦٦ - ٦٩ - ٧٠
هولندا : ١١٦
هونين : ٨٦

(9)

وادي التيم : ٢٥
 وادي شحرور : ٤٧
 واشنطن : ٣٤
 الولايات المتحدة : ٢٢ — ٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — ٥٠ —
 ١١٣ — ١١٢ — ١١١ — ١١٠ — ١٠٨ — ١٠٦ — ١٠١ — ٩٦ — ٦٣ —
 ١٤٩ — ١٤٧ — ١٢٦ — ١٢١ — ١٢٠ — ١١٦ — ١١٥ — ١١٤ —
 ٢٦٩ — ١٨٩ — ١٨٤ — ١٧٥ — ١٦٨ — ١٦٧ — ١٦٦ — ١٦٠

(۷)

يريفان : ٢٦٥
اليمن : ١٩ - ٢٩
يونين : ١٩٧

١٩١	الباب الثالث : الارياض اللبنانية في مطلع عهد الانتداب
١٩٢	الفصل الاول : سياسة الانتداب بدعم مركز كبار الاقطاعيين في الريف اللبناني
٢٢١	الفصل الثاني : ملامح من الحياة الاجتماعية اللبنانية
٢٥٧	الباب الرابع : الحركة السياسية في لبنان : من الحكم المباشر الى الديمقراطية الشكلية (١٩٢٦ - ١٩١٨)
٢٥٩	الفصل الاول : بين الرفض المطلق والتبعية الكاملة للانتداب (١٩٣٠ - ١٩٢٤)
٢٨٧	الفصل الثاني : مرحلة النضال الديمقراطي العام وولادة الدستور والجمهورية في لبنان (١٩٢٦ - ١٩٢٤)
٣١٩	خاتمة
٣٢٢	مكتبة البحث
٣٢٥	مراجع باللغة العربية
٣٢٩	جرائد ومجلات باللغة العربية وردت اسماؤها في الكتاب
٣٣١	مراجع باللغة الاجنبية
٣٤٥	فهرس الاعلام
٣٥٥	فهرس الاماكن

